شرح

كتاب التوحيد

من صحيح البخاري

٢

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغنيمان ، عبد الله محمد

شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ــ الرياض .

٦٨٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم .

ردمك ١ـ٤٩ـ٨٣٧ـ٩٩٦٠ (مجموعة)
٣ـ٥١ـ٨٣٧ـ٩٩٦٠ (ج ٢)

١ ــ التوحيد ٢ ــ الحديث ــ مباحث عامة أ ــ العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٢/٢١٢٦

رقم الإيداع: ٢٢/٢١٢٦
ردمــــك: ١ـ٤٩ـ٨٣٧ـ٩٩٦٠ (مجموعة)
٣ـ٥١ـ٨٣٧ـ٩٩٦٠ (ج ٢)

الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الصف والإخراج دار العاصمة للنشر والتوزيع

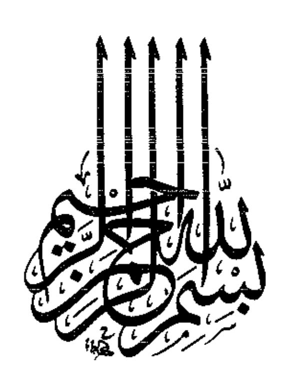
دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

شرح
كتاب التوحيد
من صحيح البخاري

تأليف
عبد الله بن محمد الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الثاني

دار العاصمة
للنشر والتوزيع



قال: باب قولُ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة، ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة جميلة من النعيم، يقال: نَضُر وجه فلان: إذا حسن من النعمة، ونضَّرَ الله وجهه: إذا حسنه كذلك»[(٢)].

ثم روى ذلك بأسانيده عن المفسرين من السلف.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تلك الوجوه النضرة، تنظر بأبصارها إلى ربها، وذلك أعلى نعيم الآخرة.

روى ابن جرير، عن عكرمة، والحسن، وعطية العوفي: ينظرون إلى ربهم.

روي عن مجاهد، وأبي صالح: تنتظر ثواب ربها.

ثم قال: والصواب القول الأول: أنها تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله -ﷺ-

حدثني علي بن الحسين بن أبجر، قال: حدثنا مصعب بن المقدام، قال: حدثنا إسرائيل بن يونس، عن ثوير، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إنْ أدنى أهل الجنة منزلة، لَمَن ينظر في مُلْكه ألفي سنة -قال- وإن أفضلهم منزلة، لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين» ثم تلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال: البياض، والصفاء، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾تنظر كل يوم في وجه الله -عز وجل-».

حدثنا محمد بن منصور الطوسي، وإبراهيم بن سعيد الجوهري، قالا: حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، قال: حدثنا الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي[(٣)]، عن عكرمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال: تنظر إلى ربها نظراً.

حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: سمعت أبي يقول: أخبرني الحسن بن واقد، في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أخبرني يزيد النحوي، عن عكرمة، وإسماعيل بن أبي خالد، وأشياخ من أهل الكوفة، قال: تنظر إلى ربها نظراً.

---

(١) الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة القيامة.

(٢) انظر: «تفسير ابن جرير» (٢٩/ ١٩١).

(٣) هو يزيد بن أبي سعيد، أبو الحسن، القرشي بالولاء، المروزي، ثقة عابد. قتل ظلماً سنة إحدى وثلاثين ومائة، انظر: «التقريب» (٢/ ٣٦٥) و «تهذيب التهذيب» (١١/ ٣٣٢).

حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، قال: حدثنا آدم، قال: حدثنا المبارك عن الحسن، في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسنة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضّر وهي تنظر إلى الخالق[1].

وقال ابن كثير: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾من النضارة، أي: حسنة بهية مشرقة مسرورة: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري في «صحيحه»: «إنكم ستَرَوْن ربكم عَياناً» [أي: معاينة ينظرون إليه].

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله -عز وجل- في الدار الآخرة، في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها، ولا منعها»[2] ثم ذكر طرفاً منها.

وقال البغوي: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: حسنة، وقال مجاهد: مسرورة، وقال ابن زيد: ناعمة، وقال مقاتل: بيض يعلوها النور، وقال السدي: مضيئة، وقال يمانٌ: مسفرة، وقال الفراء: مشرقة بالنعيم، يقال: نضر الله وجهه، ينضر نضراً، ونضره الله، وأنضره، ونَضُر وجهه، ينضر نضرة ونضارة، قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[3].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾قال ابن عباس، وأكثر الناس: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب.

قال الحسن: تنظر إلى الخالق، وحق لها أن تنضّر وهي تنظر إلى الخالق.

ثم روى بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه، وخدمه، وسرره، مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية» ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٩/ ١٩٢-١٩٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٠٤).

(٣) الآية ٢٤ من سورة المطففين.

(٤) تفسير البغوي على هامش الخازن (٧/ ١٨٥-١٨٧).

وهذا الحديث هو الذي نقلته عن تفسير الطبري قريباً، وفيه ثوير بن أبي فاختة، سعيد بن جهمان، ضعيف، قال الحافظ: «أطبقوا على تضعيفه»(١).

وقال ابن عدي: «أثرُ الضعف بَيِّنٌ على رواياته، وهو إلى الضعف أقرب منه إلى غيره»(٢).

وهذا لا يمنع من الاستشهاد بحديثه، كما هي طريقة العلماء فيما لا يخالف الثابت الصحيح، بل يوافقه.

وفي «الدر المنثور»: «أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، في قوله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى وجه ربها»(٣).

وذكر أحاديث في ذلك وآثاراً كثيرة.

والأحاديث في رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة كثيرة جداً، وقد تواترت عن رسول الله -ﷺ- وتلقاها أتباعه بكل قبول وارتياح وانشراح لها، وكلهم يرجو ربه ويسأله أن يكون ممن يراه في جنات عدن، يوم يلقاه.

ولم يرد هذه الأحاديث إلا أهل البدع والضلال، الذي اعتاضوا بهداية كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- آراءً فاسدة، زعموا أنها معقولات، وهي ضلالات وجهالات وشبهات، كما سيأتي بيان ذلك، إن شاء الله تعالى.

وقد أفرد كثير من أهل السُّنَّة هذه المسألة بمؤلفات خاصة.

قال البيهقي: «لا يخلو النظر أن يكون الله -تعالى- عنى به: نظر الاعتبار، كقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(٤).

أو عنى به: نظرَ التعطف والرحمة، كقوله -تعالى-: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾(٥).

أو عنى به: الانتظار، كقوله -تعالى-: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾(٦).

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٢٤).

(٢) انظر: «الكامل» (٢/ ٥٣٤).

(٣) (٨/ ٣٥٠).

(٤) الآية ١٧ من سورة الغاشية.

(٥) الآية ٧٧ من سورة آل عمران. وفي أن المقصود بالآية: العطف والرحمة، نظر.

(٦) الآية ٤٩ من سورة يس.

أو عنى به: الرؤية، كقوله -تعالى-: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[1].

ولا يجوز أن يكون عنى بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نظر التفكر والاعتبار؛ لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار، وإنما هي دار اضطرار.

ولا يجوز أن يكون عنى نظر الانتظار؛ لأن ليس في شيء من أمر الجنة انتظار؛ لأن الانتظار معه تنغيص وتكدير، والآية خرجت مخرج البشارة، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من العيش، فهم مُمَكَّنون مما أرادوا، وإذا خطر ببالهم شيء، أُتوا به مع خطوره، فلم يجز أن يكون الله أراد بقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ نظر الانتظار.

ولأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجه فمعناه: نظر العينين اللتين في الوجه، كما قال -تعالى-: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[2]، أراد بذلك تقلب عينيه نحو السماء، ولأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

ونظر الانتظار لا يكون مقروناً بإلى؛ لأنه لا يجوز عند العرب أن يقولوا في نظر الانتظار «إلى» إذا كان معناه الانتظار، قالت بلقيس فيما أخبر الله -تعالى- عنها: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[3].

ولا يجوز أن الله -تعالى- أراد نظر التعطف والرحمة؛ لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة، صح القسم الرابع من أقسام النظر، وهو معنى قوله -تعالى-: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، أنها رائية ترى الله عز وجل.

ولا يجوز أن يكون معناه: إلى ثواب ربها ناظرة؛ لأن ثواب الله غير الله، والله -تعالى- قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ لم يقل: إلى غير ربها ناظرة.

والقرآن على ظاهره، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره، إلا بحجة.

---

(١) الآية ٢٠ من سورة محمد.

(٢) الآية ١٤٤ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٣٥ من سورة النمل.

ألا ترى أنه لما قال: «اعبدوني، واشكروا لي» لم يجز أن يقال: أراد: ملائكتي أو رسلي.

ثم نقول: إنْ جاز لكم أن تدَّعوا هذا، في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾جاز لغيركم أن يدعيه في قوله -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[1]، فيقول: أراد بها: لا تدرك غيره، ولم يرد أنها لا تدركه هو، وإذا لم يجز ذلك لم يجز هذا»[2].

❐ ❐ ❐

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٢) «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٧٤-٧٥).

٦٢- قالَ: «حدثنا عمرُو بنُ عَوْن، حدثنا خالدٌ وهُشَيمٌ، عن إسماعيلَ، عن قيسٍ، عن جَريرٍ، قالَ: كُنا جُلوساً عندَ النبيِّ -ﷺ- إذ نظرَ إلى القمر ليلةَ البدر، قالَ: «إنَّكم ستَرونَ ربَّكُم، كما ترونَ هذا القمرَ، لا تُضامُّونَ في رؤيتِهِ، فإنَ استطعتُمْ أنْ لا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ، وصلاةٍ قبلَ غروبِ الشمسِ، فافعَلُوا»».

٦٣- حدثنا يوسفُ بنُ موسى، حدثنا عاصمُ بنُ يوسفَ اليَرْبُوعِيُّ، حدثنا أبو شهابٍ، عن إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ، عن قيسِ بن أبي حازمٍ، عن جَريرِ بنِ عبدِاللهِ، قالَ: قالَ النبيُّ -ﷺ-: «إنكم سترونَ ربَّكُم عِيَاناً».

٦٤- حدثنا عَبْدَةُ بنُ عبدِاللهِ، حدثنا حُسَينٌ الجُعْفِيُّ، عن زائدةَ، حدثنا بَيانُ بنُ بِشْرٍ، عن قيسِ بن أبي حازمٍ، حدثنا جريرٌ، قال: خرج علينا رسولُ اللهِ -ﷺ- ليلةَ البدرِ، فقالَ: «إنكم ستَرَوْنَ ربَّكُم يومَ القيامةِ، كما تُرَونَ هذا، لا تُضَامُون في رؤيتِهِ».

هذا حديث واحد، ذكره هنا من ثلاثة طرق إلى قيس بن أبي حازم، اقتصر على المقصود في الطريقين الأخيرين، وقد رواه في الصلاة، وفي التفسير.

قوله: «كنا جلوساً عند النبي -ﷺ- إذ نظر إلى القمر ليلة البدر» هذا يدل على أنه -ﷺ- بدأهم بذلك، وسيأتي في حديث أبي هريرة، وأبي سعيد، أن الناس سألوه عن ذلك، فهي قضية أخرى.

فهو -ﷺ- أخبرهم ابتداء بأنهم يرون ربهم يوم القيامة، ووقع من بعضهم السؤال، فأجابهم بأنهم يرونه.

وليلة البدر: هي ليلة أربع عشرة، سميت ليلة البدر؛ لأن القمر يكمل فيها ويبدر، وإبداره: كماله وتمامه.

قوله: «إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر»، هذا بيان بليغ، وتأكيد عجيب، فأكده بأن، وبالفعل المضارع المسبوق بالسين، وبقوله: «كما ترون هذا القمر» مع إشارته إليه، فليس بعد هذا البيان بيان، ولا مزيد على هذه التأكيدات، فمن حاول تأويل رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة بعد ما سمع هذا البيان من

رسول الله -ﷺ-، فهو يجادل بالباطل ليدحض به الحق، قد اختار الباطل على الحق، وسوف يولّه الله ما تولى.

وإذا دخلت السين على الفعل، صار وقوعه في المستقبل.

ورؤية العباد لربهم -تعالى- لا تقع إلا في الآخرة، كما سيأتي، إن شاء الله تعالى.

وفي «صحيح مسلم» عن النبي -ﷺ- قوله: **«أما إنكم ستُعْرَضون على ربكم فتَرَونه»**[1] . ففي كلا اللفظين تأكيد بليغ منه -ﷺ- بأن المؤمنين يرون ربهم رؤية حقيقية بأبصارهم، مؤكدة كما سيأتي بيان ذلك، إن أراد الله تعالى.

قوله: «لا تضامون في رؤيته» يروى بضم التاء وتخفيف الميم، والمعنى: لا ينالكم في رؤية ربكم ضيم، أي: ظلم وهضم.

ويروى بفتح التاء، وتشديد الميم، والمعنى: أنكم ترون ربكم رؤية واضحة، لا تحتاجون في رؤيته أن ينضم بعضكم إلى بعض لتتساعدوا على الرؤية، كما يقع عند رؤية الأمور الخفية.

ويروى أيضاً: «تضارون» بفتح التاء، وضمها، والمعنى: لا يضر بعضهم بعضاً في رؤية الله -تعالى-، فيراه بعضهم، ويحجب عن رؤيته آخرون منهم، بل يراه المؤمنون رؤية واضحة، كوضوح الشمس والقمر.

قال الحافظ: «تضارون بضم أوله، وبالضاد، وتشديد الراء، بصيغة المفاعلة من الضرر، وأصله: تضاررون، بكسر الراء وفتحها، أي لا تضرون أحداً، ولا يضركم، بمنازعة ولا مضايقة.

وجاء -أيضاً- بتخفيف الراء، من الضير، وهي لغة في الضر، أي لا يخالف بعض بعضاً، فيكذبه وينازعه، فيضيره بذلك، يقال: ضاره، يضيره.

وقيل: المعنى: لا يحجب بعضكم بعضاً عن الرؤية، فيضر به»[2] .

---

(١) انظر: مسلم بشرح النووي (٥/ ١٣٤).

(٢) «الفتح» (١١/ ٤٤٦)، وانظر: «النووي على مسلم» (٣/ ١٨) و (٥/ ١٣٤) و «الفتح» (١٣/ ٤٢٧).

والمقصود من هذا كله أنهم يرون ربهم، رؤية واضحة، لا يلحقها نقص وليس فيها خفاء، ولا يحتاجون معاونة عليها.

قوله: «فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، فافعلوا» تعقيب الخبر عن رؤيتهم لربهم بالفاء المقترنة بالحث على فعل الصلاة المذكورة، يدل على أن المحافظة على هاتين الصلاتين من أسباب حصول الرؤية.

وعلق ذلك بالاستطاعة؛ لأنها مناط التكليف، فالله -تعالى- لا يكلف إلا بالمستطاع، كما تدل لذلك النصوص من الكتاب والسُّنَّة.

ولهذا قال: «فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا».

والمقصود بالصلاة قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، والصلاة قبل غروبها: صلاة العصر.

وقد جاءت أحاديث عن رسول الله -ﷺ- بالحض على زيادة الاعتناء بهاتين الصلاتين.

ففي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله -ﷺ- قال: «من صلى البردين دخل الجنة».

وفي «صحيح مسلم»، عن عمارة بن رؤيبة، عن أبيه، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها -يعني صلاة الفجر والعصر-»[1].

وفي ذلك أحاديث كثيرة.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[3].

(١) «مسلم» (١/ ٤٤٠) رقم (٦٣٤).

(٢) الآية ٣٩ من سورة ق.

(٣) الآية ٢٣٨ من سورة البقرة.

وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1].

قوله: «إنكم سترون ربكم عياناً» هذا اللفظ من أبلغ النصوص في إثبات الرؤية، فقد أكد رؤية المؤمنين لربهم عدة تأكيدات، كما سبق في الطريق الأولى، غير أنه هنا قال: «عياناً» وهو لا يحتمل أي تأويل.

ومعنى عياناً: معاينة مقابلين له -تعالى- ينظرون إليه بأعينهم، وفي هذا أبلغ الرد على منكري الرؤية الحقيقية، كما فيه الرد على المتطرفين من الصوفية الذين يزعمون بأنهم يرون الله في الدنيا؛ لأنه قال: «سترون ربكم» وهذا يكون في المستقبل، وفي الرواية الأخرى قيد الرؤية بيوم القيامة، وفي «صحيح مسلم»: «وتعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت»[2].

والواقع أن هؤلاء الأدعياء يرون آلهتهم من الشياطين الذين أضلوهم.

قال الأزهري: «رأيت فلاناً عياناً، أي: مواجهة»[3].

وهذا التفسير لقوله: «سترون ربكم عياناً» متفق عليه عند أهل الأثر، وأهل اللغة، وهو من الأمور الواضحة، ولكن لما جاء أهل البدع والتحريف احتيج في ذلك إلى ذكر أقوال العلماء، وسيأتي لذلك مزيد بيان، إن شاء الله تعالى.

قوله: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة، كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته» قيد الرؤية بيوم القيامة؛ لئلا يتوهم أحد أنه يرى ربه قبل يوم القيامة.

وقوله: «كما ترون هذا» الإشارة إلى القمر تلك الليلة التي هي ليلة البدر والقمر فيها أتم ما يكون، وأوضح ما يكون، فشبه الرسول -ﷺ- رؤية المؤمنين لربهم -تعالى- برؤيتهم القمر تلك الليلة في تمامه واستوائه، ووضوحه، والمعنى: أنكم ترون ربكم يوم القيامة رؤية واضحة جلية، لا لبس فيها، ولا خفاء، كما ترون القمر وقت تمامه وكماله ليلة أربع عشرة من الشهر، ليس بينكم وبينه حائل ولا قتر.

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الإسراء.

(٢) «مسلم» (٤/ ٢٢٤٥) رقم (٢٩٣١).

(٣) «تهذيب اللغة» (٣/ ٢٠٦).

وهذا غاية البيان والإيضاح في أن المؤمنين يرون الله -تعالى- يوم القيامة، ومع هذا يأبى من غلبت عليه شقوته وضلاله الإيمان بذلك، ويحاول تحريف النصوص الواضحة، لتتفق مع مذهبه الفاسد.

❑ ❑ ❑

٦٥- قالَ: حدثنا عبدُالعزيزِ بنُ عبدِاللهِ، حدثنا إبراهيمُ بنُ سعدٍ، عن ابنِ شهابٍ، عن عطاءِ بنِ يزيدَ الليثيِّ، عن أبي هريرةَ، أنَّ الناسَ قالوا: يا رسولَ اللهِ، هل نُرى ربنا يومَ القيامةِ؟

فقالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «هل تضارونَ في القمرِ ليلةَ البدرِ؟».

قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، قالَ: «فهل تضارونَ في الشمسِ ليسَ دونها سحابٌ؟».

قالوا: لا يا رسولَ اللهِ، قال: «فإنَّكم ترونَهُ كذلكَ، يَجْمَعُ اللهُ الناسَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: مَنْ كانَ يعبدُ شيئاً فليتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كانَ يَعْبُدُ الشمسَ الشمسَ، ويَتَّبِعُ مَنْ كانَ يعبدُ القمرَ القمرَ، ويتبعُ منْ كان يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ، وتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ، فيها شَافِعُوها -أو مُنَافِقُوها- شكَّ إبراهيمُ فيأتِيهُمُ اللهُ فيقولُ: أنا ربكم، فيقولونَ: هذا مكانُنا حتّى يأتِيَنَا ربُّنا، فإذا جاءَ ربُّنا عَرَفْنَاهُ، فيأتِيهمُ اللهُ في صُورَتِهِ التي يعرفُونَ، فيقولُ: أنا ربكم، فيقولونَ: أنتَ رَبُّنا، فَيَتَّبِعُونَهُ، ويُضْرَبُ الصراطُ بينَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فأكُونُ أنا وأُمَّتِي أوَّلَ مَنْ يجيزُها.

ولا يتكلمُ يومئذٍ إلا الرسلُ، ودَعْوى الرسلِ يومئذٍ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.

وفي جهنمَ كلاليبُ مثلُ شَوْكِ السَّعْدان، هل رَأَيْتُمُ السَّعدانَ؟» قالوا: نَعَمْ يا رسولَ اللهِ، قال: «فإنها مثلُ شوكِ السعدانَ، غيرَ أنه لا يَعْلَمُ ما قَدْرُ عِظَمِها إلا اللهُ، تَخْطَفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهُمُ المُوبَقُ، بَقِيَ بِعَمَلِهِ، أو الموثَقُ بِعَمَلِهِ، ومنهمُ المُخَرْدَلُ، أو المُجازَى -أو نحوه-.

ثم يتجلّى، حتى إذا فرغَ اللهُ مِنَ القضاءِ بينَ العِبادِ، وأرادَ أنْ يُخْرِجَ برحمتِهِ مَنْ أرادَ مَنْ أهلِ النارِ، أمرَ الملائكةَ أنْ يُخرجوا مِنَ النارِ مَنْ كان لا يُشركُ باللهِ شيئاً، ممن أرادَ اللهُ أنْ يرحمَهُ، ممن يشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، فيعرفونهم في النارِ بأثرِ السجودِ، تأكلُ النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجودِ، حَرَّمَ اللهُ على النارِ أن تأكلَ أثرَ السجودِ، فيخرجونَ من النارِ قد امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ، فينبتونَ تحتَهُ، كما تنبتُ الحبةُ في حميلِ السيلِ، ثم يَفْرُغُ اللهُ مِنَ القضاءِ بينَ العبادِ، ويبقى رَجُلٌ مقبلٌ بوجهِهِ على النارِ، هو آخرُ أهلِ النارِ دُخُولاً الجنةَ.

فيقولُ: أيْ ربِّ، اصرِفْ وَجْهِي عَنِ النارِ، فإنّه قَدْ قَشَبَنِي رِيحُها، وأحْرَقَنِي ذَكاؤُها، فيدعو الله بما شاءَ أنْ يدعُوه، ثم يقولُ اللهُ: هل عَسَيْتَ إن أعْطَيْتُكَ ذلكَ أن تَسْألَني غيرَه.

فيقولُ: لا وعِزَّتِكَ لا أسألكَ غيرَه، ويعطي رَبَّهُ منْ عهودٍ ومواثيقَ ما شاءَ، فيصرف وجهَهُ عنِ النار، فإذا أقبلَ على الجنةِ ورآها سكتَ ما شاءَ اللهُ أنْ يسكتَ، ثم يقولُ: أيْ رَبِّ، قدِّمني إلى بابِ الجنةِ، فيقولُ اللهُ: ألستَ قد أعطيتَ عهودَك ومواثيقَكَ أنْ لا تسألَني غيرَ الذي أعطِيتَ أبداً؟ ويلكَ يا ابنَ آدمَ، ما أغْدَرَكَ.

فيقول: أيْ رَبِّ، ويدعو الله، حتى يقولَ: هل عسيتَ إنْ أُعطيتَ ذلكَ أن تسألَ غيرَهُ؟

فيقول: لا وعزتكَ، لا أسألكُ غيرَهُ، ويُعطي ما شاءَ مِنْ عهودٍ ومواثيقَ، فيقدِّمه إلى بابِ الجنةِ.

فإذا قامَ إلى بابِ الجنةِ انْفَهَقَتْ له الجنةُ، فرأى ما فيها من الحَبْرَةِ، والسرورِ، فيسكتُ ما شاءَ اللهُ أنْ يسكتَ.

ثم يقولُ: أيْ رَبِّ، أدْخِلْني الجنةَ، فيقولُ اللهُ: ألستَ قد أعطيتَ عهودَكَ ومواثيقَكَ أنْ لا تسألَ غيرَ ما أُعطيتَ؟

فيقول: ويلكَ يا ابنَ آدمَ، ما أغدركَ.

فيقول: أيْ رَبِّ، لا أكُونَنَّ أشْقَى خَلْقِكَ، فلا يزالُ يدعُو حتى يضحكَ اللهُ مِنْهُ، فإذا ضحكَ مِنْهُ، قالَ له: ادْخُلِ الجنةَ، فإذا دَخَلَها، قالَ اللهُ له: تَمَنَّهْ.

فسألَ رَبَّهُ وتمنّى، حتى إنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ، يقولُ: كَذا وكَذا، حتى إذا انقطعتْ بِهِ الأمانيُّ، قالَ اللهُ: ذلكَ لَكَ، ومِثْلُهُ مَعَهُ».

قال عَطَاءُ بنُ يزيدَ: وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ مع أبي هريرةَ، لا يَرُدُّ عليهِ مِنْ حديثِهِ شيئاً، حتى إذا حَدَّثَ أبو هريرةَ أنَّ اللهَ -تَبارَكَ وتعالى- قالَ: ذلك لكَ، ومِثْلُهُ مَعَهُ، قال أبو سعيد الخدريُّ: وَعَشَرَةُ أمثالِهِ مَعَهُ، يا أبا هريرةَ.

قال أبو هريرةَ: ما حفظتُ إلا قولَهُ: ذلك لك، ومثلُهُ معهُ.

قال أبو سعيد الخدريُّ: أشْهَدُ أني حفظتُ مِنْ رسولِ اللهِ -ﷺ- قَوْلَهُ: ذلكَ لكَ، وعشرةُ أمثالِهِ.

قال أبو هريرة: فذلكَ الرَّجُلُ آخِرُ أهلِ الجنةِ دُخُولاً الجنةَ».

قوله: إن الناس قالوا: هل نرى ربنا يوم القيامة؟»، هذا السؤال تكرر من الصحابة في مجالس متعددة، كما تدل على ذلك الأحاديث، وسبب ذلك الدافع الإيماني، والاشتياق من المؤمنين صادقي الإيمان، إلى رؤية ربهم، تبارك وتعالى.

وقد أجابهم رسول الله -ﷺ- جواباً شافياً، وواضحاً غاية الوضوح، حتى لو تكلف أحد أن يوضحه أكثر من إيضاح الرسول -ﷺ- له ما استطاع.

فلذلك صار من لم يقبل ذلك تاركاً للحق عناداً وقصداً، والله يوليه ما تولى.

ولذلك قال: «هل تضارون في القمر ليلة البدر» أي: هل يضر بعضكم بعضاً في مشاهدة القمر، في أتم ما يكون، وأكمل ما يكون، وهذا أمر واضح جداً.

ولهذا قالوا: لا.

ثم قال -ﷺ-: «فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» أي: لم يحل دونها حجاب، مع صحة أبصاركم، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك» أي: أنكم ترون ربكم، رؤية واضحة، كرؤيتكم للقمر ليلة أربع عشرة، وكوضوح الشمس طالعة ليس دونها ما يحول بينكم وبينها.

فأي وضوح أوضح وأجلى من ذلك؟

قوله: «يجمع الله الناس يوم القيامة» أي: أنه -تعالى- يبعثهم من قبورهم أحياء، ثم يجمعهم جميعاً في مكان واحد، من أولهم -الذي هو أبوهم آدم عليه السلام- إلى آخر مولود منهم، ثم يقفون في ذلك المكان، وقوفاً طويلاً جداً، ينتظرون ربهم يأتيهم فيقضي بينهم، قال الله -تعالى-: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فيأتيهم -تعالى- «فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه» يعني من كان في الدنيا يعبد شيئاً غير الله فإنه يمثل له، أو يؤتى بذلك المعبود نفسه -إن لم يكن ممن يطيع الله- كهيئته في الدنيا، سواء كان ذلك المعبود رجلاً، أو صنماً، أو مالاً، أو شهوة، أو غير ذلك، ثم يؤمر بتلك المعبودات إلى النار.

«فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الطواغيت هي: كل معبود من دون الله،

(١) الآية ٦ من سورة المطففين.

وتطلق على الأصنام، والأوثان، والقبور، التي يتجه إليها بالعبادة، قال الأزهري: «قال أبو إسحاق: كل معبود من دون الله: جبت وطاغوت.

وقيل: الجبت والطاغوت: الكهنة والشياطين.

وفي بعض التفسير: الجبت والطاغوت: حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، اليهوديان، وهذا غير خارج مما قال أهل اللغة؛ لأنهم إذا اتبعوا أمرهما فقد أطاعوهما من دون الله»[1].

وقال ابن القيم: «الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله -تعالى- ورسوله -ﷺ- أو يعبدونه، من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس، رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله، وإلى الرسول، إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته»[2].

قلت: أكثر الخلق اليوم واقعون فيما ذكره ابن القيم، فهم يعبدون الطواغيت من الأحياء والأموات ويتحاكمون إليها، ويدينون لها بالولاء والطاعة، ويجعلون السيادة للقانون الذي هو طاغوت يحكمونه من دون الله، ويستخفون بشرع الله وحكمه، مع تيسر الوصول إليه، ولكنهم لا يريدون حكم الله، وإنما يريدون حكم الجاهلية، وقد قال الله -تعالى-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[3].

قوله: «تبقى هذه الأمة فيها شافعوها -أو منافقوها- شك إبراهيم» قال ابن أبي جمرة: «يحتمل أن يكون المراد بالأمة: أمة محمد -ﷺ-، يحتمل أن يدخل فيه

---

(١) «تهذيب اللغة» (٨/ ١٦٨).

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٥٠).

(٣) الآية ٦٥ من سورة النساء.

جميع أهل التوحيد، حتى من الجن، ويدل عليه ما في بقية الحديث: «ممن كان يعبد الله من بر وفاجر»[١].

قال الحافظ: «ويدل له أيضاً قوله: «فأكون أول من يجيز» فإن فيه إشارة إلى أن الأنبياء يجيزون أممهم بعده»[٢].

وفي رواية أبي سعيد: «حتى يبقى من يعبد الله من بر وفاجر» كما سيأتي.

قوله: «فيها شافعوها -أو منافقوها-» هذه رواية إبراهيم بن سعد.

قال الحافظ: «والمعتمد: رواية «منافقوها» كما هي رواية الأكثر»[٣].

ويأتي في رواية أبي سعيد: «حتى يبقى من كان يعبد الله، من بر وفاجر، وغبرات من أهل الكتاب» وفي رواية مسلم: «وغبر» وكلاهما: جمع غابر، والغبرات: جمع غبر، وغبر: جمع غابر، ويجمع أيضاً على أغبار، والمراد البقية، أي بقايا قليلة من اليهود والنصارى، الذين كانوا يعبدون الله -تعالى- وحده، أما معظمهم، فقد ذهب بهم إلى جهنم، عندما قال الله: «ليتبع كل عابد ما كان يعبده».

وفي قصة لوط -ﷺ- قول الله -تعالى-: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾[٤].

والمراد: أن كل من يعبد -غير الله تعالى- يحضر له معبوده الذي كان يعبده في الدنيا أو يمثل له، فيقال: اتبعه، ويذهب به إلى النار، ويبقى الذين لا يعبدون إلا الله من المؤمنين الصادقين، والمنافقين.

قوله: «فيأتيهم الله» هذا من أوصاف الله وأفعاله التي يفعلها إذا شاء، وهي مما يجب الإيمان به على ظاهر النص، كما هي طريقة سلف هذه الأمة الذين تلقوا ذلك عن الله ورسوله بالقبول، والتسليم، ومعلوم أن رسول الله -ﷺ- أغير على الله، وأعظم تعظيماً له، وأعلم به وبما يجب له، وما يمتنع عليه، من أهل التأويل الذين يزعمون أنهم ينزهون الله عن أوصاف المحدثين، كما يقولون، ولهذا تجدهم

---

(١) «بهجة النفوس» (٢/ ٢٤) وما نقل هنا بالمعنى.

(٢) «الفتح» (١١/ ٤٤٩).

(٣) المرجع المذكور.

(٤) الآية ١٧١ من سورة الشعراء.

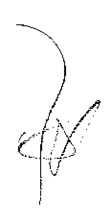
يجهدون أنفسهم في تحريف كلام الله -تعالى- وكلام رسوله ﷺ زاعمين أنه لو أُجري على ظاهره لأفاد التشبيه، والتجسيم، فلذلك جعلوا تأويله واجباً.

والواقع أن ما يسمونه من ذلك تأويلاً هو تحريف، وإلحاد، كما أشرنا إليه فيما سبق.

وفي هذه الجملة من الحديث، وهي قوله: «فيأتيهم الله، فيقول: أنا ربكم؟ فيقولون: «هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه» شاهد للباب؛ لأن ظاهره أنهم يرونه، غير أنهم في هذه المرة لم يعرفوه؛ لأنه تعالى لم يظهر لهم بأوصافه التي يعرفونه بها، وقد جاء في رواية أبي سعيد الآتية: «فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة». ولهذا قالوا: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه».

قوله: «فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه» وهذه الجملة أيضاً هي المرادة من سياق الحديث في الباب؛ لأن فيها دلالة واضحة على رؤية المؤمنين ربهم في ذلك الموقف، وسيأتي بحث ذلك والرد على شبه النفاة، إن شاء الله تعالى.

وفي هذه الجملة من الحديث، والتي قبلها، كثر اضطراب شراح الحديث، وتخبطوا كثيراً؛ لأنهم على عقيدة الأشاعرة، وسأذكر بعض أقوالهم في ذلك؛ للعبرة، ثم أذكر ما يبين بطلانها، مستعيناً بالله تعالى.



ثم إنه يجب على كل مسلم أن يعلم بأن الله -تعالى- قد أكمل لهذه الأمة دينها، وبينه بياناً لا يحتاج معه إلى استدراك أحد من الناس، وسيأتي دليل ذلك، ورسول الله -ﷺ- قد أقام الحجة وأوضح المحجة، فيجب على المسلم أن يؤمن بأنه أكمل الخلق هداية، وأنه بلغ عن الله ما أمره الله بتبليغه، وأنه أفصح الناس، وأقدرهم على بيان مراده، وأنه أنصح الخلق لأمته وأحرصهم على هدايتهم، وهو أعظم الناس خوفاً من الله، وتعظيماً له، وهو أعلم الناس بالله، وبما يجب له -تعالى- وما يمتنع عليه.

فلا بد أن يبين لأمته ما يجب عليهم أن يعتقدوه في ربهم، بياناً لا لبس فيه، ولا غموض، فلا يحتاجون معه إلى بيان غيره، وإلا لا يكون بلغ البلاغ المبين، قال

الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1]، وقد سأل الناس: هل بلغ رسالة ربه؟ فشهدوا له بأنه بلغ البلاغ المبين.

وأخبر -صلوات الله وسلامه عليه- أنه ترك أمته على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك[2].

ولا يعقل أنه يبين لأمته آداب الأكل والشرب والنوم، ودخول المنزل والخروج منه، وركوب الدابة، ولبس النعل والثوب، وقضاء الحاجة، وغير ذلك مما لو تركه المسلم لم يأثم على تركه، ثم يترك معرفة الله، وما يجب أن يعتقد ويثبت له -تعالى-، وما يجب أن ينفى عنه مجهولاً، أو ملتبساً حقه بباطله.

إن من يترك التعصب، ويتخلص من التقليد الأعمى، وينظر بعقل وإنصاف، فلا بد أن يقتنع بأن الذي قاله الرسول -ﷺ- وبلغه هو الحق.

ثم صحابة الرسول -ﷺ- الذين تلقوا العلم والإيمان منه لا بد أن تكون هدايتهم أتم وأكمل ممن جاء بعدهم، لا يخالف في هذا إلا ضال أو مضلل تائه، لا يعرف الإسلام.

ولم يأت عنهم -رضوان الله عليهم- كما لم يأت عن الرسول -ﷺ- ما يشير، ولو إشارة، إلى أن ظاهر النصوص التي فيها أوصاف الله -تعالى- أنه لا يجوز اعتقاد ما دلت عليه ظاهراً، أو أنه ينبغي تأويلها.

قال الله -تعالى-: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3]، وقال -تعالى-: ﴿وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[5]، وقال -تعالى-: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٢) انظر «سنن ابن ماجه» (١/ ٤).

(٣) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٤) الآية ٤٤ من سورة النحل.

(٥) الآية ٨٩ من سورة النحل.

إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، وقال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[2].

ولا يشك مسلم بأن الرسول -ﷺ- قد امتثل أمر ربه، فبلغ البلاغ المبين، حتى ترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا لبس فيها، ولا غموض.

وأعظم ذلك باب معرفة الله -تعالى- بأسمائه و صفاته.

وبهذا يتبين أن قول أهل التأويل باطل قطعاً، وأن الحق فيما قاله الله -تعالى- عن نفسه، وما قاله رسوله -ﷺ- وأن ظاهر قول الله -تعالى- وقول رسوله -ﷺ- حق وهدى.

ولكن يجب أن يفهم مراد الله -تعالى- في خطابه لعباده، ومراد رسوله -ﷺ-، من غير تقصير، ولا غلو.

وإن من الخذلان أن ينصرف العبد عما تعرف الله به إلى عباده، من أسمائه وأوصافه، ويعتقد أنها تدل على خلاف الحق، وأن الحق والهدى في كلام أهل الجدل والفلسفة، الذين يعتمدون على آرائهم، وعقولهم، فيما يجب لله، وما يمتنع عليه، مع أنهم لم يجنوا من ذلك إلا الحيرة والشك، فإذا حضرهم الموت، أقروا على أنفسهم بأنهم لم يعلموا شيئاً.

قال شيخ الإسلام: «بلغني بإسناد متصل، عن بعض رؤوسهم، وهو الخونجي، وهو عند كثير منهم، غاية في هذا الفن[3]، أنه قال عند الموت: «أموت، وما علمت شيئاً، إلا أن الممكن يفتقر إلى الواجب، ثم قال: الافتقار: وصف عدمي، أموت وما علمت شيئاً».

قال: وذكر الثقة، عن الآمدي أنه قال: «أمعنت النظر في الكلام، وما استفدت منه شيئاً إلا ما عليه العوام».

---

(١) الآية ٦٤ من سورة النحل.

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٣) يعني: فن الكلام الذي يسمونه: التوحيد.

وقال الأصبهاني للشيخ إبراهيم الجعبري: «بت البارحة أفكر إلى الصباح، في دليل على التوحيد سالم عن المعارض، فما وجدته»[(١)].

وحدثني من قرأ على ابن واصل الحموي، أنه قال: «أبيت بالليل، وأستلقي على ظهري، وأضع الملحفة على وجهي، وأبيت أقابل أدلة هؤلاء، بأدلة هؤلاء، وبالعكس، وأصبح وما ترجح عندي شيء» كأنه يعني أدلة المتكلمين والفلاسفة»[(٢)].

ولهذا وأمثاله قال الشافعي: «لئن يبتلى العبد بكل ذنب نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام».



بعض أقوال شراح الحديث:

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: «نسبة الإتيان إلى الله، عبارة عن رؤيتهم إياه، وقيل: الإتيان: فعل من أفعال الله[(٣)]، يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن سمات الحدوث.

وقيل: فيه حذف، تقديره: يأتيهم بعض ملائكته، ورجحه عياض، ولعل هذا الملك جاءهم في صورة أنكروها؛ لما رأوا فيها من سمة الحدوث.

ويحتمل وجهاً رابعاً: وهو أن المعنى: يأتيهم الله بصورة -أي بصفة- تظهر لهم، من الصور المخلوقة، التي لا تشبه صفة الإله، ليختبرهم بذلك، فإذا قال لهم هذا الملك: أنا ربكم، رأوا عليه من علامة المخلوقين ما يعلمون به أنه ليس ربهم»[(٤)].

وقال الرازي: «الكلام على هذا الحديث من وجوه:

الأول: أن تكون «في» بمعنى الباء، والتقدير: فيأتيهم الله بصورة، غير الصورة التي عرفوها في الدنيا، وذلك بأن يريهم ملكاً من الملائكة، ونظيره قول ابن عباس في قوله -تعالى-: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾. أي: بظلل من الغمام.

---

(١) يعني: ما يسمونه بالأدلة العقلية، وهي جهالات توصل إلى ظلمات الشك.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٦٢-٢٦٤).

(٣) تقدم أن الفعل عند الأشاعرة المراد به: المفعول المخلوق المنفصل عن الله -تعالى-.

(٤) «الفتح» (١١/ ٤٥٠) وانظر: كلام النووي في «شرح مسلم» (٣/ ١٩) فإنه متفق مع ما هنا.

ثم إن تلك الصورة تقول: أنا ربكم، وكأن ذلك آخر محنة تقع للمكلفين في دار الآخرة.

أما قولهم: «إذا جاء ربنا عرفناه» فيحمل على أن يكون المراد: فإذا جاء إحسان ربنا عرفناه.

وقوله: «فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفونها» فمعناه: فيأتيهم بالصورة التي يعرفون أنها من أمارات الإحسان.

الثاني: أن يكون المراد من الصورة: الصفة، والمعنى: أن يظهر لهم من بطش الله، وشدة بأسه، ما لم يألفوه، ولم يعتادوه، من معاملة الله -تعالى- معهم، ثم يأتيهم بعد ذلك بأنواع الرحمة والكرامة، على الوجه الذي اعتادوه وألفوه»[1].

وقال الخطابي: «الذي يجب على كل مسلم أن يعلم أن ربنا ليس بذي صورة، ولا هيئة، فإن الصورة تقتضي الكيفية، وهي عن الله وعن صفاته منفية، وقد يتأول معناها على وجهين:

أحدهما: أن تكون الصورة بمعنى الصفة، كقول القائل: صورة هذا الأمر كذا وكذا، يريد صفته، فوضع الصورة موضع الصفة.

والثاني: أن المذكور من المعبودات في أول الحديث إنما هو صور وأجسام، كالشمس والقمر، والطواغيت، ونحوها، ثم لما عطف عليها ذكر الله -سبحانه- خرج الكلام فيه على نوع من المطابقة، فقيل: يأتيهم الله في صورة كذا»[2].

وهذا كثير من كلام أهل التأويل ممن يتصدى لشرح الحديث، وغيرهم ممن يتكلم في العقائد، حتى لا تكاد تجد من تكلم على هذا الحديث بالصواب.

لهذا سأجعل الكلام على هذه الجملة من الحديث في أربعة فصول:

الأول: في ذكر ما تيسر من روايات الحديث.

الثاني: في معنى الصورة في اللغة.

---

(١) «تأسيس التقديس» (ص٨٨-٨٩).

(٢) نقلاً من: «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٢٩٦).

الثالث: في تعيين المراد من الحديث.

الرابع: في رد التأويل الباطل الذي يُؤول به الحديث، كما ذكرت أمثلة منها.

* * *

الفصـل الأول

في ذكر ما تيسر من روايات الحديث

فحديث أبي هريرة هذا رواه البخاري في الصلاة، في باب فضل السجود، ولفظه: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا» إلخ[1].

ورواه في «الرقاق»، ولفظه: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه» ورواه في «التوحيد»: حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله، حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب» إلخ، وقد مضى ذكر لفظه.

وأخرجه مسلم، ولفظه: «وتبقى هذه الأمة، فيها منافقوها، فيأتيهم الله -تبارك وتعالى- في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله -تعالى- في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه» إلخ[2].

وذكر الدارقطني له عدة ألفاظ بطرق عدة، في إحداها: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء الرب -عز وجل- إلى المؤمنين، فوقف عليهم، والمؤمنون على كوم -قالوا لعقبة: وما الكوم؟ قال: المكان المرتفع- فيقول: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إن عرفنا نفسه عرفناه، فيقول لهم الثانية: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إن عرفنا نفسه عرفناه، قال: فيتجلى لهم -عز وجل- فيضحك في وجوههم فيخرون له سجداً»[3].

---

(١) «البخاري» (١/ ١٣٣) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ١١٣).

(٣) كتاب «الرؤية» (ص ٦٤) رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية.

وذكر روايات كثيرة كلها تتفق مع لفظ البخاري ومسلم، وفي بعض رواياته: «فيأتيهم الله -عز وجل- في غير صورته، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله -عز وجل- في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا» إلخ(١).

ورواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- ولفظ الشاهد منه: «فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء».

ورواه في «التفسير»، ولفظه: «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله، من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقول: ماذا تنتظرون» ولم يذكر بقيته(٢).

ورواه في «الرقاق»، وفي «الإيمان» مختصراً جداً.

ورواه مسلم مطولاً: «حدثني سويد بن سعيد، قال: حدثني حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري: أن ناساً في زمن رسول الله -ﷺ- قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله -ﷺ-: «نعم -قال- هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «ما تضارون في رؤية الله -تبارك وتعالى- يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة، أذّن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله -سبحانه- من الأصنام والأنصاب، إلا يتساقطون في النار.

حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله، من بر وفاجر، وغُبَّرُ أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيزاً ابن الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار

---

(١) المرجع المذكور (ص ٩٩).

(٢) «البخاري مع الفتح» (٨/ ٢٤٩، ٦٦٣) و (١/ ٧٢) و (١١/ ٤١٦، ٤٤٦).

إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار، كأنها سراب، يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار.

ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم، كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار.

حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله، من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين - سبحانه وتعالى- في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد.

قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم.

فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً -مرتين أو ثلاثاً- حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب.

فيقول: هل بينكم وبينه آية، فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء، إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه.

ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا»[1] وذكر بقية الحديث.

ورواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة»، وفيه «فيبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر، ثم يتبدى الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أول مرة، فيقول: أيها الناس، لحقت كل أمة ما كانت تعبد، وبقيتم، فلا يكلمه يومئذ إلا الأنبياء: فارقنا الناس ونحن إلى صحبتهم أحوج، لحقت كل أمة ما كانت تعبد، ننتظر ربنا الذي كنا نعبد.

فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيقول: هل بينكم وبين الله آية تعرفونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فيخرون سجداً أجمعين ولا يبقى أحد

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٦٧).

كان يسجد في الدنيا سمعة، ولا رياء، ولا نفاقاً، إلا على ظهره[1] طبق، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه.

ثم يرفع برنا ومسيئنا، وقد عاد لنا في صورته التي رأيناه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فنقول: نعم»[2].

وفيه مع رواية مسلم التصريح بأنهم قد سبق أن رأوه مرة قبل هذه.

وفي هذه المرة تنكر لهم في غير صورته التي تبدي لهم بها قبلها، وذلك للامتحان، ولهذا قالوا: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، الساق، فيكشف عن ساقه، عند ذلك يعرفونه، فيخرون له سجداً، فإذا رفعوا رؤوسهم من السجود إذا هو قد عاد في صورته التي رأوه فيها أول مرة.

وهذا الحديث كما يقول ابن فورك: «يدخل في باب المستفيض الذي تلقاه أهل العلم بالقبول، ولم ينكره منهم منكر»[3].

وقد جاء ذكر الصورة في أحاديث أخرى، ثابتة لا مطعن فيها، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، عن النبي -ﷺ-، قال: «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[4].

وفيهما أيضاً من حديث أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته»[5].

---

(١) هكذا في المطبوعة بتحقيق الألباني ويظهر أنها محرفة من «إلا عاد ظهره طبقا» والمطبوعة كثيرة التحريف.

(٢) «السُّنَّة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٨٥).

(٣) «مشكل الحديث» (ص ٤).

(٤) «البخاري» (٨/ ٤٣) و«مسلم» (٤/ ٢١٨٣) وأحمد في «المسند» (٢/ ٣١٥).

(٥) البخاري في كتاب «العتق» (٣/ ١٣١) وليس فيه ذكرُ الصورة، ولفظه لمسلم (٤/ ٢٠١٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ-: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»[1].

وقال أيضاً: «حدثنا يحيى، عن ابن عجلان، عن سعيد، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا تقل: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله -تعالى- خلق آدم على صورته»[2]، وفي رواية الدارقطني: «فإن الله خلقه على صورته».

حدثنا عبدالرحمن بن مهدي، قال: حدثنا المثنى بن سعيد، وبهز، قالا: حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «إذا قاتل أحدكم، فليجتنب الوجه، قال ابن مهدي: فإن الله -تعالى- خلق آدم على صورته»[3].

قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا المثنى، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن أبي هريرة، أن النبي -ﷺ- قال: «إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه فإن الله -عز وجل- خلق آدم على صورته»[4].

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن عجلان، حدثنا سعيد، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا يقول: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك»[5].

وقال أيضاً: كتب إلي قتيبة بن سعيد، يذكر أن الليث حدثهم، عن ابن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، أن النبي -ﷺ- قال: «لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته»[6].

---

(١) «المسند» (٢/ ٢٤٤) وإسناده في أعلى درجات الصحة.

(٢) «المسند» (٢/ ٢٥١، ٤٣٤) وسنده حسن، ورواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١/ ٢٢٩).

(٣) «المسند» (٢/ ٤٦٣).

(٤) «المسند» (٢/ ٥١٩).

(٥) «السُّنَّة» لعبدالله ابن الإمام أحمد (ص ١٦١).

(٦) «السُّنَّة» (ص ١٦٩).

وقال أيضاً: حدثني أبو معمر، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن»[1].

وقال: حدثني أبو بكر الصاغاني، حدثنا أبو الأسود، وهو النضر بن عبدالجبار، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي يونس، عن أبي هريرة، عن رسول الله -ﷺ- قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على وجه الرحمن»[2].

وقال ابن أبي عاصم: «حدثنا محمد بن ثعلبة بن سواء، حدثني عمي محمد بن سواء عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله -تعالى- خلق آدم على صورة وجهه»[3] هذا إسناد صحيح، وهو ظاهر في إبطال قول من جعل الضمير في قوله «على صورته» عائداً إلى آدم.

وقال: حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا تقبحوا الوجوه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن»[4].

هذا حديث صحيح صححه الأئمة، الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وليس لمن ضعفه دليل إلا قول ابن خزيمة، وقد خالفه من هو أجل منه.

«قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: «وأما تضعيف ابن خزيمة لحديث ابن عمر بأن الثوري أرسله، فخالف فيه الأعمش، وأن الأعمش وحبيباً مدلسان.

فيقال: قد صححه إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس.

---

(١) كتاب «السُّنَّة» (ص ١٧٠) ورواه ابن خزيمة في «التوحيد»، وقد اشترط أنه لا يدخل فيه إلا حديثاً صحيحاً، ورواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» وسيأتي، والبيهقي في «الصفات» (ص ٢٩١).

(٢) المرجع السابق (ص ٢١٥).

(٣) «السُّنَّة» (١/ ٢٢٧-٢٢٨) وقول الألباني: لكني في شك من ثبوت قوله «على صورة وجهه» لا وجه له، وإن كان هو في شك من ذلك، فالحفاظ من أهل الحديث لم يشكوا فيه.

(٤) المرجع السابق (ص ٢٢٨-٢٢٩).

وأيضاً فمن المعلوم أن عطاء بن أبي رباح إذا أرسل هذا الحديث عن النبي -ﷺ- فلا بد أن يكون قد سمعه من أحد[1]، فإذا كان في إحدى الطريقين قد بين أنه أخذه عن ابن عمر، كان هذا بياناً وتفسيراً لما تركه وحذفه في الطريق الأخرى، ولم يكن هذا اختلافاً أصلاً»[2] ويأتي بقيته، -إن شاء الله تعالى-.

وقال ابن أبي عاصم أيضاً: «حدثنا عمر بن الخطاب، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي يونس -سليم بن جبير-، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «من قاتل فليجتنب الوجه، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن»[3]، وسنده أقل درجاته الحسن، فابن لهيعة رمي بسوء الحفظ، وهو في هذا لم يخالف غيره من الثقات، كما في الذي قبله.

وقال الخلال: أخبرنا علي بن حرب الطائي، حدثنا زيد بن أبي الزرقاء، عن ابن لهيعة، عن أبي يونس، والأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن عز وجل»[4].

وروى الإمام أحمد، والترمذي، وابن خزيمة، من حديث معاذ بن جبل قال: احتبس عنا رسول الله -ﷺ- ذات غداة، عن صلاة الصبح، حتى كدنا نترائى قرن الشمس، فخرج رسول الله -ﷺ- سريعاً، فثوب بالصلاة، فصلى، وتجوز فيها، فقال: «إنما حبسني أني رأيت ربي -عز وجل- في أحسن صورة»[5].

---

(١) لأنه قد علم أن القول على رسول الله ﷺ من أعظم الذنوب.

(٢) «نقض التأسيس» (٢/ ٢٣٦) والجزء مكتوب عليه أنه الثالث، وهو خطأ.

(٣) «السُّنَّة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٣٠).

(٤) «نقض التأسيس» (٢/ ٢٢٣)، ورواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١/ ٢٣٠)، والدارقطني في «الصفات» (ص ٣٧).

(٥) «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والترمذي في تفسير سورة ص، (٥/ ٣٦٩) رقم (٣٢٨٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث؟ فقال: هذا صحيح، وقال: هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم. ورواه الدارقطني في كتاب: «الرؤية» وذكر له طرقاً عدة (ص ٣٨٥-٣٩٤) رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية.

وأخرج الدارمي، عن عبدالرحمن بن عائش، سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «رأيت ربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أي رب، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماوات والأرض» وذكر بقيته مطولاً[1].

وأخرج الترمذي عن ابن عباس، أن النبي -ﷺ- قال: «أتاني ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب -أعادها ثلاثاً- فرأيته وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء، وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات»[2] إلى آخره.

وروي هذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم: أنس، وأبي أمامة، وعمران ابن حصين، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وثوبان مولى رسول الله -ﷺ-، وغيرهم، ذكر أحاديثهم الدارقطني في «الرؤية» وغيره.

* * *

(١) ورواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٠)، وابن جرير: في «التفسير»، وابن منده في: الرد على الجهمية (ص ٩٠)، والآجري في: الشريعة (ص٤٩٧)، والدارقطني في: «الرؤية» (ص٣٩٥ -٤١١) وذكر له طرقاً متعددة.

(٢) الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، (٥/ ٤٥) رقم (٣٢٨٧)، ورواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (١/ ٢٠٤)، والآجري في: «الشريعة» (ص ٤٩٦)، والدارقطني في: «الرؤية»، وذكر له عدة طرق رقم (٢٤٤) (ص٤١١) رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية.

الفصل الثاني

في معنى الصورة في اللغة

«وهو شكل الشيء، وحقيقته، وهيئته»، وفي متن اللغة: «الصورة: الشكل، والهيئة، والحقيقة»[(١)].

قال في «القاموس»: «الصورة، بالضم: الشكل، جمعها صور».

وقال في «شرحه»: «الصورة بالضم: الشكل، والهيئة، والحقيقة، والصفة»[(٢)].

وقال الراغب: «الصورة: ما ينتقش به الأعيان، ويتميز بها عن غيرها، وذلك ضربان:

أحدهما: محسوس، يدركه الخاصة والعامة، بل يدركه الإنسان، وكثير من الحيوان، كصورة الإنسان، والفرس والحمار، بالمعاينة والرؤية.

والثاني: معقول، يدركه الخاصة دون العامة، كالصورة التي اختص الإنسان بها، من العقل والرؤية، والمعاني التي خص بها.

وإلى الصورتين أشار بقوله -تعالى-: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، فالصورة المراد بها: ما خص الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر، والبصيرة، وبها فضله على كثير من خلقه»[(٣)].

وقال ابن الأثير: «الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء، وهيئته، وعلى معنى صفته»[(٤)].

وقال ابن فارس: «الصورة جمعها صور، وهي هيئة خلقته»[(٥)].

وبهذا يتبين أن الصورة في اللغة: هيئة الشيء القائم بنفسه، وشكله، وكل موجود غير مفتقر لغيره يكون قائماً بنفسه، تصح رؤيته ومشاهدته، يكون له صورة

(١) «متن اللغة» (٤/ ٥١٤).

(٢) «تاج العروس» (٣/ ٣٤٢).

(٣) «المفردات» (ص ٢٨٩).

(٤) «النهاية» (٣/ ٥٩).

(٥) «مقاييس اللغة» (٣/ ٣٢٠).

وحقيقة، والله -جل وعز- أعظم موجود وأكبره، وهو مستغن بنفسه عن غيره، وهو القائم بنفسه، والقائم على كل شيء بما يصلحه، فهو -تعالى- حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، ورؤيته تعالى جائزة في العقل في الدنيا؛ لأن كليم الله موسى سألها، ولا يسال نبي الله إلا ما هو جائز، وواقعة في الآخرة للمؤمنين والمنافقين أيضاً في الموقف، كما نطقت بذلك الأحاديث.

وأما في الجنة فلا يراه إلا المؤمنون، والمنافقون لا يدخلون الجنة.

قال شيخ الإسلام: «الصورة: هي الصورة الموجودة في الخارج، ولفظ «صَ وَ رَ» يدل على ذلك، وما من موجود من الموجودات إلا له صورة في الخارج، وما يكون من الوقائع يشتمل على أمور كثيرة لها صورة موجودة في الخارج، ثم تلك الصورة الموجودة ترتسم في النفس صورة ذهنية، فمثلاً صورة الواقعة، أو صورة المسألة، إما أن يراد بها الصورة الخارجية، أو الصورة الذهنية»(١).

وقد يقصد بالصورة: الوجه، كما في «المسند» من حديث ابن عمر مرفوعاً: «ونهى أنْ تضرب الصور -يعني الوجه-»(٢).

وفيه أيضاً عن ابن عمر أنه كان يكره العلم في الصورة، أو قال: «نهى رسول الله -ﷺ- عن ضرب الوجه»(٣).

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «لفظ الصورة في الحديث كسائر ما ورد من الأسماء والصفات، التي قد يسمى المخلوق بها، على وجه التقييد، وإذا أطلقت على الله اختصت به، مثل العليم، والقدير، والرحيم، والسميع، والبصير، ومثل خلقه بيديه، واستوائه على العرش، ونحو ذلك»(٤).

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٢٤٥).

(٢) «المسند» (٢/ ١١٨).

(٣) «المسند» (٨/ ١٨٩) رقم (٥٩٩١) تحقيق أحمد شاكر، والعلم هو: الوسم.

(٤) «نقض التأسيس» (٣/ ٣٩٦).

وقال أيضاً: «وكما أنه لا بد لكل موجود من صفات تقوم به، فلا بد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها»[1].

وبهذا يتبين أن الصورة كالصفات الأخرى، فأي صفة ثبتت لله تعالى بالوحي، وجب إثباتها والإيمان بها.

* * *

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٢٧٥).

الفصل الثالث

في المعنى المراد من حديث الصورة

إن من يتتبع روايات هذه الأحاديث يتبين له بوضوح المعنى المراد بها، وقد تقدم ما فيه الكفاية من ذكر الروايات، لمن كان قصده الحق.

قال ابن قتيبة: «الصورة ليست بأعجب من اليدين، والأصابع، والعين، وإنما وقع الإلف لتلك؛ لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه؛ لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد»[1].

قال شيخ الإسلام: «وقد ذكر الخلال في «السُّنَّة» ما ذكره إسحاق بن منصور الكوسج، عن أحمد، وإسحاق، أنه قال لأحمد: لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته، أليس تقول بهذه الأحاديث؟ قال أحمد: صحيح، وقال إسحاق: صحيح.

وذكر عن يعقوب بن بختان، أن أبا عبدالله، أحمد بن حنبل، سئل عن حديث النبي -ﷺ-: «خلق الله آدم على صورته؟» قال: الأعمش يقول: عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر[2].

وقد رواه أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- «على صورته»، فنقول كما جاء الحديث.

قال: وسمعت أبا عبدالله، يقول: لقد سمعت الحميدي بحضرة سفيان بن عيينة، وذكر هذا الحديث: «خلق الله آدم على صورته»، فقال: من لا يقول بهذا الحديث، فهو كذا وكذا -يعني من الشتم- وسفيان ساكت، لا يرد عليه شيئاً.

---

(١) «تأويل مختلف الحديث» (ص ٢٢١).

(٢) يعني حديثه: «فإن آدم خلق على صورة الرحمن»، فأحمد يشير بذلك إلى أن الواجب القول بظاهر الحديث؛ لأنه ظاهر مراد المتكلم به، وقوله: صحيح، يعني أن الحديث صحيح، فيجب اعتقاد ما دل عليه، والقول بموجبه، وفي ذلك رد لقول ابن خزيمة ومن قلده، وسيأتي ذلك.

قال المروزي: أظن أني ذكرت لأبي عبدالله، عن بعض المحدثين بالبصرة أنه قال: قول النبي -ﷺ-: «خلق الله آدم على صورته»، قال: صورة الطين، قال: هذا جهمي، وقال: نسلم للخبر كما جاء.

وروى الخلال، عن أبي طالب، من وجهين، قال: سمعت أبا عبدالله -يعني أحمد بن حنبل- يقول: من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي. وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه؟

قال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل الكرماني، قال: سمعت إسحاق -ابن راهويه- يقول: قد صح عن النبي -ﷺ- أنه نطق به.

قال إسحاق: حدثنا جرير، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عطاء، عن ابن عمر، عن رسول الله -ﷺ- قال: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن».

فقد صحح إسحاق حديث ابن عمر مسنداً، خلاف ما قاله ابن خزيمة.

وقال الخلال: أخبرنا علي بن حرب الطائي، حدثنا يزيد بن أبي الزرقاء، عن ابن لهيعة، عن أبي يونس، والأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن -عز وجل-»[1].

وقال الحافظ: «الأكثر على أن الضمير يعود على المضروب؛ لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها».

وقال القرطبي: أعاد بعضهم الضمير على الله، متمسكاً بما ورد في بعض طرقه: «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن»، قال: وكأن من رواه أورده بالمعنى، متمسكاً بما توهمه، فغلط.

وقد أنكر المازري ومن تبعه صحة هذه الزيادة.

ثم قال: وعلى تقدير صحتها فيحمل على ما يليق بالباري -سبحانه وتعالى-.

قلت: الزيادة أخرجها ابن أبي عاصم في «السُّنَّة»، والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات، وأخرجها ابن أبي عاصم أيضاً من طريق أبي يونس، عن

(١) «نقض التأسيس» المخطوط (٣/ ٢٢٣).

أبي هريرة، بلفظ يرد التأويل الأول[1]، ولفظه: «من قاتل فليجتنب الوجه، فإن صورة وجه الإنسان، على صورة وجه الرحمن».

فتعين إجراء ما في ذلك على ما تقرر بين أهل السُّنَّة، من إمراره كما جاء من غير اعتقاد تشبيه[2]، أو من تأويله على ما يليق بالرحمن[3] -جل جلاله-.

وزعم بعضهم أن الضمير يعود على آدم[4]، أي على صفته، أي خلقه موصوفاً بالعلم الذي فضل به على الحيوان، وهذا محتمل.

وقال حرب في كتاب «السُّنَّة»: «سمعت إسحاق بن راهويه يقول: صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن».

وقال إسحاق الكوسج: سمعت أحمد يقول: هو حديث صحيح.

وقال الطبراني: في كتاب السُّنَّة: حدثنا عبدالله ابن الإمام أحمد بن حنبل قال: قال رجل لأبي: إن رجلاً قال: خلق الله آدم على صورته، أي صورة الرجل، فقال: كذب، هو قول الجهمية»[5].

* * *

(١) وهو كون الضمير يعود إلى المضروب.

(٢) مذهب السلف اعتقاد ما دلت عليه النصوص بلا تفويض ولا تشبيه ولا تأويل.

(٣) التأويل باطل، وهو مذهب المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم.

(٤) سيأتي إبطال ذلك، إن شاء الله تعالى.

(٥) «الفتح» (٥/ ١٨٣).

الفصل الرابع

في بيان بطلان قول أهل التأويل الفاسد

فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر -رحمه الله- في تأويل إتيان الله -تعالى- بأنه رؤيتهم إياه، أو أنه مجاز حذف تقديره: «يأتيهم بعض ملائكة الله، أو: أن يأتيهم بصورة من الصور المخلوقة» إلى آخر ما ذكر.

والجواب: أن هذه التأويلات مخالفة لكتاب الله -تعالى- ولأحاديث رسول الله -ﷺ- مخالفة صريحة، بحيث يجوز أن نقول: إنها تكذيب لكلام الله وكلام رسوله، ورد له، وفتح لباب الزندقة والكفر.

لأن النصوص في ذلك جلية واضحة، فإذا صح تأويلها بما ذكر، أمكن كل مبطل أن يؤول ما شاء من التأويل.

قال الله -تعالى-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1].

وقال -تعالى-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ ﴾[2].

فبين تعالى أن إتيانه غير إتيان الملائكة، وغير إتيان الآيات.

وقال - جل وعلا-: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[3].

وغير ذلك من الآيات، وأما الأحاديث، فكثيرة جداً، وسيأتي ذكر بعضها، إن شاء الله -تعالى-.

فالحق الذي دلت عليه نصوص الوحي: أن لله -تعالى- أفعالاً اختيارية يفعلها بمشيئته، كالاستواء، والنزول، والمجيء، والخلق، والرزق، ونحو ذلك.

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

(٢) الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٢٢ من سورة الفجر.

قال ابن كثير: «قوله -تعالى-: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يعني: يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال -تعالى-: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾»[1].

وقال ابن جرير: «والأولى بالصواب من وجه قوله: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾أنه من صلة فعل الله -تعالى- وأن معناه: «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام، وتأتيهم الملائكة»؛ لما حدثنا به محمد بن حميد، قال: حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن النبي -ﷺ- قال: «إن من الغمام طاقات يأتى الله فيها محفوفاً»، وذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ﴾»[2].

ثم ذكر حديث الصور الطويل المشهور، وفيه: «فيقول الله لي: يا محمد، فأقول: نعم، وهو أعلم، فيقول: ما شأنك؟ فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فشفعني في خلقك[3]، فاقض بينهم، فيقول: قد شفعتك، أنا آتيكم فأقضي بينكم... فبينا نحن وقوف سمعنا حساً من السماء شديداً، فهالنا فنزل أهل السماء الدنيا، بمثلي من في الأرض من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض، أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، فقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت».

ثم ذكر مثل ذلك في كل سماء، ثم قال: «حتى نزل الجبار في ظلل من الغمام، والملائكة، ولهم زجل من تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان رب العرش ذي الجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس، رب الملائكة والروح، قدوس، قدوس، سبحان

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤٨).

(٢) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

(٣) هذه الجملة من الحديث فيها نكارة؛ لأنها تخالف النصوص الثابتة قطعاً من أن الشفاعة لا تطلب من الله رأساً بدون دعاء، وكذلك له تعالى، حتى يأمر -جل وعلا- بها، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾.

ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه أبداً أبداً، فينزل -تبارك وتعالى- يحمل عرشه يومئذ ثمانية»[1] .

وهذا صريح في أن إتيان الله -تعالى- على ظاهره، يأتي إلى الأرض، يفصل بين عباده، ويتولى حسابهم بنفسه -تعالى-، وكل واحد منهم سوف يخاطبه، كما سيأتي في حديث عدي بن حاتم.

وهذا الحديث الذي استشهد به الإمام الطبري، وإن كان سنده ضعيفاً، إلا أن هذا القدر منه قد دلت عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، فوجب قبوله، والإيمان به.

والله -عز وجل- ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، فمجيء الله -تعالى- ونزوله، وعلوه، واستواؤه، خاص به، على ما يليق بعظمته.

«والمجيء والإتيان، والصعود والنزول، توصف به روح الإنسان التي تفارقه بالموت، وتوصف به الملائكة، وليس نزول الروح وصعودها من جنس نزول البدن وصعوده، فإن روح المؤمن تصعد إلى فوق السماوات ثم تهبط إلى الأرض فيما بين قبضها ووضع الميت في قبره.

وهذا زمن يسير لا يمكن صعود البدن ثم نزوله في مثله.

وكذلك صعودها في النوم، وذهابها إلى أماكن نائية، ثم عودها إلى البدن في اليقظة، لا يمكن للبدن مثل ذلك.

فإذا كانت الروح تعرج إلى السماء في هذا الوقت القصير، فهذا يدل على أن عروجها ومجيئها ليس من جنس عروج البدن ومجيئه، ومثل ذلك يقال في الملائكة.

فمجيء الرب تعالى، وصعوده، واستواؤه، فوق ذلك كله وأجل منه وأعظم، فإنه -تعالى- أبعد عن مماثلة كل مخلوق، من مماثلة مخلوق لمخلوق كالروح والبدن مثلاً»[2].

وقوله: «نسبة الإتيان إلى الله عبارة عن رؤيتهم إياه».

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٩١) طبعة بولاق الأولى.

(٢) «شرح حديث النزول» (ص ٧٥، ٩٢، ٩٣) بتلخيص وتصرف.

فنقول: هذا من التحريف الجلي، فالناس كلهم يفرقون بين الإتيان والرؤية، فإن الإتيان المذكور في الحديث فعل لله -تعالى- يفعله إذا شاء، وأما الرؤية فهي تقع من الخلق.

وقد ذُكِرَتْ في أول الحديث في قوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» وذلك بعد مجيئه -تعالى- إليهم في الموقف، وقوله لأهل ذلك الموقف: «ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فتمثل لهم معبوداتهم، ثم يتبعونها إلى النار».

فهذا التأويل بطلانه ظاهر، وهو أشبه باللعب في كلام رسول الله -ﷺ-، بل هو تحريف كتحريف الباطنية والفلاسفة وأهل الزندقة.

وأما قوله: «**وقيل: الإتيان: فعل من أفعال الله يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن سمات الحدوث**». فيقال: لو أن الحافظ رحمه الله اقتصر على هذا القول الذي ذكره بصيغة التمريض، لكان أولى له وأعذر عند الله -تعالى- وعند عباده المؤمنين؛ لأنه لا يخالف لفظ الحديث، وإن كان الفعل عند الأشعرية يقصد به المفعول، كما تقدم.

وأما قوله: «**وقيل: فيه حذف تقديره: يأتيهم بعض ملائكة الله، ورجحه عياض**» فيقال: بطلان هذا أظهر مما تقدم.

وكل مَنْ قَبِلَ ما جاء به الرسول -ﷺ- وسلم له منقاداً، فإنه يعلم يقيناً بطلان هذا القول، بل هذا يعلمه كل عاقل يتصور ما يقول.

ونحن نسأل أصحاب هذا القول الذي رجحه عياض: هل يجوز للمَلَك الذي يأتيهم -كما زعموا- أن يقول لأهل ذلك الموقف: أنا ربكم؟ وقد قال الله -تعالى- عن الملائكة أجمعين: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

والله -تعالى- لا يأمره بذلك؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر، فإن هذا شرك وكفر، والله -تعالى- لا يأمر به.

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الأنبياء.

ومثل هذا، التأويل الرابع، الذي جعله محتملاً له، وهو قولهم: إن الله -تعالى- يأتيهم بصورة مخلوقة، تقول لهم: أنا ربكم» فهذا كلام سخيف مضحك، وشر البلية ما أضحك.

فلولا أنه مسطور في الكتب المتداولة بين طلبة العلم لنزهت كتابي عن ذكره، فإن مثله يجب أن تنزه عنه كتب العلم؛ لأنه منكر من القول وزور، وهو أقرب إلى السخرية والتهكم بكلام رسول الله -ﷺ- من كونه يحتمله، ولا يشك من يعرف معاني الكلام أن هذا تحريف لكلام رسول الله -ﷺ-، وتعطيل لله -تعالى- عن الإتيان، والصعود والاستواء، أو فعل ما يريد من ذلك.

ولكن هؤلاء المحرفون يجهدون أنفسهم ويبذلون وسعهم في تحريف كلام الله وكلام رسوله، وصد الناس عن قبوله على ظاهره، ثم يغلبون وتكون جهودهم عليهم حسرة، وسوف يندمون عند ظهور الحقائق.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-:

«وأما أهل التحريف والتأويل، فهم الذين يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا.

ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات، التي يحتاج فيها إلى إخراج اللغات عن طريقتها المعروفة، وإلى الاستعانة بغرائب المجازات، والاستعارات.

وهم في أكثر ما يتأولونه قد يعلم عقلاؤهم علماً يقيناً أن الأنبياء لم يريدوا بقولهم ما حملوه عليه.

وهؤلاء كثيراً ما يجعلون التأويل من باب دفع المعارض، فيقصدون حمل اللفظ على ما يمكن أن يريده متكلم، لا يقصدون طلب مراد المتكلم به، وحمله على ما يناسب حاله.

وكل تأويل لا يقصد به صاحبه بيان مراد المتكلم، وتفسير كلامه بما يعرف به مراده، وعلى الوجه الذي يعرف مراده، فصاحبه كاذب على من تأول كلامه.

ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل، بل يقولون: يجوز أن يراد كذا، وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ.

فهذه طريق خلق كثير من المتكلمين، وغيرهم»[1].

ومن تأمل هذه الأحاديث التي تقدم ذكر بعضها، وتفهم سياقها، وما دلت عليه من المعاني، وما اتفقت عليه من الأخبار بأن الله يأمر كل من عبد غيره أن يتبعه، بعدما يمثل له ذلك المعبود، وأنه لا يبقى في الموقف إلا من يعبد الله وحده، من بر وفاجر، فيأتيهم الله في صورة لا يعرفونه فيها، امتحاناً، فيثبتهم، ثم يتجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، وذلك بعد أن كشف لهم عن ساقه فسجدوا له، هل يصح عند عاقل أنهم يسجدون لصورة مخلوقة؟

فمن تأمل ذلك علم قطعاً أن الذي يأتيهم هو رب العالمين، وليس ملكاً ولا شيئاً آخر مما ذكره المحرفون، وعلم قطعاً بطلان تأويلهم.

وأما قوله: «**يحتمل أن المعنى: يأتيهم الله بصورة، تظهر لهم من الصور المخلوقة**»، فهذا الاحتمال هو ما ذكره الرازي في تأسيسه، وقد تكفل شيخ الإسلام بدحض باطله، قال -رحمه الله-:

«**الوجه الثاني**: أن قوله: تكون «في» بمعنى الباء، والتقدير: فيأتيهم الله بصورة، غير الصورة التي عرفوها في الدنيا إلى آخره.

يقال: أولاً: هذا تبديل للغة، وقلب [لها]، فإن الباء في مثل قولك: جئت بكذا، تكون لتعدية الفعل، فالمجرور بالباء في مثل هذا اللفظ يدل دلالة صريحة على أنه أوقع الفعل من غيره، فهو جعل غيره آتياً، كقوله -تعالى-: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[2].

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾[3].

وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾[4] فليس في هذا النظم إشعار بأن المأتي به ظرف للفاعل، ولا أنه فوقه، أو في جوفه، أو غير ذلك من المعاني التي يدل عليها لفظ «في»، ولذلك لا تصلح أن توضع «في» موضع الباء في هذا الاستعمال، فلا تقول: «عسى الله أن يأتيني فيهم» «إنما يأتيكم فيه الله».

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٢).
(٢) الآية ٨٣ من سورة يوسف عليه السلام.
(٣) الآية ٣٣ من سورة هـود عليه السلام.
(٤) الآية ٣٧ من سورة النمل.

وأما قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾، فإذا كان هو الذاهب بالجنود، فإنه يصح أن يقول «فلنأتينهم في جنود»، وإلا لم يصح، وهذا من المشهور في اللغة يعرفه عامة علماء اللغة.

فلذلك صار هذا التأويل تحريفاً لكلام الله، وكلام رسوله، فإن قوله -تعالى-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[1]، لا يصلح أن يراد به أنه يرسل ذلك، ولا يأتي هو.

ثم قال: «**الوجه الثالث: أن قوله: «فيأتي الله في صورته التي يعرفون»** وقوله: «**فيأتيهم الله في صورة غير صورته**».

وقوله: «**أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها أول مرة**».

وقوله: «**في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة**»، ونحو ذلك، لو احتمل أن يكون بمعنى: فيأتيهم بصورة، فإن لفظ الصورة المضاف إلى شيء هو من باب الإضافة النفسية، لا الخلقية، فإن الإضافة تكون فيما هو قائم بنفسه، كما في قوله «**ناقة الله**» و «**بيت الله**» و «**أرض الله**» ونحو ذلك مما فيه دلالة على أنه منفصل عن المضاف إليه، وأما الصفات، مثل العلم، والقدرة، ونحو ذلك، فإذا أضيف كانت إضافته إضافة نفسية، إذا لم يتبين خلاف ذلك.

والصورة صفة قائمة بذي الصورة، فليست من الأعيان المنفصلة عن المضاف إليه، حتى تجعل بمعنى الملك، فلا يمكن أن تكون صورة الله التي يأتي فيها مخلوقاً منفصلاً عنه.

الوجه الرابع: أنه قال: فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون[2]، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا»، وفي لفظ: «أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم»[3].

---

(١) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

(٢) هذه رواية مسلم في حديث أبي هريرة، انظر: «صحيح مسلم» (١/ ١٦٤).

(٣) هذه أيضاً رواية مسلم من حديث أبي سعيد، إلا أنه ليس فيها «أول مرة»، انظر: «مسلم» (١/ ١٦٨).

ومعلوم أن أحداً من الملائكة لا يقول للخلق: أنا ربكم، بل لا يدعي هذه الدعوى إلا كافر بالله، كفرعون، والدجال، والشيطان.

بل الملائكة عباد مطيعون لله -تعالى-، لا يدعون الربوبية، ولا الإلهيَّة، كما قال -تعالى-: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ولا يأمر الله أحداً من الخلق أن يقول لجميع العباد: أنا ربكم، فإنه -تعالى- لا يأمر بالشرك.

ومن زعم أن الله يأمر بهذا، فهو مفتر على الله.

وإن كان الملك يقول امتحاناً، فهذا لا يصلح، كما لا يصلح أن يقول أحد من الأنبياء والمرسلين للناس: أنا ربكم، على سبيل الامتحان.

ولسنا ننكر الامتحان في القيامة، فإن المحنة لا تنقطع إلا بدخول دار الجزاء، الجنة أو النار، ولكن المحنة من الملائكة أن يقول للعبد: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

الوجه الخامس: أنه لو كان الممتحن لهم في ذلك الموقف، ملكاً من الملائكة، لقال لهم: من ربكم؟ ومن تعبدون؟ ويقال لهم: هلا تذهبون مع ربكم؟ إذ من الممكن أن يظهر لهم صورة، ويقول لهم الملك: هلا تذهبون مع هـذه الصورة؟ كما أنه في أول الحديث قال: وأذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد.

فلو كان المخاطب لهم عن الله -تعالى- لقال ما يصلح له، كما في نظائر ذلك، ولكن من شأن الجهمية أنهم يجعلون المخاطب للعباد بدعوى الربوبية غير الله، كما قالوا: إن الخطاب الذي سمعه موسى، بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[2]، كان قائماً بمخلوق، كالشجرة، وكما قالوا: في قوله: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»[3] إنه يقول هذا ملك من الملائكة. وهذا كله

(١) الآية ٢٩ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ١٢ من سورة طه.

(٣) الحديث سيأتي.

من الكفر والإلحاد. وكما يزعم الرازي في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1] أن ربه ملك من الملائكة.

الوجه السادس: أنه قال: «فيأتيهم الله في صورة، غير صورته التي رأوه فيها أول مرة»[2]، وهذا نص في أنهم رأوا الله قبل هذا الخطاب في صورة غير الصورة [التي ظهر لهم فيها حال الخطاب]، فلو كان المخاطب لهم ملكاً لكان المرئي قبل ذلك هو الملك، لا الله، والحديث نص في أنهم رأوا الله قبل هذه المرة.

الوجه السابع: أنه قال: «فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه»[3].

وفي الحديث الآخر: «إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله، من بر وفاجر، أتاهم الله في أدنى صورة، من التي رأوه فيها»[4].

وفي رواية: «إنا سمعنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا، فيأتيهم الجبار في صورة، غير صورته التي رأوه فيها أول مرة»[5].

وفي رواية: «أتاهم رب العالمين، في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون؟ فيقولون: فارقنا الناس أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول: أنا ربكم؟ فيقولون: لا نشرك بالله شيئاً، مرتين، أو ثلاثاً، فيقول: هل بينكم وبينه آية، فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساقه، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه، إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الفجر، انظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٣) ومراده قوله: «الرب هو المربي، ولعل ملكاً هو أعظم الملائكة هو مربٍّ للنبي -ﷺ- جاء، فكان هو المراد من قوله: وجاء ربك» (ص ١٧٤).

(٢) سيأتي ذلك في حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

(٣) سيأتي ذلك في حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

(٤) تقدم ذلك في حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه.

(٥) في حديث أبي سعيد، وهو متفق عليه.

قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا»[(١)].

وهذا صريح بأن الذي أتاهم، وقال: أنا ربكم، هو الذي أراهم العلامة حتى عرفوه فسجدوا له، بعد ذلك، وعرفوا أنه رب العالمين، ولو كان القائل: أنا ربكم، ملكاً، لكان الملك هو الذي اعترفوا آخراً أنه رب العالمين وهو الذي سجدوا له، وهذا من أعظم الكفر والضلال.

الوجه الثامن: أن قوله: «**فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا**» وأنه يبدي العلامة التي ذكرها، فيسجدون له، صريح بأن الذي يسجدون له، قد جاء في الصورة التي يعرفون، ويتجلى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، وذلك صريح بأن الله هو الآتي، في الصورة التي عرفوه فيها، ويسجدون له لما عرفوه»[(٢)].

وقولهم: «يحتمل أن يكون المراد: إذا جاء إحسان ربنا عرفناه»، وقوله: «**فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون**»، معناه: بالصورة التي يعرفون أنها من أمارات الإحسان.

فيقال: هذا باطل، فإن معرفة آياته تكون في الإحسان والعقاب، في الدنيا والآخرة، والله -تعالى- هو الخالق لكل شيء، كما قال -تعالى-: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[(٣)].

وقال -تعالى-: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[(٤)].

فمعرفة الله بآياته ليست موقوفة على الإحسان، فبطلان هذه الدعوى واضح، كما أن الأوجه التي ذكرها شيخ الإسلام كلها تبطل هذا الزعم.

ومما يبطله أيضاً ما ذكر في الأحاديث، أنه إذا قال لهم أولاً: «أنا ربكم، يقولون: لا نشرك بالله شيئاً، أو نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٢٢٣)، وكل هذه الروايات التي ذكرها في ««الصحيحين».

(٢)«نقض التأسيس» (٣/ ٢٢٣)، وكل هذه الروايات التي ذكرها في ««الصحيحين».

(٣) الآية ٩٣ من سورة النمل.

(٤) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

جاء عرفناه، فيقول: هل بينكم وبينه آية، فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى ممن كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود» إلى آخره.

وقد قال أهل التأويل الباطل: إن المراد بقوله: «**فيكشف عن ساق**»: الشدة، كما يقال: كشفت الحرب عن ساق.

كما قالوا في **قوله**: «**فيأتيهم في الصورة التي يعرفون**» إنها أمارات الإحسان» وهذا تناقض، حيث جعلوا ما تتوقف معرفته عليه: مرة الإحسان، ومرة أخرى هو الشدة والعذاب.

ومما يبطل قولهم أيضاً ما في حديث جابر: «ثم يأتينا ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم ويتبعونه»[1]، وهذا صريح أن الذي أتاهم، والذي تجلى لهم هو ربهم -تعالى- وأنهم عرفوه لما تجلى لهم يضحك.

ثم إن جميع ألفاظ الحديث صريحة في أن الذي يأتي، وجاء إليهم، وقال: أنا ربكم، ورأوه، هو الذي سجدوا له، فاقتضى ذلك أن يكون المتجلي لهم، المسجود له، هو الذي جاءهم في الصورة، وتكرر ذلك، فلا يجوز أن يكون ذلك ملكاً، أو بعض النعم المخلوقة، أو شدة، أو غير ذلك مما زعمه المبطلون.

ولهذا كان الإمام أحمد يحتج على إثبات الرؤية بالمجيء والإتيان، كما ذكر الخلال في السنة، عن أبي طالب، قال: «وقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فمن قال: إن الله لا يرى فقد كفر».

فبين أن هذه الآيات تدل على أنه يأتي، ويجيء، وذلك يقتضي الرؤية، كما صرحت به الأحاديث المفسرة لكتاب الله تعالى.

ومما يبين فساد قول المؤولين: أن في حديث ابن مسعود فرقاً بين إتيان الرب نفسه، وإتيان سائر المعبودات، وذلك يفسر ما ورد في بقية الأحاديث، فإنه قال:

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١/ ١٧٧) رقم (٣١٦)، ورواه الإمام أحمد، انظر: «المسند» (٣/ ٣٤٥).

«ثم ينادي مناد: يا أيها الناس، ألا ترضون من ربكم الذي خلقكم ورزقكم، وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، أن يولي كل إنسان منكم ما كان يتولاه، ويعبده في الدنيا؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلى، قال: فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا، قال: فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون.

فمنهم من ينطلق إلى الشمس، ومنهم من ينطلق إلى القمر، وإلى الأوثان من الحجارة، وأشباه ما كانوا يعبدون، قال: ويتمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويتمثل لمن كان يعبد عزيراً شيطان عزير.

قال: فيتمثل لهم الرب فيأتيهم فيقول: ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا إلهاً ما رأيناه بعد، فيقول: وهل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: نعم، بيننا وبينه علامة، إذا رأيناها عرفناه، فيقول: ما هي؟ قال: فيقولون: يكشف عن ساقه، قال: فعند ذلك يكشف عن ساقه، قال: فيخر من كان يسجد له طوعاً، ويبقى قوم ظهورهم كأنها صياصي البقر»[1].

فلما ذكر تلك المعبودات، ذكر أنه يمثل أشباهها، وأن المعبود من الأنبياء تأتي شياطينهم؛ لأنهم قد اتبعوها في الدنيا وعبدوها، وذكر أن الرب -تعالى- لما امتحن العباد هو الذي يتمثل لهم، وهو الذي أظهر لهم العلامة التي عرفوه بها حتى سجدوا.

فلو كان الآتي هو ملك من ملائكة الله، أو شيء من مخلوقاته، لكان بيان هذا أولى من بيان أن أولئك إنما جاءت أشباههم، إذ في هذا من المحذور ما ليس في ذلك، بل هذا التفريق بين هذا وهذا دليل واضح على أن الذي أتاهم هو رب العالمين، الذي تمثل لهم في الصورة، والذي اتبعه المشركون هو أشباه المعبودات، وشياطين الأنبياء.

ومما يبين ذلك ما أخبر به: أنه بعد إتيانه إياهم في الصورة التي يعرفون، وإظهار الآية التي عرفوه بها، وسجود المؤمنين له دون المنافقين أنهم اتبعوه حتى مروا على الصراط، كما بين ذلك في حديث أبي هريرة وأبي سعيد وجابر وابن مسعود، فلو

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «السنة» (٢/ ٥٢١) فقرة (١٢٠٣)، ورواه الدارقطني في كتاب: الرؤية، انظر: (ص ٢٩٧) رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية.

كان الذي جاء في هذه المرة الثانية هو بعض النعم -كما زعم المحرفون- لكانوا قد اتبعوا تلك النعمة المخلوقة، وليس الرب الذي عبدوه، وهو خلاف نصوص الأحاديث، وخلاف العدل الذي أخبر به الحديث، وذلك أن العبادة مستلزمة كمال المحبة للمعبود، وكمال التعظيم له، فإن المعبود هو الذي يقصد ويحب لذاته، والمرء مع من أحب، وهذا حقيقة العدل: أن يكون الإنسان مع المحبوب الذي يحبه محبة كاملة بحيث يحبه لذاته.

وإذا كان كذلك فيمتنع أن يكون المؤمنون متبعين لغير الله، والذي جاءهم هو الذي اتبعوه، وهو الله، وهو الذي جاءهم في الصورة التي عرفوه فيها.

ولا ريب أن عند الجهمية ممتنعاً أن يكونوا متبعين لله، كما يمتنع أن يكون هو الآتي، وكما يمتنع أن يكون قد أتاهم في صورة، وكما يمتنع أن يتجلى لهم ضاحكاً، وكما يمتنع أن يكشف عن ساقه، بل أن يكون له ساق.

فأحد الأمرين لازم: إما أن يكون ما أخبر به الرسول -ﷺ- هو الحق، أو ما يقوله هؤلاء الجهمية -المحرفون-.

وهما متناقضان غاية التناقض، ومن عرف ما جاء به الرسول -ﷺ- ثم وافقهم فلا ريب أنه منافق»[١].

وأما قولهم: «يحتمل أن يراد بالصورة: الصفة[٢]، والمعنى: أنه يظهر لهم من بطش الله وشدة بأسه ما لم يألفوه، ولم يعتادوه، ثم يأتيهم بعد ذلك بأنواع الرحمة والكرامة، على الوجه الذي اعتادوه وألفوه»[٣].

قال شيخ الإسلام: «هذا التأويل أفسد من الذي قبله، وأكثر الوجوه التي أبطل بها التأويل السابق تبطل هذا، ولهذا خصائص تظهر بوجوه:

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٣٦٥-٣٧٥) المخطوط، ببعض التصرف.

(٢) هذا التأويل غير التأويل المشهور، الذي يظن كثير من الناس أنه قول أهل السنة، وهو أن المراد بالصورة: أن خلق فيه السمع والبصر والعلم والإرادة، ونحو ذلك، وسيأتي بطلانه - إن شاء الله تعالى-.

(٣) هذا من كلام الرازي في تأسيسه.

أحدها: أن تفسير الصورة بمجرد الصفة فاسد[1]، فحيث دل لفظ الصورة على صفة قائمة بالموصوف، أو على صفة قائمة بالذهن واللسان، فلا بد مع ذلك أن يدل على الصورة الخارجية.

الثاني: أن إظهار الشدة في تسمية ذلك صفة، كإظهار النعمة، وكإظهار الملك، إذ جميع ذلك عبارة عن خلق شيء من الأجسام وإظهاره.

فتسمية هذا صفة دون الملك والإحسان تحكم باطل.

الثالث: أن الناس ما زالوا يألفون أن الله يبتليهم بالسراء والضراء، فدعوى أن أحدهما مألوف دون الآخر باطل.

الرابع: أن الله إذا أظهر عذابه وشدته، لم يجز الامتناع من السجود له في هذه الحال، ولا يجوز إنكار ربوبيته، حتى يقول الأنبياء والمؤمنون: نعوذ بالله منك، وينكرون أن يكون هو ربهم، ومعلوم أن السجود في حال إظهار الشدة أولى منه في حال إظهار النعمة، كما في الكسوف والخسوف ونحوهما.

الخامس: أن هذا يكون قبل مرورهم على الصراط، وقبل تميز المنافقين من المؤمنين، والنعيم والعذاب والشدة بعد ذلك، إذا مروا على الصراط وتميز السعداء من الأشقياء.

السادس: أنه أخبر في الأحاديث أن المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً آخر قد صاروا إلى العذاب، وبعد ذلك يأتي المسلمين ربُّهم في غير صورته، التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفونها.

فلم يظهر الشدة والبطش والعذاب إلا للكفار من المشركين وأهل الكتاب.

السابع: أن في الأحاديث: «إذا سجد المسلمون، لم يتمكن من السجود المنافقون»، وفي أحاديث أخرى[2]: أنهم يعطون بعد هذا الأنوار، على قدر

---

(١) سيأتي بيان فساده -إن شاء الله تعالى-.

(٢) كحديث جابر ، وحديث ابن مسعود، وقد تقدم ذكر من خرجهما.

أعمالهم، ثم يمرون على الصراط، فناج مسلم، وهو الذي ينجو بلا أذى، وناج مخدوش، وهو الذي يصيبه من لفح النار، ومكدوس في نار جهنم، وهم المعذبون.

فلم يكن العذاب والشدة إلا بعد هذا كله، حيث المرور على الصراط، فكيف يقال: إن إتيانه أولاً في غير صورته التي يعرفون، هو إتيان عذابه وبأسه، وهو لم يأت منه شيء بعد؟

الثامن: أنهم تأولوا كشفه عن ساقه بأنه إظهار الشدة، وفي نفس هذه الأحاديث أنه إذا أتاهم في الصورة التي [لا] يعرفونها يكشف لهم عن ساقه فيسجدون له، فإذا تأولوا مجيئه في الصورة التي يعرفون على إظهار رحمته وكرامته، كان هذا من التحريف والتناقض في تفسير الكتاب والسنة.

التاسع: أنه ليس في ما ذكروه إلا أنه يجيء بعض مخلوقاته، إما التي تسر، وإما التي تضر، ومن المعلوم أن الله -تعالى- لا يوصف بنفسه مخلوقاته، بل كونها ليست صفات له أظهر من كونها ليست صورة له، فقول القائل: يأتيهم الله في صورته التي يعرفون، أو التي لا يعرفون، أي في صفته التي يعرفون، أو التي لا يعرفون، ثم يؤول ذلك بمجيء بعض ما يخلقه من الضراء أو السراء، من أفسد الكلام، فإن النعم والنقم ليست من صفات الله التي يوصف بها، وإنما يوصف بأنه يخلقها ويحدثها ويفعلها، فلا يصح أن يكون مجيئها مجيء الله في صفته.

العاشر: أن أكثر هؤلاء المؤولة أشاعرة، وعندهم أن الخلق هو المخلوق، كما سيأتي -إن شاء الله- بيانه، فليس الخلق صفة لله -تعالى- عندهم، كالمعتزلة، فإذا كان كذلك كيف يكون المخلوق المكون من صفات الله تعالى؟

الحادي عشر: أنه لو كان اللفظ: فيأتيهم الله في صورة عظيمة، أو: في صفة عظيمة، كما يقال: وجاء الملك في صورة عظيمة، ودخل المدينة على صفة عظيمة، ونحو ذلك، لأمكن صحة دعواهم أن الصورة أو الصفة من المخلوقات؛ لأن قوله: في صورة، أو صفة، نكرة مثبتة لم يعين صاحبها.

فإذا قيل: في صورته التي يعرفون، أو: صورته التي لا يعرفون، أو: في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، وقيل: إن الصورة بمعنى الصفة، كان ذلك صفة له، فيمتنع أن يكون عائداً إلى غيره.



الثاني عشر: أن ألفاظ الحديث في هذا كلها مصرحة بأن الله -تعالى- هو الآتي، وهي بذلك موافقة لدلالة القرآن مفسرة له، حيث أخبر النبي -ﷺ- في أول الأحاديث بأنهم يرون ربهم، كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر صحواً ليس دونه سحاب، جواباً لهم لما سألوه: هل نرى ربنا يوم القيامة؟

وأخبرهم أيضاً ابتداءً بدون سؤال، فإنه -ﷺ- كان يحدثهم بهذا الحديث مرات متعددة.

ثم وصف هذه الرؤية، فأخبر أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، وأخبر باتباع المشركين لما كانوا يعبدونه، ثم قال: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعم، أنت ربنا، فيتبعونه».

وفي الحديث الآخر يقال لهم: «هل بينكم وبينه علامة فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة».

وفي الحديث الآخر: «ثم يأتينا ربنا، بعد ذلك، فيقول: من تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم فيتبعونه».

وفي الحديث الآخر: قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات[1] يوم معلوم، قياماً، أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، قال: وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي، ثم ينادي مناد...» الخ.

وإذا كانت الأحاديث مصرحة بمجيء الرب نفسه تصريحاً يعلمه الخاص والعام، ويزيل كل شبهة، علم أن هذه التحريفات، تكذيب للرسول -ﷺ-، لا تصدر إلا من جاهل بما أخبر به أو منافق، لس بمؤمن به.

---

(١) وكل هذه الروايات ثابتة في «الصحاح» وغيرها، وسبقت الإشارة إلى ذكر من رواها.

فأما من آمن به، وعلم ما جاء به، فلا يكون إلا مصدقاً بمضمونها.

ومضمون ما يقوله هؤلاء المحرفون: أن العبادة تكون لغير الله، وهذا من جملة شركهم، فإنهم دخلوا في الشرك من وجوه: منها: إثباتهم خصائص الربوبية لغير الله، حتى جعلوه يدعي الربوبية، ويحاسب العباد، ويسجدون له»[1].

واعلم أن لهم تأويلات غير ما ذكر هنا، من ذلك ما ذكره الإمام ابن خزيمة في كتاب التوحيد، وما ذكره الفخر الرازي في «تأسيسه»، وتبعه على ذلك كل من جاء بعده من شراح الحديث، إلا من شاء الله -تعالى-، فلذلك ننقل ما فيه شبهة قد تشكل على من قرأ كلامهم، وننقل رد شيخ الإسلام عليهم، أما ما هو ظاهر البطلان، فلا حاجة إلى ذكره.

قال الرازي: «اعلم أن الصورة ما وردت في القرآن، ولكنها واردة في الأخبار، عن النبي -ﷺ- كقوله: «**إن الله خلق آدم على صورته**» وقوله: «**لا يقولن أحدكم لعبده: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته**».

ثم قال: «والجواب: اعلم أن الهاء في قوله: على صورته، يحتمل أن تكون عائدة على شيء غير صورة آدم، وغير الله، ويحتمل أن تكون عائدة إلى آدم، ويحتمل أن تكون عائدة إلى الله، فهذه طرق ثلاث».

ثم ذكر الطريقين الأولين والتأويل فيهما، ولظهور بطلان ما ذكره نعرض عنهما؛ لأننا قد ذكرنا فيما تقدم ما يبين بطلان كون الضمير عائداً إلى غير الله -تعالى-.

ثم قال: «الطريق الثالث أن يكون ذلك الضمير عائداً إلى الله -تعالى- وفيه وجوه:

الأول: المراد من الصورة: الصفة، فيكون المعنى: أن آدم عليه السلام امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالماً بالمعقولات، قادراً على استنباط الحرف، والصناعات، وهذه صفات شريفة، مناسبة لصفات الله من بعض الوجوه، فصح قوله -ﷺ-: «إن الله خلق آدم على صورته» بناءً على هذا التأويل.

فإن قيل: المشاركة في صفات كمال تقتضي المشاركة في الإلهية.

---

(1) «نقض التأسيس» (٣/ ٣٧٧-٣٨٣) مخطوط.

قلنا: المشاركة في بعض اللوازم البعيدة مع حصول المخالفة في الأمور الكثيرة لا تقتضي المساواة في الإلهية، ولهذا المعنى قال الله -تعالى-: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1]، وقال -ﷺ-: «تخلقوا بأخلاق الله»[2].

الثاني: أنه كما يصح إضافة الصفة إلى الموصوف، فقد يصح إضافتها إلى الخالق، والموجد، فيكون الغرض من هذه الإضافة الدلالة على أن هذه الصورة ممتازة عن سائر الصور، بمزيد الكرامة والجلالة.

قال: والخبر الثاني: ما رواه ابن خزيمة في كتابه الذي سماه «التوحيد» بإسناده عن ابن عمر، عن النبي -ﷺ- أنه قال: «لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن»، قال: واعلم أن ابن خزيمة ضعف هذه الرواية، ويقول: إن صحت هذه الرواية فلها تأويلان:

الأول: أن يكون المراد بالصورة: الصفة، على ما بيناه.

الثاني: أن يكون المراد من هذه الإضافة: بيان شرف هذه الصورة، كما في قوله: «بيت الله»، و «ناقة الله»[3].

وقد تولى شيخ الإسلام -رحمه الله- رد هذه التأويلات، رداً مقنعاً، عن علم، وبإنصاف، ولخطورة هذه المسألة، ومكانة شيخ الإسلام، فإني أكتفي بنقل كلامه هنا، وهو كاف واف.

قال -رحمه الله- بعدما نقل الكلام المتقدم عن الرازي:

«فيقال: هذا الحديث مخرج في «الصحيحين» من وجوه:

ففي «الصحيحين» عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك به فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم.

(٢) سيأتي -إن شاء الله تعالى- أنه حديث باطل لا أصل له.

(٣) «تأسيس التقديس» للرازي (ص ٨٣-٩١).

عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم»[١].

قال في رواية جعفر بن محمد بن رافع على صورته.

وروى البخاري من حديث أبي سعيد المقبري، ويحيى بن همام عن أبي هريرة عن النبي -ﷺ-، قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه»[٢].

وذكر بعض ما تقدم من روايات الحديث، ثم قال: لم يكن بين السلف، من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في هذا الحديث عائد إلى الله -تعالى-، فإنه مستفيض من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك، وهو أيضاً مذكور فيما عند أهل الكتابين، من الكتب، كالتوراة، وغيرها، وما كان من العلم الموروث عن نبينا محمد -ﷺ-، فلنا أن نستشهد عليه بما عند أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣].

ولكن كان العلماء في القرن الثالث، من يكره روايته، ويروي بعضه، كما يكره رواية بعض الأحاديث، لمن يخاف أن يلم نفسه ويفسد عقله، أو دينه، كما قال عبدالله بن مسعود: «ما من رجل يحدث قوماً حديثاً، لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة لبعضهم»[٤].

وفي البخاري، عن علي بن أبي طالب، أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٥].

---

(١) انظر: «البخاري مع الفتح» (٦/ ٣٦٢) و (١١/ ٢)، و «مسلم» (٤/ ٢١٨٣) رقم (٢٨٤١).

(٢) انظر: «الفتح» (٥/ ١٨٢)، ورواه مسلم من حديث المغيرة بن عبدالرحمن، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، وفيه: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته» (٤/ ٢٠١٧).

(٣) آخر آية من سورة الرعد.

(٤) رواه مسلم في «مقدمة الصحيح» (١/ ١١).

(٥) رواه في كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم؛ كراهية أن لا يفهموا، انظر: «الفتح» (١/ ٢٢٥).

وإن كانوا مع ذلك، لا يرون كتمان ما جاء به الرسول -ﷺ- مطلقاً، بل لا بد أن يبلغوه، حيث يصلح ذلك، ولذلك اتفقت الأمة على تبليغه، وتصديقه، وإنما دخلت الشبهة في الحديث؛ لتفريق ألفاظه، فإن من ألفاظه المشهورة: «إذا قاتل أحدكم فليتق الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته، ولا يقل أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته»[1].

وهذا فيه حكم عملي، يحتاج إليه الفقهاء، وفيه الجملة الثانية الخبرية المتعلقة بالإخبار، عن خلق آدم، فكثير من الفقهاء روى الجملة الأولى فقط، وهي قوله: «فإذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه» ولم يذكر الثانية.

وعامة أهل الأصول والكلام، إنما يروون الجملة الثانية وهي قوله: «خلق الله آدم على صورته»، ولا يذكرون الجملة الطلبية، فصار الحديث متواتراً بين الطائفتين، وصاروا متفقين على تصديقه، لكن مع تفريق بعضه عن بعض، وإن كان هو محفوظاً عند آخرين من علماء الحديث وغيرهم.

وقد ذكره النبي -ﷺ- ابتداءً في إخباره بخلق آدم، في ضمن حديث طويل، إذا ذكر على وجهه زال كثير من الأمور المحتملة.

ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة، جعل طائفة الضمير فيه عائداً إلى غير الله -تعالى-، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة، في عامة أمورهم، كأبي ثور، وابن خزيمة، وأبي الشيخ الأصبهاني وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة.

قال الشيخ أبو الحسن محمد بن عبدالملك الكرجي الشافعي في كتاب «الفصول في الأصول»: «فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة، فغير مقبول، وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معروف، غير مجهول، نحو ما ينسب إلى أبي بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة، في تأويل الحديث: «خلق الله آدم على صورته»، فإنه يفسر ذلك بذلك التأويل، ولم يتابعه عليه من قبله من أئمة الحديث، كما روينا عن أحمد -رحمه الله-، ولم يتابعه أيضاً من بعده، حتى رأيت في كتاب الفقهاء للعبادي الفقيه: أنه ذكر

---

(١) رواه عبدالرزاق في «المصنف» (٩/ ٤٤٥)، والدارقطني في «الصفات» (ص ٣٥، ٣٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٢٨، ٢٢٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٨١-٨٦).

الفقهاء، وذكر عن كل واحد منهم مسألة انفرد بها، فذكر الإمام ابن خزيمة، وأنه انفرد بتأويل هذا الحديث: «خلق الله آدم على صورته»، على أني سمعت عدة من المشايخ رووا أن ذلك التأويل مزور مربوط على ابن خزيمة، وإفك مفترى عليه، فهذا وأمثال ذلك من التأويل لا نقبله ولا يلتفت إليه».

قلت: ذكر الحافظ أبو موسى المديني، فيما جمعه من مناقب إسماعيل بن محمد التيمي، قال: سمعته يقول: أخطأ محمد بن إسحاق بن خزيمة في حديث الصورة، ولا يطعن عليه ذلك، بل لا يؤخذ عنه هذا فحسب. قال أبو موسى: أشار بذلك إلى أنه قلَّ من إمام إلا وله زلة، فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته، ترك كثير من الأئمة.

إذا عرف ذلك فيقال: أما عود الضمير إلى غير الله -تعالى-، فباطل من وجوه:

أحدها: ما في «الصحيحين» ابتداءً «أن الله خلق آدم على صورته طوله ستون ذراعاً».

وفي أحاديث أخر: «أن الله خلق آدم على صورته» ولم يقدم ذكر أحد يعود الضمير إليه.

وما ذكر بعضهم: من أن النبي -ﷺ- رأى رجلاً يضرب رجلاً، ويقول: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فقال: «خلق الله آدم على صورته» أي صورة هذا المضروب.

فهذا شيء لا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث.

الثاني: أن الحديث الآخر لفظه: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته»[1] وليس في هذا ذكر أحد يعود الضمير إليه.

الثالث: أن اللفظ الذي ذكره ابن خزيمة، وتأوله، وهو قوله: «لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ووجهاً أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته»[2]، ليس فيه ذكر أحد يصلح عود الضمير إليه، وقوله في التأويل: أراد -ﷺ- أن الله

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم تخريجه.

خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب، والذي قبح وجهه، فزجر -ﷺ- أن يقول: ووجه من أشبه وجهك.

فيقال له: لم يتقدم ذكر مضروب، فيما رويته عن النبي -ﷺ-، ولا في لفظه ذكر ذلك، بل قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته»، ولم يقل: إذا قاتل أحدكم أحداً، أو إذا ضرب أحداً، والحديث الآخر ذكرته[1] من رواية الليث بن سعد، ولفظه: «ولا يقل أحدكم: قبح الله وجهك، ووجهاً أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته»[2].

وليس في هذا ذكر مضروب، حتى يصلح عود الضمير إليه.

فإن قيل: قد يعود الضمير إلى ما دل عليه الكلام، وإن لم يكن مذكوراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾[3] أي: البخل؛ لأن لفظ البخل يدل على المصدر الذي هو البخل، ومنه قول الشاعر:

إذا نهي السفيه جرى إليه وخالف، والسفيه إلى خلاف

أي: إلى السفه.

قيل: إنما يكون ذلك فيما لا لبس فيه، حيث لم يتقدم ما يصلح لعود الضمير إلا ما دل عليه الخطاب، فيكون العلم بأنه لا بد للظاهر من مضمر يدل على ذلك، أما إذا تقدم اسم صريح قريب إلى الضمير، فلا يصلح أن يترك عوده إليه، ويعود إلى شيء متقدم، لا ذكر له في الخطاب، وهذا مما يعلم بالضرورة فساده في اللغات.

الرابع: أنه في مثل هذا لا يصلح إفراد الضمير، فإن الله خلق آدم على صورة بنيه كلهم، فتخصيص واحد لم يتقدم له ذكر، بأن الله خلق آدم على صورته، في غاية البعد.

لا سيما وقوله: «إذا قاتل أحدكم»، و «إذا ضرب أحدكم» عام في كل مضروب.

والله خلق آدم على صورهم جميعهم، فلا معنى لإفراد الضمير.

---

(١) الخطاب لابن خزيمة، فإنه رواه من هذا الطريق.

(٢) انظر: كتاب «التوحيد» لابن خزيمة (١/ ٨١-٨٦).

(٣) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران.

وكذلك قوله: «**لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك**» عام في كل مخاطب، والله قد خلقهم كلهم على صورة آدم.

الخامس: أن ذرية آدم خلقوا على صورة آدم، لم يخلق آدم على صورهم.

فإن مثل هذا الخطاب إنما يقال فيه: خلق الثاني المتأخر في الوجود على صورة الأول المتقدم في الوجود، لا يقال: إنه خلق الأول على صورة الثاني المتأخر في الوجود، كما يقال: خلق الخلق على غير مثال، أو نسج هذا على منوال هذا، ونحو ذلك، فإنه في جميع هذا إنما يكون المصنوع المقيس متأخراً في الذكر، عن المقيس عليه.

وإذا قيل: خلق الوالد على صورة ابنه، أو على خلق ابنه، كان كلاماً فاسداً، بخلاف ما إذا ذكر التشبيه بغير لفظ الخلق، وما يقوم مقامه، مثل أن يقال: الوالد يشبه ولده، فإن هذا سائغ؛ لأن قوله: «خلق» إخبار عن تكوينه، وإبداعه، على مثال غيره، ومن الممتنع أن الأول يكون على مثال ما لم يكن بعد، وإنما يكون على مثال ما قد كان.

السادس: أنه إذا كان المقصود أن هذا المضروب والمشتوم يشبه آدم، فمن المعلوم أن هذا من الأمور الظاهرة، المعلومة للخاص والعام، فلو أريد التعليل بذلك لقيل: «فإن هذا يدخل فيه الأنبياء، إذ هذا يدخل فيه آدم، أو نحو ذلك من العبارات، التي تبين قبح كلامه، وهو اشتمال لفظه على ما يعلم هو وجوده».

أما مجرد إخباره بما يعلم وجوده كل أحد، فلا يستعمل في مثل هذا الخطاب.

السابع: أن يقال إذا أريد مجرد المشابهة لآدم وذريته، لم يحتج إلى لفظ «خلق» على كذا، فإن هذه العبارة إنما تستعمل فيما فعل على مثال غيره، بل يقال: «فإن وجهه يشبه وجه آدم»، أو «فإن صورته تشبه صورة آدم».

الثامن: أن يقال: مثل هذه تصلح لقوله: «**لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك**» فكيف يصلح لقوله: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه».

ومعلوم أن كون صورته تشبه صورة آدم، لا توجب سقوط العقوبة عنه، فإن الإنسان لو كان يشبه نبياً من الأنبياء، أعظم من مشابهة الذرية لأبيهم في مطلق الصورة والوجه، ثم وجبت على ذلك الشبيه بالنبي عقوبة، لم تسقط عقوبته بهذا

الشبه باتفاق المسلمين، فكيف يجوز تعليل تحريم العقوبة بمجرد المشابهة المطلقة لآدم؟

التاسع: أن في ذرية آدم من هو أفضل منه، وتناول اللفظ لجميعهم واحد، فلو كان المقصود بالخطاب ليس ما يختص به آدم، من ابتداء خلقه على صورته، بل المقصود مجرد مشابهة المضروب المشتوم له، لكان ذكر سائر الأنبياء أولى، كإبراهيم، وموسى، وعيسى، وإن كان آدم أباهم، فليس هذا المقام مقاماً له به اختصاص، على زعم هؤلاء.

العاشر: -وهو قاطع أيضاً- أن يقال: كون الوجه يشبه وجه آدم، هو مثل كون سائر الأعضاء تشبه أعضاء آدم، فإن رأس الإنسان، يشبه رأس آدم، ويده تشبه يده، ورجله تشبه رجله، وبطنه، وظهره، وفخذه، وساقه، يشبه بطنه وظهره وفخذه وساقه، فليس للوجه بمشابهة آدم اختصاص.

بل جميع أعضاء البدن بمنزلته في ذلك، فلو صح أن يكون هذا علة لمنع الضرب، لوجب أن لا يجوز ضرب شيء من أعضاء بني آدم؛ لأن ذلك جميعه على صورة أبيهم آدم.

وفي إجماع المسلمين على وجوب ضرب هذه الأعضاء، في الجهاد للكفار والمنافقين، وإقامة الحدود -مع كونها مشابهة لأعضاء آدم، وسائر النبيين- دليل على أنه لا يجوز المنع من ضرب الوجه، ولا غيره؛ لأجل هذه المشابهة.

الحادي عشر: أنه لو كان علة النهي عن شتم الوجه وتقبيحه: أنه يشبه وجه آدم، لنهي أيضاً عن الشتم والتقبيح لسائر الأعضاء [فيقال]: لا يقولن أحدكم: قطع الله يدك، ويد من أشبه يدك.

الثاني عشر: أن ما ذكروه من أنه إبطال لقول من يقول: إن آدم كان على صورة أخرى، مثل ما يقال: عظيم الجثة، طويل القامة، وإن النبي -ﷺ- أشار إلى إنسان معين، وقال: إن الله خلق آدم على صورته، أي كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان، من غير تفاوت البتة.

فيقال لهم: الحديث المتفق عليه في «الصحيحين»، مناقض لهذا التأويل، مصرح فيه بأن خلق آدم أعظم من صور بنيه بشيء كثير، وأنه لم يكن على شكل أحد من أبناء الزمان.

فعن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «خلق الله آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً، ثم قال له: اذهب، فسلم على أولئك الملائكة، فاسمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم.
قال: فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[1].

قال في رواية يحيى بن جعفر، ومحمد بن رافع: «على صورته»، وذكر فيه: طوله ستون ذراعاً، وأن الخلق لم يزل ينقص حتى الآن، وأن أهل الجنة يدخلون على صورة آدم.

ولم يقل: إن آدم على صورتهم، بل قال: على صورة آدم.

وقد روي: أن عرض أحدهم سبعة أذرع، فهل في تبديل كلام الله ورسوله أبلغ من هذا؟ أن يجعل ما أثبته النبي -ﷺ- وأخبر به، وأوجب التصديق به، قد نفاه، وأبطله، وأوجب تكذيبه، وإبطاله؟

الثالث عشر: أنه قد روي من غير وجه: «على صورة الرحمن»[2].

وأما عود الضمير على آدم ففاسد، وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: أنه إذا قيل: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورة آدم» أو: «لا يقل أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورة آدم».

كان هذا من أفسد الكلام، فإنه لا يكون بين العلة والحكم مناسبة أصلاً؛ فإن كون آدم مخلوقاً على صورة آدم، فأي تفسير فسر، فليس في ذلك مناسبة للنهي عن ضرب وجوه بنيه، ولا عن تقبيحها، وتقبيح ما يشبهها. وإنما دخل التلبيس بهذا التأويل حيث فرق الحديث:

فروى قوله: «إذا قاتل أحدكم، فليتق الوجه» وحده مفرداً.

وروى قوله: «إن الله خلق آدم على صورته» مفرداً.

---

(١) تقدم الحديث.

(٢) تقدم تخريجه، وانظر كتاب «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٨٥) وذكر من خرجه هناك غيره، ورواه الدارقطني في «الصفات» (ص ٣٦-٣٧) وهو حديث ثابت.

أما مع أداء الحديث على وجهه، فإن عود الضمير إلى آدم، يمتنع فيه؛ وذلك أن خلق آدم على صورة آدم، سواء كان فيه تشريف لآدم، أو كان مجرد إخبار بالواقع، لا يناسب الحكم.

الوجه الثاني: أن الله خلق سائر أعضاء آدم على صورة آدم، فلو كان ذلك مانعاً من ضرب الوجه وتقبيحه لوجب أن يكون مانعاً من ضرب سائر الأعضاء، وتقبيح سائر الصور، وهذا معلوم الفساد في العقل والدين، وتعليل الحكم الخاص بالعلة المشتركة، من أقبح الكلام.

وإضافة ذلك إلى النبي -ﷺ- لا يصدر إلاعن جهل عظيم، أو نفاق شديد، إذ لا خلاف في علمه، وحكمته، وحسن كلامه.

فإن هذا مثل أن يقال: لا تضربوا وجوه بني آدم، فإن أباهم له صفات يختص هو بها دونهم، مثل كونه خلق من غير أبوين.

أو يقال: لا تضربوا وجوه بني آدم، فإن أباهم خلق من تراب.

الوجه الثالث: أن هذا تعليل للحكم بما يوجب نفيه، وهذا من أعظم التناقض، وذلك أنهم تأولوا الحديث على أن آدم لم يخلق من نطفة، وعلقة، ومضغة، وعلى أنه لم يتكون في مدة طويلة، بواسطة العناصر، وبنوه قد خلقوا من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، وخلقوا في مدة من عناصر الأرض.

فإن كانت العلة المانعة من الضرب للوجه وتقبيحه كونه خلق على هذا الوجه، وهذه العلة منتفية في بنيه، فينبغي أن يجوز ضرب وجوه بنيه، وتقبيحها؛ لانتفاء العلة فيها، فإن آدم هو الذي خلق على صورته دونهم، إذ هم لم يخلقوا على صورهم التي هم عليها، كما خلق آدم، بل نقلوا من نطفة إلى علقة، ثم إلى مضغة.

الوجه الرابع: ما أبطل به الإمام أحمد هذا التأويل، حيث قال: من قال: إن الله خلق آدم على صورة آدم، فهو جهمي، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلق؟

وهذا الوجه الذي ذكره الإمام أحمد يعم الأحاديث كلها، قوله ابتداء: «إن الله خلق آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً».

وقوله: «**لا تقبحوا الوجه**» إلى آخره، و «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته».

وذلك أن قوله: «خلق آدم على صورته» يقتضي أنه كان له صورة قبل الخلق [خلقه] عليها.

فإن هذه العبارة لا تستعمل إلا في مثل ذلك، وبمثل هذا أبطلنا قول من يقول: إن الضمير عائد إلى المضروب، فإن المضروب متأخر عن آدم، فجميع ما يذكر من التأويلات مضمونها أن صورته تأخرت عنه، فتكون باطلة.

وأيضاً: فمن المعلوم بالضرورة أنه لم تكن لآدم صورة خلق عليها قبل صورته التي خلقها الله -تعالى-.

الوجه الخامس: أن جميع ما يذكر من التأويلات، كقولهم: خلق آدم على صورة آدم، موجود نظيره في جميع المخلوقات، سواء أريد بذلك الصورة الثابتة قدراً في علم الله، وكتابه، أو غير ذلك.

وأما كونه خلق على صورته ابتداء، أو في غير مدة، فإنه ليس كذلك، بل خلقه تنقل من حال إلى حال، من التراب إلى الطين، ثم إلى الصلصال، كبنيه فإنهم من نطف، إلى علق، ثم إلى مضغ.

فإذا جاز أن يقال في أحدهما: خلق على صورته، مع تنقل إلى هذه الأطوار، جاز ذلك في الآخر.

ولا شك أن هذه الأحاديث وردت في تخصيص آدم، بأنه خلق على صورته دون غيره من الخلق، وإن كان بنوه تبعاً له في ذلك.

ولكن هذا كخلقه بيده، وإسجاد ملائكته له، وبهذا علم بطلان ما يوجب الاشتراك، ويزيل الاختصاص.

الوجه السادس: أن المعنى الذي تدل عليه هذه العبارة التي ذكروها هي من الأمور المعلومة ببديهة العقل، التي لا يحسن بيانها، والخطاب بها لتعريفها، فإن قول القائل: إن الشيء الفلاني خلق على صورة نفسه، لا يدل لفظه على غير ما هو معلوم بالعقل، إن كان مخلوقاً على الصورة التي خلق عليها.

وهذا مثل أن يقال: أوجد الله الشيء، كما أوجده، وخلق الله الأشياء على ما هي عليه، وعلى الصورة التي هي عليها، ونحو ذلك، مما هو معلوم ببديهة العقل، ومعلوم أن بيان هذا وإيضاحه قبيح جداً.

الوجه السابع: أن ما ذكروه من كون آدم خلق على صورة آدم، أو أنه خلق من غير نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، أو أنه لم يخلق من مادة، أو بواسطة القوى والعناصر -كما يدعون- لا دليل عليه، وليس في هذه الأحاديث ما يدل عليه بحال من الأحوال.

الوجه الثامن: أن الحديث، روي من وجوه، بألفاظ تبطل دعوى الضمير إلى آدم، مثل قوله: «**لا تقبحوا الوجه، فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن**»[1].

وقوله في الطريق الآخر، من حديث أبي هريرة: «**إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن**»[2].

وقول ابن عباس فيما ذكره عن الله -تعالى-: «تعمد إلى خلق من خلقي، خلقتهم على صورتي، فتقول لهم: اشربوا يا حمير»[3].

وأما تضعيف ابن خزيمة لحديث ابن عمر، بأن الثوري أرسله، فخالف فيه الأعمش، وأن الأعمش وحبيباً مدلسان.

فيقال: قد صححه إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس.

وأيضاً فمن المعلوم أن عطاء بن أبي رباح، إذا أرسل هذا الحديث، عن النبي -ﷺ- فلا بد أن يكون قد سمعه من أحد.

فإذا كان في إحدى الطريقين، قد بين أنه أخذه عن ابن عمر، كان بياناً وتفسيراً لما تركه، وحذفه في الطريق الأخرى، ولم يكن هذا اختلافاً أصلاً.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم أيضاً ذكر من رواه.

(٣) روي أن هذا الخطاب موجه إلى موسى ﷺ لما ضرب الحجر وانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

ولو قدر أن عطاء لم يذكره إلا مرسلاً، عن النبي -ﷺ-، فمن المعلوم أن عطاء من أجل التابعين قدراً، فإنه هو، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، من أئمة التابعين في زمانهم.

ومن المعلوم أن مثل عطاء، لو أفتى في مسألة فقه، بموجب خبر أرسله، لكان ذلك يقتضي ثبوته عنده.

ولهذا يجعل الفقهاء احتجاج المرسل بالخبر دليلاً على ثبوته عنده.

والأخبار التي توجب العلم أعظم من التي توجب العمل.

فإذا كان عطاء، قد جزم بهذا الخبر العلمي، عن النبي -ﷺ- في هذا الباب العظيم، فلا يمكن أن يستجيز ذلك من غير أن يكون ثابتاً عنده.

واتفاق السلف على رواية هذا الخبر، ونحوه، مثل عطاء، وحبيب بن أبي ثابت، والأعمش، والثوري، وأصحابهم، من غير نكير سمع من أحد لمثل ذلك، في ذلك العصر، مع أن هذه الروايات المتنوعة في مظنة الاشتهار، دليل على أن علماء الأمة [لا] تنكر إطلاق القول بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن، بل كانوا متفقين على إطلاق مثل هذا.

وكراهة بعضهم لرواية ذلك في بعض الأوقات، له نظائر، فإن الشيء قد يمنع سماعه لبعض الجهال، وإن كان متفقاً عليه بين علماء المسلمين.

والله -تعالى- قد وصف هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وأنها تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، فمن الممتنع أن يكون في عصر التابعين، يتكلم أئمة ذلك العصر بما هو كفر، وضلال، ولا ينكر عليهم أحد.

فلو كان قوله: «**خلق آدم على صورة الرحمن**»، باطلاً، لكانوا مقرين للباطل، غير منكرين له.

وقد روي بهذا اللفظ من طريقين مختلفين، كما روي عن أبي هريرة، فيؤيد أحدهما الآخر، ويشهد له، ويعتبر به، بل قد يفيد ذلك العلم، إذا خيف في الرواية من تعمد الكذب، أو من سوء الحفظ.

فإذا كان الرواة ممن لا يتواطأون في العادة على الكذب، لم يبق إلا سوء الحفظ، فإذا تبين أن كل واحد منهم حفظ مثل ما حفظ الآخر، كان ذلك دليلاً على أن الحديث محفوظ، ولهذا مَنْ منع مِن الاحتجاج بالمرسل، إذا روي من وجه آخر؛ احتج به.

ولهذا الترمذي وغيره، يجعل الحسن: ما روي من وجهين مختلفين، وليس في طريقه متهم بالكذب، ولم يكن مخالفاً للأخبار المشهورة، وأدنى أحوال هذا الحديث ذلك.

ويؤيده أن الصحابة تكلموا بمعناه، كما تقدم عن ابن عباس.

وليس ذلك مأخوذاً عن أهل الكتاب؛ لأنه كان ينهى عن الأخذ عنهم، كما في البخاري وغيره، ولا يجوز أن يكون ذلك من قبيل الرأي.

وهذه الوجوه كلها مبطلة لقول من يعيد الضمير إلى آدم.

فهي أدلة مستقلة في الإخبار بأن الله خلق آدم على صورة نفسه -تعالى-.

وبهذا يحصل الجواب عما يذكر من كون الأعمش وحبيب مدلسين، فقد أخذه عنهما الأئمة، ووافقهما الثوري، وتلقاه العلماء -مثل أحمد وإسحاق وسفيان، وغيرهم- بالقبول.

وقد قدمنا أنه يجوز الاستشهاد بما عند أهل الكتاب، مما هو موافق لما أثر عن نبينا -ﷺ-، ففي السفر الأول من التوراة: «سنخلق بشراً على صورتنا، يشبهنا»[1].

وأما قول المؤولة: إن الله لم يغير صورة آدم، ولم يمسخها كل مسخ غيره، كالحية والطاووس، ولهذا قيل: خلق آدم على صورته، أي: على صورة آدم.

فيقال: العبارة المعروفة عن هذا المعنى أن يقال: أبقى آدم على صورته، أو تركه على صورته، أو لم يغير صورة آدم، لا يقال: خلقه على صورة نفسه، فإن هذا اللفظ لا يستعمل في مثل هذا المعنى.

---

(١) هذا النص يوجد في التوراة السامرية هكذا: «وقال الله: نصنع إنساناً يشبهنا وصورتنا، ليستولي على سمك البحر» (ص ٣٦) طبعة السقا.

ولهذا قال الله -تعالى- عن الذين مسخ منهم قردة، وخنازير: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[1]، ولم يقل: وخلق منهم.

كما أن من المعروف الظاهر لكل أحد: أن صورة آدم كانت كهذه الصور لبنيه لم تمسخ، وما ذكروه من مسخ غير آدم غير معلوم، ولا مذكور.

وأما قولهم: إنه أراد به بيان بطلان قول الدهرية، في أن الإنسان لا يتولد إلا من نطفة، ودم الطمث.

فيقال لهم: قد أخبر الله -تعالى- أنه خلق آدم من الماء والتراب، ومن الطين، ومن الحمأ المسنون، فهذه نصوص ظاهرة متواترة، يسمعها العام والخاص، تبين أنه لم يخلق من نطفة، ودم الطمث، وتبطل هذا القول إبطالاً بيناً معلوماً بالاضطرار.

وأما قوله: إن آدم خلق على صورة آدم، فليس فيه دلالة على إبطال قول الدهرية ولا غيرهم.

وقولهم: خلق آدم ابتداء من غير تقدم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

يقال لهم: بعد تقدم، تراب، وطين، وصلصال.

وأما قولهم: إن الصورة تذكر ويراد بها الصفة، يقال: شرحت له صورة هذه الواقعة، وذكرت له صورة هذه المسألة.

والمراد: أن الله -تعالى- خلق آدم من أول الأمر كاملاً، تاماً، في علمه، وقدرته، وكونه سعيداً، عارفاً، تائباً.

فيقال: الصورة: هي الصورة الموجودة في الخارج، ولفظ «صَ وَ رَ» يدل على ذلك، وما من موجود من الموجودات إلا [له] صورة في الخارج.

وما يكون من الوقائع، يشتمل على أمور كثيرة، لها صور موجودة.

وكذلك المسئول عنه من الحوادث، وغيرها، له صور موجودة في الخارج، ثم تلك الصور الموجودة، ترتسم في النفس صورة ذهنية.

فقوله: شرحت له صورة الواقعة، وأخبرني بصورة المسألة.

إما أن يكون المراد به الصورة الخارجية، أو الصورة الذهنية.

---

(١) الآية ٦٠ من سورة المائدة.

وأما الصفة: فهي في الأصل: مصدر وصفت الشيء، أصفه، وصفاً، ثم يسمون المفعول، باسم المصدر [صفة].

وإذا كان ما في النفس من العلم بالشيء، يسمى مثلاً له، وصفة.

فالصورة الذهنية: هي المثل الذي يسمى أيضاً صفة، ومثلاً.

ولهذا يقال: تصورت الشيء، وتمثلت الشيء، وتخيلته، إذا صار في نفسك صورته ومثاله وخياله.

كما يسمى مثاله الخارجي: صورة، كما قال النبي -ﷺ-: «لعن الله المصورين»[1].

كما يسمى ذلك تمثالاً، في مثل قول علي: «بعثني رسول الله -ﷺ- فأمرني أن لا أدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»[2].

وقوله: لفظ الصورة يذكر ويراد به: الصفة.

إن أراد به أن الصورة توصف بالقول، وأن لفظ الصورة يراد به ما يوصف بالقول من الصورة الخارجية، أو ما يطابقه من الصورة الذهنية، فهذا قريب.

ولكن هذا يوجب أن يكون له صورة خارجية، وإن طابقتها الصورة الذهنية.

وإن أراد به أن لفظ الصفة قد لا يراد به إلا ما يقوم بالأعيان، كالعلم، والقدرة، فهذا باطل، لا يوجد في الكلام أن قول القائل -مثلاً-: صورة فلان يراد بها مجرد الصفات القائمة [به]، من العلم، والقدرة، ونحو ذلك.

بل هذا من البهتان على اللغة وأهلها.

وأيضاً فقول القائل: خلق آدم، على صورة آدم، بمعنى: على صفة آدم، لا يدل على أنه خلق على صفات الكمال ابتداء، ولو أريد بالصورة ما يتأخر عن وجوده، فإن المخلوق على صفة من الصفات، يخلق عليها في وقت خلقه وبعده، يبين ذلك أنه جعل أحد المحملين كونه خلق عارفاً، تائباً، مقبولاً عند الله -تعالى- ومعلوم أن هذه الصفة تأخر وجودها عن ابتداء خلقه، فإن التوبة كانت بعد الذنب.

---

(١) سيأتي الحديث مشروحاً -إن شاء الله- وهو متفق عليه.

(٢) رواه مسلم، انظر: (رقم ٩٦٩) (٢/ ٦٦٦).

فإذا كان لا ينافي كونه مخلوقاً عليها تأخرها، فكذلك صفة العلم والقدرة، لا ينافي كونه مخلوقاً عليهما تأخرهما عن ابتداء خلقه، وإذا كان كذلك، فلا فرق بينه وبين غيره.

وعلى كلٍّ فما ذكره من أن معنى الحديث: أنه خلق كاملاً، باطل، فإن آدم لم يجعل ابتداء على صفة الكمال، بل بعد أن خلقه الله -تعالى- علمه الأسماء التي لم يكن بها عالماً، كما علم بنيه البيان، بعد أن خلقهم.

فهذه التأويلات: تارة يكون المعنى المحمول عليه النص فيها باطلاً، وتارة يكون غير دال عليه، وتارة يكون النص دالاً على نقيض ما يقوله المؤول، ومضاداً له.

وتارة يجمع من ذلك ما يجمع، وهذا شأن أهل التحريف، والإلحاد، ومن ذلك ما ذكر لأحمد، فقال: إن قائل ذلك جهمي، وهو قوله: «خلق على صورة الطين»، وهذا وإن كان أجود من هذه التأويلات المذكورة، فإنه فاسد، فإن هذا يقتضي أن تكون له صورة أخرى، خلقت على تلك الصورة، وآدم بعينه هو تلك الصورة، التي خلق فيها الروح.

بل تصويره هو خلقه من تراب، ثم من طين، كما قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[1] فقدم الخلق على التصوير، فكيف تكون الصورة لآدم سابقة على الخلق، حتى يقال: خلق آدم على تلك الصورة.

ولو أريد أنه خلق من صورة الطين، لا من أبوين، لقيل كما قال الله -تعالى-: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾، وقال -تعالى-: ﴿خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[2]، وقال -تعالى-: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾}[3].

وكذلك لو تأوله متأول على الصورة المقدرة له، وهي ما سبق له في علم الله -تعالى- وكلامه، وكتابه -أي خلق آدم على الصورة التي قدرها له- فهذا لا يصح، وإن كان الله -تعالى- خلق كل شيء على ما سبق من تقديره، فتأويل الحديث بذلك باطل؛ لأن جميع الأشياء خلقها الله -تعالى- على ما قدره، فلا اختصاص لآدم بذلك، كما أنه لا يصح أن يقول: لا تقبحوا الوجه، ولا يقول أحدكم: قبح

(١) الآية ١١ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٧١ من سورة ص.

(٣) الآية ٢٨ من سورة الحجر.

الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على ما قدره؛ فإن الوجه وسائر المخلوقات خلقها الله على ذلك، فينبغي أن لا يصلح تقبيح شيء من الأشياء البتة؛ لعموم العلة.

وقوله في الحديث: «فكل من يدخل الجنة يدخلها على صورة آدم» صريح في أنه أراد صورة آدم المخلوقة، لا المقدرة.

وتسمية ما قدر «صورة» ليس له أصل في كلام الله وكلام رسوله -ﷺ-.

وإن كان بعض المتأخرين يقول: لفلان عند فلان صورة عظيمة، وهذا الأمر مصور في نفسي، لكن مثل هذا لا يجوز أن يحمل عليه كلام رسول الله -ﷺ- ولا خطابه لأمته، لأنه ليس من لغته»[1].

وأما قوله: المراد من الصورة الصفة، كما بيناه، فيكون المعنى: أن آدم امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بكونه عالماً بالمعقولات، قادراً على استنباط الحرف والصناعات، وهذه صفات شريفة مناسبة لصفات الله من بعض الوجوه، فصح قوله: إن الله خلق آدم على صورته على هذا التأويل.

فالكلام عليه من وجوه:

أحدها: أنه تقدم أن لفظ الصفة، سواء عني به القول الذي يوصف به الشيء، وما يدخل في ذلك من المثال العلمي الذهني، أو أريد به المعاني القائمة بالموصوف، فإن لفظ الصورة لا يجوز أن يقتصر به على ذلك، بل لا يكون لفظ الصورة إلا لصورة موجودة في الخارج، أو لما يطابقها من العلم والقول، وذلك المطابق يسمى صفة، ويسمى صورة.

وأما الحقيقة الخارجية، فلا تسمى: صفة، كما أن المعاني القائمة بالموصوف لا تسمى وحدها: صورة.

وإذا كان كذلك، فقوله: «على صورته» لا بد أن يدل على الصورة الموجودة في الخارج، القائمة بنفسها، التي ليست مجرد المعاني القائمة بها، من العلم والقدرة، وإن كان لتلك [المعاني] صورة، وصفة ذهنية؛ إذ وجود هذه الصورة الذهنية مستلزم لوجود [الصورة الخارجية] وإلا [كانت الصورة الذهنية] جهلاً لا علماً.

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٢٠٢-٢٥٠).

فسواء عنى بالصورة، الصورة الخارجية، أو العلمية، لا يجوز أن يراد به مجرد المعنى القائم بالذات، والمثال العلمي المطابق لذلك.

الوجه الثاني: أن قوله: إن آدم امتاز عن سائر الأشخاص والأجسام بالعلم والقدرة، إن أراد به امتيازه عن بنيه، فليس كذلك، وإن أراد امتيازه عن الملائكة والجن، فهو لم يتميز بنفس العلم والقدرة، فإن الملائكة قد تعلم ما لا يعلمه آدم، كما أنها تقدر على ما لا يقدر عليه؛ وإن كان علمه الله ما لم تكن الملائكة تعلمه.

فقد ثبت باتفاق الطوائف، أن آدم لم يخلق على صفة من العلم والقدرة امتاز بها عن سائر الأشخاص والأجسام، بل فيها من كان امتيازه عن آدم بالعلم والقدرة أكثر.

الوجه الثالث: أن يقال: المشاركة في بعض الصفات، واللوازم البعيدة، إما أن يصحح قول القائل: إن الله خلق آدم على صورة الله، أو لا يصحح ذلك، فإن لم يصحح ذلك، بطل قولك.

وإن كانت تلك المشاركة تصحح هذا الإطلاق، جاز أن يقال: إن الله خلق كل ملك من الملائكة على صورته، بل خلق كل حي على صورته؛ إذ ما من شيء من الأشياء، إلا وهو يشاركه في بعض اللوازم البعيدة، كالوجود، والقيام بالنفس، وحمل الصفات.

فعلى هذا يصح أن يقال في كل جسم وجوهر: إن الله خلقه على صورته.

[فبطل هذا التأويل على التقديرين].

الوجه الرابع: أن لفظ الحديث: «إذا قاتل أحدكم، أو ضرب أحدكم، فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته» فنهى عن ضرب الوجه؛ لأن الله خلق آدم على صورته، فلو كان المراد مجرد خلقه عالماً قادراً، ونحو ذلك، لم يكن للوجه بذلك اختصاص، بل لا بد أن يريد الصورة التي يدخل فيها الوجه، ومثل ذلك يقال في اللفظ الآخر: «لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته»، فهو يقتضي النهي عن ذلك؛ لتناوله لله -تعالى-، وأن وجه ابن آدم داخل فيما خلقه الله على صورته.

فإن قيل: هذا تصريح بأن وجه الله يشبه وجه الإنسان، كما ورد: «صورة الإنسان على صورة الرحمن»[1].

فالجواب: أن هذا أيضاً لازم للمنازع، ولهذا أورده الرازي، وأجاب عنه بقوله: «فإن قيل: المشاركة في صفات الكمال، تقتضي المشاركة في الإلهية، قلنا: المشاركة في بعض اللوازم البعيدة، مع حصول المخالفة في الأمور الكثيرة، لا تقتضي المساواة في الإلهية، ولهذا المعنى قال -تعالى- ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]، وقال -ﷺ-: «تخلقوا بأخلاق الله»[3].

فيقال: لا ريب أن كل موجودين، لا بد أن يتفقا في شيء يشتركان فيه، وأن أحدهما أكمل فيه وأولى من الآخر، وإلا إذا قدر أنهما لا يتفقان في شيء أصلاً، ولا يشتركان فيه، لم يكونا موجودين، وهذا معلوم بالفطرة البديهية، التي لا يتنازع فيها العقلاء، الذين يفهمونها.

وهذا الذي جاءت به السنة من ثبوت هذا الشَّبه من بعض الوجوه، وقد أخبر به الرسول -ﷺ- فوجب قبوله، والإيمان به، والله -تعالى- هو الذي خلق آدم على صورته، وهذا لا يناقض قوله -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ لأن المماثلة منفية عن الله -تعالى- على كل حال، فهو -جل وعلا- لا يماثله شيء، وليس له سمي، ولا ند، ولا كفء، وكل ذلك لا يمنع المشابهة من بعض الوجوه البعيدة، كالوجود مثلاً، والعلم، والحياة، ونحو ذلك.

الوجه الخامس: أن يقال: المحذور الذي فروا منه إلى تأويل الحديث، على أن الصورة بمعنى الصفة، أو الصفة المعنوية؛ أو الروحانية، ونحو ذلك، يلزمهم فيما أثبتوه نظير ما فروا [منه].

فإذا كان مثل هذا لازماً على التقديرين، لم يجز ترك مقتضى الحديث، ومفهومه، مع أنه لا محذور فيه.

---

(١) تقدم ذكر من رواه.

(٢) الآية ٢٧ من سورة الروم.

(٣) «أساس التقديس» (ص ٨٦-٨٧)، والحديث غير معروف، بل هو موضوع، كما قاله شيخ الإسلام، انظر: «نقض التاسيس» (٣/ ٢٧٢).

وذلك أن كون الإنسان على صورة الله -تعالى- التي هي صفته، أو صورته المعنوية، أو الروحانية، فيه نوع من المشابهة.

كما أنه إذا أقر الحديث كما جاء فيه نوع من المشابهة، غايته أن يقال: المشابهة هنا أكثر، ولكن مسمى نوع من المشابهة لازم على التقديرين.

والتشبيه المنفي بالنص، والإجماع، والأدلة العقلية الصحيحة، منتف على التقديرين.

وإذا ادعى المنازع أن هذا فيه نوع من التجسيم المقتضي للتركيب، فقد تقدم أن ما يسمونه تركيباً لازم على القول بثبوت الصفات، بل على القول بنفس الوجود الواجب، بل هو لازم لمطلق الوجود.

وتقدم بيان ذلك، وبيان أن جميع ما يدعى من الأدلة العقلية المانعة من ذلك أنها فاسدة، ومتناقضة.

ومعنى فسادها ظاهر، ومعنى تناقضها: أن ما يدعيه يلزمه من الإثبات نظير ما نفاه، فيكون جامعاً بين النفي، وإثباته، وإثبات نظيره.

الوجه السادس: أن يقال: إذا كان مخلوقاً[1] على صورة الله -تعالى- المعنوية، فلا يخلو: إما أن يكون ذلك مقتضياً لكون صفات العبد المعنوية، من جنس صفات الله، بحيث تكون حقيقتها من جنس حقيقتها، أو لا يقتضي ذلك، بل يقتضي المشابهة فيها مع تباين الحقيقتين.

فإن كان مقتضى الحديث الأول، فهو تصريح بأن الله له مثل، وهذا باطل، وهو أيضا ممتنع في العقل.

فإن المتماثلين في الحقيقة، يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر، ويجب له ما يجب له، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه.

والمخلوق يجب أن يكون معدوماً، محدثاً، مفتقراً، ممكناً.

والخالق يجب أن يكون قديماً، واجب الوجود، غنياً.

---

(١) التقدير: إذا كان آدم مخلوقاً... الخ.

[فيلزم] أن يكون الشيء الواحد واجباً، ممكناً، غنياً، فقيراً، موجوداً، معدوماً، وهذا جمع بين النقيضين.

فثبت أن الحديث لا يجوز حمله على هذا [المعنى].

وأيضاً: فإنه لا هذا التقدير لا يكون في حمله على الصورة الظاهرة محذور، ولم يكن ذلك مقتضياً لكون صفات العبد من [جنس] صفات الرب -تعالى-، بحيث تكون الحقيقة من جنس الحقيقة، مع كون هذا عالماً، وهذا عالماً، وهذا حياً، وهذا حياً، وهذا قادراً، وهذا قادراً، وهذا سميعاً بصيراً، وهذا سميعاً بصيراً، بل هذا موجود، وهذا موجود، مع كون الحقيقتين، والعلم، والقدرة، متشابهات.

وكذلك لا يجب إذا كان لهذا وجه وصورة، ولهذا وجه وصورة، أن تكون الحقيقة من جنس الحقيقة، مع تشابه الحقيقتين.

يوضح ذلك أنه على التقديرين، لا بد أن يكون بين الذات والذات مشابهة إذا كان على الصفة المعنوية، فإن كون هذا عالماً قادراً، وهذا عالماً قادراً، وهذا موجوداً، وهذا موجوداً، وهذا ذاتاً لها صفات، وهذا ذاتاً لها صفات، لا بد أن يثبت التشابه كما تقدم.

الوجه السابع: أن الأدلة الشرعية، والعقلية، التي يثبت بها تلك الصفات، يثبت بنظيرها هذه الصورة.

فإن وجود ذات ليس لها صفات ممتنع في العقل، وثبوت الصفات الكمالية معلوم بالشرع والعقل.

كذلك ثبوت ذات، لا تشبه الموجودات بوجه من الوجوه ممتنع في العقل.

وثبوت المشابهة في بعض الوجوه، في الأمور الكمالية، معلوم بالشرع والعقل.

وكما أنه لا بد لكل موجود من صفات تقوم به، فلا بد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها.

الوجه الثامن: أن هذا المعنى الذي ذكروه، وإن كان ثابتاً بنفسه[1]، ويمكن أن يكون الحديث دالاً عليه باللزوم والتضمن، لكن قصر الحديث عليه باطل قطعاً، كما تقدم.

الوجه التاسع: أن ثبوت الوجه، والصورة لله -تعالى- قد جاء في نصوص كثيرة من الكتاب، والسنة المتواترة، واتفق على ذلك سلف الأمة.

[وقد تقدم بعض النصوص التي فيها إثبات الوجه والصورة لله -تعالى-] مع أن النصوص في الوجه لا يمكن استقصاؤها.

فإن قيل: قوله -ﷺ-: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال له: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة، فسلم عليهم واستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، قال: فذهب، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله.

قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، طوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[2].

وهذا الحديث إذا حمل على صورة الله -تعالى-، كان ظاهره أن الله طوله ستون ذراعاً، والله -تعالى- كما قال ابن خزيمة: جل أن يوصف بالذرعان، والأشبار.

ومعلوم أن هذا التقدير في حق الله -تعالى- باطل، على قول من يثبت له حداً ومقداراً من أهل الإثبات، وعلى قول النفاة كذلك.

أما النفاة فظاهر، وأما المثبتة فعندهم قدر الله -تعالى- أعظم، وحده لا يعلمه إلا هو، وكرسيه قد وسع السماوات والأرض، والكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والعرش لا يعرف قدره إلا الله -تعالى-.

وقد قال -تعالى-: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

---

(١) يعني أن آدم متصف بالعلم، والقدرة، والحياة، وغير ذلك من الصفات.

(٢) تقدم ذكر من رواه.

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

وقد تواترت النصوص عن النبي -ﷺ-، من حديث أبي هريرة، وابن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، أن الله يقبض السماوات والأرض بيديه.

قال ابن عباس: «ما السماوات السبع وما بينهما، وما فيهما، في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»[1].

وإذا كان الأمر كذلك، كان -جل وعلا- أكبر وأعظم من أن يقدر بهذا المقدار.

وهذا من المعلوم بالضرورة، من العقل والدين.

[وليس ما ذكر هو ظاهر الحديث]، ومن زعم أن الله طوله ستون ذراعاً، فهو مفتر كذاب، ملحد، وفساد هذا معلوم بالضرورة، ومعلوم عدم ظهور ذلك من الحديث، فإن الضمير في **قوله**: «طوله» عائد إلى آدم، الذي قيل فيه «خلق آدم على صورته» ثم قال: «طوله ستون ذراعاً»، أي: طول آدم، ولفظ الطول وقدره، ليس داخلاً في مسمى الصورة، حتى يقال: إذا قيل: خلق الله آدم على صورته، وجب أن يكون على قدره.

ومن المعلوم أن الشيئين المخلوقين يكون أحدهما على صورة الآخر، مع التفاوت العظيم في جنس ذواتهما، وقدر ذواتهما.

والإضافة تتنوع دلالتها بحسب المضاف إليه، فلما قال في آخر الحديث:

«فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، طوله ستون ذراعاً» اقتضى ذلك مشابهة الجنس في القدر؛ لأن صورة المضاف، من جنس صورة المضاف إليه، وحقيقتهما واحدة.

وأما **قوله**: «**خلق الله آدم على صورته**»، فإنها تقتضي نوعاً من المشابهة فقط، لا تقتضي تماثلاً في حقيقة، ولا قدر.

وأما قول ابن خزيمة: فإن الإضافة [فيه] إضافة خلق، كما في «ناقة الله» و بيت الله» و «أرض الله» و «فطرة الله».

فالكلام عليه من وجوه:

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٢٥).

أحدها: أنه لم يكن قبل آدم صورة مخلوقة، خلق عليها، فقول القائل: خلق على صورة مخلوقة لله -وليس هناك إلا صورة آدم- بمنزلة قوله: على صورة آدم، وقد تقدم إبطال هذا من وجوه كثيرة.

الثاني: أن إضافة المخلوق جاءت في الأعيان القائمة بنفسها، كالناقة والبيت، والأرض، والفطرة، التي هي [السنة] المطردة.

فأما الصفات القائمة بغيرها، مثل العلم، والقدرة، والكلام، والمشيئة، إذا أضيفت كانت إضافة صفة إلى موصوف.

وهذا هو الفرق بين [الإضافتين]، وإلا التبست الإضافة التي هي إضافة صفة إلى موصوف، والتي هي إضافة مملوك ومخلوق إلى المالك والخالق، وذلك هو ظاهر الخطاب في الموضعين؛ لأن الأعيان القائمة بنفسها، قد علم المخاطبون أنها لا تكون قائمة بذات الله -تعالى- فيعلمون أنها ليست إضافة صفة.

وأما الصفات القائمة بغيرها، فيعلمون أنه لا بد لها من موصوف تقوم به، وتضاف إليه.

وعلى هذا، فالصورة قائمة بالموصوف بها، المضافة إليه.

فصورة الله، كوجه الله، ويد الله، وعلم الله، وقدرة الله، ومشيئة الله، وكلام الله، ويمتنع أن تقوم بغيره.

الوجه الثالث: أن الأعيان المضافة إلى الله، لا تضاف إليه؛ لعموم كونها مخلوقة مملوكة له؛ إذ ذلك يوجب إضافة جميع الأعيان إلى الله -تعالى-؛ لأنها كلها مخلوقة له، مملوكة.

فلو كان قوله في ناقة صالح: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: الله خلقها، وهي ملكه؛ لوجب أن تضاف سائر النوق إلى الله بهذا المعنى، فلا يكون حينئذ لها اختصاص بالإضافة، وكذلك قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ لو كان المراد به: خلقي وملكي؛ لوجب إضافة سائر البيوت إلى الله -تعالى- لمشاركتها في هذا المعنى.

فلا بد أن يكون في العين المضافة معنى يختص بها، تستحق به الإضافة، فبيت الله هو الذي اتخذ لذكر الله -تعالى- وعبادته، وهذه إضافة من جهة كونه معبوداً فيه، فهو إضافة إلى إلهيته، لا إلى عموم ربوبيته، وخلقه، كما في لفظ العبد، فإن

قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾(1)، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾(2)، هو إضافة إليه؛ لأنهم عبدوه، لا لعموم كونه عَبَّدهم بخلقه لهم، فإن هذا يشركهم فيه جميع الناس.

وهو تعالى قد خص بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾(3)، وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا﴾(4)، ونحو ذلك [خصهم من بين الناس بالإضافة إليه].

كذلك الناقة فيها اختصاص بكون الله -تعالى- جعلها آية، ففيها معنى الإضافة إلى إلهيته.

وأما قوله -تعالى-: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾(5)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾(6)، ففي الإضافة تخصيص للأرض التي هي باقية على ما خلقها الله -تعالى- فلم يستول عليها الكفار، والفجار من عباده، ويمنعوا -باستيلائهم عليها- من عبادة الله عليها.

ولهذا لم تدخل أرض الحرب في هذا العموم.

وقد يقال: الإضافة لعموم الخلق؛ لأن الأرض واحدة لم تتعدد، كما تعددت النوق، والبيوت، والعبيد.

وقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(7)، تضاف إلى الله -تعالى- من الوجهين، من جهة أن الله خلقها، فتكون إضافة إلى جهة ربوبيته.

ومن جهة أنه -تعالى- فطرها على الإسلام، الذي هو عبادة الله، فتكون الإضافة إلى ألوهيته.

---

(1) الآية ١٩ من سورة الجن
(2) الآية ٦٣ من سورة الفرقان
(3) الآية ٤٢ من سورة الحجر
(4) الآية ٦ من سورة الإنسان.
(5) الآية ٥٦ من سورة العنكبوت.
(6) الآية ٩٧ من سورة النساء.
(7) الآية ٣٠ من سورة الروم.

وأما الصورة المخلوقة، فهي مشاركة لجميع الصور في كون الله خلقها من جميع الوجوه، فما الموجب لتخصيصها بالإضافة إلى الله -تعالى-؟

وأيضاً فسائر الأعضاء مشاركة للصورة التي هي الوجه في كون الله -تعالى- خلق ذلك جميعه، فينبغي أن يضاف سائر الأعضاء إلى الله -تعالى- بهذا الاعتبار، حتى يقال [ليد الإنسان]: يد الله، ولوجهه: وجه الله، ولقدمه: قدم الله، ونحو ذلك؛ لأن الله خلقه.

الوجه الرابع: أن قوله: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**»، لو كانت الإضافة إضافة خلق وملك؛ لوجب أن لا يضرب شيء من الأعضاء؛ لأن إضافته إلى خلق الله -تعالى- وملكه كإضافة الوجه سواء.

الوجه الخامس: أن قوله: «**لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته**»، يدل على أن المانع هو مشابهة وجهه لصورة الله -تعالى-.

فلو أريد صورة يخلقها الله -تعالى-؛ لكان كونه هو مخلوقاً لله أبلغ من كونه مشبهاً لما خلقه الله، فيكون عدولاً عن التعليل بالعلة الكاملة إلى ما يشبهها.

الوجه السادس: أن العلم بأن الله خلق آدم، من أظهر العلوم، عند العامة والخاصة، فلو لم يكن في قوله: «**على صورته**» معنى إلا أن الله -تعالى- خلقها، وهي ملكه؛ لكان قوله: «**خلق آدم**» كافياً.

إذ على هذا التقدير: «خلق آدم» و «خلق آدم على صورته» سواء، ولا فرق بين قول القائل: «هذا مخلوق الله، وقوله: هذا خلقه الله على الصورة التي خلقها الله»، ومثل هذا الكلام لا يجوز أن يضاف إلى أدنى الناس، ممن يعرف اللغة، فكيف يضاف إلى النبي -ﷺ-؟

الوجه السابع: أن قوله: «**خلق آدم على صورته**»، أو «**على صورة الرحمن**» يقتضي أن برأه، وصوره على تلك الصورة.

فلو أريد الصورة المخلوقة المملوكة، التي هي صورة آدم المضافة إليه تشريفاً، لقيل: «صورة آدم صورة الله»، أو «صورة الإنسان صورة الله»، ونحو ذلك من الألفاظ، الدالة على الإضافة المجردة، وإن كان في ذلك ما فيه.

أما إذا قيل: «خلقه على صورته»، ولم يرد إلا أن صورته المخلوقة هي المضافة إلى الله؛ لكونها مخلوقة له، فهذا تناقض ظاهر، لا يحتمله اللفظ»[1].

وأكتفي بهذا النقل المطول عن شيخ الإسلام رحمه الله، وقد اختصرته كثيراً، وتصرفت فيه قليلاً جداً؛ لأجل الإيضاح، ومن أراد الاستيعاب فليرجع إليه، فإن فيه علماً غزيراً، وإبطالاً لتأويل المتكلمين، بحجج وبراهين مقنعة لمن يريد الحق.

قوله: «وضرب الصراط بين ظهري جهنم» معنى ضرب: نصب ووضع فوق النار، والصراط: هو الجسر الذي يعبر عليه، كما هو معلوم في حياة الناس اليوم.

ومعنى قوله: «**بين ظهري جهنم**» يعني: فوقها، ويمتد من طرفها إلى طرفها الآخر.

يقال: أقام الرجل بين ظهراني القوم، إذا أقام معهم في أرضهم، كما في الحديث: «أنا بريء من مسلم أقام بين ظهراني المشركين»[2].

ومعنى ذلك: أن الصراط الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة يؤتى به في ذلك اليوم، فيوضع فوق النار، فيعبرون عليه، فليس لهم طريق إلى الجنة، إلا من فوق جهنم، ومع ذلك، فقد جاء وصف الصراط بـأنه دقيق جداً، وغير ثابت، بل هو متحرك، ومضطرب، وهو في منتهى الحرارة؛ لأنه فوق جهنم، فالعبور عليه شديد جداً، والحقيقة أن العبور بالأعمال، فمن كان مستقيماً على صراط الله في الدنيا الذي هو دينه، استقام على ذلك الصراط.

وأما تثنية الظهر في قوله: «**بين ظهري جهنم**» فإنه يدل على أن الصراط مستوعب جهنم، يعني يمر عليها كلها، والله أعلم.

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٢٧٣-٢٨٥) ملخصاً.

(٢) رواه أبو داود في «الجهاد»، باب: النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، (٣/ ١٠٥)، والترمذي في «السير» باب: كراهة المقام بين أظهر المشركين، رقم (١٦٠٤) (٤/ ١٥٥).

قوله: «**فأكون أنا وأمتي أول من يجيز**» يعني: رسولنا محمداً -ﷺ-، وأمته الذين هم أتباعه على دينه، هم أول من يعبر الصراط، إلى الجنة، وفيه دليل على فضله -ﷺ- على سائر الأنبياء، وفضل أمته على الأمم.

ثم تعبر الأمم الأخرى من أتباع الرسل مع رسلهم، فكل أمة معها رسولها.

قوله: «**ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل**» وذلك لهول الموقف، وعظم ذلك المنظر، وشدة الأمر، فالطريق الذي يمكن أن ينجو من سلكه من فوق جهنم، وهو كما مر دقيق، وغير ثابت، وفي منتهى الحرارة، وعليه كلاليب تخطف بعض الناس، فإذاً لا بد من النار، ومن أجل ذلك خرست الألسن، فلا أحد يستطيع أن يتكلم، وإنما ينفرد بالتكلم رسل الله، حيث أمنوا بأمان الله لهم، وكلامهم هو تضرع إلى الله -تعالى- بقولهم: «اللهم سلم سلم».

قوله: «**وفي جهنم كلاليب**» جمع كلوب، وهو حديدة معقوف رأسها ومحدد، بحيث تدخل في الشيء الذي يراد إمساكه بها، وقد يقسم رأسها إلى عدة كلاليب يستخرج بها ما يسقط في البئر، أو غيرها، وقد يعلق بها اللحم.

ولكن هذه الكلاليب على خلاف المعهود للناس من كلاليب الدنيا، ولهذا قال: «مثل شوك السعدان»، السعدان عشب تحبه الإبل، وتسمن عليه، له شوك مفلطح، يشبه القرص، وعلى دائرته شويكات كثيرة معقفة، وفي أحد جانبيه شويكات كذلك معقفة، إذا أمسكت شيئاً يصعب استخراجها، ولما كان شوك السعدان ليس كبيراً، قال: «غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله»، يعني: لا أحد يستطيع وصف كبرها، وقدرتها على خطف من أمرت بخطفه، وإنما يعلم ذلك خالقها وحده.

قوله: «**تخطف الناس بأعمالهم**» أي: بسبب أعمالهم، التي عصوا الله بها وخالفوا أمره، ولهذا قال: «فمنهم الموبق» أي: الهالك الذي أهلكته ذنوبه، وهو من سقط في النار.

«**والمخردل**» وهو من يلقى في النار، ويرمى به فيها، والمعنى: أن الكلاليب تمسكه فتلقيه في النار صريعاً، إلقاء بقوة وشدة.

قوله: «**أو المجازى، ونحوه**» هو شك من الراوي: هل قال: المخردل، أو المجازى؟ والمجازى: هو الذي يجزى بعمله، فإذا لم يعف الله -تعالى- عن عبده فإنه يهلك.

قوله: «**ثم ينجلي**» أي: ينجلي ذلك الأمر الهائل، وينكشف، وهو العبور على النار، والمحاسبة، وغير ذلك من عظائم يوم القيامة.

قوله: «**حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد**» كل عمل له بداية ونهاية، ونهايته الفراغ منه، والمعنى: أن الله تعالى يتولى محاسبة عباده بنفسه وينتهي من ذلك، وهو -تعالى- أسرع الحاسبين، وجاء وصف الله -تعالى- بذلك في كثير من النصوص، وهو من أوصاف الفعل، وهي كثيرة.

قوله: «**وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار**» المقصود بأهل النار هنا: أهل التوحيد، الذين دخلوا النار بذنوبهم، وموبقات أعمالهم، وهم كثيرون.

أما المشركون، والكافرون، فإنهم لا يخرجون من النار، بل هم خالدون فيها، وأوضح ذلك بقوله:

«أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يشهد أن لا إله إلا الله» فهذا صريح في أنه يدخل النار خلق كثير ممن لا يشرك بالله شيئاً، ولكنهم عصوا الله بفعل المحرمات، غير الشرك، وبترك الأوامر، ولهذا قال: «ممن يشهد أن لا إله إلا الله» يعني: يعبد الله وحده، ولا يشرك معه غيره في العبادة.

قوله: «**فيعرفونهم في النار، بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود؟ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود**» وهذا أيضاً صريح وواضح في أنهم كانوا يصلون، ويسجدون لله -تعالى- ويعبدونه وحده.

وأثر السجود هي الأعضاء التي يسجد عليها، وهي: الجبهة والأنف، وبطون الكفين، والركبتان، وأطراف القدمين.

وفي هذا دليل على فضل السجود لله -تعالى- وهو من آيات الله تعالى الدالة على قدرته الباهرة، حيث تأكل النار جسم ابن آدم إلا هذه المواضع المختلفة في

البدن، فإنها لا تضرها، ولا تغيرها؛ لأن الله حرمها عليها، والنار لا تأكل إلا ما أمرها الله بأكله.

قوله: «فيخرجون من النار قد امتحشوا» امتحشوا: يعني احترقوا، وقد استدل بهذه الجملة من يقول: إنهم يموتون في النار، وقيل: إنهم لا يموتون، فالله أعلم.

أما قوله: «فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته، كما تنبت الحبة في حميل السيل» فالمراد: نبات لحومهم وغيرها التي أحرقتها النار، ولا يلزم من ذلك أنهم ماتوا، وفارقتهم الحياة، بل الظاهر أنهم بقوا أحياء يذوقون العذاب، جزاء لإجرامهم، وسيأتي أنهم يموتون موتاً حقيقيًّا، فالله أعلم.

وماء الحياة، جاء تفسيره بأنه نهر من أنهار الجنة، وسيأتي في حديث أبي سعيد: أنهم يلقون في ذلك النهر، ثم ينبتون على حافتيه.

«والحبة» هي: البذرة التي ينبت منها الزرع وغيره.

وحميل السيل هو: ما يحمله من الغثاء، ويلقيه على جوانب الوادي، والنبات يكون فيه أسرع، وأقوى؛ لما فيه من الأسمدة.

قوله: «ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار» يعني: أنه أخرج من النار وأوقف قريباً منها، وجعل وجهه إليها، لا يستطيع أن يصرف وجهه عنها، وذلك من بقية عذابه، ولهذا يدعو ربه بأن يصرف وجهه عن النار، ويكون ذلك هو أعظم ما يتمناه ويريده، بل هو مراده.

قوله: «هو آخر أهل النار دخولاً الجنة» أهل الفساد قسمان: قسم خلق للنار، وهم المشركون والكفار باختلاف أنواعهم، فهؤلاء لا يخرجون من النار أبداً.

وقسم يكون من أهل النار مؤقتاً، وهؤلاء هم عصاة المؤمنين من الذين لا يعبدون إلا الله وحده، إلا أنهم ارتكبوا ذنوباً عظاماً استوجبوا بها النار، وهم خلائق لا يحصيهم إلا الله -تعالى-، ويتفاوتون في لبثهم في النار تفاوتاً عظيماً، ولكن لا يبقى في النار منهم أحد وإن طال لبثه، وهذا الرجل المذكور في الحديث هو آخر من يخرج من النار من الموحدين الذين أدخلوا النار، وهو أدنى أهل الجنة منزلة، كما سيأتي التصريح بذلك في هذا الحديث.

قوله: «قشبني ريحها» قال النووي: معنى قشبني: سمني، وآذاني، وأهلكني، قاله جماهير أهل اللغة.

وقال الخطابي: قشبه الدخان: ملأ خياشيمه وأخذ بكظمه، وأصل القشب: خلط السم بالطعام، يقال: قشبه، إذا سمّه[1].

والمعنى: أن ريح النار الكريه عذّبه، وبلغ منه مبلغ الهلاك.

قوله: «وأحرقني ذكاؤها» ذكاؤها: حرها ووهجها.

«ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء».

هذا الرجل الذي هو آخر من يخرج من النار، من أهل الإيمان، يخاطبه الله -تعالى- بعد أن يدعوه، ويسأله بأن يصرف وجهه عن النار، فهو قد قصر مسألته لله على صرف وجهه عن النار فقط.

ولهذا يقول الله له: لعلك إذا أعطيتك ما سألتني، أن تسأل غيره، وليس ذلك لأن الله -تعالى- يكبر عليه شيء، بل لتحصل هذه المحاورة بين رب العالمين وبين هذا الرجل الذي هو أدنى أهل الجنة منزلة، وليظهر ضعف العبد، وقصر نظره، وغنى الرب -تعالى-، وكمال حلمه وعلمه، وحكمته ورحمته، وسيعيد البخاري هذا الحديث مستدلاً به على وقوع الكلام من الله -تعالى- لمن يشاء من عباده يوم القيامة.

قوله: «فإذا أقبل على باب الجنة، ورآها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب: قدمني إلى باب الجنة» أي: أنه يرى الجنة، ظاهراً، فيحاول أن يفي بعهوده ومواثيقه التي أعطاها ربه، فيسكت وقتاً، ولكن لضعفه وفقره، وحاجته إلى فضل ربه، لا يستطيع الصبر، فيعود مرة أخرى ناكثاً لعهوده ومواثيقه بأنه لا يسأل غير ما سأل أول مرة، ولكن الله -تعالى- يعفو عنه ويعذره؛ لأنه لا يستطيع الصبر على ما يرى.

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٤٥٩).

وقول الله -تعالى- له: «ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك» يعني: أنك كثير الغدر والخيانة، فقد نكثت بالعهود والمواثيق التي أعطيتها بأنك لا تسأل غير ما سألت مرات متعددة.

قوله: «**انفهقت له الجنة**» أي: انفتحت، وانزاحت الستائر التي تحجب الرؤية، قوله: «الحبرة والسرور» أي: يرى أنواع النعيم، من المأكولات، وغيرها، فالخير كله بحذافيره في الجنة.

قوله: «**لا أكون أشقى خلقك**» يقول ذلك؛ لأنه يشاهد أهل الجنة يتنعمون بأنواع النعيم، وما هم فيه من الفرح والسرور، وهو ممنوع عن دخولها، فتصور عند ذلك أنه أشقى خلق الله، وليس كذلك.

قوله: «**حتى يضحك الله منه**»، صفة الضحك تكاثرت عليها الأدلة، وهي صفة من صفات الفعل، يجب الإيمان بها على ظاهر ما دلت عليه النصوص، ولا يجوز تأويل الضحك بلازمه، كما يقوله أهل الباطل، من الجهمية ومن سار على نهجهم، من أن الضحك هو الرضا أو العطا، ونحو ذلك مما هو من مخلوقات الله -تعالى-.

قال أبو سعيد الدارمي -رحمه الله-: [«وادعى المعارض أن ضحك الرب: رضاه ورحمته، وصفحه عن الذنوب، كقولك: رأيت زرعاً **يضحك**.

فيقال له: كذبت بأحاديث رسول الله -ﷺ-إذ شبهت ضحكه **بضحك** الزرع؛ لأن ضحك الزرع ليس بضحك، وإنما هو خضرته ونضارته، ولم تسبق إلى هذا التفسير، فأنت محرف لقول رسول الله -ﷺ-، فكيف تجعل ضحك الرب إلى أوليائه، كضحك الزرع، الذي هو عبارة عن نضارته وخضرته؟ فهو ما دام كذلك فهو **يضحك** لكل من رآه، لمن يسقيه، ومن يحصده.

وقولك: إن ضحكه: رضاه ورحمته، تصديق لبعض الحديث، وتكذيب للبعض الآخر، حيث رددت الضحك وقبلت الرضا، والله -تعالى- لا يضحك لأحد إلا عن رضا، فيجتمع منه الضحك والرضا.

ولم نسمع عن أحد من أهل السنة أنه يشبه ضحك الله -تعالى- أو شيئاً من أفعاله بشيء من فعل المخلوقين، كما ادعيت أيها المعارض.

بل نقول: إن الله -تعالى- يضحك كما يشاء، وكما يليق به.

ثم ادعيت تفسيراً أوحش من هذا، فقلت: يحتمل أن يكون ضحكه أن يظهر من خلقه ضاحكاً، يأتيهم يبشرهم.

مع أن الحديث الذي ذكره المؤول يرد عليه، وفيه قول أبي رزين: «قلت: يا رسول الله، أو يضحك ربنا؟ قال: نعم»، ولم يقل: يخلق ربنا من يضحك.

ثم قال أبو رزين: «لن نعدم من رب يضحك خيراً» فجعل الضحك من الرب -تعالى- دليلاً على حصول الخير.

ثم ادعى المعارض ما هو أبعد من هذا كله، فزعم أن معنى: يضحك الله من كذا، أي: يجعله ضاحكاً.

فيقال: إذا تحولت اللغة العربية إلى لغتك، ولغة أصحابك، جاز فيها أنكر من هذا التأويل، وأفحش.

ولو كان كما ذكر، لكان سؤال أبي رزين، لرسول الله -ﷺ- يدل على الجهل، حيث سأل: أو يُضحك ربنا الخلق؟ وهو يعلم أن كل الخلق الذي يضحكهم هو الله -تعالى-، وقد قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[1].

ثم ذكر بسنده حديث ابن مسعود، أن رسول الله -ﷺ- قال: «آخر رجل يدخل الجنة رجل يمشي، يكبو على الصراط مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي أنجاني منك، فترفع له الجنة، فيقول: يا رب أدنني إليها، وفيه: «ألا تسألوني: مم أضحك؟» فقالوا: مم تضحك؟ فقال: من ضحك رب العالمين»[2].

وذكر الحديث: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره»[3].

وحديث أبي سعيد، عن النبي -ﷺ- قال: «ثلاثة يضحك الله -تعالى- إليهم يوم القيامة: رجل قام من الليل، والقوم إذا صفوا للقتال، والقوم إذا صفوا للصلاة»[4].

---

(١) الآية ٤٣ من سورة النجم.

(٢) رواه مسلم في «الصحيح» (١/ ١٧٤-١٧٥) في الإيمان.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١١، ١٢).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٨٠) وابن ماجه (١/ ٧٣) والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٢).

وحديث نعيم بن عمار «جاء رجل إلى النبي -ﷺ- فقال: أي الشهداء أفضل؟ قال: «الذين يلقون في الصف، ولا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك الذين يتلبطون[1] في الغرف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه»[2].

وحديث عبدالله بن عمرو: «يضحك الله إلى صاحب البحر ثلاث مرات، حين يركبه، ويخلى من أهله، وحين يميد متشطحاً، وحين يرى البر...».

وحديث ابن مسعود: «إن الله يضحك إلى اثنين: رجل قام من جوف الليل، فتوضأ وصلى، ورجل كان مع قوم، فلقوا العدو فانهزموا وحمل عليهم، فالله يضحك إليه»[3].

وحديث أبي هريرة: «يضحك الله من رجلين قتل أحدهما صاحبه، وكلاهما دخل الجنة»[4].

وحديث أسماء بنت يزيد بن السكن: لما توفي سعد بن معاذ، صاحت أمه، فقال لها رسول الله -ﷺ-: «ألا يرقأ دمعك، ويذهب حزنك؟ فإن ابنك أول من يضحك الله إليه»[5]][6].

«والضحك في موضعه المناسب له، صفة مدح وكمال، وإذا قُدِّر حَيَّـان: أحدهما يَضْحَكُ منه، والآخر لا يضحك، فإن الأول أكمل من الثاني.

ولهذا قال النبي -ﷺ-: «ينظر إليكم الرب قنطين، فيظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب».

فقال له أبو رزين العقيلي: يا رسول الله، أو يضحك الرب؟ قال: «نعم» قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً».

---

(١) قال في «القاموس»: تلبط: تحير، وعدا، واضطجع، وتمرغ، فمعناه: تبوأ المكان واستقر فيها.

(٢) قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن، انظر: «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣١٩).

(٣) رواه ابن ماجه في «سننه» من حديث أبي سعيد الخدري (١/ ٧٣).

(٤) متفق عليه، انظر: «الفتح» (٦/ ٣٩) ومسلم (٣/ ١٥٠٤، ١٥٠٥)

(٥) قال في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني (٩/ ٣٠٩).

(٦) الرد على بشر المريسي لعثمان بن سعيد الدارمي (ص ٥٣٠-٥٣٦) ملخصاً في عقائد السلف.

فجعل الأعرابي العاقل -بصحة فطرته- ضحكه دليلاً على إحسانه وإنعامه، فدل على أن هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال، والشخص العبوس الذي لا يضحك، مذموم بذلك.

وإذا كان الضحك فينا مستلزماً لشيء من النقص، فالله -تعالى- منزه عن ذلك، فضحكه -تعالى- يليق به، لا يلزم عليه شيء من النقص»[1].

ولأصحاب التأويل، تأويلات مضحكة، وحجج متهافتة سخيفة، يحاولون أن ينفوا عن الله -تعالى- ما أثبته له رسوله -ﷺ-، كقولهم: لو كان يضحك، لكان هذا القول -مثلاً- مضحكاً له، وقوله: لو جاز عليه الضحك لجاز عليه البكاء.

وهكذا تكون حجج أهل الضلال والهوى، وطرد قولهم أن يقال: لو جاز عليه العلم لجاز عليه الجهل، ولو جاز أن يكون حياً لجاز أن يموت.

فكيف تجعل صفات الكمال مستلزمة لثبوت صفات النقص؟ أليس هذا هو قلب الحقائق، وعين المحال؟ سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم.

ومن لا يكتفي بما جاء به الرسول -ﷺ- ويتخذه إماماً هادياً، اجتالته الشياطين، وتقاذفته الأهواء، ومن حكم عقله على الوحي فسوف يلقيه في مكان سحيق.

قوله: «**فإذا ضحك منه، قال له: ادخل الجنة**» الضحك دليل على الرضا، ولهذا لما ضحك الله -تعالى- من هذا الرجل، رضي عنه فأمره بدخول الجنة، وهذا مما يبطل قول أهل التأويل الذين يفسرون الضحك في الله -تعالى- بالثواب.

قوله: «فإذا دخلها قال الله له: تمنه» أي: اسأل ما تريد، واطلب ما يخطر على بالك.

قوله: «**فسأل ربه، وتمنى**» السؤال لما يتوقع حصوله، والتمني لما لا يتوقع حصوله، بل هو بعيد المنال.

قوله: «**حتى إن الله ليذكره، يقول: كذا وكذا**» أي يقول له: اسأل كذا وكذا، من الأشياء التي لم تخطر على فكره.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٢١-١٢٢) بشيء من التصرف.

قوله: «حتى إذا انقطعت به الأماني، قال الله: ذلك لك ومثله معه» كان أبو سعيد الخدري يستمع لأبي هريرة، فلما قال: «ذلك لك ومثله معه» قال له: «عشرة أمثاله معه يا أبا هريرة» يعني: أن الله -تعالى- يعطي هذا الرجل كل ما سأل وتمنى، ومعه عشرة أمثاله، قال أبو هريرة: «ما حفظت إلا قوله: «ذلك لك، ومثله معه»، قال أبو سعيد: «أشهد أني حفظت من رسول الله -ﷺ- قوله: «**ذلك لك، وعشرة أمثاله**».

وهذا يدل على أن الرسول -ﷺ- حدث أصحابه بهذا الحديث مرات متعددة، في بعضها ذكر ما حفظه أبو سعيد، حيث حضر ذلك المجلس الذي قال فيه: «ذلك لك وعشرة أمثاله» وغاب عنه أبو هريرة، ولا منافاة، ومثل ذلك يحصل كثيراً.

قوله: «قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة».

وهو أدنى أهل الجنة منزلة، ومع ذلك يعطى ما ذكر، وقد جاء في بعض الروايات أنه يعطى عشر مرات.

□□□

٦٦- قال: حدثنا يَحْيَى بنُ بُكَيْرٍ، حدثنا الليثُ بنُ سعدٍ، عن خالدِ بنِ يزيدَ، عن سعيدِ بنِ أبي هِلالٍ، عن زَيْدٍ، عن عطاءِ بنِ يَسارٍ، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، قال: قلنا: يا رسولَ اللهِ: هل نَرَى ربنا يومَ القيامةِ؟

قال: «هل تُضارُونَ في رؤية الشمسِ والقمرِ إذا كانتْ صَحْواً؟» قلنا: لا، قال: «فإنكم لا تُضارُونَ في رؤيةِ ربكم يومئذٍ إلا كما تضارونَ في رؤيتهما».

ثُمَّ قالَ: «ينادي منادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إلى ما كانوا يَعْبُدُونَ، فيذهبُ أصحابُ الصليبِ مع صَلِيبِهم، وأصحابُ الأوثانِ مع أوثانهم، وأصحابُ كُلِّ آلهةٍ مَعَ آلهتهم، حتى يَبْقى مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أو فاجرٍ، وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الكتابِ.

ثُمَّ يؤتى بِجَهَنَّمَ، تُعْرَضُ كأنها سَرابٌ، فيقالُ لليهودِ: ما كنتم تعبدونَ؟

قالوا: كنا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابنَ اللهِ، فيقالُ: كَذَبْتُم، لم يَكُنْ للهِ صاحبةٌ، ولا وَلَدٌ، فما تريدونَ؟

قالوا: نُريدُ أَنْ تَسْقِيَنا، فيقالُ: اشْرَبُوا، فيتساقطونَ في جهنمَ.

ثم يقالُ للنصارى: ما كُنتم تعبدونَ؟ فيقولونَ: كنا نعبدُ المسيحَ ابنَ اللهِ، فيقالُ: كَذَبْتُم، لَمْ يَكُنْ للهِ صاحبةٌ ولا وَلَدٌ، فما تريدونَ؟

فيقولون: نريدُ أن تَسقِيَنا، فيقالُ: اشْرَبُوا، فيتساقطونَ [في جهنمَ].

حتّى يَبْقَى مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أو فاجرٍ، فيقالُ لهم: ما يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ الناسُ؟

فيقولونَ: فارَقْناهُم ونحنُ أَحْوَجُ منا إليه اليومَ، وإنا سَمِعْنا منادياً ينادي: ليلحقْ كُلُّ قومٍ بما كانوا يعبدونَ، وإنَّما ننتظر رَبَّنا.

قال: فَيَأْتِيهِمُ الجبارُ في صورةٍ غيرِ صورتِهِ التي رَأَوْهُ فيها أول مرة، فيقولُ: أنا رَبُّكُم.

فيقولونَ: أنتَ رَبُّنا، فلا يُكَلِّمُهُ إلا الأنبياءُ، فيقولُ: هل بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ آيةٌ تَعْرِفونَهُ؟

فيقولونَ: السّاقُ.

فَيَكْشِفُ عن ساقِهِ، فيسجدُ لَهُ كُلُّ مؤمنٍ، ويَبْقَى مَنْ كانَ يَسْجُدُ للهِ رياءً وسُمْعة، فيذهبُ كَيْما يَسْجُدَ فيعود ظهْرُهُ طَبَقاً واحداً.

ثُمَّ يُؤْتَى بالجَسْرِ، فيُجْعَلُ بينَ ظَهْرَي جهنمَ، قلنا: يا رسولَ اللهِ، وما الجَسْرُ؟ قال: مَدْحَضَةٌ، مَزِلَّةٌ، عليهِ خَطاطِيفُ، وكَلالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لها شَوْكَةٌ عُقَيْفاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يقالُ لها: السَّعْدَانُ.

المُؤْمِنُ عليها كالطَّرْفِ، وكالبَرْقِ، وكالريح، وكأجاويدِ الخيلِ والرِّكابِ، فناجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مَخْدُوشٌ، ومَكْدُوسٌ في نار جهنمَ، حتى يَمُرَّ آخِرُهم يُسْحَبُ سَحْباً، فَمَا أنتم بأشَدَّ لي مُناشَدَةً في الحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المؤمنِ يومئذٍ لِلْجَبّار.

وإذا رَأَوْا أنهم قَدْ نَجَوْا في إخوانهم، يقولونَ: ربنا، إخْوَانُنَا الذينَ كانوا يُصلُّونَ مَعَنا، ويصَوُمون مَعنا، ويعملون معنا.

فيقولُ اللهُ -تعالى-: اذهبوا فَمَنْ وجدتم في قَلْبِهِ مثقالَ دينارٍ من إيمانٍ فَأخرِجُوهُ، ويُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُم على النار، فيأتونَهم، وبعضُهم قد غابَ في النار إلى قَدَمِهِ، وإلى أنصافِ ساقيه، فَيُخْرِجُون من عَرَفُوا.

ثم يعودونَ، فيقولُ: اذهبوا فَمَنْ وَجَدْتم في قلبِهِ مثقالَ نصفِ دينارٍ فَأخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا.

ثم يعودونَ، فيقولُ: اذهبوا فَمَنْ وَجَدْتم في قلبِهِ مثقالَ ذرةٍ مِنْ إيمانٍ فَأخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا.

قال أبو سعيدٍ: فإنْ لم تصدقوني، فاقرءوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾[1].

فَيَشْفَعُ النبيونَ، والملائكةُ، والمؤمنونَ.

فيقول الجبارُ جَلَّ جلالُهُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النّار فَيُخْرِجُ أقْواماً قد امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ في نَهَرٍ بأفْواهِ الجَنَّةِ، يُقالُ له: ماءُ الحَياةِ، فَيَنْبُتُونَ في حافَتَيْهِ، كما تَنْبُتُ الحبةُ في حَميلِ السَّيلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوها إلى جانبِ الصَّخْرَةِ، وإلى جانب الشَّجَرَةِ، فما كانَ إلى الشمسِ منها كانَ أخضرَ، وما كانَ منها إلى الظلِّ كانَ أبيضَ.

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء.

فَيَخْرُجُونَ كأنهم اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ في رِقابهم الخواتيمُ، فيدخلونَ الجنَّةَ.

فيقول أهلُ الجنةِ: هؤلاءِ عُتَقاءُ الرحمنِ، أدْخَلَهُمُ الجنةَ بغيرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، ولا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ.

فيقالُ لهم: لَكُمْ ما رأيتم ومِثْلهُ مَعَهُ».

قوله: «قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟» في رواية مسلم: «أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا....الخ». فما هنا تفسير لها.

قوله: «قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟» في رواية مسلم: «في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب» يعني: في وقت خلو السماء من السحاب والقتر، فقوله: «ليس معها سحاب» زيادة إيضاح لقوله: «صحواً».

قوله: «ثم ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون» تقدم في حديث أبي هريرة قوله: «يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه». فيكون المنادي هو الله تعالى، ومعلوم أن النداء هو رفع الصوت بالكلام، فما أبلغ هذا في إثبات تكلم الله تعالى حقيقة.

قوله: «فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم» يعني: عبَّاد الصليب، وهم النصاري كما هو معلوم.

«والأوثان هي الأصنام، وقد تطلق على كل معبود من دون الله تعالى».

قال ابن الأثير: «الفرق بين الوثن، والصنم: أن الوثن: كل ما له جثة معمولة، من جواهر الأرض، أو من الخشب، أو الحجارة، كصورة الآدمي تعمل وتنصب، فتعبد، والصنم: الصورة بلا جثة. ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين، وقد يطلق الوثن على غير الصورة»[1].

وقد جاء في قصة عدي بن حاتم أنه قال: «قدمت على النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: «ألق هذا الوثن عنك»[2] وهذا يدل على أن الوثن يطلق على كل ما عبد من دون الله، وقد قال الأعشى:

---

(١) «النهاية» (٥/ ١٥١).

(٢) أخرج قصته أحمد (٤/ ٣٧٨)، والترمذي رقم (٢٩٥٦)، وابن هشام في «السيرة» (٢/ ٥٧٨).

تطـوف العفـــاة بأبوابـه   كطوف النصارى ببيت الوثن[1]

يريد بالوثن: الصليب.

قوله: «**وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم**»، قال الله تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾[2] والمقصود بأزواجهم: نظراؤهم وإخوانهم في العمل. وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ﴾[3].

فالله تعالى يحشر كل عابد مع معبوده؛ لأنهم كانوا في الدنيا يزعمون أن معبوداتهم من دون الله سوف تتولاهم، وتشفع لهم وتنفعهم، فجمعهم الله مع معبوداتهم ليظهر كذبهم وغرورهم، وفقر كل من العابد والمعبود.

وفي رواية عبدالله بن مسعود: «يقول الله -تعالى- للناس في ذلك الموقف: أليس عدل مني أن أُوَلِّيَ كل عابد ما كان يعبد؟». قوله: «**حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب**».

البر: هو المطيع لله، المتبع لرسله، والفاجر هو: الخارج عن الطاعة، ولو في بعض الأمور.

والغبرات جمع غبر، بضم الغين وفتح الباء، والمقصود: بقايا من اليهود والنصارى قليلة، وأما معظمهم وجُلُّهم فقد ذهب بهم مع أوثانهم إلى جهنم.

قوله: «**ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب**» في ذلك الموقف أمور عظام ومهولة، وله أحوال متعددة، وحقائقها لا تعلم إلا بالمعاينة، ولكن الرسل، ولا سيما خاتمهم، جاءوا بما يكفي المؤمن في الإتقان من أوصاف ذلك اليوم.

---

(١) انظر «ديوان الأعشى» ص (٢٠٩).

(٢) الآيات ٢٢-٢٥ من سورة الصافات.

(٣) الآية ١٧ من سورة الفرقان.

وفي هذا: «أن جهنم يؤتى بها كأنها سراب» وفي صحيح مسلم، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»[1].

فيؤتى بجهنم بهذه الصفة تعرض على الناس في ذلك الموقف، وهناك: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

والسراب: هو ما يرى في الأرض الخالية المستوية وقت ما تشتد حرارة الشمس من أثر انعكاس أشعتها على الأرض، فيرى في القيعان كأنه ماء، فإذا قرب إليه الرائي أُبعد عنه، فهو كما قال الله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[3].

قوله: «**فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد**» السؤال لتبكيتهم، وتقريرهم بما يستحقون به العذاب، وهو عبادتهم لغير الله.

وفيه دليل على أن الناس في ذلك اليوم يكونون على عقائدهم في الدنيا؛ لأن هؤلاء اليهود والنصارى لما سئلوا عما كانوا يعبدون قالوا: عزيراً ابن الله والمسيح ابن الله، فهم لا يزالون يعتقدون أن عزيراً ابن الله، وكذلك النصارى يظنون ذلك في المسيح.

والكذب الذي أضيف إليهم هو قولهم: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، ولهذا قال: لم يكن لله صاحبة ولا ولد.

قوله: «**فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم**» في ذلك الموقف يشتد الظمأ لتوالي الكربات، وترادف الشدائد المهولات، ولهذا صار أول مطلبهم الماء، وقد مثلت لهم جهنم كأنها ماء، كما سبق في قوله: «كأنها سراب» فيقال لهم: اذهبوا إلى ما ترون، وتظنونه ماء، فاشربوا، فيذهبون

---

(١) انظر «صحيح مسلم» (٨/ ١٤٩).

(٢) الآية ٢ من سورة الحج.

(٣) الآية ٣٩ من سورة النور.

فيجدون جهنم يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون فيها، ومثل ذلك يقال للنصارى بعدهم.

قوله: «**حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر**» تقدم في الحديث قبله: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها»، وما هنا أعم، وتقدم الكلام عليه.

قوله: «**فيقال لهم: ما يحبسكم، وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم، ونحن أحوج منا إليه اليوم**» الذي يخاطبهم بذلك هو رب العالمين، كما هو واضح في السياق.

والرواية التي ذكرها البخاري في «التفسير»: «حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر، أتاهم رب العالمين»[1]، وهذا من الامتحان والابتلاء؛ ليتبين ثباتهم وصدقهم، ولذلك قالوا: فارقنا الناس في الدنيا ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وذلك لأنهم عصوا الله وخالفوا أمره وناصبوا من أطاعه العداوة، فعاديناهم لذلك، وزايلناهم بغضاً لهم في الله، وإيثاراً لطاعة ربنا، كما قال إبراهيم عليه السلام، والذين معه من الرسل والمؤمنين: ﴿قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[2].

قوله: «إليه» قال مصححو الطبعة البولاقية: «هكذا في جميع النسخ متناً وشرحاً بضمير الإفراد، وهو مخالف لما ذكره الشارح [يعني: القسطلاني] نقلاً عن البرماوي والكرماني والعيني، حيث قال: «وكنا في ذلك الوقت أحوج إليهم» وتقدم في تفسير سورة النساء بضمير الجمع»[3].

وقد أشار الحافظ إلى صحة الإفراد، وأن عياضاً رجحه، وجعل الضمير عائداً إلى الله تعالى، والمعنى: «فارقنا الناس في معبوداتهم، ولم نصاحبهم، ونحن اليوم أحوج إلى ربنا من أي يوم كان، أي: إنا محتاجون إليه»[4].

---

(١) انظر «البخاري» (٦/ ٥٦).

(٢) الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(٣) حاشية البخاري «طبعة بولاق» (٩/ ١٥٩).

(٤) انظر «فتح الباري» (١١/ ٤٥٠).

قوله: «وإنا سمعنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا» يعني: أنهم امتثلوا قول المنادي، وليسوا ممن يعبد تلك المعبودات التي أحضرت إلى عابديها، ثم سيقوا معها إلى النار، وقد علموا أن ربهم تعالى سيأتيهم.

قولـه: «فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيهـا أول مـرة».

وقد تقدم الكلام في الصورة بما يكفي، وفي الرواية التي ذكرها في «التفسير»: «أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها أول مرة» وهو لفظ رواية مسلم[1]، وفي السُّنَّة لابن أبي عاصم: «ثم يتبدى الله لنا في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أول مرة»، وفي رواية عنده أيضاً: «ثم يرفع برنا ومسيئنا، وقد عاد لنا في صورته التي رأيناه فيها أول مرة»[2]، وقد تقدم.

وفي صحيح مسلم في هذا الحديث: «ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا»[3].

ففي هذه الألفاظ بيان صريح بأنهم قد رأوه في صورة عرفوه فيها، قبل أن يأتيهم هذه المرة، وفي ذلك رد لما قاله الإمام أبو سعيد الدارمي -رحمه الله-، حيث جعل معرفتهم إياه بصفاته التي تعرف بها إليهم في الدنيا.

وكذلك **قوله: «إن هذا التحول من صورة إلى صورة، هو تمثيل يمثله الله في أعينهم.**

أما هو -تعالى- فلا يتحول من صورة إلى صورة، وهذا خلاف ما صرحت به الأحاديث كما ذكرنا[4].

وقـد ذكـر شيخ الإسلام ابـن تيمية -رحمـه الله- قول أبي سعيد هـذا، ورده من وجوه عدة، فقال بعد ما ذكر أقوال أهل التأويل، من الجهمية، والحلولية، لحديث الصورة وإتيان الرب -تعالى- إلى أهل الموقف بصورته، قال: «وأقرب ما يكون عليه إتيان الله -تعالى- في صورة بعد صورة -وإن كان تأويلاً باطلاً- أيضاً

---

(١) انظر «صحيح مسلم مع النووي» (٣/ ٢٧).

(٢) انظر «السنة» (١/ ٢٨٥).

(٣) «صحيح مسلم» (١/ ١٦٩)، رقم (٣٠٢).

(٤) انظر الرد على «المريسي» (ص٤٢١) مجموعة عقائد السلف.

ما ذكره بعض أهل الحديث، مثل أبي عاصم النبيل، أنه كان يقول: ذلك تغيير يقع في عيون الرائين، كنحو ما يخيل إلى الإنسان الشيء بخلاف ما هو به، فيتوهم الشيء على الحقيقة.

وقال عثمان بن سعيد في نقضه على بشر المريسي: «وأما إنكارك على رسول الله -ﷺ- أنه قال: إن الله يتراءى لعباده المؤمنين يوم القيامة، في غير صورته، فيقولون: نعوذ بالله منك، ثم يتراءى في صورته التي يعرفونها، فيتبعونه، فزعمت أن من أقر بهذا فهو مشرك.

فيقال لهم: أليس قد عرفتم ربكم في الدنيا، فكيف جهلتموه عند العيان، وشككتم فيه؟

وقد صح بهذا الخبر عن رسول الله ﷺ كأنك تسمعه يقوله من جودة إسناده.

ولو أن الله تجلّى لهم أول مرة في صورته التي عرّفهم صفاتها في الدنيا، لاعترفوا بما عرفوا، ولكنه يُرى نفسه في أعينهم؛ لقدرته، ولطف ربوبيته، في صورة غير ما عرفهم الله صفاتها في الدنيا؛ ليمتحن الله بذلك إيمانهم، ثانية في الآخرة، أنهم لا يعترفون بالعبودية في الدنيا والآخرة إلا للمعبود الذي عرفوه في الدنيا بصفاته التي أخبرهم بها في كتابه، واستشعرتها قلوبهم حتى ماتوا على ذلك.

فإذا مثل في أعينهم غير ما عرفوا من الصفة نفروا، وأنكروا، إيماناً منهم بصفة ربوبيته التي امتحن قلوبهم في الدنيا بها، من غير أن يتحول الله من صورة إلى صورة.

ولكن يمثل ذلك في أعينهم، كما مثل جبريل مع عظم صورته، في صورة دحية الكلبي، وكما مثل لمريم بشراً، وكما شبه عيسى في أعين اليهود»[1].

وهذا باطل من وجوه:

أحدها: أن في حديث أبي سعيد المتفق عليه: «فيأتيهم في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة».

---

(١) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي (ص٤٢١-٤٢٣)، وانظر «نقض التأسيس» (٣/ ٣٩٧-٤٠١) المخطوط.

وفي لفظ: «في أدنى صورة من التي رأوه فيها»، وهذا يفسر قوله في حديث أبي هريرة: «فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون»، ويبين أن تلك المعرفة كانت لرؤية منهم متقدمة، في صورة غير الصورة التي أنكروه فيها.

وفي هذا التفسير قد جعل صورته التي يعرفون، هي التي عرفهم صفاتها في الدنيا، وليس الأمر كذلك؛ لأنه أخبر أنها الصورة التي رأوه فيها أول مرة، لا أنهم عرفوها بالنعت في الدنيا.

ولفظ الرواية صريح في ذلك، وقد بينا أنه في غير حديث ما يبين أنهم رأوه قبل هذه المرة.

الثاني: أنهم لا يعرفون في الدنيا لله صورة، ولم يروه في الدنيا في صورة، فإن ما وصف الله -تعالى- به نفسه، ووصفه به رسوله، لا يوجب لهم معرفة صورة يعرفونه فيها، ولهذا قال -تعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]، فلو أرادوا الصفات المخبر بها في الدنيا لذكروا ذلك.

فعلم أنهم لم يطبقوا الصورة التي رأوه فيها أول مرة [على ما علموه في الدنيا][2].

وقد قال النبي -ﷺ- في سدرة المنتهى: «فغشيها من أمر الله ما غشيها، حتى لا يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها»[3]، فالله أعظم من أن يستطيع أحد أن ينعت صورته، وهو سبحانه وصف نفسه لعباده بقدر ما تحتمله أفهامهم.

ومعلوم أن قدرتهم على معرفة الجنة بالصفات أيسر، ومع هذا فقد قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[4] فالخالق أن لا يكونوا يطيقون معرفة صفاته كلها أولى.

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى.

(٢) ليست من كلام الشيخ، وإنما زدتها للإيضاح.

(٣) انظر «صحيح مسلم» (١/ ١٤٦)، الحديث رقم (٢٥٩).

(٤) رواه البخاري في عدة مواضع من «صحيحه»، وسيأتي، ومسلم: انظر (٤/ ٢١٧٤) رقم (٢٨٢٤).

الوجه الثالث: أن في حديث أبي سعيد: «فيرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة» **فقوله: «لا يتحول من صورة إلى صورة ولكن يمثل ذلك في أعينهم»** مخالف لهذا النص.

الوجه الرابع: أن في حديث ابن مسعود، وأبي هريرة، من طريق العلاء: «أنه يمثل لكل قوم ما كانوا يعبدون» وفي لفظ «أشباه ما كانوا يعبدون».

ثم قال: «ويبقى محمد وأمته، فيتمثل لهم الرب -تبارك وتعالى- فيأتيهم فيقول: «ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟ فيقولون: إن لنا إلهاً ما رأيناه بعد»، فقد أخبر أن الله -تعالى- هو الذي يتمثل لهم، ولم يقل لهم كما قال في معبودات المشركين، وأهل الكتاب.

الوجه الخامس: أن في عدة أحاديث، كحديث أبي سعيد، وابن مسعود: «قال: هل بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساقه، فيسجدون له». وهذا بيِّن أنهم لم يعرفوه بالصفة التي وصف لهم في الدنيا، بل بآية وعلامة عرفوها في الموقف.

وكذلك في حديث جابر: «قال: فيتجلى لنا يضحك»، ومعلوم أنه وإن وصف بالدنيا بالضحك فصورته لا تعرف بغير المعاينة.

الوجه السادس: أنه مثل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾[1]، وبقوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[2]، وهذا غير مناسب؛ لأن اليهود غلطوا في الذي رأوه، حيث ظنوه المسيح، ولم يكن هو، ولكن ألقى شبهه عليه، وكذا الذي رأته مريم، ومحمد ﷺ، هو جبريل نفسه في صورة آدمي، فكيف يقاس ما رئي هو نفسه في صورة على ما لم ير؟

وأما التقليل والتكثير في أعينهم فهو في المقدار، ليس في نفس المرئي، ولكن في صفته.

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال.

(٢) الآية ١٥٧ من سورة النساء.

الوجه السابع: أن هـذا المعنى كان مقيداً بالرائي، لا بالمرئي، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾[1]، فقيد ذلك بأعين الرائين، يقال: كان هذا في عين فلان رجلاً، فظهر امرأة، وكان كبيراً، فظهر صغيراً، ونحو ذلك.

لا يقال: جاء فلان في صورة كذا، ثم تحول في صورة كذا، ويكون التصوير في عين الرائي فقط»[2].

قوله: «فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن»: الضمير في **قوله: «فيكشف عن ساقه»** يعود إلى الله تعالى، ففي ذلك إثبات الساق صفة لله تعالى، ويكون هذا الحديث ونحوه تفسيراً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[3].

قال البخاري في «التفسير» من «صحيحه»: «باب: «يوم يكشف عن ساق»»:

حدثنا آدم، حدثنا الليث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد ابن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد -رضي الله عنه- قال: سمعت النبي -ﷺ- يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً» وهذا حديث متفق على صحته، وفيه التصريح في أن الله تعالى يكشف عن ساقه، وعند ذلك يسجد له المؤمنون.

ومن تأوّله التأويلات المستكرهة، فقد استدرك على رسول الله -ﷺ-، ولم يرض بما جاء به عن ربه تبارك وتعالى.

ومعلوم أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[4] ليس نصاً في أن الساق صفة لله -تعالى-؛ لأنه جاء نكرة غير معرف بالإضافة إلى الله -تعالى-، فيكون قابلاً كونه صفة، وكونه غير صفة، وتعينه لواحد من ذلك يتوقف على الدليل، وقد دل الدليل الصحيح على أنه صفة لله -تعالى- فلا يجوز تأويله بعد ذلك.

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنفال.

(٢) «نقض التأسيس» (٣/ ٣٩٧-٤٠٤) المخطوطة.

(٣) الآية ٤٢ من سورة ن.

(٤) الآية ٤٢ من سورة ن.

أما ما جاء عن ابن عباس وغيره أن ذلك: الشدة والكرب يوم القيامة، فهذا بالنظر إلى لفظ الآية؛ لأنها كما قلنا لم تدل على الصفة بلفظها، وإنما الدليل هو الحديث المذكور، مع أنه جاء عن أبي سعيد، راوي الحديث، وجاء عن غيره أيضاً، أنهم جعلوها دالة على الصفة.

قال شيخ الإسلام: «وقد طالعت التفاسير المنقولة، عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت على أكثر من مِئَة تفسير، فلم أجد عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات، أو أحاديثها، بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فروي عن ابن عباس، وطائفة، أن المراد به: الشدة، أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد، وطائفة، أنهم عدوها في الصفات، للحديث الذي رواه أبو سعيد في «الصحيحين».

ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات، فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة، لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر»[1] .

وقال أيضاً: «الصحابة قد تنازعوا في تفسير هذه الآية، هل المراد به: الكشف عن الشدة، أو المراد: أنه يكشف الرب عن ساقه؟

ولم يتنازع الصحابة والتابعون فيما يذكر من آيات الصفات، إلا في هذه الآية، بخلاف [قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ونحو ذلك، فإنه لم يتنازع فيها الصحابة والتابعون]، وذلك أنه ليس في ظاهر القرآن أن ذلك صفة لله -تعالى- [يعني قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾؛ لأنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يقل عن ساق الله، ولا قال: يكشف الرب عن ساقه، وإنما ذكر ساقاً نكرة غير معرفة، ولا مضافة.

وهذا اللفظ بمجرده، لا يدل على أنها ساق الله، والذين جعلوا ذلك من صفات الله -تعالى- أثبتوه بالحديث الصحيح، المفسر للقرآن، وهو حديث أبي سعيد الخدري، المخرج في «الصحيحين، الذي قال فيه: «فيكشف الرب عن ساقه».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٤-٣٩٥).

وقد يقال: إن ظاهر القرآن يدل على ذلك، من جهة أنه أخبر أن يكشف عن ساق، ويدعون إلى السجود، والسجود لا يصلح إلا لله، فعلم أنه هو الكاشف عن ساقه. وأيضاً فحمل ذلك على الشدة، لا يصلح؛ لأن المستعمل في الشدة أن يقال: كشف الله الشدة -أي: أزالها- كما قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[1] وقال: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[2].

وإذا كان المعروف من ذلك في اللغة أنه يقال: كشف الشدة -أي: أزالها- فلفظ الآية: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾وهذا يراد به الإظهار والإبانة، وأيضاً هناك تحدث الشدة، لا إزالتها، فلا تكشف الشدة يوم القيامة.

لكن هذا الظاهر [من كون القرآن دالاً على الصفة] ليس ظاهراً من مجرد لفظة «ساق»، بل بالتركيب، والسياق، وتدبر المعنى المقصود»[3].

وبهذا يتبين بطلان قول من يقول: المراد بالساق: الأمر الشديد المهول، أو أنه مَلَكٌ يجعله الله علامة يعرفونها، ونحو ذلك من التأويلات الباردة السخيفة التي يجب أن ينزه عنها كلام العقلاء، فضلاً عن كلام رسول الله -ﷺ-.

وكل من جرّد نفسه لله، وطرح عنه التعصب، والتقليد، فإنه يعلم بطلان هذه التأويلات، وسخافتها.

قوله: «**فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً**»، وهذا مما يدل على أن الساق صفة لله -تعالى- حيث عرفه المؤمنون بذلك فسجدوا له، ومعلوم أن الشدائد في ذلك اليوم متوالية، من النفخ في الصور، وجمع الناس في صعيد واحد من أولهم إلى آخرهم، فيطول وقوفهم، شاخصة أبصارهم، حفاة، عراة، غرلاً، جياعاً عِطاشاً، ثم يؤتى إليهم بجهنم، تُجر بسبعين ألف زمام، في كل زمام سبعون ألف ملك، ثم تتوالى الأهوال من نصب الموازين، والصراط، والعبور على النار، حتى ينجو المؤمنون إلى

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الزخرف.

(٢) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون.

(٣) «نقض التأسيس» (٣/ ١٥-١٦).

الجنة، وأما من عداهم فلا يخرجون من شدة إلا إلى ما هو أشد منها، وكل هذه الأمور وغيرها لم توجب للمؤمنين السجود.

فلما مثل لكل قوم ما يعبدون، وأمروا باتباع معبوداتهم إلى النار، وبقي المؤمنون ينتظرون معبودهم، حتى إذا جاءهم في صورة لا يعرفونه بها، وقال: أنا ربكم، فيتعوذون بالله منه، خوفاً أن يكون غير ربهم؛ لأنهم لم يكونوا يشركون به شيئاً، ثم يقول لهم: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، الساق، عند ذلك يكشف عن ساقه جل وعلا، فيخرُّون له سُجَّداً.

وأما المنافقون الذين يراءون الناس بعبادتهم، فمنعوا من السجود، وجعلت ظهورهم طبقاً واحداً، لا يستطيعون الانحناء، ولا السجود؛ لأنهم ما كانوا في الحقيقة يسجدون لله في الدنيا، وإنما كانوا يسجدون لأغراضهم الدنيوية.

قوله: «**ثم يؤتى بالجسر، فيجعل بين ظهري جهنم، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: مدحضة، مزلة**» المدحضة: الذي لا تستمسك فيه الأقدام، ومزلة: صفة لمدحضة، يعني: أن القدم إذا وطئ عليه لا يثبت، بل يزل، والدحض: هو الموضع الذي فيه طين وأصابه الماء، فأصبح يدحض من وطئ عليه، أي: يزله، ولا يثبت عليه قدم.

قوله: «**عليه خطاطيف**» هو الحديدة المعقوفة، المحددة؛ لأجل أن تمسك من أريد خطفه بها، فهي قريبة من الكلوب، وتقدم شرحها وتفسير السعدان.

قوله: «**المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب**» يعني: مرورهم على النار يختلف باختلاف إيمانهم وأعمالهم، فمن كان إيمانه كاملاً، وعمله صالحاً خالصاً لله، فإنه يمر من فوق جهنم كلمح البصر، ومن كان دون ذلك يكون مروره بحسب إيمانه وعمله، كما فصل ذلك في الحديث، ومثل بالبرق، والريح، إلى آخره.

قوله: «**فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً**» جعل المارين على الصراط أربعة أصناف:

الأول: الناجي المسلَّم من الأذى، وهؤلاء يتفاوتون في سرعة المرور عليه كما سبق.

والثاني: الناجي المخدوش، والخدش هو الجرح الخفيف، يعني: أنه أصابه من لفح جهنم، أو أصابته الكلاليب والخطاطيف التي على الصراط بخدوش.

والثالث: المكدوس في النار، الملقى فيها بقوة، قال ابن الأثير: «كأن الإنسان تجمع يداه، ورجلاه، ويشد، ويلقى في النار، وهو بمعنى المكردس، وجاء في بعض نسخ مسلم «مكدوش»»[1].

والرابع: الذي يسحب على الصراط سحباً قد عجزت أعماله عن حمله.

قوله: «فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم، من المؤمن يومئذ للجبار» هذا من كرم الله، ورحمته، حيث أذن لعباده المؤمنين في مناشدته وطلب عفوه عن إخوانهم الذين ألقوا في النار، بسبب جرائمهم التي كانوا يبارزون بها ربهم، ومع ذلك ألهم المؤمنين الذين نجوا من عذاب النار وهول الصراط، ألهمهم مناشدته، والشفاعة فيهم، وأذن لهم في ذلك؛ رحمة منه لهم -تبارك وتعالى-.

«يقولون: ربنا إخواننا الذين كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا» مفهوم هذا أن الذين لا يصلون مع المسلمين، ولا يصومون معهم، لا يشفعون فيهم، ولا يناشدون ربهم فيهم.

وهو يدل على أن هؤلاء الذين وقعت مناشدة المؤمنين لربهم فيهم كانوا مؤمنين، موحدين؛ لقولهم: «إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا»، ولكن ارتكبوا بعض المآثم، التي أوجبت لهم دخول النار.

وفي هذا رد على طائفتين، ضالتين، الخوارج، والمعتزلة، في قولهم: إن من دخل النار، لا يخرج منها، وإن صاحب الكبيرة في النار.

«فيقول الله تعالى: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار، فيأتونهم، وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا، قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني، فاقرؤوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ

(١) «جامع الأصول» (١١/ ٣١٤) مطبعة أنصار السنة.

حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا ﴾[1] أما كون المؤمنين يذهبون إلى النار، وكيف يستطيعون الوصول إليها؟ وكيف يعرفون من في قلبه مثقال دينار، أو نصف دينار، أو مثقال ذرة من إيمان؟ هذه كلها من أمور الآخرة، التي لا تقاس بما تعارف عليه الناس في الدنيا، ولا يستطيع عقل البشر الحكم عليها، وإنما تعرف حقائقها يوم القيامة، فهناك يأتي تأويلها، وإنما يجب علينا تصديقها، والتيقن منها.

وليس بمستنكر في قدرة الله -تعالى- أن يجعل النار غير مؤذية لهؤلاء المؤمنين الذاهبين إلى إخوانهم في النار، كالملائكة الذين فيها.

والمقصود بالصور في قوله: «**ويحرم صورهم على النار**» وجوههم، وقد تقدم أن الله يحرم على النار مواضع السجود، وذلك من آيات الله وعظيم قدرته.

واستشهاد أبي سعيد بالآية ظاهر في أن العبد إذا كان معه مثقال ذرة من إيمان، فإن الله يضاعفه له، فينجيه بسببه.

قوله: «**فيشفع النبيون، والملائكة، والمؤمنون**» صريح في أن هؤلاء الأقسام الثلاثة يشفعون، ولكن يجب أن يعلم أن شفاعة أي شافع، لا تقع إلا بعد أن يأذن الله فيها، كما تقدم في مناشدتهم ربهم وسؤالهم إياه، ثم يأذن لهم فيقول: اذهبوا فمن وجدتم، إلى آخره.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾[2].

ولا تقع أيضاً إلا لمن يرضى الله -تعالى- عنه، وهو تعالى لا يرضى إلا عن أهل التوحيد والإخلاص، أما المشركون، ومنهم عباد الأولياء والقبور فحرام عليهم الشفاعة، كحرمة الجنة عليهم، كما هو معلوم من نصوص الشرع.

قوله: «**فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواماً قد امتحشوا**» الله تعالى هو مالك الشفاعة، والأمر له في كل شيء، والملائكة، والرسل، والمؤمنون، يطلبون منه أن يشفعهم في من دخل النار من المؤمنين بأن يخرجهم،

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

وهو -تعالى- الذي يُلقي هذا الطلب في نفوسهم كما سبق، والمراد بشفاعته -تعالى- رحمته لهؤلاء المعذبين، فيخرجهم من النار.

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].

وقال تعالى﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾[2].

والعهد: هو شهادة ألاَّ إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صادقاً مخلصاً، وعمل بما دلت عليه هذه الشهادة.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[3].

ففي هذه الآيات -ونحوه كثير- البيان الواضح في أن الشفاعة لله وحده، وأنها لا يمكن أن تقع من أحد عند الله إلا بعد أن يأذن لمن يشفع، ويرضى عن المشفوع له، وحقيقة الشفاعة أن الله يكرم الشافع بإذنه له في ذلك، ويرحم المشفوع فيه.

قوله: «**فيقبض قبضة**» فيه إثبات القبض لله تعالى، ومِنْ لازمِهِ إثبات اليد التي يقبض بها، وكم في كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله -ﷺ- من نص يثبت ذلك، ولكن أهل التأويل الفاسد المحرِّفين يأبون قبول ذلك، والإيمان به، وسوف يعلمون أن الحق ما قاله الله وقاله رسوله، وأنهم قد ضلوا السبيل في هذا الباب.

قوله: «**قد امتحشوا**» يعني: احترقوا، وفي رواية مسلم: «قد عادوا حمماً» أي: صاروا حمماً، والحمم -بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة- هو الفحم.

والامتحاش: احتراق الجلد، وظهور العظم، وليس المقصود هنا أن عظامهم ظهرت، وإنما المقصود احتراقهم ظاهراً.

---

(١) الآيتان ٤٣-٤٤ من سورة الزمر.

(٢) الآية ٨٧ من سورة مريم.

(٣) الآية ٤ من سورة السجدة.

وبهذا استدل علي أن من يدخل النار من الموحدين يموتون فيها؛ لأنهم احترقوا، وصاروا حمماً، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل»[1].

قال ابن رجب: «وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة، وتفارق أرواحهم أجسادهم، ويدل على ذلك: ما أخرجه البزار، من حديث عبدالله بن رجاء، حدثنا سعيد بن مسلمة، أخبرني موسى بن جبير، عن أبي أمامة بن سهل، عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: إن أدنى أهل الجنة حظاً -أو نصيباً- قوم يخرجهم الله من النار، فيرتاح لهم الرب -تعالى- أنهم كانوا لا يشركون بالله شيئاً، فينبذون بالعراء، فينبتون كما تنبت البقلة، حتى إذا دخلت الأرواح إلى أجسادها، قالوا: ربنا كما أخرجتنا من النار، وأرجعت الأرواح إلى أجسادها، فاصرف وجوهنا عن النار، فيصرف وجوههم عن النار»[2].

قال النووي: قوله ﷺ: «لكن ناس أصابتهم النار» إلى آخره، معناه: أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله -تعالى- إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله -تعالى-، وهذه الإماتة، إماتة حقيقية، يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم، ثم يكونون فحماً، فيُحملون ضبائر، كما تحمل الأمتعة، ويلقون على أنهار الجنة، فيصب عليهم ماء الحياة، فيحيون، وينبتون نبات الحبة في حميل السيل، في سرعة نباتها، وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء، ملتوية، ثم تشتد قوتهم، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم، هذا هو ظاهر الحديث.

وحكى القاضي عياض فيه وجهين، أحدهما: أنها إماتة حقيقية، والثاني ليس بموت حقيقي، ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالألم، والمختار ما قدمناه»[3].

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ٣٧) مع شرح النووي.

(٢) «التخويف من النار» (ص١٥٢).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٣/ ٣٨).

قوله: «**فينبتون في حافتيه، كما تنبت الحبة في حميل السيل**» المقصود: نبات لحومهم وأبصارهم وعظامهم التي احترقت في النار، ولا يلزم عند من يقول إنهم لا يموتون موتاً حقيقياً أنهم ماتوا في النار بحيث تفارق أرواحهم أجسامهم. والله أعلم.

و«**الحبة**» بكسر الحاء، قال الحافظ: «هي بزور الصحراء، وجمعها: حبب، بكسر الحاء، وأما الحبة بفتح الحاء -وهو ما يزرعه الناس- فجمعها حبوب»[1].

«**في حميل السيل، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة، وإلى جانب الشجرة، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان إلى الظل كان أبيض**» يعني بذلك: سرعة خروج لحومهم؛ لأن النبت في حميل السيل -كما ذكر- يخرج بسرعة، ولهذا يكون من جانب الظل أبيض، ومن جانب الشمس أخضر، وذلك لضعفه ورقته، ولا يلزم أن يكون نبتهم كذلك -كما قاله بعضهم: بأن الذي من جانب الجنة يكون أبيض، والذي من جانب النار يكون أخضر- بل المراد تشبيههم بالنبت المذكور في سرعة خروجه، ورقته، ولذلك قال: «**فيخرجون كأنهم اللؤلؤ**» يعني: في صفاء بشرتهم، وحسنها.

قوله: «**فيجعل في رقابهم الخواتيم**» خواتيم: جمع خاتم، وهذه الخواتيم يكتب فيها «عتقاء الرحمن من النار»، كما ذكر في الرواية الأخرى.

قوله: «**فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة، بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه**» يعني: أنهم لم يعملوا صالحاً في الدنيا، وإنما معهم أصل الإيمان، الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان برسولهم.

قال الكرماني: «ليس معهم إلا مجرد الإيمان، دون أمر زائد عليه، من الأعمال والخيرات، وعلم منه أن شفاعة الملائكة، والنبيين، والمؤمنين، فيمن كان له طاعة غير الإيمان الذي لا يطّلع عليه إلا الله»[2]، وتقدم في الحديث أنهم يخرجون من كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان، ومن كان في قلبه مثقال نصف دينار، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، والله أعلم.

---

(١) انظر «الفتح» (١١/ ٤٥٨).

(٢) «شرح الكرماني» (٢٥/ ١٥٠).

قوله: **فيقال لهم: «لكم ما رأيتم، ومثله معه»** يظهر أنهم يدخلون أماكن من الجنة خالية، ولهذا قيل لهم ذلك.

ومحل الشاهد من الحديث قوله: «فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته، التي رأوه فيها أول مرة»، وقوله: «**فيكشف عن ساق، فيسجد له كل مؤمن**» مع قوله: «فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ، إلا كما تضارون في رؤيتهما» جواباً لسؤالهم: «هل نرى ربنا يوم القيامة» وهي كما ترى أدلة واضحة صريحة، وهذا من أوضح الأدلة على أن عموم أهل الموقف من الرجال، والنساء، والمنافقين، يرونه، فإن الناس يعمهم، والحشر مشترك بينهم.

فقد ظهر مراد النبي -ﷺ- لكل عاقل عارف باللغة بقوله: «**إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب**» أن مراده رؤيتهم إياه بأبصارهم، لا يستريب في ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعاني، وليس في الممكن عبارة أوضح من هذا.

□□□

٦٧- وقالَ حَجَّاجُ بنُ مِنْهال: حدثنا هَمّامُ بنُ يحيى، حدثنا قتادةُ، عن أنسٍ - رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: «يحبس المؤمنون يوم القيامة، حتى يهموا بذلك.

فيقولون: لو استَشْفَعْنا إلى ربِّنا، فَيُرِيحُنا مِنْ مكاننا، فيأتونَ آدمَ.

فيقولون: أنتَ آدمُ أبو الناس، خَلَقَكَ الله بيَدِهِ، وأسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وأسْجَدَ لكَ ملائِكَتَهُ، وعَلَّمَكَ أسماءَ كُلِّ شيءٍ، لِتَشْفَعْ لنا عندَ رَبِّك، حتّى يُريحنا مِنْ مكاننا هذا.

قالَ: فيقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ، قالَ: ويذكرُ خطيئتَهُ التي أصابَ، أكْلَهُ مِنَ الشجرةِ وقد نُهِيَ عنها، ولَكِنِ ائتوا نوحاً، أول نبي بعثه الله -تعالى- إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، أول نبي بعثه الله -تعالى- إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، فيقولُ: لَسْتُ هُناكُمْ، وَيَذْكُرُ خطيئَتَهُ التي أصابَ، سُؤَالَهُ رَبَّهُ بغيرِ عِلْمٍ.

وَلَكِنِ ائتوا إبراهيمَ خليلَ الرحمن، قالَ: فيأتونَ إبراهيمَ، فيقولُ: إني لستُ هُناكُمْ، ويَذْكُرُ ثلاثَ كَذَبَاتٍ كذبهنّ، ولكن ائتوا موسى، عبداً آتاه الله التوراة، وكلمه وقربه نجياً.

قال: فيأتونَ موسى، فيقول: إني لستُ هُناكُمْ، وَيذْكُرُ خطيئَتَهُ التي أصابَ، قَتْلَهُ النَّفسَ، ولكن ائتوا عيسى، عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ، ورُوحَ اللهِ وكَلِمَتَهُ.

قال: فيأتونَ عيسى، فيقولُ: لستُ هُناكُمْ، ولكن ائتوا محمداً -ﷺ-، عَبْداً غَفَرَ الله له ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وما تَأَخَّرَ، فيأتوني، فأستأذنُ على ربي في دَارِهِ، فيؤذنُ لي عليهِ، فإذا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ ساجداً، فَيَدَعُنِي ما شاءَ اللهُ أنْ يَدَعَني، فيقولُ: ارْفَعْ محمدُ، وقل يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ.

قالَ: فأرفعُ رَأْسي، فأُثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يُعَلِّمُنِيه، فَيَحُدُّ لي حَدّاً، فَأَخْرُجُ، فَأُدْخِلُهُمُ الجنةَ -قال قتادةُ: وَسَمِعْتُهُ أيضاً يقولُ: «فَأَخْرُجُ، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النار، وأُدخلهم الجنةَ- ثم أعودُ فأستأذنُ على ربي في داره، فيؤذنُ لي عليهِ، فإذا رأيتُهُ وَقَعْتُ ساجداً، فَيَدَعُني ما شاءَ اللهُ أنْ يَدَعَني، ثم يقولُ: ارفعْ محمدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَه.

قالَ: فأرفع رأسي، فأثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يُعلّمنيه، قالَ: ثم أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لي حَدّاً، فَأَخْرُجُ، فأُدْخِلُهمُ الجنةَ -قالَ قتادةُ: وسمعتُهُ يقولُ: فَأَخْرُجُ، فَأُخْرِجهم مِنَ النار، وأُدخلهمُ الجنةَ- ثم أعود الثالثة، فأستأذنُ على ربي في دارهِ، فيؤذنُ لي عليهِ، فإذا رأيتُهُ وَقَعْتُ ساجداً، فَيَدَعُني ما شاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَني، ثم يقولُ: ارْفَعْ محمدُ، وقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وسَلْ تُعْطَهْ.

قالَ: فَأَرْفَعُ رأسي، فأثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يُعلّمنيه.

قالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لي حَدّاً، فَأَخْرُجُ، فأدخلهم الجنة -قال قتادة: وقد سمعته يقول: فَأَخْرُجُ، فَأُخْرِجُهم مِنَ النار، وَأُدْخِلُهم الجنةَ- حتّى ما يَبْقَى في النار إلا مَنْ حَبَسَهُ القرآنُ- أي: وجب عليه الخلود-، ثم تلا الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

قال: وهذا المَقامُ المحمودُ، الذي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ -ﷺ-».

هذا حديث الشفاعة المشهور، وقد تقدم في باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.

وقد جاء من رواية عدد من الصحابة، «وأول حديث أبي هريرة: «أنا سيد الناس يوم القيامة، يجمع الله الناس، الأولين والآخرين، في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون».

وزاد في رواية إسحاق بن راهويه: «فتدنو الشمس من رؤوسهم، فيشتد عليهم حرُّها، ويشق عليهم دنُـوُّها، فينطلقون من الضجر والجوع مما هم فيه».

وأول حديث أبي بكر: «عُرِض عليَّ ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيفظع الناس لذلك، والعرق كاد يلجمهم».

وفي حديث عبادة بن الصامت: «إني لسيد الناس يوم القيامة -بغير فخر-، وما من الناس إلا من هو تحت لوائي، ينتظر الفرج، وإن معي لواء الحمد»[1].

---

(١) انظر «الفتح» (١١/ ٤٣٢).

وبهذا يتبين أن قوله في رواية أنس: «يحبس المؤمنون يوم القيامة» أن قبله كلاماً محذوفاً، وأن المقصود الخلق عامة، ولهذا جاءت أكثر الروايات بالتعبير «بالناس».

وفي هذه الرواية -زائداً على ما تقدم-، ذكر الذنوب التي يعتذر بها الأنبياء، وتقدم أن هذا من الأدلة على وقع الذنوب في الجملة من الأنبياء، وتقدم الكلام في هذه المسألة.

ومن ذلك قوله: «فاستأذن على ربي في داره»، وتكرر ذلك ثلاثاً، قيل: المراد الجنة، والظاهر أن المراد مكان معين، كما في حديث الشفاعة الطويل «فآتي تحت العرش»، وفي حديث الصور: «فآتي مكاناً تحت العرش، يقال له: الفحص»، فيكون المعنى: المكان الذي تحت عرشه.

وما ذكره الحافظ، نقلاً عن الخطابي، أن قوله: «فأستأذن على ربي في داره» يوهم المكان، والله منزه عن ذلك، وإنما معناه في داره التي اتخذها لأوليائه، وهي الجنة، أضيفت إليه إضافة تشريف، مثل بيت الله وحرم الله»[1].

فيقال له: ماذا تقصد بالمكان؟ إن كنت تريد مكاناً يحويه ويحيط به، فالله -تعالى- منزه عن ذلك.

وإن كنت تريد أنه ليس فوق عرشه، عالٍ على خلقه، كما هو مذهب أهل الباطل من أشعرية، ومعتزلة، وغيرهم، فقد أثبتَ الله -تعالى- ذلك لنفسه وأثبتته له رسله، واتفقت عليه كتبه، وأجمعت عليه أتباع الرسل، وفطر الله -تعالى- عليه خلقه، فإنكار ذلك عناد، ومكابرة للعقول السليمة من الانحراف، ومخالفة للشرع، وقد تقدم من الأدلة على ذلك ما يكفي بعضه لمن يريد الحق.

ومما لم يتقدم في الرواية السابقة قوله: «فأَخْرُجُ، فأُخْرِجهم من النار» يعني: يخرج من المكان الذي استأذن في الدخول فيه.

وفيه ألفاظ أُخر تختلف عما سبق، ولكن المعنى متقارب.

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٢٩).

والمقصود منه هنا قوله: «**فأستأذن على ربي في داره، فإذا رأيته وقعت ساجداً**» كرر ذلك ثلاث مرات، وهو صريح في أن الرسول -ﷺ- يرى ربه عياناً في ذلك المكان، فيسجد له، وإذا رآه جاز أن يراه غيره.

وأما تلاوة الآية إلى آخر قول أنس، فهو تفسير للمقام المحمود، وسيأتي.

وفي هذا الحديث إشكال ظاهر، حتى قال الداودي: «أول هذا الحديث ليس متصلاً بآخره، بل بقي بين طلبهم الشفاعة، وبين قوله: «**فأستشفع**»، أمور كثيرة من أمور القيامة»[1] ، وقال: «وكأن راوي الحديث ركّب شيئاً على غير أصله، وذلك أن أول الحديث في ذكر الشفاعة، في الإراحة من كرب الموقف، وآخره في الشفاعة لإخراج بعض العصاة من النار، وهذا إنما يكون بعد انتهاء الوقوف، والقضاء بين الخلق، وذهاب أهل الجنة إليها، وأهل النار إليها»، قال الحافظ: «وهذا إشكال قوي»[2].

ثم ذكر جوابه، عن القاضي عياض، قال: وتبعه عليه النووي.

وحاصله: أن الحديث فيه اختصار، وحذف، وذكر بعض الروايات التي تبين ذلك.

منها ما في حديث أُبي بن كعب، عند أبي يعلى: «ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني، ثم يؤذن لي في الكلام، ثم تمر أمتي على الصراط، وهو منصوب بين ظهراني جهنم، فيمرون».

ومنها ما في رواية ابن عباس عند الإمام أحمد: «فيقول -عز وجل- يا محمد، ما تريد أن أصنع في أمتك؟ فأقول: يا رب، عجِّل حسابهم».

وذكر جواب القرطبي، «بأن قوله في حديث أبي هريرة: «أَدْخل من أمتك من الباب الأيمن من أبواب الجنة من لا حساب عليه ولا عذاب»، فهذا يدل على الشفاعة في تعجيل الحساب»[3].

---

(١) ذكره الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٤٢٦).

(٢) «الفتح» (١١/ ٤٣٧-٤٣٨) ببعض التصرف.

(٣) انظر «الفتح» (١١/ ٤٣٨).

وذكر غير ذلك مما هو مخالف لظواهر الأحاديث، فلا يعول عليه.

وقال ابن أبي العز: «والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، ولا يذكرون أمر الشفاعة الأولى، في إتيان الرب -تعالى- لفصل القضاء، مع أنه المقصود من سياق الحديث.

فإن الناس يطلبون الشفاعة ليقضى بينهم، فيستريحوا من عناء الموقف.

وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور المشهور، فإن فيه:

«فأذهب فأسجد تحت العرش، في مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: ما شأنك؟ -وهو أعلم- فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فشفعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول سبحانه: شفعتك، أنا آتيكُم فأقضي بينهم، قال: فأرجع فأقف مع الناس»، ثم ذكر «انشقاق السماوات، وتنزل الملائكة، ثم يجيء الرب -تعالى- لفصل القضاء» إلى آخره. وكأن السلف اقتصروا على هذا القدر من الحديث، للرد على الخوارج، ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار، بعد دخولها، فذكروا القدر الذي فيه التصريح بذلك»[1].

وبذلك يزول الإشكال، فإن حديث الصور مشهور، وإن كان سنده ضعيفاً، ولكن له شواهد كثيرة صحيحة، فيصلح أن يكون جواباً لهذا الإشكال، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» فقال ابن جرير: «يقول تعالى لنبيه محمد -ﷺ-: أقم الصلاة المفروضة، في أوقاتها التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليلِ فتهجد فرضاً فرضته عليك، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً، تحمده وتغبط فيه.

قال أكثر أهل العلم: إنه الشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه، من شدة ذلك اليوم ... ثم ذكر الآثار في ذلك.

وذكر بسنده، عن مجاهد: أن المقام المحمود: أن يجلسه معه على عرشه.

---

(١) «شرح الطحاوية» (ص١٩٣).

ثم قال: الصواب: ما صح به الخبر، أنه الشفاعة... وذكر بعض أحاديث الشفاعة، ثم قال: «وما قاله مجاهد، غير مدفوع صحته سنداً، ولا نظراً، إذ لا خبر عن رسول الله -ﷺ-، ولا عن صحابته، ولا التابعين بإحالة ذلك»[1].

قال الحافظ: «الجمهور على أن المراد بالمقام المحمود: الشفاعة، وبالغ الواحدي ونقل فيه الإجماع.

ثم قال: والراجح أن المراد به الشفاعة، لكن الشفاعة التي وردت في الأحاديث المذكورة في المقام المحمود نوعان:

الأول: العامة في فصل القضاء.

والثاني: الشفاعة في إخراج المذنبين من النار»[2].

□□□

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٤٣-١٤٧) ملخصاً.

(٢) «الفتح» (١١/ ٤٢٦-٤٢٧) ملخصاً.

٦٨- قالَ: حدثنا عبيدُاللهِ بنُ سعدِ بنِ إبراهيمَ، حدثني عَمِّي، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابنِ شهابٍ، قال: حدثني أنسُ بنُ مالكٍ -رضي الله عنه- «أنَّ رسولَ الله -ﷺ- أَرْسَلَ إلى الأنصار، فَجَمَعَهُمْ في قُبَّةٍ، وقالَ لهم: اصبِرُوا حتّى تَلْقَوْا اللهَ ورَسُولَهُ، فإني عَلَى الحَوْضِ».

ذكر البخاري -رحمه الله- هذا الحديث من رواية أنس -رضي الله عنه- في سبعة مواضع غير هذا الموضع، منها في غزوة الطائف، ولفظه: «قال ناس من الأنصار -حين أفاء الله على رسوله -ﷺ- ما أفاء، من أموال هوازن، فطفق النبي -ﷺ- يعطي رجالاً المِئَة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله -ﷺ-، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم.

قال أنس: فحدث رسول الله -ﷺ- بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدعُ معهم غيرهم.

فلما اجتمعوا قام النبي -ﷺ- فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟».

فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا، حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله -ﷺ- يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال النبي -ﷺ-: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أتألفهم؛ أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وتذهبون بالنبي -ﷺ- إلى رحالكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»، قالوا: يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم النبي -ﷺ-: «ستجدون أَثَرَةً شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإني على الحوض»[1] .

وله ألفاظ وروايات متعددة، من رواية أنس وغيره.

والأثرة: اختصاص غيرهم واستبدادهم بما يستحقونه هم، والمعنى: أن الناس يختصون بالدنيا، ويستأثرون بها، دون الأنصار، مع استحقاق الأنصار لها وهم الذين اجتمعوا على نصرة رسول الله -ﷺ- وآووه إلى بلادهم، وعاقدوه على أن ينصروه، ويمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأولادهم منه، فلنصرهم لله ورسوله سموا

(١) انظر «الفتح» (٨/ ٥٢).

الأنصار، وهو أشرف أسمائهم، وقد وقع لهم ما أخبرهم به رسول الله -ﷺ-، وذلك تقدير الحكيم العليم، حيث استأثر الناس عليهم بالدنيا، مع أنهم الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم، وهذا من فضل الله عليهم، حتى يجازيهم على أعمالهم الدرجات العالية في جنات عدن، فتظهر هناك فضيلتهم، ويغبطهم الناس الذين استأثروا عليهم بالدنيا أعظم غبطة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قوله: «جمعهم في قبة من أدم» القبة: كل ما كان مقبباً، وفي الأصل أن يكون عالي الوسط متداني الأطراف، والأدم: الجلود.

وتقدم تفسير الصبر.

وقوله: «حتى تلقوا الله ورسوله» هذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لأن اللقاء يتضمن الرؤية والمعاينة كما قال أهل اللغة.

قال الأزهري: «كل شيء استقبل شيئاً، أو صادفه، فقد لقيه، من الأشياء كلها»[(١)].

وقال ابن فارس: «اللقاء: الملاقاة، وتوافي الاثنين متقابلَيْن، ولَقِيته لُقِياً، ولُقياناً، واللقية: فُعْلَة من اللقاء، والجمع: لُقىً، قال:

وإني لأهوى النوم من غير نعسة لعل لقياكم في المنام تكـون»[(٢)]

وقال الراغب: «اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً، وقد يعبر به على كل واحد منهما، يقال: لقيه يلقاه لقاء، ولقياً، ولقية.

ويقال ذلك: في الإدراك بالحس، وبالبصر، وبالبصيرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[(٤)].

---

(١) «تهذيب اللغة» (٩/ ٢٩٩).

(٢) «مقاييس اللغة» (٥/ ٢٦١).

(٣) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٦٢ من سورة الكهف.

وملاقاة الله عبارة عن القيامة، وعن المصير إليه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[2].

واللقاء: الملاقاة، قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[4]، وقال: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾[5]، أي: نسيتم القيامة، والبعث والنشور»[6] . وقد ذكر لقاء الله في القرآن في أكثر من عشرين موضعاً، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[10]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾[12]، وقوله

---

(١) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٥ من سورة يونس.

(٤) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

(٥) الآية ١٤ من سورة السجدة.

(٦) «المفردات» (ص٤٥٣).

(٧) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب.

(٨) الآية ٧٧ من سورة التوبة.

(٩) الآية ٣١ من سورة الأنعام.

(١٠) الآية ١٥٤ من سورة الأنعام.

(١١) الآية ٤٥ من سورة يونس.

(١٢) الآية ٥ من سورة العنكبوت.

تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾[6].

فمن قرأ هذه الآيات ونحوها مما لم نذكره، مؤمناً بها، علم يقيناً أن مضمونها إخبار الله تعالى بأن العبد سيلقى ربه، لقاء يتضمن المحاسبة والكلام والمقابلة والمعاينة، والجزاء بالعمل الذي كان العبد يعمله في الدنيا.

ولم يزل أهل السُّنَّة من السلف، وأتباعهم، يستدلون بمثل هذه الآيات على رؤية الله تعالى.

وسيأتي حديث عدي بن حاتم، وفيه: «واعلموا أن كل واحد منكم سيلقى ربه، ليس بينه وبينه ترجمان» .

فمن أنكر ذلك فقد خالف كتاب الله، وسنة رسوله -ﷺ-، وسلك غير سبيل المؤمنين.

---

(١) الآية ٢ من سورة الرعد.

(٢) الآية الأخيرة من سورة الكهف.

(٣) الآية ٨ من سورة الروم.

(٤) الآية ٥٤ من سورة فصلت.

(٥) الآية ١٠٥ من سورة الكهف.

(٦) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت.

والله -تعالى- جعل التكذيب بلقائه كفراً، لا ينفع معه عمل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

قال ابن بطة: «سمعت أبا عمر الزاهد اللغوي يقول: سمعت أبا العباس أحمد ابن يحيى يقول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾[2]: أجمع أهل اللغة أن اللقاء ها هنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار»[3].

وقال شيخ الإسلام، رحمه الله تعالى: «اللقاء فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن رؤيته -سبحانه وتعالى- واحتجوا بآيات اللقاء على من أنكر رؤية الله في الآخرة، من الجهمية، والمعتزلة وغيرهم.

وجعلوا اللقاء يتضمن معنيين، **أحدهما**: السير إلى الملك.

والثاني: معاينته، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[4].

فذكر أنه يكدح إلى الله، فيلاقيه، والكدح يتضمن السلوك والسير إليه، واللقاء يعقبهما.

وأما المعاينة من غير سير إلى المعاين -كمعاينة الشمس، والقمر- فلا يسمى لقاء.

وقول الذين يجعلون المراد من اللقاء، هو الجزاء، دون لقاء الله، معلوم الفساد بالاضطرار، بعد تدبر الكتاب والسُّنَّة.

ويظهر فساده من وجوه:

أحدها: أنه خلاف التفاسير المأثورة عن الصحابة والتابعين.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت.

(٢) الآيتان ٤٣-٤٤ من سورة الأحزاب.

(٣) انظر «مجموع الفتاوي» (٦/ ٤٨٨).

(٤) الآية ٦ من سورة الانشقاق.

الثاني: أن حذف المضاف إليه لا بد أن يقارنه قرائن تبين ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾[1]، ولو قال قائل: رأيت زيداً أو لقيته، وأراد بذلك أنه رأى غلامه، أو أباه، أو لقيهما، لم يجز ذلك في لغة العرب بلا نزاع.

ولقاء الله -تعالى- قد ذكر في كتاب الله وسنة رسوله في مواضع كثيرة مطلقاً غير مقترن بما يدل على أنه أريد بلقاء الله بعض مخلوقاته من ثواب وغيره.

الثالث: أن اللفظ إذا تكرر ذكره في الكتاب، ودار مرة بعد مرة على وجه واحد، وكان المراد به غير مفهومه ومقتضاه عند الإطلاق، ولم يبين ذلك، كان تدليساً وتلبيساً يجب أن يصان كلام الله عنه، الذي أخبر أنه شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وأنه بيان للناس.

وقد علم أن الرسول -ﷺ- بلغ البلاغ المبين، وأنه بين للناس ما نزل إليهم.

وأما قول أهل البدع: إن القرينة الدالة على أن لقاء الله غير مراد من هذه النصوص: هو ما في العقل من امتناع ذلك وإحالته.

فهو مردود من وجهين:

أحدهما: أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك، بل البراهين العقلية تتفق مع القرآن، كما قال الله -تعالى-: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[2].

وما يدعيه نفاة لقاء الله ورؤيته من الحجج العقلية التي تخالف ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، ليست حججاً، وإنما هي شبهات فاسدة، عند من له خبرة جيدة بالمعقولات، وإنما تنطلي على المقلدين.

الثاني: أنه لو فرض أن هناك دليلاً عقلياً ينافي مدلول القرآن لكان خفياً، له مقدمات طويلة، متنازع فيها، ليس فيها واحدة متفق عليها، والواقع أنها شبهات فاسدة، أورثها صدودهم عن كتاب الله.

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٦ من سورة سبأ.

ومن الضروري أن الذي أخبر أنه بيان للناس، وأن كلامه هدى ورحمة، وشفاء، وبلاغ مبين، إذا أراد بكلامه الموصوف بما ذكر ما يقوله هؤلاء المتكلمون، فإنه بعكس تلك الأوصاف، فيكون فيه الضلال، واللبس؛ لأنه لا يدل على قولهم.

واتفاق المسلمين على وجوب تنزيه كلام الله ورسوله من ذلك أمر ضروري.

الوجه الرابع: أنه سيأتي في حديث ابن عباس، قول الرسول -ﷺ-: «أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق». ففرق بين لقائه، وبين الجنة والنار.

ومعلوم أن الجنة والنار، تتضمن جزاء المطيعين، والعصاة، فعلم أن لقاء الله غير لقاء الثواب، والعقاب.

الوجه الخامس: ما بينه رسول الله -ﷺ- في أحاديث كثيرة أن العباد سوف يلقون ربهم، وقد ذكر البخاري في هذا الباب قليلاً منها، مثل حديث عدي بن حاتم «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه حاجب يحجبه، ولا ترجمان».

الوجه السادس: أنه لو أريد بلقاء الله ما يخلقه من ثواب أو عقاب أو غير ذلك، لكان ذلك واقعاً في الدنيا والآخرة، كما في عقاب الأمم المكذبة، ونصر المؤمنين، وإسعادهم.

وقد علم أتباع رسول الله -ﷺ- أن لقاء الله -تعالى- لا يكون إلا بعد الموت.

كما علموا بطلان قول أهل البدع: إن لقاء الله هو لقاء بعض مخلوقاته.

وعلى قولهم، فليس في اللفظ ما يدل على تعيين مخلوق دون مخلوق، فإذا قالوا: إن لقاء الله هو الجنة، أو النار، جاز أن يقال: بل هو بعض ملائكته أو بعض الشياطين، أو غير ذلك، إذ ليس دلالة اللفظ على تعيين هذا بأولى من دلالته على تعيين هذا، فبطل قولهم.

الوجه السابع: أن لقاء الله لم يستعمل في لقاء غيره، لا حقيقة ولا مجازاً، بل وفي المخلوق كذلك، فلا يقال: لقيت زيداً، وأنت تريد عمراً.

الوجه الثامن: النصوص الكثيرة التي تفرق بين لقاء الله، وثوابه وجزائه، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[1]، فلو كان لقاؤه هو لقاء جزائه، لكان هو الأجر الكريم، ولا يحسن أن يخبر بأنه أعده لهم بعد ما حصل لهم؛ لأنهم لقوه، فلقاؤه وسيلة، وإعداد الأجر الكريم مقصود، فكيف يخبر بالوسيلة بعد حصول المقصود.

ومثل هذا يصان عنه كلام أوسط الناس، فضلاً عن كلام رب العالمين، ولا سيما وقد قرن اللقاء بالتحية، التي لا تكون إلا في اللقاء.

الوجه التاسع: ما في الحديث من قوله -ﷺ-: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[2]،فلو كان لقاء الله هو جزاءه، لامتنع أن يحب جزاء عبده، ويكره جزاء آخر.

والله تعالى لا يكره جزاء عباده بما يستحقون، بل يحب ذلك، ولا يجزيهم إلا بما يستحقون، والجزاء لا يلقاه الله -تعالى-، ودلائل بطلان هذا القول لا حصر لها»[3].

فيكتفى بما ذكر، وبذلك يتضح أن معنى قوله -ﷺ- للأنصار: «اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله» يتضمن معاينتهم لربهم، وتكليمه لهم ومجازاتهم، وتكريمه لهم بمخاطبتهم قبل أن يدخلهم دار النعيم الأبدي.

فهو ﷺ يقول لهم: تسلَّوا عما فاتكم من الدنيا مما تستحقونه، بما يكون لكم بعد البعث من الموت، عندما تلقون ربكم، فيكرمكم بتحيته لكم ومخاطبتكم، ورؤيتكم إياه، فذلكم اليوم الذي تسعدون فيه حقاً.

وكذلك تلاقون نبيكم على حوضه، الذي منّ الله به عليه، فأكرمه به في الموقف الذي يشتد فيه الظمأ، فأنتم أحق من يرد ذلك الحوض، فتشربون منه دون معوق، أو مكدر، فلا ينالكم بعد ذلك نصب، ولا وصب، ولا ظمأ، ولا أذى.

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب.

(٢) رواه البخاري، انظر «الفتح» (١١/ ٣٥٧) في الرقاق، ورواه مسلم في «الذكر والدعاء» (٤/ ٢٠٦٥، ٢٠٦٦، ٢٠٦٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» بتصرف وتلخيص (٦/ ٤٦٢-٤٧٥).

٦٩- قال: «حدثني ثابتُ بنُ محمدٍ، حدثنا سفيانُ، عن ابنِ جُرَيْجٍ، عن سليمانَ الأَحْوَل، عن طاوُس، عن ابنِ عباسٍ -رضي الله عنهما- قال: كانَ النبيُّ -ﷺ- إذا تَهَجَّدَ مِنَ الليل قال: اللهمَّ ربنا لكَ الحَمْدُ، أنتَ قَيِّمُ السمواتِ والأرض، ولك الحمدُ، أنت رَبُّ السماواتِ والأرضِ وَمَنْ فيهنّ، ولك الحمدُ، أنت نور السماواتِ والأرض ومن فيهن، أنتَ الحقُّ، وَقَوْلُكَ الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ الحقُّ، والجنةُ حَقٌّ، والنارُ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وبكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإليكَ خاصَمْتُ، وبكَ حاكَمْتُ، فاغفرْ لي ما قَدَّمْتُ، وما أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ، وَأَعْلَنْتُ، وما أنتَ أَعْلَمُ به مِني، لا إلهَ إلاّ أنْتَ».

قال أبو عبدِالله: قالَ قيسُ بنُ سعدٍ، وأبو الزُّبَيْر، عن طاوُس: قَيَّامُ.

وقال مجاهدٌ: القَيُّومُ: القائمُ على كُلِّ شيءٍ، وقرأ عُمَرُ: القَيَّامُ، وكلاهما مَدْحٌ».

تقدم شرح هذا الحديث، والمقصود منه هنا قوله: «أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق» ففرق بين لقائه وجزائه، بقوله: «ووعدك حق، ولقاؤك حق، والنار حق».

فلقاؤه غير وعده، وغير جزائه، الذي هو الجنة والنار.

فدل على أن تفسير لقائه بثوابه أو نحو ذلك تفسير باطل، لم يدل عليه لا كتاب ولا سنة، بل الأدلة من الكتاب والسُّنَّة تبين بطلانه.

وبذلك يتبين أن لقاءه -تعالى- يتضمن رؤيته، ومعاينته، وهو ما أراده البخاري من هذا الحديث، وذلك ما قاله السلف، وهو واضح.

□□□

٧٠- قال: «حدثنا يُوسُفُ بنُ مُوسَى، حدثنا أبو أُسامةَ، حدثني الأَعْمَشُ، عن خَيْثَمَةَ، عن عَدِيٍّ بن حاتم، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «ما مِنكم مِنْ أحدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، ليسَ بينَهُ وبينَهُ تُرْجُمانٌ، ولا حِجابٌ يَحْجُبُهُ».

قوله: «ما منكم من أحد» الخطاب للصحابة، ويتناول جميع المؤمنين، سابقهم ولاحقهم، برهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة.

والترجمان: هو الواسطة بين اثنين أو أكثر الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى، أو يبلغ عن المتكلم كلامه.

والمقصود هنا أنه ليس بين العبد وربه أحد يبلغه عنه، لا من الملائكة ولا من البشر.

بل الله -تعالى- هو الذي يتولى كلام عباده في ذلك الموقف بنفسه، فيحاسبهم على أعمالهم، وقد بين ذلك في لفظ الحديث، لكن الإمام البخاري -رحمه الله- اختصره، واقتصر على محل الشاهد منه.

ولفظه: «بينا أنا عند النبي -ﷺ- إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل.

فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد نبئت عنها.

قال: فإن طالت بل حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة[1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله.

-قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيء[2] الذين سعروا البلاد؟- ولئن طالت بك حياة، لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز.

ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من الذهب أو الفضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه.

---

(١) الظعينة: الهودج فيه المرأة، وهو شبه الغرفة الصغيرة يوضع فوق البعير، فتركب في وسطه المرأة ليسترها، والظعن هو: الخروج من المكان والسير.

(٢) الدعار -بضم الدال- مأخوذ من الدعارة، وهي: الخبث، والتلصص، وقطع الطريق.

وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى.

فيقول: ألم أعطك مالاً، وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم.

قال عدي: سمعت النبي -ﷺ- يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي -ﷺ- يخرج ملء كفه»[١].

وفي رواية: «كنت عند رسول -ﷺ- فجاء رجلان، أحدهما يشكو العيلة، والآخر يشكو قطع السبيل. فقال رسول الله -ﷺ-: «أما قطع السبيل فإنه لا يأتي عليك إلا قليل حتى تخرج العير إلى مكة بغير خفير[٢].

وأما العيلة، فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدقته لا يجد من يقبلها منه.

ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»[٣].

ففي هاتين الروايتين بيان جلي بأن الله -تعالى- يتولى كلام عباده ومحاسبتهم بنفسه بدون واسطة بينه وبينهم، وفي ضمن ذلك رؤيته -تعالى- وسماع كلامه.

قوله: «ولا حجاب يحجبه» أي: ليس بين العبد وبين ربه ما يمنع رؤيته ومشاهدته. و هذا ظاهر الدلالة على رؤية المؤمن ربه يوم يحاسبه، وعلى سماعه كلامه.

---

(١) انظر البخاري (٦/ ١١٠)، وانظر «فتح الباري» (٦/ ٦١٠).

(٢) الخفير: هو من يحمي سالك الطريق ويجيره ممن يريده بسوء.

(٣) انظر «فتح الباري» (٣/ ٢٨١).

وفيه دليل على أن لله تعالى حجاباً يحتجب به عن خلقه، والأدلة على ذلك كثيرة، وأهل البدع ينكرون حجاب الله تعالى، فهو عندهم كما يقول الفخر الرازي: «هو عبارة عن الجسم المتوسط بين جسمين آخرين. وهذا محال على الله»[1].

ونقل الحافظ عن ابن بطال، أن الحجاب هو: الآفة المانعة من النظر التي تكون على أبصار المؤمنين، ومعنى رفع الحجاب: إزالة الآفة من أبصار المؤمنين المانعة لهم من الرؤية، فيرونه لارتفاعها عنهم، بخلق ضدها فيهم»[2].

ومقتضى هذا الكلام أن الذي يمنع المؤمنين في الدنيا من رؤية الله تعالى هو الآفة التي على أبصارهم، ولو زالت تلك الآفة لرأوه.

فالحجاب عند هؤلاء: هو عدم الإدراك في أبصار الخلق، وما وصف به الله -تعالى- من الحجاب راجع إلى الخلق. وشبهتهم: أن ما ستر بالحجاب، فالحجاب أكبر منه، ويكون متناهياً، ومحاذياً للحجاب، وهذا لا يكون إلا للأجسام.

نقل ابن حجر، عن العلائي قوله: «المراد بالحاجب، والحجاب: نفي المانع من الرؤية» ثم قال: «وقد ورد ذكر الحجاب في عدة أحاديث صحيحة.

والله -سبحانه- منزه عما يحجبه، إذ الحجاب إنما يحيط بمقدر محسوس، ولكن المراد بحجابه: منعه أبصار خلقه، وبصائرهم، بما شاء متى شاء كيف شاء، وإذا شاء كشف ذلك عنهم»[3].

وهكذا شراح الحديث وغيرهم -الأشاعرة- ساروا على هذا المنوال.

ويلزم من ذلك أن الله -تعالى- وصف نفسه وكذلك رسوله وصفه بما يجب أن ينزه عنه، فهؤلاء المبتدعة أعلم من الله، ومن رسوله بالله، وأحرص على تنزيه الله من الله ورسوله، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[4].

---

(١) «تأسيس التقديس» (ص٩٩).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٤٣٠).

(٣) المرجع المذكور (ص٤٣١).

(٤) الآية ٥ من سورة الكهف.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾[2]، وعدم الإدراك الذي زعموا ليس شيئاً موجوداً فيكون حائلاً دون رؤيتهم ربهم، بل هو عدم، والعدم لا وجود له.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

فتجلّيه للجبل يدل على أنه محتجب بحجاب كشف للجبل منه ما جعله دكاً.

وفي صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قام فينا رسول الله -ﷺ- فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[4].

ومعلوم أن بصر الله تعالى لا ينتهي دون شيء، ولا يحول دونه شيء، فهو بكل شيء بصير، فلولا الحجاب الذي احتجب به لما بقي شيء من المخلوقات إلا ذاب واحترق، فكيف جاز لهؤلاء الذين جعلوا أقيستهم وعقولهم هي الحكم على ما يوصف الله -تعالى- به، وما يمتنع عليه.

وسيأتي حديث أبي موسى، وفيه: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وفي «صحيح مسلم»، عن صهيب، عن النبي -ﷺ- قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله -تبارك وتعالى-: «تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١٥ من سورة المطففين.

(٣) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٤) انظر «صحيح مسلم» (١/ ١٦٢) الحديث رقم (١٧٩).

وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم -عز وجل»[1].

والنصوص في إثبات الحجب لله -تعالى- كثيرة، يؤمن بها أتباع رسول الله -ﷺ-، ويعلمون بما ورثوه من نور النبوة بأن الله -تعالى- احتجب بالنور، وبالنار، وبما شاء من الحجب، وأنه لو كشف عن وجهه الكريم الحجاب لما قام لنوره شيء من الخلق، بل يحترق، ولكنه تعالى في الدار الآخرة يكمل خلق المؤمنين ويقويهم على النظر إليه -تعالى- فينعمون بذلك، بل هو أعلى نعيمهم يوم القيامة.

وقد تولى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إبطال شبه هؤلاء المنكرين لحجب الله -تعالى-، في كتابه «نقض تأسيس الجهمية، وإبطال بدعهم الكلامية» بوجوه كثيرة، أكثر من أربعين وجهاً، كل وجه منها كاف في إبطال قولهم.

قال -رحمه الله-: «**أحدها**: أنهم يقولون: إن الحجاب هو ما يخلقه الله في العين من الرؤية المتعلقة به تعالى.

وهذا باطل بالضرورة؛ لأنهم فسروا الحجاب بعدم الإدراك في أبصارهم، والعدم لا يخلق ولا وجود له، فهو ليس شيئاً.

الثاني: أنه ثبت في الحديث قوله: «**فيكشف الحجاب، فينظرون إليه**».

وكشف الشيء: إزالته ورفعه، وهذا لا يوصف به المعدوم، فإنه لا يزال، ولا يرفع، وإنما الذي يُزال ويُرفع: الموجود.

الثالث: أنه قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه» فجعل النظر متعقباً لكشف الحجاب. وعند هؤلاء المبتدعة: الحجاب هو عدم خلق الرؤية، وضده خلق الرؤية، فيكون زوال ذلك العدم هو عين الرؤية، لا يكون شيئاً يتعقب [كشف] الحجاب، وتقدم أن العدم ليس شيئاً.

الرابع: أن في الحديث: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه».

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٦٣) الحديث رقم (١٨١).

ولو كان كما زعموا هو خلق الرؤية لم يكن كشف ذلك يحرق شيئاً. فالمؤمنون يرون ربهم في عرصات القيامة، وفي الجنة، ولا تحرق رؤيتهم شيئاً.

الخامس: [أنه] ثبت في «الصحيحين»: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن».

وعلى قول هؤلاء: ما بينهم وبين أن ينظروا إليه إلا زوال ذلك العدم بخلق الرؤية في أعينهم.

ومعلوم أن عدم خلق الرؤية فيهم ليس هو رداء الكبرياء، ولا هو على وجه الله الكريم، ولا هو في جنة عدن، ولا هو شيء أصلاً حتى يوصف بصفات الموجود.

السادس: أن من تأمل نصوص الكتاب والسُّنَّة، وما ورد في ذلك من الآثار عن الصحابة والتابعين، علم بالضرورة علماً يقيناً لا يستريب فيه أن لله حجاباً، وحجباً منفصلة عن العباد، يكشفها إذا شاء، فيتجلى، وإذا شاء لم يكشفها.

وإذا كان الحجاب كما يقول الرازي وذووه: «هو الجسم المتوسط بين جسمين» فلازم الحق حق، لا يمكن أن يدفع حيث علم بالاضطرار من دين المرسلين، فلا يدفع بما أحدثه سلف الرازي، وأئمته، ولا بما يشنعون به على أهل السُّنَّة من اصطلاحات، وألفاظ ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سلطان.

فإن من أعظم بدعهم: قولهم: إن الله ليس بجوهر ولا جسم، وهذا هو الصنم الأكبر الذي صدوا به عباد الله عن معرفته، والإيمان به.

وهو الذي عُطل الله به من أسمائه وصفاته.

بل هو أساس الشرك والردة، والنفاق، وإن كان قد اغتر به طوائف من أهل الإيمان، لم يعلموا ما قصده واضعوه الذين أفسدوا به فطرة العباد التي فطرهم الله عليها، وأفسدوا به معاني كتاب الله، وصدوا به عن سبيل الله.

وهو لهؤلاء المبتدعة كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى للمشركين القدماء.

فإن الله -تعالى- لم ينزل في شيء من كتبه، ولا قال أحد من رسله، ولا أحد من ورثتهم: إن الله ليس بجوهر ولا جسم، وإن كان إثبات ذلك أيضاً بدعة وضلالة، إلا أن نفيه أعظم وأضل.

السابع: أن الله -تعالى- قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ ومعلوم أن هذا التكليم مثل ما حصل لموسى، وهو أرفع درجة من التكليم بالوحي، وإرسال الرسول باتفاق المسلمين، كما دل على ذلك الكتاب والسُّنَّة.

فإذا كان الحجاب كما يقول هؤلاء: هو عدم خلق الرؤية، فذلك مشترك بين الأقسام الثلاثة، فلا يكون لمن كلم من وراء حجاب ميزة.

وبطلان ذلك ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ معناه: من خلف حجاب، وعدم خلق الرؤية عدم محض، ليس له خلف، ولا أمام، فعلم أن الحق إثبات الحجاب لله حقيقة؛ لأنه موجود.

والتقدير على قولهم: أن يقال: «أو من وراء عدم خلق الرؤية» وهذا يشبه كلام المجانين، ولا يجعل هذا معنى كلام الله إلا زنديق متلاعب بالقرآن.

الثامن: أنه تعالى قال في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[1]، فجعل حجابهم يوم القيامة، ولو كان الحجاب هو عدم خلق الرؤية لكانوا محجوبين في الدنيا والآخرة، ولكان المؤمنون أيضاً داخلين في ذلك، معذبين بهذا الحجاب الذي عذب به الكفار في الآخرة.

ولكنه حجاب خاص يحجب الله به الكفار حين يتجلى للأبرار.

ثم هذا الذي قالوه في الحجاب حمل للفظ على ما لا تحتمله اللغة بوجه من الوجوه فهو تبديل للغة، كما هو تحريف للقرآن وتبديل لمعانيه»[2].

قوله: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه».

---

(١) الآية ١٥ من سورة المطففين.

(٢) «نقض التأسيس»، بتصرف وتلخيص، وانظر بقية الوجوه فيه (٣/ ١٤٥-١٥٤) مخطوط.

وفي رواية «حاجب» وهذا يدل على وجود الحاجب كما تقدم، ويدل على جواز أن يكون له ترجمان يبلغ عنه.

وقد جاء نص القرآن بأن التكليم يكون من وراء حجاب، وعلى قول المنكرين للحجاب لا يمكن أن يكون بينه وبين عباده حجاب حقيقي، ولا ترجمان، وهذا يلزم منه إما إنكار وجود الله، أو أنه حال مع خلقه، تعالى الله عن ذلك.

ومذهبهم في المسألتين من أعظم الباطل -أعني الرؤية والكلام- لأنهم يقولون: التكليم: هو خلق إدراك الكلام؛ لأن كلام الله معنى قائم بنفسه.

كما أنهم يقولون: الرؤية هي رفع الموانع، وخلق الرؤية في العين، فعلى هذا يكون الذي يراه المؤمنون في الجنة شيئاً مخلوقاً، والنصوص تبطل ذلك، وكذلك العقل والفطر إذا سلمت من الانتكاس، والتغيير.

□□□

٧١- قال: «حدثنا عَليُّ بنُ عبدِاللهِ، حدثنا عبدُالعزيز بنُ عبدِالصمدِ، عن أبي عِمْرانَ، عن أبي بَكْرِ بنِ عبدِاللهِ بن قَيْسٍ، عن أبيهِ، عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «جَنَّتان مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُما وما فِيهما، وجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُما وما فِيهما، وما بينَ القومِ وبينَ أن يَنْظُروا إلى رَبِّهم إلاّ رداءُ الكِبرياءِ على وجهه في جَنَّةِ عَدْنٍ».

قال الحافظ: في رواية الحارث بن عبيد، عن أبي عمران الجوني، في أول هذا الحديث: «جنان الفردوس أربع، ثنتان من ذهب» ...الخ.

وهذا يبين أن الحديث قد حذف شيء من أوله.

وهو يدل على تفاوت منازل الجنة ودرجاتها، فبعضها أعلى من بعض حساً ومعنى، حيث يكون بناؤها من الذهب، وأوانيها من الذهب، ومعلوم أن الذهب هو أغلى المعادن وأنفسها لدى المخاطبين بالقرآن عند نزوله، ويجوز أن يكون فيها ما هو أعلى من الذهب وأرفع؛ لأن الله -تعالى- أخبر أن فيها ما لا عين رأته، ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر، وتقدم البحث في درجات الجنة.

قوله: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

هذا الشاهد من الحديث للباب، إذ فيه التصريح بقرب نظرهم إلى ربهم فإذا أراد تعالى أن ينعمهم ويزيد في كرامتهم رفع رداء الكبرياء عن وجهه فنظروا إليه، وفي الرواية التي ذكرها في «التفسير»، «رداء الكبر على وجهه»[(١)].

لقد تخبط شراح الحديث هنا من الأشاعرة -تخبطهم في كثير من صفات الله -تعالى- فأخرجوا كلام رسول الله -ﷺ- عن ظاهره إلى المجازات البعيدة، وطلبوا له التأويلات المستكرهة، تحريفاً له وتعطيلاً لله من أوصافه، ظانين أن ما وصفه به رسوله في مثل هذا الحديث فيه تجسيم وتشبيه، كما هي طريقتهم.

نقل الحافظ كثيراً من كلامهم على هذا الحديث، فنقل عن القاضي عياض قوله: «من أجرى هذا الكلام على ظاهره أفضى به إلى التجسيم».

وقال الكرماني: «هذا من المتشابهات، فإما مفوض، وإما متأول بأن المراد من الوجه الذات، والرداء صفة من صفات الذات اللازمة، المنزه عما يشبه

(١) انظر البخاري (٦/ ١٢١) تفسير سورة الرحمن.

المخلوقات»، وقال المازري: «عبر عن زوال الموانع، ورفعها عن أبصارهم برداء الكبرياء»[1].

ونحن نجيبهم عما قالوا بجوابين، أحدهما مجمل، والآخر مفصل.

أما المجمل، فنقول: نحن لا نشك، ولا يشك مسلم عرف رسول الله -ﷺ- وعرف قدره، أنه أفصح منكم، وأقدر على بيان الحق وإيضاح ما يريد منكم ومن أئمتكم، وأنه أنصح للأمة وأشفق عليها وأحرص على هدايتها، وسد طرق الكفر والضلال عنها، منكم ومن غيركم، وأنه أعلم بالله وما يجب له وما يمتنع عليه، وأنه أخشى لله وأتقى له، فمع ذلك يمتنع أن يتكلم بما ظاهره الكفر والضلال، أو بما يؤدي إلى الباطل، بل كلامه فيه الهدى والنور والعصمة من الضلال والانحراف لمن آمن به واتبعه.

بخلاف كلام غيره من الناس فإنه لا بد من عرضه على قول الله وقول رسوله، فإن وافقه قبل، وإلا رد على قائله.

فالحق قطعاً فيما قاله رسول الله -ﷺ- وليس في قول من خالفه ممن يتلقى عقيدته عن أهل الكلام والفلسفة المبنية على آراء الرجال وتخرصاتهم.

وأما الجواب المفصل: فمن وجوه:

أحدها: أن ما قالوه خلاف ظاهر النصوص، كما صرحوا بذلك، وليس في اللفظ المذكور ولا في غيره مما جاء عن الرسول -ﷺ- ما يدل على ما قالوه.

ومعلوم أن صرف اللفظ عن ظاهره يحتاج إلى دليل يدل على ذلك، وإلا صار التأويل تحريفاً وتلاعباً.

أما ما يدعون من قرينة دلالة العقل، فمجرد دعوى تفتقر إلى برهان، والحق أن العقل يدل على ما دل عليه نص الشرع.

الوجه الثاني: أنه قال: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»، ومن المعلوم أن الكبرياء من صفات الله -

(١) انظر بقية كلامهم في «الفتح» (١٣/ ٤٣٣) فإني اختصرته.

تعالى- ولا يجوز للعباد أن يتصفوا بها، فقد توعد الله المتكبر بجهنم، كما قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1].

وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[2].

فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء إلا وصفاً لله -تعالى- فبطل قولهم: «إن المقصود من رداء الكبرياء: زوال الموانع».

الوجه الثالث: أنه أضاف رداء الكبرياء إلى وجه الله الكريم حجاباً له.

فقال: «إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»، فلا يجوز أن يكون رداء الكبرياء ما في أعين العباد من المانع الذي منعهم من رؤية الله كما يقوله هؤلاء، وقيد ذلك في جنة عدن.

وعلى مقتضى قولهم أنه لو زال المانع عن أعين العباد لرأوه في الدنيا.

الوجه الرابع: أنه ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله -ﷺ- قال: قال الله -تعالى-: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»[3].

ورواه مسلم، ولفظه: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته»[4].

ورواه ابن ماجه، ولفظه: قال رسول الله -ﷺ-: «يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم»[5].

ووصف الله -تعالى- بأن العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه، كسائر صفاته، تثبت على ما يليق به، ويجب أن يؤمن بها على ما أفاده النص دون تحريف ولا تعطيل.

قوله: «في جنة عدن» قيد لكونهم ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم -جل وعلا- إلا رداء الكبرياء.

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الزمر.

(٢) رواه مسلم (١/ ٩٣).

(٣) رواه أبو داود في «السنن» (٤/ ٣٥٠).

(٤) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٢٣) رقم (٢٦٢٠).

(٥) انظر ابن ماجه (٢/ ١٣٩٧) رقم (٤١٧٤).

وهذا دليل على فضل جنة عدن، وعلوها، ومن لازم ذلك علو الله -تعالى-؛ لأنهم ينظرون إليه -تعالى- من فوقهم، وتقدم بحث ذلك بما فيه كفاية.

وأما قول ابن بطال: «لا تعلق به للمجسمة في إثبات المكان؛ لما ثبت من استحالة أن يكون جسماً، أو حالاً في مكان.

فيكون تأويل الرداء: الآفة الموجودة في أبصارهم، المانعة لهم من رؤيته، وسماه رداء لتنزله في المنع منزلة الرداء الذي يحجب الوجه عن رؤيته، فأطلق عليه الرداء مجازاً، وقوله: «**في جنة عدن**» راجع إلى القوم»[1].

فيقال له أولاً: من هم المجسمة؟ ومعلوم أنه يقصد من أثبت أن الله فوق عرشه، وأنه يراه أهل الجنة من فوقهم، ولا شك أن نصوص الكتاب والسُّنَّة في إثبات ذلك أكثر من أن يحاط بها.

وعلى اصطلاح ابن بطال وذويه، كل من أثبت ذلك فهو مجسم.

والله -تعالى- قد أثبت ذلك لنفسه، وأثبته رسوله له، ونحن نتبع ذلك، سواء سماه أهل البدع تجسيماً وشنعوا على من اعتقده، أو قاله، أو لم يسموه، فإنه هو الحق الذي لا مرية فيه عند أهله.

وأما **قوله**: «لما ثبت من استحالة **أن يكون** -سبحانه- جسماً، أو حالاً في مكان» فكما سبق أن هذه البدعة هي التي عُطل رب العالمين من أسمائه وصفاته بها، وأنها الصنم الذي عبده المتكلمون، وصدوا به عباد الله عن معرفته وعبادته بأسمائه وصفاته.

ثم هذا القول من ابن بطال ومن قال به مجرد دعوى، لا برهان عليها، فمن أين لهم استحالة أن يكون الله في مكانه، وكتب الله وسنة رسوله ظاهرة في ذلك جلية تنادي بأن الله فوق عرشه مستو عليه، عال على خلقه؟

أما يستحيون من الدعاوى الكاذبة، التي يريدون بها التشنيع على أتباع الرسل؟!

وقد علم أن مقصودهم بالجسم: ما شغل مكاناً، أو ما يصلح أن يقال إنه هنا أو هناك، أو ما صحت الإشارة إليه، أو ما كان له مقدار.

---

(1) «الفتح» (١٣/ ٤٣٣).

وتقدم من الأدلة على استواء الله -تعالى- على عرشه، وعلوه على خلقه، وأنه يشار إليه، ويقال: إنه في السماء، ما فيه مقنع لمن يريد الحق.

وأما **قوله**: «**في جنة عدن راجع إلى القوم**» فمراده: أن القوم في جنة عدن، وأنه لا يجوز أن يقال: إن الله يرى في جنة عدن، وإنما معناه الإخبار بأن القوم في جنة عدن.

فيقال: **أولاً**: هذا رد صريح لقول رسول الله -ﷺ- وكفى بذلك ضلالاً، وبعداً عن سبيل المؤمنين.

ويقال: **ثانياً**: إن هذا من جنس تأويلات أهل البدع الباردة، التي لا تصدر عن عربي يعرف معنى ما يقول، فضلاً عن رسول الله -ﷺ- الذي هو أفصح العرب، وكونهم في جنة عدن قد علم من أول الحديث؛ لأنه قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما»...الخ، ثم أخبر أن رؤيتهم لربهم قريبة، ليس دونها إلا رفع الحجاب، فهم يرونه في جنة عدن من فوقهم، يوضحه الحديث المتقدم: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وسقفه عرش الرحمن»، ومن أجل ذلك أورده البخاري -رحمه الله- في هذا الباب مستدلاً به على رؤية الله -تعالى- كما هو واضح وصريح في ذلك.

□□□

٧٢- قال: «حدثنا الحُمَيْدِيُّ، حدثنا سفيانُ، حدثنا عبدُالملكِ بنُ أَعْيَنَ، وجامعُ ابنُ أبي راشدٍ، عن أبي وائلٍ، عن عبدِالله -رضيَ اللهُ عنه- قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «مَنِ اقْتَطَعَ مالَ امرئٍ مُسْلِمٍ بيَمِينٍ كاذبةٍ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عليهِ غَضْبانُ».

قال عبدُالله: ثُمَّ قَرَأَ رسولُ اللهِ -ﷺ- مصداقَهُ مِنْ كتابِ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[1] الآية.

قوله: «من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة» «مَن» مِن أدوات العموم، والأغلب أن تكون لخطاب من يعقل.

و«مال» نكرة، أضيفت إلى نكرة موصوفة بالإسلام، فشملت كل مسلم، وكل ما يسمى مالاً، قليلاً كان أو كثيراً.

روى الطبراني من حديث جابر بن عتيك، أنه سمع رسول الله -ﷺ- يقول: «من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة، وأوجب له النار»، قالوا: يا رسول الله، وإنْ شيء يسير؟ قال: «وإن كان سواكاً»[2].

ورواه الحاكم، ولفظه: «من اقتطع مال امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأدخله النار»، قالوا: يا رسول الله، وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: «وإن كان سواكاً، وإن كان سواكاً» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة[3]. وقال الذهبي: صحيح.

«اقتطع» من القطع؛ لأنه قطعه عن صاحبه، أو أخذ قطعة من ماله بالحلف الكاذب.

قوله: «لقي الله وهو عليه غضبان» هذا محل الشاهد من الحديث الذي أورده من أجله، وتقدم أن اللقاء يتضمن النظر والمعاينة، وأن السلف استدلوا بلفظ اللقاء على الرؤية.

---

(١) الآية ٧٧ من سورة آل عمران.

(٢) «معجم الطبراني الكبير» (٢/ ٢١٠).

(٣) «المستدرك» (٤/ ٢٩٥).

قال الحافظ: «في حديث وائل بن حجر عند مسلم: «لقي الله وهو عنه معرض».

وفي رواية كردوس، عن الأشعث، عند أبي داود: «لقي الله، وهو أجذم» قال: وفي حديث أبي أمامة عند مسلم، والنسائي، نحو ما في هذا الحديث: «فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة»، وفي حديث عمران، عند أبي داود «فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وهذا وعيد شديد جداً لمن يفعل ذلك، فعلى المسلم أن يحذر كل الحذر من أموال المسلمين بأي وسيلة كانت، فإن ذلك من أسباب سخط الله -تعالى-.

قوله: «مصداقه من كتاب الله جل ذكره» إلى آخره، أي: الذي يصدق هذا الحديث ويوافقه.

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدهم عليه من اتباع محمد -ﷺ-، وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة، بالأثمان القليلة الزهيدة -وهي عروض الدنيا الزائلة- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾برحمة منه لهم، بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: من الذنوب، والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار،﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2] مؤلم شديد الألم.

قال الحافظ: «يؤخذ من الآية تفسير **قوله: «لقي الله وهو عليه غضبان»**، ومقتضاه: أن الغضب سبب لمنع الكلام، والرؤية، والرضا سبب لوجودهما»[3].

وفيه وصف الله -تعالى- بالغضب، وأنه يغضب على بعض عباده بسبب ذنوبهم، وفيه أن الغضب غير العقاب، وإذا كان يغضب فهو تعالى يرضى، والأدلة على ذلك كثيرة.

---

(١) «الفتح» (١١/ ٥٥٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥١) ط الشعب.

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٣٣).

٧٣- قال: «حدثنا عبدُاللهِ بنُ محمدٍ، حدثنا سفيانُ، عن عَمْرو، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «ثلاثةٌ لا يُكلّمهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يَنْظُرُ إليهم: رَجُلٌ حَلَفَ على سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بها أكثر مما أَعْطَى، وهو كاذبٌ، ورجلٌ حَلَفَ على يمينٍ كاذبةٍ بعدَ العَصْرِ؛ ليَقْتَطِعَ بها مالَ امرئٍ مُسْلِم، ورجلٌ مَنَعَ فَضْلَ ماءٍ، فيقولُ اللهُ -تعالى- يومَ القيامةِ: اليومَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي، كما منعتَ فَضْلَ ما لم تَعْمَلْ يداكَ».

قوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله» أي: ثلاثة من أجناس الناس، يعم الذكور والإناث، والأحرار والعبيد.

وعدم تكليم الله لهم يوم القيامة دليل على غضبه عليهم، ومقتضاه: أنهم يذهب بهم إلى النار بدون سؤال ومحاسبة؛ لأنهم قد تناهى جرمهم في القبح، فاستحقوا أليم العذاب، مع الإعراض عنهم وإهانتهم من أول الأمر، فيكون هذا الحديث مخصصاً لحديث عدي السابق، وهو قوله: «ما منكم من أحد إلاَّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان».

وقوله: «ولا ينظر إليهم» نظر الله -تعالى- إلى العبد يقتضي الرحمة، وهؤلاء فعلوا أفعالاً مقتهم الله عليها، فأعرض عنهم، ومن أعرض الله عنه فهو هالك، الهلاك الأكبر.

والمقصود بالنظر المنفي هنا، نظر خاص يتضمن الإحسان والرحمة، ويفهم منه نظر العبد إلى الله -تعالى- لا يحجب بصره شيء أبداً، في أي وقت كان.

وهذا القدر من الحديث: أعني قوله: «لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة» هو محل الشاهد لما مر، ولأن الكلام والنظر المقيد بيوم القيامة يدل على اللقاء، واللقاء يتضمن المعاينة.

ثم ذكر أفعالهم التي استحقوا عليها هذا الوعيد الشديد، وهي ثلاثة أنواع:

أحدها: الحلف على السلعة التي يريد بيعها، أنه أعطى بها أكثر مما يريد المشتري أن يأخذها به، وهو كاذب في حلفه، وذلك لأنه اشترى بيمينه ثمناً قليلاً بخساً، مما يدل على رغبته في الدنيا وزهده في الآخرة، واليمين دين يتعبد الله به، فمن خاف الله في يمينه، فلم يكذب فهو من المتقين في ذلك.

ومن بذل يمينه بعرض من الدنيا، فهو فاجر يستحق العقوبة، مستخف بحرمات الله.

والسلعة هي: كل بضاعة عرضت للبيع.

والنوع الثاني -وهو أخص من الذي قبله- وهو الحلف على يمين كاذبة بعد العصر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، وهذا يكون عند من يحكم بين الحالف والمحلوف له، وهو الحاكم؛ لأن المحلوف له يلزم بأن هذا المال للحالف بمقتضى يمينه، وهذا هو معنى الاقتطاع.

وخص المسلم لأن ماله أشد حرمة، وحقه على أخيه المسلم أعظم، وإلا فمال الكافر غير المحارب لا يجوز أخذه إلا بحق.

وخص وقت بعد العصر لفضله، ولأنه آخر النهار الذي أثنى الله على المسبحين فيه لقرب نهاية النهار وختم عمله، وقرب الليل الذي فيه النوم المذكر بالمصير إلى الله -تعالى-، وهو وقت أصوات الداعين لله والمسبحين.

وهذه اليمين **هي** الغموس سميت بذلك؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم فلا يخرج منه إلا أن يشاء الله -تعالى- فإنه يخرج الحي من الميت.

النوع الثالث: منع فضل الماء الذي زاد عن حاجته، ويحتاج إليه سالك الطريق؛ وذلك لأن الماء يتجدد بدله كلما أخذ منه، ولا يضر بذله، فمانعه لا يكون إلا لئيماً خبيث النفس، يقصد الأذية، وليس لديه رحمة للخلق، ولا رغبة في الخير.

وفهم من **قوله**: «**فضل** ماء» أن ما يحتاجه لشربه هو ومن يلزمه إعاشته لا يلزمه بذله.

ولكون الماء يتجدد بما أخذ منه، ولا صنع للإنسان فيه، كالطعام مثلاً واللباس الذي يحتاج معالجة وعملاً، لأجل ذلك يقول الله -تعالى- يوم القيامة: «اليوم أمنعك فضلي، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك».

ومن منع فضل الله فهو الخاسر الخسران الأبدي.

وقوله: «**يقول الله**» إلى آخره، لا يعارض أول الحديث أن هؤلاء لا يكلمهم الله، لأنه لا يلزم أن يكون هذا القول مواجهاً به صاحب هذا العمل فقد يكون للملائكة الذين يتولون عذابه، أو غير ذلك، والله أعلم.

٧٤- قال: «حدثنا محمدُ بنُ المُثَنَّى، حدثنا عبدُالوهابِ، حدثنا أيوبُ، عن محمدٍ، عن ابن أبي بَكْرَةَ، عن أبي بَكْرَةَ، عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «الزَّمانُ قد استدارَ كهيئتِهِ يومَ خلَقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عَشَرَ شَهَراً، منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثلاثٌ متوالياتٌ، ذو القعدةِ، وذو الحَجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَر، الذي بين جُمَادى وشعبان. أي شهر هذا؟» قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، فسكتَ حتى ظَنَنَّا أنَّهُ يُسَمِّيه بغيرِ اسمِهِ، قال: «أليسَ ذا الحجة؟» قلنا: بَلَى.

قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ، فسكتَ حتى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُسَمِّيه بغيرِ اسمِهِ، قال: «أليسَ البلدةَ؟» قلنا: بَلَى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكتَ حتى ظَنَنَّا أنه سيسميهِ بغيرِ اسمِهِ، قال: «أليسَ يومَ النحرِ؟» قلنا: بَلَى.

قال: «فإنَّ دماءَكم وأموالَكم -قال محمد: وأحسبه قال: وأعراضَكم- عليكم حرامٌ، كحرمةِ يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.

ألا فلا تَرْجِعُوا بعدي ضُلالاً، يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ، ألا لِيُبْلِغِ الشاهدُ الغائبَ، فلعل بعضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أنْ يكونَ أَوْعَى مِنْ بعضِ مَنْ سَمِعَهُ».

فكانَ محمدٌ إذا ذكَرَهُ، قال: صدق النبيُّ -ﷺ-، ثم قال: «ألاَ هَلْ بَلَّغْتُ، ألا هَلْ بلغتُ».

هذا الحديث قاله -ﷺ- في خطبته العظيمة يوم النحر، في حجة الوداع، وفي هذا الحديث بيان وجوب الاجتماع على الحق، والاعتصام بكتاب الله، وسنة رسوله -ﷺ-، وعظم حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، ووجوب سلوك طريقه ﷺ، وبيان أن الله -تعالى- أتم عليهم نعمته بنبيه، وأخذهم بما جاء به.

وحذرهم من ترك هذا الهدى والرجوع إلى الضلال وكفر النعمة والفرقة الداعية إلى التصارم والقتال، فإن ذلك من الكفر.

وبين أن الزمان قد عاد كما خلقه الله، بعد تبديل المشركين الشهور المحرمة بالتقديم والتأخير حسب أهوائهم، حتى يستحلوا القتال في الأشهر الحرم.

وفيه بيان تأكد حرمة الأشهر الحرم التي حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض، وحرمة مكة، وأن هذا التحريم مستمر إلى يوم القيامة لا يستحله إلا من

جانب طريق الرسل، وأحل شعائر الله والشهر الحرام والبلد الحرام، وذلك من العظائم.

قوله: «الزمان قد استدار، كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» كان المشركون لا يستحلون القتال في الأشهر الحرم، ولما كان منها ثلاثة متواليات، طالت عليهم، فتحيلوا على تأخير المحرم وتقديم صفر مكانه، فيحلون المحرم عاماً ويحرمون صفر بدله ويحرمونه عاماً، فيجعلون المحرم هو صفر في هذا العام مثلاً، وفي العام الآخر يبقون المحرم وصفر على ما هما عليه، يفعلون ذلك تحيلاً على استحلال القتال، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

فيستحلون القتال في الشهر الحرام، ويسمونه بغير اسمه، ويحرمونه في الشهر الحلال ويسمونه محرماً؛ ليتفق ذلك مع عدة ما حرم الله -تعالى- من الأشهر؛ لأن توالي ثلاثة شهور محرمة يطول عليهم، ففعلوا ذلك لأجل قتال أعدائهم، ولغير ذلك من أغراضهم.

وفي السَّنة التي حج فيها النبي -ﷺ- اتفق أن الأشهر الثلاثة كلها محرمة، لأنها السَّنة التي كانوا يحرمون القتال في محرم على ما هو عليه، ولهذا قال ﷺ: «الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» أي: رجع تحريم الأشهر الحرم في حساب المشركين وعملهم متفقاً مع حكم الله وشرعه، فقد جعل الله السَّنة اثني عشر شهراً، منها أربعة حرم، يحرم القتال فيها، والظلم فيها أعظم منه في غيرها.

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس، «كان جنادة بن عوف بن أمية الكناني، يوافي الموسم في كل عام، وكان يُكْنَى أبا ثمامة، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب، ألا إن محرم العام الأول هذا العام حلال، فيحله الناس، فيحرم صفر عاماً ويحرم المحرم عاماً».

قال شاعرهم -وهو عمير بن قيس الذي يقال له: جذل الطعان- يفتخر بذلك:

---

(١) الآية ٣٧ من سورة التوبة.

لقد علمت معدٌّ بأن قومي — كرام الناس إن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معد — شهور الحل نجعلها حراما
فأي الناس لم ندرك بوتر — وأي الناس لم نعلك لجاما

وقوله: «**ورجب مضر**» إضافة إليهم؛ لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه وحرمة القتال فيه، أكثر من غيرهم، وكان بعض العرب يعمل فيه ما يعملونه في محرم حسب حاجتهم إلى القتال.

وقوله: «الذي بين جمادى وشعبان» تأكيد لتعريفه، ونَصٌّ عليه.

والمراد بالزمان في **قوله:** «**إن الزمان قد استدار**»: السَّنة.

قال الخطابي: «كانوا يخالفون بين أشهر السنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير؛ لأسباب تعرض لهم.

منها: استعجال الحرب، فيستحلون الشهر الحرام، ثم يحرمون بدله شهراً غيره، فتتحول بذلك السنة وتتبدل، فإذا أتى عدة من السنين استدار الزمان، وعاد الأمر إلى أصله، فاتفق وقوع حجة النبي -ﷺ- عند ذلك»[1].

فعلى هذا يكون المراد بالزمان: مطلقه.

قوله: «**أي شهر هذا؟**» إلى قوله: «**أليس يوم النحر؟**» لما كان متقرراً عندهم حرمة ذي الحجة وحرمة البلد الحرام، وحرمة يوم النحر، أراد ﷺ أن يؤكد تحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بالتمثيل البالغ في الحرمة منتهاها.

وفيه تعظيم شأن الدماء والأموال والأعراض وشدة حرمتها، حيث قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا»، فهذا غاية ما يمثل به شدة حرمة الشيء وتعظيمه.

وقد صح أن أول ما يبدأ به في المُقَاصَّة بين الناس يوم القيامة: الدماءُ.

قوله: «**وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم**» هذا هو المقصود من الحديث؛ لأنه ظاهر في مواجهتهم لله -تعالى- ومخاطبته لهم، فيدل على أنهم يرونه، كما تقدم أن اللقا يتضمن المعاينة والرؤية.

---

(١) انظر «فتح الباري» (٨/ ٣٢٥).

وهذه الجملة تأكيد لما سبق من ذكر حرمة الدماء، وما عطف عليها، إذ المعنى: إذا تأكد لديكم شدة حرمة ذلك، فاحذروا أنْ تقعوا فيه، فإنكم سوف تلاقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وهو أعلم بها منكم.

والسؤال يتضمن الجزاء.

وقوله: «**فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض**» أي: إياكم أن تعرضوا عما تركتكم عليه، وحضضتكم عليه، وهو التمسك بكتاب ربكم وسنة نبيكم، فإنه الصراط المستقيم، الذي يوصلكم إلى الجنة والسعادة في الدنيا والآخرة، فإنكم إن ملتم عن ذلكم ضللتم الطريق السوي، وارتكبتم أعظم ما حذرتكم منه، وهو الوقوع في الدماء، فيصبح بعضكم يضرب رقاب بعض، وهذا هو الضلال.

قوله: «**ألا ليبلغ الشاهد الغائب**» هذا من الواجب الذي لا يجوز الإخلال به أو التساهل؛ لأن الأمة لا تصلح إلا بمعرفة ما جاء به ﷺ والعمل به، كما قال الإمام مالك: «إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها».

ولما جهلت الأمة طريق الرسول كثر الضلال فيها، والتخبط في ظلمات الجهل والخرافة، فظهرت فيها الرافضة والصوفية، والباطنية، والملاحدة والزنادقة، وكل منهم يدعي أن الحق معه لا يعدوه، ومن خالفه فهو ضال أو كافر حلال الدم والمال، وغالب ذلك بسبب الجهل بما جاء به الرسول -ﷺ- وإن كان رؤساء هذه الطرق بالغالب ملاحدة يتسترون بالإسلام، هدفهم هدمه من أساسه، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

قوله: «**فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه**».

الوعي: هو الفهم والمعرفة ثم الامتثال، والمراد تبليغ أقواله -ﷺ- المتضمنة لأحكام الدين الذي جاء به.

وقوله: «**فلعل**» مشعر بقلة ذلك، ولهذا جاء في رواية بدل «فلعل» «رُبَّ» المفيدة للتقليل.

قال الحافظ: «فيه الحث على تبليغ العلم، وجواز التحمل قبل كمال الأهلية، وأن الفهم ليس شرطاً في الأداء، وأنه يأتي في الآخر من يكون أفهم من بعض من تقدم ولكن بقلة»[1].

هذه النصوص التي ذكرها المؤلف -رحمه الله- كلها دلت على أن الله -تعالى- يُـرى في الآخرة، دلالة متنوعة.

منها ما هو نص جلي لا يحتمل أي تأويل، مثل قوله ﷺ: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر».

وقوله: «إنكم سترون ربكم عياناً».

وقوله جواباً لسؤالهم: «هل نرى ربنا يوم القيامة؟» فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟ قالوا: لا، قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ، إلا كما تضارون في رؤيتهما».

وقوله: «فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون. فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه».

وقوله في حديث الشفاعة: «فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجداً»، كرر ذلك مراراً، كل هذه الألفاظ صريحة في الرؤية، غير قابلة لتأويل وصرف عن ظاهرها.

فلا عذر لمن خالفها، ولا حجة له، إلا اتباع الهوى، والتقليد الأعمى أو التعصب، أو الضلال البعيد، أو الكفر والجحود.

فقد وضح مراد النبي -ﷺ- من هذه الأحاديث لكل عاقل، عارف باللغة، لا يستريب في ذلك من عرف دلالة الألفاظ على المعاني؛ أن مراده بهذه الألفاظ المذكورة رؤيتهم إياه بأبصارهم، وليس في الممكن أوضح من هذه العبارات.

وهناك نصوص كثيرة غير ما ذكره هنا دالة على رؤية الله -تعالى- في الآخرة دلالة ظاهرة، استقصاها كثير ممن ألف في هذا الموضوع.

---

(١) «الفتح» (١/ ١٥٩).

قال ابن القيم: «اتفق [على أن الله يُرَى في الآخرة] الأنبياء، والمرسلون وجميع الصحابة، والتابعون، وأئمة الإسلام، على تتابع القرون.

وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مَسَبَّةِ أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون.

وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال، وشيعة اللعين، وأعداء الرسول وحزبه»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «والذي يجب على كل مسلم اعتقاده: هو أن المؤمنين يرون ربهم في الدار الآخرة، في عرصة القيامة[(٢)]، وبعد ما يدخلون الجنة، على ما تواترت به الأحاديث، عن النبي -ﷺ- عند العلماء بالحديث، فإنه أخبر أنا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر، والشمس عند الظهيرة، لا نُضَام في رؤيته»[(٣)].

واعلم أن الذين أنكروا رؤية الله -تعالى- اعتمدوا على شبه سموها براهين عقلية، وتعلقوا ببعض الآيات والأخبار، وهي في الحقيقة مبطلة لقولهم.

ومن أعظم الفرق إنكاراً لرؤية الله -تعالى- بالأبصار: المعتزلة، وبنوا إنكارهم لها على التشبيه المستكن في نفوسهم؛ لأنهم بنوا علمهم على الجدل، الذي أصله القياس المبني على تشبيه الغائب بالمشاهد. فإذا نظرت فيما ذكروه وجدت ذلك واضحاً في استدلالاتهم وتعليلاتهم إلى جانب التعصب للآراء.

قال عبدالجبار: «قال أهل العدل بأسرهم، والزيدية، والخوارج وأكثر المرجئة: لا يجوز أن يُرَى الله -تعالى- بالبصر، ولا يدرك به على وجه، لا لحجاب ومانع، لكن لأن ذلك يستحيل»[(٤)].

---

(١) «حادي الأرواح» (ص٢١٢).

(٢) عرصة القيامة، أو عرصاتها: هي مواقفها التي يقف الناس فيها مجتمعين.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٤٨٥).

(٤) «المغني» للقاضي عبدالجبار المعتزلي (٤/ ١٣٩).

١- ثم استدل «بأن الرؤية لا تصح إلا بحاسة البصر، والله لا يجوز أن يوصف بأن له حواس»[١] فالله عنده لا يَـرى ولا يُرى -تعالى الله عن ذلك-.

٢- «ولأن البصر لا يصح أن يَـرَى إلا ما كان مقابلاً، أو في حكم المقابل، وهذا لا يكون إلا للجسم ذي الألوان، وهو محال على الله»[٢].

٣- «ما يصح أن يُرى، لا يجوز أن يختص بصحة رؤيته بعض الرائين دون بعض، كما أن ما يصح أن يُعلم لا يجوز أن يختص بالعلم به بعض الأحياء دون بعض»[٣].

٤- «ولأن الموانع من الرؤية لا تختص بشيء تصح رؤيته دون شيء، وهي القرب المفرط، والبعد المفرط، والحجاب، واللطافة، والرقة، وأن يكون المرئي في غير جهة محاذاة الرائي، أو يكون حالاً فيما هذا سبيله، فإذا زالت هذه الموانع، وجب أن يُرى ما صحت رؤيته»[٤] والحجاب عندهم مستحيل على الله، كما تقدم.

فهذه جملة من أدلة هذه الفرقة، التي يسمونها براهين، إذا تأملها العاقل وجدها مبنية على قياس رب العالمين على المخلوق، وتحكيم الآراء، ولهذا ذهبت هيبة الله وعظمته من قلوبهم، واستخفوا بكتابه، فاجتهدوا في تحريف معانيه وصرفه عما قصد به.

والمقصود ذكر بعض أدلتهم العقلية -كما يقولون- وهي في الحقيقة شبه داحضة، وضلالات بيِّنة لمن عرف الحق.

وهم لا يقبلون أحاديث رسول الله -ﷺ-، وإن كانت أسانيدها في غاية الصحة والجودة، ويقبلون قول فلان وفلان؛ لأنهم يزعمون أن ذلك براهين عقلية.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٤٠).

(٣) المصدر السابق (ص٨٩).

(٤) المصدر السابق (ص١١٦).

فقوله: «إن الله لا يُرى بالبصر، لا لحجاب يحجبه، أو مانع يمنع رؤيته، لكن لأن رؤيته مستحيلة» فيقال له: هذا مجرد دعوى غير مقبولة، وهو في مقابلة قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وقوله في المعذبين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وفسر رسول الله -ﷺ- الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، كما في «صحيح مسلم»، وهو أيضاً مصادم لقول رسول الله -ﷺ-: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته» كما سبق.

فأيهما أحق بالاتباع: قول طائفة الاعتزال، عبّاد الآراء والأهواء، أم قول الله ورسوله؟ إن المقارنة بين هذا وهذا غير سائغة ولا مقبولة، لولا أن المسلمين قد بُلُوا بمن يعظّم آراء المعتزلة ويرى لها وزناً.

وكل ما أشرنا إليه عن المعتزلة هو في مقابلة النصوص الصحيحة الصريحة، فلا يسوغ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر الاعتداد بها، أو جعلها أدلة على أمر قد بان ووضح غاية الوضوح من كتاب الله وسنة رسوله.

«وقد ثبت اتفاق سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، وثبت في النصوص المتواترة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته».

وقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، وكما ترون القمر صحواً ليس دونه سحاب»[(١)].

وقولهم: «إن ما يُرى يجب أن يكون مقابلاً للرائي، وأن يكون متحيزاً في جهة، ولا يكون ذلك إلا لجسم، والله يتعالى عن ذلك؛ لأن هذا صفة المحدث.

وهذا شيء لازم للرؤية، ولهذا سخر المعتزلة وغيرهم من الأشعرية لما قالوا: إن الله يُرى لا من جهة؛ لأن هذه رؤية غير معقولة؛ لإثباتهم الرؤية ونفيهم الجهة.

---

(١) «نقض التأسيس» (٢/ ٤٠٦).

وأهل السُّنَّة يقولون: لا مانع من كون المرئي -الذي هو رب العالمين -جل وعلا- في مقابلة الرائين من عباده المؤمنين، فهم يرونه من فوقهم، كما صرحت به النصوص، ولا محذور فيه.

وأما اللوازم الباطلة، التي يدعيها المعتزلة وغيرهم، فهي منتفية عن الله -تعالى-.

ونحن نستفسر منهم: ما هو مرادكم بكونه مقابلاً للرائي؟ هل تريدون أنه لا بد له من مكان يحويه ويحيط به؟ فإن كان هذا ما أردتم، فالله -تعالى- له مكان هو فوق عرشه، ولا يحيط به شيء، ولا يحويه شيء -جل وعلا- وهو أكبر من كل شيء وأعظم، فهو -تعالى- يطوي السماوات كلها بيمينه، ويقبض الأرض كلها بيده الأخرى، وتكون كالخردلة في يد أحدنا، ولله المثل الأعلى.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] .

وأما التحيز، فإن أردتم أن الله مختلط بخلقه لئلا يلزم أن يكون متحيزاً، فنحن نكفر بقولكم هذا، ونتيقن أنه باطل، والنصوص من الشرع ترده، وكذلك العقل يرده.

وإن أردتم أن الله لا حقيقة له تميزه عن خلقه، فكذلك هذا كفر وضلال.

وإن أردتم أن الله -تعالى- متميز من خلقه، وأنه بائن منه، فهذا حق، والنصوص فيه أكثر من أن تحصى، وهو ما يعتقده المسلمون ويؤمنون به، واتفق عليه سلف هذه الأمة وأئمتها قبل ظهور المعتزلة والفرق الضالة، ومثل ذلك يقال في الجهة.

وتقدم من أدلة الكتاب والسُّنَّة، والعقل، وإجماع أهل الحق، وأدلة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، على أن الله في السماء مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقه ما يكفي عن ذكر شيء من ذلك هنا.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى-: «كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله في جهة من الرائي أمر ثبت بالنصوص المتواترة، كما في قوله: «**هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ولا قتر؟**».

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك». وذكر الحديث بطوله.

قال أبو سعيد: أشهد لحفظته من رسول الله -ﷺ-.

فهذا فيه مع إخباره أنهم يرونه، إخبارهم أنهم يرونه في جهة منهم، من وجوه:

أحدها: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون في جهة منهم، فأما رؤية ما ليس في جهة فلم يكونوا يتصورونه، فضلاً عن أن يكون اللفظ دالاً عليه، بل لا يتصور أحد من الناس وجود موجود في غير جهة.

الثاني: أنه قال: «فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحواً، وكما ترون القمر صحواً» فشبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر، وهما يريان من جهة.

الثالث: أنه قال: «هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟».

فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات، إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي.

وفي لفظ في «الصحيح»: «إنكم ترون ربكم عياناً»[1].

«فقد أخبرنا أنا نراه، وأخبرنا أيضاً أنه قد استوى على العرش ، فهذه النصوص يصدق بعضها بعضاً، والعقل أيضاً يوافقها، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته، وأنه فوق سماواته، وأن وجود موجود لا مباين للعالم، ولا مداخل له، محال في بديهة العقل .

فإذا كانت رؤيته تعالى مستلزمة هذه المعاني التي شنعتم بها، فهي حق، وإذا سميتم أنتم هذا قولاً بالجهة والتجسيم، لم تكن هذه التسمية نافية لما علم بالشرع والعقل .

ثم يقال : ما تعنون بقولكم: إن هذا إثبات للجهة، والجهة ممتنعة على الله؟ أتعنون بالجهة أمراً وجودياً، أو أمراً عدمياً؟

فإن أردتم الأول، فقد علم أنه ليس هناك موجود إلا الخالق والمخلوق، والله -تعالى- فوق مخلوقاته، بائن منها .

---

(١) «نقض التأسيس» (٢/ ٤٠٩-٤١٥) ملخصاً.

وعليه فليس الله -تعالى- في جهة موجودة .

وقولكم: إن المرئي لا بد أن يكون في جهة موجودة، باطل، فإن سطح العالم مرئي، وليس هو في عالم آخر.

وإن فسرتم الجهة بأمر عدمي -كما تقولون-: «إن الجسم في حيز، والحيز تقدير مكان، وتجعلون ما وراء العالم حيزاً».

فيقال: الجهة والحيز إذا كانا أمراً عدمياً فهو ليس شيئاً، وما كان في جهة عدمية أو في حيز عدمي فليس هو في شيء.

ولا فرق بين قول القائل: هذا ليس في شيء، وبين قوله: هو في العدم، أو أمر عدمي.

فإذا كان الخالق -تعالى- مبايناً للمخلوقات عالياً عليها، وما ثم موجود إلا الخالق، أو المخلوق، لم يكن معه غيره من الموجودات، فضلاً عن أن يكون هو سبحانه في شيء موجود يحصره ويحيط به»[1] .

«وقوله ﷺ: «هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟» تشبيه لرؤيتهم لربهم برؤية أظهر المرئيات، إذا لم يكن بينهم وبينها حجاب منفصل عنهم يحول بينهم وبين المرئي.

ومن يقول: إنه يُرى في غير جهة، يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل، إذ الحجاب لا يكون إلا للجسم ولما يكون في جهة.

والحجاب عندهم عدم خلق الإدراك في العين، كما تقدم.

الرابع: أنه أخبر أنهم لا يضارون في رؤيته، وفي رواية «لا يضامون»، ونفي الضير، والضيم، إنما يكون لما يمكن لحوقه للرائي، ومعلوم أن رؤية ما ليس بجهة من الرائي، لا فوقه، ولا في شيء من جهاته، لا يتصور فيها ضير ولا ضيم حتى ينفي ذلك.

وقد روى ابن ماجه، عن جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ١٥٣-٢٥٤) ببعض التصرف.

عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال: وذلك قول الله -تعالى- ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾.

قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته في ديارهم»[1] وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، فإن الأدلة الصحيحة تؤيده.

الخامس: أن كون الله -تعالى- يُرى بجهة من الرائي، ثبت بإجماع السلف، ونصوصهم في ذلك مشهورة.

«فسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن الله يُرى في الآخرة عياناً كما نرى الشمس والقمر، وأنه لا يلزم من تعذر رؤية الشيء في حال تعذُّرُها في حال أخرى، بل قد يرى الشيء في حال دون حال، كما أن الأنبياءَ يرون ما لا يراه غيرهم»[2].

السادس: «أن كل موجود قائم بنفسه فلا بد أن يكون في جهة، والله -تعالى- هو الحق، وهو فوق خلقه، عال عليهم»[3].

وأما ما تعلقوا به من مثل قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ونحو ذلك، فكله يدل على عكس ما قالوا.

والإدراك المنفي هو الإحاطة، وليست الرؤية، كما بيّن ذلك حبر الأمة ابن عباس، ومثّل ذلك بالسماء، والشمس، حيث قال للسائل: «ألستَ ترى السماء؟ قال: بلى. فقال: أكلها ترى؟ قال: لا. قال: فالله أعظم».

وما يذكر عنه أنه فسر الآية بنفي الرؤية كذب عليه.

وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[4].

فأثبت الرؤية ونفى الإدراك، فدل ذلك على أن الإدراك غير الرؤية. وبهذا أجاب العلماء عن استدلالهم بهذه الآية.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١/ ٦٥-٦٦)، رقم (١٨٤).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ١٣٢).

(٣) «نقض التأسيس» (٢/ ٤٠٩-٤١٥) ملخصاً.

(٤) الآيتان ٦١، ٦٢ من سورة الشعراء.

□□□

قال: «باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]».

الرحمة المضافة إلى الله -تعالى- تكون صفة له ذاتية، كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]. ونحو ذلك وهو كثير.

وتكون مفعولاً له مخلوقاً، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾[7].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾[8].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[9] وهو أيضاً كثير.

ومن ذلك قول رسول الله -ﷺ-: «خلق الله مائة رحمة، فوضع واحدة بين خلقه، وخبّأ عنده مِئَةً إلا واحدة»[10].

ومثله ما يأتي من قوله: «فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء».

(١) الآية ٥٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام.

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

(٦) الآية ٢١ من سورة يونس.

(٧) الآية ٩ من سورة هود.

(٨) الآية ٤٨ من سورة الفرقان.

(٩) الآية ٦٣ من سورة النمل.

(١٠) رواه مسلم، انظر (١٧/ ٦٩) بشرح النووي.

ومراده بيان أن الرحمة تطلق على المخلوق، فتكون مخلوقة لله مفعولاً له، وذلك من آثار رحمته التي هي صفته تعالى، كما في قوله ﷺ جواباً لسعد بن عبادة، لما قال له: ما هذا؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

ولكن أشار إلى هذا اللفظ كعادته بذكره غير الصريح، والاكتفاء بالتلويح.

وفي الآية التي ترجم بها إشارة إلى مراده، فكأنه لحظ أن الرحمة فيها الجنة، وهي قريب من المحسنين، كما في الحديث: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله، والنار مثل ذلك» يعني: من المسيئين.

وبذلك تظهر المناسبة بين الآية المترجم بها وأحاديث الباب. والله أعلم».

وقال الحافظ: «المراد أنه يدخل من أحسن الجنة التي وعد المتقين برحمته، وقد قال للجنة: أنت رحمتي، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وبهذا تظهر مناسبة الحديث للترجمة، والعلم عند الله»[1].

وليس هذا من التأويل المذموم؛ لأنه من المعنى الذي دلت عليه الآية ضمناً، وإلا فمنطوقها دال على صفة الرحمة الموصوف بها رب العالمين -جل وعلا-.

ومما يبين ذلك أن هذه الآية جاءت عقب الأمر بالدعاء تضرعاً وخفية والنهي عن الاعتداء والإفساد في الأرض بالمعاصي، ثم أمر تعالى بدعائه خوفاً وطمعاً، وهذه حال المتقين، الذين أحسنوا في أعمالهم، وأحسنوا إلى عباد الله بالنصح لهم، وإصلاح الأرض بالطاعة والبعد عن مساخط الله التي هي الإفساد في البلاد والعباد، وهؤلاء هم المحسنون الذين قريبة منهم رحمة الله -تعالى-، ومنها الجنة.

قال ابن جرير: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول جل ذكره: إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم، وذلك هو رحمته؛ لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعد لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٣٧).

ولذلك ذكَّرَ قوله: «قريبٌ» وهو خبر عن الرحمة، والرحمة مؤنثة؛ لأنه أريد به القرب في الوقت»[1].

وقال ابن كثير: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره، ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[2].

وقال: «قريب» ولم يقل قريبة؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله.

وقال مطر الوراق: «استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين» رواه ابن أبي حاتم[3].

❑❑❑

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٤٨٨) ط: المعارف.

(٢) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٢٢).

٧٥- قال: «حدثنا مُوسَى بنُ إسماعيلَ، حدثنا عبدُالواحدِ، حدثنا عاصمٌ، عن أبي عثمانَ، عن أسامةَ، قالَ: كانَ ابنٌ لبعضِ بناتِ النبيِّ -ﷺ- يَقْضِي، فأَرْسَلَتْ إليه أنْ يأتيَها، فَأَرْسَلَ: «إنَّ للهِ ما أخذَ، ولَه ما أَعْطى، وكُلٌّ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى، فلتصبرْ، ولتحتسبْ»، فأرسلتْ إليه فَأَقْسَمَتْ عليهِ، فقامَ رسولُ اللهِ -ﷺ- وقمتُ مَعَهُ، ومعاذُ بن جبلٍ، وأُبيُّ بنُ كَعْبٍ، وعُبَادَةُ بنُ الصامتِ، فلمّا دخلنا ناوَلوا رسولَ اللهِ -ﷺ- الصبيَّ، وَنَفْسُهُ تَقَلْقَلُ في صدرهِ، حَسِبْتُهُ قالَ: كأنّها شَنَّةٌ، فبكى رسولُ اللهِ -ﷺ-، فقال سعدُ بنُ عبادةَ: أتَبْكِي؟ فقال: «إنّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرُّحَماءَ».

تقدم هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

وتقدم شرحه هناك، والشاهد منه قوله: **«إنما يرحم الله من عباده الرحماء»** أي: الذين جعل الله في قلوبهم الرحمة، التي يرحمون بها عباد الله، فرحمة الله منهم قريب.

وسبق أن اللفظ الذي تقدم في الباب المشار إليه أوضح وأظهر في الدلالة على مقصوده هنا، ولكنه عدل عنه كعادته، إيثاراً للإشارة على التصريح في العبارة، حتى يروّض ذهن القارىء على التفطن والاستنباط، ولأن عادته أيضاً إذا أعاد الحديث فلا بد أن يختاره بألفاظ غير لفظه المتقدم، ما وجد إلى ذلك سبيلاً في المتن وفي رجال السند، أو على الأقل في أحدهما.

هنا السند أكثرهم غير من تقدم، والمتن فيه تغاير عما سبق.

□□□

٧٦- قال: «حدثنا عبيدُ اللهِ بنُ سعدِ بنِ إبراهيمَ، حدثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن صالحِ بنِ كَيْسانَ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ -رضي اللهُ عنه- عن النبيِّ -ﷺ- قال: «اخْتَصَمَتِ الجنَّةُ والنارُ إلى ربِّهما، فقالتِ الجنةُ: يا ربِّ، ما لها لا يدخُلُها إلا ضعفاءُ الناسِ وسَقَطُهُم؟ وقالتِ النارُ: يَعْني: أُوثِرْتُ بالمتكبرينَ؟

فقالَ اللهُ -تعالى- للجنةِ: أنتِ رحمتي، وقال للنارِ: أنتِ عذابي أصيبُ بِكِ مَنْ أشاءُ، ولكُلٍّ واحدةٍ مِنْكُما مِلْؤُها.

قال: فأمَّا الجنةُ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مِنْ خَلْقِهِ أحداً، وإنه يُنْشِئُ للنار مَنْ يشاءُ فَيُلْقَوْنَ فيها، فتقولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ -ثلاثاً- حتى يضعَ فيها قَدَمَهُ، فتمتلئُ، ويُـرَدُّ بَعْضها إلى بَعْضٍ، وتقول: قَطْ قَطْ قَطْ».

الاختصام: هو التنازع بين فريقين ، يذكر كل واحد منهما حجته أمام من يحكم بينهما.

وتقدم هذا الحديث في «التفسير» بلفظ: تحاجت الجنة والنار.

وفي «صحيح مسلم»: «احتجت»، والمعنى واحد.

قال المهلب: «يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقة، بأن يخلق الله فيهما فهماً، وكلاماً، والله قادر على كل شيء، ويجوز أن يكون هذا مجازاً، كقولهم: «امتلأ الحوض، وقال: قَطْنِي»، والحوض لا يَتكلم، وإنما ذلك عبارة عن امتلائه»[1].

قلت: الأول هو المعتمد، وتقدم الكلام فيه والاستدلال له في شرح حديث أنس: «لا يزال يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد».

وقال النووي: «هذا الحديث على ظاهره، وأن الله -تعالى- يجعل في النار والجنة تمييزاً تدركان له، فتحاجتا، ولا يلزم من هذا أن يكون ذلك التمييز دائماً»[2].

قال الحافظ: «وحاصل اختصامهما: افتخار إحداهما على الأخرى بمن يسكنها، فتظن النار أنها بمن ألقي فيها من عظماء الدنيا أبر عند الله من الجنة.

---

(١) انظر «الفتح» (١٣/ ٤٣٦).

(٢) «شرح مسلم» (١٧/ ١٨١).

وتظن الجنة أنها بمن أسكنها من أولياء الله -تعالى- أبر عند الله.

فأجيبتا: بأنه لا فضل لأحدهما على الأخرى من طريق من يسكنها، وفي كلامهما شائبة شكاية إلى ربهما، إذ لم تذكر كل واحدة منهما إلا ما اختصت به، وقد ردَّ الله الأمر في ذلك إلى مشيئته»[1].

قلت: الظاهر أن افتخار النار على الجنة بأنها محل انتقام الله -تعالى- من الطغاة والمجرمين الذين عصوا الله وكذبوا رسله، وسخروا منهم وبارزوا الله بالجرائم والآثام.

وغالب هذا النوع من قادة الناس ورؤسائهم وأغنيائهم، وأهل السيادة والقيادة فيهم، وأهل التجبر والتكبر.

وأما الجنة فإنها اشتكت لكون من يدخلها الضعفاء والفقراء وأهل المسكنة غالباً، ولهذا قالت: «ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟»».

قوله: «قالت الجنة» إلى آخره. تقدم أن الصحيح أن هذا بلسان المقال، أي: أنه قول قالته الجنة حقيقة، وأن الله جعل لها شعوراً وتمييزاً، وعقلاً ونطقاً، والله لا يعجزه شيء.

وليس هذا خاصاً بالجنة والنار، فقد ذكر الله -تعالى- أن الجبال كانت تسبح مع نبي الله داود عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

وقوله: «فقالت: يا رب ما لها». عدول بالخطاب من المتكلم إلى الغائب، كأن الراوي كره أن يأتي به على أصله خشية أن يظن ظان أنه مضاف إليه، وهذا كثير في روايات الحديث.

والمقصود بضعفاء الناس: فقراؤهم، وأهل المسكنة والتواضع، الذين لا يبغون في الأرض علواً ولا فساداً، ولا يترفعون على عباد الله، بل هم متواضعون لله

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٣٦).

(٢) الآية ٤٤ من سورة الإسراء.

خاضعون له، أذلة على المؤمنين، وإن كانوا عند ذوي السلطان حقيرين ساقطين في أعينهم، لا يؤبه لهم لديهم، فهم عند الله عظماء رفعاء.

قوله: «**قالت النار: يعني: أوثرت بالمتكبرين**» أي: خصصت بأهل التكبر على عباد الله والتجبر والظلم للناس باحتقارهم، وغمط حقوقهم.

قوله: «فقال الله للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: **أنت** عذابي أصيب بك من أشاء».

هذا هو حكم الله بينهما، يعني: أن الله -تعالى- خلق الجنة ليرحم بدخولها من شاء من عباده، من يتفضل عليه ويجعله مؤهلاً لذلك.

وأما النار فخلقها لمن عصاه وكفر به، وبرسله، يعذبهم بها.

وذلك كله ملكه يتصرف فيه كيف يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ولكن لا يدخل النار إلا من استوجبها بعمله.

وهذه الجملة وهي **قوله:** «**فقال الله للجنة: أنت رحمتي**» هي الشاهد للباب، فالجنة قريب من المحسنين، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

ثم قال: «ولكل واحدة منكما ملؤها» وهذا وعد من الله -تعالى- لهما بأن يملأهما بمن يسكنهما، وفي هذا إشعار بأنهما يرغبان ذلك، وقد جاء الطلب من النار صريحاً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[1]، وأقسم الله -تعالى- ليملأن جهنم من الجِنَّةِ والناس أجمعين».

فهما يمتلآن من بني آدم ومن الجن.

فمن آمن وعبد الله وحده، واتبع رسله، فمصيره إلى الجنة، ومن عصى وبغى، وطغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى.

قوله: «**فأما الجنة، فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقيهم فيها**»، وتقدم حديث أنس في باب قول الله -تعالى-: ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، عن النبي -ﷺ- قال: «لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد بعزتك وكرمك.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة ق.

ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة»[1].

وفي «صحيح مسلم» في هذا الحديث قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله -تبارك وتعالى- رجله، تقول: قط قط قط، فهناك تمتلئ، ويُزْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم ربك من خلقه أحداً. وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً»[2]، ورواه البخاري بهذا اللفظ في «التفسير»[3].

وبهذا يتبين أن قوله: «وأنه ينشئ للنار من يشاء فيلقيهم فيها» أنه خطأ، وإنما انقلب على الراوي، فصار ما للجنة للنار، فإن إنشاء الخلق يكون للجنة، وأما النار فإن الله -تعالى- يضع عليها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتتضايق على من فيها، وبذلك تمتلئ، ولا يظلم ربك أحداً، ويؤيد ذلك أن هذا الحديث جاء في «التفسير» من «صحيح البخاري»، وجاء كذلك في مسلم على الوجه الصحيح، كما ذكرناه آنفاً، وبأنه خطأ قد انقلب على الراوي جزم به شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم، ويؤيده أيضاً قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من ذريتك وممن تبعك من بني آدم.

فلو دخلها أحد من غير أتباع الشيطان من ذريته وذرية آدم لم تمتلئ منهم.

قال الحافظ: قال أبو الحسن القابسي: «المعروف في هذا الموضع أن الله ينشئ للجنة خلقاً، وأما النار فيضع فيها قدمه. قال: ولا أعلم في شيء من الأحاديث أنه ينشئ للنار خلقاً إلا هذا» انتهى.

وقد مضى في تفسير سورة ق، من طريق محمد بن سيرين، عن أبي هريرة: «ويقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب عليها قدمه، فتقول: قط قط».

ومن طريق همام بلفظ: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ، ويُزْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً»[4].

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الشرح (ص١٤٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢١٨٧) رقم (٢٨٤٦).

(٣) انظر «الفتح» (٨/ ٥٩٥).

(٤) انظر «الفتح» (١٣/ ٤٣٦-٤٣٧).

وقال: «وقد قال جماعة من الأئمة: إن هذا الموضع من الحديث مقلوب، وجزم ابن القيم بأنه غلط، واحتج بأن الله -تعالى- أخبر بأن جهنم تمتلئ من إبليس وأتباعه من بني آدم، وكذا أنكر الرواية شيخنا البلقيني، واحتج بقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. ثم ذكر تأويلات بعيدة جداً، بل باطلة، ثم قال: «وفي الحديث دلالة على اتساع الجنة والنار، بحيث تسع كل من كان، ومن يكون إلى يوم القيامة، وتحتاج إلى زيادة، وقد تقدم أن آخر من يدخل الجنة يُعطى مثل الدنيا عشر مرات.

وقال الداودي: يؤخذ من الحديث أن الأشياء توصف بغالبها؛ لأن الجنة يدخلها غير الضعفاء، والنار قد يدخلها غير المتكبرين، وفيه رد على من حمل قول النار: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ على أنه استفهام إنكار، وأنها لا تحتاج إلى زيادة»[1].

وقال شيخ الإسلام: «قوله: وأما الجنة، فيبقى فيها فضل، فينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم»: «ووقع في بعض طرق البخاري غلط، قال فيه: «وأما النار فيبقى فيها فضل»، والبخاري رواه في سائر المواضع على الصواب؛ ليبين غلط هذا الراوي، كما جرت عادته بمثل ذلك، إذا وقع من بعض الرواة غلط في لفظ، ذكر ألفاظ سائر الرواة التي يعلم بها الصواب، وما علمت وقع فيه غلط إلا وقد بين فيه الصواب»[2].

وقال ابن القيم: «وأما اللفظ الذي وقع في «صحيح البخاري» في حديث أبي هريرة: «وأنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقى فيها، فتقول: هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة، انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ جهنم من إبليس وأتباعه، فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة، وكذب رسله، قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[3]، ولا يظلم الله أحداً من خلقه»[4].

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٣٧).

(٢) «منهاج السنة» (٣/ ٢٥).

(٣) الآيتان ٨، ٩ من سورة تبارك.

(٤) «حادي الأرواح» (ص٢٩٥).

٧٧- قالَ: «حدثنا حَفْصُ بنُ عُمَرَ، حدثنا هِشامٌ، عن قتادةَ، عن أنسٍ -رضيَ اللهُ عنه- عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «ليصيبنَّ أقواماً سَفْعٌ من النار بذنوبٍ أصابوها عقوبةً، ثم يدخلُهُم اللهُ الجنةَ بفَضْلِ رحمتِهِ، يقالُ لهم: الجَهَنَّمِيُّونَ»».

«سفع» بفتح السين، وسكون الفاء، هو أثر تغير البشرة من حر النار أي: يصيبهم من لهبها ما يغير ألوانهم، وتقدم أنهم يحترقون حتى يكونوا فحماً.

قوله: «**بذنوب أصابوها**» أي: أن إصابتهم بسفع النار جزاء على ما اقترفوه من الذنوب عقوبة لهم.

«ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته» أي: يرحمهم الله تفضلاً منه وجوداً عليهم من غير استحقاق للجنة، وهذا محل الشاهد من الحديث، ووجهه أن هؤلاء لما كان معهم شيء من الإيمان صارت رحمة الله قريبة إليهم بالنسبة لمن هو في النار، وبقدر ما معهم من إيمان وإحسان.

والجهنميون نسبة إلى جهنم؛ لأن أثر إحراقهم ظاهر عليهم.

قولُهُ: «وقال هَمّامٌ: حدثنا قَتَادَةُ، حدثنا أَنسٌ» إلى آخره.

يريد بيان أن عنعنة قتادة محمولة على السماع؛ لأنه صرح بالتحديث من هذه الطريق. والله أعلم.

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾[1]».

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فلا تضطربا عن أماكنهما، كما قال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۗ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾[3][4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾[5]، أي: لا يقدر على إبقائهما بلا زوال واضطراب إلا هو -تعالى-، ومع موجب زوالهما واضطرابهما من جرائم بني آدم أمسكهما، فحلم الله الواسع، ومغفرته العظيمة، تدعوه تعالى إلى إمساكهما، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ فيحلم ويغفر، ويستر، ويصفح عن العظيم مما يبارزه به عباده من الجرائم، كما ذكر تعالى عن بعض المجرمين ما يقتضي تفطر السماوات، وتشقق الأرض، وانهداد الجبال الراسيات منه، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾[6].

ومراد البخاري -رحمه الله- من هذا الباب إثبات جنس الفعل لله تعالى؛ لقوله في الآية: «يمسك» وقوله في الحديث: «يضع السماوات على إصبع» إلى آخره، وإن تقدم ذكر الاستواء المتضمن للعلو فهو من صفات الذات والفعل، وأما هذا فهو نوع آخر من صفات الله -تعالى- الدالة على أنه تعالى فعَّال لما يريد، وهذا ما أنكره أهل الباطل من معتزلة وغيرهم، فأراد البخاري أن ينبه على بطلان قولهم.

يعني: أن الله -تعالى- هو الممسك للسماوات والأرض بقدرته، وإذا أراد أن يطوي السماوات والأرض لترك إمساكهما فزالتا، فهو تعالى يفعل باختياره ما شاء،

---

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر.

(٢) الآية ٦٥ من سورة الحج.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٤٣) ط: الشعب.

(٤) الآية ٢٥ من سورة الروم.

(٥) الآية ٤١ من سورة فاطر.

(٦) الآيات ٨٨-٩١ من سورة مريم.

وفعله غير خلقه، وهذا يرد مذهب المعتزلة ومن قال بقولهم، حيث قالوا: إن أفعال الله -تعالى- مخلوقة.

قال المؤلف -رحمه الله- في كتابه «خلق أفعال العباد»: «ادعت المعتزلة: أن فعل الله مخلوق، وأن أفعال العباد غير مخلوقة، وهذا خلاف علم المسلمين، إلا من تعلق من البصريين بكلام سنسويه، كان مجوسياً فادعى الإسلام»[1].

يعني: أن المسلمين مجمعون على خلاف ما يقوله المعتزلة من أن فعل الله -تعالى- مخلوق، ومراده بذلك: أنه لا فرق عندهم بين الفعل والخلق، فليس لله فعل يفعله باختياره وإرادته، وإنما يخلق، والخلق هو المخلوق المفعول.

وقوله: «**إلا من تعلق بكلام سنسويه من البصريين**»، يقصد القدرية الذين أنكروا علم الله بالأشياء قبل وجودها، وتقديره لها، وخلقه إياها، فهؤلاء شذوا عن المسلمين.

وقد اتفق سلف هذه الأمة وأئمتها على أن الله -تعالى- متصف بصفات الأفعال كما أنه متصف بصفات الذات، ولم يخالف في ذلك إلا الجهمية والمعتزلة.

ولا ينبغي أن يعد خلاف هؤلاء خلافاً؛ لأنهم تركوا صريح الأدلة في ذلك من كتاب الله -تعالى-، ومن سنة رسوله، ومن العقل أيضاً.

وقد علم أن الأفعال نوعان: متعد، ولازم، والله -تعالى- متصف بالنوعين.

فالمتعدي مثل الرزق، والإحياء، والإماتة، والخلق، ونحو ذلك.

واللازم مثل المجيء، والنزول، والإتيان، والاستواء، ونحوه.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[2]، فجمع النوعين في هذه الآية، وكل ذلك واقع بمشيئته تعالى.

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٧٥)، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة.

(٢) الآية ٤ من سورة السجدة.

وهذا معنى قول أهل السُّنَّة: إن الله موصوف بالأفعال الاختيارية، أي: التي يفعلها باختياره تعالى، وأدلة ذلك في كتاب الله، وسنة رسوله، كثيرة جداً، وسوف يذكر فيما يأتي طرفاً من ذلك.

ومراده بيان أن أفعال الله من صفاته، وهي ثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع من أهل العلم والإيمان، وبالعقل السليم، وسيأتي في الباب بعد هذا التفرقة بين الفعل والمفعول، وما يأتي بعده إلى آخر الكتاب تفريع عليه.

□□□

٧٨- قال: «حدثنا مُوسى، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن الأَعْمَش، عن إبراهيمَ، عن عَلْقَمَةَ، عن عبدِاللهِ، قال: جاءَ حَبْرٌ إلى رسول اللهِ -ﷺ- فقالَ: يا محمدُ، إنَّ اللهَ يَضَعُ السماءَ على إصْبَعٍ، والأرضَ على إصْبَعٍ، والجبالَ على إصْبَعٍ، والشجرَ والأنهارَ على إصبعٍ، وسائرَ الخلق على إصبعٍ، ثم يقولُ بيدِهِ: أنا الملكُ، فضحك رسولُ اللهِ -ﷺ- وقالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾».

سبق هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وذكره هناك من طريقين، غير الطريق التي هنا، وتقدم شرحه هناك، وجرياً على عادته إذا أعاد ذكر الحديث؛ فلا بد أن يغاير بين لفظه اللاحق وبين السابق، وبين سنديه، فإن لم يمكن ذلك فعل ما أمكنه منه.

وهنا قد غاير بين لفظه هنا وهناك، وكذلك في الإسناد.

ففي الباب السابق «أن يهودياً جاء إلى النبي -ﷺ-».

وفي الطريق الأخرى: «جاء رجل إلى النبي -ﷺ- من أهل الكتاب».

وهنا: «جاء حبر إلى رسول الله -ﷺ-». قال الراغب: «الحبر: الأثر المستحسن، ومنه ما روي: (يخرج من النار رجل قد ذهب حبره، وسبره) أي: جماله، وبهاؤه، ومنه سمي الحبر بالكسر، والحبر: العالم، وجمعه أحبار -سموا بذلك- لما يبقى من أثر علومهم في قلوب الناس، ومن آثار أفعالهم الحسنة المقتدى بها»[(١)]، وفي «القاموس»: الحبر: «العالم أو الصالح».

قوله: «**ثم يقول بيده: أنا الملك**»، أي: أنه تعالى يهزهن، استخفافاً لهذه المخلوقات، واستصغاراً لها أمام عظمة الله وقوته -جل وعلا-، وقد جاء مصرحاً بذلك في الروايات الأخرى.

قال ابن جرير: «وحدثنا محمد بن الحسين، قال: حدثنا أحمد بن المفضل، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، عن منصور، عن خيثمة بن عبدالرحمن، عن علقمة، عن عبدالله بن مسعود، قال: كنا عند رسول الله -ﷺ- حين جاءه حبر من أحبار اليهود، فجلس إليه، فقال له النبي -ﷺ-: «حدثنا؟» قال: إن الله -تبارك وتعالى-

---

(١) «المفردات» (ص١٠٦).

إذا كان يوم القيامة جعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والشجر على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، قال: فضحك رسول الله -ﷺ- حتى بدت نواجذه؛ تصديقاً لما قال، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾}[1].

ثم رواه من طريق أخرى، وهو صحيح لا مطعن فيه، وقد رواه أحمد والبخاري ومسلم، من حديث عبدالله بن عمر، ولفظه: «قال: قال رسول الله -ﷺ-: «يطوي الله -عز وجل- السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» وهذا لفظ رواية مسلم[2].

وقال ابن جرير: «حدثنا الربيع، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبدالله بن عمر، أنه رأى رسول الله -ﷺ- على المنبر، يخطب الناس، فمر بهذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ فقال رسول الله -ﷺ-: «يأخذ السماوات والأرضين السبع فيجعلها في كفه، ثم يقول بهما -كما يقول الغلام بالكرة-: أنا الله الواحد، أنا الله العزيز» حتى لقد رأينا المنبر وإنه ليكاد يسقط به»[3].

وقال أيضاً: «حدثنا علي بن داود، قال: حدثنا ابن أبي مريم، قال: أخبرنا ابن أبي حازم، قال: حدثني أبو حازم، عن عبيد الله بن مقسم، أنه سمع عبدالله بن عمر، يقول: «رأيت رسول الله -ﷺ- وهو على المنبر يقول: «يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيديه» وقبض رسول الله -ﷺ- يديه، وجعل يقبضهما، ويبسطهما، قال: «ثم يقول: أنا الرحمن، أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» وتمايل رسول الله

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦).

(٢) انظر «صحيح مسلم» (٤/ ٢١٤٨) رقم (٢٧٨٨) وقد تقدم.

(٣) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٦)، ورواه البخاري (٦/ ١٠٤)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧)، رقم (٢٧٨٦).

-ﷺ- عن يمينه، وعن شماله، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله -ﷺ-»[1].

وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث في هذا، ففي هذه ونحوها أن الرسول -ﷺ- كان يذكر صفات الله -تعالى- في الجامع العامة، ويخطب ببيانها على المنبر، ويبالغ في إيضاحها، وتفهيم السامعين لها، حتى إنه يقبض يديه ويبسطهما عند ذكره لقبض الله -تعالى- السماوات والأرض، خلافاً لمن زعم أنه لا ينبغي ذكر صفات الله عند عامة الناس، وهو زعم باطل مخالف للحق وطريق الرسول -ﷺ-، حيث كان يعرف الناس بربهم، ويذكر لهم صفاته وأفعاله وأقواله في كل موطن، ويكرر ذلك في مجالسه، وخطبه، يعرف ذلك من سبر حاله، وتتبع سنته، صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا الذي فعله رسول الله -ﷺ- لا يدع مجالاً للشك في أن المراد من هذه النصوص هو ما دلت عليه ظاهراً، وأن تأويلها وصرفها عن ظاهرها باطل قطعاً، وتحريف للكلم عن مواضعه.

ويزيد ذلك تأكيداً وبياناً أن أحداً من الصحابة لم يسأل رسول الله -ﷺ- ولم يستفسر عن شيء منها؛ لأنهم فهموا المراد من ظاهر الخطاب ونصه.

ومما يزيد ذلك تأكيداً أيضاً، أن الرسول -ﷺ- لم يذكر ولا حرفاً واحداً يدل على وجوب التأويل كما يقوله الموجبون للتأويل.

ومعلوم أن بيان ما أنزل الله إلى عباده واجب على رسول الله -ﷺ-، وقد فعل بقوله، وفعله، كما كان يقبض يديه ويبسطهما عندما ذكر قبض الله -تعالى- لسماواته وأرضه بيديه، تقريراً منه -ﷺ- لظاهر النص، وتأكيداً لما يفهمه كل مخاطب عربي يسمع هذا الكلام، ولو كان من أبلد الناس.

وهذا الذي فعله رسول الله -ﷺ- لو فعله أحد أمام من يدعون التحقيق، وأنهم أهل السُّنَّة، لصاحوا به، وعدوه مشبهاً مجسماً.

وكان -ﷺ- يفعل مثل ذلك كثيراً عند ذكر صفات الله -تعالى-، كما سبق أنه -ﷺ- لما قرأ قول الله -تعالى-: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

---

(١) المرجع السابق.

وضع إصبعه على عينه، والأخرى على أذنه، زيادة إيضاح وتبيين أنه أراد ظاهر الخطاب، وكما سبق أيضاً أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ولا قتر»، وغير ذلك.

وفي هذا الحديث ثبوت صفة الكف لله -تعالى-؛ لقوله: «فيجعلهما في كفه».

وتقدم أن ضحك الرسول -ﷺ- لفرحه بما قاله الحبر حيث ذكر ما يصدق ما جاء به ﷺ مما أوحاه الله إليه، ولهذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]؛ لأن هذه الآية مطابقة لما قاله الحبر، وهو من العلم الموروث عن الأنبياء الذي أوحاه الله إليهم، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك؛ لأنه إخبار عن شيء لم يقع، وإنما سيقع كما هو ظاهر.

وقد تقدم ذكر الأدلة في إثبات يدي الله -تعالى- وأصابعه، وتفنيد تأويلات المنكرين لها، وبيان أن تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه.

□□□

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

قالَ: «بابُ ما جاءَ في تخليقِ السماواتِ والأرضِ، وغيرِهما مِنَ الخلائقِ، وهو فِعْلُ الربِّ - تباركَ وتعالى- وأَمْرُهُ، فالربُّ بصفاتِهِ وفعلِهِ وأمرِهِ [وكلامِهِ]، وهو الخالقُ، هو المكَوِّنُ غَيْرُ مخلوقٍ، وما كانَ بفعلِهِ وأمرِهِ وتخليقِهِ وتكوينِهِ، فهو مفعولٌ مخلوقٌ مَكَوَّنٌ».

التخليق: مصدر، والمصدر هو: الحدث الذي لم يقترن بزمن، والحدث لا بد له من مُحدث، فتخليق السماوات والأرض هو فعل الله الذي وجدت به، فالله -تعالى- هو الخالق، والخلق والتخليق فعله الواقع منه على المخلوق، فالمخلوقات وجدت بفعل الله.

والمخلوق ليس هو فعل الله، وإنما هو مفعوله، أي: مخلوقه الذي صدر عن تخليقه.

وأفعال الله نوعان: لازم، ومتعدٍّ، فاللازم نحو نزوله، ومجيئه، والمتعدي نحو خلقه ورزقه، ولا بد لهذا النوع من مفعول يتعدى إليه، وهو المخلوق، والمرزوق، بخلاف الأول.

قوله: «**وهو فعل الرب -تبارك وتعالى- وأمره**» يعني: أن التخليق فعل الرب -تعالى- والمقصود بالأمر هنا: قوله للمخلوق: «كن».

قوله: «**فالرب بصفاته وفعله وأمره، [وكلامه]**» يعني: أن صفاته وأمره وفعله، وكلامه، داخل في مسمى اسم الرب -تعالى- لا يكون شيء منها غيره؛ لأن صفة الشيء تقوم به، وفعله يقوم به -لا بغيره- وكذا أمره وكلامه.

ولفظة: «وكلامه» ثبتت في بعض نسخ الصحيح، وهي رواية أبي ذر، أحد رواة الصحيح عن البخاري، وهو من عطف الخاص على العام.

قوله: «**وهو الخالق، المكوِّن، غير مخلوق**» المكون بكسر الواو المشددة، وهو بمعنى المصوِّر.

قوله: «وما كان بفعله وأمره، وتخليقه، وتكوينه، فهو مفعول مخلوق مكوَّن» يعني: أن الفعل غير المفعول، فالفعل من صفات الفاعل يقوم به. والمفعول هو ما وجد بالفعل، فهو مفعول له محدث بعد أن لم يكن، بخلاف الفعل، فإنه قائم بالفاعل، فهو صفته، فالمفعول مخلوق، مكوَّن -بفتح الواو المشددة- بعد أن لم يكن.

ومراد البخاري -رحمه الله- الرد على من لم يفرق بين الفعل والمفعول، كما بين ذلك في كتابه «خلق أفعال العباد» فإنه قال فيه:

«اختلف الناس في الفاعل، والمفعول، فقالت القدرية: الأفاعيل كلها من البشر، ليست من الله.

وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله.

وقالت: الفعل والمفعول واحد، لذلك قالوا: لـ«كن» مخلوق، وقال أهل العلم: التخليق فعل الله، وأفاعيلنا مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[1]، يعني: السر والجهر من القول، ففعل الله صفة الله، والمفعول غيره من الخلق»[2].

وقال أيضاً: «وأما الفعل من المفعول، فالفعل إنما هو إحداث الشيء، والمفعول هو الحدث؛ لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3]، فالسماوات والأرض مفعولة، وكل شيء سوى الله بصفاته -فهو مفعول- فتخليق السماوات فعله؛ لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله، ففعله من ربوبيته، حيث يقول: «كن فيكون»، و«كن» من صفته، وهو الموصوف به، كذلك قال: رب السماوات، ورب الأشياء، وقال النبي -ﷺ-: «رب كل شيء ومليكه»[4].

---

(١) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الملك.

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص١١٤)، تحقيق عبدالرحمن عميرة.

(٣) الآية الأولى من سورة الأنعام.

(٤) «خلق أفعال العباد» (ص١١٣)، تحقيق الدكتور عميرة.

وهذا شرح لما ترجم به هنا، وبيان لمراده، وهو واضح.

وبه يتبين خطأ ابن بطال في قوله: «**غرضه بيان أن جميع السماوات والأرض وما بينهما مخلوق؛ لقيام دلائل الحدوث عليها**» إلى آخره، كما ذكره الحافظ عنه في «الفتح»[1]؛ لأن هذا أمر ظاهر، لا ينكره أحد.

□□□

(١) انظر: «الفتح» (١٣/ ٤٤٠).

٧٩- قال: «حدثنا سعيدُ بنُ أبي مريمَ، أخبرنا محمدُ بنُ جعفرٍ، أخبرني شريكُ ابنُ عبدِاللهِ بنِ أبي نَمِرٍ، عن كُرَيْبٍ، عن ابن عباسٍ، قالَ: بِتُّ في بيتِ ميمونةَ ليلةً، والنبيُّ -ﷺ- عندَها، لأنظرَ كيفَ صلاةُ رسول اللهِ -ﷺ- بالليل، فتحدثَ رسولُ اللهِ -ﷺ- مع أهلِهِ ساعةً، ثم رَقَدَ، فلمّا كانَ ثُلُثُ الليل الآخرُ أو بَعْضُهُ قَعَدَ، فنظرَ إلى السماءِ، فقرأ: ﴿إِنَّ خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثم قامَ فتوضأَ، وَاسْتَنَّ، ثم صَلَّى إحدى عَشْرَةَ ركعةً، ثم أَذَّنَ بِلالٌ بالصلاةِ، فَصَلَّى ركعتينِ، ثم خَرَجَ فَصَلَّى للناسِ الصبحَ».

هذا الحديث أكثر البخاري -رحمه الله- من تكراره، فقد ذكره فيما يقرب من عشرين موضعاً، كما بينته في دليل القارئ.

وميمونة: أم المؤمنين بنت الحارث الهلالية، وهي خالة ابن عباس أخت أمه لُبابة الكبرى زوج العباس بن عبدالمطلب.

وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حمير.

تزوجها رسول الله -ﷺ- في عمرة القضاء، سنة سبع، بسرف، وهو حلال غير محرم، وتوفيت -رضي الله عنها- بسرف، سنة إحدى وخمسين، وقيل غير ذلك، وصلى عليها ابن عباس، ودفنت هناك[1].

قوله: «بت في بيت ميمونة» في رواية مسلم: «فرقبت رسول الله -ﷺ- كيف يصلي»، وفي أخرى له، قال: «بعثني العباس إلى النبي -ﷺ-».

وكان العباس بعثه في حاجة، فقال له رسول الله -ﷺ-: «يا بني، بت عندنا الليلة» ذكره الحافظ، عن قيام الليل، لمحمد بن نصر[2]، فانتهز ابن عباس هذه الفرصة لينظر إلى عمل رسول الله -ﷺ- في الليل، فيتخذه قدوة.

---

(١) انظر «الإصابة» (٨/ ١٢٦)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٩١٤)، و«أسد الغابة» (٧/ ٢٧٢)، وغيرها كثير.

(٢) انظر «فتح الباري» (٢/ ٤٨٢)، وانظر «مختصر قيام الليل» (ص١٠٥) وفيه: «بعثني أبي العباس إلى رسول الله -ﷺ- بعد العشاء الآخرة في حاجة له، فلما بلغته إياها قال لي رسول الله -ﷺ-: «أي بني، بت عندنا هذه الليلة» ...الخ.

قوله: «فتحدث رسول الله -ﷺ- مع أهله ساعة» كان -ﷺ- خير الناس لأهله، فكان يفعل ما يأنسون به من المحادثة، والتعليم لكل خير، من أمور الدنيا والآخرة.

قوله: «فلما كان ثلث الليل الأخير» يجوز أن يكون التقدير: فلما كان النبي -ﷺ- في ثلث الليل الأخير، ويجوز أن تكون (كان) تامة، والتقدير: فلما جاء ثلث الليل، وهذا هو الأظهر.

قوله: «أو بعضه» أي: بعض الليل، والبعض يصدق على كل فترة منه.

وقد جاء في غير هذا الموضع: «حتى انتصف الليل، أو قريباً منه».

قوله: «قعد، فنظر إلى السماء، فقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾» إلى آخره، المعنى: أنه ﷺ حين استيقظ نظر إلى السماء معتبراً بخلقها، ولهذا قرأ الآيات المذكورات، وجاء في روايات أنه قرأ العشر آيات من آخر سورة آل عمران، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب؛ لأن فيها قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، مع قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، فالمنظور إليه، المشاهد، المشار إليه بقوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، مفعول مخلوق، وهو غير الفعل الذي هو صفة الفاعل، والفعل نتج عنه المفعول المحدث، هذا هو وجه الاستدلال الذي أراده البخاري -رحمه الله-.

قوله: «ثم قام فتوضأ واستن» أي: استاك بالسواك دالكاً به أسنانه.

وكان ﷺ يفعل ذلك، ويحث عليه، وأخبر أنه مطهرة للفم، ومرضاة للرب -تعالى-.

قوله: «ثم صلى إحدى عشرة ركعة» هذه سنته -ﷺ- التي استمر عليها كما أخبرت بذلك زوجه عائشة -رضي الله عنها- أنه ما كان يزيد على إحدى عشرة ركعة في رمضان وغيره.

قوله: «ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى ركعتين» هاتان الركعتان، غير ما سبق ذكره من أنه صلى إحدى عشرة ركعة، بل هما سنة الفجر؛ لأنه صلاهما بعد الآذان، وكان -ﷺ- يصليهما في بيته، ويحافظ عليهما حضراً وسفراً.

قوله: «وصلى للناس الصبح» أي: صلى بهم إماماً، كما هو ظاهر، وقد تقدم شرح بعض هذا الحديث في باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

□□□

قالَ: «بابُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]».

قال ابن جرير: «يقول جل ذكره: ولقد سبق منا القول لرسلنا إنهم لهم المنصورون، أي: مضى بهذا منا القضاء، والحكم في أم الكتاب، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة، بالحجج» ثم روى عن قتادة: قال: سبق هذا من الله لهم أن ينصرهم.

ثم ذكر أن بعضهم فسر السبق: بالسعادة، أي: سبق القضاء، والحكم لهم بالسعادة، وذكر أنه روي في قراءة عبدالله: (ولقد سبقت كلمتنا على عبادنا المرسلين) فجعلت «على» مكان اللام، فكأن المعنى: حقت عليهم ولهم، كما قيل: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، وفي ملك سليمان، إذ كان المعنى في ذلك واحداً»[2].

والسبق هو التقدم على الشيء، والكلمة المضافة إلى الله -تعالى- هي كلمته الكونية القدرية.

والقدر يتضمن علم الله بالشيء، وكتابته لذلك، ومشيئته له، ثم إيجاده له وفق تقديره، وهذا لا بد أن يكون بكلامه.

وقد علم أن كلام الله -تعالى- ينقسم إلى: كوني قدري، وإلى شرعي أمري، وهذا الذي يخالفه أكثر العباد، ويعصونه.

أما القسم الأول فلا يخالفه أحد، بل لا بد من وقوعه وحصوله، وهو قد يكون متفقاً مع الكلام الشرعي الأمري، وقد يكون مخالفاً له، وسيأتي تفصيل ذلك -إن شاء الله تعالى- في موضعه.

ومراد البخاري -رحمه الله- أن كلمة الله -تعالى- سبقت وجود الرسل والمرسل إليهم، فهي قبل الخلق الذي هو المخلوق، وهي غيره؛ لأنها صفة الله -تعالى-، وأما نصر الرسل وإسعادهم فهو جزاء عملهم وطاعتهم، فهو من إثابته لهم وفضله عليهم، فهو مخلوق بكلمته -تعالى-.

وأما قول الحافظ: «أشار به إلى ترجيح القول بأن الرحمة من صفات الذات؛ لكون الكلمة من صفات الذات، فمهما استشكل في إطلاق السبق في صفة الرحمة،

---

(١) الآية ١٧١ من سورة الصافات.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١٤).

جاء مثله في صفة الكلمة، ومهما أجيب عن قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ حصل به الجواب عن قوله: «سبقت رحمتي»، وقد غفل عن مراده من قال: دل وصف الرحمة بالسبق على أنها من صفات الفعل»[1].

فهذا بعيد كل البعد عن مراد البخاري، وهو مبني على مذهب الأشعرية القائلين بأن الكلام من صفات الذات، وهو المعنى القائم بذات الله -تعالى-، وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله، واعتقاد أهل السُّنَّة، وإنما مراده ما ذكرت. والله أعلم.

وأما صفات الرحمة فتكون صفة ذات وصفة فعل، كما سبق الكلام في ذلك.

وفي كتاب «خلق أفعال العباد» للبخاري -رحمه الله- نقلاً عن أبي عبيدة: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فأخبر أن أول خلقه بقوله، وأول خلق هو من الشيء الذي قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فأخبر أن كلامه قبل الخلق»[2]، وهذا قريب مما ذكره هنا، وهو يعين على فهم مراده.

قالَ: «حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالكٌ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- أن رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «لما قضى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ عندَهُ فوقَ عرشِهِ: إن رحمتي سَبَقَتْ غضبي».

تقدم هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: «ويحذركم الله نفسه» لكن بلفظ يختلف عما هنا، فلفظه هناك: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه -وهو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش-: إن رحمتي تغلب غضبي» والمعنى لا يختلف، والمقصود بالقضاء: التقدير، ويأتي القضاء بمعنى الأمر والحكم، قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3]، ويأتي بمعنى: قدر وأمضى، كما في قوله

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٤٤١).

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص٤٤)، تحقيق عبدالرحمن عميرة.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الإسراء.

تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، ويأتي بمعنى: فرغ من الشيء وأتقنه، نحو قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[2]، والمعنى هنا: لما فرغ من تقدير الخلق، كما في الرواية الآتية في باب قول الله -تعالى-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾؛ أن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق».

ومراد البخاري من هذا الحديث: أن الكتاب الذي كتبه قبل خلق الخلق فيه سبق رحمته لعباده المرسلين، أي: أن كلمته التي سبقت بنصره عباده المرسلين قبل وجودهم.

وبهذا يتبين أن قوله غير خلقه، ونصرته لعباده المرسلين من رحمته التي سبقت غضبه، وتقدم الكلام على قوله «عنده فوق عرشه»، وأنه يدل على استوائه على عرشه، وعلوه على خلقه، كما تقدم الكلام في صفة الرحمة والغضب.

□□□

(١) الآية ٤ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ١٢ من سورة فصلت.

٨٠- قال: «حدثنا آدمُ، حدثنا شُعْبَةُ، حدثنا الأَعْمَشُ، سمعتُ زيدَ بنَ وَهْبٍ، سمعتُ عبدَاللهِ بنَ مسعودٍ -رضي الله عنه- حدثنا رسولُ الله -ﷺ- وهو الصادقُ المصدوقُ: «إنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يجمع في بطن أُمِّهِ أربعينَ يوماً وأربعينَ ليلةً، ثم يكونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثم يكونُ مُضْغَةً مثلَه، ثم يُبْعَثُ إليه الملَكُ، فَيُؤْذَنُ بأربع كلماتٍ، فيكتبُ رزْقَهُ، وأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وشَقِيٌّ أَمْ سعيدٌ، ثم يَنْفُخُ فيه الرُّوحَ، فإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ حتى لا يكونُ بينَها وبينَه إلا ذِراعٌ فَيَسْبِقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النار، فَيَدْخُلُ النارَ، وإنّ أَحَدَكُمْ ليعملُ بعملِ أهلِ النار حتى ما يكونُ بينها وبينه إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ عملَ أهلَ الجنةِ فَيَدْخُلُها».

علماء الأمة يعدون هذا الحديث أصلاً كبيراً من أصول الإسلام؛ لأن فيه بيان وجوب الإيمان بالقدر، وهو أحد أركان الإيمان بالله ورسوله.

قوله: «**الصادق المصدوق**» وصف للنبي -ﷺ- مستمر، أي: أنه صادق فيما يخبر به، وما يفعله، فلا يخبر إلا بالحق المطابق للواقع.

والصدق يطلق أيضاً على الفعل، يقال: صدق القتال، وهو صادق فيه والرسول -ﷺ- صادق في أقواله وأفعاله.

«المصدوق» فيما يأتيه من الأخبار؛ لأنه وحي من الله -تعالى-.

قوله: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة**» يعني: أنه في هذه المدة يكون نطفة داخل بويضة المرأة، فيستمر هذه المدة، وتغلب عليه هذه الصفة في الأربعين الأولى -يعني: وصف النطفة، وفي الثانية: وصف العلقة، وفي الثالثة: وصف المضغة، وإن كانت خلقته قد تمت وتم تصويره.

قوله: «**ثم يكون علقة مثله**» يعني: بعد مضى أربعين على النطفة في الرحم، تصير علقة، وهي قطعة دم جامد، فتنقلب النطفة بعد دخولها بويضة المرأة، ومرور أربعين يوماً، إلى علقة، بدون تخطيط ولا روح.

«ثم يكون مضغة مثله» يعني: بعد تمام الأربعين الثانية تصير العلقة مضغة.

والمضغة: قطعة لحم على قدر ما يمضغ الإنسان في فمه، وفي هذا الدور يبدأ تخطيط خلقه.

فالحديث يدل على أن خلق الإنسان يتقلب في مِئَة وعشرين يوماً في ثلاثة أطوار، في كل أربعين يوماً منها يكون في طور، فهو في الأربعين الأولى نطفة، وفي الثانية علقة، وفي الثالثة مضغة، وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتابة رزقه وأجله، وشقاوته أو سعادته.

«ثم يبعث إليه الملك» جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي -ﷺ- وقال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي: رب، أذكر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص»[(١)].

وفيه أيضاً عنه قال: «سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً، فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر، ولا ينقص»[(٢)].

وقد يبدو أن هذا يخالف حديث عبدالله بن مسعود؛ لأن ظاهر حديث عبدالله -كما تقدم- أنه يبقى أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين أخرى علقة، ثم أربعين مضغة، ثم يبعث إليه الملك بعد الأربعين الثالثة.

قال ابن رجب: «ظاهر حديث حذيفة يدل على أن تصوير الجنين، وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في الأربعين الثانية، فيلزم أن يكون في الأربعين الثانية لحماً وعظاماً، وهذا خلاف ظاهر حديث عبدالله، وظاهره أنه يصورها، ويخلق هذه الأجزاء كلها، وقد يكون خلق ذلك بتصويره وتقسيمه قبل وجود اللحم والعظام، فلا يكون بين الحديثين اختلاف.

---

(١) «مسلم» (٤/ ٢٠٣٧) رقم (٢٦٤٤).

(٢) المرجع المذكور.

وتأول بعضهم على أن الملك يقسّم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء، فيجعل بعضها للجلد، وبعضها للحم، وبعضها للعظام، فيقدر ذلك كله قبل وجوده، وهذا خلاف ظاهر الحديث»[١].

قال ابن رجب: «وقد ذكر علماء الطب ما يوافق الحديث، قالوا: إن المني إذا وقع في الرحم حصل له زبدة ورغوة ستة أيام، أو سبعة أيام، وفي هذه الأيام تصور النطفة من غير استمداد من الرحم[٢]، ثم بعد ذلك تستمد منه.

وابتداء الخطوط والنقط بعد هذا بثلاثـة أيام، وقد يتقدم ويتأخر يوماً، ثم بعد ستة أيام، وهو الخامس عشر من وقت العلوق، ينفذ الدم إلى الجميع، فيصير علقة، ثم تتميز الأعضاء تميزاً ظاهراً، ويتنحى بعضها عن مماسة بعض، وتمتد رطوبة النخاع، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين، والأطراف عن الأصابع [ويتميز] تميزاً يستبين في بعض، ويخفى في بعض.

قالوا: وأقل مدة يتصور فيها الذكر ثلاثون يوماً، والزمان المعتدل في تصوير الجنين خمسة وثلاثون يوماً، وقد يتصور في خمسة وأربعين يوماً، ولم يوجد في الإسقاط ذكر تم قبل ثلاثين يوماً، ولا أنثى قبل أربعين يوماً.

فهذا يوافق ما دل عليه حديث حذيفة في التخليق في الأربعين الثانية، ومصيره لحماً فيها أيضاً»[٣].

وقال ابن القيم: «إذا اشتمل الرحم على المني، ولم يقذف به إلى خارج، استدار على نفسه وصار كالكرة، وأخذ بالشدة إلى تمام ستة أيام، فإذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط، وهو موضع القلب، ونقطة في أعلاه، وهي نقطة الدماغ، وفي اليمين، وهي نقطة الكبد، ثم تتباعد تلك النقط، ويظهر بينها خطوط حمر، إلى تمام ثلاثة أيام أخر، ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة أيام أخر، فيصير المجموع سبعة وعشرين يوماً، ثم ينفصل الرأس عن المنكبين، والأطراف عن الضلوع، والبطن

(١) شرح الأربعين (١/ ١١٧-١١٨) الطبعة السعدية.

(٢) تبين في الطب الحديث أن نطفة الرجل تحمل حيوانات منوية كثيرة جداً، وإذا صادف واحد من هذه الحيوانات بويضة المرأة يكون انعقاد التلقيح.

(٣) «شرح الأربعين» (١/ ١١٨-١١٩) الطبعة السعدية.

عن الجنبين، وذلك في تسعة أيام، فتصير ستة وثلاثين يوماً، ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهوراً بيناً في تمام أربعة أيام، فيصير المجموع أربعين يوماً تجمع خلقه.

وهذا مطابق لقوله -ﷺ-: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً» واكتفى ﷺ بهذا الإجمال عن التفصيل، وهذا يقتضي أن الله قد جمع خلقه فيها جمعاً خفياً»[١].

وهذا الذي ذكره ابن رجب وشيخه ابن القيم -رحمهما الله تعالى- يكاد يكون متفقاً مع ما يقرره الأطباء حديثاً، وقد أصبحت الأجنة مشاهدة بواسطة آلات التصوير والمناظير، فصارت عند علماء الأجنة من الأطباء من الأمور الظاهرة، وعندهم التخليق يبدأ مبكراً من أيام الأربعين الأولى، وأحاديث رسول الله -ﷺ- لا تخالف الواقع، وإنما يأتي الغلط من عدم فهم مراده ﷺ.

وقد ذكر خلق الإنسان في مواضع عديدة من القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٣] وحديث عبدالله يتفق مع هذه الآية الكريمة.

ولدلالة خلق الإنسان على خالقه، وعظيم قدرته، وعلى إعادته بعد موته، وعلى وجوب عبادة الله وحده، أكثر الله -تعالى- من ذكره في كتابه، وأمر عباده بالاعتبار به.

والملك الذي يرسل إلى النطفة في الرحم خلقه الله لذلك، وجعل ذلك وظيفته، وقد جعل الله -تعالى- لملائكته أعمالاً يختص بها كل فريق منهم.

قوله: «فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد».

---

(١) «التبيان» (ص٣٣٧).

(٢) الآية ١٤ من سورة نوح.

(٣) الآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون.

قال الحافظ: «المراد بالكلمات: القضايا المقدرة، وكل قضية تسمى كلمة»[1].

وهذا هو الذي عناه العلماء بقولهم في هذا الحديث: وجوب الإيمان بالقدر، فكل ما سيجري على هذه النطفة التي ذكر تكوينها في أول بدايتها، مكتوب مفروغ منه، قبل وجودها، فما تأكله مكتوب مسجل، لا يزيد ولا ينقص، وما تعمله كذلك، وبقاؤها حية في هذه الدنيا كذلك، ونهايتها ومصيرها مسجل معلوم لله -تعالى-: فالسعادة والشقاوة قد سبق بهما الكتاب، غير أن ذلك مقدر بحسب الأعمال التي يعملها هذا المخلوق، ومرتب عليها، بمعنى أن الله علم ذلك فكتبه، وكل ميسر لما خلق له.

وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام، لا يمكن أن يستقيم لأحد دينه إلا بالإيمان به، وهو محل الشاهد الذي ساقه البخاري من أجله، فقد سبقت كلمة الله لعباده السعداء بالسعادة قبل وجودهم، وذلك فضل من الله ورحمة تفضل عليهم بذلك.

وظاهر حديث عبدالله بن مسعود هذا أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأخيرة، وحديث حذيفة بن أسيد ظاهر في أن الكتابة تكون بعد الأربعين الأولى.

قال ابن رجب: «جمع بعضهم بينهما بأن الكتابة تكون مرتين، ثم قال: وقد يقال: إن إحداهما في السماء، والأخرى في بطن أمه.

والأظهر أنها مرة واحدة.

ولعل ذلك يختلف باختلاف الأجنة، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين الأولى، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة»[2].

وقال ابن القيم: «ما في حديث ابن مسعود تقدير ثان بعد التقدير الذي ذكره في حديث حذيفة، فأول تقدير عند انتقال النطفة إلى أول أطوار التخليق التي هي أول مراتب الإنسان.

---

(١) «الفتح» (١١/ ٤٨٢).

(٢) «شرح الأربعين» (١/ ١٢٩).

والتقدير **الثاني**: تقدير عند كمال خلقه، ونفخ الروح، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره، وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره»[1].

قوله: «**ثم ينفخ فيه الروح**» في رواية لمسلم: «ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات». قال الحافظ: «ويجمع بأن هذه الرواية صريحة في تأخير النفخ؛ للتعبير بقوله «ثم»، والأخرى محتملة، فترد إلى الصريحة، ولأن قوله في رواية مسلم: «ويؤمر بأربع كلمات» معطوفة بالواو، وهي لا تقتضي الترتيب فيكون عطف جملة على جملة، والتقدير: «يجمع خلقه في هذه الأطوار، ويؤمر الملك بالكتابة»، وجاء قوله: «**ينفخ فيه الروح**» **متوسطاً بين الجمل**»[2].

وقال ابن رجب: «إما أن يكون هذا من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذي يفهمونه، وإما أن يكون المراد ترتيب الأخبار فقط، لا ترتيب ما أخبر به».

وعلى كل فحديث ابن مسعود يدل على تأخير نفخ الروح في الجنين وكتابة الملك [ما أمر به] إلى ما بعد أربعة أشهر، حتى تتم الأربعون الثالثة.

فأما نفخ الروح فقد روي صريحاً عن الصحابة -رضي الله عنهم- أنه إنما ينفخ فيه الروح بعد أربعة أشهر، كما دل عليه ظاهر حديث ابن مسعود»[3].

وقال عياض: «اختلفت ألفاظ هذا الحديث في مواضع، ولم تختلف أن نفخ الروح فيه بعد مِئَةٍ وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس، وهذا موجود في الشاهد، وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام، وقيل: إنه الحكمة في عدة الوفاة»[4].

والحديث يدل صراحة أن الملك هو الذي ينفخ في الجنين الروح، التي تحصل بها الحياة، وتسري في الجسد، وهي سر من الله، لا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[5].

---

(١) «التبيان» (ص٣٤٥).

(٢) «الفتح» (١١/ ٤٨٥) بمعناه ملخصاً.

(٣) «شرح الأربعين» (١/ ١٢٣-١٢٤).

(٤) من «الفتح» (١١/ ٤٨٥).

(٥) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

قوله: «فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها».

هذا مما يدل على ما أراده البخاري -رحمه الله-؛ لأن سبق الكتاب لما سيكون صريح في هذا النص، وهو دليل على كمال علم الله -تعالى- وكمال قدرته، وإحاطته بكل شيء، فهو -تعالى- يعلم الأشياء قبل وجودها، وكتب كل ما هو كائن، فكل الحوادث تقع وفق علمه وكتابته.

فإذا وضعت النطفة التي يتكون منها الإنسان في رحم المرأة، وأراد تعالى تكوينها مخلوقاً أمر بكتابة ما يعمله هذا المخلوق، وما يكون له من رزق، وما سيلاقيه في حياته، وما يؤول إليه وينتهي، من سعادة أو شقاوة.

وهذه الكتابة غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق، المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾(١).

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم، عن عبدالله بن عمرو، قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» ونحو ذلك من النصوص. وليس في كتابة الله تعالى وتقديره كل شيء قبل وجوده منافاة لمشيئة الإنسان واختياره، كما يتوهمه بعض الناس.

لأن الله -تعالى- كتب علمه بما يعمله هذا المخلوق، وما يترتب على عمله، ولم يجبره على فعل المعاصي، بل نهاه عنها وزجره وحذره من فعلها، وتوعده على ذلك، وخلّى بينه وبين نفسه ليختار ما يريد من غير إكراه وإلزام.

والمقصود أن هذا يدل على سبق الرحمة من الله لأهل السعادة قبل وجودهم، حيث قدر ذلك وكتبه، تفضلاً منه وإحساناً، ثم هيأهم للعمل لذلك ويسره لهم، فيدخل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الحديد.

ثم هذا يدل على أن الجزاء مرتب على العمل، فلا يدخل أحد الجنة إلا إذا عمل بعمل أهل الجنة، ولا يدخل أحد النار إلا إذا عمل بعمل أهل النار.

قال ابن رجب: «فيه أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال، وأن كلاً ميسر لما خلق له من الأعمال التي هي سبب السعادة أو الشقاوة»[1].

وفيه أن الإنسان قد يعمل بعمل أهل الجنة، وهو في الحقيقة من أهل النار، فلا بد أن يعمل بعمل أهل النار قبيل موته، فيختم له بذلك وبالعكس؛ لأن الكتاب سبق بذلك، والحقيقة أن الذي سبق هو علم الله بأنه سوف يكون كذلك، وقد كتب الله ذلك.

وهذا هو الذي أزعج كثيراً من السلف، وأقلقهم.

قال ابن رجب: «بكى أحد الصحابة عند موته، فسئل عن ذلك؟ فقال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «إن الله -تعالى- قبض خلقه قبضتين، فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار» ولا أدري في أي القبضتين كنت.

وقال بعض السلف: الذي أبكى العيون أشد البكاء هو الكتاب السابق».

وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: حضرت رجلاً عند الموت يلقن الشهادة: لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك فسألت عنه، فإذا هو مدمن خمر.

فكان عبدالعزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوقعته.

وقال سفيان لبعض الصالحين: هل أبكاك قط علم الله فيك؟ فقال ذلك الرجل: تركتني لا أفرح أبداً.

وكان سفيان يشتد قلقه من السوابق، والخواتيم، فكان يبكي، ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقياً، ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله قابضاً على لحيته ويقول: يا رب، قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين منزل مالك؟

---

(١) «شرح الأربعين» (١/ ١٣٢).

وقال حاتم الأصم: من خلا قلبه من ذكر أربعة أخطار، فهو مغتر، فلا يأمن الشقاء:

الأول: خطر يوم الميثاق حين قال: هؤلاء في الجنة، ولا أبالي، وهؤلاء في النار، ولا أبالي، فلا يعلم في أي الفريقين كان؟

والثاني: لما خلق في الظلمات الثلاث، حين نادى الملك بالشقاوة أو السعادة ولا يدري: أمن الأشقياء هو أم من السعداء؟

والثالث: ذكر هول المطلع بعد الموت، فلا يدري: أيبشر برضاء الله، أم بسخطه؟

والرابع: يوم يصدر الناس أشتاتاً، فلا يدري مع أي الفريقين يسلك به؟

وقال سهل التستري: المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر.

وكان الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه.

فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر.

وقد كان النبي -ﷺ- يُكثر أن يقول في دعائه: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» فقيل له: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟

فقال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن -عز وجل- يقلبها كيف يشاء»[1].

وفي الجملة: فالخواتم ميراث السوابق، فكل شيء سبق في الكتاب السابق.

وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتم، وقلوب المقربين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا؟»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١١٢، ٢٥٦) و(٦/ ٩١، ٣١٥)، والترمذي من حديث أنس وأم سلمة وعائشة، انظر الترمذي (٥/ ٥٣٨).

(٢) «شرح الأربعين» (١/ ١٣٧-١٣٩).

٨١- قال: «حدثنا خَلاَّدُ بنُ يحيى، حدثنا عُمَرُ بنُ ذَرٍّ، سمعت أبي يحدث، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ -رضيَ اللهُ عنهما- عن النبيِّ -ﷺ- قال: «يا جبريلُ، ما يمنعكَ أنْ تزورَنا أكثرَ مما تزورُنا؟» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال: كانَ هذا الجوابُ لمحمدٍ -ﷺ-».

المقصود: أن كل شيء بتصريف الله وتدبيره، فلا أحد يملك معه شيئاً حتى يملكه هو ما يريد، فله الأمر من قبل وجود الخلق، ومن بعد وجودهم، وما بين ذلك، فلا يخرج من قبضته شيء، فإذا وقع في خلقه خير وفضل فبرحمته التي سبقت منه لهم، وإن وقع غير ذلك، فبعدله وسبب ذنوب خلقه، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وأمره تعالى غير خلقه وأفعاله، فلهذا قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فالتنزيل فعل جبريل، ولا يقع إلا بأمر الله -تعالى-، فأمره تعالى سابق خلقه وما يفعلونه.

ذكر ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قال: احتبس جبريل عن النبي -ﷺ- حتى تكلم المشركون في ذلك، واشتد ذلك على نبي الله، فأتاه جبريل، فقال: اشتد عليك احتباسنا عنك، وتكلم في ذلك المشركون، وإنما أنا عبد الله ورسوله، إذا أمرني بأمر أطعته، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أي: بقول ربك، ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ معناه: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة؛ لأن ذلك لم يجئ [وهو آت]، فهو بين أيديهم، وما خلفنا من أمر الدنيا، وذلك ما قد خلفوه فمضى، فصار خلفهم بتخليفهم إياه، وما بين ذلك ما لم يمض من أمر الدنيا إلى الآخرة»[1].

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أي: أنه تعالى علم كل شيء، فلا يخفى عليه شيء، ولا يغيب عنه صغير أو كبير، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أكبر من ذلك ولا أصغر إلا في كتاب مبين، قد كتبه قبل وجود خلقه لا من خشية نسيان أو فوات.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٠١-٤٠٥) ببعض التصرف.

ووجه الاستشهاد بهذا الحديث: أن الأمر الذي قال جبريل عنه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ يدخل فيه الأمر الكوني القدري الذي سبق كل ما هو كائن، والأمر الشرعي التكليفي، ونزول جبريل إلى النبي -ﷺ- لا يكون إلا بالخير والبركة والنصر والتأييد للمؤمنين، فهو مما سبقت به كلمته تعالى لرسوله ومن معه، والله أعلم.

قال البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد»: «قال الله -عز وجل- عن جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فبين أن التنزيل غير الأمر»[1] وتقدم أن أمر الله سابق لخلقه.

❑❑❑

(١) (ص١٨٣) تحقيق بدر البدر.

٨٢- قالَ: «حدثنا يحيى، حدثنا وكيعٌ، عن الأَعْمَشِ، عن إبراهيمَ، عن عَلْقَمَةَ، عن عبدِالله قالَ: كنتُ أمشي مَعَ رسول اللهِ -ﷺ- في حَرْثٍ بالمدينةِ، وهو مُتَّكِئٌ على عَسِيبٍ، فَمَرَّ بقومٍ مِنَ اليهودِ، فقالَ بعضُهم لبعضٍ: سَلُوهُ عن الرُّوحِ، وقال بعضُهم: لا تَسْأَلُوهُ، فسألوهُ، فقام متوكئاً على العَسِيبِ، وأنا خَلْفَهُ، فظَنَنتُ أنّه يُوحَى إليه، فقالَ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فقال بعضُهم لبعضٍ: قد قُلنا لَكُمْ لا تَسْأَلُوه».

قال ابن جرير: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه الله دونكم، فلا تعلمونه، ويعلم ما هو.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خرج الكلام خطاباً لمن خوطب به، والمراد: جميع الخلق؛ لأن علم كل أحد سوى الله -تعالى- وإن كثر، فهو في علم الله -تعالى- قليل، والمعنى: وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلاً من كثير مما يعلم الله»[1].

قوله: «في حرث بالمدينة» في رواية لابن مردويه: «في حرث للأنصار»، وعند مسلم: «كان في نخل» وكل هذه الألفاظ تؤكد أن هذه الواقعة كانت في المدينة، ومعلوم أن سورة الإسراء مكية، فإما أن يقال: إن هذه الآية مدنية، وهو الأوجه، فكثير من السور المكية يكون فيها آيات مدنية، أو يقال: إنها نزلت مرتين للتأكيد، كما قيل في الفاتحة، وغيرها.

وأما كونه ﷺ لم يجبهم بها من أول وهلة، فلعله كان ينتظر الأمر يأتيه من الله، إما بزيادة أو بغير ذلك. والله أعلم.

قوله: «وهو متكئ على عسيب» أي: معتمد عليه وهو يمشي، والعسيب بوزن عظيم، هو جريد النخل، بمنزلة الغصن من الشجرة، ويسمى عسيباً إذا كان فيه خوصة، فإذا أزيل فهو جريدة.

قوله: «فظننت أنه يوحى إليه»، في الرواية الأخرى: «فعلمت أنه يوحى إليه» وقد يستعمل الظن بمعنى العلم.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٥٧).

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء -تبارك وتعالى-.

والمعنى: أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه -تعالى-.

وقد اختلف في الروح المسؤول عنها هنا، فقيل: المراد: أرواح بني آدم، قال العوفي: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي -ﷺ-: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل فيه شيء فلم يحر إليهم جواباً، فأتاه جبريل، فقال له: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾أخبرهم النبي -ﷺ- بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: «جاءني به جبريل من عند الله».

وقيل: المراد هنا: جبريل -عليه السلام-، قاله قتادة.

وقيل: المراد: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها، قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس: قوله﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يقول: الروح: ملك عظيم.

وقيل: المراد طائفة من الملائكة»[1].

وقال الحافظ: «قال الأكثر: سألوه عن الروح التي تكون بها الحياة في الجسد، وقال أهل النظر: سألوه عن كيفية مسلك الروح في البدن، وامتزاجه به، وهذا هو الذي استأثر الله بعلمه.

وقال القرطبي: الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان؛ لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله، ولا تجهل أن جبريل ملك، وأن الملائكة أرواح.

وقال الرازي: المختار أنهم سألوه عن الروح الذي هو سبب الحياة، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ١١٢-١١٣) طبعة الشعب.

وبيانه: أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيته، أو عن صفته، أو كيفية تعلقه بالبدن، أو غير ذلك، وقد سكت السلف عن البحث في هذه الأشياء»[١] .

وقال ابن القيم: «في المراد بالروح في هذه الآية خلاف بين السلف والخلف.

وأكثر السلف، بل كلهم، على أن الروح المسؤول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم»[٢] .

قال الحافظ: «الراجح أنها روح الإنسان». وهذا هو الظاهر، أن المراد: الروح الذي تحصل به الحياة، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين من المتأخرين وشراح الحديث.

وأما قول ابن القيم -رحمه الله-: «ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحي، وذلك هو الروح الذي عند الله، لا يعلمها الناس، وأما أرواح بني آدم فليست من الغيب، وقد تكلم فيها طوائف من الناس، من أهل الملل وغيرهم، فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة»[٣] .

فيقال: بل الروح من الغيب الذي لا يعلمه الناس، فإن هذه الروح التي في بني آدم وإن تكلم فيها طوائف من الناس فهي مجهولة الحقيقة، لا يعلمها إلا الله، والذين تكلموا فيها تكلموا بالظنون، ولم يصلوا إلى معرفة شيء من حقيقتها.

«قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق، وبقدرته استقر، وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان»[٤].

«قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ من المعلوم قطعاً أنه ليس المراد بالأمر ها هنا الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المعنى: إن الروح كلامه الذي يأمر به،

---

(١) «الفتح» (٨/ ٤٠٢) بتصرف.

(٢) «الروح» (ص٢٣٧).

(٣) «الروح» (ص٢٣٧).

(٤) المرجع نفسه.

بل المراد بالأمر هنا: المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾أي: مأموره الذي قدره وقضاه، وقال له: كن، فيكون، وقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾[1] ، أي: مأموره الذي أمر به، من إهلاكهم»[2] .

ومقصود البخاري من الحديث: قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ يعني: أنها كانت ووجدت بأمر الله، فأمر الله ليس هو الروح، وإنما وجدت الروح بأمره، وهو سابق لما وجد به.

□□□

---

(١) الآية ١٠١ من سورة هود.

(٢) المرجع المذكور.

٨٣- قال: «حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالكٌ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جاهدَ في سبيله، لا يُخْرِجُهُ إلا الجهادُ في سبيلِهِ، وتَصْدِيقُ كلماتِهِ، بأنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، أوْ يُرْجِعَهُ إلى مَسْكَنِهِ الذي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ ما نالَ مِنْ أجرٍ أو غَنِيمَةٍ»».

«تكفلَ» معناه: ضمن له حصول ما ذكر، فلا يمكن فواته؛ لأن الله -تعالى- إذا ضمن شيئاً فلا بد من حصوله لمن ضمنه له.

وفي رواية: بدل «تكفل»: «انتدب الله لمن خرج»، ومعناه: سارع بثوابه وحسن جزائه، وقيل: أجاب إلى المراد، ففي الصحاح: ندبت فلاناً فانتدب، أي: أجاب إليه، وقيل: معناه: تكفل بالمطلوب، ويدل عليه رواية «**تكفل**»[1].

قلت: المعنى الأخير هو الصواب، والمعنيان الأولان يدخلان فيه، وقد جاء في رواية مسلم «تضمن الله لمن خرج في سبيله»، والمعنى واحد.

وهذا من باب التأكيد، وإلا فوعد الله لا بد من وقوعه، فإن الله لا يخلف وعده، والتكفل: وعد وزيادة تأكيد لوقوعه بالضمان.

قوله: «**لمن جاهد في سبيله**» الجهاد، والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، فهو بذل للجهد بالنفس والمال.

قال الراغب: «الجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله -تعالى-: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[2]، ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4].

والمجاهدة تكون باليد، واللسان»[5].

---

(١) «الفتح» (١/ ٩٣).

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج.

(٣) الآية ٤١ من سورة التوبة.

(٤) الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

(٥) «المفردات» (ص١٠١).

وقال الحافظ: «الجهاد بكسر الجيم: أصله لغة: المشقة، يقال: جهدت جهاداً: بلغت المشقة. وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس، والشيطان، والفساق.

فأما مجاهدة النفس؛ فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم على تعليمها.

وأما مجاهدة الشيطان؛ فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار؛ فيقع باليد، والمال، واللسان، والقلب.

وأما مجاهدة الفساق؛ فباليد، ثم اللسان، ثم القلب»[1].

«سبيل الله»: طريقه الذي شرعه لعباده المؤمنين، وهو دينه وشرعه.

قوله: «**لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته**» أي: ليس له أي دافع غير ذلك، بل الجهاد في سبيل الله، والإيمان بوعده للمجاهدين في سبيله هو الحامل له على الخروج، وهذا هو الإخلاص لله -تعالى- في الجهاد،والإخلاص هو الذي يجعل العمل القليل كثيراً عظيماً، مع أنه شرط في قبول العمل.

والتصديق بكلمات الله -تعالى- يشمل الإيمان بكلماته الأمرية الشرعية والعمل بها، والإيمان بكلماته الكونية القدرية، وهي التي سبقت بتقدير الأشياء كلها قبل وجودها.

وهذه الجملة هي المقصودة من الحديث هنا؛ لهذا المعنى المذكور.

قوله: «**بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة**» هذا هو الذي كفله الله لمن يخرج مجاهداً في سبيله.

وسبيل الله -تعالى- هو الجهاد لإعلاء كلمته التي هي: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أي: عبادة الله وحده، ومتابعة رسوله -ﷺ-، وأن لا يحكم إلا بشرعه، ولا يتعبد إلا بما جاء به رسوله.

---

(١) «الفتح» (٦/ ٣).

فهذا هو غاية المجاهد في سبيل الله، فمن خرج مجاهداً لهذا الغرض، فإن قتل أو مات في مخرجه ذلك فهو في الجنة، وإن فاته ذلك فلا بد أن يصل إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من الأجر، والغنيمة، فهو متحصل على إحدى الحسنيين على كل تقدير، وهذا هو الربح.

❐❐❐

٨٤- «حدثنا محمدُ بنُ كثيرٍ، حدثنا سفيانُ، عن الأَعْمَش، عن أبي وائلٍ، عن أبي مُوسَى، قال: جاءَ رَجُلٌ إلَى النبيِّ -ﷺ- فقالَ: الرَّجُلُ يُقاتلُ حَمِيَّةً، ويُقاتلُ شجاعةً، ويُقاتلُ رياءً، فأيُّ ذلكَ في سبيلِ اللهِ؟

قال: «مَنْ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سبيلِ اللهِ»».

الحمية: مأخوذة من الحم: وهو الحرارة المتولدة من الجواهر المتوقدة، كالنار والشمس.

وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية.

وإذا كانت من أجل الباطل، ومدافعة الحق، فهي حمية الجاهلية.

والمقصود بالحمية هنا: القتال لأجل القومية، أو الدنيا من أرض أو ملك أو غير ذلك، لا لأجل إعلاء دين الله -تعالى-.

وأما الشجاعة: فهي الجرأة والإقدام على العدو بقوة، ودون تهيب، وهي من الصفات المحمودة، إذا كانت في الحق، وهي من المفاخر التي يفتخر بها الناس، فقد يقدم المرء على القتال لأجل إظهار شجاعته وحبه للقتال فقط.

وأما الرياء، فهو: مراءاة الناس للأعمال الحسنة، حتى يثنى عليه أو يحبوه ونحو ذلك، وهذا كله من الشرك، فقد يكون شركاً أكبر، وقد يكون أصغر، على حسب الدافع وما يقوم بالنفس.

وقوله: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» جواب جامع شامل لما ذكر في السؤال وغيره من الأغراض والدوافع التي قد تدفع الإنسان إلى القتال، فمن كان قصده في قتاله: رفع دين الله وإعزازه، وأن لا يعبد معه غيره، ولا يحكم إلا بشرعه، فهو في سبيل الله، وإلا فليس في سبيل الله.

والمقصود من الحديث قوله: «**لتكون كلمة الله هي العليا**» والذي يقاتل لذلك هو الذي سبقت له كلمة الله الكونية أنه من المنصورين؛ لأنه من أتباع المرسلين، فهو منهم في هذا الحكم، وهذا وجه الشاهد، والله أعلم.

□□□

قال: «بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾.

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء، وإنما إذا أمر به مرة واحدة كان من غير تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف»(١).

قال ابن بطال: «غرضه الرد على المعتزلة، في زعمهم أن أمر الله مخلوق، فبين أن الأمر هو قوله للشيء «كن»، فيكون بأمره له، وأن أمره وقوله بمعنى واحد، وأنه يقول: «كن» حقيقة، وأن الأمر غير الخلق، لعطفه عليه بالواو»(٢).

وقال الحافظ: «قال ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية»:

حدثنا أبي قال: قال أحمد بن حنبل: دل على أن القرآن غير مخلوق حديث عبادة «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب» الحديث، وإنما نطق القلم بكلامه؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فكلام الله سابق على أول خلقه، فهو غير مخلوق.

وعن الربيع بن سليمان، سمعت البويطي يقول: خلق الله الخلق بقوله: «كن» فلو كان «كن» مخلوقاً، لكان قد خلق الخلق بمخلوق، وليس كذلك»(٣).

وقال البخاري: «قال سفيان: إن كل شيء مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، وكلامه أعظم من خلقه؛ لأنه يقول للشيء: «كن» فيكون، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق، والقرآن كلام الله»(٤) (٥).

---

(١) «تفسير ابن كثير» ملخصاً (٤/ ٤٩٠-٤٩١).

(٢) من «الفتح» (١٣/ ٤٤٣).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٤٤).

(٤) «خلق أفعال العباد» (ص٣٤).

(٥) وقال ابن عطية: «من الدليل على أن القرآن غير مخلوق: أن الله -تعالى- ذكر القرآن في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً، ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق، ولا أشار إليه، وذكر الإنسان على الثلث من ذلك، في ثمانية عشر موضعاً، كلها نصت على خلقه، وقد افترق ذكرهما على هذا النحو في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

وقال: «وقيل لأبي عبيد: إن المريسي سئل عن ابتداء خلق الأشياء، وعن قول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فقال: كله صلة[1]، فمعنى قوله: ﴿أَن نَّقُولَ﴾ صلة، كقوله: قالت السماء فأمطرت، وكقوله: قال الجدار فمال، قال الله -تعالى-: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[2]، والجدار لا إرادة له، فمعنى قوله: إذا أردناه: كوناه، فكان.

لم يكن عند المريسي جواب أكثر من هذا، يعني: أن الله -تعالى- لا يتكلم.
قال أبو عبيد، القاسم بن سلام: أما تشبيه قول الله -تعالى-: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾، بقوله: قالت السماء فأمطرت، أو: قال الجدار فمال.

فإنه لا يشبهه، وهذه أغلوطة أدخلها؛ لأنك إذا قلت: قالت السماء، ثم سكت، لم يدر ما معنى «قالت»، حتى تقول: فأمطرت.
وكذلك إذا قلت: أراد الجدار، ثم لم تبين ما معنى: أراد، لم يدر ما معناه، وإذا قلت: «قال الله» اكتفيت بقوله «قال». فـ«قال» كافٍ، لا يحتاج إلى شيء يستدل به على «قال»، كما احتجت، «إذا قال الجدار فمال»، وإلا لم يكن لقال الجدار معنى.

ومن قال هذا فليس شيء من الكفر إلا وهو دونه.
ومن قال هذا، فقد قال على الله ما لم يقله اليهود، والنصارى، ومذهبه التعطيل للخالق»[3].

يعني: أن القول إذا أسند إلى ما لا يعقل فلا بد أن يقيد بالفعل الذي يصدر من ذلك المسند إليه؛ لأن القول عبارة عن ذلك الفعل.

---

(١) يعني: زائداً ليس له معنى.
(٢) الآية ٧٧ من سورة الكهف.
(٣) «خلق أفعال العباد» (ص٣٥).

فالمراد بقوله: قال الجدار فمال: الإخبار على ميل الجدار، وقوله حسب ما يليق به، أما إذا أسند القول إلى من يتكلم حقيقة فلا يحتاج إلى أي قيد، بل إذا قلت: قال أبو بكر، فهم السامع أنه نطق بكلام ينتظر أن نذكره له.

وأراد البخاري أن يبين أن القول غير الشيء الذي أراد الله إيجاده، فالقول صفة لله -تعالى-، وبه يوجد الأشياء التي يريد وجودها، فإذا قال لها: «كوني» كانت بلا مهلة ولا امتناع، والقول والأمر سواء.

❑❑❑

٨٥- قالَ: «حدثنا شِهابُ بنُ عَبّادٍ، حدثنا إبراهيمُ بنُ حُمَيْدٍ، عن إسماعيلَ، عن قَيْسٍ، عن المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ، قالَ: سمعتُ النبيَّ -ﷺ- يقولُ: «لا يزالُ مِنْ أُمتي قَوْمٌ ظاهرينَ على الناسِ، حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ».

في رواية مسلم عن المغيرة، قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[1].

وفيه عن ثوبان، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[2].

وفيه أيضاً من حديث جابر بن عبدالله: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة»[3].

قوله: «لا يزال من أمتي قوم ظاهرين» أي: يستمرون في الظهور على الناس، يعني: أنهم يكونون على الحق منصورين ظاهرين على عدوهم.

قوله: «حتى يأتيهم أمر الله» أي: حكمه وقضاؤه، إما بقيام الساعة كما في حديث جابر: «إلى يوم القيامة»، أو بالريح التي يموتون منها، كما جاء في الحديث.

قال الحافظ: «أي: غالبون من خالفهم، أو المراد بالظهور: أنهم غير مستترين، بل مشهورون، والأول أولى؛ لما في مسلم: «لن يبرح هذا الدين قائماً تقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة»، وفيه أيضاً من حديث عقبة ابن عامر: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة»[4]، والمراد بالساعة: الريح التي تقبض روح كل مؤمن، وذلك قبيل الساعة، فلا يبقى إلا شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة، وهذا معنى الذي في مسلم: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ١٥٢٣) رقم (١٩٢١).

(٢) المرجع المذكور رقم(١٩٢٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٣/ ١٥٢٤) رقم (١٩٢٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٣/ ١٥٢٤-١٥٢٥) رقم (١٩٢٢، ١٩٢٤).

وهذه الطائفة هم أتباع سنة رسول الله -ﷺ-.

قال البخاري -رحمه الله-: «هؤلاء هم أهل العلم»[1] أي: العلم الشرعي، الذين علموا ما جاء به الرسول -ﷺ- وعملوا به.

وقال الترمذي بعد روايته لهذا الحديث: «سمعت محمد بن إسماعيل يقول: سمعت علي بن المديني يقول: هم أصحاب الحديث»[2].

وقال الحاكم: سمعت أبا عبدالله، محمد بن علي بن عبدالحميد الأدمي بمكة يقول: سمعت موسى بن هارون، يقول: سمعت أحمد بن حنبل، وسئل عن معنى هذا الحديث، فقال: «إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم»، وهذا إسناد صحيح، قال الحاكم: «فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر، أن الطائفة المنصورة، التي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام الساعة، هم أصحاب الحديث»[3].

والمقصود من هذا الحديث قوله: «**حتى يأتيهم** أمر الله» وهو أمره الكوني القدري الذي قضاه، وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فأوحاه الله إلى رسوله ليعلم أمته به فيؤمنوا به، ويصدقوه، فإذا وصل وقته قال الله -تعالى-: كن، فيكون كما أراد.

ومراد البخاري أن أمر الله من صفاته، فهو غير المخلوق، وغير المأمور، وهو مرادف للقول.

□□□

(١) انظر «الفتح» (١٣/ ٣٩٣).

(٢) انظر «سنن الترمذي» (٤/ ٥٠٤-٥٠٥) رقم (٢٢٢٩).

(٣) «علوم الحديث» (ص٣).

٨٦- قال: «حدثنا الحُمَيْدِيُّ، حدثنا الوليدُ بنُ مُسْلِمٍ، حدثنا ابنُ جابرٍ، حدثني عُمَيْرُ بنُ هانئٍ، أنّه سَمِعَ معاويةَ، قالَ: سمعتُ النبيَّ -ﷺ- يقولُ: «لا يزالُ مِنْ أُمَّتي أُمّةٌ قائمةٌ بأمرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ، ولا مَنْ خَذَلَهُمْ، حتى يأتيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ على ذلكَ».

فقالَ مالكُ بنُ يُخامِرَ: سمعتُ معاذاً يقولُ: وَهُمْ بالشامِ، فقالَ معاويةُ: «هذا مالكٌ يَزْعُمُ أنه سَمِعَ معاذاً يقولُ: وَهُمْ بالشامِ».

«الأمة» تطلق على الجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾[2].

فالأمة: كل جماعة يجمعهم أمر من الأمور؛ إما دين، أو زمان، أو مكان.

ويراد بها الملة والدين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[3].

ويراد بها الطائفة من الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[4]، أي: بعد حين.

ويراد بها: الإمام القدوة المتبع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[5]. والمقصود أن جماعة من هذه الأمة تبقى ظاهرة على دين الله، منصورة إلى قيام الساعة، وهذا من فضل الله -تعالى- أن جعل الحق باقياً، لا يذهب ولا يضمحل وإن كثر محاربوه وأعداؤه، كما هو الواقع، والحمد لله على ذلك.

قوله: «لا يضرهم من كذبهم، ولا من خذلهم» هذا من نصر الله -تعالى-، وتأييده لهذا الدين، ومن آياته: بقاء هذه الأمة ظاهرة، منصورة على عدوها، مع

(١) الآية ٢٣ من سورة القصص.

(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الزخرف.

(٤) الآية ٤٥ من سورة الزخرف.

(٥) الآية ١٢٠ من سورة النحل.

كثرة الأعداء، ومحاربتهم لها بأنواع الأسلحة المادية والمعنوية، ومع خذلان من هم على دينها من المسلمين.

فقوله: «من كذبهم» يقصد بهم: الكفار من جميع الأجناس، من ملاحدة، ويهود، ونصارى، ومشركين، ومرتدين، وغيرهم.

وقوله: «ولا من خذلهم» يقصد بهم: من قعد عن نصرتهم ممن هو على دينهم ممن آثر الحياة الدنيا، وركن إلى الدعة والراحة.

قال النووي: «المراد بقوله: «حتى يأتي أمر الله»: الريح التي تأخذ كل مؤمن ومؤمنة، ورواية «حتى تقوم الساعة» أو «إلى يوم القيامة»، يعني: قربها، وهو خروج تلك الريح.

وأما هذه الطائفة فقال البخاري: هم أهل العلم.

وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم.

وقال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السُّنَّة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث.

قلت: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض.

وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف ما زال -بحمد الله تعالى- من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور، وفيه دليل لكون الإجماع حجة»[1].

روى مسلم في «الصحيح» من حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق، حتى تقوم الساعة»[2].

---

(١) «شرح مسلم» (١٣/ ٦٦-٦٧).

(٢) «مسلم» (٣/ ١٥٢٥) رقم(١٩٢٥).

قال النووي: «قال علي بن المديني: هم العرب، والمراد بالغرب: الدلو الكبيرة، وهي خاصة بهم.

وقال آخرون: المراد الغرب من الأرض. وقال القاضي عياض: المراد بأهل الغرب: أهل الشدة والجلد»[1] .

قال الحافظ: «ذكر يعقوب بن شيبة، عن علي بن المديني، قال: المراد بالغرب: الدلو، أي: العرب؛ لأنهم أصحابها، لا يستقي بها أحد غيرهم.

لكن في حديث معاذ: «وهم أهل الشام»، فالظاهر أن المراد بالغرب: البلد؛ لأن الشام غرب الحجاز، كذا قال، وليس بواضح[2] .

ووقع في بعض طرق الحديث «المغرب» وهو يرد التأويل، ولكن يحتمل أن يكون بعض الرواة نقله بالمعنى الذي فهمه.

وقيل: هم أهل القوة، والاجتهاد.

ووقع في حديث أبي أمامة، عند أحمد أنهم ببيت المقدس[3] ، وعند الطبراني ونحوه، وله أيضاً في الأوسط، عن أبي هريرة: «يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس، وما حوله، لا يضرهم من خذلهم، ظاهرين إلى يوم القيامة».

قلت: ويمكن الجمع بأن المراد: قوم يكونون ببيت المقدس، وهي: من الشام، ويسقون بالغرب، وتكون لهم قوة في جهاد العدو».

ثم ذكر كلام النووي المتقدم، ثم قال: «ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء

---

(١) «شرح مسلم» (١٣/٦٨) ملخصاً.

(٢) يعني: أن الشام ليست غرب الحجاز، وإنما هي شماله كما هو معلوم.

(٣) في «المسند» عن أبي أمامة، قال: لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق، وقال رسول الله -ﷺ-: «عليكم بالشام» «المسند» (٥/ ٢٤٩)، فلعل الحافظ لديه نسخة فيها ما ليس في المطبوعة، فإن فيها سقطاً.

الأرض كلها من بعضهم، أولاً، فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله»[1].

وقوله: «**فإذا انقرضوا جاء أمر الله**» هذا خلاف ظاهر الحديث، فإن أمر الله يأتي عليهم.

والمقصود من الحديث قوله: «**حتى يأتي أمر الله**» أي: الأمر الذي يكون بقوله: «كن»، فأمره هنا مأموره، الصادر عن قوله، فقوله الذي هو «كن» يصدر عنه ذلك الأمر الآتي، والفرق بينهما واضح، فإن قوله صفة له لا يدخل في المخلوقات، وأما مأموره كالريح التي تقبض كل مؤمن ومؤمنة، والساعة التي هي النفخ في الصور، فإن ذلك مأموره، والله أعلم.

❐❐❐

(١) «الفتح» (١٣/ ٢٩٥) ملخصاً.

٨٧- قال: «حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيْبٌ، عن عبدِالله بن أبي حُسَيْن، حدثنا نافعُ بنُ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قالَ: وَقَفَ النبيُّ -ﷺ- على مُسَيْلِمَةَ في أصحابِهِ، فقالَ: «لو سَأَلْتَني هذه القطعةَ ما أَعْطَيْتُكَها، ولَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فيكَ، ولَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ».

ذكر هذا الحديث في علامات النبوة، وفي المغازي، بأبسط مما ها هنا، ولفظه: «عن ابن عباس، قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله -ﷺ- فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله -ﷺ- ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد النبي -ﷺ- قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أُريت، وهذا ثابت يجيبك عني»، ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله -ﷺ-: «وإني لأراك الذي أُريت فيه ما أُريت» فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحى إليَّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»[(١)].

وهذا كان في آخر حياة رسول الله -ﷺ-، كان في سنة عشر من الهجرة، وكان مسيلمة مع وفد قومه بني حنيفة.

قال الواقدي: كانوا بضعة عشر رجلاً، وكان معهم الرحال بن عنفوة، ومسيلمة بن حبيب الكذاب، وكان في رحالهم، فلما أسلموا، وأعطاهم جائزتهم، ذكروا له أن مسيلمة في رحالهم، فقال: «أما إنه ليس بِشَرِّكُمْ مكاناً» يعني: لكونه بقي يرصد رحالهم، ويخدمهم في ذلك.

فأخبروه بما قاله رسول الله -ﷺ- فتعلق بهذه الكلمة، وقال: إنما قال ذلك؛ لأنه عرف أن الأمر لي من بعده. واشتدت فتنته لما شهد له الرحال، بأنه شريك في

(١) «البخاري» (٥/ ١٤٠).

النبوة، وقد كان تعلم شيئاً من القرآن، فكان يلقي على مسيلمة مما يحفظه من القرآن، فيدعي مسيلمة أنه أوحي إليه، فعظمت بذلك فتنته»[1].

هذا خلاصة ما ذكره المؤرخون، عن ابن إسحاق وغيره.

قال الحافظ: «وسياق ما ذكره البخاري يخالف ما ذكره ابن إسحاق: أنه قدم مع وفد قومه، وأنهم تركوه في رحالهم يحفظها لهم، وذكروه له إلى آخر ما ذكره، وهذا -مع شذوذه- ضعيف السند؛ لانقطاعه.

وأمر مسيلمة كان عند قومه أكبر من ذلك، فقد كان يقال له: رحمان اليمامة؛ لعظم قدره عندهم.

وكيف يلتئم هذا الخبر الضعيف مع قوله - في هذا الحديث الصحيح- إن النبي -ﷺ- اجتمع به، وخاطبه، وصرح له بحضرة قومه أنه لو سأله قطعة الجريد التي كانت بيده ما أعطاه إياها؟

ويحتمل أن مسيلمة قدم مرتين، الأولى كان تابعاً، والرئيس غيره، ولهذا أقام في رحالهم يحفظها، ومرة متبوعاً، وفيها خاطبه النبي -ﷺ-، أو القصة واحدة، وكان تخلفه في رحلهم أنفةً منه واستكباراً»[2]، والظاهر أنها مرة واحدة، والمعتمد ما ثبت في «الصحيحين»، كما ذكر في هذا الحديث.

ولما علم النبي -ﷺ- أن قصده الرئاسة والعلو، وأنه ليس أهلاً لما يطمع فيه، وأن ذلك يخالف ما جاء به -ﷺ-، فلم يأت لتأسيس حكم يورث من بعده، وإنما جاء بالنبوة، كما أخبر أن خلافة النبوة بعده تكون ثلاثون سنة ثم يكون ملكاً»[3].

ولهذا قال له: لو سألتني هذه القطعة من الجريد التي لا تساوي شيئاً لم أعطكها؛ لأنها خير منك، ولأنك ليس لك من الأمر شيء ولا تستحق، وما أنت بأهل لذلك.

---

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٥٩).

(٢) «الفتح» (٨/ ٨٩-٩٠).

(٣) انظر «المسند» (٥/ ٤٤)، و«سنن أبي داود» رقم(٤٦٣٥).

قوله: «**ولن تعدو أمر الله فيك**» يعني: حكمه وقضاءه، من شقاوتك التي حكم بها عليك قبل وجودك، وأمر الله هنا هو أمره الكوني القدري وهذه الجملة هي المقصود من الحديث كما مر التنبيه على ذلك.

قوله: «**لئن أدبرت ليعقرنك الله**» أي: أعرضت عن الحق الذي جاء به رسول الله -ﷺ-، فإنك لا تعجز الله، فسوف يأخذك أخذ عزيز مقتدر، وقد فعل، فقتل شر قتلة، فقطع دابر القوم الذين لا يؤمنون، والحمد لله رب العالمين.

□□□

٨٨- قال: «حدثنا مُوسَى بن إسماعيلَ، عن عبدِ الواحدِ، عن الأَعْمَشِ، عن إبراهيمَ عن عَلْقَمَةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: بَيْنا أنا أَمْشِي مع النبيِّ -ﷺ- في بعض حَرْثِ المدينةِ، وهو يَتَوَكَّأُ على عَسِيبٍ مَعَهُ، فمررنا على نفرٍ من اليهودِ فقالَ بعضُهم لبعضٍ: سَلُوهُ عن الرُّوحِ، فقال بعضُهم: لا تَسْأَلُوهُ؛ أَنْ يجيء فيه بشيءٍ تَكْرَهُونَهُ.

فقال بعضُهم: لَنَسْأَلَنَّه، فقامَ إليه رَجُلٌ مِنْهُمْ، فقالَ: يا أبا القاسِمِ، ما الرُّوحُ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ النبيُّ -ﷺ- فَعَلِمْتُ أنّه يُوحى إليه.

فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال الأَعْمَشُ: «هكذا في قراءتنا».

تقدم أن هذه الواقعة كانت في المدينة، وفي هذه الرواية نص على ذلك، وفي هذا دليل على أن اليهود يعلمون أنه نبي؛ لعلمهم أن الروح لا يعلم حقيقتها إلا الله، ولأنهم قالوا: لا تسألوه أن يجيء فيه بشيء تكرهونه، وهذا لا يأتي إلا بالوحي، والذي منعهم من متابعته: الحسد والبغي والكبر والعناد، وقد تقدم شرح هذا الحديث.

والمقصود هنا قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: مأموره الذي قال له: كن، فيكون، فهو تعالى أوجد الأرواح بقوله، فقوله غير الذي أوجده به، كما تقدم إيضاح ذلك.

□□□

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1].

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[2].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]. سَخَّرَ: ذَلَّلَ».

هذه ثلاث آيات، أما الأولى والثانية فمعناهما واحد.

قال الحافظ: «جاء في سبب نزولها ما أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح، عن ابن عباس، في قصة سؤال اليهود عن الروح، ونزول قوله تعالى: : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قالوا: كيف وقد أوتينا التوراة؟

فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق في تفسيره من طريق أبي الجوزاء، قال: لو كان كل شجرة في الأرض أقلاماً، والبحر مداد، لنفد الماء، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفد كلمات الله.

وعن معمر، عن قتادة، أن المشركين قالوا في القرآن: يوشك أن ينفد. فنزلت»[4].

---

(١) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٢٧ من سورة لقمان.

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

(٤) «الفتح» (١٣/ ٤٤٥).

وقال ابن جرير: «يقول -عز ذكره- لنبيه محمد -ﷺ-: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ للقلم الذي يكتب به كلمات ربي، لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً. يقول: ولو مددنا البحر بمثل ما فيه من الماء مدداً، من قولك: جئتك مدداً لك»[1].

وقال في تفسير آية لقمان: «يقول تعالى ذكره: لو أن شجر الأرض كلها، بريت أقلاماً «والبحر يمده» يقول: والبحر له مداد، والهاء في قوله «يمده» عائدة على البحر، وقوله: «من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» في هذا الكلام محذوف استغنى بدلالة الظاهر عليه عنه، وهو يكتب كلامه بتلك الأقلام، وبذلك المداد، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله»[2].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى -مخبراً عن عظمته، وكبريائه، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد-: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً، ومده سبعة أبحر معه، فكتب بها كلمات الله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر، ولا أن هناك سبعة أبحر تحيط بالأرض.

فليس المراد بقوله: «بمثله» آخر فقط، بل بمثله، ثم بمثله، ثم بمثله، ثم هلم جرّاً؛ لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته»[3].

ففي هاتين الآيتين أكبر دليل على أن كلام الله غير مخلوق، وأنه من صفاته، إذ المخلوق لا بد أن يكون له نهاية ونفاد، فإنه مسبوق بالعدم فلا بد أن يلحقه العدم.

أما كلام الله -تعالى- فلا نهاية له، ولا نفاد، وقد قرب تعالى إلى أفهام المخاطبين بما ضرب من المثل بما ذكر من كون البحار كلها ويزاد معها مثلها مرات كثيرة، وكون جميع ما وجد على وجه الأرض من عود أقلاماً يكتب بها كلامه تعالى لنفد البحر، وأمسحت الأقلام، وكلمات الله كما هي لم تنقص.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٩).

(٢) المصدر السابق (٢١/ ٨٠-٨١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٥١).

وليس معنى قوله: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ أن كلمات الله لها نهاية، وأنها يمكن أن تنفد، بل المعنى أنها لا نهاية لها أبداً؛ لأنها من صفاته تعالى.

وليس هذا وصف المخلوق، وهذا وجه استدلال البخاري بهاتين الآيتين.

ومراده الرد على القائلين بخلق كلام الله -تعالى-.

وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية.

ففيها يُعْلِمُ تعالى عباده بأنه ربهم ومالكهم، المتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يصلح لهم حياتهم، ويربيهم بنعمه الظاهرة والباطنة.

وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقد جاء بيانها في السُّنَّة أن أولها الأحد، وآخرها يوم الجمعة، وأنه بعد خلقه السماوات والأرض استوى على عرشه، وهو السرير العظيم، وهو سقف المخلوقات، وقد تقدم الكلام فيه.

ويعلمهم تعالى أنه يدخل الليل في النهار، والنهار في الليل، أي: يجعل أول هذا متصلاً بآخر هذا، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[1] فكل واحد يطلب الثاني، أي: يتبعه «حثيثاً» أي: سريعاً.

ويعلمهم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، أي: منقادة طائعة لأمره، فجميع الكون بما فيه يسير حسب مشيئته، فالخلق والأمر له وحده.

وفسر البخاري كلمة «مسخر» بأنه مذلل، أي: هي خاضعة له منقادة لأمره، وهو تعالى لا يمتنع عليه شيء، فكل شيء من حس وجامد في الأرض والسماوات وما بينهما مسخر لأمره الكوني القدري.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: تعاظم وتقدس عن قول الظالمين الذين لم يقدروه حق قدره، و«العالمين» جميع الخلق، فكل ما سواه تعالى عالم، وهو ربهم الذي يتصرف فيهم كيف يشاء.

والمقصود من الآية قوله: «ألا له الخلق والأمر» فهو دليل على أن الخلق غير الأمر، لعطف الأمر على الخلق؛ لأن العطف كما هو معلوم يقتضي المغايرة، وبهذه الآية استدل الأئمة على أن الكلام غير الخلق، وبها وأمثالها ردوا على المعتزلة الذين قالوا بخلق الكلام.

---

(١) الآية ٦ من سورة الحديد.

قال البخاري: «والقرآن كلام الله غير مخلوق؛ لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فبين أن الخلائق، والطلب الحثيث، والمسخرات، بأمره، ثم شرح فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن عيينة: قد بين الله الخلق من الأمر بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾. فالخلق بأمره، كقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[1]، وكقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وكقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[3] ولم يقل: بخلقه.

حدثنا أصبغ، أخبرني عبدالله بن وهب، أخبرني يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن مجاهد، قال: قلت لعبدالله بن عباس: ما القدر؟ قال: يا مجاهد، أين قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[4].

❑❑❑

(١) الآية ٤ من سورة الروم.

(٢) الآية ٨٢ من سورة يس.

(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم.

(٤) «خلق أفعال العباد» (ص٤٥)

٨٩- قال: «حدثنا عبدُالله بنُ يوسفَ، أخبرنا مالكٌ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعْرَجِ، عن أبي هريرةَ، أن رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «تكفَّلَ اللهُ لمنْ جاهدَ في سبيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ مِنْ بيتِهِ إلا الجهادُ في سبيلِهِ، وتصْدِيقُ كَلِمَتِهِ، أنْ يُدْخِلَهُ الجنةَ، أوْ يردَّه إلى مَسْكَنِهِ، بما نالَ منْ أجرٍ أو غنيمَةٍ».

تقدم هذا الحديث في باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وتقدم شرحه هناك.

والمقصود منه هنا: **قوله: «وتصديق كلمته»**، إذ هي غير الجهاد في سبيله، وغير التصديق، سواء قيل: هي كلمته الدينية الشرعية، أو الكونية القدرية، فكلمته من صفاته كما تقدم، وهي غير خلقه، هذا ما أراده البخاري -رحمه الله- من الحديث، والله أعلم.

قال البخاري: قال سفيان في «تفسيره»: «إن كل شيء مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، وكلامه أعظم من خلقه؛ لأنه إنما يقول للشيء: كن، فيكون، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق، والقرآن كلام الله»[1].

❑❑❑

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٣٤) تحقيق عميرة.

قالَ: «بابٌ في المشيئةِ والإرادةِ».

أي: مشيئة الله وإرادته، وهذا مما يتعلق بربوبيته -تعالى-، وهو رب كل شيء وخالقه ومالكه، يدخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها، مثل أفعال العباد، فإنه -تعالى- خالق العبد وفعله، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- بيان ذلك.

وهو سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، ولا يمتنع عليه شيء يريده، بل هو القادر على كل شيء.

كما أنه سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد ذكر الله -تعالى- مشيئته عامة في القرآن، في ما يقرب من أربعمِئةِ موضع.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2]، وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3] وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[4].

وقوله: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[5]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6]، وقوله: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[7]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٣) الآية ١٤٩ من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٩٩ من سورة يونس.

(٥) الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٦) الآية الأخيرة من سورة التكوير.

(٧) الآية ٣٩ من سورة الأنعام.

كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾[2]، ففي هذه الآيات ونحوها الرد على طائفتي الضلال، نفاة المشيئة بالكلية، ونفاة مشيئة الله لأفعال العباد وحركاتهم، وهداهم، وضلالهم، وهذا هو مراد البخاري من هذا الباب، وسيذكر تفصيلاً لهذا الباب في الأبواب الآتية.

والله -سبحانه وتعالى- علق وجود كل شيء وعدمه بمشيئته، فمرة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وأخرى يخبر أن ما لم يشأه لم يكن، ومرة يخبر أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عصي، ولو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة.

فكل ما وجد من عين أو حركة، أو موت أو حياة، أو مصيبة، أو عز أو ذل، أو غير ذلك، فهو بمشيئته، وكل ما لم يوجد، ولم يقع، فهو لعدم مشيئته لوجوده، وهذا معنى كونه على كل شيء قدير، وهو حقيقة ربوبيته لكل شيء، ومعنى كونه القيوم بتدبير عباده، فلا خلق، ولا رزق، ولا عطاء، ولا منع، ولا قبض، ولا بسط، ولا ضلال، ولا هدى، ولا سعادة، ولا شقاء، إلا بمشيئته وتكوينه، إذ لا مالك غيره ولا رب سواه[3].

فمشيئته تعالى تتعلق بخلقه، وأمره الكوني والشرعي بما يحب وما يكره، كل شيء داخل تحت مشيئته، فقد شاء وجود إبليس والشياطين، والكفار والفساق، وهو يكره ذلك ويبغضه.

وكذلك ما يحبه ويرضاه كوجود الرسل والصِّدِّيقين، والشهداء والصالحين والطاعات، وأمثال ذلك من امتثال أمره الديني الشرعي، فهو أيضاً بمشيئته.

وأما الإرادة فقد بين الله -تعالى- أنها نوعان:

أحدهما: الإرادة الكونية القدرية، وهي مرادفة للمشيئة، وهذه الإرادة تستلزم وقوع المراد ولا بد، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوباً لله مرضياً له.

---

(١) الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٢) الآية ١٣٣ من سورة النساء.

(٣) انظر «شفاء العليل» (ص ٤٤).

بل قد يكون مكروهاً مسخوطاً له، ككفر الكافرين، ومعاصي العاصين، ووجود المفسدين.

وقد يكون مرادها محبوباً مرضياً لله تعالى، كوجود إيمان المؤمنين، وطاعات الطائعين، ووجود رسل الله وعباده المخلصين، والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[4]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على عموم إرادته لما يشاء، وأنه لا راد لمراده تعالى، ولهذا صارت هذه الإرادة مرادفة للمشيئة، فالإرادة الكونية القدرية هي المشيئة، ولهذا لا بد أن يقع مرادها.

والنوع **الثاني**: الإرادة الدينية الأمرية الشرعية، وهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾[7]، وأمثال

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٣٤ من سورة هود.

(٤) الآية ٤١ من سورة المائدة.

(٥) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٦) الآية ٦ من سورة المائدة.

(٧) الآيات ٢٦-٢٨ من سورة النساء.

ذلك من الآيات، فهذه الإرادة يحب الله مرادها، ويأمر به ويرضاه، ولا يلزم أن يقع المراد بها إلا أن يتعلق به الإرادة الكونية.

وقد أشار البخاري -رحمه الله- إلى نوعي الإرادة بالمثال، فأشار إلى الإرادة الكونية بقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ لأن الإرادة الكونية هي المشيئة العامة التي لا يخرج عنها شيء.

وأشار إلى النوع الثاني من الإرادة بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ فهذه الإرادة الدينية الأمرية، التي تتضمن الأمر والمحبة والرضا، فهذا ما دلت عليه نصوص كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- ومذهب أهل السُّنَّة، وبه تتفق الدلائل، وتنحل الإشكالات، وتفصيل ذلك أن يقال: الأشياء كلها لا تخرج عن أربعة أقسام:

«**أحدها**: ما تعلقت به الإرادتان، الكونية، والدينية، وهو ما يقع في الوجود من الأعمال الصالحة الموافقة لأمر الله وشرعه، فإن الله أرادها ديناً وشرعاً، فأمر بها، أرادها كوناً، وقدراً، فوجدت، ولولا إرادته إياها كوناً لم توجد؛ لأنه لا يوجد ما لا يريد وجوده، ولا يمتنع عليه ما يريد وجوده كما تقدم.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة، فعصى أمره فيها الكفار، والفساق، فلم يفعلوها، فتلك الأعمال تعلقت بها الإرادة الدينية فقط؛ لأنه أمر بها، وطلب فعلها، ولم يردها كوناً وقدراً، ولهذا تخلف وجودها، وإن كان يحب وجودها، ويرضاه، ولكن لا يلزم وجود ما يحب ويرضى.

ولا يقال: هذا يخالف كونه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لأنه تعالى يريد قدراً وكوناً ما لا يحب ويرضى، كوجود إبليس، وجنوده المفسدين في الأرض بالمعاصي والكفر والفسوق، وذلك لحِكَمٍ عظيمة يعلمها تعالى، ويُطلع على ما يشاء منها من يشاء من عباده.

الثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها، كالمباحات والمعاصي، فإنه لم يأمر بها، ولم يرضها ولم يحبها، إذ هو

-تعالى- لا يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا إرادته الكونية، وقدرته، وخلقه لذلك، لما كان شيء منها، فإنه -تعالى- ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابع: ما لم تتعلق به الإرادتان، فهذا ما لم يكن، ولن يكون، من الأفعال والأعيان»[١].

وبهذا البيان والتفصيل تزول الإشكالات التي يوردها أصحاب الشكوك والأهواء، الذين لم يستنيروا بنور كتاب الله -تعالى-.

قوله: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ يخبر تعالى أن الملك بيده، فيعطي ملك الدنيا من يشاء من عباده، وينزعه ممن يشاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢] فبين أن جميع التصرف في الكون ومن فيه بيده، وأنه على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣] في هذه الآية الكريمة الرد على طائفتي الضلال، القدرية، والجبرية، حيث أثبت -تعالى- للعباد مشيئة تتعلق بأفعالهم، وأخبر أن مشيئتهم وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم، فلا تحصل لهم المشيئة ولا الفعل حتى يشاء تعالى ذلك، وسيأتي تفصيل ذلك، وبيان بطلان قول القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم ويوجدونها استقلالاً دون مشيئة الله، وقول الجبرية الذين يجعلون العبد بمنزلة الآلة التي لا تصرف لها ولا خيار.

قولُهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[٤].

هذه الآية نزلت في عم النبي -ﷺ- أبي طالب، ففي «الصحيحين» عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب، جاءه رسول الله -ﷺ- فوجد

---

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٣٠ من سورة الإنسان، الآية ٢٩ من سورة التكوير.

(٤) الآية ٥٦ من سورة القصص.

عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله -ﷺ- يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب -آخر ما كلمهم-: على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾[1] الآية، وأنزل الله في أبي طالب، وقال لرسول الله -ﷺ-: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2][3].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله -ﷺ-: إنك يا محمد «لا تهدي من أحببت» أي: ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[4].

وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[5].

وهذه الآية أخص من ذلك كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، وقد ثبت في «الصحيحين» أنها نزلت في أبي طالب»[6].

□□□

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٥٦ من سورة القصص.

(٣) انظر «البخاري» (٦/ ٦٥) و«مسلم في الإيمان» (١/ ٢٤).

(٤) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة.

(٥) الآية ١٠٣ من سورة يوسف.

(٦) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥٧).

٩٠- قال: «حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا عبدُ الوارثِ، عن عبدِالعزيز، عن أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «إذا دَعَوْتُمُ اللهَ فاعْزِمُوا في الدُّعاءِ، ولا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم: إن شئتَ فَأَعْطِنِي، فإنَّ اللهَ لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ».

الدعاء عبادة للمدعو بالرغبة والرهبة، والذل والاستكانة والافتقار، ولهذا صار صرفه لغير الله شركاً أكبر، لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

والله جل وعلا هو رب الخلق وإلههم، خلقهم وتعبدهم، وجعل مصيرهم إليه، وهو يملك كل شيء، حتى أفعالهم الاختيارية لا يمكن أن تقع إلا بمشيئته.

ويملك هداية قلوبهم وإزاغتها، وهو الذي يحبب الإيمان إلى من يشاء، ويكرهه إلى من يشاء، ويكره الكفر والفسوق والعصيان إلى من يشاء، ويحببه إلى من يشاء، وبهذا يعلم شدة حاجة الإنسان إلى دعاء الله -تعالى- بصدق وإلحاح، وعزم قوي، ورغبة شديدة؛ لأنه فقير فقراً ذاتياً لا ينفك عنه لحظة واحدة إلى ربه، ولا خلاص له من العذاب السرمدي إلا إذا منّ الله عليه وتفضل بهدايته، لذلك وجب أن لا يعلق الدعاء على مشيئته -تعالى-، فهذه علة النهي، والعلة الثانية ما ذكره -ﷺ- بقوله: «فإنه لا مستكره له» فإن تعليق الدعاء بالمشيئة يشعر بأن الله -تعالى- يعطي ما لا يريد، كما يحصل لابن آدم، وهذا لا يجوز اعتقاده في الله.

والمقصود أنه يحرم تعليق الدعاء بالمشيئة لعلتين:

إحداهما: إشعار ذلك باستغناء الداعي عما يدعو، وهو خلاف الواقع، وخلاف العبودية الواجبة على العبد.

والثانية: إشعار ذلك بأن الله قد يعطي ما يكره عطاءه، فيجب على العبد أن يدعو ربه بعزم لا تردد فيه، وبرغبة وإلحاح وإظهار الافتقار والفاقة.

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في الدعاء، فإن الله صانع ما يشاء، لا مُكرِه له».

وفي رواية: «ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

قال النووي: «قال العلماء: عزم المسألة: الشدة في طلبها، والجزم من غير ضعف في الطلب، ولا تعليق على مشيئته ونحوها».

وقيل: هو حسن الظن بالله -تعالى- في الإجابة.

قال العلماء: سبب كراهته: أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه، والله -تعالى- منزه عن ذلك، وقيل: لأن في هذا صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه»[1].

وكلا المعنيين مشعر به الحديث، والظاهر منه تحريم ذلك، فالحديث ظاهر فيه، ولا صارف له عنه، والله أعلم.

❐❐❐

---

(١) «شرح النووي لمسلم» (١٧/١٧).

٩١- قال: «حدثنا أبو اليَمانِ، أخبرنا شُعَيْبٌ، عن الزُّهْرِيِّ، ح.

وحدثنا إسماعيلُ، حدثني أخي عبدُالحميدِ، عَنْ سليمانَ، عن محمدِ بن أبي عَتِيقٍ، عن ابن شِهابٍ، عن عَلِيِّ بنِ حُسَيْنٍ أن حُسَيْن بنْ عَلِي -عَلَيْهِمَا السَّلام- أخبره أنَّ عَلِيَّ بنَ أبي طالبٍ أخبرَهُ، أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- طَرَقَهُ وفاطِمَةَ بنتَ رسول اللهِ -ﷺ- ليلةً، فقالَ لهم: «ألاَ تُصَلُّونَ؟» قالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إنما أنْفُسُنا بِيَدِ اللهِ، فإذا شاءَ أنْ يَبْعَثَنا بَعَثَنا، فانصرفَ رسولُ اللهِ -ﷺ- حينَ قلتُ ذلكَ، ولم يرجِعْ إليَّ شيئاً، ثم سَمِعْتُهُ وهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، ويقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

علي بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف: ابن عم رسول الله -ﷺ-، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، كان من السابقين إلى الإسلام، وعمره لم يجاوز العشر، وكان في بيت رسول الله -ﷺ-، شهد مع رسول الله -ﷺ- سائر مشاهده مع الكفار ما عدا تبوك، خلفه ليقوم بمصالح أهله، ولما قال المنافقون: إنه استثقله لحق به، فقال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنه لا نبي بعدي».

هلك فيه طوائف من الرافضة؛ غلوّاً فيه، بين قائل بألوهيته، وقائل بأنه وصي معصوم.

قتل سنة أربعين في رمضان، رضي الله عنه وعن سائر صحابة النبي -ﷺ-[1].

«طرقه»: أتاه ليلاً، وكل آت ليلاً فهو طارق، وقد يطلق على من يأتي نهاراً، كما في قوله ﷺ: «وأعوذ بك من طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير»[2]، ولهذا قال: «طرقه وفاطمة بنت رسول الله»، وهي زوجه؛ لأنهما كانا نائمين.

«فقال لهم: ألا تصلون؟» الخطاب لعلي وفاطمة، وقد جمع الضمير العائد إليهما في قوله لهم: «ألا تصلون؟»، وهو سائغ في اللغة.

---

(١) انظر «الرياض المستطابة» (١٦٣)، «أسد الغابة» (٤/ ٩١)، «الإصابة» (٢/ ١٠٥)، «تاريخ بغداد» (١/ ١٣٣)، «تاريخ الخلفاء» (١٦٦)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٠)، «طبقات ابن سعد» (٣/ ١١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٤٤).

«ألا تصلون» عرض عليهما، يدل على أن الأمر غير واجب، وإنما هو التماس يدل على الاستحباب.

«فقلت: يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا» إلى آخره.

هذا هو محل الشاهد من الحديث، وأراد بيان أنه لا يجوز معارضة الأمر الشرعي بالقدر، كما صنع سلف القدرية المشركون في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾[1].

ففي هذا الحديث بيان أنه لا ينبغي معارضة الأمر بالقدر، فإن قوله: «إنما نفوسنا بيد الله» إلى آخره، استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر، وهذا القول في نفسه حق، ولكن لا يصلح لمعارضة الأمر، بل معارضة الأمر بهذا من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2].

ولهذا انصرف عنه النبي -ﷺ- كارهاً لمقالته، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وضربه فخذه يدل على كراهته لذلك أيضاً، وتعجبه من علي كيف يعارض قوله له: «ألا تصلون؟» بتلك المقالة.

ومعلوم أن كل شيء بمشيئة الله، فلو أن كل من أمر بأمر قال: إذا شاء الله فعلته، وإذا شاء لم أفعله، لتعطلت الأوامر كلها، وساد هوى النفوس، قال الحافظ: «فيه أن الإنسان طبع على الدفاع عن نفسه بالقول والفعل، وأنه ينبغي له أن يجاهد نفسه لقبول النصيحة ولو كان في غير واجب»[3].

□□□

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

(٢) انظر «مجموع الفتاوى» (٨/ ٢٤٤).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٣١٤).

٩٢- قال: «حدثنا محمدُ بنُ سِنان، حدثنا فُلَيْحٌ، حدثنا هِلالُ بنُ عَلِيٍّ، عن عَطاءِ بنِ يَسار، عن أبي هريرة -رضيَ اللهُ عنه- أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمثلِ خامَةِ الزَّرْعِ يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حيثُ أَتَتْها الرِّيحُ تُكَفِّئُها، فإذا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وكَذَلِكَ المُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالبَلاءِ، ومَثَلُ الكافِرِ، كَمَثَلِ الأَرْزَةِ، صَمّاءَ معتدلةً حتى يَقْصِمَها اللهُ إذا شاءَ».

قال في «المصباح»: «الخامة الغضة من النبات، والجمع خام، وخامات، والخام من الثياب: الذي لم يقصر، وثوب خام، أي: غير مقصور»[١].

وقال الحافظ: «هي الطاقة الطرية اللينة، أو الغضة، أو القضبة، قال الخليل: «خامة الزرع: أول ما ينبت على ساق واحد»[٢].

قلت: قول الخليل هو الصواب، فالزرع في أول أمره يكون على ساق واحد، ويكون ليناً طيعاً للريح ينثني معها حيث أتت، ولا تؤثر على صحته واعتداله، فإذا سكنت رجع على ساقه قائماً كأن لم يصبه شيء، بل ربما ازداد قوة ونضارة، وهذا هو المقصود من المثل، فإن المؤمن تأتيه المصائب من نواحٍ شتى، ففي كل مرة يقال: هذه تهلكه، ثم تنجلي ويعود إلى صحة إيمانه قوياً سليماً، كأن لم يصب بأذى.

قال البكري: الخامة الغضة من الزرع: أول ما تستقل على ساق، وألفه منقلبة عن ياء، قال أبو عبيد: هي الغضة الرطبة، وأنشد:

إنما نحن مثل خامة زرع فمتى يأن يأت محتصده[٣]

ومعنى «**يفيء**»: يميل مع الريح ثم يرجع إلى اعتداله.

ومعنى «تكفئها»: تميل بشدة.

قوله: «**ومثل الكافر، كمثل الأرزة صماء معتدلة**» إلى آخره، في رواية: «ومثل المنافق»، وفي أخرى: «الفاجر» والمثل يصدق على الكافر والمنافق، والفاجر هو الكافر، وكلهم أريد بالمثل.

---

(١) «المصباح» (١/ ٢٥١).

(٢) «الفتح» (١٠/ ١٠٦).

(٣) «فصل المقال» (ص٧، ٨).

والأرزة هي شجرة الصنوبر، وهو شجر قوي معتدل، ولا بد له من نهاية، فإذا شاء الله قصمه، وأهلكه، فإذا انثنى انكسر فلا يعود إلى اعتداله كخامة الزرع.

وكذلك الكافر والمنافق غالب حاله أنه معافى من المصائب، كالمرض وغيره من مصائب المال والولد؛ لأنه يعطى نصيبه من السعادة في الدنيا، ثم يوافى الآخرة مفلساً صفر اليدين، فتكون حسرته أشد، وهلاكه أنكى وأعظم، وقد يصاب أيضاً في الدنيا.

أما المؤمن: فمن رحمة الله -تعالى- به أن قدر عليه المصائب في الدنيا، حتى يكتسب بذلك الثواب، أو يكفر عنه به من ذنوبه، ليسلم له جزاء عمله في الآخرة.

قال البكري: «الأرزة: شجرة معروفة، وهي من أصلب الخشب، قال أبو عبيد: وأهل العراق يسمونها الصنوبر، وإنما الصنوبر: ثمر الأرز.

ومعنى الحديث -والله أعلم-: أنه شبه المؤمن بالخامة التي تميلها الريح؛ لأنه مرزَّء في نفسه، وأهله، وماله، وولده. وأما الكافر، فمثل الأرزة التي لا تميلها الريح، والكافر لا يرزَّء شيئاً حتى يموت، وإن رزئ لم يؤجر عليه، فشبه موته بانجعاف تلك [الشجرة] حتى يلقى الله بذنوبه كملاً، والانجعاف: السقوط والانقلاب»[1].

والشاهد قوله: «حتى يقصمها الله إذا شاء» فكل شيء ينتهي إلى مشيئة الله -تعالى-، فلا يحدث حدث صغير أو كبير إلا إذا شاء الله، كما تقدم أن مشيئة الله عامة لكل شيء، وهو معنى أنه على كل شيء قدير.

□□□

(١) «فصل المقال» (ص٨).

٩٣- قال: «حدثنا الحَكَمُ بنُ نافعٍ، أخبرنا شُعَيْبٌ، عن الزُّهْرِيِّ، أخبرني سالمُ ابنُ عبدِاللهِ، أنَّ عبدَاللهِ بنَ عُمَرَ -رضيَ اللهُ عنهما- قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- وهُوَ قائِمٌ على المِنْبَرِ، يقولُ: «إنّما بَقَاؤُكُمْ فِيما سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ كما بَيْنَ صلاةِ العصرِ إلى غروبِ الشمس، أُعْطِي أَهْلُ التوراةِ التوراةَ، فَعَمِلُوا بها حتى انتصفَ النهارُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيراطاً قِيراطاً، ثُمَّ أُعْطِي أَهْلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فَعَمِلُوا حتى صلاةِ العصرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيراطاً قِيراطاً، ثُمَّ أُعْطِيتُمُ القرآنَ، فَعَمِلْتُم به حتى غُرُوبَ الشَّمْس، فأُعْطِيتُمْ قِيراطَيْنِ قِيراطَيْن، قالَ أهلُ التوراةِ: رَبَّنا، هؤلاءِ أَقَلُّ عَمَلاً وَأَكْثَرُ أجراً؟ قال: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قالُوا: لا، فقالَ: فذلكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أشاءُ».

قوله: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس» أي: أن نسبة مدة هذه الأمة إلى مدة من تقدم من الأمم، كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إلى بقية النهار، و«في» في قوله «فيما قبلكم» بمعنى إلى.

قوله: «أعطي أهل التوراة، التوراة» إلى آخره، شرح وبيان لما تقدم من تقدير مدة بقاء هذه الأمة بالنسبة لبقاء الأمم قبلها.

قوله: «قيراطاً قيراطاً» كرره ليدل على تقسيم القراريط على العمال؛ لأن العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته، فيقولون: أقسم هذا المال على بني فلان درهماً درهماً، أي: لكل واحد درهم[١].

قوله: «ثم عجزوا» لا يلزم ما نقله الحافظ عن الداودي من الإشكال في أنه إذا كان المراد من مات مسلماً فلا يوصف بالعجز، وإن أريد من مات بعد التبديل والتغيير، فهو كافر لا يعطى أجراً. وهذا غير لازم ولا مراد، ولا داعي لتكلف الجواب عليه؛ لأن المقصود ضرب المثل لهذه الأمة مع أهل الكتاب مجموع هؤلاء مع أولئك، ولا يقصد كل فرد بعينه، وهذا واضح.

قال ابن العربي: «المثل بفتح الميم والثاء: عبارة عن تشابه المعاني المعقولة.

---

(١) «الفتح» (٢/ ٣٩).

والمثل بكسر الميم وإسكان الثاء: عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة ويدخل أحدهما على الآخر»[1].

والقيراط: النصيب المقدر، وهو في الأصل: نصف دانق، والدانق: سدس درهم، وقد يقصد بالقيراط: الشيء الكثير، كما في الحديث «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»[2].

قوله: **«ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس»** مثل انتهاء الدنيا باليوم الكامل، فجعل لليهود من أول النهار إلى صلاة الظهر، وللنصارى من صلاة الظهر إلى العصر، ولهذه الأمة من صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو نهاية الدنيا، فكان نصيب هذه الأمة من الزمن أقل، ونصيبهم من الأجر أكثر وأوفر، وعندما اعترض أصحاب العمل الأكثر على ذلك قال لهم: «هل ظلمتكم من عملكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء».

وهذا هو المقصود من الحديث، أن مشيئة الله نافذة، لا يحكمها عرف أو نظر أو غير ذلك، بل ما شاء فِعْلَهُ فَعَلَهُ، وما لم يشأ لا يقع.

وبهذا وأمثاله كثير يتبين ضلال المعتزلة، ومن سلك طريقهم، الذين يحكمون على الله بعقولهم القاصرة، بأنه يجب أن يفعل كذا، ويمتنع أن يفعل كذا، كقولهم: يجب أن يعذب العاصي، ويثيب المطيع، بحكم العقل قياساً منهم على المخلوق، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

□□□

---

(١) «طرح التثريب» (٨/ ٢٢١).

(٢) رواه البخاري (رقم ١٣٢٥) ومسلم (٢/ ٦٥٢) رقم(٩٤٥)، والترمذي (٢/ ٣٥٨) رقم (١٠٤٠).

٩٤- قال: «حدثنا عبدُاللهِ المُسْنَدِيُّ، حدثنا هِشامٌ، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، عن أبي إدْرِيسَ، عَنْ عُبادَةَ بن الصّامِتِ، قال: بَايَعْتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- في رَهْطٍ، فقالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أنْ لاَ تُشْرِكُوا باللهِ شَيْئاً، وَلاَ تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلُوا أوْلادَكُمْ، ولا تأتُوا بِبُهْتان تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أيْدِيكُمْ وأرْجُلِكُمْ، ولا تَعْصُونِي في مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنكُم فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أصابَ مِنْ ذلكَ شيئاً، فَأُخِذَ بِهِ في الدُّنيا فَهُوَ كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ فذلكَ إلى اللهِ، إنْ شاءَ عَذَّبَهُ، وإنْ شاءَ غَفَرَ لَهُ».

عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم، الأنصاري، الخزرجي: أحد النقباء، من أعيان البدريين، وسادة الصحابة وكبارهم، شهد مع رسول الله -ﷺ- غزواته كلها، وكان من حفظة كتاب الله -تعالى-، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، رضي الله عنه وعن جميع صحابة رسول الله -ﷺ-[(١)].

المبايعة: عبارة عن المعاهدة على فعل شيء أو تركه، سميت بذلك تشبيهاً بالمعاوضة المالية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[(٢)].

بدأ بما هو أعظم المحرمات، وهو الشرك بالله بأن يجعل ما هو لله من العبادة لغيره، أو شيئاً منها، ولكونه أعظم المحرمات حرمت الجنة على المشرك، كما قال تعالى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[(٣)] ومنع صاحبه المغفرة إلا إذا تاب منه، لهذا وجب على العبد أن يهتم بمعرفته حتى لا يقع فيه وهو لا يشعر، كما هو حال كثير من الناس.

وقوله: «شيئاً» نكرة في سياق النهي، فيعم جميع أنواع الشرك، كبيره وصغيره، فعلاً كان أو قولاً.

والسرقة: هي أخذ مال غيره المحرز، على وجه الخفية، والخيانة فيه، وهي من الجرائم الكبيرة، فقد نفي الإيمان عن السارق.

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥)، «الاستيعاب» (٢/ ٨٠٧)، «أسد الغابة» (٣/ ١٦)، «تهذيب التهذيب» (٥/ ١١١)، «الإصابة» (٥/ ٣٢٢).

(٢) «الفتح» (١/ ١٦).

(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة.

وأما **الزنا**: فهي أيضاً جريمة شنيعة موجبة لسخط الله -تعالى- ومقته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ﴾[1].

وقوله: «**ولا تقتلوا أولادكم**» خص قتل الأولاد؛ لأنه أشنع قتل، وأعظمه ذنباً، ولأن بعض العرب كان يستسيغه، خوفاً من العار، أو الفقر؛ ولأن الأولاد ليس لهم من يدافع عنهم إذا كان والدهم هو الذي يقتلهم.

والمقصود جميع أنواع القتل بغير حق، فإنه من أكبر الكبائر، وفاعله متوعد بالخلود في النار، ولعنة الله وغضبه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2].

وقوله: «**ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم**» البهتان: الكذب الذي يبهت سامعه؛ لأنه خلاف الواقع.

قال الحافظ: «وخص الأيدي والأرجل بالافتراء؛ لأن معظم الأفعال تقع بهما، إذ هي العوامل والحوامل للمباشرة والسعي، ولذلك يسمون الصنائع: الأيادي.

وقد يعاقب الرجل بجناية قولية، فيقال: هذا بما كسبت يداك، ويحتمل أن يكون المراد: لا تبهتوا الناس كفاحاً، وبعضكم يشاهد بعضاً»[3] والأول أولى.

قوله: «**ولا تعصوني في معروف**» المعروف: ما عرف حسنه. وما جاء به الرسول وأمر به فهو معروف، وحسن، والشرع لا يأتي مخالفاً للعقل والفطرة.

والرسول -ﷺ- لا يأمر إلا بالمعروف.

قال النووي: «يحتمل أن يكون المعنى: ولا تعصوني، ولا أحداً وليَ الأمر عليكم في المعروف، فيكون التقيد بالمعروف متعلقاً بشيء بعده.

وقال غيره: نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان غير معصية لله»[4] ودخل في قوله: «**ولا تعصوني في معروف**»: فعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ﷺ.

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٩٣ من سورة النساء.

(٣) «الفتح» (١/ ٦٥). (٤) الفتح (١/ ٦٥).

قوله: «**فمن وَفَّى منكم**» أي: ثبت على العهد الذي أخذ عليه، ووفى به، دون وقوع في مخالفة «وفى» بالتخفيف، وفي رواية بالتشديد، وكلاهما بمعنى واحد.

وقوله: «**فأجره على الله**» أطلق الأجر، ولم يعيّنه؛ لتفخيمه، وجاء في رواية تعيينه بالجنة، وهي الغاية التي يتسابق إليها العاملون.

قوله: «**ومن أصاب من ذلك شيئاً فأُخذ به في الدنيا، فهو كفارة له وطهور**» يعني: إذا وقع في معصية مما ذكر أنه لا يفعله، ثم أقيم عليه الحد في الدنيا، فإن إقامة الحد عليه تكون كفارة له، وطهوراً يطهره، وهذا كما قال النووي مخصوص بالشرك، فإنه لا كفارة له إلا بالتوبة منه.

قال النووي: «فيه تحريم هذه المذكورات، وما في معناها، وفيه الدلالة لمذهب أهل الحق أن المعاصي غير الكفر، ولا يقطع لصاحبها بالنار، إذا مات ولم يتب منها، بل هو بمشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، خلافاً للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يكفرون بالمعاصي، والمعتزلة يقولون: لا يكفر، ولكن يخلد في النار، وفيه أن إقامة الحد تكفر»[1].

قوله: «**ومن ستره الله، فذلك إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**».

هذا هو محل الشاهد من الحديث، وهو أن الله يفعل ما يشاء، لا يحكمه شيء، ولا يمنعه عما يريد شيء، وهو حكيم عليم، فمن أصاب معصية مما ذكر أو غيره فاستتر، ولم يؤخذ بها في الدنيا ثم مات بدون توبة، فإن أمره إلى الله إن شاء أن يعذبه عذبه، وإن شاء أن يعفو عنه عفا عنه.

وقد تقدم التنبيه أن هذا فيه رد لمذهب المعتزلة، مشبهة الأفعال، نفاة الصفات، الذين يحكمون على الله بمثل ما يحكمون به على الناس، تعالى الله عن قولهم، وفيه الرد على إخوانهم في الضلالة، الخوارج، الذين يكفرون المؤمنين بالمعاصي.

□□□

(١) «شرح مسلم» (١١/ ٢٢٣-٢٢٤).

٩٥- قال: «حدثنا مُعَلَّى بنُ أَسَدٍ، حدثنا وُهَيْبٌ، عن أَيُّوبَ، عن محمدٍ، عن أبي هريرةَ: أنَّ نَبِيَّ اللهِ سليمانَ -عليه السلامُ- كانَ لَهُ سِتُّونَ امرأةً، فقالَ: لأَطُوفَنَّ الليلةَ على نِسائِي فَلَتَحْمِلَنَّ كُلُّ امرأةٍ، ولَتَلِدَنَّ فارساً يُقاتِلُ في سبيلِ اللهِ، فطافَ على نِسائِهِ، فما وَلَدَتْ مِنْهُنَّ إلا امرأةٌ، وَلَدَتْ شِقَّ غُلامٍ. قال نَبِيُّ اللهِ -ﷺ-: «لو كانَ سليمانُ اسْتَثْنَى لَحَمَلَتْ كُلُّ امرأةٍ مِنْهُنَّ، فَوَلَدَتْ فارساً يُقاتِلُ في سبيل الله».

قال في الجهاد: «باب من طلب الولد للجهاد»، ثم ذكر هذا الحديث، يعني: أن الذي ينوي عند جماع زوجته حصول الولد؛ لأجل أن يجاهد في سبيل الله يحصل له بذلك أجر نيته، وإن لم يولد له، أو ولد له ولم يجاهد.

قوله: «**كان له ستون امرأة**»، جاء في رواية: سبعون، وفي أخرى: تسعون، وفي أخرى: تسع وتسعون، وفي أخرى مائة، وكلها صحيحة.

قال الحافظ: «يجمع بينها بأن له ستين حرائر، والزائد سراري، أو بالعكس، وأما السبعون فللمبالغة، وأما التسعون، والمائة، فما كان دون المائة وفوق التسعين، فمن قال: تسعون، ألغى الكسر، ومن قال: مائة، جبره»[١].

قوله: «**لأطوفن الليلة على نسائي**» يقصد وطأهن، وقد استدل «المصنف» به على جواز مثل هذا الكلام أمام الناس.

وفيه: ما أُعطي سليمان عليه السلام من القوة.

قوله: «**فلتحملن كل امرأة، ولتلدن فارساً يقاتل في سبيل الله**» قال هذا على سبيل التمني للخير، وإنما جزم به؛ لأنه غلب عليه الرجاء؛ لكونه قصد الخير وأمر الآخرة، لا عرض الدنيا.

قال بعض السلف: «نبه -ﷺ- في هذا الحديث على آفة التمني والإعراض عن التفويض، ولذلك نُسِّي الاستثناء ليمضي فيه القدر»[٢].

قلت: جاء في رواية ذكرها البخاري في الجهاد والأنبياء، أن سليمان عليه السلام لما قال ذلك قال له صاحبه: قل: إن شاء الله، وفي أخرى: قال له الملك، فلم

---

(١) «الفتح» (٦/ ٤٦٠).

(٢) المصدر المذكور (ص٤٦١).

يقل: إن شاء الله، وهذا يدل على أنه لم ينس، وأنه جزم بذلك لحسن قصده، وقيام السبب، فجوزي بعدم حصول المراد، وهذه الرواية أظهر في المقصود بهذا الباب. وجاء في رواية أخرى: ونسي أن يقول: إن شاء الله، فيحمل على أن معنى النسيان: تركه مع علمه، غير قاصد خروج ذلك عن مشيئة الله -تعالى-.

قوله: «**فما ولدت منهن إلا امرأة ولدت شق غلام**» الشق: النصف، أي: أنها جاءت بغلام ناقص، لا يستطيع أن يعمل شيئاً. وهذا يدل على أنه ليس لأحد مهما ملك من الأسباب أن يخرج عن مشيئة الله -تعالى-، سواء كان نبياً، أو ملكاً، أو غير ذلك، فمشيئة الله هي النافذة في كل شيء، ومشيئة الخلق مقيدة لها، لا يعملون شيئاً، ولا يتم لهم، إلا بعد أن يشاءه الله -تعالى-.

قوله: «**لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهن، فولدت فارساً يقاتل في سبيل الله**».

في رواية: لو قال: «إن شاء الله» فهذا هو الاستثناء المراد هنا.

وفي هذا قدرة الله -تعالى- على تغيير الواقع إلى ضده، وما علم تعالى أنه لا يكون، وما يمتنع صدوره عنه، فلعدم إرادته، لا لعدم قدرته عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1]، وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[2] ونحو ذلك مما يبين فيه أنه -تعالى- لو شاء أن يفعل أموراً لم تكن، بل كان خلافها، لفعل، فدل ذلك على أنه قادر على ما علم أنه لا يكون.

وإذا قيل: هذا ممتنع، قيل: امتناعه لعدم مشيئة الرب تعالى له، لا لكونه ممتنعاً في نفسه، ولا لكون الله تعالى غير قادر عليه. ووجه الاستدلال بالحديث ظاهر.

❑❑❑

---

(١) الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٢) الآية ١١٨ من سورة هود.

٩٦- قال: «حدثنا محمدٌ، حدثنا عبدُالوهابِ الثَّقَفِيُّ، حدثنا خالدٌ الحَذّاءُ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابنِ عباسٍ -رضي الله عنهما- أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- دَخَلَ على أعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، فقالَ: «لا بأس عليك، طهور إن شاء الله» قال: قال الأعرابي: طهور؟! بل هي حمى تَفُورُ، على شيخٍ كبيرٍ، تُزِيرُهُ القبورَ، قال النبيُّ -ﷺ-: «فَنَعَمْ إذاً».

كان رسول الله -ﷺ- يعود المريض، ويتفقد أحوال المؤمنين، وهذا الأعرابي يجوز أنه مهاجر إلى المدينة فمرض، أو أنه جاء لحاجة.

والأعرابي: ساكن البراري، وأما العربي فهو أعم منه؛ لأنه من ينتسب إلى العرب، أو من يتكلم العربية.

قوله: «لا بأس عليك، طهور إن شاء الله» أي: أن المرض يزول، ويكون ذلك مكفراً لخطاياك، أو: أنه لا بأس عليك في مستقبلك؛ لأن المرض يطهرك من ذنوبك، فإن حصلت العافية اكتسب فائدتين، وإلا حصل له التكفير، وهذا دعاء خرج مخرج الخبر، ولهذا علقه بالمشيئة؛ لأنه أمر مستقبل، وكل ما يأتي يقيد بمشيئة الله -تعالى-، أما ما وقع فقد علم أن الله شاءه.

وقول الأعرابي: «طهور؟!»، كأنه رد لقول رسول الله -ﷺ- واستبعاد له، ولهذا قال: «**بل هي حمى تفور**» أي: تغلي في جسمه «**على شيخ كبير**» والشيخ الكبير يكون ضعيفاً لا يتحمل ما يتحمله الشاب القوي «تزيره القبور» أي: يموت منها ويذهب به إلى المقبرة.

فلما رد ما قاله رسول الله -ﷺ- ولم يقبله، واختار ما ذكره هو، قال النبي -ﷺ- «فنعم إذاً» أي: إذا لم تقبل ما قلت لك، فالأمر كما تقول أنت.

قال الحافظ: «روى الطبراني أن الأعرابي أصبح ميتاً، وأن النبي -ﷺ- قال: «أما إذ أبيت فهي كما تقول، قضاء الله كائن» فما أمسى من الغد إلا ميتاً»[1].

والمقصود من الحديث قوله: «**لا بأس عليك، طهور إن شاء الله**» وقد جاءت النصوص بأن المصائب كفارات للذنوب، كما جاء ترتيب الجزاء على أعمال

---

(١) «الفتح» (٦/ ٦٢٥).

معينة، فكل ذلك يكون مقيداً بمشيئة الله تعالى، فعلى العبد أن يضرع إلى الله تعالى بذل وافتقار، ويسأله من فضله أن يهديه لما يرضيه.

والأمور كلها بيده -تعالى- يتصرف فيها كيف يشاء، والخلق عبيده، وفقراء إليه، ولا يظلم ربك أحداً.

❏❏❏

٩٧- قال: «حدثنا ابنُ سَلاَمٍ، أخبرنا هُشَيْمٌ، عن حُصَيْنٍ، عن عبدِاللهِ بنِ أبي قَتادَةَ، عن أبيهِ، حينَ ناموا عن الصلاةِ، قالَ النبيُّ -ﷺ-: «إنَّ اللهَ قَبَضَ أَرْواحَكُمْ حينَ شاءَ، وَرَدَّها حينَ شاءَ» فَقَضَوْا حَوائِجَهُمْ، وتَوضَّؤوا إلى أنْ طَلَعَتِ الشمسُ وابْيَضَّتْ، فقامَ فَصَلَّى».

هذا الحديث مختصر، وقد ذكره في مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت، وقد اختلف في أي مسير كان ذلك.

قال الحافظ: «جزم بعض الشراح بأنه في رجوعه من خيبر، معتمداً على ما وقع عند مسلم، وفيه نظر؛ لما بينته في باب الصعيد الطيب»[١].

وقال في باب الصعيد الطيب: اختلف في تعيين هذا السفر، ففي مسلم أنه وقع في رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة.

وفي أبي داود: «أقبل النبي -ﷺ- من الحديبية ليلاً، فنزل، فقال: «من يكلؤنا؟ فقال بلال: أنا» الحديث[٢].

وفي «الموطأ» عن زيد بن أسلم مرسلاً: «عَرَّسَ رسول الله -ﷺ- ليلة بطريق مكة، ووكل بلالاً» الحديث[٣].

وفي «مصنف» عبدالرزاق مرسلاً: أن ذلك بطريق تبوك، وفي «الدلائل» للبيهقي نحوه[٤]، وذكر أشياء غير ذلك، ومال إلى تعدد القصة كعادته في مثل هذا.

ولم أجد في «مصنف عبدالرزاق» تعيين السفر، فإنه قال: «أخبرني عطاء أن النبي -ﷺ- بينا هو في بعض أسفاره» فذكره[٥]. وكذلك ما في «الدلائل» ليس فيه ذكر تبوك، وإنما ذكر ما في «الموطأ»، وسنن أبي داود، ومسلم، والصحيح أن ذلك في مرجعه من خيبر، كما قال عبدالرزاق: عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب،

---

(١) «الفتح» (٢/ ٦٧).

(٢) «السنن» (١/ ٣١٠).

(٣) «الموطأ» (١/ ١٤).

(٤) «الفتح» (١/ ٤٨٨).

(٥) انظر «المصنف» (١/ ٥٨٨).

قال: «لما قفل رسول الله -ﷺ- من خيبر، أسرى ليله، حتى إذا كان آخر الليل عدل عن الطريق، ثم عَرَّسَ، وقال: من يحفظ علينا الصلاة؟ فقال بلال: أنا» وذكر الحديث[1] وهذا مرسل.

ورواه أبو داود موصولاً، عن سعيد، عن أبي هريرة[2].

ورواه مسلم في «صحيحه» مطولاً[3].

قوله: «وإن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء» أي: أن الله -تعالى- له ملك كل شيء، فروح الإنسان التي بها حياته وتصرفه، هي بيد الله، إذا شاء قَبَضَها من بدنها، وأصبح الإنسان ميتاً لا يستطيع أي عمل، وإذا شاء رَدَّها إلى بدنها فاستطاع العمل والتصرف، وكذلك الإنسان لا يستطيع أن ينام متى شاء، ويستيقظ متى شاء، إلا بمشيئة الله -تعالى-، قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

قوله: «فقضوا حوائجهم، وتوضؤوا إلى أن طلعت الشمس وابيضت فقام فصلى» يعني: أنهم حين استيقظوا مع طلوع الشمس لم يستعجلوا بأداء الصلاة، بل قضوا حوائجهم مما يحتاجه عادة من يقوم من النوم من بول ونحوه، وتوضؤوا ثم انتظروا حتى ابيضت الشمس، ومعنى ابيضاضها ارتفاعها عن الأفق، ثم قام وصلى بهم، فهذا وقت صلاتهم، لأن النائم وقت صلاته إذا استيقظ، وكذلك الناسي، والله أعلم.

□□□

---

(١) «المصنف» (١/ ٥٨٧).

(٢) انظر «السنن» (١/ ٣٠٢).

(٣) انظر مسلم (١/ ٤٧١) رقم(٦٨٠).

(٤) الآية ٤٢ من سورة الزمر.

٩٨- قال «حدثنا يَحْيَى بنُ قَزَعَةَ، حدثنا إبراهيمُ، عن ابنِ شهابٍ، عن أبي سَلَمَةَ والأَعْرَجِ.

وحدثنا إسماعيلُ، حدثني أخي، عن سليمانَ، عن محمدِ بنِ أبي عَتِيقٍ، عن ابنِ شهابٍ، عن أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ، وسعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، أنَّ أبا هريرةَ قالَ: «اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ المسلمينَ، وَرَجُلٌ مِنَ اليهودِ، فقالَ المسلمُ: والذي اصْطَفَى محمداً على العالمينَ، في قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فقالَ اليهوديُّ: والذي اصْطَفَى مُوسَى على العالمينَ، فَرَفَعَ المسلمُ يَدَهُ عِنْدَ ذلكَ فَلَطَمَ اليهوديَّ، فذهبَ اليهوديُّ إلى رسولِ اللهِ -ﷺ- فَأَخْبَرَهُ بالذي كانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ المسلمِ، فقالَ النبيُّ -ﷺ-: «لا تُخَيِّرُوني على مُوسَى، فإنَّ الناسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القيامةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فإذا مُوسَى باطِشٌ بِجانِبِ العَرْشِ، فلا أَدْرِي: أَكانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفاقَ قَبْلِي، أَوْ كانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ».

قال الحافظ: «المسلم هو أبو بكر الصديق، جاء مصرحاً به فيما أخرجه سفيان ابن عيينة في «جامعه»، وابن أبي الدنيا في «كتاب البعث» من طريقه، عن عمرو بن دينار، قال: هو أبو بكر الصديق»[(١)].

ولكن يعارض ذلك ما في الأنبياء في هذا الحديث: «قال اليهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه»[(٢)].

قوله: «**أستب**» استب: افتعل، من السب، أي: كل واحد منهما سب الآخر، وهو الشتم وذكر العيوب والمثالب، أو الدعاء عليه.

وسبب ذلك قول اليهودي حينما كان يعرض سلعته، فأُعطي فيها ما لا يرضى، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فغضب المسلم ولطمه؛ لأنه فهم من كلامه تفضيل موسى على نبينا محمد -ﷺ-؛ لأنه متقرر عند المسلمين أن محمداً أفضل البشر على الإطلاق.

---

(١) انظر «الفتح» (٦/ ٤٥٠).

(٢) انظر المصدر نفسه.

وجاء في رواية أبي سعيد: أن المسلم لما دعاه النبي -ﷺ- وقال له: «أضربته؟» قال: سمعته بالسوق يحلف: والذي اصطفى موسى على البشر، قلت: أي خبيث، على محمد -ﷺ-؟ فأخذتني غضبة، ضربت وجهه»(١).

وفهم المسلم أن اليهودي بحلفه ذلك يتنقص محمداً -ﷺ- فلهذا غضب، ولطمه، ولما ذكر قول اليهودي للنبي -ﷺ- لم يعاقبه، بل نهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض، في مثل هذا المقام الذي يكون فيه الغضب والسب؛ لأن ذلك مدعاة إلى هضم حق بعضهم، أو التنقص لهم، أو الافتخار، وذلك من الكفر.

وأما ذكر الواقع للعلم به، واعتقاده، فلا يدخل في النهي، وقد قال الله -تعالى-: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾(٣).

وصح عن النبي -ﷺ- أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»(٤).

قال البيهقي عن الخطابي: معنى النهي عن التخيير بين الأنبياء: ترك التخيير بينهم على وجه الإزراء ببعضهم، فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم، والإخلال بالواجب من حقوقهم والإيمان بهم.

وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم، فإن الله -عز وجل- قد أخبر أنه فاضل بينهم، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾.

وقوله: «أنا سيد ولد آدم» إنما هو إخبار عما أكرمه الله به من الفضل، والسؤدد، وتحدث بنعمة الله -تعالى- عليه، وإعلام لأمته بعلو مكانه عند ربه؛ ليكون إيمانهم بنبوته واعتقادهم لطاعته على حسب ذلك، وبيان هذا لأمته من اللازم له، والمفروض عليه»(٥).

---

(١) «الفتح» (٥/ ٧٠).

(٢) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٥٥ من سورة الإسراء.

(٤) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢) رقم(٢٢٧٨).

(٥) «دلائل النبوة» (٥/ ٤٩٥-٤٩٦).

قوله: «**لا تخيروني على موسى**» أي: لا تقولوا: أنا خير من موسى، وجاء النهي عن التخيير بين الأنبياء عامة، وهذا خاص بموسى؛ لأن المقام يقتضي ذلك لأجل ما وقع بين اليهودي والمسلم، وسبق وجه النهي. ثم ذكر ما يقتضي تفضيل موسى في كونه يجده باطشاً بجانب العرش، فيكون قد أفاق قبله أو لم يصبه الصعق، كما سبق بيانه. والمقصود هنا قوله: «**أو كان ممن استثنى الله**» أي: في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾[1]، ففي هذه الآية أن الخلق لا ينجو أحد منهم من صعق نفخة الصور، إلا من يشاء الله، فدل على أن مشيئة الله عامة شاملة لكل شيء، فلا يخرج عنها ما يعم الخلق كنفخ الصور، ولا ما يخص بعضهم، ومن أجل ذلك -والله أعلم- جاء قوله في أهل الجنة وأهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾[2] فما شاء الله كان كما يشاء، وما لم يشأ لم يكن.

واختلف في الذين استثناهم الله -تعالى- من صعقة الصور.

قال ابن جرير: «قال بعضهم: عنى به جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت»، ثم روى ذلك عن السدي، وروى فيه حديثاً مرفوعاً بسند فيه يزيد الرقاشي، وهو ضعيف، عن أنس أن رسول الله -ﷺ- قرأ هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، فقيل له: من هؤلاء الذين استثنى الله يا رسول الله؟ قال: جبريل وميكائيل وملك الموت» وذكره بطوله، ثم قال:

«وقال آخرون: عنى بذلك: الشهداء»، وروى ذلك عن سعيد بن جبير، واختار أن المستثنى من الفزع: الشهداء، ومن الصعق: جبريل وملك الموت، وحملة العرش، واستدل لذلك بحديث الصور، وهو ضعيف، وبأن الصعق في هذا الموضع: الموت، والشهداء قد ماتوا، فلا يذوقون الموت مرة أخرى، وذكر أن بعض السلف توقف فيه»[3].

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الزمر.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة هود.

(٣) انظر «تفسير ابن جرير» (٢٤/ ٢٩-٣٠).

وقال ابن كثير: «قال أبو يعلى: حدثنا يحيى بن معين، حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن عمر بن محمد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه عن أبي هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: سألت جبريل عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم الشهداء، مقلدون أسيافهم حول عرشه، تتلقاهم الملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت، نمارها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون في الجنة، يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا إلى ربنا -عز وجل- لننظر كيف يقضي بين خلقه، يضحك إليهم إلهي، وإذا ضحك إلى عبد في موطن، فلا حساب عليه» قال ابن كثير: «رجاله كلهم ثقات إلا شيخ إسماعيل بن عياش فهو غير معروف»[1].

❑❑❑

(١) انظر تفسير ابن كثير (١٠٨/٧).

٩٩- قال: «حدثنا إسحاقُ بنُ أبي عِيسَى، أخبرنا يَزيدُ بنُ هارُونَ، أخبرنا شُعْبَةُ، عن قَتَادَةَ، عن أنسٍ بن مالكٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «المدينةُ يَأْتِيها الدَّجَّالُ فَيَجِدُ الملائكةَ يَحْرُسُونَها، فلا يَقْرَبُها الدَّجَّالُ، ولا الطّاعُونُ، إنْ شاءَ اللهُ».

تقدم وجه تسمية الدجال.

قال الحافظ: «ومما يحتاج إليه في أمر الدجال: أصله، وهل هو ابن صياد، أو غيره؟ وإذا كان غيره: فهل كان موجوداً في عهد النبي -ﷺ- أو لا؟ وما الذي يدعيه؟ وما الذي يظهر عند خروجه؟ ومتى يخرج؟ وما سبب خروجه؟ ومن أين يخرج؟ وما صفته؟ وما هي الخوارق التي تظهر على يديه، حتى يكثر أتباعه؟ ومتى يهلك؟ ومن يقتله؟»[1].

وقد تبين أنه ليس ابن صياد؛ لأن ابن صياد قد مات في المدينة، وقد دخل مكة وولد له، والدجال لا يولد له، ولا يدخل مكة ولا المدينة، ويقتله عيسى ابن مريم عليه السلام، ويكون رئيساً لليهود، وله خوارق عظيمة، وفتنة هائلة، ولم يحصل لابن صياد من ذلك شيء.

وحديث الجساسة في «صحيح مسلم» يدل على ذلك، وليس الأمر فيه مشكلاً كما قاله النووي -رحمه الله-؛ لأن ابن صياد أول الدجاجلة الذين يتقدمون الدجال الأكبر، وأما كونه موجوداً في زمن النبي -ﷺ-، فخبر تميم الداري في قصة الجساسة يدل على وجوده.

وأما سبب خروجه، فجاء في «صحيح مسلم» ما يدل على أن سبب خروجه غضبة يغضبها، وسأذكر ذلك إن شاء الله -تعالى-.

وخروجه في آخر الزمان، إذ خروجه من علامات الساعة الكبار.

وهو خارج من المشرق، كما سيأتي.

وأما صفته فقد أوضحها رسول الله -ﷺ-، وقد تقدم أنه أعور العين اليمنى، وأنه مكتوب بين عينيه: كافر.

---

(١) انظر «فتح الباري» (١٣/ ٩١).

وإذا خرج ادعى أنه مصلح، ويريد القضاء على الفساد، كما هي عادة كل دجال وطاغوت من طواغيت العالم ودجاجلته الموجودين اليوم وقبله، ثم يدعي الولاية، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي أنه رب الخلق المتصرف فيهم.

قال الحافظ: «وأخرج الطبراني من طريق سليمان بن شهاب، قال: نزل عليَّ عبدُالله بن المعتمر، وكان صحابيًّا، فحدثني عن النبي -ﷺ- أنه قال: «الدجال ليس به خفاء، يجيء من قبل المشرق، فيدعو إلى الدين، فيتبع، ويظهر فلا يزال حتى يقدم الكوفة، فيظهر الدين ويعمل به، فيتبع ويحث على ذلك، ثم يدعي أنه نبي، فيفزع من ذلك كل ذي لب ويفارقه، فيمكث بعد ذلك، فيقول: أنا الله، فتغشى عينه، وتقطع أذنه، ويكتب بين عينيه: كافر، فلا يخفى على كل مسلم، فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» قال: «وسنده ضعيف»[(١)].

وأما ما ثبت في «الصحيحين»، عن محمد بن المنكدر قال: رأيت جابر بن عبدالله يحلف بالله أن ابن صياد الدجال، قلت: تحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي -ﷺ-، فلم ينكره النبي -ﷺ[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر قال: لقيته مرتين، قال: فلقيته فقلت لبعضهم: هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا والله، قال: قلت: كذبتني، والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو -زعموا- اليوم، قال: فتحدثنا، ثم فارقته، قال: فلقيته لقية أخرى، وقد نفرت عينه، قال: فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري، قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، فنخر كأشد نخير حمار سمعت. قال: فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا فوالله ما شعرت.

قال: وجاء حتى دخل على أم المؤمنين، فحدثها، فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه»[(٣)].

(١) «الفتح» (١٣/ ٩١).

(٢) البخاري (٩، ٨٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٣) رقم (٢٩٢٩).

(٣) مسلم (٤/ ٢٢٤٦).

قال النووي: «قال العلماء: قصته مشكلة، وأمره مشتبه في أنه هو الدجال المشهور، أو غيره، ولا شك في أنه دجال من الدجاجلة.

وظاهر الأحاديث أن النبي -ﷺ- لم يُوحَ إليه بأنه الدجال، ولا غيره، وإنما أوحي إليه بصفات الدجال، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبي -ﷺ- لا يقطع بأنه الدجال، ولا غيره»[1].

قلت: ابن صياد فيه كلام كثير للعلماء، وفيه أحاديث بعضها في مسلم.

وليس هو الدجال المشهور، وإنما هو من جملة الدجالين كما سبق. والله أعلم.

قوله: «المدينة يأتيها الدجال، فيجد الملائكة يحرسونها، فلا يقربها الدجال».

قد أثبت إتيانه إليها، ولكن لا يستطيع دخولها؛ لأن الملائكة تصده عنها، وذلك لأن سلطان المسلمين قد ضعف عن مقاومة الكفر وأهله، فلهذا جعل الله -تعالى- الملائكة هي التي تصد الدجال عن مدينة رسوله وعن مكة.

وفي مسند الإمام أحمد عن محجن بن الأدرع أن رسول الله -ﷺ- خطب الناس فقال: «يوم الخلاص، وما يوم الخلاص، يوم الخلاص وما يوم الخلاص» ثلاثاً، فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال: «يجيء الدجال، فيصعد أحداً، فينظر المدينة فيقول لأصحابه: أترون هذا القصر الأبيض؟ هذا مسجد أحمد، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكاً مصلتاً، فيأتي سبخة الجرف، فيضرب رواقه، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق، ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة، إلا خرج إليه، فذلك يوم الخلاص»[2].

قوله: «ولا الطاعون إن شاء الله» الطاعون: من الطعن والوخز، وهو الوباء، وهذا من تكريم الله -تعالى- لرسوله، حيث منع الوباء من مدينته، وجاء في بعض الروايات أن مكة كذلك لا يدخلها الطاعون.

---

(١) «شرح النووي» (١٨/ ٤٦).

(٢) انظر «المسند» (٤/ ٣٣٨) و(٥/ ٣١).

والشاهد **قوله: «إن شاء الله»** يعني: أن ذلك معلق بمشيئة الله، فلو شاء لم يحصل المنع.

وذكر البخاري هذا الحديث في فضائل المدينة بأبسط مما ها هنا، ولفظه:

«ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق»[1].

قال الحافظ: «هذا الخبر على ظاهره وعمومه عند الجمهور، وشذ ابن حزم فقال: لا يدخل وجنوده، وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد؛ لقصر مدته، وغفل عما في «صحيح مسلم» أن بعض أيامه كسنة»[2].

وقوله: ثم ترجف المدينة، أي: يحصل لها زلزلة بعد أخرى، حتى يخرج منها من ليس مؤمناً، ويبقى المؤمنون الصادقون، فلا يسلط عليهم ولا ينالهم شره وفتنته.

ولا يعارض هذا ما في حديث أبي بكرة: «لا يدخل المدينة رعب الدجال»؛ لأن المراد برعبه: ما يحدث من الفزع من فعله وعتوه، لا الرجفة التي تقع لإخراج المنافقين والكافرين، وحمل بعض العلماء حديث «إنها تنفي الخبث» على هذا، والصحيح أنه خاص بناس، وبزمان، فلا مانع أن يكون هذا الزمان هو المراد، ولا يلزم من كونه مراداً، نفي غيره»[2].

□□□

(١) انظر «الفتح» (٤/ ٩٥).

(٢) المصدر السابق (ص٩٦).

١٠٠- قال: «حدثنا أبو اليَمان، أخبرنا شُعَيْبٌ، عن الزُّهْرِيِّ، حدثني أبو سَلَمَةَ ابنُ عبدِ الرحمن، أنَّ أبا هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «لِكُلِّ نَبيٍّ دَعْوَةٌ، فَأُرِيدُ -إِنْ شاءَ اللهُ- أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ القيامةِ».

أي: لكل نبي من أنبياء الله دعوة مستجابة، كدعوة نوح -عليه السلام- على قومه بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[(١)] فاستجاب الله دعوته فأغرق أهل الأرض عموماً، وكدعوة صالح، وشعيب، ولوط، وغيرهم مما ذكره الله -تعالى- في كتابه.

والصحيح أن لكل نبي دعوة عامة مستجابة في أمته، وأما الدعوات غير العامة فكثيرة، منها ما يستجاب، ومنها ما لا يستجاب.

قال النووي: «معناه أن لكل نبي دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من أجابتها، وأما باقي دعواتهم، فهم على طمع من إجابتها، وبعضها يجاب، وبعضها لا يجاب»[(٢)].

قوله: «فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

هذا من رحمة الله -تعالى- بهذه الأمة، حيث ألهم رسوله -ﷺ- أن يجعل دعوته العامة المستجابة في أمته، شفاعة له فيهم.

وقد بين أنها للموحدين، فلا نصيب لمشرك في هذه الدعوة العامة، كما في رواية مسلم «فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[(٣)].

قال النووي: «في هذا الحديث كمال شفقة النبي -ﷺ- على أمته ورأفته بهم، واعتناؤه بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخر -ﷺ- دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم»[(٤)].

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٢) «شرح مسلم» (٣/ ٧٥).

(٣) انظر: مسلم (١/ ١٨٩) رقم (١٩٩).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٧٦).

وقال في **قوله: «إن شاء الله -تعالى-»**: هو على جهة التبرك والامتثال لقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾[1] [2].

قلت: ليس كما قال -رحمه الله- إن التعليق للتبرك وامتثال الأمر، ولكنه تعليق حقيقة، إذ لو شاء الله لم يقع ذلك، غير أنه تعالى شاء وقوعه فأخبر به على لسان رسوله -ﷺ- وخبره حق، والمقصود أن كل شيء بمشيئة الله.

□□□

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الكهف.

(٢) المصدر السابق.

١٠١- قال: «حدثنا يَسَرَةُ بنُ صَفْوانَ بنِ جَمِيلٍ اللَّخْمِيُّ، حدثنا إبراهيمُ بنُ سَعْدٍ، عن الزُّهْرِيِّ، عن سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، عن أبي هريرةَ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «بَيْنا أنا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ فَنَزَعْتُ ما شاءَ اللهُ أَنْ أَنْزِعَ، ثُمَّ أَخَذَها ابنُ أبي قُحافَةَ، فَنَزَعَ ذَنُوباً أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، واللهُ يغفرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَها عُمَرُ، فاسْتَحالَتْ غَرْبَاً، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيّاً مِنَ النّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حتى ضَرَبَ النّاسُ حَوْلَهُ بِعَطَنٍ».

هذه رؤيا منام، ورؤيا الأنبياء نوع من أنواع الوحي، كما في حديث عائشة: «إن أول ما بدأ به رسول الله -ﷺ- من الوحي الرؤيا الصالحة».

والرؤيا: هي ما يراه الإنسان في نومه.

قوله: «بينا» هي «بين» الظرفية الزمانية، والألف للإشباع.

«رأيتني على قليب» أي: رأيت نفسي على قليب، وهي البئر المحفورة لاستخراج الماء منها، وقال النووي: «هي البئر غير المطوية»[1].

قوله: «فنزعت ما شاء الله أن أنزع» النزع هو: استخراج الماء من البئر بالدلو، وهذا محل الشاهد من الحديث حيث أسند كمية النزع إلى مشيئة الله -تعالى-، وقد سبق أن مشيئة الله عامة لا يخرج عنها شيء، والإنسان وإن كان له مشيئة، فهي داخلة تحت مشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2].

قوله: «ثم أخذها ابن أبي قحافة» أبو قحافة هو: عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، والد أبي بكر الصديق -رضي الله عنهما-.

«فنزع ذنوباً أو ذنوبين» الذنوب: الدلو المملوء ماء.

«وفي نزعه ضعف، والله يغفر له»، في رواية مسلم: «وفي نزعه -والله يغفر له- ضعف»[3].

---

(١) «شرح مسلم» (١٥/ ١٥٩).

(٢) الآية ٣٠ من سورة الإنسان، الآية ٢٩ من سورة التكوير.

(٣) انظر: مسلم (٤/ ١٨٦٠).

وفي رواية له: «بينا أنا نائم رأيت أني أنزع على حوضي أسقي الناس، فجاء أبو بكر، فاخذ الدلو من يدي ليروحني، فنزع دلوين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، فجاء ابن الخطاب، فأخذ منه، فلم أر نزع رجل قط أقوى منه، حتى تولى الناس والحوض ملآن يتفجر» وهذا يفسر الرواية المذكورة هنا.

والضعف المذكور إشارة إلى قلة المال من المغانم ونحوها في وقته، بالنسبة إلى زمن النبي -ﷺ- وزمن عمر، وذلك لما حصل من انتكاسة الناس وارتداد أكثر العرب عن الإسلام، فانشغل في قتالهم، وإدخالهم في الإسلام مرة أخرى، وهذا العمل أفضل مما حصل في وقت عمر -ومن بعده من الخلفاء- من الفتوح.

وقوله: «والله يغفر له» إشارة إلى أن ما يقع في الأمة من صدود عن الله أو انحراف، فإن الإمام قد يكون مسؤولاً عن ذلك، إذ هو القائد الذي يجب أن يقودهم إلى الصلاح والخير، ويحملهم على طاعة الله وطاعة رسوله، ولذلك أخبر أن هذه المسؤولية مغفورة لأبي بكر؛ لأنه بذل جهده في ردهم إلى الإسلام حتى استقاموا على الحق، والعلم عند الله.

قوله: «ثم أخذها عمر، فاستحالت غَرْباً» أي: الدلو، تحولت إلى غرب، والغرب -بفتح الغين المنقوطة وإسكان الراء- هي: الدلو العظيمة المتخذة من جلود الإبل أو البقر، والمعنى: أن الدلو التي كنت أنزع بها وأخذها مني أبو بكر، لما أخذها عمر بعد أبي بكر، صارت غرباً كبيراً يتسع لماء كثير.

«فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريَّه» العبقري: الكامل من كل شيء.

قال في «القاموس»: العبقري: الكامل من كل شيء، والسيد من الرجال، قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء، عن العبقري؟ فقال: يقال: هذا عبقري قوم، كقولك: هذا سيد قوم، وكبيرهم، وشديدهم، وقويهم، ونحو ذلك.

وقيل: العبقري: الذي ليس فوقه شيء، يعني: من جنسه.

قال أبو عبيد: وأصل هذا فيما يقال إنه نسب إلى «عبقر»، وهي أرض يسكنها الجن، فصارت مثلاً لكل منسوب إلى شيء رفيع»[1].

---

(١) «تاج العروس» (١٢/ ٥١٤).

وقال الراغب: «عبقر: قيل: هو موضع للجن، ينسب إليه كل نادر من إنسان، وحيوان، وثوب، ولهذا قيل في عمر: لم أر عبقرياً مثله، ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ هو ضرب من الفرش -فيما قيل- جعله الله -تعالى- مثلاً لفرش الجنة»[1].

«يَفْرِي فَرِيَّهُ» بفتح الياء وإسكان الفاء وكسر الراء، وفتح الفاء الثانية وكسر الراء وفتح الياء المشددة، قال ابن الأثير: «أي: يعمل عمله، ويقطع قطعه، ويُروى: «يفري فريهُ» بسكون الراء الثانية والتخفيف، وحكي عن الخليل أنه أنكر التثقيل، وغلط قائله.

وأصل الفري: القطع، يقال: فريت الشيء أفريه فرياً: إذا شققته وقطعته للإصلاح، فهو مفري»[2].

وقال النووي: «أما يفري، فبفتح الياء، وإسكان الفاء، وكسر الراء، وأما فريه، فروى بوجهين: أحدهما: فريه بإسكان الراء وتخفيف الياء، والثانية بكسر الراء وتشديد الياء، وهما لغتان صحيحتان، وأنكر الخليل التشديد، وقال: هو غلط. واتفقوا على أن معناه: لم أر سيداً يعمل عمله، ويقطع قطعه، ثم ذكر ما ذكره ابن الأثير»[3].

والمعنى: فلم أر رجلاً كاملاً، قويًّا، يستخرج الدلاء من البئر مثله، حتى كثر الماء وشرب الناس، وجلسوا حول الحوض الذي يصب فيه الماء لا حاجة لهم فيه، وهذا معنى قوله: «**حتى ضرب الناس حوله بعطن**» كما في رواية مسلم.

«فلم أر نزع رجل قط أقوى منه، حتى تولى الناس، والحوض ملآن يتفجر»[4].

قال النووي: «قال القاضي عياض: ظاهره أنه عائد إلى خلافة عمر خاصة، وقيل: يعود إلى خلافة أبي بكر وعمر جميعاً؛ لأن ذلك تم بنظرهما، وتدبيرهما، وقيامهما بمصالح المسلمين، وضرب الناس بعطن؛ لأن أبا بكر قمع أهل الردة

---

(١) «المفردات» (ص٣٢٠).

(٢) «النهاية» (٣/ ٤٤٢)، وانظر «الفتح» (٧/ ٤٦)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ٦٤).

(٣) «شرح مسلم» (١٥/ ١٦٢).

(٤) تقدم تخريجه.

وجمع شمل المسلمين، وألَّف بينهم، وابتدأ الفتوح، ومهد الأمور، وتمت ثمرات ذلك وتكاملت في زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما»[1].

وقال أيضاً: «قال العلماء: هذا المنام مثال واضح لما جرى لأبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- في خلافتهما، وحسن سيرتهما، وظهور آثارهما، وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من النبي -ﷺ-، ومن بركته، وآثار صحبته، فكان النبي -ﷺ- هو صاحب الأمر، فقام به أكمل قيام، وقرر قواعد الإسلام، ومهد أموره، وأوضح أصوله وفروعه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأنزل الله -تعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، ثم توفي ﷺ، فخلفه أبو بكر -رضي الله عنه- سنتين وأشهراً، وهو المراد بقوله: «ذنوباً أو ذنوبين» وهذا شك من الراوي، بل هما ذنوبان، كما صرح به في الرواية الأخرى.

وحصل في خلافته قتال أهل الردة، وقطع دابرهم، واتساع الإسلام، وعودة قوة المسلمين وهيبتهم.

ثم توفي، فخلفه عمر -رضي الله عنه- فاتسع الإسلام في زمنه، وتقرر لهم من أحكامه ما لم يقع مثله، فعبّر بالقليب عن أمر المسلمين؛ لما فيها من الماء، الذي به حياتهم وصلاحهم، وشبه أميرهم بالمستقي لهم، وسقيه هو قيامه بمصالحهم وتدبير أمورهم.

وأما قوله ﷺ في أبي بكر -رضي الله عنه-: «وفي نزعه ضعف».

فليس فيه حط من فضيلته، ولا إثبات لفضل عمر عليه، وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما، وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها، ولاتساع الإسلام وبلاده وكثرة الأموال، وغيرها من الغنائم والفتوح، وتمصير الأمصار، وتدوين الدواوين.

وأما قوله: «والله يغفر له» فليس فيه تنقيص له، ولا إشارة إلى ذنب، وإنما هي كلمة كان المسلمون يقولونها: افعل كذا، والله يغفر لك.

قال العلماء: وفي كل هذا إعلام بخلافة أبي بكر وعمر، وصحة ولايتهما، وبيان صفتها، وانتفاع المسلمين بها»[2].

---

(١) «شرح مسلم» (١٥/ ١٦٢).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٥/ ١٦١).

أما ما ذكره من أنه إعلام بصحة ولايتهما، فهو أمر متفق عليه عند أتباع رسول الله -ﷺ- الذين آمنوا به، ولم يخالف فيه إلا الذين دخلوا الإسلام تستراً لأجل هدمه ومحاربته، أمثال الرافضة والإسماعيلية والنصيرية، وهم ليسوا من المسلمين في شيء، ومن نظر في كتبهم تيقن أنهم من أبعد الناس عن الإسلام.

وأما ما ذكر من أن قوة نزع عمر لطول مدته، وضعف نزع أبي بكر لقصر مدته، فهو خلاف ظاهر الحديث، وإنما قوة نزع عمر كناية عن قوته في الحق وصلابته وقوة عزيمته، وضعف نزع أبي بكر كناية عن لينه ورقته، ولا يلزم من ذلك أن عمر أفضل من أبي بكر إذا فضله في خصلة من الخصال.

وأما المدة، فعبر عنها بالدلاء، فأبو بكر لم ينزع إلا ذنوبين، بينما عمر نزع حتى روى الناس، وتركوا الحوض ملآن.

١٠٢- قال: «حدثنا محمدُ بنُ العلاءِ، حدثنا أبو أسامةَ، عن بُرَيْدٍ، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي مُوسَى، قالَ: كانَ النبيُّ -ﷺ- إذا أتاهُ السائلُ -وربما قالَ: جاءهُ السائلُ أوْ صاحبُ الحاجةِ- قال: «اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، ويَقْضِي اللهُ على لسانِ رسولِهِ ما شاءَ».

الرسول -ﷺ- معلم الخير والداعي إليه، فلم يترك طريقاً يوصل الخلق إلى اكتساب الخير إلا دلهم عليه، وحضهم على سلوكه، حتى الأمور التي قد يظن بعض الناس أنها أمور عادية لا تدخل في العبادة، مثل ما في هذا الحديث، وخصوصاً عند رسول الله -ﷺ-، فلا يتصور مسلم أن النبي -ﷺ- يمنع أحداً ما يستحقه، أو يبخسه شيئاً من ذلك، ومع ذلك أمر بالشفاعة عنده، وأخبر أن شفاعتهم لا تأثير لها في مشيئة الله -تعالى-، بل المقصود حصول الثواب للشافع.

وأما ما يقع للمشفوع له فهو ما يقضيه الله -تعالى- ويشاؤه، ولهذا قال: «اشفعوا فلتؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما يشاء».

والشاهد فيه: أن مشيئة الله -تعالى- لا تؤثر فيها شفاعة ولا غيرها، بل ما شاء فِعْلَهُ فَعَلَهُ، وما شاء تَرْكَهُ تَرَكَهُ، لا راد لما أراد، ولا يمنع ذلك فعل الأسباب، ولا كون المسببات مرتبة على أسبابها، فكلها بمشيئة الله.

□□□

١٠٣- قال: «حدثنا يَحْيى، حدثنا عبدُالرزاق، عن مَعْمَر، عن همّام، سَمِعَ أبا هريرةَ، عَن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إنْ شِئْتَ، وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إنَّهُ يَفْعَلُ ما يشاءُ، لا مُكْرِهَ لَهُ».

تقدم هذا الحديث من رواية أنس، وبينا الحكمة في النهي عن ذلك.

قال النووي: «قال العلماء: عزم المسألة: الشدة في طلبها، والجزم من غير ضعف في الطلب، ولا تعليق على المشيئة ونحوها.

وقيل: هو حسن الظن بالله -تعالى- في الإجابة. ومعنى الحديث: استحباب الجزم في الطلب، وكراهة التعليق على المشيئة.

قال العلماء: كراهة ذلك أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه، والله -تعالى- منزه عن ذلك، وهو معنى قوله ﷺ في آخر الحديث: «فإنه لا مكره له».

وقيل: سبب الكراهة أن في هذا اللفظ صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه»[(١)].

وقال الحافظ: «النهي لأن التعليق بالمشيئة إنما يحتاج إليه إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء، فيخفف الأمر عليه، ويعلمه بأنه لا يطلب منه الشيء إلا برضاه، والله -تعالى- منزه عن ذلك، فلا فائدة للتعليق. وقيل: لأن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب، والمطلوب منه، والأول أولى»[(٢)].

قلت: كلا الأمرين دل عليهما النهي، ويدخلان فيه، كما تقدم.

وكلام النووي -رحمه الله- ظاهره أن النهي للكراهة، وليس للتحريم، ومثله كلامه في الأذكار، فإنه قال: «ويكره أن يقول في الدعاء: اللهم اغفر لي إن شئت، أو إن أردت، بل يجزم بالمسألة»[(٣)].

وهذا خلاف ظاهر الحديث، ولا أدري ما دليله على ذلك؟ وقد جاء في رواية في «الصحيحين»، قال النبي -ﷺ-: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت،

---

(١) «شرح مسلم» (١٧/ ٧).

(٢) «الفتح» (١/ ١٤٠).

(٣) (ص٤٩٦).

اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء»[1]، وهذا ظاهر في التحريم، والقاعدة: أن النهي يحمل على التحريم، ما لم يدل دليل على أنه لكراهة التنزيه.

قال ابن عبدالبر: «لا يجوز لأحد أن يقول: اللهم أعطني إن شئت، [سواء] من أمور الدين أو الدنيا؛ لأنه كلام مستحيل لا وجه له، إذ لا يفعل إلا ما يشاء».

قال الحافظ: «وظاهره أنه حمل النهي على التحريم، وهو الظاهر، وحمله النووي على كراهة التنزيه، وهو أولى»[2].

قلت: بل الأولى ما دل ظاهر النص عليه، وهو التحريم.

والمقصود من الحديث هنا قوله: «**إنه يفعل ما يشاء لا مكره له**» أي: أنه تعالى لا يحمله دعاء ولا غيره على فعل ما لا يريد، فلا يمكن أن يقع في الوجود إلا ما شاء، أما المخلوق فإنه قد يكره على فعل ما لا يريد.

□□□

(١) انظر «الفتح» (١١/ ١٣٩)، و«مسلم» (٤/ ٢٠٦٣) رقم (٢٦٧٩).

(٢) انظر «الفتح» (١/ ١٤٤).

١٠٤- قال: «حدثنا عبدُاللهِ بنُ محمدٍ، حدثنا أبو حَفْصٍ عَمْروٌ، حدثنا الأَوْزاعِيُّ، حدثني ابنُ شهابٍ، عن عبيدِاللهِ بن عبدِاللهِ بنِ عتبةَ بنِ مسعودٍ، عن ابنِ عباسٍ -رضيَ الله عنهما- أنَّه تمارَى هُوَ والحُرُّ بنُ قيسِ بنِ حِصْنٍ الفَزاريُّ، في صاحبِ مُوسَـى، أَهُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بهما أَبيُّ بنُ كَعْبٍ الأنصاريُّ، فدعاه ابنُ عباسٍ، فقالَ: إني تَمارَيْتُ أنا وصاحبي هذا، في صاحب موسى، الذي سَأَلَ السبيلَ إلى لُقِيِّهِ، هَـل سَمِعْتَ رسولَ اللهِ -ﷺ- يذكر شَأْنَهُ؟ قالَ: نَعَمْ. إني سَمِعتُ رسولَ الله -ﷺ- قولُ: بَيْنا مُوسَى في ملأ بني إسرائيلَ، إذْ جاءَهُ رَجُلٌ فقالَ: هَلْ تَعْلَمُ أحداً أَعْلَمَ مِنْك؟ فقالَ مُوسَى: لا، فَأُوْحِي إلى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السبيلَ إلى لُقِيِّهِ، فجعلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، وقيلَ له: إذا فَقَدْتَ الحُوتَ فارْجِعْ، فإنكَ ستلقاهُ، فكان مُوسَى يَتْبَعُ أَثَرَ الحوتِ في البحر، فقالَ فَتَى مُوسَى: أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنا إلى الصَّخرةِ، فإني نسِيتُ الحوتَ وما أنسانِيهُ إلاَّ الشيطانُ أنْ أذْكُرَه، قال مُوسَى: ذلك ما كنا نَبْغي، فارتدا على آثارهما قصصاً، فَوَجَدا خَضِراً، وكانَ مِنْ شَأْنِهما مَا قَصَّ اللهُ».

المراء: المجادلة، يقال: ماريته، أماريه مماراة، ومراء، ولا يكون المراء إلا اعتراضاً بخلاف الجدال، فإنه يكون ابتداء، واعتراضاً، فهو أعم»[١].

فقوله: «تماريت» أي: جادلت معترضاً عليه، وهو كذلك، في أن صاحب موسى هو الخضر، وكان الحر بن قيس يرى أنه غيره.

قال الحافظ: «لم يذكر ما قال الحر بن قيس، ولا وقفت على ذلك في شيء من طرق الحديث، والخضر: بفتح أولـه، وكسر ثانيـه، أو بكسر أوله، وإسكان ثانيه»[٢].

وفي ذلك جواز المجادلة في العلم، إذا كان بغير تعنت وازدراء لغيره.

وفيه إنصاف الصحابة وأدبهم في طلب العلم.

وقد جاء في بعض طرق الحديث في الصحيح، أن ابن عباس لما رأى أُبيّاً قام إليه وسأله.

---

(١) «المصباح» (٢/ ٧٨٢).

(٢) «الفتح» (١/ ١٦٩).

وفيه الرجوع إلى العلماء عند التنازع، وقبول الحق ممن قاله، وقبول خبر الواحد الصدوق، وفضل العلم وأهله.

قوله: «بينا موسى في ملأ بني إسرائيل» أي: في أشرافهم، ورؤسائهم.

قال في «المصباح»: «الملأ -مهموز-: أشراف القوم، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف، وجودة الرأي؛ لأنهم يملؤون العيون أبهة، والصدور هيبة»[(١)].

وقال الراغب: «الملأ: جماعة يجتمعون على رأي، يملؤون العيون، رواءً ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً»[(٢)].

وجاء هذا اللفظ في كتاب الله -تعالى- كثيراً.

«إذ جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك» كأن هذا الرجل أعجبه ما سمعه من موسى -عليه السلام- من العلم، فدعاه ذلك إلى هذا السؤال، ويدل لذلك ما ذكره في «التفسير: «أن موسى ذكر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب ولّى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله، هل في الأرض أحد أعلم منك؟»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم»: «بينما موسى -عليه السلام- في قومه، يذكرهم بأيام الله -وأيام الله: نعماؤه- إذ قال: ما أعلم في الأرض رجلاً خيراً، أو أعلم، مني»[(٤)].

«فأوحى إلى موسى: بلى، عبدنا خضر» قال الحافظ: «ظاهر هذا أن الخضر نبي، بل نبي مرسل، إذ لو لم يكن كذلك للزم تفضيل العالي على الأعلى، وهو باطل».

ثم قال: «والحق أن المراد بهذا الإطلاق تقييد الأعلمية بأمر مخصوص؛ لقوله بعد ذلك: «إني على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم

---

(١) (٢/ ٧٩٧-٧٩٨).

(٢) «المفردات» (ص٤٧٣).

(٣) انظر «الفتح» (٨/ ٤١١).

(٤) «مسلم» (٤/ ١٨٥٠).

علمكه الله، لا أعلمه»، والمراد بكون النبي أعلم أهل زمانه: أي: ممن أرسل إليهم، ولم يكن موسى مرسلاً إلى الخضر، فلا نقص على موسى إذا كان الخضر أعلم منه.

ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر: قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وينبغي اعتقاد كونه نبياً؛ لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي»[1].

وهذا لا يكفي لاعتقاد كونه نبياً، بل يجب الاعتماد على الأدلة الشرعية، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ دليل على أنه فعله عن أمر الله بالوحي إليه، ومن يوحى إليه فهو نبي.

«فسأل موسى السبيل إلى لقيه» أي: سأل ربه أن يدله على الطريق إليه، ويهيئ له أسباب ذلك.

«فجعل له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه».

جاء بيان ذلك في الرواية الأخرى، أنه حمل حوتاً بمكتل، ووكل موسى -عليه السلام- ذلك إلى غلامه، وقال له: إذا فقدته فأخبرني، فنزلا مكاناً فيه صخرة على سيف البحر، فاضطرب الحوت ودخل البحر، ونسي الغلام أن يخبر موسى، حتى تعبا، وقبل ذلك لم ينلهما تعب، عند ذلك «قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً» يعني: الحوت كان طريقه يقف الماء عنه فيبقى لا ماء فيه.

«قال موسى: ذلك ما كنا نبغي» أي: هو الذي نريد، حيث جعل فقد الحوت علامة لنا على وجود الخضر.

«فارتدا على آثارهما قصصاً» أي: رجعا يتبعان آثارهما ويقصانها، فلما وصلا الموضع الذي فقدا فيه الحوت وجدا خضراً، وكان من شأنهما ما قص الله».

يعني: من خرق السفينة، وإقامة الجدار بدون أجر، وقتل الغلام.

وقد اختصر البخاري الحديث، ولم يذكر محل الشاهد منه، وهو قوله: «ستجدني إن شاء الله صابراً» فوعد بأنه يصبر على ما يراه منه، وأن يطيع أمره،

---

(١) «الفتح» (١/ ٢١٩-٢٢٠).

وعلق ذلك بمشيئة الله -تعالى- وهو عازم على ذلك، ولكن الله -تعالى- لم يشأ لموسى الصبر على ما يراه من الخضر، فلم يصبر.

فمهما كان عند المخلوق من القوة والعزم، فإنه لا يستطيع فعل شيء إلا أن يشاء الله -تعالى-.

□□□

١٠٥- قال: «حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعَيْبٌ، عن الزُّهْرِيِّ.

وقال أحمدُ بنُ صالحٍ: حدثنا ابنُ وَهْبٍ، أخبرني يُونُسُ، عن ابنِ شِهابٍ، عن أبي سَلَمَةَ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن أبي هريرةَ، عن رسول اللهِ -ﷺ- قالَ: «نَنْزِلُ غَدَاً إنْ شاءَ اللهُ بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حيثُ تَقاسَمُوا على الكُفْرِ -يريدُ المُحَصَّبَ-».

ذكر هذا الحديث في كتاب الحج بلفظ يوضح ما هنا، حيث قال: «قال النبي -ﷺ- من الغد يوم النحر -وهو بمنى-: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر -يعني بذلك المحصب- وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبدالمطلب، أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي -ﷺ-».

فهذا هو تقاسمهم على الكفر، وفي هذا أن هذا القول وهو بمنى في اليوم الثاني عشر، وذلك في حجة الوداع. ويخالفه ما في الفضائل: «قال رسول الله -ﷺ- حين أراد حنيناً: «منزلنا غداً -إن شاء الله- بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»[1].

وفي أخرى: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله، الخيف، حيث تقاسموا على الكفر» فهذه والتي قبلها صريحتان في أن ذلك في فتح مكة، ولهذا قال بعض العلماء بتعدد هذا القول منه -ﷺ- في غزوة الفتح، وفي حجة الوداع، فإنه ﷺ نزل هناك بعد ما خرج من منى»[2].

«وكان تقاسمهم على الكفر في أول يوم من محرم السَّنة السابعة من البعثة كما ذكر ذلك أصحاب المغازي والسيرة، وذلك لما رأت قريش أن الصحابة الذين هاجروا قد وجدوا أرضاً أمنوا فيها الافتتان والأذية، وأن أمر الرسول -ﷺ- يقوى ويزداد ظهوراً، فقد دخل في الإسلام عمر بن الخطاب، وفشا الإسلام في القبائل، لذلك اجتمع رأيهم على أن يقتلوا رسول الله -ﷺ-.

فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم، وبني عبدالمطلب، فأدخلوا رسول الله -ﷺ- شعبهم، ومنعوه ممن أراد قتله. لذلك كتبت قريش عهداً بينهم بمقاطعة بني

---

(١) انظر «الفتح» (٧/ ١٩٢).

(٢) انظر «الفتح» (٨/ ١٤).

هاشم، وبني عبدالمطلب، بأن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يتعاملوا معهم، وكتبوا ذلك في صحيفة، وعلقوها بالكعبة.

قال ابن إسحاق: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين، حتى اشتد الأمر عليهم، فسعى في نقض هذا العهد بعض رجالات قريش، فهذا هو تقاسمهم على الكفر»[١].

قال الحافظ: «ويختلج في خاطري أن ما بعد قوله: «**يعني: المحصب**» مدرج من كلام الزهري».

والخيف بسكون الياء: ما ارتفع من الوادي قليلاً من مسيل الماء، ولا يكون إلا بين جبلين، ومنه مسجد الخيف بمنى؛ لأنه في خيف الجبل، والأصل: مسجد خيف منى، فخفف[٢].

وكنانة: هو ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهو الجد الرابع عشر للنبي -ﷺ-، وأولاد كنانة أربعة: النضر، ومالك، وعبد مناة، وملكان.

والنضر: هو قريش، فما كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي، ولذلك قال في الحديث: «إن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبدالمطلب».

وقيل: قريش هو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، فمن كان من ولد فهر فهو قرشي، وإلا فليس بقرشي، والله أعلم[٣].

والمقصود من الحديث قوله: «**ننزل غداً إن شاء الله**» حيث علق ما هو عازم على فعله، وقد توافرت أسباب ذلك لديه على مشيئة الله -تعالى- فإنه لو شاء لجعل الممكن الميسور عسيراً ممتنعاً، وليس قول ذلك لمجرد التبرك، بل لأن حصول ذلك مشروط بمشيئة الله -تعالى-.

□□□

---

(١) المصدر السابق (٧/ ١٩٢).

(٢) انظر «المصباح» (١/ ٢٥٤).

(٣) انظر «مختصر السيرة» لابن هشام (١/ ٩٦).

١٠٦- «حدثنا عبدُاللهِ بنُ محمدٍ، حدثنا ابنُ عُيَيْنةَ، عن عَمْرٍو، عن أبي العباس، عن عبدِاللهِ بن عُمَرَ قالَ: حاصَرَ النبيُّ -ﷺ- أهلَ الطائفِ فلَم يَفْتَحْها، فقالَ: «إنّا قافِلُونَ غَداً إنْ شاءَ اللهُ»، فقالَ المسلمونَ: نَقْفُلُ ولَمْ نَفْتَحْ؟ قال: «فاغْدُوا على القتال»، فَغَدَوْا، فأَصَابَتْهم جِراحاتٌ، قالَ النبيُّ -ﷺ-: «إنّا قافِلُونَ غَداً إنْ شاءَ اللهُ»، فكأَنَّ ذلكَ أَعْجَبَهُمْ، فَتَبَسَّمَ رسولُ اللهِ -ﷺ-».

الحصار: هو المنع أن يخرج أحد منهم، أو يدخل إليهم شيء، والتضييق عليهم. وكان ذلك بعد فراغه ﷺ من غزوة حنين، وتحصن الكفار بالطائف، فرأى ﷺ أنهم يحتاجون إلى مطاولة، وهم أهل رماية، فقد ينالون من المسلمين ما لا يناله المسلمون منهم، ورجا أن تفتح عليه بأقل من ذلك العناء، وأشفق على أصحابه، فقال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» وهذا عرض عليهم من باب المشاورة وإشراكهم في الرأي، كما هي عادته ﷺ. ولهذا لم يلزمهم، ولما قالوا: نقفل ولم نفتح؟ قال: «اغدوا على القتال» ثم أعاد هذا القول من الغد بعد ما أمضوا يومهم ذلك في القتال، ولم يتحصلوا على طائل، وقد أصابتهم جراحات، ففرحوا بما قال رسولهم -ﷺ- وعلموا أن الخير والبركة في رأيه، عند ذلك تبسم رسول الله -ﷺ- لما رأى فرحهم، وقد كانوا بالأمس قد كرهوا ذلك، تعجباً من سرعة تغير رأيهم، ولإجماعهم على تصويب ما رآه ﷺ أولاً.

والمقصود منه قوله: «إن شاء الله» فقد أخبر أولاً بأنهم قافلون، معلقاً ذلك بمشيئة الله، فلم يحصل؛ لأن الله لم يشأ ذلك.

وفي المرة الثانية شاءه، فحصل بإيجاد الله له الأسباب التي جعلتهم يفرحون بذلك، وهكذا كل ما لا يريد الله -تعالى- حصوله، لا بد أن يوجد له من الأسباب ما يمنع وجوده، وبالعكس.

□□□

قالَ: «بابُ قول اللهِ -تعالى-: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1] وَلَمْ يَقُلْ: ماذا خَلَقَ رَبُّكَمْ».

أخبر تعالى أنه المالك لكل شيء، وأنه لا يقع لأي فرد من خلقه ضر أو نفع إلا بإرادته وتدبيره، فهو المالك للشفاعة وغيرها، فلا تقع الشفاعة لديه إلا بإذنه، ولا تنفع إلا لمن رضي عمله وقوله، فهو تعالى لا يأذن في الشفاعة إلا فيمن رضي عمله، وهو لا يرضى إلا بعبادته الخالصة.

قال النووي: «أهل السُّنَّة متفقون على وقوع الشفاعة، ودل عليه العقل والسمع، فقد ثبت ذلك في كتاب الله وسنة رسوله، كما في هذه وغيرها، والأحاديث فيها بلغت حد التواتر، وأجمعوا على وقوعها للمذنبين من أهل التوحيد، وإنما خالف فيها أهل البدع، الذين سلكوا غير سبيل المؤمنين»[2].

قال في «اللسان»: «فزع عنه» أي: كشف عنه الخوف[3].

وقال الأزهري: «اتفق أهل التفسير، وأهل اللغة، أن معنى قوله: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾: كشف الفزع عن قلوبهم، وتأويل الآية: أن ملائكة سماء الدنيا كان عهدهم قد طال بنزول الوحي من السماوات، فلما نزل جبريل بالوحي على النبي -ﷺ- أول ما بعث نبياً، ظنت الملائكة الذين في السماء الدنيا أن جبريل نزل لقيام الساعة، ففزعوا له، فلما تقرر عندهم أنه نزل لغير ذلك، كشف الفزع عن قلوبهم، فأقبلوا على جبريل ومن معه من الملائكة، وقالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: ﴿ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ والذين فزع عن قلوبهم ها هنا ملائكة السماء الدنيا.

وقيل: إن ملائكة كل سماء، فزعوا لنزول جبريل، ومن معه من الملائكة، فقال كل فريق منهم لهم: «ماذا أنزل ربكم؟»»[4].

---

(١) الآية ٢٣ من سورة سبأ.

(٢) انظر «شرح مسلم» للنووي (٣/ ٣٥).

(٣) (٨/ ٢٥٣).

(٤) «تهذيب اللغة (٢/ ١٤٥-١٤٦).

وهذه الآية لها تعلق بما قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾[1].

قال ابن كثير: «بين تعالى أنه الإله الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك، ولا منازع، ولا معارض، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾كما في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً، ولا على سبيل الشركة: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه»[3].

والمقصود: أن الملائكة الذين سمعوا كلام الله يفزعون له خوفاً، ولم يفهموا كلامه من شدة فزعهم، فإذا ذهب فزعهم، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ماذا قال ربكم؟ فيجيب المسؤولون، بأنه تعالى: قال الحق، فيقولون كلهم: قال الحق، وهو العلي الكبير. كما وضح ذلك في الأحاديث التي ذكر هنا بعضها.

ومراد البخاري -رحمه الله- من الآية: أنها تدل على أن لله كلاماً يتكلم به ويقوله بصوته، وأنه يسمع منه كما هو ظاهر الآية: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾، وأن قوله صفة له تعالى، لا يكون مخلوقاً، كما زعم الضالون، ولهذا ذكر الأحاديث التي فيها التصريح بأن الله ينادي بصوت، كما يأتي، وفي ذلك أبلغ دليل على بطلان قول المعتزلة، ومن تابعهم، على أن الله لا يتكلم بكلام يسمع منه، وإنما كلامه ما يخلقه في غيره، أو هو المعنى القائم في نفسه -تعالى الله عن قولهم- وأنه لا

---

(١) الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة سبأ.

(٢) الآية ١٣ من سورة فاطر.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٠١) طبعة الشعب.

يكون بحرف وصوت يسمع، «وكل ذي لب صحيح يعرف بالحس، والمشاهدة قبل الاستدلال أن القرآن العربي، حروف، ولا فرق بين منكر ذلك ومنكر الحواس، وأنها من مبادئ العلم وأسباب المدارك»[1].

وما نقله الحافظ عن ابن بطال: من أن مراد البخاري: أن قول الله قديم لذاته قائم بصفاته، لم يزل موجوداً به[2]، ولا يزال كلامه لا يشبه [كلام] المخلوقين»[3] إلى آخره.

فهو بعيد كل البعد عن مراد البخاري، بل هذا القول يدخل في قول من قصد البخاري الرد عليهم، ولكن ابن بطال يريد من البخاري أن يكون متفقاً معه في العقيدة، وبينهما مثل ما بين المشرق والمغرب.

قوله: «ولم يقل ماذا خلق ربكم» يشير بذلك إلى الرد على القائلين بخلق القرآن وغيره من كلام الله -تعالى- فالآية صريحة في إبطال قولهم.

قال الحافظ: «هذا أول باب تكلم فيه البخاري على مسألة الكلام، وهي طويلة الذيول»[4].

قالَ: «وقالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾»[5] .

وهذا استفهام إنكار، ينكر تعالى على من يزعم أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، كما هو المعهود في الدنيا لدى العظماء، فإن الشفاعة عندهم تحصل بدون إذنهم.

أما رب العالمين فلعظمته وتمام ملكه، لا يستطيع أحد أن يقدم على الشفاعة عنده، مهما كان مقامه، حتى يأذن له، كما تقدم في حديث الشفاعة قوله ﷺ: «فأستأذن على ربي، فإذا رأيته خررت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني،

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٩٢)، نقله عن أبي نصر السجزي.

(٢) هكذا في النسخة التي عندي، وأظن الصواب: «موصوفاً به».

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٥٣).

(٤) «الفتح» (١٣/ ٤٥٤).

(٥) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة.

ويفتح علي من المحامد والثناء، ثم يقول: ارفع رأسك وقل يسمع، واشفع تشفع» وفيه: «فيحد لي حداً، فيقول: هؤلاء اشفع فيهم»، فعاد الأمر كله لله وحده، كما قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[1].

والشاهد من الآية للباب قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾فإن الإذن يكون بالقول المسموع، الذي يسمعه المأذون له على الأقل.

وأما قول الحافظ فيما ظنه: «أن البخاري أشار بهذه الآية إلى ترجيح أن الضمير في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ «للملائكة»[2] إلى آخره، وأن فاعل الشفاعة في قوله: «ولا تنفع الشفاعة عنده» هم الملائكة، فهو بعيد عن مراد البخاري، وإن كان هذا الذي ذكره هو الصواب في كون الضمير للملائكة، وفاعل الشفاعة هم.

«وقالَ مَسْرُوقٌ: عن ابنِ مَسْعُودٍ: إذا تَكَلَّمَ اللهُ بالوَحْيِ سَمِعَ أهلُ السماواتِ شيئاً، فإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وسَكَنَ الصَّوْتُ، عَرَفُوا أنهُ الحَقُّ، ونادَوْا: ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: الحَقَّ».

قال الحافظ: رواه أحمد موصولاً، ولفظه: «أن الله -عز وجل- إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل، فزع عن قلوبهم، قال: ويقولون: يا جبريل، ماذا قال ربكم؟ قال: فيقول: الحق، قال: فينادون: الحق، الحق»[3].

---

(١) الآيتان ٤٣، ٤٤ من سورة الزمر.

(٢) انظر «الفتح» (١٣/ ٤٥٦).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٥٦).

ورواه البخاري موصولاً في «خلق أفعال العباد»[1].

وقال أبو داود: «حدثنا أحمد بن أبي سريج الرازي، وعلي بن الحسين بن إبراهيم، وعلي بن مسلم، قالوا: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبدالله، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا تكلم الله بالوحي، سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفاء، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحق، الحق»[2].

وقال ابن جرير: «حدثني زكريا بن أبان المصري، قال: حدثنا نعيم، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي زكريا، عن جابر بن حيوة، عن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر، تكلم بالوحي، أخذت السماوات منه رجفة، أو قال: رعدة شديدة، خوف أمر الله، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا، وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله»[3].

وبهذه الأحاديث يتبين معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أن هذا الفزع الذي يصيبهم من شدة خوفهم من الله -تعالى-، عندما يسمعون صوت السماء، ويعلمون أن ذلك الصوت الذي هو كجر السلسلة على الصفاء هو رعدة السماوات، وخوفها من الله لما سمعت كلامه بالوحي، فعند ذلك تصعق الملائكة خوفاً أن يكون الله -تعالى- أمر بقيام الساعة التي يجازي عز وجل فيها كل عامل بعمله، هذا مع قيامهم

(١) انظر (١٩٣) «مجموع عقائد السلف».

(٢) «سنن أبي داود» (٥/ ١٠٦) كتاب السُّنَّة.

(٣) «تفسير الطبري» (١٢/ ٩١). وقال ابن كثير: رواه ابن أبي حاتم وابن خزيمة، انظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٠٤).

بأمر الله وطاعته، وعظيم عبادتهم له، يخافون هذا الخوف الشديد، فكيف بمن يبارز الله -تعالى- بالمعاصي؟

وفي هذه الأحاديث ونحوها الدلالة الواضحة بأن الله يتكلم بكلام تسمعه السماوات ومن فيهن، من الملائكة، وأن كلامه لا يشبه كلام خلقه، وأن من أنكر كلام الله، فليس معه إلا مجرد الوهم وشُبَه الشيطان الباطلة.

وفيها إثبات الصوت لله -تعالى- وأن صوته لا يشبه صوت العباد كما سيأتي.

□□□

١٠٧- قال: «ويُذْكَرُ عن جابرٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ أُنَيْسٍ، قالَ: سَمِعْتُ النبيَّ -ﷺ- يقولُ: «يَحْشُرُ اللهُ العبادَ، فيُنادِيهم بصوتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: «أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ».

هذا الحديث ذكره في مواضع من «صحيحه»، مرة بصيغة الجزم، ومرة بصيغة التمريض، وقد رواه في «الأدب المفرد» مسنداً مرفوعاً، حيث قال: «حدثنا موسى، قال: حدثنا همام، عن القاسم بن عبدالواحد، عن ابن عقيل، أن جابر بن عبدالله حدثه، أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي -ﷺ-، فابتعت بعيراً، فشددت إليه رحلي شهراً، حتى قدمت الشام، فإذا عبدالله بن أنيس، فبعثت إليه، أن جابراً بالباب، فرجع الرسول فقال: جابر بن عبدالله؟ فقلت: نعم، فخرج فاعتنقني. قلت: حديث بلغني لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت.

قال: سمعت النبي -ﷺ- يقول: «يحشر الله العباد -أو الناس- عراة، غرلاً، بهما. قلنا: ما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد -أحسبه قال: كما يسمعه من قرب-: أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، قلت: وكيف، وإنما نأتي الله عراة بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات»[1].

قوله: «يحشر الله العباد» الحشر: الإخراج والجمع. قال الراغب: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، وروي «النساء لا يحشرن» أي: لا يخرجن إلى الغزو، ويقال ذلك في الإنسان وغيره، ولا يقال: الحشر، إلا في الجماعة، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

(١) انظر «الأدب المفرد» (ص٣٣٧)، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٣٨) و(٤/ ٥٧٤-٥٧٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، ورواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٥)، والخطيب في «الرحلة» (١٠٩-١١٧)، قال الحافظ: وأخرجه الطبراني وأبو يعلى. انظر «الفتح» (١٣/ ٤٥٧)، وأخرجه غيرهم، وهو حديث صحيح بمجموع طرقه.

وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾،﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ وسمي يوم القيامة: يوم الحشر، كما سمي يوم البعث، ويوم النشر»[1].

لأن الله -تعالى- يحيي كل من مات من خلقه، فيجمعهم في مكان واحد ليحاسبهم، فيجزيهم بعملهم.

قوله: «**فيناديهم بصوت**» النداء لا يكون إلا بصوت، ولا يعرف الناس نداء بدون صوت، فذكر الصوت هنا لتأكيد النداء، وهذا في غاية الصراحة والوضوح في أن الله يتكلم بكلام يسمع منه تعالى، وأن له صوتاً، ولكن صوته لا يشبه أصوات خلقه، ولهذا قال:

«يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب» فهذه الصفة تختص بصوته تعالى، وأما أصوات خلقه فيسمعها القريب منها فقط، حسب قوة الصوت وضعفه، وقد كثرت النصوص المثبتة لذلك، منها ما ذكره البخاري -رحمه الله- في هذا الباب، ومنها ما ذكره الله -تعالى- في كتابه في أكثر من عشرة مواضع، بلفظ النداء الذي لا يكون إلا بصوت.

منها: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾[2].

وقوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[3].

وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5] يعني: أن المنادي هو الله العزيز الحكيم.

---

(١) «المفردات» (١١٩-١٢٠).

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٥٢ من سورة مريم.

(٤) الآية ١٠ من سورة الشعراء.

(٥) الآيتان ٨، ٩ من سورة النمل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1) أي: ناداه تعالى بهذا القول: «يا موسى إني أنا الله رب العالمين».

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(2).

وقوله في السورة أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(3).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(4).

وقوله: ﴿يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾(5).

وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(6).

فهذه عشرة مواضع كلها صريحة في أن الله ينادي، منها ما وقع في الدنيا، ومنها ما سيقع يوم القيامة.

وليس مع من ينكر نداء الله، وأنه تعالى يسمع من يشاء من خلقه نداءه، إلا مجرد الوهم والقياس الفاسد، الناتج عن الأفكار المضللة.

قال البخاري -رحمه الله-: «ويذكر عن النبي -ﷺ- أنه كان يحب أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون رفيع الصوت، وأن الله -عز وجل- ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب.

فليس هذا لغير الله -جل ذكره- وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله -جل ذكره- يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا. وقال -عز وجل-:

(1) الآية ٣٠ من سورة القصص.

(2) الآية ٦٢ من سورة القصص.

(3) الآية ٧٤ من سورة القصص.

(4) الآية ٦٥ من سورة القصص.

(5) الآية ٤٧ من سورة فصلت.

(6) الآيتان ١٥، ١٦ من سورة النازعات.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[1] فليس لصفة الله ند، ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين»[2].

«قال الخلال: وأخبرنا المرُّوذي: سمعت أبا عبدالله، وقيل له: إن عبدالوهاب قد تكلم، وقال: من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو لله، وعدو للإسلام. فتبسم أبو عبدالله، وقال: ما أحسن هذا، عافاه الله»[3].

و«قال الخلال في «السُّنَّة»: أخبرنا علي بن عيسى أن حنبلاً حدثهم، قال: إن أبا عبدالله يقول: من زعم أن الله لم يكلم موسى، فقد كفر بالله، وكذب القرآن ورد على رسول الله -ﷺ- أمره، يستتاب من هذه المقالة، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

قال: وسمعت أبا عبدالله قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى، ثم قال يؤكد كلامه: ﴿تَكْلِيمًا﴾.

قلت لأبي عبدالله: الله -عز وجل- يكلم عبده يوم القيامة؟ قال: نعم، فمن يقضي بين الخلائق إلا الله -عز وجل-؟ يكلم عبده، ويسأله.

الله متكلم لم يزل يأمر بما يشاء، ويحكم، وليس له عدل ولا مثيل، كيف شاء، وأنى شاء. أخبرنا محمد بن علي بن بحر، أن يعقوب بن بختان حدثهم، أن أبا عبدالله سئل عمن زعم أن الله لم يتكلم بصوت، فقال: بلى، تكلم بصوت، وهذه الأحاديث كما جاءت نرويها، لكل حديث وجه، يريدون أن يموهوا على الناس، من زعم أن الله لم يكلم موسى فهو كافر.

قال شيخ الإسلام: «قلت: وهذا الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من العبد، بل ذلك صوت العبد كما هو معلوم لعامة الناس.

وقد نص على ذلك الأئمة، أحمد وغيره، فالكلام المسموع من العبد حال تلاوته القرآن هو كلام الله، لا كلام غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[4].

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة.

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص١٩٢)، «مجموع عقائد السلف».

(٣) «شرح الأصفهانية»، رسالة دكتوراه (ص١٩٣).

(٤) الآية ٦ من سورة التوبة.

وقال النبي -ﷺ-: «ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي» رواه أبو داود وغيره[1].

وقال: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2]، وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3].

«وقال أبو نصر السجزي: «فأما الله -تعالى- فإنه متكلم فيما لم يزل، ولا يزال، إذا شاء ذلك، ويكلم من يشاء تكليمه بما يعرفه [المخاطب] ولا يجهله، وكلامه أحسن الكلام، وفيه سور، وآي، وكلمات، وكل ذلك حروف، وهو المسموع منه على الحقيقة سماعاً يعقله الخلق، وجائز وجود أعداد من المكلمين يكلمهم في حال واحدة، بما يريده من كل واحد منهم، من غير أن يشغله تكليم هذا عن تكليم هذا»[4].

وقال أيضاً: «لما وجدنا أحكام الشريعة المتعلقة بالكلام منوطة بالنطق الذي هو حرف وصوت، دون ما في النفس، علمنا أن حقيقة الكلام هو الحرف والصوت.

فلو حلف امرؤ أنه لا يتكلم ساعة من النهار، فأقام في تلك الساعة يحدث نفسه بأشياء، ولا ينطق بها، كان باراً، غير حانث.

ولو كان الكلام هو ما في النفس، حنث في أول ما يحدث به نفسه»[5].

وقال أيضاً: «فالله -تعالى- قد بين في كتابه ما كلامه، وبين ذلك رسوله -ﷺ- واعترف به الصدر الأول والسلف الصالح، فقال الله -تعالى-: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[6]، وقال: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[7]، والمستجير لا يسمع إلا كلاماً ذا حروف، والقارئ لا يقرأ إلا كلاماً ذا حروف.

---

(١) انظر «السنن» (٤/ ٣٢٤).

(٢) انظر «سنن أبي داود» (٢/ ٩٩)، والنسائي (٢/ ١٣٩)، وابن ماجه (٢/ ٢٤٦)، والدارمي (٢/ ٤٧٤)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥).

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٣٨-٤٠).

(٤) المصدر السابق (ص٨٨) ملخصاً.

(٥) «الرد على من أنكر الحرف والصوت» لأبي نصر، رسالة ماجستير (ص١٧٦).

(٦) الآية ٦ من سورة التوبة.

(٧) الآية ٢٠ من سورة المزمل.

ولما سمى تعالى هذا القرآن كلامه، علم أن كلامه حروف، وقد أكد ذلك بذكر الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ونحوها.

فمن زعم أن هذه الحروف ليست من القرآن فهو كافر، ومن قال: إنها من القرآن، والقرآن ليس كلام الله، فهو كافر، ومن زعم أنها عبارة عن الكلام الذي لا حروف فيه، فهو جهل وغباء؛ لأن ذلك لا يعرف، والنبي -ﷺ- قال: «من قرأ القرآن، فله بكل حرف عشر حسنات، لا أقول: «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، وبهذا يتبين أن القرآن سور، وآيات، وحروف، وهكذا كلام الله»[1].

وقال أيضاً: «الأصل الذي يجب أن يعلم: أن اتفاق التسميات لا يوجب اتفاق المسمَّيْن بها، فنحن إذا قلنا: إن الله موجود، رؤوف، واحد، حي، عليم، سميع، بصير، متكلم، وقلنا: إن النبي -ﷺ- كان موجوداً، حياً، عالماً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، لم يكن ذلك تشبيهاً، ولا خالفنا به أحداً من السلف، والأئمة.

بل الله موجود لم يزل، واحد، حي، قديم، قيوم، عالم، سميع، بصير، متكلم فيما لم يزل، ولا يجوز أن يوصف بأضداد هذه الصفات.

والموجود منا إنما وجد من عدم، وحين ينقضي أجله ثم يصير ميتاً يزول ذلك المعنى، وعلم بعد أن لم يعلم، وقد ينسى ما علم وسمع وأبصر وتكلم بجوارح تلحقها الآفات.

فلم يكن فيما أطلق للخلق تشبيه بما أطلق للخالق -سبحانه وتعالى- وإن اتفقت مسميات هذه الصفات»[2].

«وقد بين الله في كتابه أن الكلام لا يكون إلا بصوت وحروف، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ والعرب لا تعرف نداء إلا صوتاً.

وقد جاء عن موسى تحقيق ذلك، فإن أنكروا الظاهر كفروا، وإن قالوا إن النداء غير صوت خالفوا لغات العرب.

---

(١) «الرد على من أنكر الحرف والصوت» (ص١٨٦)، رسالة ماجستير.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٨٩-٩٠).

وإن قالوا: نادى الأمير إذا أمر بالنداء، دفعوا فضيلة موسى -ﷺ- المختصة به من تكليم الله إياه بذاته، من غير واسطة، ولا ترجمان.

وليس في وجود الصوت من الله -تعالى- تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق، كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه، وكلام الله حروف، وأصوات بحكم النص»[1].

«والله -تعالى- لم يزل متكلماً إذا شاء، وإذا شاء تكلم بصوت يسمع، وبحروف، وكل ما قام بذات الله -تعالى- فليس بمخلوق، سواء كان قديماً أو حادثاً، وكلامه -تعالى- وفعله متعلق بمشيئته وإرادته، هذا قول أهل السُّنَّة والجماعة.

قال عبدالله ابن الإمام أحمد: «سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى، لم يتكلم بصوت؟ فقال أبي: بلى تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت.

وقال أبي: حديث ابن مسعود: «إذا تكلم الله سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان».

قال أبي: وهذا الجهمية تنكره، قال أبي: وهؤلاء كفار، يريدون أن يموهوا على الناس، من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر»[2].

وقال أيضاً: «حدثني أبي: حدثنا عبدالرحمن بن محمد المحاربي، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبدالله: «إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء فيخرون سجداً، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قال: سكن عن قلوبهم، نادى أهل السماء: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، قال: كذا وكذا»[3].

وقال أبو يعلى بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره: «اعلم أن هذه الأخبار تدل على أن كلام الله -تعالى- بحرف وصوت، لا كحروف الآدميين وأصواتهم، كما أن له علماً وقدرة لا تشبه صفات الآدميين، وقد نص أحمد في رواية الجماعة على إثبات الصوت»[4]، وكلام أهل العلم من السلف وأتباعهم في هذا كثير.

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٩٣).

(٢) «كتاب السُّنَّة» (ص٧٠).

(٣) المصدر المذكور (٧١)، ورواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص١٩٤)، مجموع عقائد السلف.

(٤) «إبطال التأويل»، مخطوط (ص٣٠٤).

قوله: «**أنا الملك أنا الديان**» يعني: أن النداء الذي يسمعه أهل الموقف كلهم يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، هو بهاتين الكلمتين: «أنا الملك أنا الديان»، فهو تعالى الملك الذي بيده ملك السماوات والأرض، ومن فيهن، وهو الديان الذي يجازي عباده بعملهم، من عمل خيراً جازاه بأفضل مما عمل، ومن عمل شراً جازاه بما يستحق.

وفي هذا الحديث دليل على أن بعض أهل الموقف أقرب إلى الله من بعض.

ودل على هذا المفهوم آيات من كتاب الله، وأحاديث ثابتة عن رسوله -ﷺ-، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾، ونحو ذلك، وعند الذين ضلوا في هذا الباب، الخلق بالنسبة إلى الله سواء بالقرب والبعد، وكفى بذلك ضلالاً أنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله، وللفطر والعقول.

□□□

١٠٨- قال: «حدثنا عَلِيُّ بنُ عبدِاللهِ، حدثنا سُفْيانُ، عن عمرٍو، عن عِكْرِمَةَ، عن أبي هريرةَ يَبْلُغُ بِهِ النبيَّ -ﷺ- قالَ: إذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ في السماءِ، ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضْعاناً لقولِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ على صَفْوانٍ».

قال عليٌّ: وقال غيره: « صَفْوان، يَنْفُذُهُمْ ذلكَ، فإذا فُزِّعَ عَنْ قلوبهم، قالوا: ماذا قالَ ربُّكم؟ قالوا: الحقَّ، وهو العَلِيُّ الكبيرُ».

قوله: «**إذا قضى**» المراد بالقضاء هنا: الأمر بالشيء والحكم، بأن يتكلم آمراً ملائكته، كما في حديث ابن مسعود المتقدم، وحديث النواس بن سمعان: إذا تكلم الله بالوحي.

قوله: «**ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله**» صريح بأن الملائكة تسمع قوله: ولا يعقل شيء يدركه السمع إلا ما كان بصوت وحروف.

هذا هو مراد البخاري -رحمه الله- أن كلام الله يسمع منه؛ لأنه يتكلم حقيقة، والكلام الحقيقي الذي يسمع لا بد أن يكون بصوت وحروف، وهذا الذي فهمه صحابة رسول الله -ﷺ- منه، وهو الذي أراد منهم فهمه، وكذا فهمه أتباعه إلى اليوم.

«خضعاناً» مصدر لخضع، كغفران مصدر لغفر، والمعنى: أن الملائكة تخضع لله عند سماع كلامه، وتستكين، فتضرب بأجنحتها من الخضوع.

والصفوان هي الحجارة الكبيرة الصلبة.

قوله: «**ينفذهم ذلك**» يعني: أن الصوت المذكور يبلغهم كلهم ويسمعونه.

قولُهُ: «قالَ سفيانُ: قال عَمْروٌ: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ، حدثنا أبو هريرةَ بهذا، قلتُ لسفيانَ: قال: سمعتُ عكرمَةَ...» إلى آخره. يقصد بيان أن عكرمة قد صرح بالتحديث، فينتفي احتمال التدليس.

قوله: «فرغ» قال سفيان: هكذا قرأ عمرو، فلا أدري سمعه هكذا أم لا. قال سفيان: «وهي قراءتنا».

هذه القراءة بضم الفاء وبالراء المهملة المشددة، وبالغين المعجمة، قال في إتحاف فضلاء البشر: «هي قراءة الحسن»[1].

وعمرو المذكور هو ابن دينار.

قوله: «فلا أدري سمعه هكذا أم لا» أي: سمعه من عكرمة، أو قرأها كذلك من قبل نفسه بناء على أنها قراءته.

وقول سفيان: هي قراءتنا، يريد نفسه، ومن تابعه[2].

قال الحافظ بعد أن ذكر عدة روايات تتعلق بهذا الحديث، سجود الملائكة عند سماعهم صوت الوحي من الله، قال: «فهذه الأحاديث ظاهرة جداً في أن ذلك وقع في الدنيا، بخلاف قول بعض المفسرين الذين أقدموا على الجزم بأن الضمير في قوله: «عن قلوبهم» للكفار، وأن ذلك يقع يوم القيامة، مخالفين لما صح من الحديث النبوي، من أجل خفاء معنى الغاية في قوله: «حتى إذا فزع عن قلوبهم»».

وما قاله هو الذي يجب أن يعتمد، ولا يلتفت إلى غيره؛ لأن الأحاديث أوضحته غاية الإيضاح.

□□□

---

(١) انظر (ص٣٦٠)، والحسن هو البصري.

(٢) انظر «الفتح» (٣/ ٤٥٩).

١٠٩- قالَ: «حدثنا يَحْيى بنُ بُكَيْرٍ، حدثنا اللَّيْثُ، عن عُقَيْلٍ، عن ابنِ شهابٍ، أخبرني أبو سَلَمَةَ بنُ عبدِالرحمنِ، عن أبي هريرةَ، أنه كانَ يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ للنبيِّ يَتَغَنَّى بالقرآنِ» وقال صاحبٌ له: يريدُ: يَجْهَرُ بِهِ».

قال ابن كثير: «معناه: أن الله -تعالى- ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت؛ لكمال خلقهم، وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك.

وهو سبحانه وتعالى يسمع أصوات العباد كلهم، برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة -رضي الله عنها-: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات».

ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[1] ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ، كما دل عليه هذا الحديث العظيم.

ومنهم من فسر الإذن ها هنا بالأمر، والأول أولى؛ لقوله: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن» أي: يجهر به، فالأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ فالإذن هنا الاستماع، ولهذا جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند جيد، عن فضالة بن عبيد، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن، من صاحب القينة إلى قينته».

وقول سفيان بن عيينة: إن المراد بالتغني: يستغني به، فإن أراد أنه يستغني به عن الدنيا -وهو الظاهر من كلامه- فخلاف الظاهر من مراد الحديث؛ لأنه فسره بعض رواته بالجهر، وهو تحسين القراءة، والتحزين بها»[2].

---

(١) الآية ٦١ من سورة يونس.

(٢) «فضائل القرآن» لابن كثير (ص١١٦).

ثم قال: «والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه، وتحزينه، والتخشع به، كما رواه بقي بن مخلد، عن أبي موسى، قال: قال رسول الله -ﷺ- ذات يوم: «يا أبا موسى، لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة» قلت: أما -والله- لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبرتها لك تحبيراً»[1].

ومن تأمل الأحاديث الواردة في ذلك تبين له أن معنى قوله: **«يتغنى بالقرآن»**: تحسين الصوت وتزيينه بما يستطيع القارئ، والتغني لا يكون إلا بالكلام ذي الحروف، كما أن الاستماع لا يكون إلا للكلام المصوت به، وهذا هو وجه استدلال البخاري بهذا الحديث.

فالقرآن الذي يحب الله من عبده أن يتغني به، ويحب استماعه إليه في ذلك، ينطق به بالحروف ويصوت به.

والله -تعالى- قد تكلم به بصوت نفسه، وبهذه الحروف المكتوب بها.

«وذكر الطبري» عن الشافعي، أنه سئل عن تأويل ابن عيينة: «التغني بالاستغناء» فلم يرتضه، وقال: «لو أراد الاستغناء، لقال: يستغني وإنما أراد تحسين الصوت»، ويؤيده ما في رواية الطبري: «ما أذن لنبي في الترنم في القرآن».

وفي رواية عبدالرزاق: «ما أذن لنبي حسن الصوت»، وهو عند مسلم.

وفي رواية للطحاوي: «حسن الترنم بالقرآن».

قال الطبري: الترنم لا يكون إلا بالصوت، إذا أحسنه القارئ، وطرب به، ولو كان معناه: الاستغناء، لما كان لذكر الصوت والجهر معنى».

ولا نعلم في كلام العرب «تغنى بمعنى استغنى، ولا في أشعارهم».

ومثل ذلك قال الإسماعيلي، وقال: الاستغناء لا يحتاج إلى استماع؛ لأن الاستماع أمر خاص، زائد على الاكتفاء به، والاكتفاء به عن غيره أمر واجب على الجميع، ومن لم يفعل ذلك خرج عن الطاعة.

وقال عمر بن شبة: ذكرت لأبي عاصم النبيل: تفسير ابن عيينة -يعني: يستغني به- فقال: لم يصنع شيئاً، حدثني ابن جريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، قال: كان داود -عليه السلام- يتغنى- يعني: حين يقرأ -ويَبكي ويُبكي.

---

(١) المصدر السابق (ص١٢٢).

وظواهر الأخبار ترجح أن المراد: تحسين الصوت بالقراءة، ويؤيده قوله «يجهر به» فإن كان ذلك مرفوعاً قامت الحجة، وإن كان غير مرفوع، فالراوي أعرف بمعنى الخبر من غيره، ولا سيما إذا كان فقيهاً.

وقد جزم الحليمي بأن ذلك من قول أبي هريرة، والعرب تقول: سمعت فلاناً يتغنى بكذا، أي: يجهر به، قال ذو الرمة:

أحب المكان القفر من أجل أنني به أتغنى باسمها غير معجم

يعني: أجهر بذكر اسم حبيبتي من غير تورية.

والحاصل: أنه يمكن الجمع بين أكثر التأويلات المذكورة.

وهو أنه يحسن به صوته، جاهراً به، مترنماً، على طريق التحزن، مستغنياً به عن غيره من الأخبار، طالباً به غنى النفس، راجياً به غنى اليد»[1].

قلت: في هذا الجمع نظر، فإن الرسول -ﷺ- أراد بذلك معنى معيناً، وظواهر أقواله في ذلك أنه أراد تحسين الصوت به، والترنم يكون بتحسين الصوت، وكذا التحزن الذي يستجلب به الخشوع ومحبة القرآن والإقبال إلى استماعه.

ولا يلزم الجمع بين التأويلات، بل كل تأويل خالف النص يجب رده على من قاله.

قال الحافظ: «ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم؛ لأن للتطريب تأثيراً في رقة القلب، وإجراء الدمع. ولا خلاف بين السلف في استحباب تحسين الصوت بالقراءة، وتقديم حسن الصوت على غيره.

وإنما اختلفوا في التلحين، بين مانع ومجيز.

والذي يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقراءة مطلوب، فإن لم يكن حسناً فليحسنه ما استطاع، كما قال ابن أبي مليكة، أحد رواة الحديث، أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح.

ومن جملة تحسينه: أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن الحسن الصوت يزداد بذلك حسناً، وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه.

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٧٢).

وغير الحسن ربما انجبر بمراعاتها، ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يفِ تحسين الصوت بقبح الأداء.

ولعل هذا مستند من كره القراءة بالأنغام؛ لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء، فإن وجد من يراعيهما معاً، فلا شك أنه أرجح من غيره، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت، ويتجنب الممنوع من حرمة الأداء. والله أعلم»[1].

❑❑❑

(١) «الفتح» (٩/ ٧٢).

١١٠- قال: «حدثنا عمرُ بنُ حفص بن غيّاثٍ، حدثنا أبي، حدثنا الأَعْمَشُ، حدثنا أبو صالح، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ، قالَ: قالَ النبيُّ -ﷺ-: «يقولُ اللهُ -تعالى-: يا آدمُ، فيقولُ: لَبَّيْكَ، وَسَعْدَيْكَ، فيُنادَى بصوتٍ: إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيتكَ بَعْثاً إلى النارِ».

قال محب الدين الطبري: «لبيك: مصدر مثنى، للتكثير والمبالغة، ومعناه: إجابة بعد إجابة، ولزوماً لطاعتك.

وتثنيته للتوكيد، لا تثنية حقيقة، قال ابن الأنباري: ثنوا لبيك، كما ثنوا حنانيك، أي: تحنناً بعد تحنن»[١].

وقال ابن الأنباري: «سمعت أبا العباس يقول: معنى قولهم: لبيك: أنا مقيم على طاعتك، وإجابتك، من قولهم: قد لبَّ الرجل في المكان وألبَّ، إذا أقام فيه، قال الشاعر:

محل الجهر أنت به مقيم ملب ما يزول ولا يريم

وقال الفراء: معنى لبيك: إجابتي لك يا رب، ونصب على المصدر، وثني؛ لأنه أراد إجابة بعد إجابة.

وقال آخرون: معناه: اتجاهي إليك، مأخوذ من قولهم: داري تلبُّ دارك، أي: تواجهها.

وقال آخرون: معناه: محبتي لك، من قولهم: امرأة لُبَّة، إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه»[٢]، وذكر مثل ذلك الجوهري[٣].

وقال الزمخشري: «معنى لبيك: دواماً على طاعتك، وإقامة عليها مرة بعد أخرى، من ألب بالمكان: إذا أقام به، وألب على كذا: إذا لم يفارقه، ولم يستعمل إلا على لفظ التثنية في معنى التكرير، ولا يكون عامله إلا مضمراً، كأنه قال: ألب إلباباً بعد إلباب.

---

(١) «القرى» (ص١٤٥).

(٢) «الزاهر» (١/ ١٩٧-١٩٨) ملخصاً.

(٣) انظر «الصحاح» (١٥/ ٣٣٦).

والتلبية من لبيك، بمنزلة التهليل من لا إله إلا الله»[1].

«وقال الخليل: هي من قولهم: دار فلان تلب داري، أي: تواجهها.

فيكون معناه: اتجاهي وقصدي إليك يا رب، مرة بعد أخرى.

وقيل: هي من قولهم: حب لباب، إذا كان خالصاً محضاً، ومنه: لب الطعام ولبابه، فعلى هذا معناه: إخلاصي لك يا رب مرة بعد أخرى.

وقيل: هو من الإلباب، أي: القرب: أي: قربي منك، وقيل: من قولهم: أنا ملب بين يديك، أي: خاضع»[2].

قوله: «فينادي بصوت» قال الحافظ: «أكثر الرواة، رووه بكسر الدال -يعني رواة صحيح البخاري- قال: وفي رواية أبي ذر بفتحها على البناء للمجهول، ولا محذور في رواية الجمهور، فإن قرينة **قوله: «إن الله يأمرك»** تدل ظاهراً على أن المنادي ملك يأمره الله بأن ينادي بذلك»[3].

قلت: هذا مجانب للإنصاف، وبعيد عن ظاهر قول رسول الله -ﷺ-، بل الظاهر أن المنادي هو الله -تعالى-.

والنداء صفة كمال، لا محذور فيه كما توهمه أهل التأويل الباطل.

وقد ثبت بالنصوص الكثيرة اتصاف الله -تعالى- بالكلام، والنداء منه.

وأي محذور يخشاه هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم لتحريف كلام الله وكلام رسوله، وصرفه عن الظاهر المراد منه، حتى عطلوه -تعالى- عما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من الكلام، والنداء، وما ذاك إلا لسوء ظنهم بالله -تعالى-، حتى جعلوا المخلوق أكمل منه، ولذلك قالوا: المنادي ملك يأمره الله أن ينادي آدم، هذا مع وضوح الكلام وكونه يأبى هذا التحريف، فإنه قال: «يقول الله: يا آدم، فينادي بصوت» **فقوله: «فينادي بصوت»** تفسير **لقوله: «يقول الله: يا آدم»**، وبيان له، ولكن الذين تأثروا بأصول الجهمية ظنوا أن اتصاف الله -تعالى- بالكلام

---

(١) «الفائق» (٣/ ٢٩٥).

(٢) «القرى» (ص١٤٥).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٦٠).

حقيقة والنداء من التشبيه، فنفوا ذلك عن الله -تعالى- ظانين أن هذا قول أهل السُّنَّة، فصار الأخذ بظاهر هذا النص ونحوه لا يجوز؛ لأنه عندهم على خلاف أصولهم، التي منها: نفي حقيقة الكلام عن الله -تعالى-، فوجب تأويله- كما زعموا-، والحق خلاف ظنهم.

ثم نقول: إذا كان الله -تعالى- ليس هو المنادي، وإنما يأمر ملكاً ينادي، نقول: بأي شيء يأمر الملك، وأنتم تقولون: لا يتكلم بكلام يسمع منه؟ أيكون أمره بالإشارة؟ وبذلك يكون الملك أكمل من رب العالمين.

أم يكون الأمر بأن يخلقه بقلبه؟ فإن قالوا ذلك فيلزم أن يكون الأمر صفة للملك؛ لأن ما كان مخلوقاً فيه فهو صفة له.

فالحق أن الله يتكلم بصوت مسموع يسمعه من شاء من عباده، وليس الصوت الذي يتكلم الله به قديماً كما يقوله بعض أهل البدع، بل لم يزل يتكلم متى شاء، وسيكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم، كما في حديث عدي بن حاتم: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان».

ولما علم أئمة الأشعرية القدماء أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين، لم يمكنهم أن يقولوا: القديم هو الحروف، والأصوات؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة.

والصوت عرض، لا يبقى زمانين إلا بواسطة ما يمسكه كشريط التسجيل ونحوه، فلذلك قالوا: القديم معنى واحد، لامتناع معانٍ لا نهاية لها عندهم، وهذا هو أصلهم الذي بنوا عليه مذهبهم الباطل.

«والاختلاف في القرآن والكلام، هل هو حرف وصوت أو غير ذلك؟ محدث حدث في حدود المائة الثالثة، وانتشر في المائة الرابعة.

فإن ابن كلاب والأشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة في إثبات الصفات، وأن القرآن ليس مخلوقاً، وأنه لا يمكن أن يكون قديماً إلا أن يكون معنى قائماً بنفس الله، كعلمه.

وزادوا: إن الله لا يتكلم بصوت، ولا لغة، ولا قديم ولا غير قديم، لما رأوا امتناع قيام أمر حادث به، وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين.

والآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت، ولهذا جعل الإمام أحمد من أنكر ذلك: جهمياً.

قال عبدالله: قلت لأبي: إن قوماً يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت؟ فقال: هؤلاء جهمية، إنما يدورون على التعطيل»[1].

قال شيخ الإسلام: «السلف والأئمة يقولون: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه تعالى قديم النوع، بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء، فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يتكلم بمشيئته، ومن لا يزال متكلماً بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكناً له بعد أن يكون ممتنعاً»[2].

وقال أيضاً: «والصواب أن الله -تعالى- لم يزل متكلماً إذا شاء، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وأن كلماته لا نهاية لها، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى، وإنما ناداه حتى أتى، لم يناده قبل ذلك، وأن صوت الرب لا يماثل أصوات العباد، كما أن علمه لا يماثل علمهم»[3].

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: «حدثنا أبي، حدثنا جرير، عن منصور، عن المعتمر، عن هلال بن يساف، عن فروة بن نوفل الأشجعي، قال: كنت جاراً لخباب، فخرجنا يوماً من المسجد، وهو آخذ بيدي فقال: يا هناه، تقرب إلى الله ما استطعت، فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه، يعني: القرآن».

وروي بسند حسن، عن جبير بن نفير، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه» يعني: القرآن.

وقال: «حدثني أبو معمر، حدثنا وكيع، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، قال: «كأن الناس إذا سمعوا القرآن من في الرحمن يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك».

وحدثني أبي، سمعت عبدالرحمن بن مهدي، يقول: من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٧٩).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ٣٧٢).

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٥٩٨).

سألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى لم يتكلم بصوت؟ فقال أبي: بلى، تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت»[1].

يعني: أنها لا تؤول، بل يجب الإيمان بها على ما يدل عليه ظاهرها، من أن الله يتكلم، وأن كلامه بصوت.

ولو كان ما يفهم من ظاهرها باطل، لبينه رسول الله -ﷺ-؛ لأن الله -تعالى- كلفه ببيان ما نزل إليه.

ثم قال: «سمعت أبا معمر الهذلي يقول: من زعم أن الله لا يتكلم، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يغضب، ولا يرضى -وذكر أشياء من هذه الصفات- فهو كافر بالله».

حدثني أبي، حدثنا عبدالرحمن بن محمد المحاربي، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبدالله: إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء، فيخرون سجداً، حتى إذا فزع عن قلوبهم، قال: سكن عن قلوبهم، نادى أهل السماء: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، قال كذا وكذا، ورواه مرفوعاً»[2].

وفي الترمذي، عن عمران بن حصين، قال: كنا مع النبي -ﷺ- في سفر فتفاوت بين أصحابه في السير، فرفع رسول الله -ﷺ- صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فلما سمع ذلك أصحابه حثوا المطي، وعرفوا أنه عنده قول يقوله، فقال: «هل تدرون أي يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذاك يوم ينادي الله فيه آدم، فيناديه ربه، فيقول: يا آدم، ابعث بعث النار» إلى آخر الحديث، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»[3].

فهذا ظاهر جداً في أن المنادي هو الله -تعالى-، والنداء لا يكون إلا بصوت يسمع من بعدٍ عن المنادي، فللَّه -تعالى- صوت يليق به، فصوته لا يشبه أصوات خلقه، كصفاته.

---

(١) «كتاب السُّنَّة» (ص٢٦-٧١).

(٢) «كتاب السُّنَّة» (ص٧٠-٧١).

(٣) «جامع الترمذي» (٥/ ٣٢٤).

ولثبوت ذلك بالأدلة التي ذكر شيء منها في هذا يتعين على المؤمن الإيمان بأن الله -تعالى- يتكلم بكلام يُسْمِعُه من يشاء من خلقه، وأنه بصوت، إذا شاء صوت به.

فتبين أن قول الحافظ: «إن المنادي ملك يأمره الله بأن ينادي بذلك» باطل، إذ هو خلاف الحق، وأن المنادي هو الله.

وإذا كان الله -تعالى- لا يتكلم بكلام مسموع منه، فكيف يأمر الملك؟ وكيف يرسل الرسل؟ أوليس الكلام صفة كمال، ومن يتكلم وينادي أكمل ممن لا يقدر على ذلك؟ فما هو المسوغ لتحريف كلام الله وكلام رسوله؟ مع أن السلف وأهل السُّنَّة مجمعون على وصف الله بالكلام، وأن من نفى ذلك ضال سالك غير سبيل المؤمنين.

قال الألوسي: «الذي انتهى إليه كلام أئمة الدين كالماتريدي، والأشعري، وغيرهما من المحققين، أن موسى عليه السلام سمع كلام الله -تعالى- بحرف وصوت، كما تدل عليه النصوص التي بلغت في الكثرة مبلغاً لا ينبغي معه تأويل، ولا يناسب في مقابلته قال وقيل، بل قد ورد في إثبات الصوت لله -تعالى- أحاديث لا تحصى»[1].

□□□

(١) روح المعاني (ج١).

١١١- قالَ: «حدثنا عُبَيْدُ بنُ إسماعيلَ، حدثنا أبو أسامةَ، عن هشامٍ، عن أبيهِ، عن عائشةَ -رضيَ اللهُ عنها- قالتْ: ما غِرْتُ على امرأةٍ ما غِرْتُ على خديجةَ، ولقدْ أمَرَهُ رَبُّهُ أنْ يُبَشِّرَها ببيتٍ في الجنةِ».

تقدم هذا الحديث في الفضائل، والنكاح، والأدب، وفي ألفاظ متنه وفي إسناده اختلاف عما هنا، وقد بينت عائشة -رضي الله عنها- سبب غيرتها: أنه كثرة ذكر النبي -ﷺ- لها، وثناؤه عليها، وجاء في رواية «لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره ربه أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن»[(١)].

والغيرة عند النساء جبلة لا يستطعن التخلي عنها، ولهذا لم ينكر النبي -ﷺ- على عائشة، وفي هذا الحديث فضل خديجة -رضي الله عنها-.

والمقصود من الحديث هنا قوله: «**ولقد أمره ربه أن يبشرها**»؛ لأن الأمر عند الإطلاق لا يكون إلا بالكلام، فلذلك قال العلماء: إن من نفى الكلام عن الله -تعالى- فقد نفى الرسالة، والشرائع كلها؛ لأنها أمر ونهي.

«قال الخلال في «السُّنَّة»: أخبرني علي بن عيسى، أن حنبلاً حدثهم، قال: سمعت أبا عبدالله يقول: من زعم أن الله لم يكلم موسى، فقد كفر بالله، وكذب بالقرآن، ورد على رسول الله -ﷺ- أمره، يستتاب من هذه المقالة، فإن تاب وإلا ضربت عنقه».

قال: وسمعت أبا عبدالله: قال الله -تعالى-: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ فأثبت الكلام لموسى كرامة منه لموسى، ثم قال -تعالى- يؤكد كلامه: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾.

قلت لأبي عبدالله: الله -تعالى- يكلم عبده يوم القيامة؟ قال: نعم، فمن يقضي بين الخلائق إلا الله عز وجل؟ يكلم الله عبده ويسأله، لم يزل الله يأمر بما يشاء ويحكم، وليس له عدل ومثل، كيف شاء، وأنى شاء»[(٢)].

□□□

---

(١) انظر «الفتح» (٩/ ٣٣٦) و(٧/ ١١٣) و(١٠/ ٤٣٥).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٣٧-٣٨).

قالَ: «بابُ كلامِ الرَّبِّ مَعَ جِبْرِيلَ، ونداءِ اللهِ الملائكةَ».

يريد بهذا تنويع الأدلة، وأن الله يتكلم متى شاء، ويكلم من يشاء من ملائكته في أي وقت أراد، وسبق الكلام في النداء.

«وقالَ مَعْمَرٌ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يُلْقَى عليكَ، وتَلَقَّاهُ أنتَ -أيْ: وتأْخُذُهُ عنهمْ- ومِثْلُهُ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾.

قال الحافظ: «معمر هذا يتبادر أنه ابن راشد، شيخ عبدالرزاق، وليس كذلك، بل هو أبو عبيدة، معمر بن المثنى اللغوي.

قال أبو ذر الهروي: وجدت ذلك في كتاب المجاز له، فقال في تفسير سورة النمل في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: تأخذه عنه، ويلقى عليك.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أي: قبلها، وأخذها عنه، قال أبو عبيدة: وتلا علينا أبو مهدي آية، فقال: تلقيتها من عمي، تلقاها عن أبي هريرة، تلقاها عن النبي -ﷺ-.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾أي: لا يوفق لها، ولا يرزقها ولا يلقنها.

وحاصله: أنها تأتي بالمعاني الثلاثة، وأنها هنا صالحة لكل منها.

وأصله: اللقاء، وهو: استقبال الشيء ومصادفته»[1].

ومقصوده بالمعاني الثلاثة: تأخذها، وتقبلها، وتوفق لها وترزقها. وبعضها قريب من بعض.

وقال ابن جرير: «وإنك يا محمد لتحفظ القرآن، وتعلمه»[2].

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٦١)، وانظر «مجاز القرآن» (١/ ٣٨) و(٢/ ٩٢، ١١١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ١٣٢).

وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ قيل: إنه أخذ وقبل، وأصله: التفعل من اللقاء، كما يتلقى الرجل مستقبله عند قدومه من غيبته، أو سفره. فكأنه استقبله، فتلقاه بالقبول حين أوحى إليه، أو أخبره، ومعناه: فلقّى اللهُ آدم كلمات توبة، فتلقاها آدم من ربه، وأخذها عنه تائباً»[1].

□□□

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٤١) تحقيق محمود شاكر.

١١٢- قالَ: «حدثني إسحاقُ، حدثنا عبدُالصَّمَدِ، حدثنا عبدُالرحمنِ -هو ابنُ عبدِاللهِ بنِ دينارٍ، عن أبيهِ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى إذا أَحَبَّ عبداً نادَى جبريلَ: إنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فلاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جبريلُ، ثم ينادي جبريلُ في السماءِ: إنَّ اللهَ قَدْ أحبَّ فلاناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أهلُ السماءِ، ويُوضَعُ له القَبُولُ في أهلِ الأرضِ».

قال الحافظ: «وقع في بعض طرقه بيان سبب هذه المحبة والمراد بها، ففي حديث ثوبان: أن العبد ليلتمس مرضاة الله -تعالى- فلا يزال كذلك حتى يقول: يا جبريل، إن عبدي فلاناً يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي غلبت عليه»[(١)].

يعني: أن المراد بالمحبة هي الرحمة، كما يقوله الأشاعرة، وليس كذلك، بل المحبة صفة لله -تعالى- غير صفة الرحمة، ورحمة الله -تعالى- لعبده من لوازم محبته له، وقد تقدم تقرير ذلك، والرد على المحرفين من الأشاعرة وغيرهم[(٢)].

وأسباب محبة الله -تعالى- لعبده متعددة، حسب ما دلت عليه النصوص في كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ-، منها: التوبة، فالله -تعالى- يحب التوابين، ومنها: التطهير من الأنجاس الحسية والمعنوية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ومنها: الثبات أمام العدو صفوفاً كالبنيان المرصوص: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به» الحديث.

قوله: «**إن الله تبارك وتعالى**» قال ابن عباس: تبارك: تفاعل من البركة، وهو كقول القائل: تقدس ربنا»[(٣)].

وقال الأزهري: «أخبرني المنذري عن أبي العباس، أنه سئل عن تفسير «تبارك الله» فقال: ارتفع، والمتبارك: المرتفع، ومعنى البركة: الكثرة في كل خير، وتبارك:

---

(١) «الفتح» (١٠/ ٤٦٢)، وقال: أخرجه أحمد والطبراني في «الأوسط».

(٢) انظر (ص٥٩) من الجزء الأول من هذا الشرح.

(٣) انظر «تفسير الطبري» (١٨/ ١٧٩).

تعالى وتعاظم، وقال ابن الأنباري: تبارك الله: أي: يتبرك باسمه في كل أمر، وقال الليث: تبارك الله: تمجيد وتعظيم، وقال أبو بكر: تبارك: تقدس، أي: تطهر، والمقدس: المطهر»[1].

وقال: «عن الليث: «تعالى» هو: العلي المتعالي، العالي الأعلى، ذو العلاء والعُلا والمعالي، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وهو الأعلى -سبحانه- بمعنى العالي، وتفسيره «تعالى»: جل عن كل ثناء، فهو أعظم وأجل وأعلى مما يثنى عليه، لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[2].

يعني: أن ثناء الخلق عليه -تعالى- لا يبلغ ما يستحقه من الثناء، ولا قريباً من ذلك، بل هو كما أثنى على نفسه، ولهذا قال النبي -ﷺ-: «لا أحصي ثناء عليك، بل أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

قال الأزهري: «وتفسير هذه الصفات لله -تعالى- يقرب بعضها من بعض، فالعلي: الشريف، فعيل من علا يعلو، وهو بمعنى العالي، وهو الذي ليس فوقه شيء، ويقال: هو الذي علا الخلق فقهرهم بقدرته.

وأما المتعالي: فهو الذي جل عن إفك المفترين، وتنزه عن وساوس المتحيرين، وقد يكون المتعالي بمعنى العالي.

والأعلى هو الله الذي هو أعلى من كل عال، واسمه الأعلى، أي: صفته أعلى الصفات»[4].

وقال ابن القيم: «الرب تعالى يقال في حقه: تبارك، ولا يقال: مبارك.

ثم قالت طائفة -منهم الجوهري-: إن تبارك بمعنى: بارك، مثل قاتل وتقاتل، إلا أن فاعل يتعدى، وتفاعل لا يتعدى. وهذا غلط عند المحققين، وإنما تبارك: تفاعل من البركة، وهذا الثناء في حقه -تعالى- إنما هو لوصف رجع إليه، كتعالى،

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٣٠) ملخصاً.

(٢) المرجع المذكور (٣/ ١٨٦).

(٣) رواه أبو داود في «السنن» (٢/ ١٣٤)، والترمذي رقم (٣٥٦١)، والنسائي (١٧٤٨)، وابن ماجه رقم (١١٧٩).

(٤) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٨٦).

فإنه تفاعل من العلو، ولهذا يقرن بين هذين اللفظين فيقال: تبارك وتعالى، وهو سبحانه أحق بذلك وأولى من كل أحد، فإن الخير كله بيده، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة، وخيرات لا شرور فيها.

وهذا ثناء يشعر بالعظمة والرفعة والسعة، كما يقال: تعاظم، وتعالى ونحوه، فهو دليل على عظمته، وكثرة خيره، ودوامه، واجتماع صفات الكمال فيه، وأن كل نفع في العالم كان ويكون، فمن نفعه -سبحانه- وإحسانه.

ويدل هذا الفعل أيضاً في حقه على العظمة، والجلال وعلو الشأن»[1].

قوله: «**إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل**».

صريح في أن الله -تعالى- يحب من يشاء من عباده من أهل الطاعة له والتقوى، كما هو صريح أيضاً في أنه -تعالى- يتكلم وينادي متى شاء لمن يشاء، وفي هذا الحديث النداء لجبريل خاصة، وتقدم أن النداء لا يكون إلا بصوت مرتفع، وأن مثل هذه النصوص من أبلغ الأدلة على إثبات صفة الكلام لله -تعالى-، وهذا القدر من الحديث هو المقصود، إذ هو محل الشاهد، وفيه: أن جبريل عليه السلام بمجرد إخبار الله له بأنه تعالى يحب العبد يحبه، وأنه هو سفير الله -تعالى- إلى الملائكة، كما أنه سفيره إلى الرسل من البشر، ولهذا قال: «ثم ينادي جبريل في السماء»، مما يعجب له العاقل أن جميع شراح الحديث الذين اطلعت على أقوالهم يقولون: إن هذا الندا من جبريل نداء حقيقي يسمع منه بصوته، تسمعه ملائكة السماء، وأكثرهم يقول: إن النداء المسند إلى الله -تعالى- ليس حقيقياً، وإنما معناه: أمره لمن ينادي، أو إعلام جبريل بما يفهم منه أن الله يحب ذلك العبد.

وهكذا يتلاعبون بكلام الله وكلام رسوله، مما سبب ضلال كثير من الخلق.

والله - جل وعلا- سوف يسألهم عن ذلك، وسوف يعلمون حين يقفون بين يديه أي جناية جنوها عليه وعلى أنبيائه، وعلى شرعه، وعلى عباده.

والمراد بالسماء هنا: الجنس، أي: السماوات، ونداؤه فيهم يقول: «إن الله قد أحب فلاناً، فأحبوه».

---

(١) «جلاء الأفهام» (ص٢٠٦-٢٠٧). وانظر بقية الكلام فيه.

«فيحبه أهل السماء» أي: أن ملائكة السماوات بمجرد إخبار جبريل وأمره يحبونه؛ لأنهم يحبون الله ويحبون ما يحبه، ومن ثمرات ذلك: استغفارهم لهذا العبد، وموالاتهم له، وهذا في الحقيقة هو الشرف والرفعة، وبه تحصل السعادة بمشيئة الله -تعالى-.

«فيوضع له القبول في أهل الأرض» أي: تقبله قلوبهم وتحبه؛ لأن الله -تعالى- يحبه، ومن أحبه الله -تعالى- حببه إلى عباده في السماوات والأرض.

فشهدوا له بالخير ورجوا له الفلاح؛ لما وقع في قلوبهم له.

□□□

١١٣- قال: «حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، عن مالكٍ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله -ﷺ- قالَ: «يَتَعاقَبُونَ فيكم ملائكةٌ بالليل، وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعونَ في صلاةِ العصرِ، وصلاةِ الفجرِ، ثم يَعْرُجُ الذينَ باتوا فيكم، فَيَسْأَلُهُمْ، وهو أعلمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبادي؟

فيقولونَ: تَرَكْناهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْناهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

تقدم هذا الحديث وشرح في باب قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾، والمقصود منه في هذا الباب قوله: **«فيسألهم -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟»**؛ لأن الظاهر من السؤال أنه بالكلام وسماع صوت السائل.

وملائكة الله لكل منهم مقام معلوم لا يتجاوزه، وأعلاهم مقاماً جبريل عليه السلام، وقد سبق أنه تعالى يناديه، فهؤلاء أولى بالمناداة؛ لأنهم أنزل مقاماً منه.

وفي الأنبياء: «الملائكة يتعاقبون، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار» فعلى هذه لا يكون فيه شاهد لما يسمى بلغة «أكلوني البراغيث».

وفي سؤال الله -تعالى- عن عباده، مباهاة بهم، وإظهار لفضلهم عند الملائكة، وبيان لشيء من عظيم كرم الله -تعالى- وإحسانه.

□□□

١١٤- قال: «حدثنا محمدُ بنُ بَشّار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شُعْبَةُ، عن واصلٍ، عن المَعْرُور، قالَ: سمعتُ أبا ذرٍّ، عن النَّبيِّ -ﷺ- قالَ: «أتاني جبريلُ فَبَشَّرني أنَّه مَنْ ماتَ لا يُشْرِكُ باللهِ شيئاً دَخَلَ الجنةَ» قلتُ: وإنْ سَرَقَ وإنْ زَنَى؟ قال: «وإنْ سَرَقَ، وإنْ زَنَى».

قوله: «أتاني جبريل» يعني: بالوحي من الله، فهو لا يأتي إلا بأمر الله -تعالى- له.

«فبشرني»، البشرى: هي الإخبار بما يسر؛ لأن ذلك يغير بشرة الوجه؛ لأن النفس إذا سرت انتشر الدم في الجسم كانتشار الماء في عروق الشجرة، فيظهر ذلك على وجه المبشر.

وقد تستعمل البشارة فيما يسوء، من باب النكاية والتهكم والإياس من الخير[1].

«من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» يعني: وإن حصل منه تقصير بالواجبات، وفعل لبعض المحرمات غير الشرك، فإن من مات على ذلك دخل الجنة، ولا ينافي هذا حصول العذاب له، بل قد يعذب في قبره، وبعد ما يبعث، وقد يدخل النار، ثم يخرج منها بعدما يطهر من الخطايا التي تلطخ بها في الدنيا، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عذاب، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جداً.

فكل عاص لله -تعالى- من الموحدين لا بد من دخوله الجنة، وإن أصابه ما أصابه، وإنما الشأن في اجتناب الشرك، فهو أمر صعب إلا على من هدى الله قلبه، وهو أنواع، منها الجلي والخفي.

فقوله: «لا يشرك بالله شيئاً» يعم أنواع الشرك كلها؛ لأنه نكرة بعد النفي، فيدخل فيه الأصغر، والقليل، والله المستعان.

«قلت: وإن سرق، وإن زنى» كأنه فهم من هذا الإطلاق أن ما عدا الشرك من الذنوب يحصل دخوله مع وجوده، فأراد أن يتثبت عن هذا المفهوم، فأخبره أن

---

(١) انظر «المفردات» للراغب (ص٤٨).

ذلك صحيح، وأن من اجتنب الشرك دخل الجنة، وإن تفاوت دخول العصاة غير المشركين الجنة في الوقت والمكان، أعني تقدم الدخول والمنزلة.

والشاهد منه: قوله: «**فبشرني أنه من مات**» إلى آخره؛ لأن هذه البشارة لا بد أن تكون من الله، أرسل جبريل بها إلى محمد -ﷺ-، والرسالة لا تكون إلا بالكلام، والنداء داخل فيه، فالله -تعالى- قد نادى جبريل أن يذهب بهذا الأمر إلى محمد -ﷺ-، والله أعلم.

□□□

قالَ: بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ ﴾.

الضمير في «أنزله» يعود إلى القرآن، كما هو واضح من الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾. ﴿لكِنِ﴾ للاستدراك مما سأله اليهود فيما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ ﴾، فهم يرون أن مجيء الوحي إليه بواسطة جبريل غير كافٍ في الدلالة على نُبوَّته، وأنه إذا كان صادقاً فليأت بكتاب من السماء، كما جاء موسى -عليه السلام- بالتوراة مكتوبة.

ثم ذكر تعالى أنهم سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك، سألوه أن يُرِيَهم الله جهرة، وعدّد تعالى ما فعلوه من الظلم، والتعنت، والبهتان العظيم، والكفر، ورميهم مريم بالزنا، ومحاولتهم قتل رسول الله عيسى، وأكلهم الربا، وذكر ما أصابهم بسبب ذلك، ثم ذكر تعالى أن منهم راسخين في العلم، ومؤمنين بما أنزل الله من كتاب، ثم أخبر تعالى أنه أوحى إلى محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله، وعدد بعضهم، وبعضاً منهم لم يذكره، وأنه تعالى خص موسى بتكليمه، ثم ذكر الحكمة من إرسال الرسل؛ لئلا يكون للناس على الله حجة، ثم قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ ﴾ الآية.

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه- إن يكفر بالذي أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، وقالوا لك: ما أنزل الله على بشر من شيء، فكذبوك، وليس الأمر كما قالوا، «لكن الله يشهد» بتنزيله إليك من الكتاب، والوحي، أنزل ذلك إليك، بعلم منه بأنك خِيرَته من خلقه، وصَفيّه من عباده، ويشهد لك بذلك الملائكة، فلا يَحزُنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك، وحسبك بالله شاهداً على صدقك، فإنه لا يضرك مع ذلك تكذيب من كذبك»[1].

(١) «تفسير الطبري» (٩/ ٤٠٩) تحقيق محمود شاكر.

ومراد البخاري بهذه الترجمة أن يبين أن القرآن من علم الله -تعالى- وصفة له، فليس مخلوقاً، فكأنه يقول: أنزله فيه علمه، أي: هو من علمه، وقد احتج الإمام أحمد على كفر من قال: القرآن مخلوق، بأن القرآن من عِلْم الله، فمن زعم أن عِلْم الله مخلوق فهو كافر، واستدل على ذلك بنحو قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وقوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1].

وتقدم الكلام على هذه الآية وذكر أقوال المفسرين فيها[2].

قَوْلُهُ: «قالَ مجاهدٌ: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بينَ السماءِ السابعةِ، والأرضِ السابعةِ».

مقصوده أن الله -تعالى- أخبر بأنه خلق السماوات السبع ومن الأرض مثلهن، ثم ذكر أن الأمر يتنزل بينهن، أي: بين السماوات وبين الأرضين، فالأمر غير الخلق، ثم قال تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ فأمره تعالى الذي يتنزل بين السماوات والأرض بعلمه، وأمره، وعلمه من صفاته.

فأَمْرُ الله -تعالى-، وعلمه، وحكمه، وتصرفه، ينفذ في السماوات السبع والأرضين السبع، لا يمتنع عليه شيء، ولا يخفى عليه فيهن شيء، فالكل في قبضته وتحت تصرفه، وفي علمه واطلاعه جل وعز.

وما يذكره كثير من المفسرين عند هذه الآية من أن الأرضين سبع طبقات منفصل بعضها عن بعض، وبين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمئةِ عام، وبعضهم يذكر أن في كل أرض أنبياء مثل الذين ذُكِروا في القرآن وعلى أسمائهم، إلى آخر ما ذكروه مما يشبه هذيان المجانين، كل ذلك خرافات مصدرها زنادقة اليهود وإخوانهم من كل شيطان رجيم.

قال القرطبي: «﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي: سبعاً، واختلفوا فيهن على قولين: أحدهما: قول الجمهور، أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء، وفي كل أرض سكان من خلق الله.

---

(١) انظر «السُّنَّة» لعبدالله ابن الإمام أحمد (ص٩-١٠).

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الشرح من (٩٣).

وقال الضحاك: «ومن الأرض مثلهن» أي: سبعاً من الأرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق، بخلاف السماوات.

والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه»[1].

قلت: بل قول الضحاك هو الصواب، والأول باطل قطعاً بدون شك، وما زعمه من أنه قول الجمهور، وأن الأخبار دالة عليه، ليس كما زعم.

نعم، قد روي عن ابن عباس، فإن صح فهو مما تلقاه من أهل الكتاب ممن هو متهم بالكذب منهم، وأما دلالة الأخبار عليه فليس فيه أخبار صحيحة صريحة في الدلالة عليه، بل نقطع أن الأخبار عن الله ورسوله لم تدل عليه؛ لأن كلام الله وكلام رسوله حق، لا يؤيد الباطل ولا يدل عليه، بل الأخبار دلت على أن الأرضين سبع فقط، بدون فتوق، كما في «الصحيحين» «من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين» ونحوه من الأحاديث.

فيتعين حملها على أنها طبقات غير مفتوقة، كما قاله الضحاك.

وفي هذا الوقت أمكن الدوران على الأرض في وقت وجيز جداً مما يبين بالحس والمشاهدة بطلان ما رجحه القرطبي.

□□□

(١) «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٧٤-١٧٥).

١١٥- قال: «حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا أبو الأَحْوَصِ، حدثنا أبو إسحاقَ الهَمَدَانيُّ، عن البَراءِ بنِ عازبٍ، قال: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «يا فُلانُ، إذا أَوَيْتَ إلى فراشكَ فقل: اللهمَّ أسلمتُ نفْسِي إليكَ، وَوَجَّهتُ وَجْهِي إليكَ، وَفَوَّضْتُ أمْرِي إليكَ، وأَلْجَأتُ ظَهْرِي إليكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إليكَ، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجا مِنْكَ إلا إليكَ، آمَنْتُ بكتابكَ الذي أَنْزَلْتَ، وبنبيكَ الذي أَرْسَلْتَ، فإنكَ إنْ مُتَّ في لَيْلَتِكَ مُتَّ على الفِطْرَةِ، وإنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْراً».

البراء بن عازب بن الحارث بن عدي الأنصاري، الأوسي، استصغره رسول الله -ﷺ- يوم بدر هو وابن عمر، فردّهما، وشهد أُحَداً وما بعدها من الغزوات، وروي عنه أنه غزا مع النبي -ﷺ- أربع عشرة غزوة، وفي رواية: خمس عشرة، قال الحافظ: إسناده صحيح.

وقال: سافرت مع رسول الله -ﷺ- ثمانية عشر سفراً. أخرجه أبو ذر الهروي[١].

وكان يقول: أنا الذي أرسل معه النبي -ﷺ- السهم إلى قليب الحديبية فجاش بالري.

قال الذهبي فيه: «الفقيه الكبير، من أعيان الصحابة، نزل الكوفة، توفي سنة اثنتين وسبعين، أو إحدى وسبعين، عن بضع وثمانين سنة»[٢].

قوله: «يا فلان» جاء في الروايات الأخرى أن المُخاطَب هو البراء بن عازب، ففي الدعوات عند المؤلف: «عن عبيدة قال: حدثني البراء بن عازب، قال: قال لي رسول الله -ﷺ- ...» وذكر الحديث[٣]، وفيه: «إذا أتيت إلى مضجعك فتوضأ وضوءَك للصلاة». قال الحافظ: ظاهره استحباب تجديد الوضوء لكل من أراد النوم، ولو كان على طهارة.

(١) «الإصابة» (١/ ٢٧٨)، وانظر «أسد الغابة» (١/ ٢٠٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٩٤).

(٣) انظر «الفتح» (١١/ ١٠٩).

ويحتمل أن يكون مخصوصاً بمن كان محدثاً»[1].

«إذا أويت إلى فراشك» أوى إلى مكان: إذا أقام فيه، ورجع إليه، والمعنى: إذا جئت إلى فراشك تريد النوم.

«فقل: اللهم أسلمت نفسي إليك» قال الحافظ: «على رواية «فتوضأ» الأمر فيه للندب، وله فوائد، منها: أن يبيت على طهارة؛ لئلا يبغته الموت، فيكون على هيئة كاملة، ويؤخذ منه الندب إلى الاستعداد للموت بطهارة القلب؛ لأنه أولى من طهارة البدن.

وقد أخرج عبدالرزاق، عن مجاهد قال: قال لي ابن عباس: «لا تنامن إلا على وضوء، فإن الأرواح تُبعث على ما قبضت عليه».

وروي عن أبي مرثد العجلي، قال: «من أوى إلى فراشه طاهراً، ونام ذاكراً، كان فراشه مسجداً، وكان في صلاة وذِكْر حتى يستيقظ، ومن أوى إلى فراشه غير طاهر، ونام غير ذاكر، كان فراشه قبراً، وكان جيفة حتى يستيقظ»[2].

ويتأكد ذلك في حق الجنب، وإن اغتسل قبل نومه فهو أفضل.

ومنها: أن يكون ذلك أبعد عن تلاعب الشيطان، وأصدق للرؤيا»[3].

وقوله: «**اللهم أسلمت نفسي إليك**» أي: استسلمت لك، نفسي منقادة مذعنة لك، راضية بك رباً، وبدينك شرعاً، وبنبيك رسولاً، ومنقادة لحكمك وقضائك، لا إله إلا أنت.

«**ووجهت وجهي إليك**» أي: جعلت قصدي ومرادي إليك، راجياً ثوابك، خائفاً من عقابك.

«**وفوضت أمري إليك**» أي: توكلت عليك مستكفياً بك، فأمري كلّه إليك تتصرف فيَّ كيف تشاء، ورغبتي في جودك وفضلك.

---

(١) «الفتح» (١/ ٣٥٨).

(٢) «المصنف» (١١/ ٣٧، ٧٩).

(٣) «الفتح» (١١/ ١١٠).

«وألجأت ظهري إليك» أي: أنت عمادي، وعليك استنادي، فأعتمد عليك بأن تكفيني كل ما أهمني، وتحميني من كل ما يؤذيني.

«رغبة ورهبة إليك» أي: أفعل ذلك راغباً في فضلك وإحسانك، وراهباً من عقابك وعذابك بسبب ذنوبي.

«لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك» أي: لا مهرب ينجي من هرب منك، ولا نجاة لمن أردته بعذابك، إلا بالرجوع إليك، والاستسلام لك، والإنابة إليك.

«آمنت بكتابك الذي أنزلت» أي: أتوسل إليك بأني أصدِّق وأوقن بأن الكتب التي أنزلتها على رسلك هي قولك حقاً، وفيها الهدى والنور، الذي هو شرعك، ولمن اتبعها السعادة، ومن أعظمها القرآن الذي أنزلته على عبدك ورسولك محمد خاتم الرسل -ﷺ-، فأنا أؤمن بذلك، وأرغب إليك بأن تستجيب دعائي لذلك.

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد، فإن كتاب الله هو كلامه وفيه عِلْمه، كما قال الزّجّاج: «﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: أنزل القرآن الذي فيه علمه»[1].

فمن زعم أن القرآن مخلوق، لزمه أن يكون عِلْم الله مخلوقاً، وهذا كفر، كما قاله الأئمة أحمد وغيره.

«ونبيك الذي أرسلت» أي: أتوسل إليك بإيماني واتباعي لنبيك محمد -ﷺ- الذي أرسلته إلينا ليبلغنا كلامك، وأمرك ونهيك، كما أؤمن بكل نبي لك أوحيت إليه وأرسلته إلى عبادك.

«فإنك إن مت في ليلتك مت على الفطرة» يعني: إن كانت نومتك تلك فيها قبض روحك، وفراقها لبدنك، فإنك تموت على السُّنَّة التي جاء بها نبيك، ومن مات عليها فهو السعيد.

«وإن أصبحت أصبت خيراً» أي: إن رُدَّت روحك بعد النوم إلى جسمك وأصبحت حياً ، نلت بهذا الدعاء أجراً عند الله.

□□□

(١) انظر «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ١٤٧).

١١٦- قال: «حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا سفيانُ عن إسماعيلَ بن أبي خالدٍ، عن عبدِاللهِ بن أبي أَوْفَى، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ الأحزابِ: «اللهمَّ مُنْزِلَ الكتابِ، سَرِيعَ الحسابَ، اهْزِمِ الأحزابَ، وزَلْزِلْهُمْ.

زادَ الحُمَيْدِيُّ: حدثنا سفيان حدثنا ابنُ أبي خالدٍ، سمعتُ عبدَاللهِ، سمعتُ النبيَّ -ﷺ-».

عبدالله بن أبي أوفى -واسم أبي أوفى: علقمة بن خالد الأسلمي- هو وأبوه صحابيان، شهد الحديبية، وبايع بيعة الرضوان، وقال: غزوت مع رسول الله -ﷺ- ست غزوات نأكل الجراد[١].

لما قبض النبي -ﷺ- ذهب عبدالله إلى الكوفة، وهو آخر من توفي فيها من الصحابة، ثبت أن رسول الله -ﷺ- قال: «اللهم صل على آل أبي أوفى» توفي رضي الله عنه سنة ست وثمانين، أو ثمان وثمانين[٢].

قوله: «يوم الأحزاب» يدل على أن هذا الدعاء كان في غزوة الأحزاب، وجاء في روايات: «أن رسول الله -ﷺ- في بعض أيامه التي لقي العدو، انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

وهو يدل على أنه يدعو بذلك عند لقاء العدو.

«اللهم منزل الكتاب» هذا توسل إلى الله -تعالى- بفضله على عباده من إنزاله الكتاب الذي فيه حياة القلوب، والاعتصام من الضلال، وفيه وعده الكريم لعباده بالنصر والتأييد، كقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣].

---

(١) انظر «تحفة الأحوذي» (٥/ ٥٤٧، ٥٤٨).

(٢) انظر «الإصابة» (٤/ ١٨)، و«أسد الغابة» (٣/ ١٨٢)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٢٨).

(٣) الآية ١٤ من سورة التوبة.

«سريع الحساب» قال ابن جرير: «إنما وصف -جل ثناؤه- نفسه بسرعة الحساب؛ لأنه -جل ذكره- يحصي ما يحصي من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر، ولا روية -فعل العجزة الضعفة من الخلق- ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما.

ثم هو تعالى مجاز عباده على كل ذلك، فلذلك امتدح نفسه -جل ذكره- بسرعة الحساب، وأخبرَ خلقه أنه ليس لهم بمثيل، فيحتاج في حسابه إلى عقد كف أو وعي صدر»[(١)].

وقال على قوله: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴾ أي: أسرع من حسب عددكم، وأعمالكم وآجالكم، وغير ذلك من أموركم -أيها الناس-، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها؛ لأنه لا يحسب بعقد يد، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾»[(٢)].

وهو -جل ذكره- سريع محاسبة عباده يوم القيامة، حيث لا يشغله محاسبة واحد عن الآخر.

«اهزم الأحزاب وزلزلهم» الهزيمة هي: القهر والإذلال، والزلزلة: الاضطراب، وعدم الثبات، فهو يدعو عليهم بأن يقهرهم، ويذلهم بأيدي المسلمين، وأن ينزل عليهم الرعب والخوف الذي يزلزل قلوبهم وأجسامهم.

قوله: «زاد الحميدي» إلى آخره: مراده به: التصريح بالسماع، بخلاف قتيبة بن سعيد فإنه عنعن السند.

والمقصود من الحديث **قوله**: «**اللهم منزل الكتاب**» فإنه تعالى أنزله منه، فهو قوله ووصفه، ولو كان مخلوقاً كما يقوله الضالون، ما احتاج إلى إنزال بل يخلقه في أي مكان، فهو تعالى أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً، ونحن نشهد بذلك، ونرجو من منزل الكتاب، وسريع الحساب وهازم الأحزاب ومزلزلهم، أن يثبتنا على هذه الشهادة ويثيبنا عليها خير ثواب.

---

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٠٧-٢٠٨) بتحقيق محمود شاكر.

(٢) المصدر السابق (١١/ ٤١٣).

١١٧- قالَ: «حدثنا مُسَدَّدٌ، عن هُشَيْم، عن أبي بِشْر، عن سعيدِ بن جُبَيْر، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال: أُنزلتْ ورسول اللهِ -ﷺ- متوارٍ بمكةَ، فكانَ إذا رفعَ صوتَهُ سمعَ المشركونَ فسبُّوا القرآنَ، ومَنْ أنزله، ومَنْ جاءَ به، وقال اللهُ -تعالى-: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ لا تجهرْ بصلاتكَ حتى يسمعَ المشركونَ، ولا تخافتْ بها عن أصحابكَ فلا تُسْمِعُهمْ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أسْمِعْهُمْ ولا تجهرْ حتى يأخذوا عنكَ القرآنَ».

المراد بالصلاة في الآية: القراءة، وقد قال ابن جرير -رحمه الله- «لولا أننا لا نستجيز مخالفة أهل التفسير فيما جاء عنهم، لاحتمل أن يكون المراد: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك نهاراً، ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أي: ليلاً، وكان ذلك وجهاً لا يبعد في الصحة»[(١)].

وقد جاء ذلك مفسراً كما في هذا الحديث أن المراد: القراءة وهو يصلي، فكان صلوات الله وسلامه عليه يرفع صوته في القراءة، رجاء أن يؤثر فيمن يسمعه من كفّار قومه فيسلموا، ويسمعه من معه من المسلمين فيحفظوا، وكان للقرآن وقع عظيم في قلوبهم وأثر بالغ في نفوسهم، ولذلك منعه الملأ من الكفار؛ خوفاً أن يتأثر به بعضهم فيسلموا، كما جربوا ذلك وقالوا: إن رفعت صوتك به هجوناك، وهجونا من قاله، ومن جاء به، فأمره الله -تعالى- أن لا يرفع صوته، وألا يخافت به بحيث لا يسمعه من عنده من المسلمين، بل يبتغي بين الجهر والإخفات سبيلاً، فيكون وسطاً بين الجهر والإخفات.

والمقصود قوله: «**أُنزلَت ورسول الله -ﷺ- متوار بمكة**» والإنزال غير الخلق، بل هو كلامه، نزل بعلمه -تعالى-، فهو صفته.

فلا يجوز أن يعطى حكم المخلوق المفعول، كما أن المخلوق لا يجهر به ولا يخافت، وكون الرسول -ﷺ- وغيره ممن يقرؤه، يرفع صوته به أو يخفضه، لا يخرجه من كونه كلام، بل هو دليل على أنه كلام الله -تعالى- قرأه عبده، فرفع به صوته أو خفضه؛ لأن الكلام لمن قاله مبتدئاً، لا لمن قاله مبلغاً مؤدياً، كما سيأتي بيان ذلك.

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٥/١٨٨).

قال: «بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ حق. ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ باللعب.

قال الله -تعالى-: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد -ﷺ-: سيقول لك المخلفون في أهليهم عن صحبتك -إذ سرت معتمراً، تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾، وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من مغانم خيبر-: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، يقول: أن يغيروا وعد الله لأهل الحديبية، وذلك أن الله -تعالى- جعل مغانم خيبر لهم، ووعدهم ذلك، عوضاً من غنائم أهل مكة، إذ انصرفوا عنهم على صلح ولم يصيبوا منهم شيئاً»[2]. ثم روى ذلك عن مجاهد، وقتادة، ومقسم.

قال الحافظ: «قال ابن بطال: أراد بهذه الترجمة، وأحاديثها، ما أراد في الأبواب قبلها -أن كلام الله تعالى- صفة قائمة به، وأنه لم يزل متكلماً ولا يزال.

والذي يظهر أن غرضه أن كلام الله، لا يختص بالقرآن، فإنه ليس نوعاً واحداً، وأنه وإن كان غير مخلوق، وهو صفة قائمة به، فإنه يلقيه على من يشاء من عباده بحسب حاجتهم في الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم، وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد»[3].

---

(١) الآية ١٥ من سورة الفتح.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٧٩-٨٠).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٦٧).

قال في: «خلق أفعال العباد»: «باب: ما كان النبي -ﷺ- يذكر ويروي عن ربه -عز وجل-» ثم ذكر نحو ما ذكره هنا من الأحاديث.

ويمكن أنه أراد بيان أن كلام الله يكون بأمره وشرعه، ووعده وجزائه، بخلاف خلقه، فإنه الصادر عن قوله: «كن»، وخلق الله لا يبدل، كما قال -تعالى-: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾أما قوله: فيمكن أن يبدل، أو يحرف. وهذه الآية من الأدلة على أن هذا القرآن كلام الله -تعالى-، وأن ما يقوله الأشاعرة أن كلام الله: ما قام في نفسه، باطل، إذ لا يمكن أن يبدل ما في نفسه تعالى.

وقد تبين بما ذكره ابن جرير -رحمه الله- أن معنى قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ هو خروج المتخلفين عن الحديبية إلى خيبر؛ لأن الله -تعالى- وعدهم مغانم خيبر خاصة بهم.

والقول الثاني في الآية: أن المراد تبديله هو قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا﴾. غير أن ابن جرير رد هذا القول.

وسياق الآية يؤيد هذا القول، فإنه تعالى قال: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾. والله أعلم.

قال البغوي: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ حق، وجد، يفصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ باللعب، والباطل»[1].

□□□

(١) تفسير البغوي على هامش الخازن (٧/ ٢٣٤).

١١٨- قال: «حدثنا الحُمَيْديُّ، حدثنا سُفْيانُ، حدثنا الزُّهْريُّ، عن سعيدِ بنِ المُسَيَّبِ، عن أبي هريرةَ، قالَ: قالَ النبيُّ -ﷺ-: «قالَ اللهُ -تعالَى- يُؤْذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أُقَلِّبُ الليلَ، والنهارَ».

قال ابن كثير: «معناه أنهم يقولون: يا خيبة الدهر، فعل كذا وكذا. فيسندون أفعال الله -تعالى- إلى الدهر، ويسبونه، وإنما الفاعل هو الله -عز وجل-، فنهى عن ذلك، هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء»[١].

وقال شيخ الإسلام: «للناس في هذا الحديث قولان:

أحدهما: قول أبي عبيد وأكثر العلماء: إنه خرج الكلام فيه لرد ما يقوله أهل الجاهلية، ومن أشبههم: فإنهم إذا أصابتهم مصيبة، أو منعوا أغراضهم، أخذوا يسبون الدهر، والزمان، يقول أحدهم: قبح الله الدهر الذي شتت شملنا، ولعن الله الزمان الذي جرى فيه كذا وكذا، وما يقع كثيراً من الشعراء، وأمثالهم، كقولهم: يا دهر، فعلت كذا، وهم يقصدون سب من فعل تلك الأمور ويضيفونها إلى الدهر، فيقع السب على الله -تعالى وتقدس-؛ لأنه هو الذي فعل تلك الأمور، وأحدثها، والدهر مخلوق له، هو الذي يصرفه، ويقلبه.

والتقدير: أن ابن آدم يسب من فعل هذه الأمور، وأنا فعلتها، فإذا سب الدهر فمقصوده سب الفاعل، وإن أضاف الفعل إلى الدهر، فالدهر لا فعل له، وإنما الفاعل هو الله وحده.

وهذا كرجل قضى عليه قاضٍ بحق، أو أفتاه مفت بحق، فجعل يقول: لعن الله من قضى بهذا، أو أفتى بهذا، ويكون ذلك من قضاء النبي -ﷺ- وفتياه، فيقع السب عليه، وإن كان الساب لجهله أضاف الأمر إلى المبلغ، وهو ليس له إلا فعل التبليغ.

وأما الزمان، فلا فعل له، وإنما الله هو الذي يقلبه ويصرفه.

والقول الثاني: قول نعيم بن حماد، وطائفة معه: أن الدهر من أسماء الله، ومعناه: القديم الأزلي.

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥١٧).

وهذا المعنى صحيح؛ لأن الله -تعالى- هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، ولكن لا يسمى بالدهر، الذي هو الزمان، أو ما يجري مجرى الزمان»[١].

وقال ابن قتيبة: «معناه: أن العرب في الجاهلية يقولون: أصابني الدهر في مالي، ونالتني قوارع الدهر، وبوائقه، ويقول الهرم: حناني الدهر. فينسبون كل شيء تجري به أقدار الله -عز وجل- عليهم من موت، أو سقم، أو ثكل، أو هرم إلى الدهر، ويلعنونه، ويسمونه: المنون، كما ذكر الله عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ والمنون: المنية، قال أبو ذؤيب:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

فقال رسول الله -ﷺ-: «لا تسبوا الدهر، إذا أصابتكم المصائب ولا تنسبوها إليه، فإن الله -عز وجل- هو الذي أصابكم بذلك، لا الدهر»[٢].

وهذا هو ما ذكره شيخ الإسلام عن جمهور العلماء.

وكثير من الناس واقعون في هذا المنكر. وتقدم الكلام فيه.

والمقصود هنا: قوله: «قال الله: يؤذيني ابن آدم». وهذا خبر يتضمن النهي، والله -تعالى- يتأذى من فعل بني آدم، ولكن لا يضره شيء تعالى وتقدس، ووجه الشاهد منه أن هذا القول صدر من الله فيه إخباره -تعالى- عما يقع له من بني آدم، وهو بمعنى النهي والزجر، ومعلوم أنه لا يقع شيء إلا بإذنه وإرادته، ومن يسب الدهر كأنه يريد تبديل حكم الله وأمره الذي وجدت به الكائنات.

وقوله: «**وأنا الدهر**» لا يدل على أنه تعالى اسمه الدهر؛ لأنه فسره بقوله: «**بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**» فكونه تعالى بيده الأمر يقلب الليل والنهار، هو معنى قوله: «**أنا الدهر**».

□□□

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) «تأويل مختلف الحديث» (ص١٥١).

١١٩- قالَ: «حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا الأَعْمَشُ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبي -ﷺ- قالَ: «يقولُ اللهُ -عز وجلِ- الصومُ لي، وأنا أَجْزي به، يَدَعُ شهوتَهُ، وأَكْلَهُ وشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي، الصومُ جُنَّةٌ، وللصائمِ فرحتان، فرحةٌ حينَ يُفْطِرُ، وفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ، ولَخَلُوفُ فَمِ الصائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِنْ ريحِ المِسْكِ».

«الصوم لي» يعني: أن الصوم غالباً يكون خالصاً لله -تعالى- سالماً من شوائب الشرك، من إرادة غير الله -تعالى-؛ لأنه أمانة بين العبد وربه لا يطَّلع عليه إلا الله -تعالى-، فإنه يجوز أن يظهر للناس أنه صائم، وهو في حقيقة الأمر غير صائم.

فإذا امتنع من شهوته وأكله وشربه، دل ذلك على أنه أراد ما عند الله -تعالى- وقد فسره بقوله: «يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي».

قوله: «وأنا أجزي به» يعني: أن جزاء الأعمال قد أخبر الله -تعالى- عباده بها، أن الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمِئَةِ ضعف، أما الصوم فالله يجزي به بدون تقدير؛ لعظيم جزائه، وهذا يدل على فضل الصوم إذا كان خالصاً لله -تعالى-.

«يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي» هذا هو السبب في كونه لله، وأنه يتولى جزاءه بغير تقدير، وفسرت الشهوة بالجماع، والأولى أن تكون عامة في كل ما يشتهي، ويكون عطف الأكل والشرب من عطف الخاص على العام.

«الصوم جنة» في رواية سعيد بن منصور: «جنة من النار»، ومثله عند النسائي.

وفي رواية له من حديث عثمان بن أبي العاص: «الصيام جنة كجنة أحدكم من القتال».

والجنة: بضم الجيم: الوقاية، والستر، وهذا أولى ما فسر به متعلق الجنة. واختار النووي: أنه جنة من جميع الشرور.

وفي رواية لأحمد: «الصيام جنة ما لم يخرقها»، زاد الدارمي: «بالغيبة»[١].

---

(١) انظر «الفتح» (٤/ ١٠٤).

«**وللصائم فرحتان:** فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربه» يعني: أنه يفرح إذا كمل يومه صائماً، فيؤمل ثواب ذلك عند الله، ويتناول طعامه وشرابه الذي أحله الله له بعد ما منعه منه لأجل صومه.

ويفرح إذا لقي ربه عندما يجزيه أعظم جزاء، وهذه أعظم فرحة وأحلى.

«ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» الخلوف هو: تغير الفم من أثر خلو المعدة من الطعام، فيتصاعد منها أبخرة تغير رائحة الفم.

ولما كان ذلك بسبب الطاعة، كان عند الله طيباً، كدم الشهيد، فإنه يأتي يوم القيامة لونه لون الدم، ورائحته رائحة المسك».

والمقصود من الحديث قوله: «يقول الله -تعالى- الصوم لي» إلى آخره، كالذي قبله. ووجه الشاهد منه: أن الله يقول هذا القول الذي فيه حث العباد وترغيبهم في الصوم، فهو مما شرعه الله -تعالى- لعباده، ورضيه لهم بقوله وأمره، وهو قول أنزله على رسوله ليبلغه.

□□□

١٢٠- قالَ: «حدثنا عبدُاللهِ بنُ محمدٍ، حدثنا عبدُ الرزاق، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن هَمّام، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ -ﷺ- قال: «بينما أيوبُ يغتسلُ عرياناً، خَرَّ عليهِ رِجْلُ جَرادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فجعلَ يحثي في ثوبِهِ، فنادى ربه: يا أيوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُك عَمّا تَرَى؟ قالَ: بَلَى يا ربِّ، ولكنْ لا غِنَى بي عَنْ بَرَكَتِكَ».

«بينما أيوب يغتسل عرياناً» يعني: وهو خال. استدل به البخاري على جواز الغسل عرياناً في الخلوة، فقال: باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، ومن تستر، فالستر أفضل»[1].

«خر عليه رجل جراد من ذهب» رجل الجراد: القطعة من الجراد، كما قال الأزهري: «الرجل: القطعة من الجراد»[2].

وهذا جراد على خلاف المعهود، وإنما هو ذهب أنزله الله على نبيه أيوب، على صور الجراد، وذلك من جزاء صبره على البلاء، ورضاه بما قدره الله.

«فجعل يحثي في ثوبه» أي: يجمع من ذلك الذهب بيديه جميعاً، ويضعه في ثوبه.

«فنادى ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك؟» هذا النداء يجوز أن يكون بواسطة، ويجوز أن يكون بدون واسطة على ظاهره؛ لأنه تجرد عن قرينة تعين ذلك. وقوله: «ألم أكن أغنيتك؟» يدل على أن الله -تعالى- قد أعطاه من المال قبل هذا ما فيه غناه، ولهذا قال: «بلى يا رب، ولكن لا غنى بي عن بركتك» سمي هذا الذهب بركة؛ لأنه أرسل عليه بدون صنع آدمي أو كده، بل هو من عند الله -تعالى-، ففي ذلك طلب الزيادة من الخير. وفيه ما جبل عليه الإنسان من حب المال.

والمقصود منه قوله: «فنادى ربه: ألم أكن أغنيتك عما ترى؟» إذ هو من كلام الله -تعالى- لنبيه أيوب، المتضمن إفضاله عليه، وتكريمه له بما أعطاه بدون حساب.

□□□

(١) انظر «الصحيح» (١/ ٥٣) الباب رقم (٢٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ٣٠).

١٢١- قال: «حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالكٌ، عن ابنِ شهابٍ، عن أبي عبدِاللهِ الأغَرِّ، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «يَتَنَزّلُ رَبُّنا -تبارك وتعالى- كُلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليلِ الآخرُ فيقولُ: مَنْ يَدْعُوني، فأستجيبَ له، مِنْ يَسْألُني، فأُعْطِيَهُ، مَنْ يستغفرني فأغفرَ له».

هذا الحديث له طرق متعددة ومستفيضة، قال ابن عبدالبر: «هذا الحديث منقول من طرق متواترة، ووجوه كثيرة، من أخبار العدول، عن النبي -ﷺ-»[١].

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها، في كل زمان، على الإيمان بهذا الحديث وتلقيه بالقبول، كما أراد رسول الله -ﷺ- فإنه قاله علانية.

وبلغه الأمة تبليغاً عاماً، لم يخص به واحداً دون الآخرين.

وكان الصحابة وأتباعهم يذكرونه، ويروونه، ويبلغونه تبليغاً عاماً.

ولهذا ثبت في عامة كتب الإسلام، فمن أنكره، أو زعم أنه لا يجوز ذكره عند عامة الناس، أو تأوله على غير ظاهره، فهو ضال، سالك غير سبيل المؤمنين في ذلك.

ومن زعم أنه يدل على ما يجب أن ينزه الله عنه، من النقص المنافي لكماله، فقد أُتي من فهمه الخاطىء، وسوء ظنه بالله العظيم.

فإن وصف الله -تعالى- بالنزول كوصفه بغيره من الصفات، مثل الاستواء والفوقية والمجيء، والرضا والغضب، وغير ذلك مما وصف تعالى به نفسه ووصفته به رسله، يجب أن يؤمن به كله على وتيرة واحدة، إيماناً بلا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف ولا تأويل.

ولا يجوز للإنسان مهما كان من العلم أن ينصب نفسه مستدركاً على الله ورسوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ .

قال ابن عبدالبر: «إن من نظر إلى إسلام أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعد، وعبدالرحمن، وسائر المهاجرين والأنصار، وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجا، علم أن الله -عز وجل- لم يعرفه واحد منهم إلا

---

(١) انظر «التمهيد» (١٢٨/٧).

بتصديق النبيين بأعلام النبوة، ودلائل الرسالة، لا من قبل حركة، ولا من باب الكل والبعض، ولا من باب كان ويكون.

ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجباً، [أو النظر] في الجسم ونفيه، والتشبيه ونفيه، لازماً ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم.

ولو كان ذلك من عملهم مشهوراً، أو من أخلاقهم معروفاً، لاستفاض عنهم، ولشهروا به، كما شهروا بالقرآن.

وقول رسول الله -ﷺ-: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا» عندهم مثل قول الله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، ومثل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ كلهم يقول: ينزل، ويتجلى، ويجيء، بلا كيف، ولا يقولون: كيف يجيء؟ وكيف يتجلى؟ وكيف ينزل؟ ولا من أين جاء، ولا من أين يتجلى؟ ولا من أين ينزل؟؛ لأنه ليس كشيء من خلقه، تعالى عن الأشياء، لا شريك له.

وفي قول الله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجلياً للجبل، وفي ذلك ما يفسر معنى حديث النزول، ومن أراد أن يقف على أقاويل العلماء في قوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ فلينظر في تفسير بقي بن مخلد، ومحمد بن جرير، وليقف على ما ذكرا، ففيما ذكرا منه كفاية، وبالله العصمة والتوفيق»[(1)].

وما ذكره الحافظ في شرح هذا الحديث من كلام أهل التأويل، فإن كل من آمن بأن رسول الله -ﷺ- بلغ ما أرسل به البلاغ المبين وآمن بأنه ﷺ أفصح الناس، وأقدرهم على البيان، وأنصحهم للخلق، من آمن بهذا علم أن ما ذكره كله باطل، وتغبير في وجه الحق، وزبد يذهب جفاء أمام نور النبوة.

فقوله: إن الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم المشبهة.

---

(١) «التمهيد» (٧/ ١٥٢-١٥٣).

يقال له: بل الذين حملوه على ظاهره وحقيقته هم الصحابة عموماً وأتباعهم إلى يوم الدين، ولا تستطيع أن تأتي بكلمة واحدة عن الرسول، أو عن أصحابه، تؤيد قول أهل التحريف الذين يسمون أنفسهم أهل السُّنَّة.

قال شيخ الإسلام: «والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة، لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السُّنَّة والحديث أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السُّنَّة، ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة، يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمة، وتكون إما غلطاً، أو محرفة، كقول الأوزاعي في النزول: «يفعل الله ما يشاء» فسره بعضهم بأن النزول مفعول مخلوق، وليس الأمر كذلك»[(1)].

وقال أبو عثمان الأنصاري: «ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب -سبحانه وتعالى- كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل ولا تكييف، بل يثبتون ما أثبته رسول الله -ﷺ- وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله، وكذلك يثبتون ما أنزله الله -عز اسمه- في كتابه من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله -عز وجل-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[(2)].

وقوله -تعالى-: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ نؤمن بذلك كله على ما جاء بلا كيف، فلو شاء أن يبين لنا كيفية ذلك لفعل، فانتهينا إلى ما أحكمه، وكففنا عن الذي يتشابه.

ثم روى بسنده عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، قال: قال لي الأمير عبدالله ابن طاهر: يا أبا يعقوب، هذا الحديث الذي تروونه عن رسول الله -ﷺ- «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا» كيف ينزل؟ قال: قلت: أعز الله الأمير: لا يقال لأمر الرب: كيف، إنما ينزل بلا كيف.

ثم روى عن أحمد بن سعيد الرياطي، قال: حضرت مجلس الأمير عبدالله بن طاهر، ذات يوم، وحضر إسحاق بن راهويه، فسئل عن حديث النزول، أصحيح هو؟ قال: نعم. فقال له بعض قواد عبدالله: يا أبا يعقوب، أتزعم أن الله ينزل كل

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٠٩).

(٢) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ فقال له إسحاق: أثبته فوق، حتى أصف لك النزول، فقال الرجل: أثبته فوق؟!

فقال إسحاق: قال الله -عز وجل-: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، فقال الأمير عبدالله: يا أبا يعقوب، هذا يوم القيامة، فقال إسحاق: أعز الله الأمير، ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم؟[1]

وقوله: «**ويكلون علمه إلى الله**» يعني: علم الكيفية، لا يبحث فيها؛ لأن الكيفية تتوقف على المشاهدة، والله تعالى لا يُرى في الدنيا، وكذا قول إسحاق بن راهويه: «إنما ينزل بلا كيف»، يعني: بلا كيف يعلمه العباد، وإلا ففي حقيقة الأمر له كيفٌ يعلمه الله -تعالى-.

قال أبو سعيد الدارمي -رحمه الله-: «فمن ما يعتبر به من كتاب الله -عز وجل- في النزول، ويحتج به على من أنكره: قوله -تعالى-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، وهذا يوم القيامة، فالذي يقدر على النزول يوم القيامة من السماوات كلها، للفصل بين عباده، قادر أن ينزل كل ليلة من سماء إلى سماء.

فإن ردوا قول رسول الله -ﷺ- في النزول، فماذا يصنعون بقول الله -عز وجل-؟»[3].

ثم ذكر بعض أحاديث النزول، ثم قال: «فهذه الأحاديث قد جاءت كلها -وأكثر منها- في نزول الرب -تبارك وتعالى- وعلى تصديقها والإيمان بها أدركنا أهل الفقه والبصر من مشايخنا، لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها، حتى ظهرت هذه العصابة، فعارضت آثار رسول الله -ﷺ- بردها، وتشمروا لدفعها بجد، فقالوا: كيف نزوله؟ قلنا: لم نكلف كيفية نزوله في ديننا، ولا تعقله قلوبنا، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلاً أو صفة بفعالهم وصفتهم، ولكن ينزل بقدرته، ولطف ربوبيته، كيف يشاء.

---

(١) «عقيدة أصحاب الحديث»، «مجموعة الرسائل المنيرية» (١/ ١١٢) ملخصاً.

(٢) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

(٣) «رد عثمان بن سعيد على الجهمية» (ص٦٣).

فالكيف منه غير معقول، والإيمان بقول رسول الله -ﷺ- في نزوله واجب، ولا يُسأل الرب عما يفعل، وكيف يفعل، وهم يُسألون؛ لأنه القادر على ما يشاء، وإنما يقال لفعل المخلوق الضعيف، الذي لا قدرة له إلا ما أقدره الله -تعالى- عليه: كيف يصنع، وكيف قدر.

ولو قد آمنتم باستواء الرب على عرشه، وارتفاعه فوق السماء السابعة بدءاً إذ خلقها، كإيمان المؤمنين به، لقلنا لكم: ليس نزوله من سماء إلى سماء بأشد عليه ولا أعجب من استوائه عليها إذ خلقها بدءاً، فكما قدر على الأولى كيف يشاء يقدر على الأخرى كيف يشاء.

وليس قول رسول الله -ﷺ- في نزوله بأعجب من قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (2) فلما قدر على هذا يقدر على ذاك، فهذا الناطق من قول الله -عز وجل-، وذاك المحفوظ من قول رسول الله -ﷺ- بأخبار ليس عليها غبار.

فإن كنتم من عباد الله المؤمنين لزمكم الإيمان بها كما آمن بها المؤمنون، وإلا فصرحوا بما تضمرون، ودعوا هذه الأغلوطات، التي تلوون بها ألسنتكم، فلئن كان أهل الجهل في شك من أمركم، فإن أهل العلم من أمركم لعلى يقين»(3).

وقال أبو عمرو الطلمنكي: «أجمعوا -يعني: أهل السُّنَّة والجماعة- على أن الله يأتي يوم القيامة، والملائكة صفاً صفاً؛ لحساب الأمم وعرضها، كما يشاء وكيف يشاء، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(4)، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (5) وأجمعوا على

(1) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

(2) الآية ٢٢ من سورة الفجر.

(3) «الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمي (ص٧٩-٨٠).

(4) الآية ٢١٠ من سورة البقرة.

(5) الآية ٢٢ من سورة الفجر.

أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، على ما أتت به الآثار، كيف شاء، لا يجدون في ذا شيئاً»[1].

ولا يعرف عن السلف وأهل العلم المقتدى بهم من أنكر النزول، أو تأوله، فإنه مثل صفات الله الأخرى، كالاستواء، والمجيء، والرضا، والغضب، بل والخلق، والرزق، والإحياء والإماتة، فمن آمن بشيء من ذلك لزمه الإيمان بالباقي؛ لأن الباب واحد، ولا يجوز فيه قياس أو تمثيل، تعالى الله عن قول أهل الباطل من المحرفين بالتأويلات الفاسدة، والمعطلين.

وما ذكره الحافظ في شرحه لهذا الحديث عن البيضاوي من قوله:

«لما ثبت بالقواطع أنه سبحانه منزه عن الجسمية، والتحيز، امتنع عليه النزول، على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه.

فالمراد: نور رحمته، أي: ينتقل من مقتضى صفة الجلال التي تقتضي الغضب والانتقام، إلى مقتضى صفة الإكرام التي تقتضي الرأفة والرحمة»[2].

فهذا من كلام أهل البدع الذين اعتاضوا عن كلام الله ورسوله بنحاتة أفكار أهل الاعتزال، والتجهم، الذين لم يعرفوا من أوصاف الله -تعالى- إلا ما يعرفونه من أنفسهم، فقاسوا نزول الله، واستواءه على عرشه، ومجيئه يوم القيامة، على نزولهم من أعلى إلى أسفل، واستوائهم على ما هو مرتفع، ومجيئهم من مكان إلى آخر.

ولهذا قال: منزه عن الجسمية، والتحيز؛ لأنه اعتقد أن هذه الصفات لا تثبت إلا للجسم، والمتحيز، مع أن الجسمية والتحيز من الألفاظ المجملة التي تحتمل حقاً وباطلاً.

فإن كان يريد بالجسمية: القائم بنفسه البائن عن غيره، فالله -تعالى- قائم بنفسه، وبائن من خلقه، وإن كان يريد بالجسمية: الذي تصح الإشارة إليه، ويكون في مكان، فالله -تعالى- يشار إليه وتتوجه قلوب عباده إليه من فوقهم، وهو فوق عرشه مستوٍ عليه، كما علم المؤمنون.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٧٨).

(٢) «الفتح» (٣/ ٣١).

وإن كـان يريد بالجسمية البدن، والجسد المركب من الأعضاء واللحم والدم ونحو ذلك، فالله -تعالى- ليس كمثله شيء، وهو منزه عن ذلك، ولم تدل النصوص على هذا.

وإن كان يريد بالمتحيز: الذي تحوزه الأشياء وتحيط به، فالله -تعالى- أجلُّ وأعظم من أن يحيط به شيء مخلوق.

وإن كان يريد أنه تعالى منحاز عن خلقه فلا يحيطون به، وليس حالاً فيهم، ولا شيء من مخلوقاته فيه -تعالى وتقدس، فالله -تعالى- كذلك، وقد علم أن مراد هؤلاء تعطيل الله -تعالى- عما وصف به نفسه وعما وصفه به رسوله، ولكنهم لم يجرؤوا على رد ذلك صراحة، فجاؤوا بمثل هذه الألفاظ المجملة، التي يظنها من لا يعرف مرادهم مراداً بها التنزيه، وهم يريدون تعطيل الله من أوصافه.

ولا يجوز أن يرد كلام رسول الله -ﷺ- بمثل هذه الأغلوطات، التي يزعم البيضاوي وفريقه أنها أدلة قطعية، والحقيقة أنها شبهات تقطع المفتون بها عن سبيل الهدى.

ثم نقول لهؤلاء: أأنتم أعلم بالله من الله؟ أم أنتم أعلم بالله من رسوله؟ أم أنتم أعظم تنزيهاً لله من رسوله؟ أم أنتم أقدر على البيان من رسوله؟ أم أنتم أحرص على هداية الأمة، وسلامة عقيدتها من رسول الله -ﷺ-؟ أم أنتم أشد غيرة على الله من رسول الله؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

قال شيخ الإسلام: «إذا قال [أهل التأويل]: النزول، والاستواء، ونحو ذلك من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل النزول، والاستواء، إلا لجسم مركب، والله منزه عن هذه اللوازم، فيلزم تنزيهه من ذلك.

أو قالوا: هذه حادثة، والحوادث لا تقوم إلا بجسم مركب.

وكذلك إذا قالوا: الرضا والغضب، والفرح، والمحبة، ونحو ذلك هو من صفات الأجسام.

فيقال لهم: وكذلك الإرادة، والسمع والبصر، والعلم، والقدرة، من صفات الأجسام، فكما لا يعقل ما يسمع، ويبصر، ويريد، ويعلم، ويقدر، إلا جسم.

وإن قالوا: سمعه ليس كسمعنا، وبصره ليس كبصرنا، وإرادته وعلمه وقدرته.

قيل: وكذلك نزوله، واستواؤه، ورضاه، وغضبه، وفرحه، ليس كنزولنا واستوائنا، ورضانا وغضبنا وفرحنا.

فإن قالوا: لا يعقل في الشاهد نزول إلا انتقال، فيقتضي تفريغ مكان، وشغل آخر.

قيل: كذلك لا يعقل في الشاهد إرادة إلا ميل القلب إلى جلب ما يحتاج إليه المريد وينفعه، وفي ذلك فقره إلى ما سواه، ودفع ما يضره.

والله أخبرنا كما في الحديث الإلهي بقوله: «إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني». فهو منزه عن الإرادة التي لا يعقل في الشاهد إلا هي، وكذا السمع لا يعقل إلا بدخول صوت في الصماخ، وذلك لا يكون إلا في جوف، والله منزه عن ذلك، فهو أحد صمد، كما قال ابن مسعود، وابن عباس، وغيرهما من السلف: «الصمد: الذي لا جوف له»[1].

والمقصود أن هؤلاء المؤولة، أهل التحريف، يلزمهم على أصلهم أن لا يثبتوا لله صفة، وكفى بذلك ضلالاً وكفراً.

أو أن يؤمنوا بصفات الله -تعالى- كلها، على ما جاءت بها النصوص، بلا تحريف، ولا تمثيل، على ما يليق بعظمة الله وجلاله، كما أخبر تعالى بأنه لا سمي له، ولا ند له، ولا مثيل له، فإن الباب واحد.

ويجب أن يؤمن بصفات الله -تعالى- على وتيرة واحدة، وأن يطرح القياس وتوهم التمثيل، ويسلم للنص.

وما ذكره الحافظ، عن ابن العربي، أنه اختار التأويل، وأن النزول راجع إلى أفعاله، لا إلى ذاته، بل ذلك عبارة عن ملكه الذي ينزل بأمره ونهيه... إلى آخر كلامه المتهافت.

فيقال أولاً: بئسما اخترت، فإنك اخترت الباطل.

ثم يقال له أيضاً: أخبرنا من أين ينزل أمره ونهيه، وأنت وقبيلك تنكرون أن يكون الله فوق مخلوقاته؟ أينزل أمره ونهيه من العدم؟ ويلزمكم أن يكون الملك

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٥٢) ملخصاً.

الذي ينزل بأمره ونهيه -كما يزعمون- أكمل من رب العالمين؛ لأنه كان عالياً، ومن يكون أعلى فهو أكمل ممن هو أسفل منه.

ثم يقال له أيضاً: الملائكة لا تزال تنزل إلى الأرض، وإلى السماء الدنيا وغيرها بأمر الله، بالليل والنهار، فما بال هذا النزول يتحدد له ثلث الليل الآخر؟

ويقال له أيضاً: إن في الحديث قوله -تعالى-: «من يسألني فأعطيه؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له» وهذا لا يجوز أن يقوله إلا رب العالمين، وهل يجوز أن الملك يقول: من يستغفرني؟ وهذا كافٍ في إبطال قول المتأولين، كما يبطل قول الحافظ: «مما يقوي التأويل ما رواه النسائي في بعض طرق الحديث: «ينادي مناد: هل من داع فيستجاب له» الحديث، وزعم القرطبي أن هذا يزيل الإشكال.

ونحن نقول لهؤلاء: إن الإشكال لازم لمذهبكم ولن ينفك عنه، ولن تجدوا ما يؤيده وإن أجهدتم أنفسكم، فهذه الرواية لا تخالف اللفظ الصريح الواضح الذي ضيق خناقكم، وقد جاء في بعض طرقه عند النسائي وابن ماجه قوله: «لا أسأل عن عبادي غيري».

مع أنه يجوز أن الله تعالى -مع قوله ذلك- يأمر من ينادي، ولكن المنادي لا يقول: «من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

ومن زعم أن النبي -ﷺ- قال: إن الله يأمر منادياً يقول ذلك، فهو كاذب؛ لأنه خلاف المستفيض المتواتر عنه أن المنادي هو رب العالمين.

وأما قول البيضاوي: «إن ذلك عبارة عن نور رحمته» إلى آخر ما قال.

فيقال: رحمة الله -تعالى- تنزل كل وقت وآن، لا يختص نزولها بوقت معين، ونور الرحمة لا يقول: من يسألني فأعطيه ... إلى آخره.

«والأمر والرحمة إما أن يراد بهما أعيان قائمة بنفسها كالملائكة، أو يراد بها صفات، وأعراض.

فإن أريد الأول، فالملائكة تنزل كل وقت، والنزول المذكور في الحديث خص بجوف الليل، وجعل منتهاه السماء الدنيا، ومعلوم أن الملائكة نزولهم لايختص لا بهذا الزمن، ولا بذاك المكان.

وإن أريد صفات، وأعراض، مثل ما يحصل في قلوب العابدين في وقت السحر من الرقة، والتضرع، وحلاوة العبادة، ونحو ذلك، فهذا حاصل في الأرض ليس منتهاه السماء الدنيا.

ونزول أمره ورحمته لا يكون إلا منه، وحينئذ فهذا يقتضي أنه فوق العالم، فنفس تأويلهم يبطل مذهبهم.

وكذلك يبطله ما جاء من ألفاظ الحديث، مثل قوله: «ثم يعرج» وفي لفظ: «ثم يصعد».

يضاف إليه قوله: «ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له، حتى يطلع الفجر».

ومعلوم أنه لا يجيب الدعاء، ويغفر الذنوب، ويعطي كل سائل سؤاله، إلا الله، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك»[1].

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي لما أوَّل بشر الحديث بمثل ما ذكره الحافظ: «فيقال: هذا من حجج النساء والصبيان، ومن ليس عنده بيان، ولا لمذهبه برهان؛ لأن أمر الله ورحمته ينزل في كل ساعة، ووقت، وأوان، فما بال النبي -ﷺ- يحد لنزوله الليل دون النهار، ويوقت من الليل شطره، أو الأسحار، أفأمره ورحمته يدعوان العباد إلى الاستغفار؟ أو يقدر الأمر والرحمة أن يتكلما دونه، فيقولان: هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟

فإن قررت مذهبك لزمك أن تدعي أن الرحمة والأمر هما اللذان يدعوان إلى الإجابة والاستغفار، بكلامهما، وهذا محال عند السفهاء، فكيف عند الفقهاء؟

وقد علمتم ذلك ولكن تكابرون، وما بال رحمته وأمره ينزلان عند شطر الليل ثم لا يمكثان إلا إلى طلوع الفجر ثم يرفعان؟»[2].

وليس نزوله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلثه الآخر كنزول المخلوق الذي يتخيله الجهال، حتى يلزم منه أنه دائم النزول، وأنه تحت

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤١٥-٤١٦).

(٢) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي (ص٣٧٨)، مجموع عقائد السلف.

السماوات، وفوق السماء الدنيا مقدار ثلث الليل على كل بلد، ولو كان كما يتخيله الجهال لكان النزول ممتنعاً؛ وذلك لوجوه:

أحدها: أنه لا يكون فوق العرش أبداً، بل لا يزال نازلاً.

الثاني: أنه على هذا التقدير يلزم أن يكون الزمان بقدر ما هو عليه مرات كثيرة، ليقع النزول في ثلث ليل كل بلد، مع أن الليل يختلف طوله وقصره باختلاف عرض البلاد، واختلاف الأوقات.

الثالث: أنه لو كان كما تخيله الجاهل، فكيف يبقى عند هؤلاء إلى طلوع فجرهم، ويكون نازلاً عند من هم غربهم ولم يطلع فجرهم؟ وهلم جراً.

والحق أن نزول الله -تعالى- الذي أخبر به الصادق المصدوق ليس كنزول المخلوق كما يتخيله الجهال بالله -تعالى- وأوصافه، بل يمكن أن يكون نزوله في وقت واحد لخلق كثير، ويمكن أن يكون قدره لبعض الناس أكثر، ولا يمتنع على الله -تعالى- أن يقرب إلى بعض عباده دون بعض، فيقرب إلى داعيه دون من لم يدعه.

وهذا كما أنه تعالى يحاسب عباده يوم القيامة كلهم في ساعة واحدة، وكل واحد منهم يخلو به، فيقرره بذنوبه، وذلك المحاسب لا يرى أنه يحاسب غيره.

وكما أنه سبحانه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

والمقصود من الحديث قوله: «**فيقول: من يدعوني فأستجيب له**» إلى آخره؛ لأن هذا من كلام الله الذي يحض به عباده المؤمنين بنزوله إلى التعرض إلى فضله وكرمه، فيستجيب للداعي، ويعطي السائل سؤله، ويغفر للمستغفر ذنبه، فما أكرم هذا الرب، وأقربه ممن يؤمن بقربه، وما أوسع عطاءه، ولكن أهل التعطيل والتحريف من أبعد الناس عنه، تعالى وتقدس عما تتصوره أفكارهم المنحرفة.

وقوله وكلامه -تعالى- غير خلقه، فأهل التأويل والتعطيل يريدون أن يبدلوا كلامه ذلك وقوله، وأما خلقه فإنه لا يبدل، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

□□□

١٢٢- قال: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيْبٌ، حدثنا أبو الزِّنادِ، أن الأَعْرَجَ حَدَّثَهُ، أنه سمعَ أبا هريرةَ، أنه سَمعَ رسولَ اللهِ -ﷺ- يقولُ: «نحنُ الآخرونَ السابقونَ يومَ القيامةِ»، وبهذا الإسناد: «قالَ اللهُ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ».

قوله: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» يعني: أن هذه الأمة آخر الأمم في الدنيا وعليها تقوم الساعة، وهم أول الأمم دخولاً الجنة، ويحاسبون قبل الناس كلهم.

والمقصود قوله: «قال الله: أنفق أنفق عليك» إذ هو قول الله، رواه رسوله عن ربه -تبارك وتعالى- وفي هذا القول أمره لنبيه بالإنفاق في سبيل الله، والدعوة إلى دينه، ووعده -تعالى- أن ينفق عليه- أي: يعطيه ما يحتاجه لذلك وغيره.

وهذا القول يضاف إلى الله -تعالى- قولاً له حقيقة، وليس هو من القرآن، وقول الله -تعالى- غير خلقه، وتقدم هذا الحديث.

□□□

١٢٣- قال: «حدثنا زُهَيْرُ بنُ حَرْبٍ، حدثنا ابنُ فُضَيْلٍ، عن عمارةَ، عن أبي زرْعَةَ، عن أبي هريرةَ -فقالَ: «هذه خديجةُ أتتكَ بإناءٍ فيه طعَامٌ، أو إناءٍ فيه شرابٌ، فأقرئها منْ ربها السلامَ، وبَشِّرْها ببيتٍ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ».

قوله: «**فقال: هذه خديجة**» القائل هو جبرائيل، كما صرح به في باب تزويج خديجة.

قوله: «**أتتك**» في رواية : «**تأتيك**».

قوله: «**بإناء فيه طعام، أو إناء فيه شراب**» شك من أحد الرواة، وفي بعض نسخ البخاري حذفت «فيه» الثانية.

قوله: «**فأقرئها من ربها السلام**» أي: أخبرها. قال الحافظ: «زاد الطبراني في الرواية المذكورة: فقالت: هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبرائيل السلام.

قال العلماء: في هذه القصة دليل على وفور فقهها؛ لأنها لم تقل: وعليه السلام، عرفت أن الله لا يرد عليه السلام، كما يرد على المخلوقين؛ لأن السلام اسم من أسمائه -تعالى-، وهو دعاء بالسلامة، وذلك لا يصلح أن يرد به على الله. ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام، وعلى من بلغه.

واستدل بهذه القصة على أن خديجة أفضل من عائشة؛ لأن الله أرسل إليها السلام، وأما عائشة فأرسل إليها السلام جبرائيل»[1].

قوله: «**وبشرها ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**» تقدم معنى البشارة، والقصب هو قصب اللؤلؤ كما جاء مفسراً في الحديث».

قال الحافظ: «عند الطبراني في «الأوسط»، عن ابن أبي أوفى: «يعني: قصب اللؤلؤ»، وفي «الكبير» من حديث أبي هريرة: «ببيت من لؤلؤة مجوفة» وأصله في مسلم.

وفي «الأوسط» من حديث فاطمة: قلت: يا رسول الله، أين أمي خديجة؟ قال: في بيت من قصب، قلت: أمن هذا القصب؟ قال: لا، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت»[2].

---

(١) «الفتح» ملخصاً (٧/ ١٣٩).

(٢) المصدر السابق من (١٣٨) ملخصاً.

والصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت. والنصب: التعب.

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين: أنها أجابت النبي -ﷺ- طوعاً، ولم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة، ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون بيتها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها»[1].

والمقصد من الحديث قوله: «**فأقرئها من ربها السلام**» إلى آخره؛ لأن الله -تعالى- خاطب جبريل بذلك حينما أرسل معه السلام إليها، والبشارة، فهذا من كلام الله المتضمن الإكرام والإفضال على زوج سيد المرسلين -ﷺ- ورضي الله عنها وعن سائر أزواجه وأصحابه أجمعين، وهذا من كلام الله المتعلق بمشيئته الذي أكرم به من شاء من خلقه، وهو غير القرآن، وغير خلقه، فإن الخلق لا يرسل به.

□□□

(١) «الفتح» (٧/ ١٣٨).

١٢٤- قال: «حدثنا معاذُ بنُ أَسَدٍ، أخبرنا عبدُالله، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن هَمّامِ بن مُنَبِّه، عن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: قالَ اللهُ: «أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ».

قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

فلا يعلم بما أعد الله لهم من الكرامة والنعيم إلا الله -تعالى- الذي خلقه، ولذلك قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فلا أحد يستطيع وصفه؛ لأنه لم يره، ولم يسمع بمثله، ولا يتصوره أحد، وإنما يعلمه الله وحده.

روى مسلم في «صحيحه»، من حديث المغيرة بن شعبة، يرفعه، قال: «سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: هذا لك ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك، وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب.

قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر. قال: ومصداقه في كتاب الله -تعالى-: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[2].

قال القرطبي: «وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً، كما بينه هذا الحديث»[3].

والمقصود قوله: «أعددت لعبادي الصالحين» إلى آخره، فهو من قول الله -تعالى- الذي خاطب به عباده، مخبراً إياهم بما أعده -تعالى- لعباده الصالحين.

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ١٧٦).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٠٤).

والصالح: هو الذي يفعل ما أمره الله به، ويجتنب ما نهاه عنه، وإن فرط منه معصية، بادر بالتوبة والإنابة إلى ربه.

وقول الله وكلامه لا يختص بالكتب المنزلة على رسله كهذه الأحاديث، فهي من كلام الله، وكلامه غير خلقه.

❑❑❑

١٢٥- قال: «حدثنا مَحْمُودٌ، حدثنا عبدُالرزاق، أخبرنا ابنُ جُرَيْجٍ، أخبرني سليمانُ الأَحْوَلُ، أن طاوساً أخبره، أنه سمعَ ابنَ عباسٍ يقولُ: كان النبيُّ -ﷺ- إذا تَهَجَّدَ مِنَ الليلِ قالَ: «اللهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ، ولكَ الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماواتِ والأرض، ولكَ الحمدُ أنتَ رَبُّ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فِيهنَّ، أنتَ الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ، وقَولُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ الحقّ، والجنةُ حَقٌّ، والنارُ حَقٌّ، والنبيونَ حَقٌّ، والساعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبكَ آمنْتُ، وعليكَ تَوَكَّلْتُ، وإليكَ أَنَبْتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكَمْتُ، فاغفرْ لي ما قدّمتُ، وما أخّرتُ، وما أسررتُ، وما أعلنتُ، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

تقدم شرح هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، وبعض ألفاظه تختلف عما سبق، كما هي عادته إذا أعاد الحديث، وسبق التنبيه عليه.

وفي هذا الحديث ما كان عليه النبي -ﷺ- من المداومة على قيام الليل؛ لأن لفظة «كان» تدل على ذلك غالباً.

وفيه إخباته ﷺ في قيامه، واجتهاده في الدعاء والتضرع، والإخلاص، والثناء على الله -تعالى- والتوسل إليه تعالى بالإيمان بوعده ووعيده، وقوله، والتسليم له.

والإنابة: الرجوع إلى الخير خاصة. أما الرجوع إلى الشر فلا يكون إنابة، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[1] أي: عودوا إلى ما يرضى به عنكم من التوبة والانقياد لأوامره، والانتهاء عن زواجره.

والمراد من الحديث قوله: «**وقولك الحق**» أي: الثابت الذي فيه الهدى والعدل، فمحاولة المنافقين والكافرين والمفسدين تبديله، عدول منهم عن الحق، ولا يضرون بذلك إلا أنفسهم، كما أن من زعم أن الله لا يقول ولا يتكلم قد جانب الحق واستبدل به الباطل، وكلام الله -تعالى- لا نفاد له، وهو غير خلقه.

□□□

(١) الآية ٥٤ من سورة الزمر.

١٢٦- قال: «حدثنا حَجّاجُ بنُ مِنْهال، حدثنا عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ النُّمَيْرِيُّ، حدثنا يُونُسُ بنُ يزيدَ الأَيْلي، قال: سمعتُ الزُّهْرِيَّ، قال: سمعتُ عُرْوَةَ بنَ الزبيرِ، وسعيدَ بنَ المسيَّبِ، وعَلْقَمَةَ بنَ وَقّاصٍ، وعبيدَاللهِ بنَ عبدِاللهِ، عن حديثِ عائشةَ زوجِ النبيِّ -ﷺ- حين قالَ لها أهلُ الإفْكِ ما قالوا، فبرَّأها الله مما قالوا. وكُلٌّ حدثني طائفةً من الحديث الذي حدثني، عن عائشة، قالت: ولكنْ واللهِ ما كنتُ أَظُنُّ أن اللهَ يُنْزِلُ في براءتي وحياً يُتلى، ولَشَأْني في نفسي كانَ أحقرَ مِنْ أن يتكلَّمَ اللهُ فيَّ بأمر يُتلى، ولكنْ كنتُ أرجو أن يرى رسولُ اللهِ -ﷺ- في النومِ رؤيا يُبَرِّئُني اللهُ بها، فأنزلَ اللهُ -تعالى- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ العَشْرَ الآياتِ».

«**الإفك**»: أبلغ ما يكون من الكذب، والافتراء، وقيل: هو البهتان، لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله: الإفك، وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه.

فبرّأها الله مما قالوا، أي: بيّن براءتها من ذلك الإفك، الذي قاله المنافقون وروجوه في مجتمع المدينة، فآذوا به رسول الله -ﷺ- وأهل بيته وأصحابه.

ولا يزال إلى اليوم فريق ممن يتستر بالإسلام -وهو يحاربه- ينمِّي ذلك الإفك، ويشيعه، ويلفق الكذب والزور، ويحاول أن يلبِّس على السذج والمغفلين.

ولا شك أن من يفعل ذلك أنه معاند لله ورسوله، وسالك غير سبيل المؤمنين، ومؤذن لله ورسوله والمؤمنين بالحرب، وليس هو من الإسلام في شيء، بل هذا من أعظم الكفر والتكذيب لله ولرسوله.

قال الزمخشري: «نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله -ﷺ- وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها»[1].

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٥٣).

وقال أيضاً: «ولو قلبت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة، لم تر الله -تعالى- قد أغلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة -رضوان الله عليها- ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه، على طرق مختلفة، وأساليب مفننة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى، حيث جعل القَذَفَةَ ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب[1] الذي هم أهله»[2].

وقال ابن القيم: «فإن قيل: فما بال رسول الله -ﷺ- توقف في أمرها، وسأل وهو أعلم بالله، وبمنزلته عنده؟ هلاّ قال: سبحانك هذا بهتان عظيم».

فالجواب: أن هذا من تمام الحِكَم التي جعل الله هذه القصة سبباً لها، وابتلاءً لرسوله، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بها أقواماً، ويضع آخرين.

ومن تمام الابتلاء أن تأخر الوحي، ليزداد المؤمنون إيماناً، والمنافقون إفكاً، ونفاقاً، وليظهر لرسوله والمؤمنين من سرائرهم، وتتم العبودية والمنة على الصدّيقة وأبويها.

والرسول -ﷺ- كان هو المقصود بالأذى، فلذلك تولى الله -تعالى- الدفاع عنه، والرد على أعدائه، وذمهم، وتوعدهم بالعذاب العظيم»[3].

قولها: «ولكن -والله- ما كنت أظن أن الله ينزل في براءتي وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم فيّ بأمر يتلى» كانت رضي الله عنها في نفسها صغيرة، ولكنها عند الله، وعند المؤمنين، عظيمة كبيرة؛ لأنها زوج رسول الله -ﷺ- وحبيبته، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه، حينما سئل: أي الناس أحب

---

(١) قوله: «الواجب» إشارة إلى أن نفاذ الوعيد واجب، كما هو مذهب المعتزلة، وهو غير مسلم، فإن الله -تعالى- أخبر أنه يغفر الذنوب ما عدا الشرك لمن يشاء، فلا يجوز الحكم على الله -تعالى- بأنه يجب أن يعذب العصاة.

(٢) «الكشاف» (٣/ ٥٦-٥٧).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦١-٢٦٣) ملخصاً.

إليك؟ قال: عائشة، فقال السائل: ومن الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر»[1].

وقال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وهكذا أهل الفضل يحتقرون أنفسهم، ويزدرونها في حق الله -تعالى-، وذاك مما يعلي منازلهم عند الله -تعالى-.

وفيه التصريح بأن الله يتكلم بما يوحيه إلى نبيه، وكلامه -تعالى- منه ما يتعبد بتلاوته كالقرآن، وغيره كهذه الأحاديث التي ذكر البخاري شيئاً منها، وفيه أن كلامه ينزل من الله، فالله فوق خلقه، وكلامه غير مخلوق، وغير محصور في الكتب المنزلة، وهذا هو وجه الدليل منه.

وقولها: «**ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله -ﷺ- في النوم رؤيا يبرئني الله بها**» وذلك ليقينها ببراءتها، وثقتها بأن ذلك سوف يظهر لرسول الله -ﷺ-، فكانت تطمع وترجو الله -تعالى- أن يرى نبيه في المنام ما يكون فيه براءتها، ولكن الله بر كريم، وعدل حكم، له فيما يشرعه من الحكم والمنن على خلقه ما لا يحاط به، ومن ذلك ما أنزله على نبيه ببراءة زوجه أم المؤمنين، مما رماها به أهل النفاق والبهت، فحصل بذلك سروره، وسرور زوجه ووالديها والمؤمنين إلى يوم القيامة.

كما حصل بذلك فضيحة المنافقين وخزيهم وبيان كذبهم، وظهور نياتهم الخبيثة، وانكشاف شيء من مؤامراتهم ضد نبي الله، وما جاء به من هذا الدين العظيم، وغير ذلك من الحكم.

قوله: «**فأنزل الله -تعالى- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ العشر الآيات**، الذي نزل في هذه الواقعة ثماني عشرة آية، كما سبق في كلام الزمخشري -رحمه الله-.

---

(١) رواه مسلم (٧/ ١٠٩).

(٢) البخاري (٥/ ٣٦) ومسلم (٧/ ١٣٨).

والمقصود من الحديث -كما سبق قريباً- قولها: «ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى»؛ لأن فيه التصريح بأن الله يتكلم بأمره، وما يشرعه لعباده، وما يحكم به بينهم، وما يعدهم، أو يتوعدهم به، على أعمالهم، وينزل ذلك منه على نبيه، الذي يبلغ عنه.

ولا يمكن أن يأمر وينهى ويحكم، ويعد ويتوعد، ويجزي، إلا بقوله الذي يتكلم به، وليس قوله محصوراً في كتبه التي تَعَبَّدَ عباده بتلاوتها، في الصلاة وغيرها، ولكن كل ما يحكم به بين خلقه، وما يشرعه لعباده، وعده ووعيده كله بكلامه.

والمنافقون والكفار يريدون أن يبدلوا كلام الله الذي هو شرعه ودينه فيخالفونه، أو لا يمتثلونه، والله يجزيهم بما يستحقون ولا يظلمهم.

ولا أحد يستطيع تغيير خلق الله -تعالى-.

وبهذا وأمثاله يتضح أن قول أهل الاعتزال ومقلديهم من الروافض وغيرهم ممن يزعم أن قول الله -تعالى- مخلوق قول خطل، بعيد عن الصواب كل البعد.

□□□

١٢٧- قال: «حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا المغيرةُ بنُ عبدِالرحمن، عن أبي الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ، أن رسول الله -ﷺ- قالَ: «يقولُ اللهُ: إذا أرادَ عبدي أن يعملَ سيئةً فلا تكتبوها عليه حتى يعملَها، فإنْ عَملَها فاكتبوها بمثلها، وإنْ تَرَكَهَا من أجْلي فاكتبوها له حَسَنَةً، وإذا أرادَ أن يعملَ حَسَنَةً فلم يعملْها، فاكتبوها له حَسَنَةً، فإنْ عملَها فاكتبوها بِعَشْرِ أمثالها، إلى سَبْعمِئَة».

الإرادة: هي العزم على الشيء، وقد جاء في رواية ابن عباس بلفظ «الهم» وهو: ترجيح قصد الفعل على الترك، تقول: هممت بكذا، أي: قصدته بهمتي، وهو فوق خطور الشيء في القلب.

وقد يطلق الهم على الإرادة.

وهذا الخطاب من الله -تعالى- للملائكة الموكلين بحفظ عمل الإنسان وكتابته، وهو يدل على فضل الله على الإنسان، وتجاوزه عنه.

قوله: «إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها».

قد تكون الإضافة في قوله: «عبدي» بمعنى العابد المطيع، أي: عابدي، وقد تكون بمعنى المعبد المذلل، والظاهر أنه مقيد بالمؤمن.

والعمل قد يراد به عمل القلب والجوارح، وهو الظاهر؛ لأنه قد جاء ما يدل على أن عمل القلب يؤاخذ به، ويجزى عليه، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وفي الحديث الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل أخيه»[2].

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الحج.

(٢) رواه البخاري في الإيمان وغيره، انظر «الفتح» (١/ ٨٤)، ومسلم رقم (٢٨٨٨) (٤/ ٢٢١٣).

وقد جاء قيد الهم بالعزم الجازم، ففي المسند من حديث خريم بن فاتك: «من هم بحسنة يعلم الله أنه قد أشعر بها قلبه، وحرص عليها، كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة، لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة، ولم تضاعف عليه»[1].

فهذه النصوص تصلح لتخصيص عموم قوله: «**إذا أراد أن يعمل سيئة فلا تكتبوها حتى يعملها**» وهذا لا يخالف قوله في السيئة: «لم تكتب عليه»؛ لأن عزم القلب وتصميمه عمل. قوله: «فإن عملها فاكتبوها بمثلها»، يعني: سيئة واحدة، قال الله -تعالى-: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

قوله: «فإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة» قيد تركها بأنه من أجل الله -تعالى- أي: خوفاً منه، وحياءً، أما إذا تركها عاجزاً، أو خوفاً من الخلق، أو لعارض آخر، فإنها لا تكتب له حسنة، بل ربما كتبت عليه سيئة.

وفي حديث ابن عباس: «ومن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة»[4]، فأكدها بقوله: «عنده»، وبقوله: «كاملة»، وهو مقيد بما في هذا الحديث، يعني: أن يكون عدم عملها من أجل الله -تعالى-.

قوله: «وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة» إلى آخره.

---

(١) «المسند» (٤/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٢٢).

(٢) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٤٠ من سورة غافر.

(٤) رواه البخاري في «الرقاق»، الباب ٣١، وانظر «الفتح» (١١/ ٣٢٣)، ومسلم رقم (١٣١) (١/ ١١٨).

وجاء وصفها في حديث ابن عباس المشار إليه، بأنها كاملة، وهذا تفضل من الله -تعالى- الكريم المنان على عباده، فله الحمد والمنة، فأي كرم أعظم من هذا، الهم بالحسنة يكتب الله به حسنة كاملة، وعمل الحسنة يكتب به عشر حسنات إلى سبعمِئَة حسنة، وفي حديث ابن عباس المشار إليه: «إلى سبعمِئَة ضعف، إلى أضعاف كثيرة» يعني: أكثر من سبعمِئَة، فالحمدلله ذي الطول والكرم، فلن يهلك على الله إلا من لا يصلح للتفضل، وليس هو أهل لذلك.

والمقصود من الحديث كما تقدم في نظائره السابقة، **قوله: «يقول الله: إذا أراد عبدي»** فأسند القول إلى الله، واصفاً له بذلك، وهذا القول من شرعه الذي فيه وعده لعباده، وتفضله عليهم، وهو غير القرآن، وليس مخلوقاً، فقوله تعالى غير خلقه.

□□□

١٢٨- قال: حدثنا إسماعيلُ بنُ عبدِاللهِ، حدثني سليمانُ بنُ بلال، عن معاويةَ ابن أبي مُزَرِّدٍ، عن سعيدِ بن يسار، عن أبي هريرةَ -رضي الله عنه- أن رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فلمّا فَرَغَ منه قامَتِ الرَّحِمُ، فقالَ: مَهْ؟ قالتْ: هذا مَقامُ العائذِ بكَ مِنَ القَطِيعَةِ.

فقال: ألا تَرْضَيْنَ أن أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قالتْ: بَلَى يا ربِّ، قالَ: فَذَلِكِ لَكِ».

ثم قالَ أبو هريرةَ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

«أل» في الخلق تدل على الشمول، فهي عامة لجميع الخلق، ويدل عليه **قوله: «فلما فرغ»** أي: انتهى من خلق المخلوقات، وهو يدل على أن ذلك وقع في وقت محدد، وإن كان الله -تعالى- لا حد لقدرته، ولا يشغله شأن عن شأن، ولكن اقتضت حكمته أن يجعل لفعله ذلك وقتاً معيناً، وهذا من الأدلة على أن أفعاله تتعلق بمشيئته، فمتى أراد أن يفعل شيئاً فعله.

وليس معنى **قوله: «لما فرغ»** أنه تعالى انتهى من خلق كل شيء، بل مخلوقاته -تعالى- لا تزال توجد شيئاً بعد شيء، ولكن سبق علمه بها، وتقديره لها وكتابته إياها، ثم هي تقع بمشيئته، فلا يكون إلا ما سبق به علمه، وتقديره وكتابته، وشاءه فوجد.

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث: الإخبار بعظم ما جعل الله -تعالى- للرحم من الحق، وأن وصلها من أكبر أفعال البر، وأن قطعها من أكبر المعاصي»[١].

قوله: «قامت الرحم، فقال: مه؟ قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة».

هذه الأفعال المسندة إلى الرحم، من القيام، والقول، ظاهر الحديث أنها على ظاهرها حقيقة، وإن كانت الرحم معنى يقوم بالناس، ولكن قدرة الله -تعالى- لا تقاس بما يعرفه عقل الإنسان، ولا داعي أن يقال: إن الله -تعالى- جعلها في جوهر، وجعل لها حياة، وأنطقها بعد ذلك، فقد جاء أن أعمال العبد تأتيه، وتخاطبه، وتجادل عنه، وهذا من جنسه، والله أعلم.

---

(١) «بهجة النفوس» (٤/ ١٤٦).

وقيام الرحم قيام مخصوص، غير القيام المتبادر من لفظه، وقد جاء إيضاحه في الرواية التي ذكرها في «التفسير»: وفيه: «قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن»[1].

قال الحافظ: قال القابسي: «أبى أبو زيد المروزي أن يقرأ لنا هذا الحرف؛ لإشكاله، ومشى بعض الشراح على الحذف، فقال: «أخذت بقائمة من قوائم العرش».

وقال عياض: الحقو معقد الإزار، وهو الموضع الذي يستجار به، على عادة العرب؛ لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع، كما قالوا: نمنعه مما نمنع منه أزرنا، فاستعير ذلك مجازاً للرحم في استعاذتها بالله من القطيعة. انتهى. وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه، كما في حديث أم عطية: «فأعطاها حقوه، فقال: أشعرنها إياه» يعني: إزاره، وهو المراد هنا، وهو الذي جرت العادة بالتمسك به عند الإلحاح في الاستجارة، والطلب، وهذا المعنى صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة»[2].

قلت: هذا على مذهب أهل التأويل المذموم، والصواب عدم حمل كلام الله ورسوله على الاصطلاحات الحادثة بعد مضي عصر الصحابة وأتباعهم؛ لأن الله -تعالى- ورسوله -ﷺ- خاطب الناس بلغة العرب، والمخاطبون فهموا مراده، وما كانوا يفرقون بين الحقيقة والمجاز، وتقدمت الإشارة إلى ذلك.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله- في رده على الرازي في زعمه أن هذا الحديث يجب تأويله.

قال: «فيقال له: بل هذا من الأخبار التي يقرها من يقر نظيره، والنزاع فيه كالنزاع في نظيره.

فدعواك أنه لا بد فيه من التأويل بلا حجة تخصه، لا تصح»[3].

وقال: «وهذا الحديث في الجملة من أحاديث الصفات، التي نص الأئمة على أنه يمر كما جاء، وردوا على من نفى موجبه، وما ذكره الخطابي وغيره أن هذا

---

(١) البخاري مع «الفتح» (٨/ ٥٧٩).

(٢) «الفتح» (٨/ ٥٨٠).

(٣) «نقض التأسيس» (٣/ ١٢٧).

الحديث مما يتأول بالاتفاق، فهذا بحسب علمه، حيث لم يبلغه فيه عن أحد من العلماء أنه جعله من أحاديث الصفات التي تمر كما جاءت.

قال ابن حامد: ومما يجب التصديق به: أن لله حقواً.

قال المروزي: قرأت على أبي عبدالله كتاباً، فمر فيه ذكر حديث أبي هريرة، عن النبي -ﷺ-: «إن الله خلق الرحم حتى إذا فرغ منها أخذت بحقو الرحمن»، فرفع المحدث رأسه، وقال: أخاف أن تكون كفرت. قال أبو عبدالله: هذا جهمي.

وقال أبو طالب: سمعت أبا عبدالله يسئل عن حديث هشام بن عمار، أنه قرئ عليه حديث الرحم: تجيء يوم القيامة فتعلق بالرحمن -تعالى- فقال: أخاف أن تكون قد كفرت؟ فقال: هذا شامي ما له ولهذا؟ قلت: فما تقول: قال: يمضي كل حديث على ما جاء»[1].

وقال القاضي أبو يعلى: «اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره، وأن «الحقو» و«الحجزة» صفة ذات، لا على وجه الجارحة، والبعض، وأن الرحم آخذة بها، لا على وجه الاتصال، والمماسة، بل نطلق ذلك تسمية كما أطلقها الشرع. وقد ذكر شيخنا أبو عبدالله -رحمه الله- هذا الحديث في كتابه، وأخذ بظاهره، وهو ظاهر كلام أحمد»[2].

قلت: قوله: «لا على وجه الجارحة، والبعض» وقوله: «لا على وجه الاتصال والمماسة» قول غير سديد، وهو من أقوال أهل البدع، التي أفسدت عقول كثير من الناس.

فمثل هذا الكلام المجمل لا يجوز نفيه مطلقاً، ولا إثباته مطلقاً؛ لأنه يحتمل حقاً وباطلاً، فلا بد من التفصيل في ذلك، والإعراض عنه أولى؛ لأن كلام رسول الله -ﷺ- خال منه، وليس هو بحاجة إليه فهو واضح. وليس ظاهر هذا الحديث أن لله إزاراً ورداءً من جنس الأزر والأردية التي يلبسها الناس، مما يصنع من الجلود والكتان والقطن وغيره، بل هذا الحديث نص في نفي هذا المعنى الفاسد. فإنه لو

(١) المصدر المذكور (١٢٨/ ١٤١) ملخصاً.

(٢) إبطال التأويل (ص٢٣٢) مخطوط.

قيل عن بعض العباد: أن العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه؛ لكان إخباره بذلك عن العظمة والكبرياء، اللذين ليسا من جنس ما يلبس من الثياب.

فإذا كان هذا المعنى الفاسد لا يظهر من وصف المخلوق؛ لأن تركيب اللفظ يمنع ذلك، وبين المعنى المراد، فكيف يدعى أن هذا المعنى ظاهر اللفظ في حق الله -تعالى-؟ فإن كل من يفهم الخطاب، ويعرف اللغة، يعلم أن الرسول -ﷺ- لم يخبر عن ربه بلبس الأكسية والثياب، ولا أحد ممن يفهم الخطاب يدعي في قوله -ﷺ- في خالد بن الوليد «إنه سيف الله» أن خالداً حديد، ولا في قوله -ﷺ- في الفرس: «إنا وجدناه بحراً» أن ظاهره أن الفرس ماء كثير، ونحو ذلك»[1].

قوله: «مه» هي كلمة ردع وزجر، أو استفهام.

قوله: «**هذا مقام العائذ بك من القطيعة**» الإشارة إلى ما ذكر في الرواية التي أشرت إليها، وهي قوله: «قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن»، وهذا أعظم مقام، والعائذ به استعاذ بأعظم معاذ، وهو دليل على تعظيم صلة الرحم، وعظم قطيعتها.

والقطيعة: عدم الوصل، والوصل: هو الإحسان إلى ذوي الرحم، والتودد له والقرب منه، ومساعدته بإسعافه بما يرضيه، ودفع ما يؤذيه، والحرص على جلب ما ينفعه في الدنيا والآخرة.

قوله: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذلك لك**» من وصله الله، وصل إلى كل خير وسعادة في الدنيا والآخرة، ولا بد أن تكون نهايته مجاورة ربه في الفردوس؛ لأن الوصل لا ينتهي إلا إلى هناك فينظر إلى وجه ربه الكريم.

ومن قطعه الله فهو المبتوت المقطوع مع عدو الله الشيطان الطريد الرجيم، ولو أراد الخلق كلهم صلته ونفعه، لم يفده ذلك.

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ١٥٧) ببعض التصرف.

فأي تحذير وتهديد أعظم من هذا؟ وأي وعد وثواب أكبر من ثواب صلة الرحم؟ ولهذا قرأ أبو هريرة الآية مستشهداً بها، وفيها أن قطيعة الرحم مجلبة للعنة الله وغضبه وشديد عقابه.

والمقصود من الحديث: ما فيه من مخاطبة الله -تعالى- للرحم، بقوله: «مه» وقوله: «ألا ترضين» إلى آخره، وهو خطاب كريم يجب أن يؤمن به على ظاهره، وما فيه من وعده، ووعيده، وحكمه وشرعه، وخطابات الله -تعالى- وكلامه غير محصور في كتبه المنزلة على رسله، وكلامه تعالى غير مخلوقاته، كما سبق التنبيه عليه مراراً، والله أعلم.

□□□

١٢٩- قال: «حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا سفيانُ، عن صالحٍ، عن عبيدِاللهِ، عن زيدِ ابنِ خالدٍ، قال: مُطِرَ النبيُّ -ﷺ- فقالَ: «قالَ اللهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبادي كافرٌ بي، ومؤمنٌ بي».

زيد بن خالد الجهني، صاحب لواء جهينة يوم فتح مكة، من أهل بيعة الرضوان، قال ابن عبدالبر: اختلف في سنة وفاته، وفي وقتها ومكانها، اختلافاً كثيراً، فقيل: توفي في المدينة سنة ثمان وستين، وقيل: بمصر سنة خمسين، وقيل: بالكوفة في آخر خلافة معاوية، -رضي الله عنه- وعن سائر الصحابة أجمعين[١].

قوله: «مطر» أي: نزل عليه المطر ليلاً، وذلك في الحديبية، كما جاء مبيناً في هذا الحديث، ولكن المؤلف -رحمه الله- اختصره هنا، واقتصر على محل الشاهد منه.

قوله: «كافر بي، ومؤمن بي» جاء بيان ذلك في نفس الحديث، حيث قال: «أما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب».

ومعنى الإيمان هنا: الاعتراف بفضل الله، ونسبة النعم وإنزال المطر والتصرف في الكون إلى الله -تعالى-؛ لأنه هو مالك كل شيء، وخالقه والمدبر شؤون خلقه.

ومعنى الكفر في هذا الحديث: نسبة النعم، وإنزال المطر، والتأثير في الكون، إلى غير الله -تعالى- كقولهم: مطرنا بالنوء الفلاني.

والنوء هو: النجم الذي ينزله القمر، وغيره.

قال ابن عبدالبر: «النوء في كلام العرب: واحد أنواء النجوم، يقال: ناء النجم ينوء: إذا نهض للطلوع، وقد يكون يميل للمغيب»[٢].

فلا يجوز نسبة نزول المطر، وغيره إلى النجم، وإن لم يكن ذلك عن اعتقاد، فإن النجوم لا تفعل شيئاً، وليس لها تأثير، وتصريف لأحوال الجو وغيره.

أما من اعتقد أنها تفعل شيئاً من ذلك حقيقة، فهو مشرك الشرك الأكبر.

---

(١) «الاستيعاب» (٢/ ٥٤٩)، «أسد الغابة» (٢/ ٢٨٤)، «الإصابة» (٢/ ٦٠٣).

(٢) «التمهيد» (١٦/ ٢٨٧).

قال ابن عبدالبر: «معنى نسبة المطر إلى النوء هو عندي على وجهين:

أحدهما: اعتقاد أن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله -تعالى-، فذلك كافر كفراً صريحاً، يجب استتابته عليه وقتله؛ لنبذه الإسلام، ورده القرآن.

الثاني: أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء، وأنه سبب الماء، على ما قدره الله، وسبق في علمه، فهذا وإن كان وجهاً مباحاً، فإن فيه أيضاً كفراً بنعمة الله -عز وجل-، وجهلاً بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل الماء متى شاء.

قال الشافعي: لا أحب لأحد أن يقول: مطرنا بنوء كذا، وإن كان النوء عندنا: الوقت، والوقت مخلوق، لا يضر ولا ينفع، ولا يمطر، ولا يحبس شيئاً من المطر، وإنما يقول: مطرنا وقت كذا، كما يقول: بشهر كذا، ومن قال: مطرنا بنوء كذا، وهو يريد أن النوء أنزل الماء، فهو كافر حلال دمه إن لم يتب.

وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل، وبرد الليل، فكره ذلك، وقال: إن سهيلاً لم يأت قط بحر ولا برد.

وكره مالك أن يقول الرجل للغيم، أو السحابة: ما أخلقها للمطر.

وهذا يدل على أنهم احتاطوا، فمنعوا الناس من الكلام بما فيه أدنى متعلق من أمر الجاهلية»[1].

والمقصود من الحديث هنا: إسناد القول إلى الله -تعالى-، وهو قول حقيقة يخاطب به رسله من الملائكة والبشر، ويبين فيه حكمه وشرعه، وما يثيب عليه وما يعاقب عليه، وأنه يقول، ويأمر، وينهى متى شاء -جل وعلا-، وأن قوله غير مخلوق، وغير محصور في القرآن ونحوه، وقوله غير مفعولاته.

❑❑❑

---

(١) «التمهيد» (١٦/ ٢٨٥-٢٨٧) ملخصاً.

١٣٠- قال: «حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالكٌ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ -رضيَ اللهُ عنه- أن رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «قالَ اللهُ: إذا أَحَبَّ عبدي لقائي أحببتُ لقاءَهُ، وإذا كَرِهَ لقائي، كرهتُ لقاءهُ».

«إذا» هنا ظرف للزمن المستقبل، وفيها معنى الشرط.

وتقدم الكلام في صفة محبة الله -تعالى- وأنه تعالى يحب أهل طاعته من عباده، وأن ذلك ثابت بكتاب الله، وسنة رسوله، وأدلته لا تكاد تنحصر، ومنكره ضال عن طريق المنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، سالك طريق أهل الضلال والتحريف والتبديل.

وتقدم كذلك الكلام على حب العباد لله -تعالى- وأن ذلك أصل الدين، ومعنى لا إله إلا الله، وأن من لم يحب الله -تعالى- حب ذل وخضوع وتعظيم أنه ليس بمسلم ولا يعرف الإسلام.

قال ابن عبدالبر: «هذا خبر عن حال الطائفتين عند لقاء ربهم، فمن أحب لقاء الله، فهو الذي يحب الله لقاءه، ومن كره لقاء ربه عند الموت، فذاك الذي يكره الله لقاءه»(١).

وفي هذا الحديث وصف الله -تعالى- بأنه يكره بعض عباده، وبعض الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾(٢)، وقال جل وعلا: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾(٣).

وفي «صحيح مسلم»، قال رسول الله -ﷺ-: «إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٤).

---

(١) من «الفتح» (١١/ ٣٥٨) بالمعنى.

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٣٨ من سورة الإسراء.

(٤) «مسلم» (٣/ ١٣٤١).

وفيه عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً...» الخ[1].

وجاء في الرواية التي ذكرها في الرقاق بعد قوله: «كره الله لقاءه» قالت عائشة، أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت؟ «قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وأن الكافر إذا حُضِر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه».

قال الزرقاني: «عند حضور أجله إن عاين ما يحب أحب لقاء الله، وإن عاين ما يكره لم يحب الخروج من الدنيا، هذا معناه كما تشهد به الآثار المرفوعة، وذلك حين لا تقبل التوبة، وليس المراد الموت؛ لأنه لا يخلو من كراهته أحد، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا، وكراهة أن يصير إلى الله -تعالى-، قاله ابن عبدالبر»[2].

والمقصود من الحديث الجملةَ المذكورة هنا، إذ فيها قول الله -تعالى- إنه يحب لقاء بعض عباده، ويكره لقاء بعضهم.

فالمتقي يحب لقاء ربه عند انقطاع عمله، وانقضاء أجله، فيحب ربه لقاءه ليكرمه، ويجزيه فوق ما يتصوره، فضلاً من ربه تعالى.

وأما الفاجر فإنه عند معاينة رسل الله إليه، وإخبارهم إياه بعذاب الله، يكره عند ذلك ملاقاة الله، فيكره الله لقاءه، فأخبر تعالى عباده بهذا قولاً منه على لسان رسوله، وقوله غير خلقه، وأقواله تعالى غير محصورة في كتبه.

وتقدم أن لقاء الله يتضمن معاينته ورؤيته، وكل أحد من عباد الله سوف يلاقي ربه، فيسأله عن عمله، كما في حديث عدي المتقدم، والله أعلم.

□□□

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ١٣٤٠).

(٢) «شرح الموطأ للزرقاني» (٢/ ٨٥).

١٣١- قال: «حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيْبٌ، حدثنا أبو الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ عن أبي هريرةَ أن رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: قالَ اللهُ -تعالى-: أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي».

هذا الحديث تقدم في باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

والمقصود منه هنا واضح كما تقدم في الأحاديث قبله، وهو أن الله -تعالى- تكلم بهذا القول مخاطباً عباده بما يريد منهم أن يفعلوه فيثيبهم عليه، وبما يريد منهم أن يجتنبوه، حتى لا يعاقبهم، وتقدم أن الكلام صفة كمال، وأن الله -تعالى- متصف بها، وأن كلامه يتعلق بمشيئته، فمتى شاء أن يتكلم تكلم، وكما أنه تعالى في الأزل يتكلم بما يشاء، فكذلك في المستقبل، وفي كل وقت، إذا أراد أن يتكلم، وكلام الله غير محصور ولا نفاد له، وهو غير خلقه.

❑❑❑

١٣٢- قال: «حدثنا إسماعيلُ، حدثنا مالكٌ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه- أن رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «قالَ رَجُلٌ لَمْ يعملْ خيراً قَطُّ: إذا ماتَ فَحَرِّقُوهُ، واذْرُوا نِصْفَهُ في البَرِّ، ونِصْفَهُ في البحرِ، فواللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عليه لَيُعَذِّبَنَّهُ عذاباً لا يعذبُهُ أحداً من العالمينَ، فأَمَرَ اللهُ البحرَ فَجَمَعَ ما فيه، وأَمَرَ البَرَّ فَجَمَعَ ما فيه، ثم قالَ: لِمَ فعلتَ؟ قال: مِنْ خشيتِكَ، وأنتَ أعلمُ، فَغَفَرَ لَهُ».

الظاهر أن هذا الرجل من بني إسرائيل، ولهذا أورده المصنف رحمه الله في أحاديث بني إسرائيل.

وقوله: «**لم يعمل خيراً قط**» الظاهر أن المقصود عمل الجوارح، وأن عنده أصل الإيمان في قلبه، فهو مؤمن بالله، وبالجزاء والحساب، وهذا واضح من قوله: «فعلت ذلك من خشيتك وأنت أعلم»، ومن قوله: «فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني»...الخ.

وفي الرواية التي في أحاديث الأنبياء: «وكان رجل يسرف على نفسه»[1].

قوله: «إذا مات فحرقوه» عدل عن خطاب المتكلم إلى الغائب، كراهية إسناد هذه الأفعال المخبر عنها، وهذا أسلوب معروف في كلام العرب، إذا كرهوا العمل المخبر عنه، ذكروه بلفظ خطاب الغيبة كراهة إضافته إلى المتكلم لفظاً.

وقد جاء على الأصل في الرواية المذكورة في أحاديث بني إسرائيل، من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة، وحذيفة، كلهم بلفظ المتكلم: «إذا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني».

قوله: «واذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر» أي: فرقوا أجزاءه المسحوقة في الريح، التي تبعثر ذراته بعد التحريق والطحن، إمعاناً في تفرقة أجزائه، حتى لا تجتمع، ظاناً أن الله لا يقدر على جمعه وبعثه، ولهذا قال: «فوالله لئن قدر الله عليه» أي: قدر على جمعي، وبعثني حياً بعد الموت، وفي الرواية المشار إليها: «فوالله لئن قدر الله عليَّ».

---

(١) انظر «الفتح» (٦/ ٥١٤).

وهذا هو ظاهر الروايات جميعها، بل هو صريحها، وما ذكر من التمحلات والتكلفات من كثير من الشراح، لا داعي لها، وهي خلاف صريح اللفظ كقولهم: «قدر» من التقدير، وهو التضييق، أو قدر على العذاب، ونحو ذلك مما يجزم المتتبع لروايات الحديث والناظر في السياق أنه خطأ محض.

فهو شاك في قدرة الله على جمعه، وإحيائه بعد ذلك، ومع هذا عذره الله -تعالى- بجهله، وحسن قصده، وهذا يدل على أن الجاهل قد يغفر الله له وإن عمل ما يدل على كفره لو كان عالماً.

قال شيخ الإسلام: «فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهو كفر باتفاق المسلمين»[1].

وقال: «وهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل بقدرة الله -تعالى- على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذري، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك»[2].

وقال أيضاً: «فهذا شك في قدرة الله، وفي المعاد، بل ظن أنه لا يعود، وأنه لايقدر الله عليه إذا فعل ذلك، وقد غفر الله له»[3].

وهذا هو المتبادر من الحديث، فلا يعدل عنه إلا بدليل يوجب ذلك، وليس هناك ما يوجب صرفه عن ظاهره.

وقال أيضاً: «فهذا الرجل اعتقد أن الله لا يقدر على جمعه إذا فعل ذلك أو شك أنه لا يبعثه، وكل من هذين الاعتقادين كفر، يكفر من قامت عليه الحجة، لكنه كان يجهل ذلك، ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله، وكان عنده إيمان بالله، وبأمره ونهيه ووعده ووعيده، فخاف من عقابه، فغفر الله له بخشيته»[4].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٣١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٩٠-٤٩١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٧).

(٤) «الاستقامة» (١/ ١٦٤).

قوله: «**فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه**» الروايات التي اطلعت عليها كلها بلفظ الماضي الذي وقع وانتهى.

قال الحافظ: «هذا جميعه كما قال ابن عقيل: إخبار عما سيقع له يوم القيامة، وليس كما قال بعضهم: إنه خاطب روحه، فإن ذلك لا يناسب قوله: «**فجمعه الله**»؛ لأن التحريق والتفريق إنما وقع على الجسد، وهو الذي يجمع، ويعاد عند البعث»[1].

وأقول: ليس هناك ما يمنع أن يكون ذلك وقع، بل هذا هو الظاهر من الحديث برواياته المتعددة، وهو الظاهر من صنيع البخاري -رحمه الله-، حيث أورده في أحاديث بني إسرائيل التي وقعت لهم، وأورده في هذا الباب مستشهداً به على أن الله -تعالى- خاطب هذا الرجل، كما في سائر أحاديث الباب، فيكون الله -تعالى- قد أحياه، وخاطبه، ثم مات أخرى، كما حصل لقتيل بني إسرائيل، الذي أمر الله -تعالى- أن يضرب بجزء من البقرة فحيي.

أو تكون حياته بعد جمعه حياة برزخية، يخاطب فيها ويجيب، ويدرك ويعرف، كما خاطب الله -تعالى- والد جابر بعد ما قتل، قال النبي -ﷺ- لجابر: «ألا أبشرك عما لقي أبوك؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب، فقال له: عبدي، سلني...» الحديث[2]، وعلى كلٍّ فقدرة الله -تعالى- صالحة لما ذكر وغيره، والله أعلم.

قوله: «**فقال: لم فعلت؟ قال: من خشيتك وأنت أعلم، فغفر له**».

أي: لماذا أمرت أولادك بأن يحرقوك، ويذروك في يوم عاصف، نصفك في البر والنصف الآخر في البحر؟

وهذا يدل على أن من أمر بشيء، ففعل حسب أمره، أنه هو المسؤول عن ذلك وعليه تبعته، ولا يرفع ذلك المسؤولية عن المباشر للفعل، ولا سيما إذا كان فيه معصية لله -تعالى-، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق -تعالى-.

والله -تعالى- يسأله، وهو أعلم بقصده، وما أراده، وإنما ذلك لتقريره بذنبه، حتى يتم الجزاء، فلما كان الدافع له على ما أقدم عليه هو خوف الله بقصد

---

(١) «الفتح» (٦/ ٥٢٣).

(٢) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٤٢).

حسن، غفر الله له، وإن كان فعله خطأ، وجهلاً بقدرة الله -تعالى- ومع ذلك عذره الله، وغفر له.

والشاهد منه قوله: «**ثم قال: لم فعلت؟**»؛ لأنه خطاب من الله -تعالى- لهذا يسأله عن فعله، الذي خالف فيه مقتضى الإيمان بكمال قدرة الله -تعالى-، وقول الله -تعالى- وخطابه غير ما يخلقه، ويفعله مفعولاً له، وكلام الله -تعالى- داخل في أفعاله الاختيارية، ولهذا أخبر تعالى أنه لا نفاذ له، ولا يجوز قصر كلام الله على كتبه.

❑❑❑

١٣٣- قال: «حدثنا أحمدُ بنُ إسحاقَ، حدثنا عَمْرُو بنُ عاصمٍ، حدثنا هَمَّامٌ حدثنا إسحاقُ بنُ عبدِالله، سمعتُ عبدَالرحمنِ بنَ أبي عَمْرَةَ، قالَ: سمعتُ أبا هريرةَ، قالَ: سمعتُ النبيَّ -ﷺ- قالَ: «إنَّ عبداً أصابَ ذنباً -وربما قالَ: أذنبَ ذنباً- فقالَ: رَبِّ أذنبتُ ذنباً -وربما قالَ: أصَبْتُ ذنباً- فاغفرْ لي، فقالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفرُ الذنبَ، ويأخذُ به؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثم أصابَ ذنباً -أو أذنب ذنباً -فقالَ: رَبِّ أذنبتُ -أو أصبتُ- آخَرَ، فاغفرْهُ، فقالَ: أعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي.

ثُمَّ مَكَثَ ما شاءَ اللهُ، ثم أذنبَ ذنباً - وربما قالَ: أصابَ ذنباً - فقال: ربِّ أصبتُ -أو أذنبتُ- آخرَ فاغفرْهُ لي، فقالَ: أعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفرُ الذنبَ، ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي -ثلاثاً- فليعملْ ما شاءَ».

قوله: «**إن عبداً أصاب ذنباً**» هذا جنس يعم كل من كان بهذه الصفة، أي: من أذنب، ثم رجع إلى ربه هارباً من عذابه، طالباً المغفرة تائباً.

قوله: «أعلم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به» أي: أنه حقق هذا العلم باعترافه بالذنب، وإنابته إلى ربه، راغباً في مغفرته، خائفاً من عقوبته، فلذلك غفر له، ثم قال في الثالثة: «فليعمل ما شاء» يعني: ما دام يذنب ثم يستغفر ويتوب، فإن ربه -تعالى- يغفر ذنبه.

ولا يدل ذلك على أنه مصر على الذنب، فإن الإصرار على الذنب أعظم منه، ولكنه يتوب ويستغفر، ثم يغلبه الطبع، وهوى النفس، وتزيين الشياطين، فيواقع الذنب، ثم يفر بعد ذلك إلى ربه تائباً نادماً، راجياً خائفاً، فشروط التوبة متحققة فيه، وهي الإقلاع عن الذنب، والندم على الوقوع فيه، والعزم على أن لا يعاوده.

قال القرطبي في المفهم: «يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله، وسعة رحمته، وحلمه، وكرمه.

لكن هذا الاستغفار، هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً للسان، لينحل به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «خياركم

كل مفتن تواب»، ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب، عاد إلى التوبة.

لا من قال: أستغفر الله بلسانه، وقلبه مصر على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى استغفار.

قلت[1]: ويشهد له ما أخرجه ابن أبي الدنيا، من حديث ابن عباس، مرفوعاً: «التائب من الذنب، كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه». والراجح أن **قوله**: «**والمستغفر**» إلى آخره، موقوف. وأوله عند ابن ماجه، والطبراني، من حديث ابن مسعود، وسنده حسن. وحديث: «خياركم كل مفتن تواب» ذكره في مسند الفردوس، عن علي.

قال القرطبي: «وفائدة هذا الحديث: أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه»[2].

والمقصود من الحديث: وقوع كلام الله -تعالى- مخاطباً هذا العبد المذنب، وإن كان العبد لا يسمع ذلك الخطاب، ولم يعلم به، فهو مما أوحاه الله -تعالى- إلى رسوله -ﷺ-، وهو واقع من الله -تعالى-، فهو دال على مراد الإمام البخاري -رحمه الله-، من أن الله يتكلم متى شاء، بما يشاء من أمره، وشرعه، وتدبيره لخلقه، وتصريفه ملكه -جل وعلا- وكلامه لا حصر له ولا نفاد، وهو غير مخلوق؛ لأن الكلام صفة المتكلم متعلق به وقائم به، وأما خلقه فهو مفعول له، ليس من صفاته، وإنما هو من مفعولاته. والله أعلم.

□□□

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر، رحمه الله.

(٢) «الفتح» (١٣/ ٤٧١-٤٧٢).

١٣٤- قال: «حدثنا عبدُاللهِ بنُ أبي الأسودِ، حدثنا مُعْتَمِرٌ، سمعتُ أبـي، حدثنــا قَتــادَةُ، عــن عُقْبَةَ بــنِ عبــدِ الغافرِ، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ -ﷺ-: «أنهُ ذَكَرَ رَجُلاً فيمنْ سَلَفَ -أو فيمنْ كانَ قبلَكم -قالَ كلمةً يعني أعطاه الله مالاً وولداً- فلما حضرتِ الوفاةُ، قالَ لِبَنيهِ: أيَّ أبٍ كنتُ لكمْ؟ قالوا: خَيْرَ أبٍ، قالَ: فإنه لم يَبْتَئِرْ -أو لم يَبْتَئِزْ- عندَ اللهِ خيراً، وإنْ يَقْدِرِ اللهُ عليهِ يُعَذِّبْهُ، فانظُرُوا إذا مُتُّ، فَأَحْرِقُوني، حتى إذا صِرْتُ فَحْماً فاسْحَقُوني -أو قال: فاسْحَكُوني- فإذا كانَ يَوْمُ ريحٍ عاصفٍ فَأَذْرُوني فيها».

فقالَ نبيُّ اللهِ -ﷺ-: «فأخذَ مواثيقَهم على ذلكَ -وَرَبِّي- ففعلوا، ثُمَّ أَذْرُوهُ في يومٍ عاصفٍ.

فقالَ اللهُ -عز وجل-: كُنْ، فإذا هُوَ رَجُلٌ قائِمٌ، قالَ اللهُ: أيْ عَبْدي، ما حَمَلَكَ على أن فعلتَ ما فعلتَ؟ قالَ: مَخافَتُكَ -أو قال: فَرَقٌ منكَ- قالَ: فما تَلافاهُ أن رَحِمَهُ عندَها».

وقالَ مرةً أُخرى: «فما تَلافاهُ غيرُها»، فحدثتُ به أبا عثمانَ، فقالَ: سمعتُ هذا منْ سلمانَ، غيرَ أنهُ زادَ فيه: «أَذْرُوني في البحرِ» أو كما حَدَّثَ».

«حدثنا مُوسَى، حدثنا مُعْتَمِرٌ، وقال: لَمْ يَبْتَئِرْ».

«وقال لي خَلِيفَةُ: حدثنا مُعْتَمِرٌ، وقالَ: لَمْ يَبْتَئِزْ. فَسَّرَهُ قَتادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ».

هذا هو الحديث المتقدم قريباً، أعاده من طرق أخرى من حديث أبي سعيد الخدري.

وفيه مـن الزيـادة قوله: «فيمن سلف -أو فيمن كان قبلكم-» وتقدم أن الإمام البخاري -رحمه الله- أورده في أحاديث بني إسرائيل من كتاب الأنبياء، مما يدل على أنه منهم، والله أعلم.

وفيه أن وصيته وأمره لأولاده كانت عند وفاته، بقوله: «أي أب كنت لكم؟» ليكون ذلك أدعى إلى تنفيذ أمره، فكأنه يقول: ما دمتم تعرفون أني كنت لكم خير أب، فمن جزائي عليكم أن تفعلوا ما آمركم به.

وفيه أن سبب أمره لأبنائه بذلك أنه مسرف على نفسه، ولم يقدم خيراً، فقوله: «لم يبتئر خيراً عند الله» معناه: لم يقدم عملاً صالحاً، وفسره قتادة بأنه لم يدخر عند الله خيراً.

والمقصود أنه لم يعمل خيراً يرجو به النجاة.

وفيه قوله: «**حتى إذا صرت فحماً فاسحقوني -أو قال: فاسحكوني- فإذا كان يوم عاصف فأذروني فيها**» وقد فهم هذا كله من الحديث السابق، والسحق، والسحك، كلاهما بمعنى واحد، وهو أن يطحن حتى يصير ذرات صغيرة جداً، ولهذا أمرهم أن يذروه في اليوم الذي تكون الريح فيه عاصفاً، أي: شديدة؛ إمعاناً في تفريق أجزائه، ظناً منه أن الله لا يقدر على إعادته بعد ذلك، وهذا هو مقصده.

وفيه قول النبي -ﷺ-: «فأخذ مواثيقهم على ذلك -وربي-» ففيه مشروعية القسم على الأمر المؤكد تقوية وتأكيداً للسامع؛ حتى لا يرتاب في ذلك، والرسول -ﷺ- هو الصادق المصدوق فيجب تصديق خبره بدون أي تردد، أو شك، ولو لم يقسم، ولكنه يشرع لأمته صلوات الله وسلامه عليه.

والمواثيق جمع ميثاق وهي: العهود، والأيمان المؤكدة على أن يفعلوا ما أمرهم به.

وفيه أن الله -تعالى- قال له: «كن، فإذا هو رجل قائم» وهو ظاهر فيما قلنا إنه واقع في الدنيا، وسبق أن حديث جابر يدل على ذلك، ولفظه: «قال جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما-: قال النبي -ﷺ-: «ألا أبشرك عما لقي أبوك؟ إن الله كلم أباك من غير حجاب، فقال له: عبدي، سلني، فقال: يا رب، ردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك، قال: فإني قد قضيت عليهم ألا يرجعوا، قال: يا رب فأبلغهم عنا، فأنزل -عز وجل- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾»[1].

---

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٤٢)، ورواه الإمام أحمد ولفظه: «أعلمت أن الله أحيا أباك، فقال له: تمن، فقال له: أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون» انظر «المسند» (٣/ ٣٦١).

وفيه: أن الله -تعالى- قال له: «أي عبدي، ما حملك على أن فعلت ما فعلت» وهو بمعنى ما تقدم.

وقوله: «**مخافتك -أو فرق منك-**» الفرق: هو الخوف، وهو بمعنى ما تقدم من قوله: «خشيتك».

وفيه قوله: «فما تلافاه أن رحمه عندها»، وقال مرة أخرى: «فما تلافاه غيرها» يعني: أنه تعالى عندما قال هذه الكلمة، رحمه دون إمهال، بل أسرع إليه برحمته، فغفر له، فما أعظم هذا الكرم، وأوسع هذا الحلم والرحمة، هذا مع شك هذا الرجل في قدرة الله، وعدم إيمانه بما يجب عليه بأنه تعالى على كل شيء قدير، ولكن رحمة الله تغلب غضبه.

وتقدم بيان الشاهد منه، وهو قول الله -تعالى- وخطابه لهذا الرجل، مما يدل على أنه تعالى يقول ويتكلم متى شاء، ويكلم من يشاء، وكلامه تعالى لا حصر له ولا نفاد، وهو غير خلقه؛ لأن الكفار والمنافقين يريدون أن يبدلوا كلام الله، وذلك قد يقع، وأما خلق الله-تعالى- فلا تبديل له.

كما في هذه النصوص إثبات الصفات الاختيارية لله -تعالى-، وهي من تمام حمده، فمن لم يقر بها لم يمكنه الإقرار بأن الله محمود، ولا أنه رب العالمين.

فإن الحمد ضد الذم، وهو: الإخبار بمحاسن المحمود مع المحبة له، كما أن الذم هو: الإخبار بمساوئ المذموم مع بغضه، وجماع المساوئ فعل الشر، كما أن جماع المحاسن فعل الخير.

فمن كان يفعل الخير بمشيئته وقدرته استحق الحمد، ومن لم يكن له فعل اختياري يقوم به ويفعله بمشيئته وقدرته لا يكون خالقاً ولا رباً للعالمين.

وقد علم بالاضطرار أن الله -تعالى- هو الخالق وحده، وهو الرزاق وحده، وهو المحيي المميت وحده، وهذا هو الفعل الاختياري، فوجب إثباته لله -تعالى-.

وكذلك اتصافه بالصفات مثل الرحمن الرحيم، فإن الرحمن الرحيم: الذي يرحم العباد بمشيئته وقدرته، وكذلك يعذب من عصاه بمشيئته وقدرته، فتصرفه في ملكه دلت عليه أسماؤه وصفاته تعالى، فمن أنكر صفاته لزمه تعطيله عن تصرفه في ملكه.

قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾[1] فعلق الرحمة والعذاب بمشيئته.

وهو -تعالى- لم يزل بصفاته يفعل ما يشاء، له الكمال المطلق في كل وقت في الأزل وفي الأبد، وهذا مما أراده البخاري -رحمه الله- بذكر هذه النصوص، خلافاً لما يقوله أهل البدع.

□□□

(١) الآية ٥٤ من سورة الإسراء.

قالَ: «بابُ كلامِ الرَّبِّ -عز وجل- يومَ القيامةِ مَعَ الأنبياءِ وغيرِهم».

هذا هو الباب الثامن مما يستدل به الإمام البخاري رحمه الله- على إثبات الكلام لله -تعالى-.

فذكر أولاً قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ثم بوب على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾، ثم على قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ الآيات، ثم ذكر المشيئة والإرادة إشارة منه إلى أن كلامه -تعالى- بمشيئته وإرادته، وأنه إذا شاء أن يتكلم تكلم، ثم ذكر ما بيَّن الله من حال الملائكة عند سماعهم صوت الله -تعالى- بالكلام، وأنهم يصعقون، فإذا أفاقوا قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم، وفيه إثبات الصوت لله -تعالى-، وأن كلامه بصوت، وهذا من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام لله حقيقة، ثم ذكر قول الله -تعالى-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾يريد بذلك إبطال قول من يزعم أن كلام الله مخلوق؛ لأن الخلق لا يبدل بخلاف الكلام، فإنه يمكن تبديله، أو يريد أن الأحاديث القدسية من كلام الله حقيقة، وأن كلامه تعالى لا ينحصر في كتبه المنزلة، ثم ذكر هذا الباب الذي نحن في صدد شرحه، وهو كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، يقصد بذلك أن كلامه تعالى لا انقطاع له ولا نهاية بل متعلق بمشيئته متى شاء تكلم، فكما أنه تعالى تكلم في الأزل، وبعده كلما أراد، فهو يتكلم في المستقبل وفي الحال حسب إرادته. ثم ذكر قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ليبين أن كلامه حقيقة، وأنه يكون خاصاً وعاماً، ولهذا أعقبه بقوله: باب كلام الرب مع أهل الجنة، ثم ذكر مسألة خلق أفعال العباد، والفرق بين فعل الله تعالى وفعل العبد، ووجوب عدم مشابهة الرب في ذلك وغيره، ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقول الله -تعالى-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم بين الفرق بين فعل العبد وما هو صفة لله مثل القراءة والمقروء، وغير ذلك كما سيأتي إن شاء الله-تعالى-، وكل ما ذكره أدلة واضحة صريحة، ومخالفتها ضلال بيِّن.

□□□

١٣٥- قال: «حدثنا يُوسُفُ بنُ راشدٍ، حدثنا أحمدُ بنُ عبدِالله قالَ: حدثنا أبو بكرِ بنُ عيّاشٍ، حدثنا حُمَيْدٌ قالَ: سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ -رضيَ اللهُ عنه- قالَ: سمعتُ النبيَّ -ﷺ- يقولُ: إذا كانَ يومُ القيامةِ شُفِّعْتُ، فقلتُ: يا ربِّ أَدْخِلِ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ خَرْدَلَةٌ، فيدخلونَ، ثم أقولُ: أَدْخِلِ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ أدنى شيءٍ، فقالَ أنسٌ: كأني أنظرُ إلى أصابعِ رسولِ اللهِ -ﷺ-».

هذا مختصر من حديث الشفاعة، وتقدم شرحه.

قوله: «**شفعت**» مبني للمجهول، ومعلوم أنه لا يُشَفَّع في ذلك الموقف إلا الله -جل وعلا-، ولا تقع الشفاعة إلا بكلام الله وأمره، وبهذا يرد قول ابن التين، الذي نقله الحافظ: «أنه قال: هذا فيه كلام الأنبياء مع الرب، ليس كلام الرب مع الأنبياء»[1]، وكذلك قوله: «ثم أقول: أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء» يدل على أن الله يكلمه.

والمراد بالشيء: الإيمان، وتصدق على ما يسمى شيئاً، وهو أقل جزء من الإيمان، وهذا دليل واضح على تفاوت الإيمان بين الناس، كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

قوله: «**كأني أنظر إلى أصابع رسول الله -ﷺ-**»، يعني: أنه كان يشير بأصابعه يصف قلة ما عند هذا المخرج من النار من الإيمان.

❐❐❐

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٧٥).

١٣٦- قال: «حدثنا سليمانُ بنُ حَرْبٍ، حدثنا حَمّادُ بنُ زيدٍ، حدثنا مَعْبَدُ بنُ هلالٍ الْعَنَزِيُّ، قالَ: اجتمعنا ناسٌ مِنْ أهلِ البصرةِ، فذهبنا إلى أنسٍ، وذهبنا معنا بثابتٍ البُنانِيِّ إليه، يَسْأَلُهُ لنا عن حديثِ الشفاعةِ، فإذا هو في قَصْرِهِ، فوافقناه يُصلي الضُّحى، فاستأذنّا، فأذِنَ لنا، وهو قاعدٌ على فراشِهِ.

فقلنا لثابتٍ: لا تَسْأَلْه عنْ شيءٍ أَوَّلَ منْ حديثِ الشفاعةِ، فقالَ: يا أبا حمزةَ، هؤلاء إخوانُك منْ أهلِ البصرةِ، جاءوكَ يسألونكَ عن حديثِ الشفاعةِ.

فقالَ: حدثنا محمدٌ -ﷺ- فقالَ: «إذا كانَ يومُ القيامةِ ماجَ الناسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتونَ آدَمَ، فيقولونَ: اشفعْ لنا إلى ربكَ، فيقولُ: لَسْتُ لها، ولكن عليكم بإبراهيمَ فإنه خليلُ الرحمنِ، فيأتونَ إبراهيمَ، فيقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكم بموسى، فإنه كليمُ اللهِ، فيأتونَ مُوسَى، فيقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكمْ بعِيسَى، فإنه رُوحُ اللهِ وكَلِمَتُهُ، فيأتونَ عِيسَى، فيقولُ: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمد -ﷺ-، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذنُ على ربي، فيُؤذنُ لي، ويُلْهِمُني محامدَ أحمدُه بها لا تحضُرني الآن، فأحمدُه بتلكَ المحامدِ، وأَخِرُّ لَهُ ساجداً، فيقالُ: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقلْ يُسمعْ لكَ، وسَلْ تُعطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أمتي أمتي، فيقال: انْطَلِقْ فأَخْرِجْ منها منْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ شعيرةٍ منْ إيمانٍ، فأنطلقُ فأفعل، ثُمَّ أعودُ فأحمدُهُ بتلك المحامدِ ثم أخرُّ له ساجداً، فيقال: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقُلْ يُسمعْ لكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أمتي أمتي، فيقالُ: انْطَلِقْ فأَخْرِجْ منها منْ كانَ في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ أو خَرْدَلَةٍ من إيمانٍ، فَأَنْطَلِقُ فأفعلُ، ثُمَّ أعودُ، فأحمدُهُ بتلكَ المحامدِ، ثُمَّ أَخِرُّ له ساجداً، فيقالُ: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقلْ يُسمعْ لكَ، وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أمتي أمتي، فيقولُ: انْطَلِقْ فأَخْرِجْ مَنْ كانَ في قلبِهِ أدْنى أدْنَى أدْنَى مثقالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ منْ إيمانٍ، فَأَخْرِجْه منَ النار، منَ النارِ، منَ النارِ، فَأَنْطَلِقُ فأفعلُ».

فلمّا خرجنا منْ عندِ أنسٍ، قلتُ لبعضِ أصحابنا: لو مررنا بالحسنِ، وهو مُتَوَارٍ في منزلِ أبي خليفةَ، فحدثنا بما حدثنا أنسُ بنُ مالكٍ، فأتيناهُ فسلّمنا عليهِ فأذنَ لنا، فقلنا لهُ: يا أبا سعيدٍ، جئناكَ منْ عندِ أخيكَ أنسِ بنِ مالكٍ، فلم نرَ مثلَ ما حدثنا في الشفاعةِ.

فقالَ: هِيهِ، فحدثناهُ بالحديثِ، فانتهى إلى هذا الموضع، فقالَ: هِيهِ، فقلنا: لَمْ يزدْ لنا على هذا، فقالَ: لقدْ حدثني وهو جَمِيعٌ مُنْذُ عشرينَ سنةً، فلا أدري أنسِيَ، أم كَرِهَ أن تتَّكِلُوا.

فقلنا: يا أبا سعيدٍ، فَحَدِّثنا، فضحكَ، وقالَ: خُلِقَ الإنسانُ عَجُولاً، ما ذكرتُهُ إلا وأنا أريدُ أن أُحَدِّثَكُم.

حدثني كما حدثكم بهِ، قالَ: «ثم أعودُ الرابعةَ فأحمدُهُ بتلكَ، ثُمَّ أَخِرُّ له ساجداً، فيقال: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقلْ يُسمعْ، وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، ائْذَنْ لي فيمنْ قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ، فيقولُ: وعِزَّتي وجَلالي وكِبْرِيائي وعَظَمِتي، لأخرجنَّ منها من قال: لا إلهَ إلا اللهُ».

تقدم شرحه، والمقصود منه هنا إثبات كلام الله -تعالى- لرسولنا محمد -ﷺ- في الموقف، فإن فيه محاورة بين رب العالمين -جل وعلا-، وبين عبده ورسوله محمد -ﷺ-.

وهو واضح الدلالة على المراد، من أنه تعالى يتكلم ويخاطب من يشاء من عباده يوم القيامة، فإذا ثبت ذلك دل على أن كلامه بمشيئته، وأنه متى شاء تكلم، يوم القيامة، وقبلها.

وهذا أمر من ضروريات دين الإسلام، لا ينكره إلا من هو دخيل فيه، أو زنديق قد تلبس بثوب الإسلام لأجل النيل منه، والإجهاز عليه إذا واتته الفرصة، أو ضال لعبت به الأهواء، واجتالته شياطين الإنس والجن بعيداً عن الحق والهدى.

ولا يضر ما في هذه الخطابات الكريمة من الأفعال المبنية للمجهول كقوله: «**فأستأذن فيؤذن لي**»، وقوله: «فأخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك»؛ لأنه قد علم أنه لا يقول ذلك إلا رب العالمين، وليس لمخلوق في ذلك الموقف العظيم أن يأمر، وينهى، ويتصرف في الخلق، بإدخال بعض العباد النار، وإخراج البعض منها، وإنما الفاعل لذلك كله والآمر به هو رب العباد -عز وجل-.

وهو الذي يقول لرسوله: «يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع»، وهو -تعالى- القائل له: «انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان».

ودل صراحة على تفاوت هؤلاء المخرجين من النار في الإيمان، وقد تكاثرت النصوص على ذلك.

كما دل على أن من معه أصل الإيمان، ولم يخرج منه بمكفر، أنه لا يخلد في النار، وإن عظمت ذنوبه، وإن ضعف إيمانه.

قال القرطبي: «المراد بالإيمان هنا: أعمال الإيمان التي هي أعمال الجوارح، فيكون دليلاً على أن الأعمال الصالحة من الإيمان.

وقد قيل: إن المراد: أعمال القلوب، ويجوز أن يراد به: رحمةً لمسلم، رقة على يتيم، خوفاً من الله، رجاء له، توكلاً عليه، ثقة به، مما هو أفعال القلوب دون الجوارح، وسماها إيماناً؛ لكونها في محل الإيمان»[1].

والظاهر أن المراد أصل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إذ هو الباعث على عمل ما ذكر، ولكن قد يكون الإيمان ضعيفاً فلا يقوى على دفع صاحبه إلى العمل.

ودل على تكرار الشفاعة مرات متعددة، وذلك من رحمة الله بعباده، ولهذا يفتح الله -تعالى- على نبيه من المحامد والثناء ما يرضى به عنه، ويأذن له بالشفاعة، وما لم يكن -ﷺ- يعرفه من قبل.

---

(١) «التذكرة» (٢/ ٤١٨).

واستدل بهذا على أن أسماء الله -تعالى- لا حصر لها؛ لأن الثناء على الله -عز وجل- يكون بأسمائه الحسنى وصفاته.

وفي الحقيقة الشفاعة لله -تعالى- فهو الذي يأمر بها فيقول لنبيه «اشفع» ويشفعه، وتقدم أن حقيقة الشفاعة: رحمة الله -تعالى- للمشفوع فيه، وإظهار كرامة الشافع.

ودل الحديث على شفقة النبي -ﷺ- على أمته.

وقد جاء أن الأنبياء والملائكة والمؤمنين يشفعون، وتقدم بيان ذلك في باب قول الله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

ودل الحديث على عظم ذلك اليوم، إذ أن أفضل الرسل تحجم عن الشفاعة، ويعتذرون بأنهم قد أصابوا ذنوباً، تابوا منها وقبلت توبتهم، ولكنهم يستحيون من الله.

وفيه دليل على جواز وقوع الذنوب في الجملة من الرسل، ولكنهم يوفقون إلى التوبة، والرجوع إلى الله -تعالى-، وسبقت الإشارة إلى ذلك.

قوله: «**من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان**» التكرار للتأكيد، أو التوزيع على الحبة والخردلة، أي: أقل حبة من أقل خردلة من **الإيمان**» قاله الحافظ[1].

وقوله: «من النار، من النار، من النار» هو للتأكيد والمبالغة.

وتقدم ما في الحديث من الإشكال؛ لأن أوله غير متصل بآخره، والجواب عنه.

ويستفاد منه أن الشفاعة لا تطلب إلا ممن يملكها.

كما يستفاد أنه لا يطلب من الشافع أن يشفع إلا إذا كان يقدر على الشفاعة بأن يكون حياً حاضراً، قادراً على ذلك، ففيه بيان ضلال الذين يتعلقون بالموتى، ويطلبون منهم التوسط لهم عند الله، وهذا عين شرك المشركين الذين أرسلت إليهم الرسل، ينهونهم عن ذلك، وينذرونهم عذاب الله إن لم يتوبوا منه.

---

(١) انظر «الفتح» (١٣/ ٤٧٥).

ودل صراحة على أن الشفاعة لا تنال إلا من أمر الشافع أن يشفع فيه، ولهذا ذكر أنه في كل مرة يحد الله له حداً، فيقول له: اشفع فيهم، فهو -تعالى- يعين له نوعاً متميزاً فيأمره أن يشفع فيهم بحيث لا يمكن دخول من ليس منهم معهم، ولذلك قال في الأولى: «من في قلبه شعيرة من إيمان»، وفي الثانية: «من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل»، وفي الرابعة: «من قال: لا إله إلا الله»، وهذا يعطي بظاهره أنه ولو لم يكن في قلبه شيء من الإيمان، وقد تُؤول بأن المقصود: الإيمان الزائد على أصل الإيمان الذي يحصل به الخروج من الكفر، وادعى بعض العلماء الإجماع على ذلك.

والذي يظهر من هذا الحديث، وغيره مما جاء في معناه: أنه لا يشترط ذلك، فالله أعلم.

□□□

١٣٧- قال: «حدثنا محمدُ بنُ خالدٍ، حدثنا عبيدُالله بنُ موسى، عن إسرائيلَ، عن منصور، عن إبراهيمَ، عن عبيدةَ، عن عبدِالله، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «إنَّ آخرَ أهلِ الجنةِ دخولاً الجنةَ، وآخرَ أهلِ النارِ خروجاً منَ النارِ، رَجُلٌ يخرجُ حبواً، فيقولُ له ربهُ: ادخلِ الجنةَ، فيقولُ: ربِّ، الجنةُ مَلأى، فيقولُ لَهُ ذلكَ ثلاثَ مراتٍ، فَكُلُّ ذلك يعيدُ عليه: الجنةُ مَلأى، فيقولُ: إنَّ لكَ مِثْلَ الدنيا عَشْرَ مِرارٍ».

قوله: «إن آخر أهل الجنة دخولاً» هذا على إطلاقه، يعني: أنه لا يدخلها بعده أحد، حيث لم يبق في النار من يخرج منها، وهذا أقل المؤمنين إيماناً وأكثرهم معاصي، ويجوز أن يكون واحداً بعينه، وهو الظاهر، ويجوز أن يكون نوعاً، أو جنساً من هذا النوع، وقد تقدم في باب قوله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أنه بعد إخراج من يخرج من النار يبقى رجل مقبل بوجهه إلى النار، فيدعو ربه: رب اصرف وجهي عن النار، ويقسم لله أنه لا يسأله غير ذلك، ثم إذا صرف وجهه عن النار يسأل ربه: يا رب، قربني إلى الجنة، ويقسم لربه ألا يسأله غير ذلك، فإذا رأى ما في الجنة سأل ربه أن يدخله الجنة، فإذا أدخله الجنة قال له: تمنّ، فإذا انقطعت أمنيته قال الله له: لك ذلك وعشرة أمثاله معه.

فقد يقال: إن ذاك هو المراد هنا، وقد يكونان اثنين أو نوعين، فالله أعلم.

قال عياض: «جاء نحو هذا في آخر من يجوز على الصراط، فيحتمل أنهما اثنان، إما شخصان وإما جنسان، وعبر فيه بالواحد عن الجماعة؛ لاشتراكهم في الحكم الذي كان سبب ذلك، ويحتمل أن يكون الخروج هنا بمعنى الورود، وهو الجواز على الصراط، فيتحد المعنى، إما في شخص واحد أو أكثر.

قال الحافظ: «قلت: وقع عند مسلم ما يقوي الاحتمال الثاني، وهو أن المراد بالخروج: معنى الورود، ولفظه: «وآخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك»[1].

(١) «الفتح» (١١/ ٤٤٣).

قلت: الظاهر أنه رجل واحد، لا جنس ولا نوع، فالأحاديث تدل على ذلك، مثل الخطاب الذي يجري بينه وبين رب العالمين، وكل سياق الحديث بألفاظه تدل على ذلك.

وقد ذكر القرطبي في «التذكرة» ما يؤيد هذا، حيث قال: «قال ابن عمر، عن النبي -ﷺ-: آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة، يقال له: جهينة، تقول أهل الجنة: عند جهينة الخبر اليقين»، ذكره الميانشي أبو حفص عمر بن عبدالمجيد، في كتاب «الاختيار في الملح من الأخبار والآثار».

ورواه الخطيب، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «إن آخر من يدخل الجنة رجل من جهينة، فيقول أهل الجنة: عند جهينة الخبر اليقين، سلوه: هل بقي من الخلائق أحد» ورواه الدارقطني. انتهى[1].

وعند تأمل النصوص يتبين عدم الاتحاد، فيجوز أن يكون هذا المذكور في رواية مسلم آخر من يدخل الجنة ممن لا يلقى في النار، وإنما يبطئ به عمله على الصراط فيحبو مرة، ويزحف أخرى، حتى يجاوز النار.

والمذكور في هذا الحديث المشروح هنا آخر من يدخل الجنة ممن يلقى في النار من أهل الإيمان، وبذلك تتفق النصوص، والله أعلم.

قوله: «آخر أهل النار خروجاً من النار» يعني: بأهل النار من الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم، أما أهل النار الذين ماتوا على الكفر فهم لا يخرجون منها أبد الآباد، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[3] والآيات في ذلك كثيرة.

---

(١) «التذكرة» (٢/ ٥١٥).

(٢) الآية ١٠٧ من سورة هود.

(٣) الآية ٦ من سورة البينة.

قوله: «**يخرج حبواً**» يعني: على ركبتيه ويديه، لا يستطيع الاعتماد على رجليه، والمشي عليهما يسمى حبواً، قال في «اللسان»: «حبا حُبُوّاً: مشى على يديه وبطنه، وحبا الصبي حَبْواً: مشى على استه، وأشرف بصدره»[1].

وقال النووي: «قال أهل اللغة: الحبو: المشي على اليدين والرجلين، وربما قالوا: على اليدين والركبتين، وربما قالوا: على يديه ومقعدته.

وأما الزحف، فقال ابن دريد، وغيره: هو المشي على الاست مع إفراشه بصدره، فحصل من هذا: أن الحبو والزحف متماثلان، أو متقاربان، ولو ثبت اختلافهما حمل أنه في حال يزحف، وفي حال يحبو. والله أعلم»[2].

قوله: «**فيقول له ربه: ادخل الجنة، فيقول: رب، الجنة ملأى، فيقول له ذلك ثلاث مرات، وفي كل ذلك يعيد عليه: الجنة ملأى، فيقول: إن لك مثل الدنيا عشر مرار**» هذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لما فيه من كلام الله -تعالى- ومخاطبته لهذا الرجل، الذي هو آخر من يدخل الجنة، وهو دليل أيضاً على جواز تكليم الله -تعالى- لمن هو أعلى منزلة منه، كما جاءت النصوص في ذلك، وتقدم بعضها.

وهذا الحديث اختصره هنا، ولفظه كما في كتاب الرقاق، قال: «قال النبي -ﷺ-: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها -أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا -فيقول: تسخر مني- أو تضحك مني- وأنت الملك؟ فلقد رأيت رسول الله -ﷺ- ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة»[3].

---

(١) انظر «اللسان» (١/ ٥٦٠) المرتب.

(٢) «شرح مسلم» (٣/ ٣٩).

(٣) انظر البخاري (٨/ ٩٩).

وواضح من هذا أن الله يكلمه بدون واسطة، وأن ذلك يتكرر، ثم يقول له في النهاية: إن لك مثل الدنيا عشر مرات، ولهذا بهت الرجل من ذلك، ورأى أنه لا يستحق ولا قريباً من ذلك، فقال: أتسخر مني -أو قال: أتضحك مني- وأنت الملك؟

ففيه إثبات الضحك لله-تعالى-، وأنه يسخر من بعض خلقه، ومثل هذه الأفعال الصادرة من الله -تعالى- يجب أن تثبت له -تعالى- على ما يليق بعظمته وفق ما جاء النص بها، فلا يجوز تأويلها بما يغير معناها، ولا تعطيلها، بل يؤمن بها على ما جاءت، وكما أخبر بها رسول الله -ﷺ-، فهو أعلم بالله من غيره، وأحرص على هداية الأمة، وإبعادها عن الضلال، وهو أقدر الخلق على البيان، وإيضاح الحق.

❑❑❑

١٣٨- قال: «حدثنا عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ، أخبرنا عِيسَى بن يُونُسَ، عن الأَعْمَشِ، عن خَيْثَمَةَ عنْ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «ما منكمْ مِنْ أحدٍ إلا سيكلمُهُ ربُّهُ ليسَ بينَهُ وبينَهُ تُرْجُمانٌ، فينظرُ أَيْمَنَ منهُ، فلا يرى إلا ما قدَّمَ منْ عملِهِ، وينظرُ أشْأَمَ منهُ فلا يرى إلا ما قدَّمَ، وينظرُ بينَ يديهِ فلا يرى إلا النارَ تِلْقاءَ وَجْهِهِ، فاتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

قالَ الأَعْمَشُ: وحدثني عَمْرُو بنُ مُرَّةَ عن خَيْثَمَةَ مِثْلَهُ، وزاد فيه: «ولو بكلمةٍ طيبةٍ».

تقدم هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وفيه: «ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حاجب يحجبه» وهو واضح الدلالة على عموم كلام الله -تعالى- للمؤمنين؛ لأن قوله: «ما منكم من أحد» نكرة سبقت بالنفي، فهي من صيغ العموم، غير أن قوله: «منكم» يجوز أن يكون قيداً في المؤمنين، ويخرج من ذلك العموم الكفار؛ لأنهم ليسوا منا.

وقوله: «سيكلمه ربه» السين للاستقبال من الزمان؛ لأن هذا التكليم لا يكون إلا يوم القيامة، والترجمان: هو الواسطة التي تنقل الكلام من المتكلم إلى المكلم، سواء اختلفت اللغة، أو لم تختلف.

قال في «اللسان»: «التُّرجُمان، والتَّرجَمان: المفسر للسان، وهو الذي يترجم الكلام، أي: ينقله من لغة إلى لغة»[1] وليس هذا من تمام التعريف، بل لا يلزم أن يكون نقله من لغة إلى أخرى.

ومعنى ذلك أن العبد سيقف بين يدي الله -تعالى- يوم القيامة، فيحاسبه على ما كلفه به من دينه هل قام به، أو أهمله، ويحاسبه على أعماله وكل تصرفاته، وذلك بدون واسطة من خلقه، بل هو جل جلاله يتولى ذلك بنفسه، فيكلم عبده ويسائله.

---

(١) «اللسان» (١/ ٣١٦).

وقوله: «**فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم**» أي: أن أعماله تكون حاضرة عن يمينه، وعن شماله، فالحسنات عن يمينه، والسيئات عن شماله، لا يغادره في ذلك الموقف شيء منها، ولهذا قال: «فلا يرى إلا ما قدم»، وقد يكون كما قال ابن هبيرة: إنه ينظر عن يمينه وعن شماله، كحالة الذي دهمه أمر عظيم، فهو يتلفت يطلب النجاة، أو الغوث.

قوله: «**وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه**» وذلك أن النار في ذلك الموقف حائلة بين الناس وبين الجنة، فلا بد من ورودها لكل أحد، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً.

ولهذا قال: «فاتقوا النار ولو بشق تمرة» يعني: نصفها، والمقصود تقديم العمل الصالح الذي يكون واقياً لصاحبه من النار، وساتراً له منها، وهذا يدل على وجوب تقديم العمل الصالح، المنبعث عن تقوى الله -تعالى- والإيمان به، وبملاقاته ومحاسبته، ويدل على نفع العمل الصالح ولو قل.

قوله: «**قال الأعمش**» إلى آخره، يقصد بذلك بيان صحة السند؛ لأن الأعمش قد صرح بالتحديث، فأمن التدليس بذلك.

□□□

١٣٩- قال: «حدثنا عثمانُ بنُ أبي شَيْبَةَ، حدثنا جَرِيرٌ، عن منصورٍ، عن إبراهيمَ، عن عبيدةَ، عن عبدِ اللهِ -رضيَ اللهُ عنه- قال: جاءَ حَبْرٌ منَ اليهودِ، فقالَ: إنه إذا كانَ يومُ القيامةِ، جعلَ اللهُ السماواتِ على أصبعٍ، والأَرَضِينَ على أصبعٍ، والماءَ والثَّرَى على أصبعٍ، والخلائقَ على أصبعٍ، ثُمَّ يهزهن، ثم يقول: أنا الملكُ، أنا الملكُ. فلقد رأيتُ النبيَّ -ﷺ- يضحكُ، حتى بَدَتْ نواجذُهُ، تعجباً، وتصديقاً لقولِهِ، ثُمَّ قالَ النبيُّ -ﷺ-: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

تقدم هذا الحديث في باب قوله -تعالى-: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وتقدم الكلام عليه هناك.

والمقصود منه هنا قوله: **«ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك»** فإنه خطاب لخلقه، ولا سيما الذين كانوا ينازعونه في ملكه في الدنيا من الجبارين، والمتكبرين، ولهذا جاء فيه بعد قوله: «أنا الملك» قوله: «أين ملوك الدنيا؟» كما تقدمت الإشارة إليه.

□□□

١٤٠- قال: «حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا أبو عَوانةَ، عن قَتادةَ، عن صَفْوانَ بنِ مُحْرِزٍ، أنَّ رَجُلاً سَأَلَ ابنَ عمرَ: كيفَ سمعتَ رسولَ اللهِ -ﷺ- يقولُ في النجوى؟ قال: «يَدْنُو أحدُكم منْ ربهِ، حتى يضعَ كَنَفَهُ عليه، فيقول: أَعَمِلْتَ كَذَا وكَذَا؟ فيقولُ: نَعَمْ، ويقولُ: عَمِلْتَ كذا وكذا؟ فيقول: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يقولُ: إني سَتَرْتُ عليكَ في الدنيا، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ».

النجوى هي المحادثة بين اثنين أو أكثر سراً، بحيث لا يسمع حديثهم من قرب منهم، والمقصود هنا: كلام الرب -تعالى- مع عبده سراً.

قال في «اللسان»: «نجاه نجواً: ونجوى: ساره، النجوى، والنَّجِيُّ: السر، والنجوى: السر بين اثنين، يقال: نجوته نجواً، أي: ساررته، وكذلك ناجيته، والاسم: النجوى»[١].

قال الحافظ: «المراد من النجوى في الحديث: المناجاة التي تقع من الرب -سبحانه وتعالى- يوم القيامة مع المؤمنين»[٢].

قوله: «يدنو أحدكم من ربه» في الرواية الأخرى. «يدنو المؤمن من ربه».

والله -تعالى- وصف نفسه بأنه يدنو، ويقرب من بعض عباده، دون بعض، وقد تكاثرت النصوص في ذلك، حتى بلغت ما يقرب من خمسمِئَة آية في كتاب الله -تعالى-، كلها تدل على أنه -تعالى- يقرب من بعض خلقه، ويدنو إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣].

وقوله -تعالى-: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾[٤].

---

(١) «اللسان» (٣/ ٥٩٢) المرتب.

(٢) «الفتح» (١٠/ ٤٨٨).

(٣) الآية ٢٨١ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾[1]، وقوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[3] والآيات في هذا كثيرة جداً.

وكذلك ما تقدم من الأدلة على علو الله -تعالى- واستوائه على العرش، تدل على ذلك، فإنه إذا كان الله -تعالى- على العرش أمكن القرب منه بالصعود إليه والعروج، كما عرج بالنبي -ﷺ- إليه، وكذا الملائكة وبعض الأرواح وغير ذلك، وببعض هذه النصوص الكثيرة يحصل العلم الضروري، لمن آمن بها، وبما دلت عليه، من أن الله -تعالى- يقرب إلى عباده، ويقربون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[4].

ودلالة النصوص الشرعية على هذا من أعظم المتواترات، والعلم بها مستقر في فطر المسلمين، عامتهم، وخاصتهم، كما أنه مستقر في فطرهم أن الله فوقهم.

وليس من الخلق أحد إلا ويعلم أن عباد الله منهم المقرب إلى الله -تعالى-، ومنهم المبعد الملعون المطرود، وكلهم يسمون الطاعات: قربات، يتقرب بها العبد إلى الله -تعالى-، وكلهم يرفعون أيديهم إلى الله، وكونه تعالى فوقهم يستلزم أنه يقرب إليه بالعلو والصعود، كما رفع عيسى ابن مريم إليه، والملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم إذا صعدوا إليه سألهم: كيف تركتم عبادي؟

والأدلة على هذا الأصل العظيم لا حصر لها، واتفق السلف الصالح، ومن تبع كتاب الله، وسنة نبيه، وآمن بهما، على القول بذلك، والإيمان به.

«قال الخلال في «السُّنَّة»: أخبرنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا أحمد بن محمد المصرمي، حدثنا سليمان بن حرب، قال: سأل بشر بن السري حماد بن زيد، فقال: يا أبا إسماعيل، الحديث الذي جاء: «ينزل الله إلى السماء الدنيا»، يتحول من مكان إلى مكان؟

---

(١) الآية ٧ من سور الزمر.

(٢) الآية ١٥٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٣٩ من سروة النور.

(٤) الآية ١٨٦ من سورة البقرة.

فسكت حماد، ثم قال: «هو في مكانه، يقرب من خلقه كيف شاء»[1].

وقال شيخ الإسلام: «أهل السُّنَّة يثبتون أن الله على عرشه، وأن حملة العرش أقرب إليه ممن دونهم، وأن ملائكة السماء العليا أقرب إلى الله من ملائكة السماء الثانية، وأن النبي -ﷺ- لما عرج به إلى السماء صار يزداد قرباً إلى ربه بعروجه، وصعوده. وعروجه إلى الله -تعالى- لا إلى مجرد خلقٍ من خلقه، وأن روح المصلي تقرب إلى الله في السجود، وإن كان بدنه متواضعاً، وهذا هو الذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسُّنَّة»[2].

فالله -تعالى- يقرب بنفسه إلى من يشاء من خلقه، وهو فوق عرشه، عال على خلقه، ولا يجوز تأويل النصوص في ذلك مثل قوله -ﷺ-: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه».

ولا يلزم أن يكون كل نص في القرب يراد به قرب الله -تعالى- بنفسه، بل ينظر في النص الوارد في ذلك، فإن دل على قربه بنفسه حمل عليه كما في هذا الحديث، وإن دل على قرب ملائكته ورسله حمل عليه، كقوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[4].

وهذا الحديث ظاهر في أن العبد يدنو من ربه، بل هو نص صريح في ذلك، فصرفه عن ظاهره تحريف لكلام رسول الله -ﷺ- وتلاعب به، يعد من عظائم الذنوب، يجب على المؤمن التحرز منه.

وما نقله الحافظ عن ابن التين أنه قال: «يعني: يقرب من رحمته، وهو سائغ في اللغة، يقال: فلان قريب من فلان، ويراد الرتبة»[5]. فهو تأويل الجهمية المعروف

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٣/ ١٨٤) المخطوط.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٧).

(٣) الآية ١٦ من سورة ق.

(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة.

(٥) «الفتح» (١٣/ ٤٧٧).

الذي ذكره السلف عنهم، وردوه، وبينوا أنه مخالف لقول الله -تعالى- ولقول رسوله -ﷺ- ولعقيدة أهل العلم والإيمان، وهو سلوك غير سبيل المؤمنين.

قال شيخ الإسلام: «وبيان بطلان هذا التأويل من وجوه:

أحدها: أن ما يدنو إليه العبد من الرحمة، والإيمان، وغير ذلك، إما أن تكون أعياناً قائمة بأنفسها، أو صفات قائمة بغيرها، فإن كانت صفات، فمعلوم أن القرب إلى الصفة لا يكون إلا بالقرب إلى الموصوف نفسه.

فأما قربه من صفته القائمة به دون قربه من نفسه، فظاهر البطلان والفساد، ولهذا لم يقله أحد من العباد، بل الذي يحيل القرب إلى نفسه هو للقرب إلى صفاته أشد إحالة، إن كان يثبت له صفة.

ومن المعلوم أن **قوله**: «**يدنو العبد من ربه، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه -أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: أعرف رب**» وقوله: إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه» وقوله: «فيدنيه الله منه فيضع عليه كنفه»، [وقوله: «يدنو أحدكم من ربه فيضع عليه كنفه][1]، كل هذه الألفاظ صريحة واضحة، كل من سمعها علم بالاضطرار أن الذي يدني العبد، ويضع عليه كنفه، ويقرره بذنوبه، ويغفرها له، هو الله، لا أحد من خلقه، فكيف يجوز أن يقال: لا يدنو العبد من ربه، وإنما يدنو من بعض مخلوقاته؟[2]. وهل ذلك إلا بمثابة من يقول: إن من يقرره بذنوبه هو بعض مخلوقاته؟ كما يقوله الجهمية، القائلون بأن الله -تعالى- لا يقوم به كلام، وإنما الكلام يقوم ببعض مخلوقاته، وهو أيضاً بمنزلة أن يقال: إن الله لا يغفر له، وإنما يغفر له بعض مخلوقاته.

وهـذا ممـا يعلم بالاضطرار أنه خلاف ما أخبرت به الرسل، وأنه شرك صريح في إلاهية الله وربوبيته، ولهذا قال بعض السلف: إن من زعم أن قوله لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ مخلوق، فهو كافر؛ لأنه جعل هذا الكلام قائماً بمخلوق يلزم أن يكون هو الرب، وسائر تأويلات الجهمية وأهل الباطل من هذا الجنس.

---

(١) هذا لفظ الحديث المشروح هنا، ولم يذكره الشيخ.

(٢) لأن الرحمة التي فسروا بها دنو العبد هو الثواب واللطف والإحسان، فهي إذاً مخلوقة.

الثاني: أن هذا الدنو، ووضع الكنف، والمخاطبة، تكون وقت السؤال، والعبد خائف غير آمن، ولا ظهر له أنه يغفر له ويرحم، كما هو صريح الحديث الصحيح بقوله: «يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

فإذا كان العبد حين هذا الدنو من الله، والمخاطبة، والتقرير بذنوبه، يرى أنه قد هلك قبل أن يذكر له الرب -تعالى- أنه غفر له، امتنع أن يكون ما ذكره من دنوه من الله، هو دنوه من رحمته، وأمانه وتعطفه.

الثالث: أن الرحمة والعطف، والأمان، إن كانت صفات لله -تعالى-، كان القرب إليها قرباً إلى الموصوف، كما تقدم، وإن كانت أعياناً قائمة بنفسها مخلوقة لله -تعالى-، فمن المعلوم أن حين الحساب في عرصات القيامة لا يكون هناك أجسام مخلوقة من الرحمة التي أعدها الله -تعالى- لعباده، ولكن هو يحكم بالعفو والمغفرة، ثم ينقلون إلى دار الرحمة، فامتنع أن يكون أحد حال المحاسبة مقرباً إلى أجسام هي رحمة قبل أن يؤذن لهم في دخول الجنة.

الرابع: أن يقال: من المعلوم أن الله -تعالى- أخبر في كتابه بأصناف ما ينعم به على عباده من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمساكن، وقد أجمل ما لم يفصله في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وهذه الأمور يباشرها المؤمن مباشرة، لا يكون جزاؤه مجرد قربه منها دون مباشرتها، بل ذلك يكون حسرة وعذاباً، فدعوى الإكرام بمجرد التقريب من هذه الأمور دون مباشرتها، كلام باطل، لا حقيقة له.

الخامس: أن المؤمن لم يزل في رحمة الله في الدنيا والآخرة، فلا يجوز تخصيص حال السؤال بقربه من رحمته، دون ما قبل ذلك وما بعده، بل هو ما زال مباشراً لما يرحمه الله به قبل وبعد، فأي فائدة في أن يوصف بالقرب من شيء ما زال مباشراً له، لا ينفصل عنه؟

السادس: أنه في العرض على الله يظهر له من الأهوال والشدة ما يكون أعظم عليه وأشد لرهبه وألمه من كل ما كان قبل ذلك وبعده، فكيف يجوز تخصيص أشد

الأحوال عليه بأنه يقرب فيه مما يرحم به؟ مع أن ما قبلها وما بعدها كان ما يرحمه به إليه أقرب، وهو له أعظم مباشرة ونيلاً.

السابع: أن قولهم: «يقرب من رحمة الله، وأمانه ولطفه، ونحو ذلك» من تأويلهم، لا ريب أنه من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

ومن المعلوم في اللغة العربية أن هذا لا يجوز إلا إذا اقترن بالكلام ما يبين المحذوف، فلا يقال: جاء زيد، والمقصود غلامه، أو رسوله[1].

والحديث نص في أن الله -تعالى- هو الذي يدني عبده من نفسه، ولهذا لا يسمع أحد هذا الكلام، فيفهم ان الله يدنيه من شيء آخر ولا يخطر هذا ببال المستمع، فكيف يجوز أن يكون الرسول -ﷺ- أراد الباطل الذي قالوه؟

الثامن: أن قوله: «فيدنيه منه، فيضع عليه كنفه، ثم يقرره بذنوبه» الجمع بين الإدناء ووضع الكنف، وتقريره بذنوبه، قرينة تعين أن الله -تعالى- هو الذي يدني إليه عبده، ويضع عليه كنفه، فيستره من الناس، كما صرح به في الحديث.

التاسع: أن هذا الحديث دل على ما دل عليه القرآن من وقوف العباد على الله، وخطابه لهم، ومن المعلوم بالاضطرار من رسالات الرسل، ومن دين الإسلام، أن هذا إنما هو يوم القيامة، وأن أحوال العباد مع الله يوم القيامة غير أحوالهم في الدنيا، وعلى قول هؤلاء المؤولة لا فرق بين الدنيا والآخرة، فإن الله لا يقرب إليه شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يقفون على ربهم، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يصيرون إليه، وإنما ذلك كله إلى بعض مخلوقاته، ومقدوراته، كما أن خطابه لهم عند الجهمية وأتباعهم»[2]، معناه أنه يخلق كلاماً في بعض مخلوقاته يكلمهم منها، وعند الأشاعرة -الذين هم فرع عن الجهمية- يخلق إدراكاً في العباد يفهمون به المعنى الواحد القائم بذاته -تعالى-. وهذا تكذيب لكتاب الله ولرسوله، ومناقضة لدين الإسلام الذي فطر على قبوله العباد.

قوله: «حتى يضع كنفه عليه» جاء الكنف مفسراً في الحديث بأنه «الستر»، والمعنى: أنه -تعالى- يستر عبده عن رؤية الخلق له؛ لئلا يفتضح أمامهم،

---

(١) وهذا يرد ما نقله الحافظ عن ابن التين أن ذلك سائغ في اللغة، كما تقدم ذكره.

(٢) انتهى من «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ١٧٧) المخطوطة.

فيخزى؛ لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله، ويظهر على وجهه الخوف الشديد، ويتبين فيه الكرب والشدة.

قال الأزهري: «قال الليث: الكنفان: الجناحان، وأنشد:

سِقْطان من كنفي نعام جافل

وكنفا الإنسان: جانباه، وناحيتا كل شيء: كنفاه.

وقولهم: في حفظ الله وكنفه، أي: في حرزه وظله، يكنفه بالكلاءة وحسن الولاية، وقال ابن المبارك: «يضع عليه كنفه» يعني: ستره»[1].

«قال الخلال في كتاب السُّنَّة: باب يضع كنفه على عبده، تبارك وتعالى. أخبرني محمد بن أبي هارون، ومحمد بن جعفر، أن أبا الحارث حدثهم قال: قلت لأبي عبدالله: ما معنى قوله: «إن الله يدني العبد يوم القيامة، فيضع عليه كنفه؟» قال: هكذا نقول: يدنيه ويضع كنفه عليه، كما قال، يقول له: أتعرف ذنب كذا؟

قال الخلال: أنبأنا إبراهيم الحربي قال: قوله: فيضع عليه كنفه، يقول: ناحيته.

قال إبراهيم: أخبرني أبو نصر، عن الأصمعي، يقال: نزل في كنف بني فلان، أي: في ناحيتهم»[2].

قوله: «فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، فيقرره» هذا هو المقصود من إيراد الحديث هنا؛ لأن فيه مخاطبة الله لعبده وتقريره بذنوبه، ثم يقول له: «أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» وهو واضح جداً في أن الله يكلم عباده يوم القيامة، ويخاطبهم مخاطبة فيها محاسبتهم وتقريرهم بنعم الله عليهم، وبذنوبهم، ويخاطبهم في غير ذلك كما تقدم.

فمنكر هذا ضال وسالك غير سبيل المؤمنين، وحريٌّ أنْ يوليه الله -تعالى- ما تولى ويسلك به غير سبيل المؤمنين في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

قوله: «ثم يقول: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» هذا أيضاً صريح في أنه تعالى يكلم عباده بذلك ممتناً عليهم بأنه قد ستر عليهم في الدنيا حيث

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٧٤)، وقول ابن المبارك رواه البخاري في «خلق أفعال العباد».

(٢) «نقض التأسيس» (٢/ ١٨٥).

كانوا يبارزون الله بالذنوب، فيستر عليهم مع عصيانهم له، ثم غفرها لهم في الآخرة.

فهذا الكرم العظيم، والحلم الواسع، والفضل الجزيل.

والمغفرة: هي محو الذنب ووقاية تبعته.

وعلى كل فالدلالة من هذا الحديث ظاهرة جداً، وصريحة فيما ذكره من أجله، وهو كونه تعالى يتكلم إذا شاء بما شاء، ويكلم من يشاء من عباده، إما إكراماً له، أو امتناناً عليه، أو تهديداً له وتوبيخاً، أو غير ذلك.

فمن نفى ذلك عن الله -تعالى- فقد قال خلاف قول الله ورسله وأتباعهم ممن فهم مراد الله ورسوله، وسوف يجزيه الله -تعالى- بما يستحق.

وقد جاء ما يدل على أن الله -تعالى- يكلم بعض أهل النار، كما في «الصحيحين»، عن أنس، عن النبي -ﷺ- قال: «يقول الله -تعالى- لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا، وما فيها، ومثلها معها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك»[1].

❑❑❑

(١) البخاري، انظر «الفتح» (٦/ ٣٦٣) و(١١/ ٤١٦)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠).

قالَ: «بابُ ما جاءَ في قولِهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾.

«قال الأئمة هذه الآية أقوى ما ورد في الرد على المعتزلة.

قال النحاس: أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازاً، فإذا قال: «تكليماً» وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة التي تعقل»[1].

«وقد استقر مذهب أهل السنة والجماعة وأعلام الملة، وجماهير الأمة في شرق الأرض وغربها، على أن الله يتكلم حقيقة، متى شاء، وأن القرآن والتوراة والإنجيل كلام الله -تعالى-، وأن كلامه صفة له، لا يكون منفصلاً عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه قائماً بغيره، ومعلوم بالحس أن الكلام لا يقوم بنفسه، ومن قال إن كلام الله منفصل عنه، أو أنه يقوم بغيره، فإنه بذلك ينكر كلامه الذي هو رسالته، ويدفع حقيقة ما أنبأت به الرسل، وأعلمته أممهم، ويلحد في أسماء الله وآياته، ويجعله مثلاً للميت، والمعدوم.

وهذا كله كفر وضلال، ومن أجل ذلك كفَّر أئمة الإسلام من يقول: إن كلام الله مخلوق.

والكلام صفة المتكلم، والقول صفة القائل، وكلام الله ليس بائناً منه، بل أسمعه لجبريل ونزل به على محمد -ﷺ-، كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[2].

ولا يجوز أن يقال: إن كلام الله فارق ذاته، وانتقل إلى غيره، بل يقال كما قال السلف: إنه كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فقولهم: منه بدأ، رد على من قال: إنه مخلوق في بعض الأجسام، ومن ذلك المخلوق بدأ.

فبينوا أن الله هو المتكلم به، فمنه بدأ، لا من غيره، وإليه يعود، أي: لا يبقى في الصدور منه شيء، ولا في المصاحف حرف، في آخر الزمان، إذا ترك العمل به وعطل، رفع إلى قائله رب العالمين، أو أنه إليه يعود صفة له»[3].

---

(١) الفتح (١٣/ ٤٧٩).

(٢) الآية ١١٤ من سورة الأنعام.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٦١).

قال عبدالله ابن الإمام أحمد: «سمعت أبي يقول: من قال: القرآن مخلوق، فهو عندنا كافر؛ لأن القرآن من علم الله -عز وجل-.

قال الله -عز وجل-: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾[4] والخلق غير الأمر»[5].

«والوصف بالتكلم كمال، وضده نقص، قال الله -تعالى-: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ﴾[6] فكان عبَّاد العجل -مع كفرهم- أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى: وربك لا يتكلم، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[7]. فعلم أن عدم رجوع القول، ونفي التكلم، نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل.

وغاية شبهة النفاة أنهم يقولون: يلزم من إثبات الكلام، التشبيه والتجسيم؛ لأنهم توهموا أن كلام الله يلزم له من اللوازم ما لكلام المخلوق.

---

(١) الآية ٦١ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٢٠ من سورة البقرة.

(٣) الآية ١٤٥ من سورة البقرة.

(٤) جزء من الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

(٥) «كتاب السنة» (١/ ١٠٣).

(٦) الآية ١٤٨ من سورة الأعراف.

(٧) الآية ٨٩ من سورة طه.

ونحن نقول: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله، وبذلك تنتفي شبهتهم.

وقد قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1] ، فهذا كما هو ظاهر، كلام حقيقي، يسمع من هذه الأعضاء، فالمؤمنون يؤمنون بذلك مع عدم علمهم بكيفيته.

فإذا كان هذا في مخلوق، فكيف الخالق جل وعلا؟ ومثل ذلك تسبيح الأشياء التي تسبح بحمد الله تعالى، ومنه تسبيح الطعام بين يدي رسول الله ﷺ والصحابة، وتسبيح الحصا، وسلام الحجر عليه، كل ذلك حق على ظاهره، وقد سمعه المؤمنون، وآمنوا بما لم يسمعوه، ولم يعلموا كيفيته، وهو كلام بصوت يسمع، وهذه ليس لها أفواه يخرج منها الكلام والصوت الصاعد المعتمد على مقاطع الحروف»[2].

وقد سمع موسى عليه السلام كلام الله منه -تعالى- بدون واسطة، وكذلك جبريل -عليه السلام- يسمع كلام الله بدون واسطة، فيبلغه الرسل بأمر الله له، هذا ما يعتقده المسلمون من دينهم، وهو أمر ظاهر.

«وحقيقة كلام الله -تعالى- الخارجية: هي ما يسمع منه، ومن المبلغ عنه.

فإذا سمعه السامع، علمه وحفظه، فكلام الله مسموع، معلوم، محفوظ.

فإذا قرأه السامع، فهو مقروء له، متلو، فإن كتبه، فهو مكتوب له مرسوم، وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها، لا يجوز نفيه، فلا يكون مجازاً فيها، إذ المجاز يجوز نفيه، وأن يقال: ليس في المصحف كلام الله، ولا قرأ القارئ كلام الله.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾[3]، وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله -تعالى-، وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن المسموع عبارة عن كلام الله.

---

(١) الآية ٦٥ من سورة يس.

(٢) «شرح الطحاوية»، بتصرف (ص١٨١).

(٣) الآية ٦ من سورة التوبة.

[والحق] أن المسموع هو كلامه، وليس عبارة عنه، كما تزعمه الأشعرية، ومن جعل ما في المصحف عبارة عن كلام الله، فقد خالف ما أنزل الله على رسوله، وسلك غير سبيل المؤمنين، وكفى بذلك ضلالاً»[1].

والكلام اسم للفظ والمعنى جميعاً؛ لأن النبي ﷺ قال: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وتلاوة القرآن»[2].

وقال: «إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة»[3].

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، كما اتفقوا على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لها، وما أشبه ذلك لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها الكلام الملفوظ به، فعلم بذلك بطلان قول من يجعل كلام الله معنى قائماً بالنفس.

وفي الحديث المتفق عليه قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم، أو تعمل»[4] ففرق بين حديث النفس، فجعله معفواً عنه، وبين الكلام، فدل على أن حديث النفس لا يسمى كلاماً حتى ينطق به ويتلفظ به، وهذا باتفاق من يعتد بقوله من العلماء.

وعلى كل فإنكار كلام الله ضلال وكفر، وإنكار للرسالة، والشرع؛ لأن الشرع أمر، ونهي، فإذا لم يكن الله يأمر وينهى، فليس له شرع ولا رسالات، وقد أوجد هذا القول لهدم الإسلام، والعلماء عرفوا ذلك، ولهذا يقول الإمام البخاري في مبدأ كتابه «خلق أفعال العباد»: باب: ما ذكر أهل العلم للمعطلة الذين يريدون أن يبدلوا كلام الله -عز وجل-، ثم روى، عن عبدالله بن إدريس، أن رجلاً جاء إليه، فقال: يا أبا محمد، ما تقول في قوم يقولون: القرآن مخلوق؟ فقال: أمن اليهود؟ قال:

---

(١) «شرح الطحاوية» (ص١٩٤).

(٢) رواه النسائي (٣/ ١٣)، والإمام أحمد «المسند» (٥/ ٤٤٧).

(٣) رواه أبو داود (١/ ٥٦٧)، والنسائي (٣/ ١٩)، والإمام أحمد (١/ ٤٠٩، ٤١٥، ٤٣٥).

(٤) انظر «الفتح» (٥/ ١٦٠)، ومواضع أخر، ولكن بلفظ: «ما وسوست به صدورها»، ومسلم (١/ ١١٦).

لا، قال: فمن النصارى؟ قال: لا، قال: فمن المجوس؟ قال: لا، قال: ممن...؟ قال: من أهل التوحيد.

قال: ليس هؤلاء من أهل التوحيد، هؤلاء زنادقة، من زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن الله مخلوق، يقول الله -تعالى-: بسم الله الرحمن الرحيم، فالله لا يكون مخلوقاً، والرحمن لا يكون مخلوقاً، والرحيم لا يكون مخلوقاً، وهذا أصل الزندقة، من قال هذا فعليه لعنة الله»[1].

قال شيخ الإسلام: «القول بأن القرآن مخلوق معناه أن الله لم يصف نفسه بالكلام أصلاً، بل حقيقته أن الله لم يتكلم، كما أفصح به رأسهم الأول، الجعد بن درهم، حيث زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً؛ لأن الخلة إنما تكون من المحبة، وعنده أن الله لا يحب شيئاً في الحقيقة، ولا يحبه شيء في الحقيقة، فلا يتخذ شيئاً خليلاً.

وكذلك الكلام يمتنع عنده على الرب -تعالى- وكذلك نفت الجهمية والمعتزلة وغيرهم أن يكون لله كلام قائم به، أو إرادة قائمة به، وادعوا ما باهتوا به صريح العقل المعلوم بالضرورة، أن المتكلم يكون متكلماً بكلام يكون في غيره.

وقالوا أيضاً: يكون مريداً بإرادة ليست فيه، ولا في غيره، أو الإرادة وصف عدمي، أو ليست غير المرادات المخلوقة، وغير الأمر، وهو الصوت المخلوق في غيره.

فكان حقيقة قولهم التكذيب بحقيقة ما أخبرت به الرسل، من كلام الله ومحبته ومشيئته، وإن كانوا قد يقرون بإطلاق الألفاظ التي أطلقتها الرسل [تستراً] وهذا حال الزنادقة، والمنافقين»[2].

والبخاري -رحمه الله- أراد بهذا الباب الرد على هؤلاء ونحوهم، الذين ينكرون كلام الله حقيقة، وإذا وصفوا الله بالكلام فمرادهم أن الله خلق كلاماً في غيره، إما في الهوى، أو بين ورق الشجرة التي كلم منها موسى، أو في غير ذلك.

---

(١) «خلق أفعال العباد» (٢٩-٣٠).

(٢) التسعينية (ص٤٢).

ولا يشك من عرف ما جاءت به الرسل أن هذا تبديل للحق بالباطل، وللحقيقة التي فطر الله عليها عباده، واللغة التي اتفق عليها بنو آدم، إلا من اجتالته الشياطين فغيَّرت فطرته.

فالمتكلم هو الذي يقوم به الكلام، ويتصف به ويصدر منه، كما أن المحب من يقوم به الحب، والقادر من تقوم به القدرة، والعالم من يقوم به العلم.

وعلى قول أولئك الضلاّل الذين يرد عليهم الإمام البخاري في هذا الباب وغيره، أن الذي قال لموسى عليه السلام: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[1] أنه الشجرة، وهذا الكفر ما وراءه كفر.

ويلزم على قولهم إن كل كلام خلقه الله هو كلامه، والله خالق كل شيء، فيدخل في ذلك أفعال العباد، وحركاتهم، وكلامهم، فيلزم أن يكون كلامهم كلاماً له بما فيه من الكذب والكفر وقول الزور، وغير ذلك، حتى نباح الكلاب، فأي قول أفسد من قول هذا لازمه؟ وأي ضلال أبعد منه؟

وكلام أئمة الإسلام في بيان بطلان هذا القول كثير جداً.

قال الإمام ابن جرير -رحمه الله-: «وأما قوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ فإنه يعني بذلك -جل ثناؤه-: وخاطب الله بكلامه موسى خطاباً.

وقد حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا يحيى بن واضح، قال: حدثنا نوح بن أبي مريم، وسئل: كيف كلم الله موسى تكليماً؟ فقال: مشافهة»[2].

وذكر البخاري عن ابن عباس قال: لما كلم الله موسى كان النداء في السماء، وكان الله في السماء»[3].

ولهذه الخصوصية التي خص الله موسى بها، صار له بذلك شرف وفضل على غيره من الأنبياء، ولهذا يذكر الناس له هذه الفضيلة في الموقف، إذا طلبوا منه الشفاعة.

---

(١) الآية ١٤ من سورة طه.

(٢) «تفسير الطبري» (٩/ ٤٠٣) تحقيق محمود شاكر.

(٣) «خلق أفعال العباد» (ص٤١).

١٤١- قالَ: «حدثنا يحيى بن بُكَيْرٍ، حدثنا اللَّيْثُ، حدثنا عُقَيْلٌ، عن ابن شهابٍ، حدثنا حُمَيْدُ بنُ عبدِالرحمنِ، عنْ أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ -ﷺ- قالَ: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: أنتَ آدمُ الذي أخرجتَ ذُرِّيَّتك منَ الجنةِ، قال آدمُ: أنتَ موسى الذي اصطفاكَ اللهُ برسالاتِهِ وكلامِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي على أمرٍ قُدِّرَ عليَّ قبلَ أنْ أخلق! فَحَجَّ آدمُ موسى»».

اختصر الإمام البخاري -رحمه الله- هذا الحديث، وفي بعض ألفاظه الثابتة في «الصحيحين» قوله: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟

فقال له آدم: أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً، وكتب لك التوراة، فكم تجد فيها مكتوباً: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ قبل أن أخلق؟

قال: بأربعين سنة، قال: فحج آدم موسى» يعني: غلبه بالحجة.

قال شيخ الإسلام: «قد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر على نفي الملام على الذنب، ثم صاروا لأجل هذا الظن ثلاثة أحزاب:

فريق كذبوا بهذا الحديث، كأبي علي الجبائي، وغيره؛ لأنه من المعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما جاءت به الرسل، ولا ريب أنه يمتنع أن يكون هذا مراد الحديث، ويجب تنزيه النبي ﷺ، بل جميع الأنبياء، وأتباعهم، أن يجعلوا القدر حجة لمن عصى الله ورسوله.

وفريق تأولوه بتأويلات معلومة الفساد، كقول بعضهم: حجه؛ لأنه أبوه، والابن لا يلوم أباه.

وقول بعضهم: حجه؛ لأن الذنب كان في شريعة، والملام في أخرى.

وقول بعضهم: لأن الملام كان بعد التوبة، وقول بعضهم: لأن هذا تختلف فيه دار الدنيا ودار الآخرة.

وفريق ثالث: جعلوه عمدة في سقوط الملام عن المخالفين لأمر الله ورسوله.

والصواب: أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل، لا لأجل أن تارك الأمر مذنب عاص، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ ولم يقل: لماذا خالفت الأمر ولماذا عصيت؟

والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس، أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر، وشهود الربوبية، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1]، قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم[2].

وفي الصحيح، عن النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت، لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[3] فأمره بالحرص على ما ينفعه، وهو طاعة الله ورسوله، فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله، وأمره إذا أصابته مصيبة أن لا ينظر إلى تقدير ما لم يقع، وهو قوله: لو أني فعلت كذ وكذا، لكان كذا وكذا، فإن هذا ليس فيه إلا التحسر، والمضرة، ولكن لينظر إلى الواقع، ويوقن بأنه بقدر الله تعالى وقضائه، ولا بد من وقوعه، فلا مخلص منه، فيرضى به ويسلم لقدر الله -تعالى- وقضائه، كما قال بعضهم: الأمر أمران:

أمر فيه حيلة، فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه، فلا تجزع منه.

وما زال أئمة الهدى يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على المقدور، وإن كانت المصيبة بفعل آدمي، فلو أن رجلاً أنفق ماله في المعاصي، ومات ولم يخلف لأولاده مالاً، أو ظلم الناس بظلم صاروا يبغضون أولاده من أجل ظلمه، فلا يعطونهم ما يعطون أمثالهم، فهذه مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب أبيهم.

---

(١) الآية ١١ من سورة التغابن.

(٢) في «الدر المنثور»، أخرجه سعيد بن منصور، انظر (٨/ ١٨٤).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٥٢) رقم (٢٦٦٤).

فإذا قالوا لأبيهم: أنت فعلت بنا هذا، قيل لهم: هذا كان مقدراً عليكم، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم، والأب عاص لله فيما فعل من الظلم، أو الإنفاق في المعصية، ملوم على ذلك، لا يرتفع عنه الذم والعقاب بالقدر السابق.

فإن تاب توبة نصوحاً، وقبل الله توبته، وغفر له، لم يجز ذمه حينئذ ولومه بحال، لا من جهة حق الله، ولا من جهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله، إذ لم يكن هو ظالماً لأولئك، فإن تلك المصيبة مقدرة عليهم، وهذا مثل قصة آدم، فإنه لم يظلم أولاده، وإنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة، وهبط هو وحواء، ولم يكن معهما أولاد، فلم يظلم أولاده ظلماً يستوجب ملامه منهم، وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمر مقدر عليهم.

وهو قد تاب من ذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[(١)].

وموسى أعلم من أن يلومه على ذنب قد علم أنه تاب منه، وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن الذنب لا ملام عليه، وقد علم أن لعن إبليس بسبب ذنبه، وهو مقدر عليه.

ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعاً من الذنب لفعله آدم، ولكنه تاب من الذنب واستغفر ربه»[(٢)].

فتبين أن آدم حج موسى لما قصد موسى لوم آدم على ما كان سبباً في مصيبة أبنائه، وأن آدم احتج بأن هذه المصيبة سبق بها القدر، ولا بد من وقوعها، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[(٤)].

---

(١) الآيتان ١٢١، ١٢٢ من سورة طه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٠٣-٣٢٢) ملخصاً.

(٣) الآية ١١ من سورة التغابن.

(٤) الآية ٢٢ من سورة الحديد.

وسواء في ذلك المصائب التي تحصل بأفعال العباد، أو غيرها، فإن على العبد الصبر والتسليم، ولا يسقط بذلك لوم الجاني وعقابه.

قال الله -تعالى-: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾[1]، وحكم الله نوعان: خلق، وأمر، **فالأول**: ما يقدره من المصائب.

والثاني: ما يأمر به وينهى عنه، وهو شرعه ودينه.

والعبد مأمور بالصبر على النوعين، فعليه أن يصبر على فعل المأمور، وترك المحظور، وعلى ما قدره الله وقضاه»[2].

«فالمصائب الحاصلة بقدر الله التي لم يبق فيها حق يؤخذ، أو ذنب يعاقب عليه، ليس فيها إلا التسليم للقدر، وقصة آدم من هذا القبيل، فإن موسى لامه من أجل ما أصابه وذريته.

وآدم قد تاب من الذنب الذي هو سبب المصيبة، وغفر له، والمصيبة كانت مقدرة، فلا حيلة أمامها إلا التسليم والرضا.

ولهذا قال: «أنت موسى، الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدر عليَّ قبل أن أخلق».

وقوله: «احتج آدم وموسى» أي: كل واحد منهما ذكر حجته أمام الآخر، وهذا يجوز أن يكون بعد وفاة موسى، أو أنه في الرؤيا، فإن رؤيا الأنبياء وحي.

«وقال ابن عبدالبر: «مثل هذا يجب فيه التسليم، ولا يوقف فيه على تحقيق؛ لأنا لم نؤت من جنس هذا العلم إلا قليلاً»[3].

والمقصود هنا قوله: «أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه» والاصطفاء هو: الاختيار والتفضيل، وفرق بين الرسالة والتكليم، فهو قدر زائد على الرسالة؛ أنها تحصل بإرسال ملك إليه أو بالوحي.

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور.

(٢) «الفتح» (١١/ ٣٢٤-٣٢٥) ملخصاً.

(٣) «الفتح» (١١/ ٥٠٧).

وأما التكليم فهو بإسماعه كلامه، وهذا الذي اختص به موسى من بين الرسل، فدل هذا على أن الله -تعالى- كلمه بدون واسطة، بل أسمعه كلامه منه إليه، وهو أمر واضح.

وجاء في رواية ذكرها الحافظ: «قال: أنت كلمك الله من وراء حجاب ولم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه»[1].

«قال ابن عبدالبر: هذا الحديث أصل في إثبات القدر، وأن الله قضى أعمال العباد، فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق في علم الله -تعالى-، وليس فيه حجة للجبرية»[2].

وقال الخطابي -رحمه الله تعالى-: «قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله والقضاء منه، معنى الإجبار، والقهر للعبد على ما قضاه وقدره، ويتوهم أن فلج آدم في الحجة على موسى إنما كان من هذا الوجه، وليس الأمر في ذلك على ما يتوهمونه.

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله -سبحانه- بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم، وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها، خيرها وشرها، والقدر: اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، كما أن الهدم، والقبض، والنشر، أسماء لما صدر عن فعل الهادم، والقابض، والناشر.

يقال: قَدَّرْت الشيء، وقدرته، خفيفة وثقيلة، بمعنى واحد.

والقضاء في هذا معناه الخلق، كقوله -تعالى-: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[3] أي: خلقهن.

وإذا كان الأمر كذلك: فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم، أفعالهم وأكسابهم ومباشرتهم تلك الأمور، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد، وتقديم إرادة واختيار، فالحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها.

---

(١) «الفتح» (١١/٥٠٨).

(٢) المرجع المذكور (ص٥٠٩).

(٣) الآية ١٢ من سورة فصلت.

وجماع القول في هذا الباب: أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما رام هدم البناء ونقضه[1].

وإنما كان موضع الحجة لآدم على موسى -صلوات الله وسلامه عليهما- أن الله -سبحانه- إذا كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه.

وبيان هذا في قوله -سبحانه-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فأخبر قبل كون آدم أنه إنما خلقه للأرض، وأنه لا يتركه في الجنة، حتى ينقله عنها إلى الأرض، وإنما كان تناوله من الشجرة سبباً لوقوعه إلى الأرض التي خلق لها وليكون فيها خليفة، وواليا على من فيها، وإنما أدلى آدم عليه السلام بالحجة على هذا المعنى، ودفع لائمة موسى عن نفسه على هذا الوجه، ولذلك قال: «أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن أخلق».

فإن قيل: على هذا يجب أن يسقط اللوم أصلاً.

قيل: اللوم ساقط من قبل موسى، إذ ليس لأحد أن يعيِّر أحداً بذنب كان منه؛ لأن الخلق كلهم تحت العبودية أكفاء سواء.

وقد روي: «لا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا إليها كأنكم عبيد».

ولكن اللوم لازم لآدم من قبل الله -سبحانه- إذ كان قد أمره ونهاه فخرج إلى معصيته، وباشر المنهي عنه، ولله الحجة البالغة -سبحانه- لا شريك له.

وقول موسى، وإن كان في النفوس منه شبهة، وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذي جعل أمارة لخروجه من الجنة، فقول آدم في تعلقه بالسبب -الذي هو بمنزلة الأصل- أرجح وأقوم، والفلج فيه قد يقع مع المعارضة بالترجيح، كما يقع بالبرهان الذي لا معارض له. والله أعلم»[2].

---

(١) يعني: تقدير الله للأشياء، وسبق علمه بها، وأفعال العباد وأكسابهم وإرادتهم واختيارهم، فالقدر بمنزلة الأساس، وأفعال العباد مبنية عليه.

(٢) «معالم السنن» (٧/ ٦٩-٧٢).

فحجة آدم عليه السلام ظهرت؛ لأن ما قدر عليه أمر لا يمكن تغييره ولا رده، بل هو قدر قدره العليم القدير، فلا يمكن دفعه، ولا رفعه بعد وقوعه، فليس أمامه إلا التسليم، ومع ذلك لا يكون القدر حجة فيما لم يقع؛ لأن الإنسان مأمور بفعل الطاعة، واجتناب المعصية، وهو لا يعلم ما هو المقدر عليه حتى يقع، فإذا وقع الأمر وتعذر دفعه هناك يسلم للقدر، ويقول: قدر الله وما شاء فعل، ويستغفر من ذنبه ويتوب إلى ربه.

□□□

١٤٢- قال: «حدثنا مسلمُ بنُ إبراهيمَ، حدثنا هِشامٌ، حدثنا قَتَادَةُ، عن أنسٍ - رضي اللهُ عنه- قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «يُجْمَعُ المؤمنونَ يومَ القيامةِ، فيقولونَ: لو استَشْفَعْنا إلى ربنا، فَيُرِيحُنا منْ مكاننا هذا، فيأتونَ آدَمَ، فيقولونَ لهُ: أنتَ آدمُ أبو البشرِ، خلقكَ اللهُ بيدِهِ، وأسجدَ لك الملائكةَ، وعلمكَ أسماءَ كُلِّ شيء، فاشفعْ لنا إلى ربنا حتى يريحنا.

فيقول لهم: لست هناكم، فيذكر لهم خطيئته التي أصاب».

تقدم الكلام على هذا الحديث، والمراد منه هنا قوله فيه: «ولكن ائتوا موسى، عبداً آتاه الله التوراة، وكلمه وقربه نجياً»، فهذا واضح كل الوضوح في الدلالة على ما أراده من إثبات كلام الله حقاً، والرد على من ينكر ذلك، إما صراحة كفعل الجهمية والمعتزلة، أو مراوغة كالأشعرية أو بعضهم، وكلهم ضالون في هذا الباب.

□□□

١٤٣- قال: «حدثنا عبدُالعزيز بنُ عبدِاللهِ، حدثني سليمانُ، عن شريكِ بن عبدِاللهِ، أنه قالَ: سمعتُ ابنَ مالكٍ يقولُ ليلةَ أُسْرِي برسولِ اللهِ -ﷺ- منْ مسجدِ الكعبةِ: إنهُ جاءهُ ثلاثةُ نفَرٍ قبلَ أنْ يُوحَى إليه وهو نائمٌ في المسجدِ الحرامِ، فقالَ أوَّلُهم: أيُّهُم هو؟ فقال أوسطُهم: هو خيرُهم، فقال أحدُهم: خذوا خيرَهم، فكانتْ تلكَ الليلةَ فلمْ يَرَهُمْ حتى أتَوْهُ ليلةً أُخرى فيما يرى قَلْبُهُ، وتنامُ عَيْنُه ولا ينامُ قَلْبُهُ، وكذلكَ الأنبياءُ تنامُ أعينُهم ولا تنامُ قلوبُهُم.

فلم يكلموهُ حتى احتملوهُ فوضعوهُ عندَ بئرِ زَمْزَمَ فتولاّه منهمْ جبريلُ، فَشَقَّ جبريلُ ما بينَ نحرِهِ إلى لَبَّتِهِ حتى فرغَ منْ صَدْرِهِ وجَوْفِهِ، فَغَسَلَهُ منْ ماءِ زمزمَ بيدِهِ حتى أنقَى جوفَهُ، ثم أُتِي بِطَسْتٍ منْ ذهبٍ فيه تَوْرٌ منْ ذَهَبٍ محشواً إيماناً وحِكْمَةً، فحشا به صدرَهُ ولغادِيدَهُ -يعني: عروقَ حَلْقِهِ- ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثم عَرَجَ به إلى السماءِ الدنيا، فضربَ باباً منْ أبوابها، فناداهُ أهلُ السماءِ: منْ هذا؟ فقالَ: جبريلُ، قالوا: ومَنْ معكَ؟ قال: معي محمدٌ، قالَ: وقدْ بُعِثَ؟ قالَ: نَعَمْ.

قالُوا: فَمَرْحَباً بِهِ وأَهْلاً، فيستبشرُ بِهِ أهلُ السماءِ، ولا يعلمُ أهلُ السماء بما يريدُ اللهُ بِهِ في الأرضِ حتى يُعْلِمَهُم.

فَوَجَدَ في السماءِ الدنيا آدَمَ، فقال له جبريلُ: هذا أبوكَ، فسلِّم عليه، فسلَّم عليهِ، وردَّ عليه آدمُ، وقال: مرحباً وأهلاً يابْنِي نِعْمَ الابنُ أنتَ.

فإذا هو في السماءِ الدنيا بنهرينِ يَطَّرِدانِ، فقال: ما هذان النهرانِ يا جبريلُ؟

قال: هذان النيلُ والفُراتُ، عُنْصُرُهُما.

ثم مضى به في السماءِ، فإذا هو بنهرٍ آخرَ عليه قَصْرٌ منْ لؤلؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فضربَ يَدَهُ فإذا هو مِسْكٌ أذفَرُ، قالَ: ما هذا يا جبريلُ؟ قالَ: هذا الكَوْثَرُ الذي خَبَأَ لكَ ربُّكَ.

ثم عرَجَ إلى السماءِ الثانيةِ، فقالتِ الملائكةُ له مثلَ ما قالتْ له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قالوا: ومنْ معكَ؟ قال: محمدٌ -ﷺ-، قالوا: وقد بُعِثَ إليه؟ قالَ: نَعَمْ، قالُوا: مَرْحَباً بِهِ وأَهْلاً.

ثُمَّ عرجَ به إلى السماءِ الثالثةِ، وقالوا له مثلَ ما قالتِ الأولى، والثانيةُ.

ثُمَّ عرَجَ به إلى الرابعة فقالُوا له مثلَ ذلكَ، ثم عرجَ به إلى السماء الخامسةِ فقالُوا مثلَ ذلكَ، ثم عرجَ به إلى السادسةِ، فقالوا له مثلَ ذلكَ.

ثم عرجَ به إلى السماءِ السابعةِ، فقالُوا له مثلَ ذلكَ، كُلُّ سماءٍ فيها أنبياءُ قد سمّاهم، فَوَعَيْتُ منهم إدريسَ في الثانية، وهارونَ في الرابعةِ، وآخرَ في الخامسةِ لَمْ أحفظِ اسمَهُ، وإبراهيمَ في السادسةِ، وموسى في السابعةِ بتفضيلِ كلامه لله، فقالَ موسى: رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أنْ ترفعَ عليَّ أحداً، ثم عَلا بِهِ فوقَ ذلكَ بما لا يعلمُهُ إلا اللهُ، حتى جاء سدرةَ المنتهى، ودنا الجبارُ رَبُّ العزةِ فَتَدَلّى، حتى كانَ منهُ قابَ قوسينِ أو أدنى، فأَوْحَى اللهُ فيما أَوْحَى إليهِ خمسينَ صلاةً على أُمَّتِكَ، كلَّ يومٍ وليلةٍ، ثم هبطَ حتى بلغَ موسى فاحتبسَهُ موسى، فقالَ: يا محمدُ، ماذا عَهِدَ إليكَ رَبُّكَ؟ قالَ: عَهِدَ إليَّ خمسينَ صلاةً كلَّ يومٍ وليلةٍ، قال: إنَّ أمتكَ لا تستطيعُ ذلكَ، فارجعْ فَلْيُخَفِّفْ عنكَ رَبُّكَ وعنهم.

فالتفتَ النبيُّ -ﷺ- إلى جبريلَ ﷺ كأنَّهُ يستشيرُهُ في ذلكَ فأشارَ إليه جبريلُ أنْ نَعَمْ، إنْ شئتَ، فَعَلا بِهِ إلى الجبارِ، فقالَ وهو مكانَهُ: يا ربِّ خَفِّفْ عنا، فإنَّ أمتي لا تستطيعُ هذا، فوضعَ عنه عَشْرَ صلواتٍ.

ثم رجعَ إلى موسى فاحتبسَهُ، فلم يَزَلْ يُرَدِّدْهُ موسى إلى ربهِ حتى صارتْ إلى خَمْسِ صلواتٍ، ثم احتبسَهُ موسى عند الخمسِ، فقالَ: يا محمدُ، واللهِ لقدْ راودتُ بني إسرائيلَ قومي على أدنى من هذا، فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ، فأمتكَ أضعفُ أجساداً وقلوباً، وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجعْ فليخففْ عنكَ ربكَ.

كلُّ ذلكَ يلتفتُ النبيُّ -ﷺ- إلى جبريلَ ليشيرَ عليهِ، ولا يَكْرَهُ ذلكَ جبريلُ، فرفعهُ عندَ الخامسةِ، فقالَ: يا ربِّ، إنَّ أمتي ضُعَفاءُ، أجسادُهُم وقلوبُهم، وأسماعُهم وأبدانُهم فخففْ عنا.

فقالَ الجبارُ: يا محمدُ، قالَ: لَبَّيكَ وسَعْدَيْكَ، فقالَ: إنَّهُ لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، كما فَرَضْتُ عليكَ في أمِّ الكتابِ، قال: فَكُلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها، فهي خمسونَ في أمِّ الكتاب، وهي خَمْسٌ عليكَ، فرجعَ إلى موسى، فقال: كيفَ فعلتَ؟

فقالَ: خَفَّفَ عنا، أعطانا بكلِّ حسنةٍ عَشْرَ أمثالها.

قال موسى: قد -واللهِ- راودتُ بني إسرائيلَ على أدنى من ذلكَ فتركوهُ، ارجعْ إلى ربِّكَ، فليخففْ عنكَ أيضاً.

قال رسولُ اللهِ -ﷺ-: يا موسى، قد -واللهِ- استحييتُ من ربي مما اختلفتُ إليه.

قالَ: فاهبطْ باسمِ اللهِ.

قالَ: واستيقظَ وهو في مَسْجِدِ الحرامِ».

«الإسراء»، من سرى، وأسرى: إذا سار ليلاً.

والصواب أن الإسراء وقع له ﷺ مرة واحدة، وكذا المعراج، وهو في مكة قبل الهجرة، وأنه يقظة لا مناماً، وأنه بروحه وجسده.

قوله: «ليلة أسري برسول الله -ﷺ- من مسجد الكعبة، أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه»، ذكر البيهقي بسنده من طريق موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: «أسري برسول الله -ﷺ- إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة».

ثم قال: «وكذلك ذكره ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، وروى السدي، قال: «فرض على رسول الله -ﷺ- الخمس في بيت المقدس ليلة أسري به، قبل مهاجره بستة عشر شهراً»[1].

قوله: «في بيت المقدس» يعني: أن أول صلاة صلاها بعد فرض الصلوات في بيت المقدس، وهي صلاة الفجر، فعلى قول الزهري وعروة يكون الإسراء في ربيع

---

(١) «دلائل النبوة» (٢/ ١٠٧).

الأول، وعلى قول السدي يكون في ذي القعدة، ومن زعم أنه في رجب فليس له مستند، قال ابن كثير: لا أصل لذلك[1].

قوله: «أنه جاءه ثلاثة نفر» قال في «اللسان»: «النفر بالتحريك: ما دون العشرة من الرجال، وقالوا: النفر، والقوم، والرهط: جموع لا واحد لها من لفظها»[2].

وجاء أن منهم جبريل، وهذا ظاهر من الحديث لا خفاء فيه، وميكائيل.

قوله: «قبل أن يوحى إليه» هذه الجملة مما أنكره العلماء على شريك، وخَطَّؤُوه فيها، منهم الخطابي، وابن حزم، والقاضي عياض، والنووي.

وخرجها ابن كثير على أن المجيء مرتين، الأولى: قبل أن يوحى إليه، فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شيء، والثانية وهي التي حصل فيها شق الصدر، ثم الإسراء، والعروج إلى السماء. وعبارته:

«وفي سياق حديث شريك غرابة من وجوه، منها قوله: «قبل أن يوحى إليه» والجواب: أن مجيئهم أول مرة كان قبل أن يوحى إليه، فكانت تلك الليلة، ولم يكن فيها شيء، ثم جاءه الملائكة ليلة أخرى، ولم يقل في ذلك «قبل أن يوحى إليه»، بل جاءوا بعد ما أوحي إليه، فكان الإسراء قطعاً بعد الإيحاء، إما بقليل كما زعمه طائفة، أو بكثير نحو عشر سنين، كما زعمه آخرون، وهو الأظهر»[3].

قال الحافظ: «وصرح الخطابي، وابن حزم، والقاضي عياض، والنووي، بأن شريكاً انفرد بهذه اللفظة، وفي دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خنيس، عن أنس، أخرجه سعيد بن يحيى الأموي، في كتاب المغازي من طريقه»[4].

ثم قال: «قوله: «فلم يرهم» أي: بعد ذلك، «حتى أتوه ليلة أخرى»، ولم يعين المدة التي بين المجيئين، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد أن أوحي إليه، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج»[5]، أي: بعد النبوة والوحي.

---

(١) انظر السيرة له (٢/ ٩٤).

(٢) «اللسان» (٣/ ٦٨٧) المرتب.

(٣) «السيرة» لابن كثير (٢/ ٩٨).

(٤) «الفتح» (١٣/ ٤٨٠).

(٥) المرجع السابق.

ويجوز أنه يقصد بقوله: «قبل أن يوحى إليه» أي: في شأن الإسراء والمعراج، أي: أنهم فاجَؤُوه بدون سابق إعلام له بذلك.

قوله: «وهو نائم في المسجد» وفي آخره: «واستيقظ وهو في المسجد» وبهذا ونحوه تعلق من يقول: إن الإسراء والمعراج وقعا مناماً.

والحق أنهما وقعا يقظة لا مناماً، وأن ذلك ببدنه وروحه، وهو قول جمهور أهل السنة، والدليل قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظيمة والآيات الباهرة، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير أمر؛ لأنه لا يستنكر.

ومما يدل على ذلك إنكار كفار قريش له، وتعظيمهم إياه، واستبعادهم وقوعه، حتى ارتد بسبب ذلك بعض من أسلم، ولو كان مناماً لم ينكره أحد، وأيضاً فالعبد اسم لمجموع الروح والبدن.

ودلالة الأحاديث على ذلك ظاهرة، فعلى هذا يكون قوله: «وهو نائم في المسجد» يعني ذلك المجيء الأول الذي لم يحصل فيه الإسراء، ثم المجيء الثاني كان يقظان.

ويحمل ما في آخر الحديث على الإفاقة مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الآيات العظيمة والملكوت، وقد ينشغل الإنسان بما يقع له من أمر مهم، فإذا انجلى عنه ذلك الأمر كأنه أفاق من نوم، كما جاء في قصة ذهابه إلى الطائف، وفيها: «فلم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب».

ويجوز أنه نام بعد رجوعه، وكان إذا أوحي إليه يستغرق قلبه في الوحي، فإذا انقطع الوحي سري عنه، فيجوز أن يكون هذا مثله.

قوله: «فقال أولهم: أيهم هو؟» يدل على أنه كان نائماً مع جماعة.

قال الحافظ: «قد جاء أنه كان معه عمه حمزة، وجعفر بن أبي طالب»[1].

«فقال أحدهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة» كانت هنا تامة، والتقدير: وجدت تلك الليلة، ولم يحصل فيها شيء من الإسراء، وذهبوا ولم يرهم.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٨٠).

«حتى أتوه ليلة أخرى» بعد زمن طويل، كما تقدم، وبهذا يرتفع الإشكال في قوله: «قبل أن يوحى إليه» وقوله: «وهو نائم».

قال الحافظ: «وبه يسقط تشنيع الخطابي، وابن حزم، وغيرهما، بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة»[1].

ومما يدل على ذلك قوله لما استفتح جبريل باب السماء: «أبعث إليه؟ قال: نعم» يعني: أنه أرسل إلى الناس.

قوله: «فيما يرى قلبه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء».

هذا من الخصائص التي خص بها الأنبياء، ومعنى يقظة القلب: أنه يدرك الحسيات المتعلقة به: كالألم والحدث ونحو ذلك، لا ما يتعلق بالعين من رؤية الأشياء، قاله النووي[2].

قوله: «فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم» هذا يختلف مع رواية الزهري، عن أنس، عن أبي ذر، أنه قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة» وفي رواية الواقدي بأسانيده، أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني: «أنه بات في بيتها، ففقدته من الليل، فقال: إن جبريل أتاني».

قال الحافظ: «والجمع بين هذه الأقوال: أنه نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيتها، وأضافه إليه؛ لكونه يسكنه، فنزل منه الملك، فأخرجه إلى المسجد، فكان به مضطجعاً، وبه أثر النعاس، ثم أخرجه إلى باب المسجد، فأركبه البراق»[3].

قوله: «فتولاه منهم جبرائيل، فشق ما بين نحره إلى لبّته» يعني: أن جبريل شق صدره، وبطنه، فاستخرج قلبه وأحشاءه فغسلها بماء زمزم بيده حتى أنقاه من كل ما فيه من دخل، ثم أتي بطست من ذهب، وفيه تور من ذهب، وهو إناء صغير، قد يكون من صفر، أو من حجر، والطست مملوء إيماناً وحكمة، فحشا به صدره،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نقله الحافظ في «الفتح» (١/ ٤٥٠).

(٣) «الفتح» (٧/ ٢٠٤).

ولغاديده -يعني: عروق حلقه، ثم أطبقه فخاطه، ولم يتألم من ذلك أو يتأثر، وقد جاء أن أثر الشق بقي فيه واضحاً.

و«اللبة» هي موضع القلائد في أعلى الصدر، وهي التي ينحر البعير منها.

وتكرر شق صدره ﷺ.

قال الحافظ: «ثبت ذلك في غير رواية شريك في «الصحيحين»، من حديث أبي ذر، ووقع أيضاً له ذلك عند البعثة، كما أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»، وأبو نعيم في «الدلائل»، ووقع أيضاً في حديث أبي هريرة، وهو ابن عشر سنين، كما في «المسند» من زيادات عبدالله»[(١)].

قوله: «ثم عرج به إلى السماء الدنيا» حذف قبل هذا جملة من الحديث مما هو ثابت في الروايات الأخرى؛ لأن القصة واحدة، وتقدير المحذوف: ثم أتي بالبراق، فركبه، فأسري به إلى المسجد الأقصى، فربط البراق وصلى ركعتين تحية المسجد، ثم عرج به.

والعروج هو الصعود، والارتقاء، وعروجه ﷺ هذا آية باهرة من آيات الله العظيمة، التي لا يدرك حقيقتها العقل البشري؛ لأن ارتفاع السماء عن الأرض ارتفاع هائل، لا يعلم قدره إلا الله -تعالى-، وقد تبين للناس اليوم أن الإنسان إذا ارتفع عن الأرض إلى حد قريب ينعدم الأكسجين الذي به الحياة، فيختنق ويموت في لحظات، وما فوق السماء الدنيا إلى التي تليها مسافة بعيدة جداً، لو قدرت بسير الإنسان، وما يستخدمه من آلات حديثة، لكانت بمئات السنين، وربما بآلاف السنين، وهكذا كل ما بين سماء وأخرى، ومع هذا كله يذهب الرسول -ﷺ- ببدنه وروحه ويجاوز السماوات السبع بارتفاع لا يعلم قدره إلا الله -تعالى- في ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة، ثم يعود، ولهذا قال جل وعلا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

والتسبيح يكون عند الأمور العظيمة الدالة على قدرة الله، كما سبق.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٨١).

فإن قيل: لماذا لم يذكر المعراج في القرآن، مع أنه آية عظيمة دالة على عظيم قدرة الله -تعالى-؟

قيل: لأن الإسراء قد ذكر، وهو من جنسه، من حيث قطع المسافة الشاسعة في الوقت القصير، ولأنه يدل عليه.

ولأن إخبار الرسول -ﷺ- به وبما وقع فيه كاف عن ذكره في القرآن.

قوله: «فضرب باباً من أبوابها» يدل على أن السماء مبنية بناء محكماً ولها سمك وكثافة، وأنها لا تدخل إلا من أبوابها.

قوله: «فناداه أهل السماء من هذا؟» يدل على سماكة السماء وكثافتها، وأن من فيها لا يرى من يأتي من أسفلها، فدل على بطلان قول أهل الهيئة قديماً بأن السماء شفافة، لا تستر من فوقها، ولا من تحتها، وهذا من خرصهم الذي لا يستند إلى برهان.

ودل أيضاً على بطلان قول ملاحدة هذا العصر، الذين ينكرون وجود السماء المبنية المحكمة، ويقولون: إنما هو فضاء تسبح فيه الكواكب، وهذا خلاف نصوص الشرع، وخلاف الواقع، وهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس.

قوله: «فقال: جبريل» يدل على أن المسؤول عند الاستئذان يسمي نفسه العلم حتى يعرف، ولا يأتي بكلام مبهم مثل قوله: «أنا» ونحوه مما لا يعين المستأذن.

«قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قال: وقد بعث إليه؟» مقتضى السياق أن تكون «قال» الأخيرة للجمع.

وهذا يدل على حراسة السماء، وأنه لا يدخلها أحد إلا من أمر الله بإدخاله.

وقولهم: «وقد بعث إليه» يعني: بعث نبياً، فهو يدل على أنهم لم يعلموا ذلك، والظاهر كما قال القسطلاني أن المعنى: أبعث إليه في المجيء إلى السماء؟ لأن البعثة لا تخفى عليهم. وعلى كل فهو يدل على أن معراجه -ﷺ- بعد النبوة، وهو أمر ظاهر.

«فقالوا: فمرحباً، وأهلاً» أي: أتيت مكاناً رحباً واسعاً، وفيه لك أهل يفرحون بقدومك، وهذا كلام مشهور، تقوله العرب لمن يستضيفها ولمن تكرمه، ومعناه: إنك حللت في مكان رحب، سهل واسع، لا ضيق عليك فيه، وأنت عند من هو مثل أهلك، يفرح بك ويكرمك.

قوله: «فيستبشر به أهل السماء» يدل على أن عندهم علماً بأنه سيبعث نبياً ويعرج به، ويدل على حبهم له وفرحهم برؤيته -ﷺ-.

«لا يعلم أهل السماء بما يريد به في الأرض حتى يعلمهم»؛ لأنهم لا يعلمون الغيب، وهو يرد قول بعضهم أنه مرسل حتى إلى الملائكة؛ لأنهم ليسوا بحاجة إلى رسالته، ولو أرسل إليهم رسولاً لكان من جنسهم، كما جرت سنة الله في خلقه، وكيف يرسل لمن في السماوات؟!

«فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك، فسلم عليه» وهكذا في كل سماء يجد فيها أنبياء، فيعلمه جبريل من هم، ويأمره بالسلام عليهم، وهم في السماوات حسب منازلهم عند الله، فمن هو أفضل فمنزلته أرفع، والرسول -ﷺ- لا يعرفهم حتى يعلمه جبريل بهم، مما يدل على أنه لم يرهم قبل هذا اللقاء.

«فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذا النيل والفرات، عنصرهما» أي: أصلهما، أو ما يمدان منه، وهذا يدل على أن ذينك النهرين ليسا النيل والفرات؛ لأن النيل والفرات في الأرض، وذانك النهران في السماء.

وفي حديث مالك بن صعصعة أنه رأى في أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار، وذكر منها النيل والفرات، فيجوز أن يكون ذلك مثل، والله أعلم بذلك.

«ثم مضى به في السماء، فإذا بنهر عليه قصر من لؤلؤ، وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك» وهذا مما استشكل في هذا الحديث، لأنه ثبت أن الكوثر في الجنة، والجنة في السماء السابعة، كما جاء في المسند من حديث أنس «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي في مجرى مائه فإذا مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك الله -تعالى-»[1].

قال الإمام أحمد: «حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك قال: «أغفى رسول الله -ﷺ- إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً، إما قال لهم، وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله -ﷺ-: إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة، فقرأ:

---

(١) انظر «المسند» (٣/ ١٠٣، ١١٥، ٢٦٣).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها، فقال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هو نهر أعطانيه ربي -عز وجل- في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب: إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

يجوز أن يكون رآه في السماء الدنيا وأصله في الجنة، أو أنه مثِّل له، والله على كل شيء قدير.

وقال القرطبي: «والصحيح أن للنبي -ﷺ- حوضين: أحدهما في الموقف قبل الصراط، والثاني في الجنة، وكلاهما يسمى كوثراً، والكوثر في كلام العرب: الخير الكثير»[2].

قال الحافظ: «فيه نظر؛ لأن الكوثر نهر داخل الجنة، وماؤه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثر؛ لكونه يمد منه»[3].

وظاهر الأحاديث مثل قوله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»، وقوله لأنس لما طلب منه أن يشفع له يوم القيامة وقال: «أنا فاعل»، قال: أين أجدك، قال: «اطلبني أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: أنا عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: أنا عند الحوض»[4] وغير ذلك، ظاهرها أن الحوض في الموقف، وفي حديث لقيط ما يدل على أنه بعد الصراط فإن فيه: «فينصرف نبيكم وينصرف على أثره الصالحون، فيسلكون جسراً من النار، يطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس،

---

(١) «المسند» (٣/ ١٠٢).

(٢) «التذكرة» (١/ ٣٦٢).

(٣) «الفتح» (١١/ ٤٦٦).

(٤) رواه أحمد والترمذي، انظر «المسند» (٣/ ١٧٨) والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصراط (٢٤٣٨).

فيقول ربك: أو إنه؟ ألا فيطلعون على حوض الرسول على أظمأ - والله- ناهلة رأيتها أبداً»[1].

«قال القرطبي في المفهم، تبعاً للقاضي عياض: مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله -سبحانه وتعالى- قد خص نبيه محمداً -ﷺ- بالحوض المصرح باسمه وصفته، وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة، التي يحصل بمجموعها العلم القطعي»[2].

قوله: «ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت في الأولى».

يعني: أن جبريل استفتح، فقالوا: من؟ فأخبرهم كما مضى.

قوله: «كل سماء فيها أنبياء، قد سماهم، فأوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة، لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة» قال الحافظ: «كذا في رواية شريك، وفي حديث الزهري عن أنس، عن أبي ذر، فذكر أنه وجد في السماوات آدم، وإدريس، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة» وهو موافق لرواية شريك، والأكثرون خالفوا ذلك، فذكروا أن موسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، كما في رواية قتادة، وسياق روايته يدل على رجحانها، فإنه ضبط اسم كل نبي، والسماء التي هو فيها»[3].

وقد حاول الحافظ أن يجمع بين الروايات بأن موسى كان وقت العروج في السادسة، وإبراهيم في السابعة، ثم انعكس الأمر عند هبوطه.

وهذا جائز، ولكن يحتاج إلى دليل، قال: ويحتمل أنه لقي موسى في السادسة، ثم صعد معه إلى السابعة؛ لأنه هو الذي صارت المحاورة بينه وبينه من أجل تخفيف الصلوات، فالله أعلم»[4].

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ١٣)، وفي «السنة» (٢/ ٤٨٥).

(٢) «الفتح» (١١/ ٤٦٧).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٤٨٢).

(٤) المرجع السابق.

والراجح ما صرح به في هذه الرواية، وقد نص على أن سبب رفعه إلى السابعة ما خصه الله به من التكريم بكلامه، كما قال:

«وموسى في السابعة بتفضيل كلامه لله» وفي بعض النسخ:« بتفضيل كلام الله» وهي أظهر على المراد؛ لأن المقصود إثبات تكليم الله -تعالى- لموسى، وليس تكليم موسى لله -تعالى-.

وهذا هو محل الشاهد من الحديث، وإن كان بقية الحديث فيه دلالة واضحة على تكليم الله -تعالى- لمحمد -ﷺ-، ويجوز أن البخاري أراد ذلك أيضاً، فكأنه يقول: كما أن الله -تعالى- قد كلم موسى تكليماً، وموسى في الأرض، فقد كلم عز وجل محمداً وهو فوق سبع سماوات.

قوله: «فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع عليَّ أحداً»، وفي رواية: «أن يرفع» بالياء، قال ابن بطال: «فهم موسى من اختصاصه بكلام الله -تعالى- في الدنيا دون غيره من البشر، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1] أن المراد بالناس: البشر كلهم، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحداً، فلما رفع محمداً -ﷺ- علم أنه فضل عليه، ومن ذلك قال هذا القول»[2].

قوله: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى».

قال الحافظ: «هذا مما خالف فيه شريك غيره، فإن الجمهور على أن سدرة المنتهى في السابعة، وعند بعضهم في السادسة، ولعل في السياق تقديماً وتأخيراً، وأن ذكر سدرة المنتهى قبل قوله: «ثم علا به فوق ذلك»، وفي رواية أبي ذر: «ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[3] أي: صوت كتابة الأقلام، التي تكتب ما أمر الله به من تقدير، وأمر ونهي.

ثم قال الحافظ: «وفي رواية ميمون بن سياه عن أنس عند الطبري بعد ذكر إبراهيم في السابعة: فإذا هو بنهر» فذكر أمر الكوثر.

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف.

(٢) «الفتح» (١٣/ ٤٨٣) بتصرف.

(٣) المصدر نفسه.

قال: ثم خرج إلى سدرة المنتهى، وهذا موافق للجمهور، ويحتمل أن يكون المراد بما تضمنته هذه الرواية من العلو البالغ لأعلى سدرة المنتهى وما تقدم لأصلها»[1].

قوله: «ودنا الجبار، رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى».

وفي رواية ميمون بن سياه، عن أنس: «فدنا ربك -عز وجل- فكان قاب قوسين أو أدنى».

وفي رواية البيهقي من طريق ثابت البناني، عن أنس قال: «فدنا فتدلى فأوحى إلى عبده ما أوحى»[2].

وفي رواية أبي سعيد التي رواها البيهقي وغيره: «وكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى»[3].

وذكرالسيوطي أن ابن مردويه أخرج حديث أنس من طريق كثير بن خنيس، وفيه: «فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى»[4].

قال الخطابي: «ليس في هذا الكتاب -يعني: صحيح البخاري- حديث أشنع ظاهراً، ولا أشنع مذاقاً، من هذا الفصل، فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر، وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا إلى ما في التدلي من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذي تعلق من فوق إلى أسفل.ثم اختار أن هذا الحديث رؤيا منام، أو أن أنساً حكاه من تلقاء نفسه لم يعزه إلى النبي -ﷺ-»[5].

أقول: أما كون هذا الفصل شنيعاً ظاهراً ومذاقاً، فذلك في نظر الجهمية الذين يزنـون كلام الله وكلام رسوله بما يظنونه براهين عندهم، وهي مجرد شبهات وأوهام، أو يزنون كلام الله ورسوله بأذواقهم.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) «دلائل النبوة» (٢/ ٣٨٤).

(٣) المصدر المذكور (٢/ ٣٩٥).

(٤) «الدر المنثور» (٥/ ١٩٠).

(٥) «الفتح» (١٣/ ٤٨٣).

وهذه الشناعة التي يظنها الخطابي -عفا الله عنا وعنه- قد ترد لو كان ما يختص الله به من الأفعال والصفات على وفق مذاق أهل التعطيل ومذهبهم، وقياساتهم الفاسدة.

أما إذا كان العبد منقاداً لما جاء به الرسول -ﷺ-، وموقناً بأن رسول الله -ﷺ- أعلم بالله، وأخشى له من كل الناس قاطبة، وأنه أقدرهم على البيان والإفصاح عما يريد، وهو أيضاً أنصحهم للأمة، وأحرصهم على هدايتها، إذا كان العبد موقناً بذلك كله، فلن يكون هذا الفصل وأمثاله مما جاء به الرسول -ﷺ- شنيعاً لا ظاهراً ولا مذاقاً كما زعم الخطابي.

وأما محاولته الطعن في راوي الحديث -أنس بن مالك- رضي الله عنه، وأنه إنما حكى هذا القول من عند نفسه، وقد سبق أن قال في عبدالله بن مسعود مثل هذا، وهذا زلة منه عظيمة، وخروج عن نهج أهل الحق، وهذا ما يتمناه كل زنديق، ورافضي خبيث، حتى يتسنى لهم إبطال الشرع كله؛ لأن كل أحد يمكنه أن يقول ما شاء إذا انفتح هذا الباب، وهو الطعن في الصحابة بأنهم لم يفهموا ما يقولون، وينقلون الباطل والضلال، كما هو مقتضى قول الخطابي.

مع أن قوله هذا خلاف ما اتفق عليه أئمة الإسلام من المحدثين والفقهاء، وأن مرسل الصحابي له حكم الاتصال؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون رواه عن صحابي، أو سمعه من الرسول -ﷺ-.

وكذلك طعنه في شريك بن عبدالله غير مقبول، بل هو خلاف الحق.

«قال أبو الفضل ابن طاهر: «تعليل الحديث بتفرد شريك، ودعوى ابن حزم أن الآفات منه شيء لم يسبق إليه، فإن شريكاً قبله أئمة الجرح والتعديل ووثقوه، ورووا عنه، وأدخلوا حديثه في تصانيفهم، واحتجوا به، وروى عبدالله بن أحمد الدورقي، وعثمان بن سعيد الدارمي، وعباس الدوري، عن يحيى بن معين: لابأس به»[1].

---

(١) إذا قال يحيى بن معين: لا بأس به، فمعناه عنده: ثقة.

وقال ابن عدي: «مشهور من أهل المدينة، حدث عنه مالك وغيره من الثقات، وحديثه إذا روى عنه ثقة لا بأس به، إلا أن يروي عنه ضعيف».

قال ابن طاهر: «وحديثه هذا رواه عنه ثقة، وهو سليمان بن بلال»[1].

ثم إن شريكاً لم ينفرد بهذا اللفظ كما تقدم.

وأما قول الخطابي: «إن ذلك يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر، وتمييز مكان كل واحد منهما».

فجوابه أن كثيراً من النصوص في كتاب الله وسنة رسوله تقتضي ذلك، بل تدل عليه نصاً، وقد سبق في باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ من ذكر بعض النصوص في ذلك، وبعض أقوال أئمة السلف ما فيه مقنع لمن يريد الحق.

وأما المكابر والضال فلا حيلة فيه إلا طلب الهداية له من الله -تعالى.

ثم مفهوم هذا القول من الخطابي أنه لا تمييز بين مكان الخالق والمخلوق ولا مسافة، ولا تحديد، وهذا لا يعدو أمرين لا ثالث لهما:

إما: أن يكون الرب -تعالى- حالاً في الخلق، ومداخلاً لهم، فهو في كل مكان، لا يختص به مكان دون آخر، حتى أجواف الحيوانات والناس والأمكنة الخبيثة، وهذا مذهب الحلولية الذين هم من أضل خلق الله، وأبعدهم عن معرفة الله والتمييز بينه وبين خلقه، وهذا غاية الكفر ومنتهاه.

الثاني: أنه لا مكان لله أصلاً، ومن ليس له مكان -بمعنى أنه ليس في جهة- فهو عدم لا وجود له، والعدم هو إله المعطلة والملاحدة.

ومعلوم ثبوت وصف الله -تعالى- بالقرب، والدنو، من بعض خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى لما رفعوا أصواتهم بالتكبير قال لهم النبي -ﷺ-: «اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٨٥).

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة.

تدعون سميع بصير قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وقد تقدم، والنصوص في هذا كثيرة.

قال شيخ الإسلام: «قرب الله -سبحانه- ودنوه من بعض مخلوقاته، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء، كما قال ذلك من قاله من السلف.

وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة، وقال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[1].

والنداء هو: رفع الصوت، والنجي هو القريب لمن يكلمه ويناجيه، وأكد ذلك بقوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، والمنادي لموسى هو ربه -تعالى- وهو المناجي له أيضاً، ونداؤه ومناجاته قائمة به -تعالى- ليست مخلوقة منفصلة عنه، ووقعت مناداته ومناجاته لرسوله موسى في وقت واحد معين.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى، أنهم كانوا مع النبي -ﷺ- في سفر، فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

وفيهما: «يقول الله -تعالى-: من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرَّب إلـيَّ ذراعـاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»[2].

«والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته، وهو القول المعروف للسلف والأئمة، وهو قول الأشعري، وغيره من الكلابية، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته، وكذلك يثبتون استواءه على العرش، فصار مستوياً عليه.

وأما دنوه وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر.

---

(١) الآية ٥٢ من سورة مريم.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤٦٣-٤٦٤) ملخصاً.

وأول من أنكر هذا في الإسلام الجهمية، ومن وافقهم»[1].

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عمر قال: سمعت النبي -ﷺ- يقول: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

وسبق الكلام عليه قريباً.

وفي لفظ: «يؤتى بالمؤمن يوم القيامة فيدنيه الله منه، فيضع عليه كنفه».

قال أبو يعلى: «غير ممتنع حمله على ظاهره، وأنه دنو من ذاته، وقد أخذ أحمد بظاهره، في رواية أبي الحارث، وقد سأله: ما معنى قول النبي -ﷺ- إن الله يدني العبد يوم القيامة، فيضع عليه كنفه؟ قال: هو كما قال، ونقول به، فقد نص أحمد على الأخذ بظاهره»[2].

قوله: «فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط بهم حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى، فقال: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إليَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة».

استدل بذلك على عظيم قدر الصلاة عند الله، والاهتمام بها، وأنها من أفضل ما تفضل الله به على هذه الأمة؛ لأنها صلة بين العبد وربه وقرب منه، فينبغي للمسلم أن يهتم بها ويجتهد في أدائها في خشوع وحضور قلب.

وقد كان النبي -ﷺ- إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقال الله -تعالى-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾[4].

ومما يزيد في أهميتها أن الرسول -ﷺ- لم يذكر أنه فرض عليه في ذلك الموقف القريب إلى الله تعالى إلا الصلاة.

---

(١) المصدر (ص٤٦٦).

(٢) «إبطال التأويل» (ص١٥٥) مخطوط.

(٣) الآية ١٥٣ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٤٥ من سورة البقرة.

وقد علم موسى -ﷺ- أن الله سوف يفرض عليه فروضاً، ولهذا استوقفه.

وفي ذلك بيان نصحه وشفقته على هذه الأمة، فصلاة الله وسلامه عليه وجزاه الله خير الجزاء، حيث جعله الله سبباً لتخفيف الواجب على هذه الأمة.

قوله: «إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي -ﷺ- إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت» وهذا كله بإرادة الله، فهو -جل وعلا- الذي ألهم موسى -ﷺ- أن يسأل نبينا -ﷺ- وأن يأمره بالرجوع إلى الله ليطلب التخفيف، فالحمد لله الذي أتم نعمته على عباده، وأظهر فضل أوليائه من رسله.

قوله: «فعلا به إلى الجبار» فيه دلالة صريحة واضحة على علو الله -تعالى- وأن الذي يصعد في العلو، يقرب من الله، وأن الذي في السماء أقرب إليه ممن في الأرض، وأن من في السماء السابعة أقرب إليه ممن هو تحتها، وهذا أمر فطر الله عليه عباده، لا ينكره إلا الجهمية والمعتزلة، ومن سلك نهجهم ممن اجتالتهم الشياطين فغيرت فطرهم، وزينت لهم تعطيل الله -تعالى- مما وصف به نفسه، وقد سبق الكلام في ذلك.

قوله: «فقال وهو مكانه» الضمير عائد إلى الرسول -ﷺ- أي: وهو في مكانه الذي أوحى الله إليه فيه قبل نزوله إلى موسى.

«يا رب، خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا» إلى آخره، استدل بهذا أهل الأصول على جواز النسخ قبل التمكن من العمل، وعلى كل ففي هذا عظيم فضل الله ومنته على عباده، حيث أمر وأوجب، ثم لطف فخفف ورحم.

قوله: «ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد، والله، لقد راودت بني إسرائيل قومي» إلى آخره، هذا يدل على كمال نصح نبي الله وكليمه موسى -ﷺ- لهذه الأمة، ويدل على أن بني إسرائيل قد فرض عليهم صلوات هي أقل مما فرض على هذه الأمة، كما يدل على أن الخلق يضعفون، كلما تأخروا في الزمن ضعفوا في جميع خلقهم وقواهم.

«فقال الجبار: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لدي، كما فرضت عليك في أم الكتاب، قال: فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم

الكتاب، وهي خمس عليك» هذا المقطع من الحديث صريح في أن الله -تعالى- كلم نبينا -ﷺ- بلا واسطة، وأنه سمع كلامه، وخطابه بقوله: «يا محمد» وأجابه النبي -ﷺ- بقوله: لبيك وسعديك.

وهذا ما قصد البخاري -رحمه الله- إثباته وإيضاحه، ولا يخفى وضوحه.

وأم الكتاب هو: اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل ما هو كائن.

وجعل الله إعطاء هذه الأمة بالحسنة عشر حسنات تخفيفاً.

ثم أمسكه موسى وأمره بالرجوع، وطلب التخفيف شفقة منه على هذه الأمة أن تعجز عن أمر الله فتهلك، فجزاه الله أعظم ما يجزي به أولياءه، ما أعظم نصحه وشفقته -ﷺ-.

«قال رسول الله -ﷺ-: يا موسى، قد -والله- استحييت من ربي مما اختلفت إليه» أي: من كثرة التردد إليه، وفيه دليل على أن هناك مكاناً معيناً كان يتردد إليه هو أقرب إلى الله -تعالى من المكان الذي فيه موسى -ﷺ-.

لما قال لموسى ذلك قال له: فاهبط باسم الله متبركاً به ومستعيناً.

قوله: «واستيقظ وهو في المسجد الحرام» تقدم الكلام على هذه الفقرة.

«قال القرطبي: يحتمل أن يكون استيقاظاً من نومة نامها بعد الإسراء؛ لأن إسراءه لم يكن طول ليلته، وإنما كان في بعضها.

ويحتمل أن يكون المعنى: أفقت مما كنت فيه، مما خامره من مشاهدة الملأ الأعلى؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾»[1].

قال ابن كثير بعد ما ذكر روايات الإسراء والمعراج: «إذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها، وحسنها، وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله -ﷺ- من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه، أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٨٧).

ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة، فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يتحصل على مطلب، وقد صرح بعض المتأخرين بأنه -ﷺ- أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك، ورأى أنه ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات.

وهذا بعيد جداً، ولم ينقل عن أحد من السلف.

ولو حصل هذا التعدد لأخبر به الرسول -ﷺ- أمته، ولنقله الناس.

والحق أنه أسري به مرة واحدة، يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين.

ثم أُتي بالمعراج، وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب مراتبهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف أقلام القدر بما هو كائن، وغشي سدرة المنتهى من أمر الله فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى جبريل على هيئته التي خلق عليها، له ستمِئَة جناح، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم مسنداً ظهره إليه، ورأى ما يدخله من الملائكة كل يوم سبعون ألف، لا يعودون إلى مثلها أبداً.

ورأى الجنة والنار، وفرضت عليه الصلوات، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه، يحتمل أنها صلاة الصبح.

ثم خرج راكباً البراق، وعاد إلى مكة بغلس»[1].

والمقصود أن الله موصوف بالتكلم في الماضي والحاضر والمستقبل، وأنه يكلم من يشاء من عباده بما يشاء، وأي وقت شاء، وقد كلم الله -تعالى- موسى كلاماً

---

(١) «تفسير» ابن كثير (٣/ ٢٢-٢٣).

حقيقياً سمعه موسى من الله، وموسى في الأرض، والله في السماء، وكذلك كلم محمداً وهو في السماء كما في هذه القصة، قال -تعالى- مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1]، وهذا بيان أوضح من النهار في أن الله -تعالى- خص موسى في الدنيا من بين الناس بكلامه، وفيه الدليل على أنه تعالى إذا شاء أن يكلم أحداً من خلقه لم يمنعه مانع، وأنه متصف بالكلام المتعلق بمشيئته دائماً.

□□□

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف.

قالَ: «بابُ كلامِ الرَّبِّ مَعَ أهْلِ الجنةِ».

مـراده بيـان أن الله -تعالى- متصف بالكلام في كل وقت إذا شاء؛ لأن الكلام متعلق بمشيئته -تعالى-، فأي وقت شاء أن يتكلم تكلم، وقد سبق أن الكلام صفة كمال، وفقده نقص يتقدس الله عنه، وسبق ذكر أنواع من كلام الله -تعالى-.

□□□

١٤٤- قال: «حدثنا يحيى بنُ سليمانَ، حدثني ابنُ وَهْبٍ، قال: حدثني مالكٌ، عن زيدِ بنِ أَسْلَمَ، عن عطاءِ بنِ يَسارٍ، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ -رضي اللهُ عنه- قالَ: قالَ النبيُّ -ﷺ-: «إنَّ اللهَ -تعالى- يقولُ لأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنةِ، فيقولونَ: لبيكَ ربَّنا وَسَعْدَيْكَ، والخيرُ في يديكَ، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا ربِّ، وقدْ أَعْطَيْتنا ما لمْ تُعْطِ أحداً منْ خلقكَ؟ فيقولُ: ألا أُعْطِيكُمْ أفضلَ منْ ذلكَ؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شيءٍ أفضلُ منْ ذلكَ؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أَسْخَطُ عليكم بَعْدَهُ أبداً».

الظاهر أن هذا الخطاب الكريم من الله -تعالى- لعموم أهل الجنة، وأنه بعد استقرارهم فيها.

وأما قول الحافظ في استظهاره، أن هذا يقال للذين يخرجون من النار، بناء على أن هذا الحديث مختصر من الحديث الطويل السابق، الذي فيه المرور على الصراط، وفيه رؤية المؤمنين لربهم في الموقف، كما تقدم في باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، فليس فيه ما ذكر هنا، فيحتاج إلى دليل، وقد دل هذا الحديث بظاهره على أن هذا القول من الله -تعالى- لعموم أهل الجنة.

قال الحافظ: «هذا الخطاب غير الخطاب الذي لأهل الجنة كلهم، وهو فيما أخرجه مسلم، وأحمد، من حديث صهيب، رفعه: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم موعداً عند الله، يريد أن ينجزكموه» الحديث.

وفيه: «فيكشف الحجاب، فينظرون إليه»، وفيه: «فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[(١)].

وسبق معنى: لبيك، وسعديك.

قوله: «والخير في يديك» أي: أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً حتى تمن به عليهم، فكل خير مصدره منك، وكل شر فهو من المخلوق.

قوله: «فيقول: هل رضيتم؟» هو جل وعلا يعلم أنهم قد رضوا، ولا يخفى عليه شيء في صدورهم، ولكن يريد تقريرهم بالمنة والفضل الذي يسديه إليهم،

---

(١) «الفتح» (١١/ ٤٢٢).

وكل فضل نالهم، فهو -تعالى- ابتدأهم به من غير استحقاق له، ولا حق لهم عليه، بل بمحض فضله، ومنّته، وأول ذلك أن جعلهم مسلمين، ثم يسر لهم العمل الصالح الذي كان سبباً لدخولهم الجنة، ثم ثبتهم على الهدى حتى وافوه مؤمنين، فما أعظم منّته عليهم.

قوله: «فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك».

ولا يحسن أن يقولوا غير هذا، وقد أعطاهم فوق ما يتصورون، فلا بد من الرضا، ولهذا لما قال: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟» يقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فهم يستبعدون أن يكون شيء أفضل مما هم فيه.

قوله: «فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

فرضوان الله -تعالى- عليهم أكبر من الجنة وما فيها، وبذلك تمت سعادتهم، وكملت حياتهم، وطابت لذتهم، لمّا رضي سيدهم عنهم.

والحديث واضح الدلالة على مقصود الترجمة، ففيه التصريح بأن الله -تعالى- يقول لأهل الجنة، فيسمعون قوله، ويجيبونه، ويخاطبهم ويخاطبونه، وقد علم أن ذلك يتكرر، وسبق أن كلام الله -تعالى- بمشيئته، فكلما شاء أن يتكلم تكلم، ويكلم من يشاء من خلقه.

□□□

---

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة.

١٤٥- قال: «حدثنا محمدُ بنُ سِنان، حدثنا فُلَيْحٌ، حدثنا هِلالٌ، عن عطاءِ بن يَسار، عن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ -ﷺ- كانَ يوماً يحدّثُ، وعندهُ رَجُلٌ منْ أهلِ الباديةِ، أنَّ رَجُلاً منْ أهلِ الجنةِ استأذنَ رَبَّهُ في الزرعِ، فقالَ: أوَلَسْتَ فيما شئتَ؟ قال: بَلَى ولكنْ أحبُّ أنْ أزرعَ، فأسْرَعَ وبَذَرَ، فتبادرَ الطرفَ نَباتُهُ، واستواؤُهُ، واستحصادُهُ، وتكويرُهُ، أمثالَ الجبالِ، فيقولُ اللهُ -تعالى- «دُونَكَ يا ابنَ آدمَ، فإنهُ لا يُشْبِعُكَ شيءٌ، فقالَ الأعرابيُّ: يا رسولَ اللهِ، لا تجدُ هذا إلا قرشيّاً أو أنصاريّاً، فإنهم أصحابُ زَرْعٍ، فأما نحنُ فَلَسْنا بأصحابِ زرعٍ.

فضحكَ رسولُ اللهِ -ﷺ-».

أهل البادية، خلاف الحاضرة؛ لعدم الساتر فيها من المباني ونحوها، وغالباً يكون عندهم جرأة على الكلام، وعدم مجاملة، ولذلك كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يحبون أن يكون معهم عند رسول الله -ﷺ- الرجل العاقل من أهل البادية، حتى يسأل رسول الله -ﷺ- فيستفيدوا من جوابه.

قوله: «إن رجلاً من أهل الجنة» الخ، قد فهم الأعرابي أن هذا الرجل كان في الدنيا زراعاً، ففيه دليل على إلف النفوس لما تزاوله من الأعمال، حتى تحبه، ويصير من مشتهياتها، ويكون لها فيه متعة وراحة، وهذا الرجل بقيت معه هذه المحبة إلى الجنة.

وفيه أن ما يشتهيه أهل الجنة من أمور الدنيا يمكن حصوله لهم، وأنهم يطلبون ما أرادوا من ربهم تعالى.

قوله: «أولست فيما شئت؟» يعني: لست بحاجة إلى الزرع، فكل ما تريده من مأكول، أو مشروب، أو غير ذلك بين يديك.

وقوله: «بلى، ولكن أحب أن أزرع» يعني: أن ذلك ليس عن حاجة، وإنما هو مجرد محبة للزرع الذي كان يزاوله في الدنيا.

قوله: «فأسرع، وبذر، فتبادر الطرف نباته، واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال» يعني: أن الله أذن له فبذر، وخرج الزرع فاستوى وانحصد، واجتمع

حباً متراكماً أمثال الجبال في لحظة واحدة؛ لأن الجنة ليس فيها نصب وكد وتعب، وإنما فيها تنعم وراحة، وما يشتهون.

وهذا من عجائب قدرة الله القادر على كل شيء.

«فيقول: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء» دونك منصوب على الإغراء، أي: خذ ثمار الزرع الذي طلبت.

ولا يفهم من قوله: «فإنه لا يشبعك شيء» أن الجنة يحصل فيها حاجة وجوع، ولكن يدل على أن نفس الإنسان فيها من الشره فوق ما تحتاجه، وقول الأعرابي: لا نجد هذا، إلى آخره، من باب المزاح، والاعتزاز بأن هذا الرجل ليس من الأعراب، وإنما هو من أهل الزرع في الدنيا، وهم الحاضرة، وفيه تعريض بذلك الرجل، حيث طلب من الله ما لا يحسن طلبه؛ لأنه لا حاجة له فيه.

والشاهد من الحديث واضح جداً، فإن هذا الرجل خاطب ربه فكلمه، وتكرر كلامه معه، وهو من الأدلة الدالة على اتصاف الله -تعالى- بالكلام، وتعلقه بمشيئته، فمتى شاء الكلام تكلم.

❑❑❑

قال: «بابُ ذكر اللهِ بالأمرِ، وذكرِ العبادِ بالدعاءِ والتضرعِ، والرسالةِ، والبلاغِ؛ لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ غُمَّةٌ: هَمٌّ وضيقٌ.

قالَ مجاهدٌ: اقْضُوا إليَّ ما في أَنْفُسِكُم، افْرُق: اقْضِ.

وقالَ مجاهدٌ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ إنسانٌ يأتيه، فيستمعُ ما يقولُ، وما أُنزلَ عليهِ، فهو آمِنٌ حتى يأتيَهُ فيسمعَ كلامَ اللهِ، وحتى يَبْلُغَ مَأْمَنَهُ حيثُ جاءَهُ.

والنبأُ العظيمُ: القرآنُ، صواباً: حقاً في الدنيا، وعَمَلٌ بِهِ».

مقصوده بهذا: بيان الفرق بين فعل الله وما هو صفة له، وبين فعل العبد وما هو صفة له، والرد على الذين لم يفرقوا بين ذلك، كما أوضح ذلك في كتابه «خلق أفعال العباد»، قال -رحمه الله- بعد ما ذكر حديث أبي هريرة: «يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله: حمدني عبدي» الحديث قال: «فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد، وأن قول العبد غير كلام الله، هذا من العبد الدعاء والتضرع، ومن الله الأمر والإجابة»[١].

وقال: «وأما قوله: فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذي تلفظ به.

فإن كان الذي تلفظ به قرآناً فهو كلام[٢].

قيل له: ما قولك: تلفظ به؟ فإن اللفظ غير الذي تلفظ به؛ لأنك تلفظت بالله، وليس الله هو لفظك، وكذلك تلفظ بصفة الله بقول الله، وليس قولك: الله، هو

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١٠٥) تحقيق عبدالرحمن عميرة.

(٢) هذا قول من يقول: اللفظ هو الملفوظ، وهو قول باطل، بيَّن بطلانه البخاري بهذا الكلام.

الصفة، وإنما تصف الموصوف، فأنت الواصف، والله الموصوف بصفته، وكلامه، فهو الله»[1].

يعني: أن اللفظ غير المتلفظ به، فإذا قرأ القرآن، فاللفظ هو فعل العبد وصوته بحركة لسانه وما يلزم للتلفظ، وأما الملفوظ به فهو كلام الله -تعالى-، وكذلك إذا وصفت الله بقوله -تعالى- الذي وصف به نفسه، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فلفظك بهذه الآية ليست هي الصفة، ولكن لفظك بها فعلك، تصف الله بما قاله -تعالى- واصفاً به نفسه، هذا معنى قوله: «وليس قولك: الله هو الصفة، إنما تصف الموصوف، فأنت الواصف، والله الموصوف بكلامه» ثم قال: «كالواصف الذي يصف الله بكلام غير الله» يعني: أن العبد إذا وصف الله بكلام الله الذي وصف به نفسه، فالوصف فعل العبد، والكلام الذي وصف به الله هو كلامه -تعالى- وصفته، وهو -تعالى- الموصوف، وهذا معنى قوله: «وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله». ثم قال:

«ففي قولك: تلفظ به، وتقرأ القرآن، دليل بيِّن أنه غير القراءة، كما تقول: قرأت بقراءة عاصم، وقراءتك على قراءة عاصم، لا أن لفظك وكلامك، كلام عاصم بعينه، ألا ترى أن عاصماً لو حلف أن لا يقرأ اليوم ثم قرأت أنت على قراءته لم يحنث عاصم؟»[2].

يعني: أن قولك: تلفظت به، كقولك: قرأت القرآن، فالتلفظ مثل القراءة، وهما غير المتلفظ به، والمقروء، كما تقول: قرأت بقراءة عاصم، يعني: قرأت على قراءة عاصم، أما قراءة عاصم فهي فعله» ثم قال:

«وقال أحمد رحمه الله: لا يعجبني قراءة حمزة، ولا يقال: لا يعجبني القرآن»[3]، وهذا واضح، فإن المراد فعل حمزة، وما فيه من المد الطويل، فأحمد كره فعل حمزة، لا ما يقرأ حمزة، ثم قال:

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١٠٨).

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص١٧٢) تحقيق بدر.

(٣) المصدر نفسه.

«واعتل بعضهم[1] فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾. قيل له: إنما يقال: حتى يسمع كلام الله، لا كلامك، ونغمتك ولحنك؛ لأن الله -عز وجل- فضل موسى بكلامه، ولو كنت تسمع الخلق كلام الله، كما أسمع الله موسى -ﷺ- لم يكن لموسى عليك فضل، إذا سمعت كلام الله وسمع موسى كلام الله، قال الله عز وجل: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾[2].

حدثنا عبيدالله بن عمر، حدثنا سليمان بن بلال، عن شريك بن عبدالله، عن أنس -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- ليلة أسري به قال: «رأيت موسى في السماء السابعة بتفضيل كلام الله»[3].

يعني: أن استدلال من يزعم أن لا فرق بين اللفظ والملفوظ، بقوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ - استدلال باطل؛ لأن السامع لذلك يسمع كلام الله بصوت المبلغ ولفظه، لا بصوت الله -تعالى- ولفظه، ولو كان الأمر كما زعم هذا المستدل، لم يكن هناك فرق بين موسى حين كلمه الله، وبين من يسمع كلام الله ممن يتلوه، ويقرؤه، ثم استدل بالحديث حيث رأى موسى في السماء السابعة بتفضيله بكلام الله له، ولهذا قال:

«وإن ادعيت أنك تسمع الناس كلام الله، كما أسمع الله كلامه لموسى [لما] قال له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فهذه دعوى الربوبية، إذ لم تميز بين قراءتك، وبين كلام الله، فإن الله تعالى قال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ﴾ [وهذا] يشرح أن ذكر العبد ربه غير ذكر الله عبده، لأن ذكر العبد: الدعاء والتضرع، وذكر الله: الإجابة، كما قال الله عز وجل، وقال النبي ﷺ: «إني لا أقول إلا ما في القرآن».

---

(١) يعني: بعض الذين يرون أنه لا فرق بين اللفظ والملفوظ.

(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف.

(٣) «خلق أفعال العباد» (ص١٠٨).

حدثنا ضرار، حدثنا صفوان بن أبي الصهباء، عن بكير بن عتيق، عن سالم بن عبدالله، عن أبيه، عن جده، عن النبي -ﷺ- قال: «يقول الله عز وجل: من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وقال النبي -ﷺ-: «بينا أنا في الجنة، سمعت صوت رجل بالقرآن». فبين أن الصوت غير القرآن.

حدثنا إسماعيل، حدثنا أخي، عن سليمان، عن موسى بن عقبة وابن أبي عتيق، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «بينا أنا أمشي في الجنة، سمعت صوت رجل بالقرآن، فقلت: من هذا؟ قالوا: هذا حارثة بن النعمان، فذلكم البر، فذلكم البر»، وكان حارثة من أبر الناس.

ويقال له: أصفة الله -جل ذكره- وعلمه، وكلامه، وأسماؤه، وعزته، وقدرته، بائن من الله -تعالى- أم لا؟

أو قولك وكلامك بائن من الله أم لا؟»[1].

يعني: أن كلام الله مثل صفاته الأخرى، من العزة والقدرة، لا يكون شيء منها مفارقاً لله -تعالى- وبائناً منه، بخلاف كلام الخلق وأقوالهم فإنها بائنة من الله، وليست من صفاته، بل صفات لمن قالها، وتكلم بها. ثم قال:

«وقال الله -تعالى-: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾[3]، فالإبلاغ، والإنذار من نوح، وهو نذير مبين، يأمرهم بطاعة الله، وأما الغفران، فإنه من الله؛ لقوله -عز وجل-: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾.

(١) المصدر نفسه.

(٢) الآيتان ٣٩، ٤٠ من سورة النجم.

(٣) الآية ١ من سورة نوح.

فذكر الدعاء سراً وعلانية من نوح، وذكر فعل نوح بقومه. ثم قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، فذكر خلق القوم طوراً بعد طور.

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

حدثنا موسى، حدثنا سليمان، عن ثابت، عن أنس -رضي الله عنه- قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت، فجلس في بيته، وقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي -ﷺ- وأجهر له بالقول، وقد حبط عملي، وأنا من أهل النار. ففقده النبي -ﷺ- فأتاه رجل فقال: إنه يقول: كذا وكذا، فقال النبي -ﷺ-: هو من أهل الجنة. وكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة.

فلما كان يوم اليمامة كان من بعضنا بعض الانكشاف، فأقبل وقد تكفن وتحنط، وقال: بئس ما تعودون أقرانكم، فقاتل حتى قتل»[2].

وقد سمى ابن عمر الصوت بالقرآن: عبادة.

حدثني أبو يعلى محمد بن الصلت، حدثنا أبو صفوان، عن يونس، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: «أول ما ينقص من العبادة: التهجد بالليل، ورفع الصوت فيها بالقراءة».

وقال النبي -ﷺ-: «لا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة».

وقال ابن مسعود: قال النبي -ﷺ- لقوم كانوا يقرؤون القرآن فيجهرون به: «خلطتم عليَّ»، يقول: علت أصواتكم فشغلتموني برفعها فوق صوتي، فخلطتم عليَّ، فنهى النبي -ﷺ- أن يرفع بعضهم على بعض صوته، ولا يخلطون على الناس في جهرهم، وأصواتهم، ولم ينه عن القرآن، ولا عن كلام الله الذي كلم به موسى قبل أن يخلق هذه الأمة.

---

(١) الآية ٢ من سورة الحجرات.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» بأسانيد عدة، انظر (٢/ ٥٦-٦٠).

حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني معاوية، عن ربيعة بن زيد، عن إسماعيل بن عبيدالله، عن أم الدرداء، أنها قالت: «﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وإن صليت فهو من ذكر الله، وكل خير تعمله، فهو من ذكر الله، وكل شر تجنبه فهو من ذكر الله، وأفضل ذلك تسبيح الله».

وقال موسى: ﷺ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[2].

وقال بعضهم في قوله عز وجل: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ قال: الصوت الحسن.

وقال عز وجل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فبين أن التنزل غير الأمر.

وقال بعضهم: إن أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه، الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق، ولا الفعل من المفعول، ولا الوصف من الصفة.

ولم يعرفوا الكذب لم صار كذباً؟ ولا الصدق لما صار صدقاً؟

فأما بيان المجاز من التحقيق، فمثل قول النبي -ﷺ- للفرس: «وجدته بحراً» - وهو الذي يجوز بين الناس- وتحقيقه أن مشيه حسن.

ومثل قول القائل: علم الله معنا، وفينا، وأنا في علم الله، إنما المراد من ذلك أن الله يعلمنا، وهو التحقيق، وأشباهه في اللغات كثيرة.

وأما الفعل من المفعول: فالفعل إنما هو إحداث الشيء، والمفعول هو الحدث؛ لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3].

فالسماوات، والأرض مفعوله، وكل شيء سوى الله بقضائه فهو مفعول، فتخليق السماوات فعله؛ لأنه لا يمكن أن تقوم سماء بنفسها من غير فعل الفاعل، وإنما تنسب السماء إليه لحال فعله.

---

(١) الآيتان ٢٧،٢٨ من سورة طه.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الذاريات.

(٣) الآية ٣٢ من سورة إبراهيم.

ففعله من ربوبيته حيث يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ و«كن» من صفته، وهو الموصوف به، كذلك قال رب السماوات، ورب الأشياء.

وقال النبي -ﷺ-: «رب كل شيء ومليكه».

وكذلك مؤدى جميع لغات الخلق، من غير اختلاف بينهم، وإنما هو الفاعل والفعل والمفعول.

فالفعل صفة، والمفعول غيره، وبيان ذلك في قوله -تعالى-: ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[1].

ولم يرد بخلق السماوات نفسها، قد ميز فعل السماوات من السماوات وكذلك فعل جملة الخلق.

وقوله: ﴿وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ فقد ميز الفعل والنفس، ولم يصر فعله خلقاً.

وأما الوصف من الصفة: فالوصف إنما هو قول القائل، حيث يقول: هذا رجل طويل، وثقيل، وجميل، وحديد، فالطول، والجمال، والحدة، والثقل إنما هو صفة الرجل، وقول القائل وصف.

كذلك إذا قال: الله رحيم، والله عليم، والله قدير، فقول القائل وصف، وهو عبادة، والرحمة، والعلم، والقدرة، والكبرياء، والقوة، كل هذا صفاته»[2].

يعني: أن فعل الواصف الذي هو قوله يصف الموصوف إذا تكلم بذلك ونطق به، يسمى وصفاً، وهو عبادة إذا كان يصف الله -تعالى-؛ لأنه يثني عليه بذكر صفته.

وأما الصفة: فهي قائمة بالموصوف، لا تفارقه، مثل رحمة الله، وعلمه وقدرته، وقوته، وعزته، وكبريائه، وغير ذلك من أوصافه.

ثم قال: «وأما الكذب من الصدق: فقول القائل: فلان ها هنا وهو غائب، فهو كذب.

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١١٤).

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص١١٤).

فلو كان حاضراً لكان صدقاً، والكلمة واحدة، وإنما صار كذباً وصدقاً لحال المعنى.

وكذلك لو أن رجلاً قال: إن الله رحيم، ويرحم، والله عليم ويعلم، والله قدير ويقدر، والله سميع ويسمع، ولم يكن لقوله معنى كما وصفنا في شأن الكذب والصدق، لكان قوله كذباً، وإنما صار هذا القول صدقاً وعبادة وطاعة لحال المعنى.

واختلف الناس في الفاعل والمفعول، فقالت القدرية: الأفاعيل كلها من البشر، ليست من الله.

وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله.

وقالت الجهمية: الفعل والمفعول واحد، لذلك قالوا: «كن» مخلوق.

وقال أهل العلم: التخليق فعل الله، وأفاعيلنا مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1] يعني: السر والجهر من القول.

ففعل الله صفة الله، والمفعول غيره من الخلق.

ويقال لمن زعم أني لا أقول: القرآن مكتوب في المصحف، ولكن القرآن بعينه في المصحف، يلزمك أن تقول: إن ما ذكر الله في القرآن من الجن، والإنس، والملائكة، والمدائن، ومكة، والمدينة، وغيرهما، وإبليس، وفرعون، وهامان، وجنودهما، والجنة، والنار: عاينتهم بأعيانهم في المصحف؛ لأن فرعون مكتوب فيه، كما أن القرآن مكتوب فيه.

ويلزمك أكثر من هذا، حين تقول في المصحف: [الله، لأنه مكتوب فيه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وهذا أمر بيِّن؛ لأنك تضع يدك على هذه الآية، وتراها بعينك][2].

---

(١) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الملك.

(٢) ما بين الحاصرتين تصرفت فيه بالتقديم والتأخير؛ لأن فيه ارتباكاً وتعقيداً، والمقصود منه واضح، وأظن أنه حصل فيه الاضطراب من النساخ.

فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1] هو قرآن.

وكذلك جميع القرآن هو قوله -تعالى- والقول صفة القائل، موصوف به.

فالقرآن قول الله عز وجل.

والقراءة، والكتابة، والحفظ للقرآن، هو فعل الخلق، وهو طاعة الله ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[4] وقال عز وجل: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[5] فذلك كله مما أمر الله به.

ولذلك قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالصلاة بجملتها طاعة الله، وقراءة القرآن من جملة الصلاة.

فالصلاة طاعة لله، والأمر بالصلاة قرآن، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء على الألسن.

والقراءة، والحفظ، والكتابة، مخلوق، وما قرئ، وحفظ، وكتب ليس بمخلوق.

ومن الدليل عليه: أن الناس يكتبون الله، ويحفظونه، ويدعونه، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق، ولا شك فيه.

والخالق الله بصفته.

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة و٢ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٠٦، من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٢٩ من سورة فاطر.

(٤) الآية عدد من آيات سورة: اقتربت الساعة.

(٥) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة.

ويقال له: أترى القرآن في المصحف؟ فإن قال: نعم، فقد زعم أن من صفات الله ما يرى في الدنيا، وهذا رد لقول الله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1] في الدنيا، وإن قال: يرى كتابة القرآن فقد رجع إلى الخلق.

ويقال له: هل تدرك إلا اللون؟ فإن قال: لا، قيل له: وهل يكون اللون إلا في الجسم؟ فإن قال: نعم، فقد زعم أن القرآن جسم يرى»[2].

يعني: أن الذي في المصحف هو كتابة القرآن، والكتابة فعل العباد، أما القول فلا يرى، وإنما يسمع، وهو صفة القائل قائم به.

والمقصود: أن وجود القرآن في المصحف ليس كوجود الأعيان المشاهدة، وإن كان له وجود حقيقي، فقد اتفق المسلمون على أن القرآن في المصحف قال ابن القيم: «من المعلوم بالفطرة المستقرة عند العقلاء قاطبة أن الكلام يكتب في المحالّ من الرق والخشب وغيرهما، ويسمى محله كتاباً، ويسمى نفس المكتوب كتاباً.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾. ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

والقول بأن الكلام في الصحيفة من العلم العام الذي لم ينازع فيه أحد من العقلاء إذا سلمت الفطرة من الانحراف، وقد قال الله -تعالى-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[3] وفي حديث ابن عمر: نهى رسول الله -ﷺ- أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو[4]، ومعلوم بالضرورة أنه لا محذور في السفر إلى أرض

(١) جزء من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.

(٢) «خلق أفعال العباد» (١١٤-١١٦).

(٣) الآيتان ٢١، ٢٢ من سورة البروج.

(٤) رواه مسلم رقم (١٨٦٩) (٣/ ١٤٩٠-١٤٩١)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٧، ٦٣، ١٢٨) وغيرهما، ورواه البخاري (٤/ ٤٥) باب السفر بالمصاحف إلى أرض العدو.

العدو بالمداد والورق، وإنما المحذور أن يسافر بالكلام الذي تضمنه الورق»[1].

وسيأتي مزيد لهذا في موضعه.

وقد أطلت النقل عن البخاري -رحمه الله-؛ لأن ذلك مراد فيما ترجم به، فهو كالشرح له، وبذلك وضح مقصده وضوحاً جلياً.

فقوله: «ذكر الله بالأمر» أي: أمره الذي يأمر به عباده، وهو صفته، فإذا أمرهم فقد ذكرهم، وكذلك إذا رحمهم وأنعم عليهم، فقد ذكرهم.

«وذكر العباد بالدعاء والتضرع، والرسالة والبلاغ» أي: ذكرهم الله بأن يدعوه، ويتضرعوا إليه، ويفعلوا ما أمرهم به، ودعاؤهم بذكر أسمائه وصفاته، وثناؤهم عليه بها.

وكذلك القيام بإبلاغ رسالته، التي أرسل بها رسله.

قوله: «لقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ قال الحسن: اذكروني فيما افترضت عليكم، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي». وقال سعيد بن جبير: «اذكروني بطاعتي، أذكركم بمغفرتي» وفي رواية «برحمتي»[2].

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اذكر لقومك، وقص عليهم خبر نبي الله نوح -ﷺ-، حين قال لقومه يبلغهم رسالة ربه إليهم، وذلك من ذكره لربه: إن كان عظم عليكم، وشق بكم قيامي فيكم أذكركم بنعم الله، وأخوفكم نقمه، وأدعوكم إلى طاعته وتوحيده بالعبادة والطاعة، إن كان ذلك عَظُمَ عليكم فتهيؤوا واستعدوا لما تريدون أن تصنعوه بي، فإني توكلت على الله لا على غيره، فسوف يكفيني ويحميني، أما أنتم فأجمعوا قوتكم، واستعينوا بمعبوداتكم من دون الله، واحذروا أن يكون أمركم عليكم وبالاً وعذاباً ونكالاً، وهمًّا وضيقاً؛ لأنكم تحاربون الله ورسوله ومن كان حربا لله ورسوله، فهو مخذول، ومرذول ومقهور.

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: عجلوا إليَّ بما تريدون أن تصنعونه بي، ولا تؤخروني ساعة، فهو ﷺ يتحداهم بذلك؛ لأنه واثق بالله تمام الثقة، فلم يستطيعوا

---

(١) «مختصر الصواعق» (٤٤٣/ ٤٤٤) ملخصاً.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٦).

أن ينالوه، وهذا من علامات نبوته، كيف رجل واحد، لا جنود معه ولا سلطة، يقف أمام هذه الأمة العظيمة يتحداهم بأن ينزلوا به كل ما يستطيعون من عذاب، ويستحثهم على ذلك، فلا يستطيعون أن يصلوا إليه بأذى مع عداوتهم الشديدة له؟

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: إن أعرضتم عما أدعوكم إليه، فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ولم أطلب منكم على ذلك شيئاً من أموالكم، ولكن أجري على ربي، فهو الذي سيجزيني على إبلاغ رسالته إليكم، وهذا كله من ذكر نوح عليه السلام لربه.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: أمرني ربي أن أسلم له وأنقاد لأمره، مذعناً، خائفاً من عذابه، راجياً ثوابه، وهذا من ذكر الله -تعالى- لعبده ورسوله نوح عليه السلام.

«افرق» اقض. كلمة افرق في آية أخرى، ولكن عادة البخاري -رحمه الله- أنه يذكر النظير مع نظيره، لاجتماعهما في المعنى، ولهذا ذكر قوله تعالى: ﴿النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾؛ لمناسبته مع قوله تعالى: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾.

وما ذكره عن مجاهد في الآية واضح، ومراده أن المستجير يسمع كلام الله من المبلغ بصوت المبلغ، ونطقه، وصوته ونطقه من فعله، وهو مخلوق، أما المبلغ المنطوق به، فهو كلام الله -تعالى- وصفته، كما تقدم بيان ذلك من كلام البخاري، رحمه الله.

وقوله: «صواباً: حقاً في الدنيا وعمل به». قال ابن بطال: «يريد قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: حقاً في الدنيا، وعمل به، فهو الذي يؤذن له في الكلام، بين يدي الله بالشفاعة لمن أذن له.

قلت[1]: وهذا وصله الفريابي، عن مجاهد، بالسند المذكور.

---

(١) القائل هو الحافظ ابن حجر -رحمه الله-.

قال الكرماني: عادة البخاري أنه إذا ذكر آية لمناسبة الترجمة، يذكر معها ما يتعلق بتلك السورة، التي فيها تلك الآية مما ثبت عنده من تفسير ونحوه، على سبيل التبعية، وكأنه لم يظهر له وجه مناسبة هذه الآية الأخيرة بالترجمة.

والذي يظهر في مناسبتها: أن تفسير قوله: ﴿صَوَابا﴾ بقول الحق والعمل به في الدنيا يشمل ذكر الله باللسان، والقلب مجتمعين، ومنفردين، فناسب قوله: «ذكر العباد بالدعاء والتضرع» انتهى[1].

❑❑❑

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٩٠).

قالَ: **بابُ قولِ اللهِ تعالى:** ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **وقولُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ:** ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ **وقوله:** ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

قال في «اللسان»: «الند بالكسر: المثل والنظير، وهو مثل الشيء الذي يضاده في أموره، ويناده، أي: يخالفه.

قال الأخفش: الند: الضد، والشبه، وقوله: «يجعلون لله أنداداً» أي: أضداداً، وأشباهاً، قال حسان:

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

أي: لست له بمثل في شيء من معانيه»[1].

وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد جمع ند، والند: العدل، والمثل، كما قال حسان، ثم ذكر البيت، ثم قال: يعني: بقوله: «ولست له بند»: لست له بمثل، ولا عدل. وكل شيء كان نظيراً لشيء وشبيهاً فهو له ند. ثم ذكر بسنده إلى قتادة، قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: عدلاء، وعن مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: عدلاء.

وعن ابن عباس وابن مسعود: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أكفاء من الرجال، تطيعونهم في معصية الله.

وعن ابن أبي زيد: الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له، وعن ابن عباس: أشباهاً.

وعن عكرمة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: تقولوا: لولا كلبنا لدخل علينا اللص الدار، ولولا كلبنا صاح في الدار، ونحو ذلك، فنهاهم الله -تعالى- أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً، وعدلاً، في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إياكم، ونعمتي التي

---

(١) «اللسان» (٣/ ٦٠٧) المرتب.

أنعمتها عليكم، فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً ونداً من خلقي، فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم مني»[1].

وفي «الدر المنثور»: «أخرج الطستي، عن ابن عباس، أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قول الله -عز وجل- ﴿أَندَادًا﴾؟ قال: الأشباه والأمثال، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول لبيد:

أحمد الله فلا نِدَّ له ... بيديه الخير ماشا فعل

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في «الأدب المفرد» والنسائي وابن ماجه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي -ﷺ-: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً، ما شاء الله وحده».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي عن حذيفة بن اليمان، عن النبي -ﷺ- قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وفلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» وذكر أحاديث في ذلك[2].

وهذا يدل على أن جعل الند لله عام في الأفعال، والأقوال، والنيات، ويكون في الشرك الأكبر، والأصغر، كما في الرواية عن عكرمة: هو قول الرجل: لولا كلبنا لدخل علينا اللصوص.

وكذلك في كل ما هو لله فشرك المخلوق فيه، مثل أن يجعل كلامه تعالى ككلام عباده، أو صفة من صفاته كصفة عباده، فيكون بذلك جعل لله نداً، وهذا مراد البخاري -رحمه الله- من الاستدلال بهذه الآيات التي ذكرها هنا.

قال ابن كثير: «وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن محمد، عن عكرمة، أو سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٣٦٨-٣٦٩) تحقيق محمود شاكر.

(٢) «الدر المنثور» (١/ ٨٧-٨٨).

غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول -ﷺ- من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه، وهكذا قال قتادة.

ثم ذكر عن ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

قال: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص.

وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: «لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك»[(1)].

وهذا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعظم، وذلك أن الشرك أن يجعل المخلوق مشاركاً لله في شيء من خصائص الله مطلقاً، كما سبق قريباً، فالحلف بغير الله شرك، سواء كان المحلوف به معظماً كالنبي والكعبة، أو غير معظم، ويدخل في ذلك مراد البخاري كما أشرت إليه.

«قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب، إثبات نسبة الأفعال كلها لله -تعالى- سواء كانت من المخلوقين خيراً أو شراً، فهي لله -تعالى- خلق وللعباد كسب، ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله -تعالى- فيكون شريكاً ونداً، ومساوياً له.

وقال الكرماني: الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفي الشريك عن الله سبحانه -تعالى-، فكان المناسب ذكره في أوائل كتاب التوحيد.

لكن ليس المقصود هنا ذلك، بل المراد بيان كون أفعال العباد بخلق الله -تعالى- إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أنداداً لله، وشركاء له في الخلق، ولهذا عطف ما ذكر.

وتضمن الرد على الجهمية في قولهم: لا قدرة للعبد أصلاً، وعلى المعتزلة، حيث قالوا: لا دخل لقدرة الله -تعالى- فيها.

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧-٥٨).

والمذهب الحق: «أن لا جبر ولا قدر، بل أمر بين أمرين»[1].

يعني: لا جبر، كما تقوله الجهمية الذين جعلوا العبد كالآلة، لا قدرة له ولا اختيار.

ولا ينفى تقدير الله -تعالى- لأفعال العباد في الأزل، وخلقها، كما تقوله المعتزلة، بل الحق إثبات قدرة العبد، وأنه يفعل باختياره، وإرادته، لا أحد يجبره على الفعل، والله -جل وعلا- خلقه وخلق أفعاله، وقدر عليه كل ما يجري عليه قبل إيجاده، وكتب ذلك، وعلمه تعالى محيط بكل شيء، ونفس فعل العبد، وإن كان الله خالقه، فالعبد هو الفاعل لفعله حقيقة، فهو المتحرك بالأفعال، باختياره، وبه قامت أفعاله، ومنه صدرت، والله خالقه، وخالق أفعاله.

قال الحافظ: «غرضه هنا الرد على من لم يفرق بين التلاوة والمتلو، ولذلك أتبع هذا الباب بالتراجم المتعلقة بذلك، مثل باب: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، وباب ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ وغيرهما.

وهذه المسألة هي المشهورة بمسألة اللفظ، ويقال لأصحابها: اللفظية.

وقد ظن بعضهم أن البخاري خالف أحمد فيها، وليس كذلك، بل من تأمل كلامه لم يجد فيه خلافاً معنوياً.

لكن العالم من شأنه إذ ابتلي في رد بدعة يكون أكثر كلامه في ردها، دون ما يقابلها.

فلما ابتلي أحمد بمن يقول: القرآن مخلوق، كان أكثر كلامه في الرد عليهم حتى بالغ، فأنكر على من يقف، ولا يقول: مخلوق، ولا غير مخلوق، وعلى من قال: لفظي بالقرآن مخلوق؛ لئلا يتذرع بذلك من يقول: القرآن بلفظي مخلوق، مع أن الفرق بينهما واضح لا يخفى عليه، لكنه قد يخفى على البعض[2].

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٩١).

(٢) قوله: «حتى بالغ فأنكر على من يقف» إلى آخر كلامه عن أحمد، كلام غير سديد، بل إنكار أحمد رحمه الله ذلك؛ لأن الواقف لم يفرق بين الحق والباطل، =

وأما البخاري، فابتلي بمن يقول: أصوات العباد غير مخلوقة، حتى بالغ بعضهم، فقال: والمداد، والورق بعد الكتابة.

فكان أكثر كلامه في الرد عليهم، وبالغ في الاستدلال بأن أفعال العباد مخلوقة بالآيات والأحاديث، وأطنب في ذلك حتى نسب أنه من اللفظية»[1].

وقال أبو بكر الضبعي: «لم يزل الله متكلماً، ولا مثل لكلامه؛ لأنه نفى المثل عن صفاته، كما نفى المثل عن ذاته، ونفى النفاد عن كلامه، كما نفى الهلاك عن نفسه، فقال: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾»[2].

فيجب التفرقة بين ما هو لله صفة وفعلاً، وبين ما هو للمخلوق صفة وفعلاً، وأن يوحد الله في خصائصه وحقوقه، وأن لا يجعل لأحد من الخلق شركة في صفات الله وأفعاله، ومن ذلك الفرق بين أفعال التالي لكتاب الله، وما هو صفة لله وهو كلامه المتلو.

ومذهب أهل السنة أن الله خالق كل شيء، وهو ربه ومالكه، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه خلق العبد هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً.

وإن العبد فاعل لأفعاله حقيقة، وله مشيئة وقدرة حقيقة، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

= والواجب أن يعرف الحق ويقول به، ولا يقف متردداً؛ لأن وقوفه يوهم باطلاً. وكذلك قوله: لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق، يوهم باطلاً؛ لأنه قد يراد باللفظ: الملفوظ، وهو القرآن، وإذا قال غير مخلوق: يدخل فيه فعل القارئ، من حركات لسانه، وصوته، وفعل القارئ مخلوق، فهذا هو مراد أحمد رحمه الله، ولدقته قال البخاري رحمه الله: إنهم لم يفهموا كلام أحمد، ولذلك أنكره ابن قتيبة.

(١) «الفتح» (١٣/ ٤٩٢).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٤٩٢).

(٣) الآيتان ٢٨، ٢٩ من سورة التكوير.

وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1].

فبيَّن تعالى أن العباد لهم مشيئة يفعلون بها إذا شاؤوا، وأنها تابعة لمشيئة الله؛ لأنه المالك لكل شيء، المتصرف فيه.

وزعمت المعتزلة أن أفعال العباد القبيحة، من الكفر والمعاصي، غير داخلة في مشيئة الله، وتقديره؛ لأن الله منزه عن فعل القبيح باتفاق المسلمين.

وقالت الجبرية: ليس للعبد فعل في الحقيقة، والأفعال كلها لله، والعبد كاسب لا فاعل، وقدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها، غير أن الله -تعالى- أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها، فيكون الفعل خلقاً من الله، وإبداعاً وإحداثاً منه تعالى، وكسباً من العبد لوقوعه مقارناً لقدرته، والعبد ليس محدثاً لأفعاله، ولا موجداً لها. وهذا قول الأشعرية، ومع ذلك ينكرون أن يكونوا جبرية؛ لأنهم يقولون: نحن نثبت للعبد قدرة حادثة، والجبرية لا تثبت ذلك.

وفرقوا بين الكسب الذي أثبتوه للعبد، وبين الخلق الثابت لله، بأن الكسب: عبارة عن اقتران قدرة العبد الحادثة بالمقدور، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة.

وبأن الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه.

وهذا فرق لا حقيقة له، فإن كون المقدور في محل القدرة، أو خارجاً عن محلها، لا يعود إلى نفس تأثير القدرة فيه.

والصواب أنه لا فرق بين كون العبد فاعلاً الفعل، أو كاسباً له، فإن الكسب مرادف للفعل والعمل، فيقال: فعل وعمل، وكسب وأوجد، وأحدث وصنع، كلها بمعنى واحد.

وعمل العبد، وصنعه، وإحداثه، وكسبه، مقدور له بقدرته الحادثة، وهو قائم في محل القدرة.

---

(1) الآيتان ٢٩، ٣٠ من سورة الإنسان.

والاقتران الذي ذكروه، لا يكون كسباً، ولا فعلاً، وإنما هو تخيل لا حقيقة له.

وأصل خطئهم من عدم التفريق بين الخلق والمخلوق، والفعل والمفعول، وزعمهم أن الله -تعالى- ليس له أفعال تقوم به، وأن فعله للشيء هو عين المفعول.

ومن المستقر في الفطر والعقول: أن فاعل الإيمان هو العبد المؤمن، وفاعل الكفر هو العبد الكافر، وفاعل الصدق هو الصادق، وفاعل الكذب هو الكاذب، وفاعل الظلم هو الظالم، كما أن فاعل الأكل هو الآكل، وفاعل الشرب هو الشارب.

وهكذا كل فعل لا بد أن يقوم بالفاعل، كما أن العالم: مَنْ قام به العلم، والحي: مَنْ قامت به الحياة، وكل صفة تقوم بالمتصف بها.

والقرآن مملوء بما يدل على هذا كقوله -تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[3]، وأمثالها كثير جداً.

واتفق العقل مع الشرع على أن العبد يحمد ويذم على فعله.

قال شيخ الإسلام: «قول القائل: هذا فعل هذا، وعمل هذا، لفظ فيه إجمال، فإنه تارة يراد بالعمل نفس الفعل، وتارة يراد مسمى المصدر، فيقول: فعلت هذا، أفعله فعلاً، وعملت هذا أعمله عملاً، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر، كصلاة الإنسان، وصيامه، ونحو ذلك، فالعمل هنا هو المعمول، وقد اتحد هنا مسمى المصدر والفعل.

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

(٢) الآية ١٠٥ من سورة التوبة.

(٣) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة.

وإذا أريد بذلك ما يحصل بعمله كنساجة الثوب، وبناء الدار، ونحو ذلك، فالعمل هنا غير المعمول، قال الله -تعالى-: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[1]، فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن.

ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فإنه في أصح القولين «ما» بمعنى الذي، والمراد به ما تنحتونه من الأصنام، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2] أي: والله خلقكم، وخلق الأصنام التي تنحتونها. ومنه حديث حذيفة، عن النبي -ﷺ-: «إن الله خالق كل صانع وصنعته»[3].

لكن قد يستدل بالآية على أن الله خالق أفعال العباد من وجه آخر، فيقال: إذا كان خالقاً لما يعملون من المنحوتات، لزم أن يكون هو الخالق؛ لتأليف الذي أحدثوه فيها، فإنها إنما صارت أوثاناً بذلك التأليف، وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم.

وإذا كان خالقاً للتأليف كان خالقاً لأفعالهم.

والمقصود أن لفظ الفعل، والعمل، والصنع، وأنواع ذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة، تقع على نفس مسمى المصدر، وعلى المفعول.

وكذلك لفظ التلاوة والقراءة، والكلام، والقول، يقع على نفس مسمى المصدر، وعلى ما يحصل بذلك من نفس القول، والكلام.

فيراد بالتلاوة والقراءة: نفس القرآن، المقروء المتلو، كما يراد به مسمى المصدر، فإذا قال القائل: هذه التصرفات فعل الله، أو فعل العبد، فإن أراد بذلك أنها فعل

---

(١) الآية ١٣ من سورة سبأ.

(٢) الآيتان ٩٥، ٩٦ من سورة الصافات.

(٣) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٣٩).

الله بمعنى المصدر، فهذا باطل باتفاق المسلمين، وبصريح العقل، وإن أراد أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات، فهذا حق»[1].

فالذين أنكروا أن يكون لله -تعالى- فعل يقوم به، لم يفرقوا بين فعله ومفعوله، وخلقه، ومخلوقه.

والفرق واضح، فأعمال العباد مخلوقة لله -تعالى- مفعولة له، ليست هي نفس فعله، وإنما هي فعل العباد، قائمة بهم، وهي أيضاً مفعولة لهم إذا أريد بالفعل المفعول.

وخلق الله -تعالى- لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته، كما تقدم التنبيه على ذلك.

فأفعال العباد مخلوقة لله كسائر مخلوقاته، ومفعولة له، وهي فعل العباد حقيقة، وقائمة بهم حقيقة.

فالكفر، والكذب، والظلم، ونحو ذلك من القبائح، يتصف بها من قامت به وفعلها، ولا يتصف بها من خلقها، وجعلها صفة لغيره.

فكما أن الله -تعالى- لا يكون متصفاً بما خلقه في خلقه من الألوان والروائح، والطعوم، فكذلك لا يكون متصفاً بالفعل الذي خلقه في عباده، وجعله وصفاً لهم.

وبهذا تزول شبهة المعتزلة ومن وافقهم، في نفيهم الأفعال القبيحة أن تدخل تحت مشيئة الله وخلقه محتجين بأنه تعالى منزه عن القبيح. والله أعلم.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أول الآية: ﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

ينكر تعالى على المشركين الكافرين به، الذين يعبدون معه غيره، من الأوثان التي لا تملك لهم، ولا لنفسها، نفعاً، ولا ضراً، ومع ذلك يجعلونها نظراء وشبهاء لله

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٢١-١٢٢).

(٢) الآية ٩ من سورة فصلت.

رب العالمين، في التوجه إليها بالعبادة، يطلبون منها أن تتوسط لهم عند الله وتشفع لهم، وهي ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء.

والمقصود من الآية: أن من سوى المخلوق بالله في صفة من الصفات، أو فعل من الأفعال، أو في ما يجب له من الحق، فقد جعل لله نداً، وأشرك بالله غيره.

فقول الله، وكلامه، لا يشبه قول عباده وكلامهم، فمن زعم أن قول العباد يشبه قول الله، فقد جعل لله نداً، وكذلك سائر أوصافه.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

قال ابن جرير: «يقول تعالى لنبيه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ يقول: لئن أشركت بالله شيئاً يا محمد ليبطلن عملك، ولا تنال به ثواباً، ولا تدرك به جزاء إلا جزاء من أشرك بالله.

وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم، أي: أوحي إلى الذين من قبلك من الرسل مثل الذي أوحي إليك، فاحذر أن تشرك بالله شيئاً فتهلك»[1].

وفي هذه الآية تعظيم أمر الشرك؛ لأن الله تعالى وجه الخطاب إلى رسوله - ﷺ- بأنه لو أشرك لحبط عمله، وأصبح من الخاسرين، فكيف بغيره من سائر الناس؟ ومثلها قوله -تعالى- بعد ما ذكر فضل الأنبياء ونعمته عليهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

ووجه الاستدلال بالآية: التحذير من الوقوع في أي نوع من أنواع الشرك، مثل أن يعتقد أن صفة الله كصفات الخلق، أو كلامه ككلامهم، فمن وقع في ذلك، فقد وقع في الشرك المحبط للأعمال، وصاحبه من الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذه الآية في سياق ثناء الله -تعالى- على عباده المؤمنين، الذين يخشونه، ولا يخشون أحداً غيره، ويتجهون إليه بالدعاء والعبادة وحده، ويبيتون ليلهم سجداً لله وقياماً، رجاء ثوابه، وخوفاً من عقابه.

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/ ١٦) طبعة بولاق.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الأنعام.

وهذه الآية بمعنى الحديث الآتي، وقد جاء في رواية: أن ابن مسعود لما ذكر الحديث عن النبي -ﷺ- قال: فنزل تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية.

والمقصود: الثناء على المؤمنين الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر غيره، ومثل ذلك الابتعاد عن القول بأن شيئاً من أوصاف الله وأفعاله يكون مثل أوصاف المخلوقين وأفعالهم، تعالى الله وتقدس.

فمن ابتعد عن الشرك كله بأنواعه، فهو المستحق لثناء الله، وهو عبدالله المستوجب لوعده بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

ولكون الشرك يقع من الناس كثيراً، وأكثرهم يجهل أنواعه، ذكر قول عكرمة: «﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾، و﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ﴾، فذلك إيمانكم، وهم يعبدون غيره». يعني: أن إيمانهم هو إقرارهم بتوحيد الربوبية، وعلمهم بأن الله هو المتفرد بالخلق.

روى ابن جرير، عن عكرمة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ قال: هو قول الله -تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، فإذا سئلوا عن الله، وعن صفته، وصفوه بغير صفته، وجعلوا له ولداً، وأشركوا به»[2].

قوله: «وما ذكر في خلق أفعال العباد وأكسابهم» يعني: أن أفعالهم، وأكسابهم مخلوقة لله -تعالى-، وإن كانت فعلاً لهم حقيقة، ولا فرق بين الفعل، والكسب، كما قال -تعالى-: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ فالكسب هو العمل.

---

(١) الآيتان ٧٥، ٧٦ من سورة الفرقان.

(٢) انظر «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨٧) تحقيق محمود شاكر.

والذين يجعلون أفعال العباد وأكسابهم فعلاً لله -تعالى- مشركون؛ لأنهم جعلوا له ما للمخلوق.

كما أن الفريق الضال الآخر الذين يجعلون العباد خالقين لأفعالهم، وموجدين لها، مشركون بذلك. وهذا وجه إيراد البخاري -رحمه الله- للآيات التي سبق ذكرها، وتقدم الكلام على أفعال العباد.

ثم استدل على دخول أفعال العباد في مخلوقات الله -تعالى- بقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فدخلت أفعالهم في عموم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، ودل قوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ على أنه -تعالى- أتقن ذلك، غاية الإتقان، حيث خلقها وجعلها مفعولة للعباد، واقعة منهم، بإراداتهم، واختيارهم، لم يرغموا عليها، بل فعلوها راغبين في فعلها، مختارين لها، ولذلك استحقوا عليها الثواب، والعقاب.

قوله: «وقال مجاهد: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بالرسالةِ، والعذابِ.

يعني: أن تنزل الملائكة هو فعلهم بأمر الله -تعالى- لهم طائعين ممتثلين أمر ربهم، فالنزول منهم فعل لهم يستوجبون به الثناء من الله؛ لأنهم أطاعوه بذلك، فأفعالهم قائمة بهم يفعلونها باختيارهم، كبني آدم.

وأما قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فهو فعل الله، والضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد إلى الذكر في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾.

وقوله: ﴿عِندِنَآ﴾ أراد به، بيان أن هذا فعل الله الخاص به.

وبيَّن ذلك بقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ «المبلغين المؤدين من الرسل» أي: المؤدين الرسالة، كما أمرهم الله.

فالصدق: فعل الصادقين، والصادق هو: المتصف بالصدق، الذي قام به الصدق فعلاً له، فالصدق فعلهم وعملهم، والله -تعالى- يسألهم عن عملهم.

والسؤال من الله فعله -تعالى- وقوله، يسأل به الرسل، عن تبليغهم ما أمرهم بإبلاغه لعباده، وزاد ذلك إيضاحاً بقوله:

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ القرآن: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ المؤمن، يقول يوم القيامة: «هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه».

فبين أن القرآن -الذي فسر به الصدق- غير التصديق، بل التصديق فعل المصدق -وهو المؤمن، أو الرسول- وهو عمله الذي يثاب عليه.

ولهذا يجيب ربه إذا سأله يوم القيامة: «ماذا عملت بما علمت؟» قائلاً: هذا الذي أعطيتني -يعني القرآن- عملت بما فيه. فتبين أن القرآن غير عمل القارىء، فتحريك اللسان، والشفتين، والصوت، ورفعه، وخفضه، هو عمل الرجل الذي يقرأ، وأما المقروء المتلفظ به، فهو القرآن كلام الله، وكلام الله غير عمل القارىء، ولهذا قال: هذا الذي أعطيتني عملت بما فيه، مجيباً ربه.

❑❑❑

١٤٦- قالَ: «حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا جَرِيرٌ، عن منصور، عن أبي وائِلٍ، عن عَمْرِو بن شُرَحْبِيلٍ، عن عبدِاللهِ، قالَ: سألتُ النبيَّ -ﷺ-: أيُّ الذنبِ أعظمُ عندَاللهِ؟ قال: «ثُمَّ أنْ تجعلَ للهِ نِدّاً، وهو خَلَقَكَ»، قلتُ: إنَّ ذلكَ لعظيمٌ، قلتُ: ثُمَّ أيّ؟ قالَ: «أنْ تقتلَ ولدكَ تخافُ أنْ يَطْعَمَ معكَ»، قلتُ: ثُمَّ أيّ؟ قالَ: «ثُمَّ أنْ تُزاني بِحَلِيلَةِ جارِكَ».

الذنوب تتفاوت في العظم، فبعضها أعظم من بعض، فيكون ما يترتب عليها من العقوبات كذلك.

وأعظم الذنوب الشرك بالله -تعالى-، قال تعالى عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[1]، فالشرك أعظم الذنوب عند الله، فلذلك حرم على صاحبه الجنة، وأخبر أن مأواه النار، وأنه لا يخرج منها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[4].

فلذلك يتعين على المرء أن يجتهد غاية وسعه في التعرف على أنواع الشرك، حتى يجتنبها؛ لأنه إذا لم يعرفها يوشك أن يقع فيها وهو لا يشعر، فيكون في ذلك هلاكه الأبدي. وتقدم القول في النِّد.

قوله: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» أسند الجعل إلى العبد؛ لأنه فعله، ولهذا استحق عليه عقاب الله وعذابه.

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان.

(٢) جزء من الآية ١٦٧ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٧٢ من سورة المائدة.

(٤) الآية ١١٦ من سورة النساء.

وقوله: «وهو خلقك» يعني: أن الدلائل على وجوب عبادة الله وحده، وإخلاص العبادة له، واضحة جلية، مثل كونه تعالى هو المتفرد بالخلق، والإيجاد من العدم، وبالرزق، فهو المستحق للعبادة وحده.

وقول عبدالله: «إن ذلك لعظيم» يعني: أن عظمه وقبحه مستقر في نفوس العقلاء، والناظرين في شرع الله، ودلائل وجوب عبادته.

قوله: «قلت: ثم أي؟» يعني: ما هو الذنب الذي يلي الشرك في العظم عند الله؟

«قال: «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك». قتل النفس بغير حق عمداً عظيم جداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود، عن عبادة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بَلَّحَ»[2]، أي: لا يزال مسرعاً في سيره إلى الله، وإنما يحبسه ويمنعه من السير إصابته الدم الحرام، معنى «بلح»: انقطع من العجز والإعياء، فلم يستطع المشي. وهذا جزء من حديث طويل، ولفظه:

«عن أم الدرداء، قالت: سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً».

فقال هاني بن كلثوم: سمعت محمود بن الربيع يحدث، عن عبادة بن الصامت، أنه سمعه يحدث عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: «من قتل مؤمناً فاعتبط بقتله، لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»، قال لنا خالد: ثم حدثني ابن أبي زكريا عن أم

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء.

(٢) «سنن أبي داود» (٤/ ٤٦٤).

الدرداء، عن أبي الدرداء، أن رسول الله -ﷺ- قال: «لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلَّح»[1].

وعن البراء بن عازب، أن رسول الله -ﷺ- قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[2]، والأحاديث في هذا فيها كثرة.

والقتل مع عظمه يتفاوت، فبعضه أعظم من بعض، وأعظمه أن يقتل الرجل ولده؛ لأن الله جعل له من الشفقة، والحنو، والحب، ما لا ينكر، وأمر الله -تعالى- بمراعاة حقه، فإذا بدل مكان الإحسان الواجب له أعظم إساءة -وهي القتل- استحق على ذلك أعظم العقوبة، فكيف إذا كان الباعث على القتل خوف الفقر، وأن يشاركه في مأكله؟ فإنه ينضاف إليه بذلك جرائم أخرى.

قوله: «قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تزاني بحليلة جارك»، الزنا جريمة نكراء، ويتفاوت جرمه حسب قرب المزني بها وبعدها عنه، وحسب الحقوق التي تجب مراعاتها أكثر في الشرع.

فإذا كانت ذات قرابة من جهة النسب فالزنا بها أعظم، وكذلك إذا كانت زوجة قريب منه، أو زوجة من له حق الجوار، فإن جريمة ذلك أعظم مما لو زنا بمن هي بعيدة عنه قرابة وجواراً.

قوله: «أن تزاني» يدل على المفاعلة، ومعنى ذلك أن تطاوعه المرأة على الفاحشة، وفي ذلك دليل على أنها إذا لم تطاوعه فالذنب أعظم.

والحليلة: هي التي يحل وطؤها، وتحل معه في فراش واحد.

والشاهد من الحديث قوله: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

فالإنسان هو الذي يجعل الند، ويفعل ذا حقيقة، فهو فعله الذي يباشره ويقوم به، ويتصف به، فإذا فعل ذلك فهو المشرك، ولذلك استحق العذاب العظيم، وأضيف إليه الذنب؛ لأنه صدر منه.

---

(١) انظر «السنن» (٤/ ٤٦٣-٤٦٤) رقم (٤٢٧٠).

(٢) رواه ابن ماجه في «السنن» (٢/ ٨٧٤) رقم (٢٦١٩)، قال المنذري: إسناده حسن، ورواه النسائي رقم (٣٩٨٧).

فتبين الفرق بين قول الله -تعالى- وفعله، وبين قول العبد وفعله، وهو ما أراده المؤلف.

فإذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت الرب تعالى، وما نقرؤه من القرآن فهو كلام الله -تعالى- مبلغاً عنه، لا مسموعاً منه، وإنما سمعه منه جبريل، ونحن نقرؤه بحركاتنا، وأصواتنا.

فالكلام كلام الباري، والصوت صوت القارىء. وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ فهو يسمع كلامه ممن يقرؤه عليه ويبلغه إياه، لا من الله -تعالى-.

□□□

قالَ: «**بابُ قول اللهِ -تعالى-**: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

روى مسلم، عن أنس، قال: كنا عند رسول الله -ﷺ- فضحك، فقال: «أتدرون مم أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلي بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعداً لكُنَّ، وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[1].

«قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب إثبات السمع لله، وأطال في تقرير ذلك، وتقدم في أوائل التوحيد في قوله: ﴿كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

والذي أقول: إن غرضه في هذا الباب: إثبات ما ذهب إليه أن الله يتكلم متى شاء»[2].

---

(١) «مسلم» (٨/ ٢١٧).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٤٩٦).

والظاهر أن غرضه في هذا الباب قريب من الذي قبله، وهو بيان أن أعمال العباد واقعة بفعلهم، وأن الكلام يكون صفة لمن تكلم به، فالأعضاء حين تشهد على صاحبها تنطق بكلام لها حقيقة، مضاف إليها على الحقيقة، فهو صفة لها؛ لأنه قام بها، فكذلك كل متكلم، فكلامه فعله ووصفه.

وهذا يدل على أن المتكلم بكلام لغيره لا يكون ذلك الكلام مضافاً إليه وصفاً له، بل هو ناقل أو مبلغ، وأما حركة لسانه وشفتيه، وتصويته به، فهي أفعاله، والمصوت به الذي تحرك اللسان والشفتان به هو كلام ذلك الغير، كما تقدم.

وأعمال العباد كلها مخلوقة محدثة.

قال البخاري -رحمه الله-: «وكل من لم يعرف الله بكلامه، أنه غير مخلوق، فإنه يُعَلَّمُ، وَيُرَدُّ جهله إلى الكتاب والسنة، فمن أبى بعد العلم به كان معانداً؛ لقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[1].

فأما ما احتج به الفريقان لمذهب أحمد[2]، ويدعيه كل لنفسه، فليس بثابت كثير من أخبارهم، وربما لم يفهموا دقة مذهبه، بل المعروف عن أحمد وأهل العلم أن كلام الله غير مخلوق، وما سواه مخلوق، وأنهم كرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة، وتجنبوا أهل الكلام، والخوض، والتنازع، إلا فيما جاء فيه العلم، وبيَّنه رسول الله -ﷺ-.

حدثنا إسحاق، أنبأنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: سمع النبي -ﷺ- قوماً يتدارءون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا، وما لا فَكِلوه إلى عالمه».

---

(١) الآية ١١٥ من سورة النساء.

(٢) يعني: الذين يقولون: ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة، فإن حقيقة قول هؤلاء أن القرآن مخلوق. والفريق الثاني: الذين يقولون: تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة، وألفاظنا به غير مخلوقة.

وكل من اشتبه عليه شيء فأولى أن يكله إلى عالمه، كما قال عبدالله بن عمرو، عن النبي -ﷺ- ولا يدخل في المتشابهات إلا ما بين له.

حدثنا أحمد بن إشكاب، حدثنا محمد بن فضيل، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة -رضي الله عنه: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ثم ذكر حديث ابن مسعود الآتي.

ثم قال: حدثنا موسى، عن وهيب، عن داود، عن الشعبي، في بيع المصاحف: «أنه لا يبيع كتاب الله، وإنما يبيع عمل يديه».

ثم ذكر آثاراً في ذلك، وذكر قول النبي -ﷺ- في أبي موسى: «أوتي مزماراً من مزامير آل داود»، وقوله: «زينوا القرآن بأصواتكم» ثم قال:

«وعامة هذه الأخبار مستفيضة عند أهل العلم، ولا ريب في تخليق مزامير آل داود، وندائهم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾».

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾، ثم قال: «فبين أن التلاوة من النبي -ﷺ- وأصحابه، وأن الوحي من الرب».

ثم ذكر أحاديث وآيات وآثاراً كثيرة، ثم قال: «ومما يقوي قول الشعبي في بيع المصاحف أنه إنما يبيع عمل يديه، قول زياد بن لبيد -رضي الله عنه- للنبي -ﷺ-: «كيف يرفع العلم وقد ثبت ووعته القلوب؟»»[1].

فهذا الذي ذكره يبين ما أراده هنا، وهو ظاهر من الآية التي ترجم بها، عند التأمل؛ لأنها في سياق ما ذكره الله عن أهل النار، من كلام أعضائهم، قال الله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآية.

(١) انظر كتاب «خلق أفعال العباد» (٧٠-١٠٥) تحقيق بدر.

قال ابن كثير: «أي: تقول لهم الأعضاء والجلود، حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلون، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر، والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم»[1].

وبهذا يتبين أن هذا قول الأعضاء ذكره الله عنها على ما سيقع يوم القيامة.

ولهذا لا يقال: إن هذا ليس كلام الله، بل هو كلام الأعضاء حكاه الله عنها؛ لأن الأعضاء لم تتكلم إلى الآن، وإنما ستتكلم يوم القيامة، والله -عز وجل- علم ما سيكون وما تتكلم به، فذكره لعباده ليحذروا الوقوع فيما يوجب شهادة الأعضاء عليهم، فهو كلام الله تكلم به، وأخبر به عما سيقع، وحتى الكلام الذي وقع وذكره تعالى عمن قاله، فإن ذلك يكون كلامه، كما حكى عن الأنبياء وقومهم وغيره.

والمقصود أن الاستدلال بالآية المذكورة على أن أعمال الإنسان وأقواله - ومن ذلك قول الأعضاء- تقع منهم على الحقيقة، وتقوم بهم، وعليها يستحقون الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأن أعمال العبد مخلوقة لله -تعالى-؛ لأن الله هو الخالق وحده، وجعلهم عاملين لها حقيقة، وتقدم بيان ذلك.

□□□

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٩٦) طبعة الحلبي.

١٤٧- قالَ: «حدثنا الحُمَيْدِيُّ، حدثنا سفيانُ، حدثنا منصورٌ، عن مجاهِدٍ، عن أبي مَعْمَرٍ، عن عبدِاللهِ -رضي اللهُ عنه- قالَ: اجتمعَ عندَ البيتِ ثقفِيّانِ وقُرَشِيٌّ أو قُرَشِيَّانِ وثقفِيٌّ- كثيرةٌ شَحْمُ بُطونهم، قليلةٌ فِقْهُ قُلُوبهم، فقال أحدُهم: أترونَ أنَّ اللهَ يسمعُ ما نقولُ؟ فقال الآخر: يسمعُ إذا جَهَرْنا، ولا يسمعُ إنْ أَخْفَيْنا، وقال الآخَرُ: إنْ كانَ يسمعُ إذا جَهَرْنا، فإنَّهُ يسمعُ إذا أَخْفَيْنا، فأنزلَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآية.

قوله: «كثيرة شحم بطونهم» كثيرة: صفة لشحم وأنثه؛ لأن شحم مضاف إلى البطون، وكذا صفة القلوب، والمعنى: أن هؤلاء كبار الجسوم، لكن فقههم قليل، ولهذا صدرت منهم تلك المقالة الدالة على قلة فهمهم.

والشاهد من الآية لمقالتهم هذه: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كما في قول أحدهم: إن جَهَرْنا سَمِعَ، وإن أخفينا لم يسمع، والآخر الذي هو أفقه من هذا علق علم الله بذلك بقوله: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فهو شاك في ذلك، ولهذا وصفهم عبدالله -رضي الله عنه- بقلة الفقه، وتقدم وجه استدلال المؤلف بذلك.

❑ ❑ ❑

قال: بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، وأنَّ حَدَثَهُ لا يُشْبِهُ حَدَثَ المخلوقينَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقال ابنُ مسعودٍ عن النبيِّ -ﷺ-: «إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ ما يشاءُ، وإنَّ مما أَحْدَثَ أنْ لا تَكَلَّمُوا في الصَّلاةِ».

يريد بهذا بيان أن الله -تعالى- يحدث ما يريد إحداثه، في أي وقت أراد، وأن إحداثه ذلك من أفعاله التي هي أوصاف له، فيحدث الأمر من أمره -تعالى- والكلام، ويطلق عليه أنه حدث، ومحدث؛ لأنه وجد بعد ما قبله، ويسمى كلامه حديثاً، ويطلق عليه أنه حادث، ومحدث بمعنى الجديد الذي تكلم به بعد كتبه السابقة له، ولهذا قال: وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين.

فمن ذلك كلامه، ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه، وأمره لمن يأمره، ونهيه، وإجابته لمن يدعوه، وإحياؤه لمن يريد حياته، وإماتته لمن يريد أن يميته، وإذلال من يريد ذله، وإعزاز من يشاء، وهدايته من يشاء، وإضلال من يشاء، وتصرفه في خلقه وملكه كيف يشاء.

«قال عبيد بن عمير: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يجيب داعياً، ويعطي سائلاً، أو يفك عانياً، أو يشفي سقيماً».

وقال مجاهد: «كل يوم يجيب داعياً، ويكشف كرباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً».

وقال قتادة: «لا يستغني عنه أهل السماوات، والأرض، يحيي حياً، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم».

وقال سويد بن جبلة: «إن ربكم كل يوم في شأن، فيعتق رقاباً، ويعطي رغاباً، ويقحم عقاباً»[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٠) طبعة الشعب.

وروى ابن جرير، عن عبدالله بن مثيب الأزدي، قال: تلا رسول الله -ﷺ- هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»[1] وعلقه البخاري جازماً به، عن أبي الدرداء، موقوفاً»[2]، ورواه ابن ماجه مرفوعاً[3].

ونقل الحافظ في كلامه على هذه الترجمة قول ابن بطال، وقول الكرماني وغيرهما، وأطال فيما هو بعيد عن مراد البخاري؛ لأنهم يحاولون شرح ما ذكره على ما يتفق مع عقيدة الأشاعرة، مع أنه مباين لها.

قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ قيل هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: دنت القيامة وقربت، والناس عنها غافلون لاهون في دنياهم.

وإذا جاءهم ذكر من الله جديد، قريب العهد بالله، فيه تذكيرهم وأمرهم بالأخذ لما فيه سعادتهم، وفيه عظتهم عن التشاغل بالدنيا ونسيان الآخرة، استمعوه سماع غافل لاه لاعب.

قال ابن كثير: «أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله. فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد إنزاله»[4].

وقال أبو جعفر ابن جرير -رحمه الله-: «يقول -تعالى ذكره-: ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس، ويذكرهم به، ويعظهم، إلا استمعوه، وهم يلعبون»[5].

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (٢٧/ ٧٩).

(٢) انظر «البخاري» (٦/ ١٨١).

(٣) انظر «السنن» (١/ ٧٣) رقم (٢٠٢)، ورواه ابن حبان في «صحيحه»، عن أبي الدرداء، مرفوعاً، قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين» «الإحسان» (٢/ ٣٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٢٥).

(٥) (١٧/ ٢).

وقوله: «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» لما ذكر الله -جل وعلا- حكمه في المطلقة، وأمره بأن تطلق لعدتها، وأمر بإحصائها، ونهى عن إخراجها من بيت زوجها، ما دامت في العدة، وأنها لا تخرج منه إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، وأخبر -تعالى- أن هذا من حدوده التي حدها، ونهى عن تعديها، وأن من تعداها فقد ظلم نفسه، بعد ذلك قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

يعني: يحدث للزوجين حالاً غير ما كانا عليه وقت الطلاق، بأن تتبدل الكراهية رغبة، والبغض حباً، وأن يراجع الرجل نفسه فيندم على ما حصل منه، والزوجة كذلك.

قال ابن جرير: «﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.: يقول -جل ثناؤه-: لا تدري ما الذي يحدث، لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة»[(1)].

والمقصود الذي أراده المؤلف -رحمه الله- من هاتين الآيتين: أن الله -تعالى- يتكلم بعد أن لم يكن تكلم بذلك الكلام بعينه، ويأمر، وينهى بعد أن لم يكن أمر بذلك المأمور وذلك المنهي عنه بعينه، لمن وجه إليه الأمر والنهي، وهذا هو معنى الحدث الذي أراد بيانه، وهو: الفعل المتجدد الذي يتعلق بمشيئته تعالى، سواء كان كلاماً، أو أمراً، أو نهياً، أو إحياء لميت، أو إماتة لحي، أو هداية ضال، أو ضلال غاو، أو تغيراً لحكم شرعه قبل ذلك، أو أذن به، أو تغيير ما في نفوس بعض خلقه، أو غير ذلك مما يشاؤه ويريده -جل وعلا-، كما تقدم في معنى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾، قال شيخ الإسلام: «هذا يدل على أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما آكل إلا طعاماً حلالاً، ونحو ذلك.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٨٧).

ويعلم أن المحدث في الآيتين ليس هو المخلوق، الذي يقوله الجهمية.

ولكنه الذي أنزل جديداً، فإن الله كان ينزل من القرآن شيئاً بعد شيء، فالمنزل أولاً قديم بالنسبة إلى المنزل آخراً، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾، وقال: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾»[1].

ومراد الإمام البخاري -رحمه الله- من هاتين الآيتين الرد على من ينكر أفعال الله -تعالى- من القول والفعل ونحوهما مما يتعلق بمشيئته وإرادته وقدرته، فإن هذا الأصل أنكرته الجهمية، والمعتزلة، ومن تشعب عنهما، ظانين أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم وإثبات وجود الخالق له -تعالى- إلا بإثبات حدوث الأجسام، ولا يمكن إثبات حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال المتعاقبة، التي يسمونها: الحوادث، فلذلك قالوا: كل من قامت به الحوادث أو كان محلاً لها فهو حادث.

وهذا الذي حدا بهم إلى إنكار صفات الله، وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته.

وعليهم توجه رد الإمام البخاري -رحمه الله- في هذا الكتاب، كما قال: «باب ما جاء في تخليق السماوات والأرض وغيرهما من الخلائق، وهو فعل الرب، وأمره، فالرب -تعالى- بصفاته وفعله وأمره وكلامه هو الخالق المكون، غير المخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه، فهو مفعول مكون مخلوق».

ثم بعد ذلك قال: «باب قول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ولم يقولوا: ماذا خلق ربكم».

ثم ذكر قول عبدالله بن مسعود: «إذا تكلم الله بالوحي» إلى آخره، وذكر حديث عبدالله بن أنيس وفيه: «فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قَرُب».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٢٢).

وذكر حديث أبي هريرة: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها» إلى آخره، وحديث أبي سعيد الخدري: «يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار...»، إلى آخر ما ذكره من الأبواب التي من تدبرها، وتأمل ما تحتها من النصوص، تبين له دقة فهمه رحمه الله، وتبين له بطلان مذهب أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم.

والمقصود أن الإمام البخاري -رحمه الله- يرى أن الله -تعالى- يوصف بأنه يحدث ما يشاء من القول، والأمر، والفعل، وهذا ما دل عليه العقل والفطرة وكتب الله، ولهذا قال: «وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾».

فكما أنه تعالى لا مثل له في ذاته، كذلك في أفعاله، وأوصافه وأحداثه التي يحدثها مما يتعلق بمشيئته، وهي أفعاله، وهذا هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

قوله: «وقال ابن مسعود، عن النبي -ﷺ-: «إن الله عز وجل يحدث من أمره ما شاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة».

هذا طرف من حديث رواه أبو داود، وأحمد، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه» وصححه، من طريق عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن عبدالله، قال: «كنا نسلم في الصلاة، ونأمر بحاجتنا، فقدمت على رسول الله -ﷺ- وهو يصلي، فسلمت عليه، فلم يرد عليَّ السلام، فأخذني ما قدم وما حدث، فلما قضى رسول الله -ﷺ- الصلاة قال: «إن الله -عز وجل- يحدث من أمره ما يشاء، وإن الله -تعالى- قد أحدث أن لا تكلموا في الصلاة، فرد عليَّ السلام»[1].

وفي رواية النسائي: «وإن مما أحدث»، وأصل القصة في «الصحيحين».

(١) انظر «سنن أبي داود» (١/ ٢١٢)، باب: رد السلام في الصلاة، وانظر «المسند» (١/ ٤٠٩، ٤١٥، ٤٣٥)، وانظر «الإحسان» (٤/ ٧)، وانظر «النسائي» (٣/ ١٩) رقم (١٢٢١).

فقوله ﷺ: «إن الله يحدث ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة» موافق لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ولا يصف الله أعلم منه -تعالى- ولا أعلم من رسوله بعده، ومن لم يرض بما قاله الله ورسوله فبعداً له.

□□□

١٤٨- قال: «حدثنا عَلِيُّ بنُ عبدِاللهِ، حدثنا حاتمُ بنُ وَرْدانَ، حدثنا أَيوبُ، عن عِكْرِمَةَ عن ابنِ عباسٍ -رضي اللهُ عنهما- قالَ: «كيفَ تسألونَ أهلَ الكتابِ عنْ كُتُبِهِم وعِنْدَكُم كتابُ اللهِ، أقْرَبُ الكُتُبِ عَهْداً باللهِ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضَاً لم يُشَبْ».

يعني: أن الله قد أغناكم بما جاءكم به نبيكم -ﷺ-، فقد أنزل الله عليه آخر الكتب التي قضى الله -تعالى- أن تنزل إلى الأرض من عنده، فهو أحدثها بالله، وأقربها عهداً به، وقد وصل إلينا خالصاً، ليس فيه ما يداخله من غيره، فكيف بعد ذلك يسوغ للمسلم أن يذهب يسأل اليهود أو النصارى عما في أيديهم من كتبهم؟

وقد أعلمنا الله -تعالى- أنهم حرفوها، وزادوا فيها ونقصوا منها، ثم كذبوا على الناس بأن قالوا: هذا من عند الله، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3] إلى غير ذلك مما ذكره الله -تعالى- عنهم من الكذب، والتزوير، وتحريف كلام الله عن مواضعه، وتغييره وتبديله.

والشاهد فيه قوله: «وعندكم كتاب الله أقرب الكتب عهداً بالله». وهذا معنى كونه محدثاً، يعني: أنه قريب عهده بالله -تعالى-، بأن تكلم به وأنزله بعد الكتب السابقة، بل تكلم به تعالى في مناسبات تعرفون كثيراً منها.

ومعنى قوله: «محضاً لم يشب»: يعني: أنه لم يخالطه شيء من غيره.

---

(١) الآية ٧٩ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٧٨ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٧١ من سورة آل عمران.

١٤٩- قال: «حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شُعَيْبٌ، عن الزُّهْرِيِّ، أخبرني عبيدُاللهِ ابنُ عبدِاللهِ، أنَّ عبدَاللهِ بنَ عباسٍ قالَ: يا معشَرَ المسلمينَ، كيفَ تسألونَ أهلَ الكتابِ عن شيءٍ، وكتابُكُمْ الذي أنزلَ اللهُ على نبيكم، أحْدَثُ الأخبارِ باللهِ، مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حدَّثَكُمُ اللهُ أنَّ أهلَ الكتابِ قد بدّلوا منْ كُتُبِ اللهِ، وغيَّرُوا فكتبوا بأيدِيهم، قالوا: هو مِنْ عندَ اللهِ؛ ليشتروا بذلكَ ثمناً قليلاً، أوَ لا يَنْهاكُم ما جاءَكم منَ العلمِ عنْ مسألتِهم، فلا واللهِ ما رَأَيْنا رَجُلاً منهم يسألُكم عن الذي أُنْزِلَ عَلَيْكُم».

هذا يدل على أنه كان من المسلمين في عهد ابن عباس من يسأل أهل الكتاب ويكتب أخبارهم، وذلك في آخر عهد الصحابة، وكان الصحابة ينهون عن ذلك، ويحذرون منه؛ لأنهم يعرفون كذبهم، وتحريفهم لكتاب الله، ولاستغنائهم بما جاء به نبيهم -ﷺ-.

وقد روى البخاري أن أمير المؤمنين معاوية -رضي الله عنه- أنه كان يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين، الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»[(١)] أي: نجرب عليه الكذب في أخباره.

«روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة من حديث جابر، أن عمر أتى النبي -ﷺ- بكتاب أصابه من أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل، فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» ورجاله ثقات إلا أن مجالداً فيه ضعف»[(٢)].

ولهذا نهى ابن عباس عن سؤالهم، وبين أنه ليس هناك ما يدعو إلى سؤالهم، وقد أغنى الله المسلمين بكتابه الذي تولى حفظه بنفسه، فلا يقدر أحد على تغييره

(١) انظر «الفتح» (١٣/ ٣٣٣).
(٢) «الفتح» (١٣/ ٣٣٤).

وتبديله، وهو أيضاً آخر الكتب نزولاً من عند الله، فهو أحدثها به، نزل عليكم بعد كل الكتب التي يحدثونكم عنها.

مع أن الذي عندهم قد اختلط الحق فيه بالباطل، فلا يتميز، وما كان فيه من حق فهو منسوخ بالقرآن الذي جاء به خاتم النبيين -ﷺ-.

ومما يدل على أن أهل الكتاب لا يريدون الحق: كونهم لا يسألون المسلمين عما جاء به نبيهم، وهذا مما يمنع من سؤالهم. وقد سبق ذكر بعض الآيات التي تنص على تحريفهم وتبديلهم الكتاب بما يكذبونه؛ ليشتروا به من حطام الدنيا ما استطاعوا، فمثل هؤلاء حرام سؤالهم؛ لأنهم يضلون من سألهم والشاهد قوله: «وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم -ﷺ- أحدث الأخبار بالله»، والحديث هو الجديد، ضد القديم، وهذا معنى قوله في الآية: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد. وقوله: «محضاً لم يشب» أي: خالصاً، لم يخالطه شيء من غيره.

□□□

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ وفِعْلِ النبيِّ -ﷺ- حينَ يُنْزَلُ عليهِ الوَحْيُ».

يقصد بهذا التمييز بين فعل العبد، وفعل الرب تعالى وصفاته.

فتحريك النبي -ﷺ- لسانه بالوحي هو فعله، ولكن المحرك به اللسان هو كلام الله وصفته، ولهذا قال:

«وفعل النبي -ﷺ- حين ينزل عليه الوحي، يعني: أنه كما قال ابن عباس: يعالج من الوحي شدة، وكان يحرك شفتيه بالقرآن، وذلك عندما يتلوه عليه جبريل، فيحرك لسانه وشفتيه بما يقرؤه جبريل، خوفاً من أن يفوته شيء منه، فنهاه الله -تعالى- عن ذلك حيث يقول: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: تستعجل بحفظه، مخافة أن يفوتك فلا تحفظه.

وتكفل الله له بأن يحفظه إياه، فقال تعالى:﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾يقول تعالى لنبيه: لا تستعجل إذا سمعت جبريل يقرأ عليك القرآن، فتحرك به لسانك وشفتيك مخافة أن لا تحفظه، بل أنصت، واستمع لما يقرأه جبريل، فنحن نجمعه، فلا يذهب منه شيء.

و«قرآنه» يعني: قراءته التي يقرؤها عليك جبريل، فإذا قرأه فاتبع قرآنه» فكان ﷺ يستمع لما يقرؤه عليه جبريل، فإذا انتهى قرأه النبي -ﷺ-.

وهذا الذي كان النبي -ﷺ- يفعله من تحريك شفتيه ولسانه وما يعالج من الشدة، كل ذلك فعله وعمله، وهو مخلوق.

أما ما يحرك به لسانه وشفتيه، فهو كلام ربه جل وعلا، ومثل ذلك جبريل.

قال المؤلف في بدء الوحي، بسنده عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾قال: كان رسول الله -ﷺ- يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله -ﷺ- يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله

-تعالى-: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قال: جمعه لك في صدرك، وتقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال: فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول الله -ﷺ- بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي -ﷺ- كما قرأه»[1]، وسيأتي قريباً.

وقال في «خلق أفعال العباد»: «سمعت عبدالله بن سعيد يقول: سمعت يحيى ابن سعيد يقول: ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة، -يعني: حركاتهم، وأصواتهم، واكتسابهم، وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله، ليس بمخلوق، قال الله -تعالى-: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾، فذكر أنه يحفظ ويسطر»[2].

وقال أيضاً: «فأما المداد، والرق، ونحوه، فإنه مخلوق، كما أنك تكتب «الله»، فالله في ذاته هو الخالق، وخطك واكتسابك من فعلك خلق؛ لأن كل شيء دون الله بصنعه، وهو خلق، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[5].

وقال أيضاً: «وقال النبي -ﷺ- لجبريل حين سأله عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟

قال: نعم، ثم قال: ما الإسلام؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. فذكره، قال: إذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: نعم.

---

(١) البخاري (١/ ٤).

(٢) «خلق أفعال العباد» (٤٧).

(٣) الآية ٢ من سورة الفرقان.

(٤) الآية ٤ من سورة الزخرف.

(٥) «خلق أفعال العباد» (٤٩).

فسمى الإيمان، والإسلام، والشهادة، والإحسان، والصلاة بقراءتها وما فيها من حركات الركوع والسجود، فعلاً للعبد»[1].

وقال: «قال الله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، ولكنه كلام الله تلفظ به العباد، والملائكة، وبين ذلك ما حدثني به عبدالعزيز بن عبدالله -وذكر سنده- إلى النبي -ﷺ- قال: «إذا أحب الله عبداً، نادى جبريل: يا جبريل أحب فلاناً، فينوه بها جبريل في حملة العرش، فيحبه أهل العرش، فيسمع أهل السماء السابعة لغط أهل العرش- وذكره-»[2].

فحب جبريل، ونداؤه لأهل العرش وأهل السماوات هو فعل جبريل، وهو مخلوق.

وأما حب الله للعبد ونداؤه لجبريل فهو فعله تعالى.

وقال أيضاً: «قال معاوية: لو شئت أن أحكي لكم قراءة رسول الله -ﷺ- لفعلت.

وسئل النبي -ﷺ-: أي الناس أحسن قراءة؟ قال: «الذي إذا سمعته رأيت عليه أنه يخشى الله عز وجل».

ويذكر عن سعد -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ-: خير الذكر الخفي.

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[4].

وسمع معاذ قارئاً يرفع صوته بالقرآن، فقال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

---

(١) المصدر السابق(٥٧).

(٢) المصدر نفسه (٧٢-٧٣).

(٣) الآية ٥٥ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

حدثنا مسدد، حدثنا معتمر، سمعت أبي، سمعت أبا عثمان يقول: ما سمعت صنجاً قط، ولا بربطاً، ولا مزماراً أحسن صوتاً من أبي موسى، إلا فلاناً، إن كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته.

ويذكر عن عبدالرحمن بن غنم، عن معاذ أنه قال: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول، ويكتب علينا؟ قال: وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟».

فبين النبي -ﷺ- أن أصوات الخلق، وقراءتهم، ودراستهم، وتعليمهم، وألسنتهم، مختلفة، بعضها أحسن، وأزين، وأحلى، وأصوت، وأرتل، وألحن، وأعلى، وأخف، وأغض، وأخشع.

وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[1]، وأجهر، وأخفى، وأمد، وأمهر، وألين، وأخفض من بعض»[2].

قولُهُ: «وقالَ أبو هريرةَ: عنِ النبيِّ -ﷺ-: «قالَ اللهُ -تعالى- أنا مَعَ عَبْدِي إذا ذكَرَني، وتَحَرَّكَتْ بي شَفَتَاهُ».

هذا التعليق وصله المؤلف في «خلق أفعال العباد»[3].

ومراده من الحديث أن قوله: «وتحركت بي شفتاه» وكذا قوله: «إذا ذكرني» أنه فعل العبد وعمله الذي يجازيه الله عليه، والشفتان واللسان تتحرك بذكر الله واسمه وصفته، لا بذاته تعالى.

فمثل ذلك قراءة القرآن، فإن اللفظ والصوت والحركة فعل العبد، وهو مخلوق، وأما ما يلفظ به ويقرؤه فهو كلام الله -تعالى-، وقد تكرر هذا لأن المؤلف يكرره؛ لأنه قد بلي بمن يقول: قراءة العباد غير مخلوقة.

قال رحمه الله: «القراءة هي التلاوة، والتلاوة غير المتلو، وقد بينه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: اقرءوا إن شئتم: يقول العبد: «الحمد لله

(١) الآية ١٠٨ من سورة طه.

(٢) «خلق أفعال العباد» (٧٢-٧٣).

(٣) (ص١٤١) تحقيق بدر.

رب العالمين»، فيقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: «مالك يوم الدين» فيقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: «إياك نعبد، وإياك نستعين»، فيقول الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل».

فبين أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد، وأن قول العبد غير كلام الله، هذا من العبد الدعاء، والتضرع، ومن الله الأمر والإجابة.

ثم روى عن أبي الدرداء: «سئل رسول الله -ﷺ- أفي كل صلاة قراءة؟ قال: «نعم»، فقال رجل من الأنصار: وجبت هذه، قال النبي -ﷺ-: «اقرءوا إن شئتم».

فالقراءة لا تكون إلا من الناس، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل، وكلامه قبل خلقه.

وسئل النبي -ﷺ-: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت» فذكر النبي -ﷺ- أن بعض الصلاة أطول من بعض، وأخف، وأن بعضهم يزيد على بعض في القراءة، وبعضهم ينقص، وليس في القرآن: زيادة ولا نقصان، فأما التلاوة فإنهم يتفاضلون في الكثرة والقلة والزيادة والنقصان.

وقد يقال: فلان حسن القراءة، ورديء القراءة، ولا يقال: حسن القرآن، ورديء القرآن.

وإنما نسب إلى العباد القراءة، لا القرآن؛ لأن القرآن كلام الرب جل ذكره.

والقراءة فعل العبد، لا يخفى معرفة هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه، ولم يوفقه، ولم يهده سبيل الرشاد.

وليس لأحد أن يشرع في أمر الله -عز وجل- بغير علم، كما زعم بعضهم: أن القرآن بألفاظنا، وألفاظنا به شيء واحد، التلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء.

فقيل له: إن التلاوة فعل التالي، وعمل القارئ، فرجع، وقال: ظننتهما مصدرين.

فقيل له: هلا أمسكت، كما أمسك كثير من أصحابك؟ ولو بعثت إلى من كتب عنك، فاستردت ما أثبت، وضربت عليه؟

فزعم أن كيف يمكن هذا وقد قلتُ، ومضى؟

فقيل له: كيف جاز لك أن تقول في الله -عز وجل- شيئاً لا يقوم به شرح وبيان، إذ لم تميز بين التلاوة والمتلو؟

فسكت إذ لم يكن عنده جواب»[1].

□□□

(١) «خلق أفعال العباد» (١٠٤-١٠٥)، والظاهر أن هذه المحاورة بين البخاري وبعض من خالفه في ذلك.

١٥٠- قال: «حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن موسى بن أبي عائشةَ، عن سعيدِ بن جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ قال: كانَ النبيُّ -ﷺ- يعالجُ من التنزيلِ شدةً، وكان يحركُ شَفَتَيْهِ، فقال لي ابنُ عباسٍ: أُحَرِّكُهُما لكَ كما كانَ رسولُ اللهِ -ﷺ- يُحَرِّكُهُما، فقال سعيدٌ: أنا أُحَرِّكُهُما كما كانَ ابنُ عباس يُحَرِّكُهُما، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ. فأنزلَ اللهُ عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قال: جَمْعُهُ في صَدْرِكَ، ثُمَّ تَقْرَؤُهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، قال: فاستمعْ له وأَنْصِتْ، ثُمَّ إنَّ علينا أنْ تَقْرَأَهُ، قالَ: فكانَ رسولُ اللهِ -ﷺ- إذا أتاهُ جبريلُ عليه السلامُ استمعَ، فإذا انطلقَ جبريلُ قَرَأَهُ النبيُّ -ﷺ- كما أَقْرَأَهُ».

قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ أي: لا تحرك بالقرآن لسانك، فدل على أن المحرك به غير الحركة والتحرك، فذلك فعل العبد، بخلاف المحرك به فإنه القرآن.

قوله: «يعالج من التنزيل شدة» أي: أنه كان يتحمل هماً، ويعاني كرباً وخوفاً من أن يذهب عنه ما يلقيه جبريل إليه، فلذلك كان يحرك لسانه وشفتيه بترديد ما يقوله جبريل، لعله يثبت معه، وقد وصف ابنُ عباسٍ لسعيدٍ بالتمثيل، مما يدل على أن ابن عباس قد شاهد رسول الله -ﷺ- في تلك الحالة.

فلما نهاه ربه تعالى عن ذلك الفعل، وأخبره أنه سوف يثبته في صدره، وإنما عليه أن يستمع إلى جبريل، وأن الله يتولى جمعه في صدر النبي -ﷺ- وحفظه، ترك ما كان يفعله، وهذا من الحفظ للقرآن الذي أخبر تعالى أنه يحفظه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

فكان النبي -ﷺ- يستمع إلى جبريل، فإذا انتهى قرأه النبي -ﷺ- كما قرأه جبريل.

قوله: «لتعجل به» أي: إن تحريكه لسانه به ليتعجل بحفظه خوفاً من فواته عليه أو نسيانه، فقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال ابن عباس: في صدرك، ثم تقرؤه كما كان جبريل يقرؤه.

قوله: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ يعني: قراءته، والمقصود قراءة جبريل له، وبهذا سميت القراءة قرآناً.

قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إذا قرأه عليك جبريل الذي أمره الله بذلك، فاتبع قراءته، فإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم، الذي هو الله -تعالى-؛ لأنه جل وعلا هو الآمر، وهو المتكلم به، وجبريل رسوله إلى محمد -ﷺ-، والرسول يبلغ رسالة من أرسله.

قال في «خلق أفعال العباد» «حدثنا عبيدالله بن موسى، وذكر سنده إلى سعيد ابن جبير أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾؟ فقال: قال ابن عباس: كان يحرك لسانه إذا نزل عليه، فقيل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يخشى أن يتفلت، ثُمَّ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: جمعه في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ يقول: أنزل عليه، ﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾ أن نثبته على لسانك»[1] وفي رواية: «قال: علينا أن نجمعه في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله»[2].

□□□

(١) (ص٨٤) ورواه في «الصحيح» (٦/ ٢٠٣).

(٢) انظر «الصحيح» (٦/ ٢٠٣).

قالَ: «بابُ قول اللهِ -تعالى-: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ يتخافتونَ: يتسارُّونَ.

قال أبو جعفر بن جرير -رحمه الله-: «يقول جل ثناؤه: أخفوا قولكم، وكلامكم أيها الناس، أو أعلنوه وأظهروه، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يقول: إنه ذو علم بضمائر الصدور التي لم يتكلم بها، فكيف بما نطق به وتكلم به، أخفى ذلك أو أعلن؛ لأن من لم تخف عليه ضمائر الصدور، فغيرها أحرى أن لا يخفى عليه.

﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ الرب جل ثناؤه ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ من خلقه، يقول: كيف يخفى عليه خلقه الذي خلق، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بعباده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بهم وبأعمالهم»[1]؟

قال الحافظ: «أشار بهذه الآية إلى أن القول أعم من أن يكون بالقرآن أو بغيره.

فإن كان بالقرآن، فالقرآن كلام الله، وهو من صفات ذاته فليس بمخلوق؛ لقيام الدليل القاطع بذلك، وإن كان بغيره فهو مخلوق، بدليل قوله تعالى﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ بعد قوله: ﴿﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قال ابن بطال: «مراده إثبات العلم لله صفة ذاتية؛ لاستواء علمه بالجهر من القول والسر»[2].

قلت: كلا القولين لم يردهما البخاري، أما قول ابن بطال، فلا يتفق مع أحاديث الباب، وظاهر أنه لم يرد ما زعمه ابن بطال.

وأما قول الحافظ، فينطبق على مذهب الأشاعرة الذين يجعلون كلام الله صفة ذاتية، يعني: أنه معنى قائم بذات الله -تعالى-، والبخاري -رحمه الله- من أبعد الناس عن مثل هذا القول الباطل، المتناقض.

والصواب: أنه أراد بيان أن أفعال الله وأوصافه لا تشتبه بأفعال العباد وأوصافهم، فإن أقوال العباد الموصوفة بأنهم يجهرون بها أو يسرونها هي أقوالهم وأعمالهم التي يجازيهم ربهم عليها بالثواب أو العقاب.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٩/ ٥) طبع بولاق.

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٠١).

أما كلام الله -تعالى- وفعله فلا يكون وصفاً للعباد، بأنه قول لهم أو فعل لهم.

وقد بين مراده هذا في كتابه «خلق أفعال العباد»، فقال: «فأما المتلو فقول الله الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ﴾(٢).

وقال عبدالله بن عمرو، عن النبي -ﷺ-: «يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً، فيشفع لصاحبه»، وهو اكتسابه وفعله.

قال الله -تعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(٣)، قال صعصعة، عم الفرزدق، لما سمع النبي -ﷺ- يقرأ هذه الآية: حسبي، قد علمت فيم الخير، وفيم الشر.

وقد دخل في ذلك قراءة القرآن، وغيرها.

وقد بين الله ذلك قولاً للمخلوقين حين قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾(٤).

فأخبر أن العمل من الحياة، ثم بين خلقه فقال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾(٥).

مع أن الجهمية، والمعطلة، إنما ينازعون أهل العلم على قول الله، أن الله يتكلم، وإن تكلم فكلامه مخلوق، فقالوا: إن القرآن بعلم الله مخلوق، فلم يميزوا بين تلاوة العباد، وبين المقروء.

وقد رفع أبو بكر صوته بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾»(٦)(٧).

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى.

(٢) الآية ٢٩ من سورة الجاثية.

(٣) الآيتان ٧، ٨ من سورة الزلزلة.

(٤) الآية ٢ من سورة الملك.

(٥) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الملك.

(٦) جزء من الآية ٢٨ من سورة غافر.

(٧) «خلق أفعال العباد» (٧٤-٧٥).

يعني: أن الصوت الذي صوَّت به أبو بكر ورفعه هو من عمله وصفته، أما المصوت بـه فهي آية من كتاب الله، وهو كلام الله، فيجب التفريق بين ما هو فعل العبد وصفته، وبين ما هو من فعل الرب وصفته.

وبهذا يتضح مراد البخاري، وأنه ليس كما ذكر الحافظ، وابن بطال، والغريب أنه ذكر عن ابن المنير ما هو الصواب، ولم يقتنع به فيما يظهر.

قال ابن المنير: «قصد البخاري الإشارة إلى النكتة التي كانت سبب محنته، حيث قيل عنه: إنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الخلق تتصف بالسر والجهر، وذلك يستدعي كونها مخلوقة».

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، ثم قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، تنبيه على أن قولهم مخلوق، وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ يعني: بقراءتك، دل على أنها فعله، وقوله: «من لم يتغن بالقرآن» فأضاف التغني إليه، دل على أن القراءة فعل القارىء»[1].

قوله: «يتخافتون»: يتسارون، بيان لقوله تعالى: ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾[2] بأن المخافتة من الإسرار، وذلك من أعمالهم.

□□□

(١) «المتواري» (ص٤٢٨).

(٢) الآية ١٠٣ من سورة طه.

١٥١- قال: «حدثني عَمْرُو بنُ زُرارَةَ، عن هُشَيْمٍ، أخبرنا أبوبِشْر، عن سعيدِ ابن جُبَيْرٍ عن ابنِ عباسٍ - رضيَ اللهُ عنهما - في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالَ: نَزَلَتْ، ورسولُ اللهِ مُخْتَفٍ بمكةَ، فكانَ إذا صَلَّى بأصحابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بالقرآن، فإذا سَمِعَهُ المشركونَ سَبُّوا القرآنَ، ومَنْ أنزلَهُ، ومنْ جاءَ به، فقالَ اللهُ لنبيهِ -ﷺ-: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآنَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عنْ أصحابكَ فلا تُسْمِعُهُمْ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾.

- حدثنا عُبَيْدُ بنُ إسماعيلَ، حدثنا أبو أسامةَ عن هشام عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها- قالتْ: نزلتْ هذه الآيةُ : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدعاءِ.

فقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ واضح في أن المقصود القراءة، وأن الجهر فعل النبي -ﷺ-، وكذا الإخفات الذي نهي عنه، ومثلهما التوسط بينهما، كل ذلك فعله، فلذلك صح أن ينهى عنه، ولا يقول أحد بأن النهي عن القرآن، أو عن الصلاة.

وبيَّنه بقوله: «فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبّوا القرآن، ومن جاء به» فنهاه الله -تعالى- عن رفع الصوت به؛ لئلا يسبه المشركون، كما نهاه عن الإسرار به؛ لئلا يخفى على أصحابه، وأمره بأن يقرأه قراءة يسمع بها أصحابه الذين معه، ولا يسمعه المشركون الذين خارج البيت الذي هو فيه، وهذا معنى قوله: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

فتبين بهذا أن القراءة غير المقروء، وأن الصوت غير المصوت به، وأن الجهر والإسرار، والتوسط بينهما، كل ذلك فعل القارئ، التالي، وهو من عمله الذي يؤمر به، أو ينهى عنه، ويجازى عليه.

أما المقروء، والمصوت به، فهو قول من كان ذلك القول له، وصفته.

فإن كان من القرآن، فهو قول الله -تعالى-، وإن كان من غيره فهو قول ذلك الغير الذي قاله مبتدءاً.

وقول عائشة في الآية المذكورة: أنها نزلت في الدعاء، لا يخالف ما ذكره ابن عباس؛ لأن الآية تنزل في سبب معين، ويدخل في معناها غير ذلك المعين الذي نزلت من أجله.

وقد أمر الله -تعالى- بإخفاء الدعاء بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[2] مع أن القراءة والصلاة من دعاء العبادة.

ووجه الدليل من الآية واضح وبيِّن فيما سبق.

❑❑❑

(١) الآية ٥٥ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف.

١٥٢- قال: «حدثنا إسحاقُ، حدثنا أبو عاصمٍ، أخبرنا ابنُ جُرَيْجٍ، أخبرنا ابنُ شهابٍ، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرة، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «ليسَ منا مَنْ لم يَتَغَنَّ بالقرآنِ»، وزاد غيره «يَجْهَرْ بِهِ».

«ليس منا» يعني: من المسلمين، وهو وعيد لمن لم يفعل ذلك.

والأولى أن لا يتعرض لمثله بالتأويلات التي تخرج الكلام عن مراد المتكلم.

وسبق القول بأن الصواب في التغني أنه: تحسين الصوت وتزيينه بالقرآن.

وجاء الأمر به كما رواه المؤلف -رحمه الله- في «خلق أفعال العباد»، ورواه غيره، قال: «حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي عن الأعمش، سمع طلحة، عن عبدالرحمن بن عوسجة، عن البراء -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»[(١)].

وتفسير التغني بالجهر لا ينافي ما ذكرته؛ لأن السلف يفسرون الكلام ببعض ما دل عليه، ومقصودهم بهذا التفسير أن لا يدخل فيه ما يشبه الغناء، فإنه مكروه كراهة شديدة، أو محرم.

قال الكرماني: «لم يتغن به» أي: يجهر بقراءة القرآن، وقيل: يستغني به.

وأشار بالترجمة إلى أن تلاوة الناس تتصف بالجهر، والإسرار، وذلك يدل على أنها مخلوقة لله -تعالى-، وكذا قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ دليل على أن قولهم مخلوق، وكذا قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، يدل على أنها فعله، وكذا قوله: «من لم يتغن بالقرآن» أضاف الفعل إليه»[(٢)].

وقال أيضاً: «يجهر به» يتغنى، ومعناه: يجهر به بتحسين الصوت، وتحزينه وترقيقه، ويستحب ذلك ما لم تخرجه الألحان عن حد القراءة، فإن أفرط حتى زاد حرفاً، أو أخفى حرفاً، فهو حرام»[(٣)].

---

(١) (ص٧٨، ٨٢، ٨٣) من طرق عدة، وأحمد (٤/ ٢٨٣)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) «شرح الكرماني» (٢٥/ ٢١٩).

(٣) المصدر السابق (١٩/ ٣٠).

وقال الخطابي: «إن العرب كانت تولع بالغناء والنشيد في أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحب أن يكون هجِّيراهم مكان الغناء، فقال: ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1].

والشاهد من الحديث: أن التغني والجهر فعل العبد، وهو مخلوق.

وأما المتغنى به المجهور به، فهو كلام الله -تعالى-.

فتبين بذلك الفرق بين أفعال العباد، وأوصافهم، وأوصاف أعمالهم، وبين فعل الله، ووصفه، ومرادنا بفعله الذي هو وصفه، لا مفعوله كما هو اصطلاح الأشاعرة.

❐❐❐

(١) المصدر السابق (١٩/ ٣١).

قالَ: «بابُ قولِ النبيِّ -ﷺ-: «رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ، فهو يقومُ بِهِ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، ورَجُلٌ يقولُ: لو أوتيتُ مثلَ ما أُوتيَ هذا فعلتُ كما يَفْعَلُ. فَبَيَّنَ أنَّ قيامَهُ بالكتابِ هو فِعْلُهُ».

هذه الترجمة كالتي قبلها، وكذا الأبواب الآتية كلها في بيان أن أعمال العباد منوطة بهم يفعلونها باختيارهم، وأنها مخلوقة مثلهم.

وذلك مثل أصواتهم وتحريك ألسنتهم وشفاههم، وحفظهم ودعائهم، وتبليغهم، وصلاتهم، وكون الإنسان خلق هلوعاً جزوعاً منوعاً، فهذه أوصاف الإنسان، والله خلقه كذلك.

وكذا روايتهم، وبيانهم عن معاني كلام الله، وأصواتهم حسنها وقبيحها، ومهارتهم بالقرآن وغيره، وكتابتهم، وأدواتهم التي يكتبون بها، وغير ذلك كلها عمل لهم، وهم وأعمالهم مخلوقون.

فقوله: «آتاه الله القرآن» يعني: يسر له حفظه، وأقدره عليه، فحفظه وعمل به.

«فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار» أي: يتلوه ويتهجد به في الصلاة وخارجها أوقات الليل والنهار، وهذا من أفضل الأعمال التي يؤجر عليها العبد.

فدل ذلك على أن تلاوته القرآن من عمله وعمله مخلوق، فلزم أن تكون غير المتلو.

فالتلاوة عمل العبد، وفعله، والمتلو قول الرب تعالى وصفته، كما تقدم.

«ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل». هذا يبين أن التلاوة، والقيام بالقرآن فعل التالي، وعمله، كما هو واضح.

ولهذا قال: «لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل». قال البخاري - رحمه الله-: «فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله».

وذكر ما ذكره هنا في كتابه «خلق أفعال العباد» بنصه[1]، ثم ذكره بسنده، قال ابن المنير: «ثبت عن البخاري أنه قال: من نقل عني أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فقد كذب، وإنما قلت: إن أفعال العباد مخلوقة، قال: وقد قارب الإفصاح في هذه الترجمة بما رمز إليه في التي قبلها»[2].

قولُهُ: «وقالَ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾.

أي: من الدلالات الواضحة على وحدانية الله، ووجوب عبادته، ورجوعكم إليه للحساب والجزاء، وأن الأمر والملك كله له، خلق السماوات والأرض، وما فيهما من العجائب، والآيات الدالة على الله، ومن ذلك اختلاف ألستكم، أي: أصواتكم بحيث لا يلتبس صوت واحد بآخر على كثرتهم، وكذا اختلاف اللغات، واختلاف الألوان، فهذا بشرته بيضاء، وهذا سوداء، وبين ذلك.

والمقصود أن إضافة الألسنة إلى الناس يدل على أنها أعمالهم وأوصافهم، فإذا قرأ القارىء كلام الله -تعالى- فالصوت صوت القارىء، والكلام كلام الباري.

فكما أن الألوان صفتهم، فكذلك النطق، والتكلم، والتصويت.

قال في «خلق أفعال العباد»، بعد أن ذكر هذه الآية: «فمنها العربي، ومنها العجمي، فذكر اختلاف الألسنة والألوان، وهو كلام العباد».

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

قولُهُ: «وقالَ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾».

(١) (ص١١٨) تحقيق عميرة و (ص١٩٦) بدر.

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٠٣).

(٣) (ص١٩٥-١٩٦).

قال الحافظ: «الآية الأولى: المراد منها اختلاف ألسنتكم؛ لأنها تشمل الكلام كله، فتدخل القراءة، وأما الثانية فعموم فعل الخير يتناول قراءة القرآن والذكر، والدعاء، وغير ذلك، فدل على أن القراءة فعل القارىء»[1].

وقال المصنف في «خلق أفعال العباد» ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾، فأثبت الخير منهم فعلاً»[2].

يعني: أن الله -تعالى- أمر عباده أن يفعلوا الخير، فدل على أن ذلك فعلهم، ومن فعل الخير: قراءتهم القرآن، وذكرهم لله -تعالى-، ودعاؤهم إياه، فالقراءة والذكر والدعاء فعل لهم يثابون عليه، كما تقدم.

□□□

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٠٢).

(٢) (ص١٩٧).

١٥٣- قال: «حدثنا قُتَيْبَةُ، حدثنا جَرِيرٌ، عن الأَعْمَش، عن أبي صالح، عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ الله -ﷺ-: «لا تَحاسُدَ إلا في اثنتين: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ، فهو يَتْلُوهُ آناءَ الليل، وآناءَ النهار، فهو يقولُ: لو أُوتيتُ مثل ما أُوتيَ هذا، لفعلتُ كما يفعلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فهو يُنْفِقُهُ في حَقِّهِ فيقولُ: لو أُوتيتُ مثلَ ما أُوتيَ عملتُ فيه مثلَ ما يَعْمَلُ».

قد ذكر هذا الحديث في فضائل القرآن بأتم من هذا اللفظ، ونصه:

«أن رسول الله -ﷺ- قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالاً، فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل».

وترجم له هناك بقوله: «باب اغتباط صاحب القرآن» فجعل هذا من الغبطة، وليس من الحسد، وتسميته حسداً من باب التجوز.

قال الحافظ: «معنى قوله: «لا تحاسد إلا في اثنتين» أي: لا رخصة في الحسد إلا في خصلتين، أو لا يحسن الحسد -إن حسن-، وأطلق الحسد مبالغة في الحث على تحصيل الخصلتين»[١].

وقال النووي: قال العلماء: الحسد قسمان: حقيقي، ومجازي، فالحقيقي: تمني زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرام بإجماع الأمة، مع النصوص الصحيحة.

وأما المجازي: فهو الغبطة، وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره، من غير زوالها عن صاحبها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة، وإن كانت طاعة فهي مستحبة، والمراد من الحديث لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين، وما في معناهما»[٢].

---

(١) «الفتح» (٩/ ٧٣).

(٢) «شرح مسلم» (٦/ ٩٧).

قوله: «آتاه الله القرآن» أي: منَّ عليه بحفظه، وهي من أعظم المنن، فإذا انضم إلى ذلك العمل به تمت نعمة الله، وذلك الذي قصد بقوله: «فهو يتلوه آناء الليل، وآناء النهار» ومعنى: يتلوه: يقرؤه، ويعمل به.

وآناء الليل والنهار: ساعاتهما، يعني: أنه يلازم ذلك في غالب أوقاتهما.

قوله: «فهو يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل» هذا هو الذي أطلق عليه بأنه حسد، وهو حسد جائز؛ لأنه يتمنى الخير من غير ضرر بالغير.

فهو لم يتمن زوال ما أوتي صاحب النعمة، كما يفعل إخوان الشياطين، ولكنه تمنى أن يكون مثله، قد أوتي القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار.

وكذلك الآخر الذي تمنى أن يكون له من المال مثل ما للمنفق ماله في وجوه الخير.

ولم يرد زوال النعمة عن ذلك المنفق.

والشاهد من الحديث قوله: «آتاه الله القرآن، فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار» فحفظ القرآن، وتلاوته، والقيام به، كل ذلك عمل الإنسان، وهو مخلوق، وأما القرآن المحفوظ في الصدور، والمتلو المقوم به فهو كلام الله -جل وعلا-.

١٥٤- قال: «حدثنا عليُّ بنُ عبدِالله، حدثنا سفيانُ، قالَ الزُّهْرِيُّ، عن سالمٍ، عن أبيهِ، عنِ النبيِّ -ﷺ- قالَ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القرآن، فهو يَتْلُوهُ آناءَ الليلِ، وآناءَ النهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فهو يُنفقهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ».

هذا الحديث كالذي قبله، فنكتفي بما تقدم.

❑❑❑

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾».

قال الكرماني: «لا بد في الرسالة من ثلاثة أمور: المرسِل، والمرسَل إليه، والرسول، ولكل منهم أمرٌ، للمرسل الإرسال، وللرسول التبليغ، وللمرسَل إليه القبول والتسليم»[1].

قلت: بقي أمر رابع، وهو الرسالة التي يرسل بها الرسول، وهي أوامر الله ونواهيه وحكمه لمن أرسل إليهم، أما الإرسال فهو تكليف الرسول بالرسالة، واكتفى عن ذلك بقوله: «وللمرسل إليه القبول والتسليم»؛ لأن القبول والتسليم يكون للرسالة.

قال ابن جرير: «أمر الله نبيه بإبلاغ أهل الكتاب والمشركين ما أنزل الله عليه فيهم، من معايبهم، وما أمرهم به، ونهاهم عنه، وأن لا يشعر نفسه حذراً منهم أن يصيبوه بمكروه إذا قام فيهم بأمر الله، وأن لا يتقي إلا الله، فإنه كافيه كل أحد، ودافع عنه كل مكروه.

وأعلمه أنه إن قصر عن إبلاغ شيء مما أنزله إليه فيهم فهو من عظيم ما ارتكب من الذنب، بمنزلة ما لو لم يبلغ من الرسالة شيئاً» ثم روى عن ابن عباس: «إن كتمت آية مما أنزل عليك من ربك لم تبلغ رسالاتي»[2].

ومقصوده بهذا الباب: أن إبلاغ الرسالة من الرسول فعل له يثيبه الله عليه، وأن الكلام الذي جاء به يبلغه صفة لربه، وأنه ليس فيما بلغه ما يدل على قول الذين يقولون بخلقه، أو خلق شيء منه.

قال في «خلق أفعال العباد»، بعد ما ذكر قوله ﷺ: «ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي».

---

(١) «شرح الكرماني» للبخاري (٢٥/ ٢٢١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٦٧) ملخصاً.

فبين النبي -ﷺ- أن الإبلاغ منه، وأن كلام الله من ربه، ولم يذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا، وهم الذين أدوا الكتاب والسنة بعد النبي -ﷺ- قرناً بعد قرن»[1] يعني: أنه ليس فيما بلغه النبي -ﷺ- شيء مما يقوله الجهمية وأشباههم.

وقال: «ما جاء في قول الله -عز وجل-:﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾، وقول النبي -ﷺ- «بلغوا عني ولو آية»، «وليبلغ الشاهد الغائب»، وأن الوحي قد انقطع، ثم ذكر حديث عائشة «من زعم أن محمداً كتم شيئاً من الوحي، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

وقال صالح: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴾[2]، وقال شعيب: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾[4].

فبين أن الرسالة من الله، والإبلاغ من الرسل، ثم روى خطبته ﷺ يوم النحر، وفيها: «اللهم هل بلغت؟ فليبلغ الشاهد الغائب، ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وقال ابن عباس: «والذي نفسي بيده إنها الوصية إلى أمته».

وروي عنه أيضاً قال: قال رسول الله -ﷺ-: «ما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولكن بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه إليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»[5].

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٦٠).

(٢) الآية ٧٩ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٩٣ من سورة الأعراف.

(٤) الآية ٢٨ من سورة الجن.

(٥) «خلق أفعال العباد» (ص١٢٥-١٣٨).

وذكر أحاديث في هذا المعنى.

وقال أيضاً: «وقال الله -عز وجل-: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فذلك كله مما أمر به، ولذلك قال: «وأقيموا الصلاة» فالصلاة بجملتها طاعة الله، وقراءة القرآن من جملة الصلاة، فالصلاة طاعة الله، والأمر بالصلاة قرآن، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء على اللسان، والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق، وما قرئ وحفظ وكتب ليس بمخلوق.

ومن الدليل عليه أن الناس يكتبون «الله» ويحفظونه، ويدعونه، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق، ولا شك فيه.

والخالق الله بصفته.

ويقال له: أترى القرآن في المصحف؟ فإن قال: نعم، فقد زعم أن من صفات الله ما يرى، وهذا رد لقول الله -تعالى-: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في الدنيا ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

وإن قال: يرى كتابة القرآن، فقد رجع إلى الحق.

ويقال له: هل تدرك الأبصار إلا اللون؟ فإن قال: لا[١]. قيل له: وهل يكون اللون إلا في الجسم؟ فإن قال: نعم، فقد زعم أن القرآن جسم يرى»[٢].

وقال أيضاً: «قال الله -تعالى-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، فذكر إبلاغ ما أنزل إليه، ثم ذكر فعل تبليغ الرسالة، فقال: «إن لم تفعل فما بلغت رسالته» فسمى تبليغه الرسالة وتركه فعلاً.

فلا يمكن لأحد أن يقول على الرسول: «إنه لم يفعل ما أمر به من الرسالة».

ثم روى عن ابن عباس، أن النبي -ﷺ- خطب الناس يوم النحر ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟».

---

(١) أي: اعترف بأن الأبصار لا تدرك إلا اللون.

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص١١٥-١١٦).

قال ابن عباس: والذي نفسي بيده إنها الوصية إلى أمته، فليبلغ الشاهد الغائب. وذكر حديث أبي الأحوص، عن النبي -ﷺ- قال: «وأتتني رسالة من ربي، فضقت بها ذرعاً، ورأيت أن الناس سيكذبونني، فقيل لي: لتفعلن، أو لنفعلن بك»[1] يعني: أنه إذا بلغ فقد فعل ما أمر به، وتلاوته ما أنزل عليه من تبليغه، وذلك فعله.

ومقصوده من الآية: أن تبليغ الرسالة، وعدمه، كلاهما فعل للعبد وهو مخلوق، والرسالة هي أمر المرسِل، ونهيه وقوله، وهو الله -تعالى-، وذلك ليس بمخلوق.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾أي: تفعل التبليغ لعموم ما أنزله الله إليك، ولا تذر منه شيئاً، وهذا يدل على بطلان ما لم يبلغه من الأعمال، والاعتقادات وغيرها؛ لأنه ﷺ بلغ كل ما أنزله الله عليه.

وقال الحافظ: «احتج أحمد بهذه الآية على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لم يرد في شيء من القرآن، ولا من الأحاديث أنه مخلوق، ولا ما يدل على ذلك.

وذكر عن الحسن البصري أنه قال: «لو كان ما يقول الجعد[2] حقا لبلغه النبي -ﷺ-»[3].

قولُهُ: «وقالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللهِ -عز وجل- الرسالةُ، وعلى الرسولِ -ﷺ- البلاغُ، وعلينا التسليمُ».

يعني: أن الرسالة من الله أمراً وقولاً له، وذلك مما يضاف إليه فعلاً ووصفاً، وعلى الرسول البلاغ، وهو: إيصال أمر الله وقوله إلى الناس، وإفهامهم إياه، وأمرهم بقبوله، وترغيبهم على ذلك، وتخويفهم من عذاب الله إن لم يقبلوا رسالاته

---

(١) المرجع نفسه (٧٥-٧٦).

(٢) هو: الجعد بن درهم، أول من أنكر صفات الله -تعالى- ومحبته لعباده، فقتله خالد بن عبدالله القسري، أحد قواد بني أمية سنة (٣٢).

(٣) في «الجامع».

ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه، وهذا عمل الرسول، وفعله الذي يثيبه الله عليه، أو يعاقبه على تركه.

«وعلينا التسليم» أي: التسليم للرسالة بقبولها والانقياد لها، وعدم المعارضة، والعمل بفعل المأمور، واجتناب المحظور، وهذا فعل العباد الذي عليه يترتب الثواب، أو العقاب عند المخالفة.

قال الحافظ: «أخرجه الحميدي في النوادر، ومن طريقه الخطيب[1] قال الحميدي: «حدثنا سفيان، قال: قال رجل للزهري: يا أبا بكر، قول النبي -ﷺ-: «ليس منا من شق الجيوب» ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم». وأخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الأدب»[2]، ورواه ابن أبي عاصم في الزهد، ولفظه: «أخبرنا دحيم، أخبرنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، أن رسول الله -ﷺ- قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» قال الأوزاعي: قلت للزهري: يا أبا بكر، ما هذا الحديث؟ قال: فقال: من الله العلم، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[3].

قولُهُ: «وقالَ: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

قال ابن الجوزي: فيه خمسة أقوال:

أحدها: ليعلم محمد -ﷺ- أن جبريل قد بلغ إليه، قاله ابن جبير.

الثاني: ليعلم محمد -ﷺ- أن الرسل قبله قد بلغوا رسالات ربهم، وأن الله قد حفظهم، ودفع عنهم، قاله قتادة[4].

الثالث: ليعلم مكذبو الرسل أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، قاله مجاهد.

---

(١) في «الجامع».

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٠٤).

(٣) «كتاب الزهد» لابن أبي عاصم (ص٣٣-٣٤).

(٤) اختار هذا القول ابن جرير.

الرابع: ليعلم الله -عز وجل- ذلك موجوداً ظاهراً يجب به الثواب، فهو كقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾[1].

الخامس: ليعلم النبي -ﷺ- أن الرسل قد أتته، ولم تصل إلى غيره، ذكره الزجاج[2].

قلت: هذا بمعنى الأول، ومعناه: ليعلم محمد -ﷺ- أن الملائكة التي تنزل بالوحي، أو يحرسون من ينزل به من استراق الشياطين، أنهم جاءوا بما أرسلوا به كاملاً.

والقول الثاني هو الأولى، والأقرب، ويليه الرابع، ولكن وجوب الثواب وجوب تفضل وكرم من الله -تعالى-، والقول الثالث داخل في معنى الآية، فإن الله -تعالى- يؤيد رسله بالآيات الدالة على صدقهم، حتى يتيقن قومهم صدقهم.

والمراد من الآية هو ما دلت عليه الآية الأولى، فإن الرسل لهم أفعال وأعمال يعملونها، وتطلب منهم، وتضاف إليهم على أنها أعمالهم حقيقة، ولا تشتبه أعمالهم وأفعالهم بأفعال الله وأوصافه تعالى.

قولُهُ: «وقالَ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾».

المراد منها ظاهر مما سبق قبلها، كما أوضحناه.

قولُهُ: «وقالَ كَعْبُ بنُ مالكٍ حينَ تَخَلَّفَ عن النبيِّ -ﷺ-: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾».

قال الحافظ: تقدم هذا مسنداً في تفسير براءة في حديثه الطويل، وفي آخره. قال الله -تعالى-: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ ومراد البخاري: تسمية ذلك عملاً[3].

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران.

(٢) «زاد المسير» (٨/ ٣٨٦).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥٠٤).

قال الكرماني: «ومناسبته للترجمة: التفويض، والانقياد، والتسليم، ولا ينبغي لأحد أن يزكي عمله، بل يفوض إلى الله سبحانه وتعالى»[1].

قال بعض المتأخرين: موضع احتجاج البخاري: «وقال كعب حين تخلف»؛ لأن القول والتخلف فعل كعب» وهذا غير صحيح؛ لأنه لا خصوص لقول كعب، بل مثل كل قول، وإنما احتج بقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. فهو نص في أن لهم عملاً يجازون عليه بالثواب أو العقاب.

قولُهُ: «**وقالتْ عائشةُ: إذا أعْجَبَكَ حُسْنُ عَمَلِ امرئٍ، فَقُلْ:** ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، **ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ أَحَدٌ**».

مقصوده: أن العمل يضاف إلى العامل فعلاً له، مثل الصلاة، والقراءة، والصوم، والحفظ، وهو مخلوق؛ لأنه عمل مخلوق.

أما الأمر بالصلاة والصوم فهو من الله، وليس بمخلوق.

وكذا القراءة هي فعل القارىء وفعله مخلوق، وما يقرؤه ليس مخلوقاً، بل هو كلام الله تعالى.

ومعنى قولها: «ولا يستخفنك أحد» أي: لا تغتر بعمل أحد يظهر لك منه الخير والصلاح، فتثني وتمدح، فإنه عرضة للانتكاس، ما لم تره واقفاً عند حدود الشرع، متأسياً بالأبرار، متبعاً لسنة رسول الله -ﷺ-.

وقد روى المؤلف هذا الأثر مبسوطاً في كتابه: «خلق أفعال العباد»، حيث قال: «حدثني يحيى بن بكير، حدثني الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة -رضي الله عنها-، وذكرت الذي كان من شأن عثمان بن عفان: «وددت أني كنت نسياً منسياً، فوالله ما أحببت أن ينتهك من عثمان أمر قط إلا وقد انتهك مني مثله، حتى والله لو أحببت قتله، لقتلت، يا عبيدالله بن عدي، لا يغرنك أحد بعد الذي تعلم، فوالله ما احتقرت أعمال أصحاب النبي -ﷺ- حتى تهجم النفر الذين طعنوا في عثمان، فقالوا قولاً لا يحسن مثله، وقرءوا قراءة لا يحسن مثلها،

---

(١) «شرح الكرماني» (٢٥/).

وصلوا صلاة لا يصلى مثلها، فلما تدبرت الصنيع إذ هم والله ما يقاربون أعمال أصحاب النبي -ﷺ-.

فإذا أعجبك حسن قول امرئ فقل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فلا يستخفنك أحد»[1].

يعني أن أولئك الخوارج كانوا يجتهدون اجتهاداً في العبادة ما اجتهده أصحاب النبي -ﷺ-، ولكنهم يرتكبون العظائم والجرائم، وهذا بمعنى قول الرسول -ﷺ- في وصفهم: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصومه مع صومهم».

قال الحافظ: «وأخرجه ابن أبي حاتم، من رواية يونس بن أبي يزيد، عن الزهري، أخبرني عروة، أن عائشة كانت تقول: «احتقرت أعمال أصحاب النبي -ﷺ- حين نجم القراء الذين طعنوا على عثمان... فذكر نحوه، وفيه: «فوالله ما يقاربون عمل أصحاب رسول الله -ﷺ- فإذا أعجبك حسن عمل امرئ منهم فقل: اعملوا» الخ[2].

والمراد بالقراء: الخوارج الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان، وأنكروا عليه أشياء الحق فيها معه، وبعضها هو معذور فيها، فاقتحموا عليه بيته فقتلوه، وفتحوا بذلك على الأمة فتنة لا تزال الأمة تصلى نارها.

قولُهُ: «وقالَ مَعْمَرٌ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ هذا القرآنُ، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بَيانٌ ودِلالةٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ هذا حُكْمُ اللهِ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شَكَّ.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني: هذهِ أعْلامُ القرآنِ، ومِثْلُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ يعني: بِكُمْ».

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٥٦).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٠٥).

معمر هو: ابن المثنى، أبو عبيدة، قال الحافظ: «ومناسبة الآية لما تقدم، من جهة أن الهداية نوع من التبليغ»[1] يعني: الهداية المضافة إلى الرسول -ﷺ- في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾.

وأقول: يجوز أنه أراد: أن الهدى في القرآن، وما خالفه فهو ضلال.

وأن المتقين إذا حصل بينهم خلاف يرجعون إلى القرآن، فيحصلون على الهدى، وقد أوضح الله -تعالى- في القرآن أن أعمال العباد مخلوقة، فمن خالف ذلك ضل في هذه المسألة، كما أن هذا القرآن مما جاءنا به الرسول -ﷺ- وبلغنا إياه.

ولهذا قال في «تفسيره»: «بيان ودلالة» أي: مبين للحق، ودال عليه، كما أنه مبين للباطل، ومحذر منه.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، يعني: هذا الكتاب الذي بين أيديكم تقرءونه، فيه الهدى لمن اتبعه واتقى، وبين أن الإشارة المستعملة للبعيد، قصد بها القريب، على خلاف المعتاد فيها.

وبين أن هـذا يستعمـل أحيانـاً، فمثل له بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا حكم الله الذي حكم به بينكم.

ثم فسر قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأنه: لا شك فيه، أي: في هدايته ودلالته على الحق، فمن اهتدى به فهو المهتدي، ومن جانبه وترك ما دل عليه فهو الضال.

ثم ذكر ما هو نظير ذلك في الإشارة إلى البعيد، والمراد القريب. وهو قولـه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾. قال: يعني: هذه أعلام القرآن، أي: دلائله وبيناته الدالة على الصراط المستقيم، وهي الفارقة بين الحق والباطل، ثم قال: «ومثله» أي: ومثل هذا الاستعمال بالإشارة إلى القريب بما هو للبعيـد.

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٠٦).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ يعني: بكم، أي: أن الضمير الذي جعل للغائب، قصد به في هذه الآية الحاضر، فيكون مثل الإشارة للقريب بما هو موضوع للبعيد، وهذا سائغ في اللغة.

وعلماء البلاغة يقولون: إذا خرج اللفظ عما وضع له، فمقصود به نكتة بيانية، فالإشارة التي للبعيد إذا استعملت للقريب، دل على علو مكانة المشار إليه ورفعته.

قولُهُ: «وقالَ أنسٌ: بَعَثَ النبيُّ -ﷺ- خالَهُ حَراماً إلى قَوْمٍ. وقالَ أَتُؤْمِنُوني أُبَلِّغُ رسالةَ رسولِ اللهِ -ﷺ-؟ **فجعلَ يُحَدِّثُهُمْ».**

هذا طرف من حديث أخرجه في عدة أماكن من كتابه الصحيح، منها في الجهاد في أبواب متعددة، وفي أحدها قال: «**بعث النبي** -ﷺ- أقواماً من بني سليم إلى بني عامر، في سبعين، فلما قدموا قال لهم خالي: أتقدمكم، فإن أمنوني حتى أبلغهم عن **رسول** الله -ﷺ- وإلا كنتم مني قريباً، فتقدم فأمنوه، فبينما يحدثهم عن النبي -ﷺ- إذ أومئوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلاً أعرج صعد الجبل، فأخبر جبريل -عليه السلام- النبي -ﷺ- أنهم قد لقوا ربهم، فرضي عنهم، وأرضاهم، فكنا نقرأ: بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا، وأرضانا. ثم نسخ بعد، فدعا عليهم أربعين صباحاً، على رعل، وذكوان، وبني لحيان، وبني عصية، الذين عصوا الله ورسوله»[(١)].

والمقصود أن تبليغ الرسالة عمل الرسول، ونقل قول المرسل إلى المرسل إليه، فلذلك قال: «أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله -ﷺ-؟ فجعل يحدثهم».

---

(١) انظر «البخاري» (٤/ ٢٢).

فحديثه إياهم عن رسول الله -ﷺ- هو إبلاغهم الرسالة، وهو ما فيه أمره ونهيه مما هو شرع لله الذي كلف العباد به.

والله -تعالى- كلف رسله إبلاغ قومهم، وعلى ذلك يجزيهم ما يستحقون من الأجر، والجزاء يكون على عمل العامل.

❑❑❑

١٥٥- قال: «حدثنـا الفضلُ بنُ يعقوبَ، حدثنا عبدُاللهِ بنُ جعفرٍ الرَّقِّيُّ، حدثنا المعتمرُ بنُ سليمانَ، حدثنا سعيدُ بنُ عبيدِاللهِ الثقفيُّ، حدثنا بكرُ بنُ عبدِاللهِ المُزَنِيُّ، وزيادُ بن جُبَيْرِ بن حَيَّةَ، عن جبيرِ بنِ حَيَّةَ، قالَ المغيرةُ: أخبرنا نبينـا -ﷺ- عنْ رسالةِ رَبِّنا، أنه مَنْ قُتِلَ مِنّا صارَ إلى الجنةِ».

هذا قطعة من حديث طويل يخاطب به المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- ترجمان عامل كسرى، لما سأله: ما أنتم؟ قال: «نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد، وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد الشجر والحجر، فبينا نحن كذلك، إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين -تعالى ذكره وجلت عظمته- إلينا نبياً من أنفسنا، نعرف أباه وأمه، فأمرنا نبينا، رسول ربنا أن نقاتلكم، حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا -ﷺ- عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة، في نعيم لم ير مثلها، ومن بقي منا ملك رقابكم»[1].

والمقصود قوله: «أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا» فهذا من الإبلاغ الذي أبلغهم، وكل ما أخبرهم به من أمر، أو نهي، أو وعد، أو وعيد، أو قصص، عن الأنبياء وأممهم، أو غيرهم، وغير ذلك، فإنه من إبلاغ الرسالة التي أرسل بها.

ودل قوله: «عن رسالة ربنا» أن الرسالة تكون بالكلام الذي يخاطب به المرسل الرسـول، وإبـلاغ المرسل إليهـم ذلك الكـلام هـو إبلاغ الرسالـة، وإبلاغ الرسالة فعل الرسول وقوله وعمله، وهو غير الرسالة، وهو مخلـوق.

فالرسالة قول المرسل، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وإخباره عن جزائه وغير ذلك، وهذا ليس فعلاً للرسول، بل كلام الله بأمره ونهيه.

□□□

(١) انظر «الصحيح» (٤/١١٨) باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب.

١٥٦- قال: «حدثنا محمدُ بنُ يوسفَ، حدثنا سفيانُ، عن إسماعيلَ، عن الشَّعْبِيِّ، عن مَسْرُوقٍ، عن عائشةَ -رضيَ اللهُ عنها- قالتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أنَّ محمداً -ﷺ- كتم شيئاً.

- وقال محمد: حدثنا أبو عامرٍ العَقَدِيُّ، حدثنا شُعْبَةُ، عن إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ عن الشعبيِّ، عن مسروقٍ، عن عائشةَ -رضيَ اللهُ عنها- قالتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أنْ النبيَّ -ﷺ- كتم شيئاً منَ الوحي، فلا تُصَدِّقْهُ، إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

هذا الحديث تقدم بعضه في باب قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾.

وقولها: «فلا تصدقه» يعني: أن من زعم ذلك فهو كاذب، ولا يكفي أنه لا يصدق، بل لا يصح إسلامه، ويجب تعريفه أن الرسول -ﷺ- بلغ رسالة ربه فإن اعترف بذلك وآمن به وإلا قتل مرتداً.

ومقصودها -رضي الله عنها-: أن الرسول -ﷺ- بلغ جميع ما يلزم الأمة في دينها، وما يصلحها وينفعها، ولم يترك شيئاً مما ينبغي العمل به أو علمه واعتقاده إلا وأخبر به وبلغه كما أمر.

فكل ما لم يخبر به أو يأمر به أمته فليس من رسالته، وهو بدعة منكرة.

فيجب الوقوف مع ما جاء به من الكتاب والسنة، ولا بد أنه ﷺ امتثل ما أمره الله به من إبلاغ الرسالة قولاً وعملاً، فبلغها على الوجه الأتم الأكمل.

وسبق أن إبلاغ الرسالة من فعله وقوله وعمله، وفعله وعمله مخلوق، فلا يلتبس ذلك بقول الله وكلامه الذي هو الرسالة، فهذا صفة الله، والإبلاغ فعل الرسول، وهذا التفريق هو ما قصده الإمام البخاري -رحمه الله-.

□□□

١٥٧- قال: «حدثنا قُتَيْبَةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا جَرِيرٌ، عن الأَعْمَش، عن أبي وائِلٍ، عن عَمْرو بنِ شُرَحْبِيلٍ، قالَ: قالَ عبدُالله: قالَ رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الذنبِ أكبرُ عندَ اللهِ تعالى؟ قالَ: أنْ تدعوَ للهِ نِداً وهو خَلَقَكَ، قالَ: ثم أيٌّ؟ قالَ: ثم أنْ تَقْتُلَ ولدَكَ أنْ يَطْعَمَ معكَ، قال: ثم أيٌّ؟ قالَ: أنْ تُزاني حَلِيلَةَ جارِكَ.

فأنزلَ اللهُ تصديقَها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية.

تقدم الكلام على هذا الحديث، ومقصوده هنا أن ما بلغه الرسول -ﷺ- أمته، سواء كان من قوله الذي هو سنته، أو مما أنزله الله عليه قولاً لله -تعالى-، فإن ذلك كله من تبليغ الرسالة، فحين أخبر السائل بما هو أعظم الذنوب، أنزل الله عليه تصديق ما قاله من كلام الله الذي تعبد عباده بتلاوته، مع أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما عن الوحي الذي يوحيه الله إليه.

قال الحافظ[1]: «مناسبة هذا الحديث للترجمة أن التبليغ على نوعين:

أحدهما -وهو الأصل-: أن يبلغه بعينه، وهو خاص بما يتعبد بتلاوته، وهو القرآن.

وثانيهما: أن يبلغ ما يستنبط من أصول ما تقدم إنزاله، فينزل عليه موافقته فيما استنبطه، إما بنصه، وإما بما يدل على موافقته بطريق الأولى، كهذه الآية، فإنها اشتملت على الوعيد الشديد في حق من أشرك، وهي مطابقة للنص، وفي حق من قتل النفس بغير حق وهي مطابقة للحديث بطريق الأولى، لأن القتل بغير حق وإن كان عظيماً، لكن قتل الولد أشد قبحاً من قتل من ليس بولد للقاتل، وكذا القول في الزناة، فإن الزنا بحليلة الجار أعظم قبحاً من مطلق الزنا.

ويحتمل أن يكون نزول هذه الآية سابقاً على إخباره ﷺ بما أخبر به، لكن لم يسمعها الصحابي إلا بعد ذلك.

---

(١) أصل الكلام للكرماني. انظر شرحه (٢٥/ ٢٢٤)، ولكن الحافظ تصرف فيه.

ويحتمل أن يكون كل من الأمور الثلاثة[1] نزل تعظيم الإثم فيه سابقاً، ولكن اختصت هذه الآية بمجموع الثلاثة في سياق واحد مع الاقتصار عليها، فيكون المراد بالتصديق: الموافقة في الاقتصار عليها.

فعلى هذا فمطابقة الحديث للترجمة ظاهرة جداً، والله أعلم[2].

«واستدل أبو المظفر ابن السمعاني بآيات الباب وأحاديثه على فساد طريقة المتكلمين في تقسيم الأشياء إلى جسم وجوهر وعرض، وقالوا: الجسم: ما اجتمع من الافتراق، والجوهر: ما حمل العرض، والعرض: ما لا يقوم بنفسه، وجعلوا الروح من الأعراض، وردوا الأخبار في خلق الروح قبل الجسد، والعقل قبل الخلق[3]، واعتمدوا على حدسهم، وما يؤدي إليه نظرهم، ثم يعرضون عليه النصوص، فما وافقه قبلوه، وما خالفه ردوه، ثم ساق الآيات ونظائرها مما فيه الأمر بالتبليغ.

قال: وكان مما أمر بتبليغه التوحيد، بل هو أصل ما أمر به، فلم يترك شيئاً من أمور الدين أصوله، وقواعده، وشرائعه إلا بلغه، ثم لم يدع إلى الاستدلال بما تمسكوا به من الجوهر والعرض، ولا يوجد عنه ولا عن أحد من أصحابه من ذلك حرف واحد فما فوقه.

فعرف بذلك أنهم ذهبوا خلاف مذهبهم، وسلكوا غير سبيلهم، بطريق محدث مخترع، لم يكن عليه رسول الله -ﷺ-، ولا أصحابه -رضي الله عنهم- .

ويلزم من سلوكه العود على السلف بالطعن، والقدح، ونسبتهم إلى قلة المعرفة، واشتباه الطرق.

فالحذر من الاشتغال بكلامهم، والاكتراث بمقالاتهم، فإنها سريعة التهافت، كثيرة التناقض، وما من كلام تسمعه لفرقة منهم إلا وتجد لخصومهم عليه كلاماً يوازنه، أو يقاربه، فكل بكل مقابل، وبعض ببعض معارض، وحسبك من قبيح ما

---

(١) يعني المذكور في الحديث، وهي الشرك، وقتل الولد خشية الفقر، والزنا بحليلة الجار.

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٠٧).

(٣) لم يصح بذلك خبر عن رسول الله -ﷺ-، بل الأخبار تدل على نقيضه.

يلزم من طريقتهم أنا إذا جرينا على ما قالوه، وألزمنا الناس بما ذكروه، لزم من ذلك تكفير العوام جميعاً؛ لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد.

ولو عرض عليهم هذا الطريق ما فهمه أكثرهم، فضلاً عن أن يصير منهم صاحب نظر.

وإنما غاية توحيدهم: التزام ما وجدوا عليه أئمتهم في عقائد الدين والعض عليها بالنواجذ، والمواظبة على وظائف العبادات، وملازمة الأذكار، بقلوب سليمة طاهرة عن الشبه والشكوك.

فتراهم لا يحيدون عما اعتقدوه، ولو قطعوا إرباً إرباً، فهنيئاً لهم هذا اليقين، وطوبى لهم هذه السلامة.

فإذا كفر هؤلاء، وهم السواد الأعظم، وجمهور الأمة، فما هذا إلا طي بساط الإسلام، وهدم منار الدين، والله المستعان»[١].

وتقدم بعض ما يتعلق بذلك في أول الكتاب.

□□□

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٠٧).

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾.

وقَوْلِ النبيِّ -ﷺ-: «أُعْطِيَ أهلُ التوراةِ، التوراةَ، فَعَمِلُوا بها، وأُعطي أهلُ الإنجيلِ، الإنجيلَ، فَعَمِلُوا به، وأُعْطِيتُمُ القرآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ».

قال الحافظ: «مراده بهذه الترجمة: أن يبين أن المراد بالتلاوة: القراءة، وقد فسرت التلاوة بالعمل، والعمل من فعل العامل»[1].

أقول: مراده: بيان أن التلاوة والقراءة فعل العباد، وأن المتلو غير التلاوة، والمقروء غير القراءة، كما سبق بيانه.

وهو ينوع الأدلة على ذلك ويكررها؛ ليتضح الأمر، ويتبين الحق؛ لأنه -رحمه الله- قد ابتلي بمن يقول: التلاوة هي المتلو، والقراءة هي المقروء، وذلك غير مخلوق، ورمي بأنه يقول: لفظي بالقرآن مخلوق. وقد صرح بأن ذلك كذب عليه.

قال شيخ الإسلام: «إذا قرأ الناس كلام الله، فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج بذلك عن كونه كلام الله، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً، أمراً يأمر به، أو خبراً يخبره، وليس هو كلام المبلغ له عن غيره، إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين.

وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله، فيقال: هذا كلام الله، مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم، وقد يشار إلى نفس صفة العبد، كحركته، وصوته، وقد يشار إليهما.

فالمشار إليه الأول غير مخلوق؛ لأنه كلام الله، والمشار إليه الثاني مخلوق؛ لأنه صفة العبد، والمشار إليه الثالث منه ما هو مخلوق، ومنه ما ليس بمخلوق.

وما يوجد في كلام الآدميين من نظير هذا، هو نظير صفة العبد، لا نظير صفة الرب.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٠٨).

وإذا قال قائل: القاف في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾كالقاف في قول الشاعر «قفا نبك من ذكرى حبيب؟».

قيل: ما تكلم الله به، وسمع منه، لا يماثل صفة المخلوقين.

ولكن إذا بلغنا كلام الله، فإنما نبلغه بصفاتنا، وصفاتنا مخلوقة، والمخلوق يماثل المخلوق.

وكلام المتكلم في نفسه واحد، فإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به، فإذا أنشد منشد قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه، مع أن أصوات المنشدين له تختلف، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد.

وكذلك من روى حديث النبي -ﷺ- بلفظه، كقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» كان هذا كلام رسول الله -ﷺ- لفظه ومعناه، ويقال لمن رواه: أدى الحديث بلفظه، وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول.

فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه، وإذا قرأه القراء فإنما يقرءونه بأصواتهم.

ولهذا قال الإمام أحمد، وغيره من أئمة السنة: من قال: اللفظ بالقرآن -أو لفظي بالقرآن- مخلوق، فهو جهمي، ومن قال: إنه غير مخلوق، فهو مبتدع؛ لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً، وذلك فعل العبد، ويراد به القول الذي يلفظ به اللافظ، وذلك كلام الله، لا كلام القارىء، فمن قال: إنه مخلوق فقد قال: إن الله لم يتكلم بهذا القرآن، وإن هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله.

ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول.

وأما صوت العبد فهو مخلوق، وقد صرح أحمد وغيره أن الصوت المسموع صوت العبد، ولم يقل قط: إن من قال: صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، وإنما قال: من قال: لفظي بالقرآن، والفرق بينهما واضح.

والفرق بين لفظ الكلام وصوت مبلغه فرق واضح.

فكـل مـن بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الغير، فإنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه، وهو إنما بلغه بصوت نفسه، لا بصوت ذلك الغير.

واللفظ، والقراءة، والتلاوة، والكتابة، ونحو ذلك، لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد، وما يحدث عنها من أصواتهم، وشكل المداد، ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالي، ويتلوه، ويلفظ به، ويكتبه، منع أحمد وغيره من إطلاق النفي والإثبات الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة، أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق»[1].

ومما يدل على أن التلاوة فعل التالي، وأنها غير المتلو: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[2]، أي: وأمرت أن أتلو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾[3] وغير ذلك من الآيات، فقد أمر الله عبده ورسوله بالتلاوة، كما أمره بالعبادة، فدل ذلك على أن التلاوة من العبادة التي يفعلها العبد، وتضاف إليه فعلاً له، ويثاب عليها، والأدلة على أن التلاوة غير المتلو كثيرة، قد ذكر المؤلف -رحمه الله- جملة كبيرة منها في كتابه: «خلق أفعال العباد»، بالإضافة إلى ما ذكره في هذا الكتاب.

فمن ذلك قوله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[4] وتقدم.

وحديث البراء بن عازب: سمعت النبي -ﷺ- يقرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، أو قراءة منه».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٧١-٧٥) ملخصاً.

(٢) الآيتان ٩١، ٩٢ من سورة النمل.

(٣) الآية ٢٧ من سورة الكهف.

(٤) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص١٥٩-١٦٠).

فالقارىء يكون حسن الصوت وقبيح الصوت؛ لأنه فعله، وقد جعل الله اختلاف ألسنة الناس وألوانهم من الآيات الدالة عليه -تعالى- وعلى وجوب عبادته وحده، ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يجوز الحلف بكلام أحد من الخلق؛ لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق، وكلامهم مخلوق.

قال البخاري -رحمه الله تعالى-: «وليس لأحد أن يحلف بالمخلوقين، ولا بأعمالهم ولا بكلامهم، ولا كلام الكفار والمنافقين، ولا بقول إبليس.

فمن حلف بقول المجوس أو نحوهم لم يلزمه حنث.

وإنما يذكر عن ابن مسعود، وإبراهيم، وعن النبي -ﷺ- مرسلاً: «من حلف بسورة من القرآن فعليه بكل آية منها كفارة»، فأما أصوات المخلوقين فليس فيها كفارة»[1].

وقال: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبيدالله، عن نافع، عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: كان في خاتم رسول الله -ﷺ-: «محمد رسول الله».

وقد كتب النبي -ﷺ- كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» وقرأه ترجمان قيصر، على قيصر وأصحابه.

ولا نشك في قراءة الكفار، وأهل الكتاب، أنها أعمالهم، وأما المقروء فهو كلام الله العزيز المنان، ليس بمخلوق، فمن حلف بأصوات قيصر، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله، لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله؛ لقول النبي -ﷺ-: «لا تحلفوا بغير الله».

وليس لأحد أن يحلف بالخواتيم، والدراهم البيض[2]، وألواح الصبيان التي يكتبونها، ثم يمحونها مرة بعد مرة، وإن حلف، فلا يمين عليه؛ لقوله عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾»[3].

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١٩٦) عقائد السلف.

(٢) يعني: التي كتب عليها اسم الله أو شيء من القرآن.

(٣) «خلق أفعال العباد» (١٩٧) عقائد السلف.

وقال: «فإن احتج محتج فقال: قد روي «إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». قيل له: لو صح هذا الخبر لم يكن لك فيه حجة؛ لأنه قال: «كلام الله»، ولم يقل: قول العباد المؤمنين والمنافقين، وأهل الكتاب، الذين يقرءون بسم الله الرحمن الرحيم، وهذا واضح بيِّن عند من كان عنده أدنى معرفة، أن القرآن غير المقروء.

وليس لكلام الفجرة وغيرهم فضل على كلام غيرهم، كفضل الخالق على المخلوق، وتبارك ربنا وتعالى وعز وجل عن صفة المخلوقين.

وإن قال قائل: فقد روي عن النبي -ﷺ-: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه».

قيل له: أليس القرآن خرج منه، فخروجه منه ليس كخروجه منك، إن كنت تفهم، مع أن هذا الخبر لا يصح؛ لإرساله وانقطاعه.

فإن قال: فإن لم يكن الذي يتكلم به العبد قرآناً، لِمَ تُجْزِهِ صلاته؟

قيل له: قال النبي -ﷺ-: «لا صلاة إلا بقراءة».

وقال أبو الدرداء: سئل النبي -ﷺ-: أفي كل صلاة قراءة؟

فقال: «نعم».

والقراءة هي التلاوة، والتلاوة غير المتلو، وقد بينه أبو هريرة، عن النبي -ﷺ- قال: «اقرءوا إن شئتم، يقول العبد: «الحمد لله رب العالمين» فيقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: «الرحمن الرحيم» يقول الله -عز وجل-: أثنى عليّ عبدي»، يقول العبد: «مالك يوم الدين» يقول الله: مجدني عبدي، يقول العبد: «إياك نعبد وإياك نستعين»، يقول الله: هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل».

فبيَّن أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد، وأن قول العبد غير كلام الله، هذا من العبد الدعاء والتضرع، ومن الله الأمر والإجابة.

وسئل النبي -ﷺ-: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت».

فذكر النبي -ﷺ- أن بعض الصلاة أطول من بعض، وأخف، وأن بعضهم يزيد على بعض في القراءة، وبعضهم ينقص، وليس في القرآن زيادة ولا نقصان،

وأما التلاوة فإنهم يتفاضلون في الكثرة والقلة، والزيادة والنقصان، وقد يقال: فلان حسن القراءة، أو رديء القراءة، ولا يقال حسن القرآن، أو رديء القرآن، وإنما نسب إلى العباد القراءة، لا القرآن؛ لأن القرآن كلام الله -عز وجل-، والقراءة فعل العبد، ولا يخفى هذا القدر إلا على من أعمى الله قلبه[1].

قال: «وأما قوله: «فهل يرجع إلى الله إلا باللفظ الذي تلفظ به»[2] فإن كان الذي تلفظ به قرآناً فهو كلام الله؟ قيل له: ما قولك: تلفظ به؟ فإن اللفظ غير الذي تلفظ به؛ لأنك تلفظت بالله، وليس الله هو لفظك، وكذلك تلفظ بصفة الله، تقول: الله، وليس قولك: الله، هو الصفة، وإنما تصف الموصوف، فأنت الواصف، والله الموصوف بكلامه، كالواصف الذي يصف بكلام غير الله، وأما الموصوف بصفته وكلامه فهو الله»[3].

يعني: أن الذي يقرأ كلام الله، فما يلفظ به هو كلام الله، وليس هو كلام القارىء، وإنما للقارىء حركة لسانه وشفتيه وصوته، وذلك فعله.

وإذا قرأ صفة الله في القرآن التي وصف الله بها نفسه، فليس القارىء هو الواصف لله -تعالى- وإنما يتلفظ بصفة الله التي قالها الله -تعالى- واصفاً بها نفسه.

«قال الضحاك: لم يحرم الله على بني إسرائيل طعاماً، وإنما حرموه على أنفسهم اتباعاً لأبيهم، ثم أضافوا تحريمه لله -عز وجل- فكذبهم الله -تعالى- فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾أي: قل يا محمد لهم: ائتوا بالتوراة، التي فيها التحريم والتحليل ﴿فَٱتْلُوهَآ ﴾ أي: فاقرءوها؛ حتى يتبين ما قلتم، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فيما ادعيتم، فلم يأتوا بها؛ خوفاً من الفضيحة»[4].

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١٩٩-٢٠٠).

(٢) يعني المحتج بقوله ﷺ: «إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه»، والعبد لا يرجع إلى الله إلا بعمله، فيكون لفظه بالقرآن عمله.

(٣) «خلق أفعال العباد» (ص٢٠٤).

(٤) «تفسير الخازن» (١/ ٣٨٢).

فالتلاوة في هذه الآية هي القراءة، وهي فعل العبد وعمله، والمتلو كتاب الله وكلامه.

قوله: «وقول النبي -ﷺ-: «أعطي أهل التوراة التوراة» إلى آخره، معنى «أعطي» هنا: أنزل عليهم، أي: أنزل الله التوراة على موسى، فعمل بها قومه، باتباعها وتلاوتها للتفهم والتعبد.

وأنزل الله الإنجيل على عيسى، فعمل به من شاء الله أن يعمل من النصارى بأن آمنوا به واتبعوه، وقرؤوه للفهم والعبادة.

ومثل ذلك أهل القرآن، ففي ذلك دليل على أن التلاوة من عمل العباد، وكسبهم، وأنها غير المتلو، كما تقدم إيضاح ذلك.

قولُهُ: «**وقالَ أبو رَزِينٍ: يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاوتِهِ: يَعْمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ**».

أبو رزين هو: مسعود بن مالك الأسدي الكوفي، من كبار التابعين.

ومعنى ذلك أن التلاوة، يراد بها القراءة كما سبق، ويراد بها الاتباع والعمل.

قال الراغب: «التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة»[1].

وقال الأزهري: «قال الليث: يقال: تلا يتلو، يعني: قرأ، قراءة، وتلا: إذا تبع، فهو تال، أي: تابع»[2].

«وقال أبو زيد في قوله -عز وجل-: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه.

وقال مجاهد: يعملون به حق عمله.

وقال ابن عباس: يتبعونه حق اتباعه، فيعملون به حق عمله.

---

(١) «المفردات» (ص٧٥).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣١٦).

وقال أبو عبيدة في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾ قال: ما تتكلم به، كقولك: يتلو فلان كتاب الله، أي: يقرؤه، ويتكلم به.

وقال عطاء: ﴿مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾: ما تحدث، وما تقص»[1].

فتبين بهذا أن التلاوة تطلق على القراءة، وعلى الاتباع، وإذا قيل: تلاه حق تلاوته، يكون المعنى: عمل به حق عمله، يعني: العمل الكامل والاتباع في كل ما جاء به.

قوله: «يقال: يُتلى: يُقرأ» هذا تفسير لقوله تعالى: ﴿أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقرأ عليهم.

قال ابن جرير: ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ يقرأ عليهم، وذكر بسنده إلى يحيى بن جعدة أن ناساً من المسلمين، أتوا نبي الله -ﷺ- بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود، فلما نظر فيها ألقاها، ثم قال: «كفى بها حماقة قوم -أو ضلالة قوم- أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم، إلى قوم غيرهم» فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾، والذي يتلى عليهم هو آيات الفرائض من المواريث وغيرها.

قال الحافظ: «هذا الذي ذكر البخاري هو كلام أبي عبيدة في كتاب مجاز القرآن. ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ يقرأ عليهم. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ ما كنت تقرأ كتاباً قبل القرآن»[3].

---

(١) المصدر المذكور (١٤/ ٣١٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٧)، وقال السيوطي: أخرجه الدارمي، وأبو داود في المراسيل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والإسماعيلي. انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٧١).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥٠٩).

أقول: الآية التي ذكرها البخاري لم يتكلم عليها أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن، وهذه التي ذكرها غير تلك، فكيف يقال: إن ما ذكره البخاري هو كلام أبي عبيدة؟ وإن كان نظيراً له فليس هو[(١)].

قولُهُ: «حَسَنُ التلاوةِ: حَسَنُ القراءةِ للقرآن».

يعني: أن التلاوة فعل العباد، وليس هي المتلو، ولهذا يوصف التالي بأنه حسن التلاوة، أو سيئها، ولا يجوز أن يوصف القرآن بذلك.

قال البخاري -رحمه الله-: «القراءة لا تكون إلا من الناس، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل، وكلامه قبل خلقه».

وسئل النبي -ﷺ-: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت» ثم ذكر ما تقدم قريباً[(٢)].

قولُهُ: «لا يَمَسُّهُ» لا يجدُ طَعْمَهُ ونَفْعَهُ إلا مَنْ آمنَ بالقرآن، ولا يَحْمِلُهُ بحقِّهِ إلا المُوقِنُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[(٣)].

يعني: أن الطهارة المذكورة في قوله -تعالى- ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾هي الطهارة من الشرك، والكفر، والغفلة والإعراض، ويتبع ذلك الذنوب.

قال الفراء: «ويقال: لا يمسه: لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون، من آمن به»[(٤)].

«وهذا من باب الاعتبار والقياس؛ لأنه إذا كان ورق المصحف لا يمسه إلا المطهرون، فمعانيه لا يهتدي بها إلا القلوب الطاهرة.

---

(١) انظر مجاز القرآن (٢/ ١١٦).

(٢) انظر «خلق أفعال العباد» (ص١٦٦) تحقيق بدر.

(٣) الآية ٥ من سورة الجمعة.

(٤) «معاني القرآن» (٣/ ١٣٠).

ومثل هذا قول النبي -ﷺ-: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب» فإذا كان الملك لا يدخل البيت الذي فيه كلب، فكذلك المعاني التي تحبها الملائكة لا تدخل القلب الذي فيه أخلاق الكلاب»[1].

قال الحافظ: «حاصل هذا التفسير، أن معنى: لا يمس القرآن: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به، وأيقن بأنه من عند الله، فهو المطهر من الكفر، ولا يحمله بحقه إلا المطهر من الجهل والشك، لا الغافل عنه الذي لا يعمل [به] فيكون كالحمار الذي يحمل ما لا يدريه»[2].

«وعلى القول بأن المراد بقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ هو اللوح المحفوظ، أو المصحف، فكما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر، فكذلك معاني القرآن لا يذوقها إلا القلب الطاهر، وهو قلب المتقي. وهذا قول طائفة من السلف»[3].

«والصحيح أنه يجب الوضوء لمس المصحف، وهو مذهب الأئمة الأربعة؛ لما في الكتاب الذي كتبه النبي -ﷺ- لعمرو بن حزم، وفيه «وأن لا يمس القرآن إلا طاهر». وقال الإمام أحمد: لا شك أن النبي -ﷺ- كتبه له. وهذا هو المعروف عن الصحابة، سعد، وسلمان، وابن عمر»[4].

واختلف أقوال السلف في المراد بالكتاب، وبالمطهرين. فقيل: الكتاب هو: ما بأيدي الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾، وهذا اختيار الإمام مالك، فعلى هذا يكون المراد بالمطهرين: الملائكة.

وقيل: المراد بالكتاب: المصحف الذي كتب فيه القرآن. وقال القرطبي: وهو الأظهر، واستدل بما في كتابه -ﷺ- لعمرو بن حزم، وبحديث ابن عمر: أن النبي -

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٥١-٥٥٢) بتصرف.

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٠٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٤٢).

(٤) المرجع قبله (٢١/ ٢٨٨و ٢٦٦) ببعض التصرف.

ﷺ- قال: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر»، وبقول أخت عمر له، لما دعا بالصحيفة قبل أن يسلم: «لا يمسه إلا المطهرون»[1].

وقال ابن كثير: «وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من الجنابة والحدث، فلفظ الآية خبر، ومعناها الطلب».

والمراد بالقرآن ها هنا: المصحف، كما روى مسلم، أن رسول الله -ﷺ- نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو». واحتجوا بما في كتاب عمرو بن حزم، وبما روى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري، قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أن رسول الله -ﷺ- قال: «ولا يمسن القرآن إلا طاهر». وهذه وجادة جيدة، ومثل هذا ينبغي الأخذ به.

وقد أسنده الدارقطني، عن عمرو بن حزم، وعبدالله بن عمر، وعثمان بن أبي العاص، وفي إسناد كل منها نظر»[2].

«قال ابن عبدالبر: كتاب ابن حزم روي مسنداً من وجه صالح، وهو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم، معرفة يستغنى بها في شهرتها عن الإسناد»[3].

قولُهُ: «وسمى النبيُّ -ﷺ-: الإسلامَ والإيمانَ والصلاةَ: عَمَلاً».

قال الحافظ: «أما تسمية الإسلام عملاً، فاستنبطه من حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام، فقال النبي -ﷺ-: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، وقال عن الإسلام: أن تسلم وجهك لله وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» الحديث.

فسمى الإيمان، والإسلام، والصلاة بقراءتها، وما فيها من حركات الركوع والسجود فعلاً»[4].

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٧/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٢) ملخصاً.

(٣) انظر «الموطأ» (١/ ١٩٩).

(٤) «الفتح» (١٣/ ٥٠٩).

قلت: الظاهر أن مراده: ما ذكره في خلق أفعال العباد، حيث قال: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سئل النبي -ﷺ-: أي الأعمال أفضل؟

قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله»، ورواه في «الصحيح» من حديث أبي ذر، في العتق، في باب أي الرقاب أفضل، ورواه في كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي أماكن أخر، وسيأتي في آخر الكتاب.

وقال بعد ما ذكره في «خلق أفعال العباد»: «فجعل النبي -ﷺ- الإيمان والتصديق، والجهاد، والخير، عملاً»[1].

وهذا واضح جداً، ولم يختلف فيه أهل السنة، وهو دليل على أن القراءة ليست هي المقروء؛ لأنها من عمل القارئ الذي يؤجر عليه.

وإذا ثبت أن الإيمان من عمل المؤمن، فمثله الإسلام؛ لأن الرسول -ﷺ- جعل الاسلا م شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

وأما كون الصلاة عملاً فهو ظاهر جداً.

قولُهُ: «وقالَ أبو هريرةَ: قالَ النبيُّ -ﷺ- لبلال: «أخبرني بأَرْجَى عملٍ عملتَهُ في الإسلامِ؟ قالَ: ما عَمِلْتُ عملاً أرجَى عندي أني لم أتطهرْ إلا صَلَّيْتُ».

ذكر هذا الحديث بسنده موصولاً في مناقب بلال، ووجه الدلالة منه: أنه سمى الصلاة عملاً، مع ما فيها من القراءة والتكبير، والتسبيح والتحميد، وغير ذلك.

---

(١) انظر «خلق أفعال العباد» (ص٤٨-٥٣).

قوله: «وسئل: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد، ثم حج مبرور».

تقدم قريباً، والاستدلال به واضح، فإنه جعل الإيمان والجهاد والحج عملاً.

□□□

١٥٨- قال: «حدثنا عَبْدانُ، أخبرنا عبدُاللهِ، أخبرنا يُونُسُ، عن الزُّهْرِيِّ، أخبرني سالِمٌ، عن ابنِ عُمَرَ -رضيَ اللهُ عنهما- أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «إنما بقاؤُكم فيمنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ، كما بينَ صلاةِ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ، أُوتي أهلُ التوراةِ، التوراةَ، فَعَمِلُوا بها حتى انتصفَ النهارُ، ثم عَجَزُوا فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهلُ الإنجيلِ، الإنجيلَ، فَعَمِلُوا به حتى صُلِّيت العصرُ، ثم عَجَزُوا، فأُعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أُوتيتم القرآنَ فَعَمِلْتُم بِهِ حتى غَرَبَتِ الشمسُ، فأُعْطِيتم قيراطَينِ قيراطَين، فقالَ أهلُ الكتابِ: هؤلاءِ أَقَلُّ منا عملاً، وأَكْثَرُ أَجْراً؟ قالَ اللهُ: هل ظَلَمْتُكم مِنْ حقكم شيئاً؟ قالوا: لا. فقال: فهو فَضْلي أُوتيه منْ أشاءُ».

تقدم هذا الحديث في باب المشيئة والإرادة، ومعنى قوله: «إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم» أن بقاء هذه الأمة في الدنيا كنسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم.

فالمعنى: أن مدة هذه الأمة بالنسبة إلى من سبقها من الأمم قليلة.

وإذا كان مدة مجموع الأمة قليلة، لزم أن يكون عمر كل فرد منها قصيراً، وكأن الحديث قصد به الإخبار بقلة بقاء هذه الأمة في الدنيا، وبكثرة أجرها، وفضلها، ولذلك ضرب المثل لها ولأهل الكتاب؛ لأن اليهود والنصارى، وهذه الأمة كلهم أعطوا كتباً جاءتهم من الله ليعملوا بها، ورواية الترمذي توضح ذلك، ونصها:

«إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغارب الشمس، وإنما مثلكم، ومثل اليهود والنصارى، كرجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود على قيراط قيراط.

ثم أنتم تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر أعمالاً، وأقل عطاء؟

قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنه فضلي أوتيه من أشاء» هذا حديث حسن صحيح»[1].

(١) «جامع الترمذي» (٥/ ١٥٣).

ففي هذا أنه ﷺ أخبر عن شيئين: **أحدهما**: مدة بقاء هذه الأمة في الدنيا بالنسبة لمن سبقها من الأمم، وأنه مثل نسبة ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بالنسبة لليوم الكامل.

والثاني: مَثَلُ هذه الأمة، ومثل اليهود والنصارى، فعلى هذا لا يكون قوله: «أوتي أهل التوراة» إلى آخره شرح وتفصيل لما تقدم، كما قاله الحافظ، وإنما هو كلام مستأنف، أريد به بيان فضل هذه الأمة على اليهود والنصارى، وكثرة أجورها.

قوله: «أوتي أهل التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عجزوا» كأنه أريد منهم أن يعملوا جميع النهار، ولهذا قال: «ثم عجزوا» أي: عن العمل بقية النهار.

قوله: «فأعطوا قيراطاً قيراطاً» أي: كل فرد منهم أعطي قيراطاً.

قوله: «ثم أوتي أهل الإنجيل» إلى آخره، مثل سابقه.

«ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس» أي: أن هذه الأمة أكملت العمل الذي طلب من اليهود والنصارى فعجزوا عن أدائه، فلذلك أعطوا ضعفي ما أعطي من قبلهم من الأجر.

ويفهم منه أن هذه الأمة يستمر عملها بالقرآن إلى قيام الساعة؛ لأنه قال: «فعملتم به حتى غربت الشمس»، كما يدل على حسد اليهود والنصارى للمسلمين على ما هم عليه من الحق، ويدل على عظم فضل الله على هذه الأمة.

والمقصود منه في هذا الباب قوله: «أوتي أهل التوراة» إلى آخره.

فإنه يدل على أن العمل فعل العباد، ومن ذلك قراءة الكتاب الذي أوتوه، وتلاوته، وأن ما يعطيه الله العبد غير عمله، بل هو جزاء عمله.

وكذلك الكتاب الذي آتاه الله اليهود والنصارى، والمسلمين ليس هو عملهم وتلاوتهم، فالذي أوتوه وحي أنزله الله على رسله إليهم، وعملهم به هو فعلهم من تلاوته، وامتثال أوامره، والانتهاء عن مناهيه.

قال في «خلق أفعال العباد»: «باب قول الله عز وجل: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ فمنها العربي، ومنها العجمي، فذكر اختلاف الألسنة والألوان، وهو كلام العباد، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقال النبي -ﷺ-: «رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل».

فبين أن قيامه بالكتاب هو فعله.

وقال الله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾. فأثبت الخير منهم فعلاً»[1].

معنى قيام العبد بالكتاب هو: فعل العبد الذي يجازى عليه، وليس هو الكتاب، وبهذا يتضح مراده بهذه النصوص.

□□□

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١٩٥-١٩٧) ملخصاً.

قال: «باب: وسمى النبي -ﷺ- الصلاة عملاً. وقال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

يعني: أن الصلاة فعل من أفعال العباد، وفيها قراءة القرآن، وأقل ذلك قراءة الفاتحة؛ لأن الصلاة لا تصح بدون قراءة الفاتحة، فتبين بذلك أن القراءة ليست هي المقروء، وإنما هي عمل العبد وفعله وكسبه، فالقراءة من جملة الصلاة، وقد سمى النبي -ﷺ- الصلاة كلها عملاً.

□□□

١٥٩- قال: «حدثني سليمانُ، حدثنا شُعْبَةُ، عن الوليدِ. وحدثني عَبّادُ بنُ يعقوبَ الأَسَدِيُّ، أخبرنا عَبّادُ بنُ العَوّامِ، عن الشَّيْبانيِّ، عن الوَلِيدِ بن العَيْزار، عن أبي عَمْرِو الشَّيْبانيِّ، عن ابنِ مسعودٍ -رضيَ اللهُ عنه- أنَّ رجلاً سَأَلَ النبيَّ -ﷺ-: أيُّ الأعمالِ أفْضَلُ؟ قال: الصلاةُ لوقتها، وبرُّ الوالدينِ، ثم الجهادُ في سبيلِ الله».

الرجل السائل هو ابن مسعود كما صرح به في الرواية الأخرى.

وهو يدل على حرص الصحابة على فعل الأفضل، وتحريهم الأعمال الفاضلة في التقديم؛ لأن عمر الإنسان قصير، وربما شغل عن كثير من العمل، وفي كثير من الأوقات.

قال ابن دقيق العيد: «سؤاله عن أفضل الأعمال طلباً لمعرفة ما ينبغي تقديمه، وحرصاً على معرفة الأصل؛ ليتأكد القصد إليه، وتشتد المحافظة عليه، ولعله أراد بالأعمال هنا: الأعمال البدنية، كما قال الفقهاء: «أفضل عبادات البدن: الصلاة»، فلا تكون أعمال القلوب داخلة فيه، فعلى هذا لا تعارض بينه وبين حديث أبي هريرة: «أفضل الأعمال إيمان بالله»»[1].

وقال الحافظ: «محصل ما أجاب به العلماء عن الأحاديث التي اختلفت فيها الأجوبة، بأن كل واحد منها أفضل الأعمال، أن الجواب اختلف؛ لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم. أوكان الاختلاف، باختلاف الأوقات، بأن يكون العمل في وقت أفضل منه في غيره، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل الأعمال، أو أن «أفضل» ليست على بابها، بل المراد بها الفضل المطلق»[2].

«الصلاة لوقتها» يعني: في الوقت الذي عينه الشارع، وهو وقت الاختيار.

وبر الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما، وضده العقوق.

---

(١) «شرح العمدة» (١/ ١٣١-١٣٢) ملخصاً.

(٢) «الفتح» (٢/ ٩) ملخصاً.

ويراد بالبر أيضاً التوسع في فعل الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى آخر الآية[1].

والجهاد: استفراغ الوسع وبذل الجهد في قتال العدو ومدافعته، وهو ثلاثة أنواع: جهاد العدو الظاهر من الكفار وغيرهم.

وجهاد العدو الخفي، وهو الشيطان، وجهاد النفس، وكلها يشملها الحديث، وتدخل في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وغير ذلك من النصوص الآمرة بالجهاد.

والمقصود من الحديث هنا: تسمية الصلاة عملاً، حيث أجاب النبي -ﷺ- السائل الذي قال: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الصلاة لوقتها» فجعلها عملاً، ومعلوم أن الصلاة فيها قراءة القرآن، فدل على أن القراءة من عمل العبد؛ لأنها فعل القارىء، كما سبق. وتقدم نقل كلام البخاري في هذا، وقوله: «قد بين النبي -ﷺ- أن سؤال العبد غير ما يعطيه الله للعبد، وأن قول العبد غير كلام الله، هذا من العبد الدعاء والتضرع، ومن الله الأمر والإجابة.

والقراءة لا تكون إلا من الناس، وقد تكلم الله بالقرآن من قبل، وكلامه قبل خلقه»[2]. يعني: أنه جعل القراءة إلى إرادة المخاطبين في قوله: «إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وقول العبد: الحمد لله» الخ، هي قراءته، فهو يقرأ الفاتحة، وهي من كلام الله -تعالى-.

وقوله: «وقد تكلم الله بالقرآن من قبل، وكلامه قبل خلقه» يعني: جنس الكلام؛ لأن الكلام هو الذي يوجد به الخلق عندما يقول الله له: كن، يكون موجوداً، ولا يدل ذلك على أن القرآن قديم، كما يقوله أهل البدع، فالله تكلم بالقرآن ثم أنزله على رسوله -ﷺ-.

---

(٣) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

(١) انظر «خلق أفعال العباد» (ص١٦٤).

قالَ: بابُ قول اللهِ -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ . هلوعاً: ضجوراً.

قال ابن جرير: «الهلع: شدة الجزع، مع شدة الحرص والضجر» وروى بسنده عن ابنِ عباسٍ: «الهلوع هو: الجزوع الحريص، وعن سعيد بن جبير: هلوعاً: شحيحاً جزوعاً.

وعن عكرمة: ضجوراً، وقال الضحاك: بخيل منوع للخير، جزوع إذا نزل به البلاء»[1].

وقال الفراء: «الهلوع: الضجور، وصفته كما قال الله -تعالى-: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فهذه صفة الهلوع. ويقال منه: هلع، يهلع هلعاً، مثل جزع، يجزع جزعاً»[2].

وقال المبرد: «الهلع: من الجبن عند ملاقاة الأقران، يقال: نعوذ بالله من الهلع. ويقال: رجل هلوع، إذا كان لا يصبر على خير، ولا شر، حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾»[3].

وكل هذه الأقوال متفقة في المعنى، والمعنى: أن هذه الأوصاف المذكورة خلقت في الإنسان، ولكنها فعله الذي يصدر منه عن إرادته، فيلام عليها أو يثنى عليه بها، فهو ضجور غير ثابت، قليل الصبر، ومنوع هلوع، فإذا أصابه الخير منع، وإذا وقع في شدة جزع، وذلك كله فعله المضاف إليه فعلاً له على الحقيقة، والله خلقه على ذلك، فدل هذا على أن الله -تعالى- خالق أفعال الإنسان كما أنه خالقه.

قال الحافظ: «مقصود البخاري: أن الصفات المذكورة بخلق الله -تعالى- في الإنسان، لا أن الإنسان يخلقها بفعله»[4].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٩/ ٧٨).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ١٨٥).

(٣) «الكامل» (٣/ ١٠٩٢).

(٤) «الفتح» (١٣/ ٥١١).

١٦٠- قال: «حدثنا أبو النُّعْمانِ، حدثنا جَرِيرُ بنُ حازمٍ، عن الحسن، حدثنا عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ، قال: أتى النبيَّ -ﷺ- مالٌ فأعطى قوماً، ومنعَ آخرينَ، فَبَلَغَهُ أنهم عَتَبُوا، فقالَ: «إني أُعطي الرَّجُلَ، وأَدَعُ الرَّجُلَ، والذي أَدَعُ أَحَبُّ إليَّ منَ الذي أُعطي، أُعطي أقواماً لما في قُلُوبهم منَ الجزعِ والهلعِ، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعلَ اللهُ في قُلُوبِهم منَ الغنى والخيرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ، فقال عَمْرٌو: ما أُحِبُّ أنْ لي بكلمةِ النبيِّ -ﷺ- حُمْرَ النَّعَمِ».

عمروبن تغلب، النمري، من النمر بن قاسط، ويقال: العبدي، من عبد القيس من أهل جواثا، قرية من قرى البحرين، صحابي جليل القدر.

روى عنه الحسن البصري، ولم يرو عنه غيره، فيما قاله غير واحد.

وقال ابن عبدالبر: روى عنه أيضاً الحكم بن الأعرج، وعداده في أهل البصرة، وهو كغيره من كثير من الصحابة الذين لم تعرف أخبارهم، ولم تدون مآثرهم، فعليهم رضوان الله ورحمته أجمعهم»[(١)].

قوله: «أتى النبي -ﷺ- مال» الخ، هذا المال إما من الخمس الذي أفاءه الله على رسوله، أو من الغنائم، أو من الزكاة.

وفي الرواية التي ذكرها البخاري في الجمعة: «أتى بمال، أو سبي»[(٢)].

وكانت سنته ﷺ أنه إذا جاءه شيء من المال وزعه في مصالح الإسلام ولا يدخر شيئاً، ومن المصالح: إعطاؤه من لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، فيؤثروا الآخرة على الدنيا، يعطيهم خوفاً عليهم من الجزع، وعدم الصبر، فيتزعزع إيمانهم، فهذا الذي جعله يعطي قوماً، ويمنع آخرين، يمنع كُمَّلَ الإيمان الذين ذاقوا طعمه وحلاوته، التي لا تعادلها الدنيا بأسرها، بل ولا شيئاً منه، ولهذا قال ﷺ: «وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير».

---

(١) انظر «تهذيب الكمال» (٢/ ١٠٢٧) مخطوط، ورجال البخاري للكلاباذي (٢/ ٥٣٧).

(٢) انظر «الفتح» (٢/ ٤٠٣).

«فبلغه أنهم عتبوا» قال الأزهري: «قال ابن شميل، وابن المظفر: العتب: الموجدة، تقول: عتب فلان على فلان، إذا وجد عليه»[1].

والمعنى: أنه صار في نفوسهم عليه شيء بسبب منعهم من هذا المال؛ لأنهم يرون أنهم أحق من غيرهم، وذلك لخفاء الأمر عليهم، وإلا فالمتعين الرضا بما يفعله الرسول -ﷺ- والتسليم لأمره وفعله، وهذا شأن الصحابة رضوان الله عليهم غالباً.

«فقال: إنّي أعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحب إليَّ من الذي أعطي» الخ.

يعني: أن تخصيصه بعض الناس بالعطاء ليس دليلاً على أنه ﷺ يحب المعطى أكثر من غيره، بل يعطيه خوفاً عليه من الجزع، وعدم الصبر على بلوى الإعواز، وقلة ذات اليد، فإذا لم يحصل لهؤلاء ما يتطلعون إليه من العطاء كان ذلك عوناً للشيطان عليهم، في إرجاعهم عن الإسلام، أو اعتراضهم على النبي -ﷺ-، فيكون في ذلك هلاكهم.

أما الذين أودع الله في قلوبهم الخير والغنى بالإسلام ومحبته والرغبة فيه، والرجاء لما أعد الله لهم في الآخرة، فإنهم أحب إلى رسول الله -ﷺ- ممن أعطاهم من ذلك المال وغيره، ولم يثنه عن عطائهم إلا ما علمه من الغنى في قلوبهم، وثقتهم بوعد الله لهم، وإيمانهم الذي لا يتزعزع، وحبهم لله ورسوله، بحيث يحبون ما أحبه الله ورسوله، فلا يرون أن غير ما فعله أحسن مما فعله.

قال الحافظ: «وفيه أن الرزق في الدنيا ليس على قدر درجة المرزوق في الآخرة، ففي الدنيا تقع العطية والمنع بحسب السياسة الدنيوية، فكان -ﷺ- يعطي من يخشى عليه الجزع والهلع لو مُنع، ويمنع من يثق بصبره واحتماله، وقناعته عنه بثواب الآخرة.

وفيه أن البشر جبلوا على حب العطاء، وبغض المنع، والإسراع إلى إنكار ذلك قبل الفكرة في عاقبته، إلا من شاء الله.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٧٧).

وفيه أن المنع قد يكون خيراً للممنوع، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، ومن ثم قال الصحابي: «ما أحب أن لي بتلك الكلمة حمر النعم»، والباء في قوله: «بتلك» للبدلية، أي: ما أحب أن لي بدل كلمته [النوق الحمر]؛ لأن الصفة المذكورة تدل على قوة إيمانه المفضي به إلى دخول الجنة، وثواب الآخرة خير وأبقى.

وفيه استئلاف من يخشى جزعه، أو يرجى بسبب إعطائه طاعة من يتبعه، والاعتذار إلى من ظن ظناً، والأمر بخلافه»[1].

والمقصود من الحديث: قوله ﷺ: «لما في قلوبهم من الجزع، والهلع»، وقوله: «وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير»، فإن الهلع والجزع، وكذلك غنى القلب والإيمان، كل ذلك وصف للإنسان، وهو فعله وعمله، والله خالقه.

فإن الله خلق الإنسان وخلق أفعاله، فجعله فاعلاً لهذه الأشياء.

قال الكرماني: «الغرض من هذا الباب: إثبات أن أخلاق الإنسان، من الهلع، وضده، الضجر، وعدمه، والانقياد، والامتناع، وغيرهما، بخلق الله تعالى»[2].

□□□

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥١١).

(٢) انظر «شرح الكرماني» (٢٤/ ٢٢٧-٢٢٨).

قالَ: «بابُ ذِكْرِ النبيِّ -ﷺ-، وروايَتِهِ عنْ ربِّهِ».

قال العيني: «أي: هذا باب في ذكر النبي -ﷺ- وروايته عن ربه -أي بدون واسطة جبريل -ﷺ- ويسمى بالحديث القدسي»[1].

وكذا قال أكثر الشراح.

وقال الحافظ: «يحتمل أن تكون الجملة الأولى محذوفة المفعول، والتقدير: ذكر النبي -ﷺ- ربه عز وجل.

ويحتمل أن يكون ضمَّن الذكر معنى التحديث، فعداه بعن، فيكون قوله: «عن ربه» متعلق بالذكر والرواية معاً، وقد ترجم هذا في كتاب: خلق أفعال العباد، بلفظ: ما كان النبي -ﷺ- يذكر ويروي عن ربه»، وهو أوضح»[2].

وأقول: إن مراده أن الرسول -ﷺ- يروي عن ربه ما قاله -تعالى- وأنزل عليه، فالرسول -ﷺ- يذكر بلفظه الذي هو فعله كلام ربه -تعالى- وكلام الله -تعالى-، غير فعل الرسول ولفظه، فاللفظ للرسول والملفوظ به هو كلام الله، فهذا الباب كسابقه مما فيه التفريق بين فعل العبد المخلوق، وبين ما هو وصف لله غير مخلوق، وهذا هو الذي تتفق معه الأحاديث التي ذكرها، والله أعلم.

□□□

(١) «عمدة القاري» (٢٥/ ١٨٨).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥١٢).

١٦١- قال: «حدثني محمدُ بنُ عبدِالرَّحيمِ، حدثنا أبو زيدٍ سعيدُ بنُ الرَّبيعِ الهَرَويُّ، حدثنا شُعْبَةُ، عن قَتادَةَ، عن أنسٍ -رضيَ اللهُ عنه- عن النبيِّ -ﷺ- يرويهِ عنْ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ: «قال: إذا تَقَرَّبَ العبدُ إليَّ شِبْراً، تَقَرَّبْتُ إليهِ ذراعاً، وإذا تَقرَّبَ إليَّ ذراعاً تَقَرَّبْتُ منه باعاً، وإذا أتاني مَشْيَاً أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

قال شيخ الإسلام: «ظاهر الخطاب أن أحد التقديرين من جنس الآخر، وكلاهما مذكور بلفظ المساحة.

فلا يخلو إما أن يكون ظاهر اللفظ في تقرب العبد إلى ربه هو تقرب بالمساحة المذكورة، أو لا يكون.

فإن كان ذلك هو ظاهر ذلك اللفظ، فإما أن يكون ممكناً، أو لا يكون.

فإن كان ممكناً، فالآخر أيضاً ممكن، ولا يكون في ذلك مخالفة للظاهر.

فإن لم يكن ممكناً فمن أظهر الأشياء للإنسان علمه بنفسه وسعيه، فيكون قد ظهر للمخاطب معنى قربه بنفسه.

وقد علم أن قرب ربه إليه من جنس ذلك، فيكون الآخر أيضاً ظاهراً في الخطاب، فلا يكون ظاهر الخطاب هو المعنى الممتنع، بل ظاهره هو المعنى الحق.

ومن المعلوم أنه ليس ظاهر الخطاب أن العبد يتقرب إلى الله بحركة بدنه شبراً، وذراعاً، ومشياً، وهرولة»[(١)].

وبهذا يظهر معنى الحديث، وأنه ليس المراد منه: التقرب إلى الله -تعالى- بحركة البدن بهذه المقادير، والهيئة، وإنما المقصود التقرب إلى الله -تعالى- بالإنابة والرجوع وإقبال القلب، وفعل الطاعات التي تقرب العبد إلى ربه، وقد قال الرسول -ﷺ-: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[(٢)].

وتقدم أن قرب الله -تعالى- ودنوه من بعض مخلوقاته لا يستلزم خلوه من فوق عرشه، بل يقرب إلى من يشاء من عباده وهو فوق عرشه، لا يكون شيء من

---

(١) «نقض التأسيس» (٣/ ٢١-٩٢) مخطوط.

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول.

خلقه فوقه أبداً، ولما قرب كليمه موسى إليه نجياً كان -جل وعلا- فوق عرشه، وكذلك غير موسى إذا قربه إليه، فإنه يقرب إليه وهو فوق عرشه -تعالى وتقدس-، وسبق الكلام على هذا الحديث[1].

والشاهد من الحديث قوله: «يرويه عن ربه -عز وجل- قال: إذا تقرب» إلى آخره، فالرسول -ﷺ- يروي عن ربه هذا الكلام، الذي تكلم الله به فرواه عنه، سواء كان ذلك بواسطة جبريل -وهو الظاهر- أو بغير واسطة، والصحابة سمعوا هذا الكلام بلفظ الرسول -ﷺ-، وصدقوا بأنه كلام الله رواه رسوله عنه.

❑❑❑

(١) يراجع الجزء الأول (ص٣٣٩).

١٦٢- قال: «حدثنا مُسَدَّدٌ، عن يحيى، عن التَّيْمِيِّ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن أبي هريرةَ قالَ: -ربما ذَكَرَ النبيَّ -ﷺ- قالَ: «إذا تَقَرَّبَ العبدُ مني شِبْراً تَقَرَّبْتُ منهُ ذراعاً، وإذا تَقَرَّبَ مني ذراعاً تَقَرَّبْتُ منهُ باعاً -أو بوعاً-».

الباع معروف، وهو قدر مد اليدين، من أطراف أصابع اليد إلى أطراف الأصابع الأخرى، والبوع بفتح الباء مصدر باع، وبالضم جمع باع.

قولُهُ: «وقالَ مُعْتَمِرٌ: سمعتُ أبي، سمعتُ أنساً، عن أبي هريرةَ، عن رَبِّهِ -عز وجل-.

قصده التصريح بأنه مرفوع، وأن النبي -ﷺ- رواه عن ربه -عز وجل-.

□□□

١٦٣- قال: «حدثنا آدمُ، حدثنا شُعْبَةُ، حدثنا محمدُ بنُ زيادٍ، قال: سمعتُ أبا هريرةَ، عن النبيِّ -ﷺ- يرويهِ عن ربِّكُمْ، قالَ: «لِكُلِّ عَمَلٍ كفارةٌ، والصومُ لي، وأنا أجَزِي به، ولخلوفُ فَمِ الصائمِ أطْيَبُ عندَ اللهِ منْ رِيحِ المِسْكِ».

قوله: «لكل عمل كفارة» يعني: جزاء وثواباً معيناً، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ولكن الصوم يضاعف بدون حساب.

والسبب أنه يكون خالصاً؛ لأنه سر بين العبد وربه، فإنه يمكنه أن يظهر للناس أنه صائم وهو يأكل في الخفاء، فإذا التزم العبد الصوم دل على خوفه من الله، ورجائه لثوابه. وتقدم شرح الحديث والمقصود منه ظاهر، وهو كالذي قبله.

□□□

١٦٤- قال: «حدثنا حَفْصُ بنُ عُمَرَ، حدثنا شُعْبَةُ، عن قَتادَةَ. ح.

وقال لي خَلِيفَةُ: حدثنا يزيدُ بنُ زُرَيْعٍ، عن سعيدٍ، عن قَتادَةَ، عن أبي العاليةِ، عن ابنِ عباسٍ -رضيَ الله عنهما- عن النبيِّ -ﷺ- فيما يرويهِ عن ربِّهِ، قالَ: «لا ينبغي لِعبدٍ أنْ يقولَ: إنهُ خيرٌ منْ يونسَ بنِ مَتَّى»، ونَسَبَهُ إلى أبيهِ».

يونس بن متى، هو نبي كريم من أنبياء الله -تعالى- الذين جاءوا بالهدى والنور؛ لإخراج الناس به من الظلمات.

«قال العلماء: إنما قال ﷺ ذلك تواضعاً، إن كان قاله بعد أن علم أنه أفضل الخلق، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال.

وقيل: خص يونس -عليه السلام- بهذا القول؛ لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقص له، فبالغ ﷺ في ذكر فضله؛ لسد هذه الذريعة.

وقد روى قصته السدي بأسانيده، عن ابن مسعود وغيره: أن الله بعث يونس إلى أهل نينوى -وهي من أرض الموصل- فكذبوه، فوعدهم بنزول العذاب في وقت معين، وخرج عنهم مغاضباً لهم، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا لله، وتضرعوا، وآمنوا، فرحمهم الله، وكشف عنهم العذاب، وذهب يونس، وركب سفينة فلجّت به، فاقترعوا فيمن يطرحونه فوقعت القرعة عليه ثلاثاً، فطرحوه، فالتقمه الحوت»[1] ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستجاب الله له، وأمر الحوت بطرحه على ساحل البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين تظله» والظلمات هي ظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل.

وما ذكره من أنه خص بالذكر إلى آخره، هو المناسب لما جاء من النهي عن المفاضلة بين الأنبياء؛ لئلا يفضي ذلك إلى تنقص أحد منهم.

ولهذا جاء في رواية لهذا الحديث ذكرها البخاري في الأنبياء، بلفظ «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس».

---

(١) «الفتح» (٦/ ٤٥٢).

وفي أخرى: «لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس»[1].

قال الحافظ: «وعند الطبراني: «لا ينبغي لأحد أن يقول» إلى آخره.

وفي أخرى عنده: «ما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس».

وهذا يؤيد أن المراد تفضيله على النبي -ﷺ-»[2].

وهذا يدل على أن المقصود: النهي عن المفاضلة بين أنبياء الله؛ لئلا يكون ذلك طريقاً إلى تنقص أحد منهم.

والمراد من الحديث قوله: «فيما يرويه عن ربه» فهذا لفظ الرسول -ﷺ- يروي هذا الكلام عن ربه، يعني: أن الله تكلم به، فرواه لنا عنه رسوله -ﷺ- بلفظه الذي هو فعله، وهو مخلوق، وما رواه فهو كلام الله غير مخلوق.

«ونسبه إلى أبيه» يعني: أن «متى» هو أبوه، وليس ذلك اسم أمه، وأراد به الرد على من زعم أن «متى» اسم أمه، كما روي عن كعب الأحبار.

□□□

(١) «الفتح» (٦/ ٤٥١).

(٢) «الفتح» (٦/ ٤٥١).

١٦٥- قال: «حدثنا أحمدُ بنُ أبي سُرَيْجٍ، أخبرنا شَبابَةُ، حدثنا شُعْبَةُ، عن معاويةَ بنِ قُرَّةَ المُزَنِيِّ، عن عبدِ اللهِ بنِ المُغَفَّلِ المُزَنِيِّ قالَ: رأيتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- يومَ الفتحِ على ناقةٍ لهُ يقرأُ سورةَ الفتحِ -أو منْ سورةِ الفتحِ- قالَ: فَرَجَّعَ فيها.

قالَ: ثُمَّ قرأَ معاويةُ يَحْكِي قراءةَ ابنِ مُغَفَّلٍ، وقال: لولا أنْ يجتمعَ الناسُ عليكمْ لَرَجَّعْتُ كما رَجَّعَ ابنُ مُغَفَّلٍ يَحْكِي النبيَّ -ﷺ-، فقلتُ لمعاويةَ: كيفَ كانَ تُرْجِيعُهُ؟ قال: آآآ ثلاثَ مراتٍ».

عبدالله بن مغفل بن عبد غنم المزني أبو سعيد، ذكر البخاري عن يحيى بن معين أنه كان يكنى أبا زياد، وهو من مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم، وهو أحد البكائين في غزوة تبوك، أسفاً على فوت تلك الغزوة عليهم، وشهد بيعة الرضوان، وهو أحد العشرة الذين بعثهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليفقهوا الناس بالبصرة، وهو أول من دخل من باب مدينة تستر. توفي في البصرة سنة تسع وخمسين أو سنة ستين، أو إحدى وستين، رضي الله عنه، وعن جميع إخوانه صحابة رسول الله -ﷺ-[1].

«يوم الفتح» هو فتح مكة، وكان في رمضان، من سنة ثمان من الهجرة.

وسورة الفتح نزلت في غزوة الحديبية، وكانت في ذي القعـدة سنة ست في قول الجمهور، نزلت في مرجعه منها، والفتح المذكور في السورة هو صلح الحديبية على قول أكثر المفسرين من الصحابة وغيرهم، ولا ينافي ذلك دخول فتح مكة فيه، وقراءته ﷺ سورة الفتح في ذلك اليوم يدل على أن فتح مكة داخل في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

«فرجَّع فيها» بتشديد الجيم، أي: ردد الصوت في حلقه، وجهر به مكرراً بعد إخفائه.

(١) انظر «الإصابة» (٤/ ٢٤٢)، و«الاستيعاب» (٣/ ٩٩٦).

قال المؤلف في فضائل القرآن: «باب الترجيع، ثم ذكر هذا الحديث -وفيه- قال: رأيت النبي -ﷺ- يقرأ، وهو على ناقته -أو جمله- وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح- أو من سورة الفتح، قراءة لينة، يقرأ وهو يرجع»[1].

قال الحافظ ابن كثير: الترجيع هو: الترديد في الصوت، كما جاء أنه يقول: آ آ آ، وكأن ذلك صدر من حركة الدابة تحته، فدل على جواز التلاوة عليها، وإن أفضى إلى ذلك، ولا يكون ذلك من باب الزيادة في الحروف، بل هو مغتفر للحاجة، كما يصلي على الدابة حيث توجهت به مع إمكان تأخير ذلك والصلاة إلى القبلة»[2].

والصواب أنه قصد الترجيع، وليس ذلك من حركة الدابة كما زعم ابن كثير، وكثيراً ما كان ﷺ يقرأ في أسفاره، ولم يذكر ذلك عنه إلا في هذه الواقعة، فدل على قصده ذلك.

قال الحافظ: «الترجيع: هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت: ترديده في الحلق، وقد فسره بقوله: آء آء آء، ثلاث مرات، بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة، ثم همزة أخرى.

قالوا: يحتمل أمرين: أحدهما: أن ذلك حدث من هز الناقة.

والآخر: أنه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك، وهذا أقرب؛ لأنه قال: «لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت».

وقد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع، كما في الشمائل للترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي داود، واللفظ له من حديث أم هانئ: «كنت أسمع صوت النبي -ﷺ- وهو يقرأ، وأنا نائمة على فراشي، يرجِّع القرآن».

والذي يظهر: أن في الترجيع قدراً زائداً على الترتيل، فعند ابن أبي داود عن علقمة، قال: بت مع عبدالله بن مسعود في داره، فنام، ثم قام، فكان يقرأ قراءة الرجل في مسجد حيه، لا يرفع صوته، ويسمع من حوله، ويرتل ولا يرجع.

---

(١) انظر «الفتح» (٩/ ٩٢) و(١٣/ ٥١٥).

(٢) «فضائل القرآن» في آخر «تفسير ابن كثير».

قال ابن أبي جمرة: معنى الترجيع: تحسين التلاوة، لا ترجيع الغناء؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة.

قال: «وفي الحديث: ملازمته -ﷺ- للعبادة؛ لأنه حالة ركوبه وهو يسير لم يترك العبادة بالتلاوة، وفي جهره في ذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون في بعض المواضع أفضل من الإسرار، مثل إرادة التعليم، وإيقاظ الغافل، ونحو ذلك»[1].

والمقصود أن الترجيع فعل الرسول -ﷺ- بحركة لسانه وشفتيه يرجع كلام ربه الذي أبلغه الأمة عن الله -تعالى-.

فالمسموع بصوته هو كلام الله، والصوت هو صوت المبلغ، ولهذا يرفعه إن شاء، ويخفضه، ويرجعه إن شاء ولا يرجعه؛ لأنه فعله يتعلق بإرادته، وهو يبلغ كلام الله بأي وجه كان من أوجه التبليغ، بصوته الذي يؤدي به عن الله، سواء رجع الكلام، أو لم يرجع، فلا يخرجه ذلك عن كونه كلام الله، أبلغه إلى أمته عن ربه بصوته وروايته، ولكن هو يتصرف بصوته فيرفعه تارة، ويخفضه أخرى، ويرجع الكلام مرة، ويترك الترجيع أخرى، إذ ذلك فعله الذي يفعله إذا شاء.

❐❐❐

(١) «الفتح» (٩/ ٩٢) ببعض التصرف.

قالَ: «بابُ ما يجوزُ منْ تفسيرِ التوراةِ وغيرِها منْ كُتُبِ اللهِ بالعربيةِ وغيرِها، لقولِ اللهِ -تعالى-: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

تقدم الكلام على هذه الآية، ومراده: أن التفسير والإيضاح والتفهيم لكلام الله من فعل المفسر، والمبين الموضح لمن لا يفهم ذلك الكلام، وهذا كله فعل العباد وهو مخلوق، كما أن القراءة، والكتابة، والحفظ، فعل العبد وهو مخلوق.

وأما المكتوب المقروء والمحفوظ إذا كان من كتب الله، فهو كـلام الله.

وكذلك التفسير، والتبليغ، والتبيين، فعل العبد المفسر المبين، وهو مخلوق، وأما المفسر المبين المبلغ فهو كلام الله.

ومثل ذلك الترجمة من لغة إلى أخرى، فإن الترجمة فعل المترجم، ولهذا استدل في كتابه: «خلق أفعال العباد»، على أن كلام العباد مخلوق، وهو من أفعالهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾، ثـم قـال: «فمنهـا العربـي، ومنهـا العجمي، فذكر اختلاف الألسنة والألوان، وهو كلام العباد»[1].

وروى عن حماد بن زيد أنه قال: «من قال: كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر»[2].

وقال أيضاً: «وقد كتب النبي -ﷺ- كتاباً فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» وقرأه ترجمان قيصر، على قيصر وأصحابه، ولا نشك في قراءة الكفار وأهل الكتاب أنها أعمالهم، وأما المقروء فهو كلام الله العزيز المنان، ليس بمخلوق، فمن حلف بأصوات قيصر، وبنداء المشركين الذين يقرون بالله لم يكن عليه يمين دون الحلف بالله؛ لقول النبي -ﷺ-: «لا تحلفوا بغير الله»[3].

---

(١) انظر (ص١٩٦).

(٢) المصدر (ص١٩٣).

(٣) المصدر السابق (ص١٥٨).

يعني: أن الصوت الذي تكون به القراءة ونحوها فعل ذلك المصوت، وفعل العبد مخلوق.

قال الحافظ: «وجه الدلالة من الآية: أن التوراة بالعبرانية، وقد أمر الله تعالى أن تتلى على العرب، وهم لا يعرفون العبرانية، فقضية ذلك الإذن بالتعبير عنها بالعربية»[1]. وتقدم وجه مراده بالباب.

قولُهُ: «وقالَ ابنُ عباس: أخبرني أبو سفيانَ بنُ حربٍ أنَّ هِرَقْلَ دَعا تُرْجُمانَهُ ثُمَّ دعا بكتابِ النبيِّ -ﷺ- فَقَرَأَهُ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، مِنْ محمدٍ عَبْدِاللهِ ورسولِهِ، إلى هِرَقْلَ، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ الآيةَ.

أبو سفيان كنية، ويكنى أيضاً بأبي حنظلة، واسمه: صخر بن حرب بن أمية مشهور باسمه وكنيته، أسلم عام الفتح، وكان رئيساً لقومه قبل ذلك، وشهد مع النبي -ﷺ- حنيناً والطائف، وروي أن عينه أصيبت يوم الطائف، فقال له رسول الله -ﷺ-: «إن شئت دعوتُ فردت عليك، وإن شئت فالجنة» قال: الجنة، مات في خلافة عثمان سنة أربع وثلاثين، وقيل غير ذلك، رضي الله عنه وعن أصحاب رسول الله جميعاً[2].

هرقل هو: ملك الروم، هذا اسمه، وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف، ولقبه قيصر، وهو لكل من ملك الروم، كما أن كسرى لقب لمن ملك الفرس.

وهذا جزء من الحديث الطويل المذكور في بدء الوحي وغيره.

قال الحافظ: «ووجه الدلالة منه: أن النبي -ﷺ- كتب إلى هرقل باللسان العربي، ولسان هرقل رومي، ففيه إشعار بأنه اعتمد في إبلاغه ما في الكتاب على من يترجم عنه بلسان المبعوث إليه ليفهمه، والمترجم المذكور هو الترجمان».

واستدل في «خلق أفعال العباد» بقصة هرقل على أن القراءة فعل القارئ.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥١٦).

(٢) انظر «الإصابة» (٣/ ٤١٢)، و«الاستيعاب» (٢/ ٧١٤).

فقال: قد كتب النبي -ﷺ- إلى قيصر: «بسم الله الرحمن الرحيم» وقرأه ترجمان قيصر على قيصر وأصحابه، ولا يشك في قراءة الكفار أنها أعمالهم، وأما المقروء فهو كلام الله -تعالى- ليس بمخلوق، ومن حلف بأصوات الكفار ونداء المشركين لم يكن عليه يمين، بخلاف ما لو حلف بالقرآن»[1].

وتقدم نقل هذا، والحافظ تصرف فيه.

وفيه دليل على جواز إرسال الكتب التي فيها شيء من القرآن إلى الكفار، وفيه كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول الكتب، وبداءة صاحب الكتابة بنفسه، وفيه قرن العبودية بالرسالة.

❑❑❑

(١) «الفتح» (١٣/ ٥١٦).

١٦٦- قال: «حدثنا محمدُ بنُ بَشّار، حدثنا عثمانُ بنُ عُمَرَ، أخبرنا عَلِيُّ بنُ المباركِ، عن يحيى بنِ أبي كَثِيرٍ، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرةَ، قالَ: كانَ أهلُ الكتابِ يقرأونَ التوراةَ بالعِبْرانِيَّةِ، ويُفَسِّرونها بالعربيةِ لأهلِ الإسلام، فقالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتابِ، ولا تكذبوهم، و﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ الآية.

المقصود بأهل الكتاب هنا اليهود، والعبرانية: لغتهم التي أنزلت التوراة بها، وقد أخبر الله -تعالى- أنهم تعمدوا تحريفها، والزيادة فيها والنقصان منها؛ لتتفق مع أهوائهم، وما يريدون، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يوثق بترجمتهم وتفسيرهم لها، مع أن الله -تعالى- قد أغنانا عما في أيديهم بما أنزل علينا من كتابه المهيمن على جميع الكتب قبله، وبما جاء به نبينا -ﷺ- من الحكمة التي تفسر القرآن وتبينه.

روى الإمام أحمد، وابن أبي شيبة، من حديث جابر، أن عمر أتى النبي -ﷺ- بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» قال الحافظ: «رجاله موثقون إلا أن مجالداً فيه ضعف»[1].

وقد أمرنا الله -تعالى- أن نقول: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

(١) «الفتح» (١٣/ ٣٣٤).

(٢) الآيتان ١٣٦و١٣٧ من سورة البقرة.

وكان رسول الله -ﷺ- كثيراً ما يقرأ هذه الآية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، والآية التي في سورة آل عمران ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾الآية[1] في ركعتي الفجر.

وفي «الدر المنثور»: «أخرج ابن أبي حاتم، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»[2].

قوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم». قال الحافظ: أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً؛ لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً، فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه، فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي -رحمه الله-.

ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات، والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك»[3].

والمقصود أن الترجمة والتفسير ليست هي ذلك الكتاب المترجم أو المفسر، ولا تسمى الترجمة أو التفسير قرآناً، أو إنجيلاً، أو توراة.

«بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره، وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم، وتجويز إقامة الترجمة مقامه في بعض الأحكام لا يقتضي تناول اسمه لها، كما أن القيمة في الزكاة إذا أخرجت عن الإبل أو البقر أو الغنم لم تسم إبلاً ولا بقراً، ولا غنماً، بل تسمى باسمها كائنة ما كانت»[4].

«مع أن أكثر المنتسبين إلى العلم من المسلمين لا يستطيعون القيام بترجمة معاني القرآن، وتفسيره، وبيانه؛ فلأن يعجز اليهود عن ترجمة ما عندهم، وبيانه أولى.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

(٢) (١/ ٣٣٨).

(٣) «الفتح» (٨/ ١٧٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٤٢).

لأن عقل المسلمين أكمل، وكتابهم أقوم قيلاً، وأحسن حديثاً، ولغتهم أوسع، لا سيما إذا كانت تلك المعاني غير محققة، بل فيها باطل كثير، فإن ترجمة المعاني الباطلة وتصويرها صعب؛ لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه»[1].

والمقصود أنه إذا ترجم كتاب الله من لغة إلى أخرى فإن الترجمة ليست هي كلام الله، وإنما هي ترجمة لكلامه تعالى، وهي غير المترجم، بل هي عمل المُتَرْجِم، ومعلوم أن عمل الإنسان مخلوق مثله.

وليس الأمر كما تقوله الأشعرية إن كلام الله لا يختلف باختلاف اللغات، فبأي لسان قرئ فهو كلام الله.

بل إذا ترجم من لغة إلى أخرى، لم يكن هو كلام الله -تعالى-، وهذا هو ما أراد البخاري بيانه فيما يظهر، والله أعلم.

١٦٧- قال: «حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا إسماعيلُ، عن أيوبَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عُمَرَ -رضيَ اللهُ عنهما- قالَ: أُتِي النبيُّ -ﷺ- برجلٍ، وامرأةٍ منَ اليهودِ، قد زَنَيا، فقالَ: ما تصنعونَ بِهما؟ قالوا: نُسَخِّمُ وُجُوهَهُما، ونُخْزيهُما، قالَ: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فجاءُوا فقالُوا لرَجُلٍ ممنْ يَرْضَونَ: يا أَعْوَرُ، اقرأْ، فقرأَ حتى انتهى إلى مَوْضِعٍ منها، فوضعَ يدَهُ عليهِ، قالَ: ارفعْ يَدَكَ، فإذا فيه آيةُ الرَّجْمِ تَلُوحُ، فقالَ: يا محمدُ: إنَّ عَلَيهِما الرَّجْمُ، ولكننا نَتَكاتَمُهُ بيننا، فَأَمَرَ بهما فَرُجِما، فرأيتُهُ يُجانِئُ عليها الحِجارَةَ».

قد أمر الله نبيه أن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله عليه، أو أن يعرض عنهم، فإنهم لا يضرونه شيئاً.

وأخبر تعالى أنهم إذا جاءوه ليحكم بينهم ليس قصدهم حكم الله، فإنهم يعلمونه في كتابهم، وإنما يحكمونه رجاء أن يحكم بينهم بما يهوونه، قال الله -تعالى-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ

---

(١) المرجع (٤/ ١١٧).

تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

فنهى الله -تعالى- رسوله أن يحزن على المسارعين في الكفر من أهل الكتاب وأهل النفاق، الخارجين عن طاعة الله، وطاعة رسله، المقدمين لآرائهم وأهوائهم على شرائع الله -تعالى-، ومن الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم، وقلوبهم خاوية منه، منطوية على الكفر بالله ورسله وعبادة الشهوات، وهم ما بين يهودي قد نصب العداء لله ولدينه ومن اتبعه، فهو يجهد نفسه في محاربته، أو زنديق كره الحق ومن جاء به ومن اتبعه، وكل منهم قد أكل قلبه الحقد على هذا الدين، وعلى من اتبعه، وكل منهم سَمّاع للكذب يقوله، وينميه، ويسمعه ويقبله، وأكّال للسحت غير مبال بعاقبته، وهم مع ذلك أهل تحريف وتزييف؛ اتباعاً لأهوائهم، وبعداً عن الحق، ومحاربة له، يوصي بعضهم بعضاً بعدم قبول ما يخالف أهواءهم، وأنظمتهم التي وضعوها وفق ما يشتهون، وما توحيه إليهم شياطينهم أولئك الذين أراد الله -تعالى- فتنتهم، فلا أحد يملك هدايتهم؛ لأن قلوبهم نجسة فلا تقبل طهارة الإيمان، وإنما هي محل للكفر وكل خلق خبيث.

وقد خير الله رسوله بين الحكم بينهم وبين الإعراض عنهم، وأمره إن حكم أن يحكم بينهم بالعدل، وإن كانوا أعداء لله ورسوله، فإن الله حكم عدل يحب العدل وأهله.

وأخبر تعالى أن أمر هؤلاء عجيب، كيف يحكمونك وعندهم كتاب الله التوراة فيها حكمه واضح لهم، ولكنهم يعرضون عنه طلباً لما يهوونه، وليس هذا شأن المؤمنين، ولكنه نهج الكافرين.

---

(١) الآيات ٤١-٤٣ من سورة المائدة.

روى أبو داود من حديث أبي هريرة قال: «زنى رجل من اليهود، وامرأة، فقال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتياً دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك.

قال: فأتوا النبي -ﷺ- وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما ترى في رجل وامرأة زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب، فقال: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمم ويجبه -والتجبية: أن يحمل الزانيان على حمار، وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما-.

قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه النبي -ﷺ- سكت، ألظ به النشدة، فقال: اللهم إذ نشدتنا، فإنا نجد في التوراة الرجم.

فقال النبي -ﷺ-: فما أول ما ارتخصتم أمر الله؟

قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أمرة من الناس، فأراد رجمه، فحال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم.

فقال النبي -ﷺ-: «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما.

قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ كان النبي -ﷺ- منهم»[1].

فهذه القصة تبين سبب مجيئهم إلى النبي -ﷺ- وأن الذي جاء بالزانيين هم اليهود، رجاء أن يحكم عليهما بغير ما أتى في التوراة من الرجم، ولكنه ﷺ أحيا حكم الله فيها بعد ما أماتوه.

قوله: «ما تصنعون بهما؟» يعني: ما هو حكم الله فيهما الذي في كتابكم؟ فكتموه، وقالوا: «نسخم وجوههما، ونخزيهما» أي: نسود وجوههما بالفحم، ويركبان على حمار يطاف بهما في الطرق، قفا كل واحد إلى قفا الثاني، وهذا هو الخزي الذي يفعلونه بهما.

---

(١) «السنن» (٤/٥٩٨) رقم (٤٤٥٠) وفيه رجل مجهول.

فقال لهم النبي -ﷺ-: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن ما ذكرتم هو حكم الله فيهما الذي في التوراة.

ومعلوم أنهم ينقلون ما فيها بالعربية كما هو ظاهر؛ لأن الرسول -ﷺ- لا يعرف العبرانية.

«فقالوا لرجل ممن يرضون: يا أعور، اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه» يرضون، يعني: يثقون به، وأنه موافق لهم على كتمان آية الرجم، ويحتمل أن الكتاب الذي يقرأ بغير العربية، وأنه يقرأه ويترجمه، ويحتمل أنه قد ترجم إلى العربية، فعلى الأول وضعه يده على الموضع الذي فيه آية الرجم؛ لإخفائها عمن يعرف لغتهم ممن أسلم، أو لا يوافقهم، وعلى الثاني ظاهر.

قوله: «ارفع يدك، قيل: إن القائل عبدالله بن سلام، كما في بعض الروايات، وهذا يؤيد الاحتمال الأول.

«تلوح» يعني: أنها واضحة لمن يقرأ ذلك الكتاب.

«نتكاتمه فيما بيننا» يعني: يتواطئون على كتمانه، وعدم إظهاره لأحد.

«يجانئ عليها الحجارة» يعني: أنه يقيها بنفسه عن الحجارة.

والمقصود: أن الأمر بتلاوة التوراة على من لا يعرف اللغة التي كتبت بها لا بد أن يكون ذلك عن ترجمة لها، ثم اعتماد تلك الترجمة مما يقتضي الاكتفاء بترجمة المترجم وإن كان واحداً.

والترجمة ليست هي المُتَرْجَم، وإنما هي فعل المُتَرْجِم وعمله.

وفعله وعمله مخلوق، وهذا هو المراد بالاستدلال بهذه القصة.

وفيه دلالة ظاهرة في أن اليهود كانوا ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها، وأنهم يعرفون الحق، ولا يتبعونه، بل يتعمدون تركه.

□□□

قالَ: «بابُ قولِ النبيِّ -ﷺ-: «الماهِرُ بالقرآنِ معَ السَّفَرَةِ البَرَرَةِ، وزَيِّنُوا القرآنَ بأصْواتِكُمْ».

قصد البخاري -رحمه الله- بهذا الباب: زيادة إيضاح ما سبق في الأبواب قبل هذا، من أن التلاوة فعل التالي، فهي داخلة في أفعال العباد، ولهذا توصف بالمهارة، وهي جودة الحفظ، وعدم التردد في التلاوة، وتوصف بالحسن والمد، والترتيل، والتطريب، وتحسين الصوت، وبأضداد ذلك، كما سبق وصفها بالترجيع، والخفض، والرفع، ومد الصوت.

وهذا كله يحقق أن التلاوة فعل القارئ الذي يقرأ القرآن.

قوله: «الماهر» قال الأزهري: «الماهر: الحاذق بكل شيء، وأكثر ما يوصف به السابح، يقال: مهرت بهذا الأمر، أمهر به، مهارة: إذا صرت به حاذقاً»[1].

قال الحافظ: «الماهر هو: الحاذق، والمراد به هنا: جودة التلاوة مع حسن الحفظ.

والمراد بالسفرة: الكتبة، جمع سافر، مثل كاتب، وزنه ومعناه، وهم هنا: الذين ينقلون من اللوح المحفوظ[2]، وصفوا بالكرام؛ لكثرة طاعتهم، وبُعدهم عما يشين.

والبررة: المكثرون في الطاعة، المبالغون فيها».

وقال الحافظ: «المطيعون، المطهرون من الذنوب، والكرام: المكرمين عند الله»[3].

ومعلوم أن إكرام الله لهم لطاعتهم، وبرهم.

ورواية مسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران»[4].

---

(١) «تهذيب اللغة» (٦/٢٩٨-٢٩٩).

(٢) «الفتح» (١٣/٥١٨).

(٣) المصدر المذكور.

(٤) انظر مسلم (١/٥٤٩-٥٥٠) رقم(٧٩٨).

فالمهارة بالقرآن: جودة الحفظ، وجودة التلاوة، من غير تردد فيه؛ لأن الله -تعالى- يسره عليه كما يسره على الملائكة الكرام البررة، فكان مثلهم في قراءة القرآن ومعهم في الدرجة عند الله -تعالى-.

وتقدم الكلام على معنى قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وأن المراد به: تحسين الصوت حتى يجذب المستمع إلى الإصغاء إليه، ويجد به لذة، وينفتح له قلبه، وتحسين الصوت فعل العبد، ووصفه، ولهذا قال في «خلق أفعال العباد»:

«فبين النبي -ﷺ- أن أصوات الخلق، وقراءتهم، ودراستهم وتعليمهم، وألسنتهم مختلفة، بعضها أحسن، وأزين، وأحلى، وأصوت، وأرتل، وأعلى، وألحن، وأخف، وأغض، وأخشع، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، وأجهر، وأخفى، وأمهر، وأمد، وألين، وأخفض من بعض، ثم ذكر بسنده عن عائشة -رضي الله عنها-، عن النبي -ﷺ- قال: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يشتد عليه له أجران»[1].

□□□

(١) «خلق أفعال العباد» (٩٣-٩٤).

١٦٨- قال: «حدثني إبراهيمُ بنُ حمزة، حدثني ابنُ أبي حازمٍ، عن يزيدَ، عن محمدِ ابنِ إبراهيمَ عنْ أبي سَلَمَةَ، عن أبي هريرةَ، أنهُ سمعَ النبيَّ -ﷺ- يقولُ: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ، ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَوْتِ بالقرآنِ، يَجْهَرُ بِهِ».

رواية مسلم: «ما أذن الله لشيء، ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»[١].

وكأن قوله «يجهر به» مدرج في الحديث. ومعنى «ما أذن»: ما استمع لشيء كاستماعه لنبي حسن الصوت، يتغنى بالقرآن، فالله -تعالى- يحب حسن الصوت فيمن يتلو كتابه، ويستمع لذلك الصوت أكثر من غيره، وإلا فهو تعالى لا يفوت سمعه صوت.

والقرآن هنا اسم جنس لكل كتاب أنزله الله -تعالى- على نبي من أنبيائه.

وقوله: «يجهر به» تفسير لقوله: «يتغنى به»، وهو كلام لأحد رواة الحديث، وتقدم شرح هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

والمقصود منه هنا قوله: «ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن» فأضاف حسن الصوت إلى النبي؛ لأنه فعله وعمله، وبين أنه مطلوب منه، ومحبوب لله -تعالى-، فتبين بهذا أن التلاوة وتحسين الصوت بها، والجهر بها، وخفض الصوت، كله فعل العبد، والعبد وأفعاله مخلوق.

وأما القرآن الذي يحسن صوته به، ويرفعه أو يخفضه، فهو كلام الله غير مخلوق.

---

(١) انظر «صحيح مسلم» (١/ ٥٤٥).

١٦٩- قال: «حدثنا يحيى بنُ بُكَيْر، حدثنا اللَّيْثُ، عن يُونُسَ، عن ابن شهابٍ، أخبرني عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْر، وسعيدُ بنُ المُسَيَّبِ، وعَلْقَمَةُ بنُ وقاص، وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِاللهِ، عن حديثِ عائشةَ -حينَ قالَ لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، وكُلٌّ حدثني طائفةً مِنَ الحديث- قالت: فاضْطَجَعْتُ على فراشي، وأنا حينئذٍ أعلمُ أني بريئةٌ، وأنَّ اللهَ يُبَرِّئُني، ولكنْ واللهِ ما كنتُ أظنُّ أنَّ اللهَ يُنْزِلُ في شأني وحياً يُتْلَى، ولشأني في نفسي كانَ أحْقَرَ مِنْ أنْ يتكلَّمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتلى، وأنزل اللهُ -عز وجل-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ عشر الآيات كلها».

«الإفك» هو: الكذب الظاهر البين، وهو من عظائم الذنوب.

«طائفة من الحديث» أي: قطعة منه، وهو جمع حديثهم، ولم يكونوا متفقين على جميعه، والقائل هو ابن شهاب الزهري.

«وأنا حينئذ أعلم أني بريئة» يعني: أن ما قاله أهل الإفك بعيد عنها، وليست من أهله، فهي أعلم بنفسها، وعلى يقين من أن الله سيظهر براءتها لنبيه وعباده ويجزي الأفاكين، الذين آذوا رسول الله -ﷺ- وأهله والمؤمنين.

قال أبو بكر ابن العربي: «كل من سب عائشة -رضي الله عنها- بما برأها الله منه فهو مكذب لله، ومن كذب الله، فهو كافر، وهذا قول مالك، وهو أمر واضح لأهل البصائر»[1].

وقال القاضي أبو يعلى: «من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر، بلا خلاف».

وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد، وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.

فروي عن مالك: من سب أبا بكر جلد، ومن سب عائشة قتل، قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن؛ لأن الله -تعالى- قال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: سمعت القاسم بن محمد يقول لإسماعيل ابن إسحاق: أتي أمير المؤمنين بالرقة برجلين شتم أحدهما فاطمة، والآخر عائشة،

(١) «أحكام القرآن» (٣/ ١٣٥).

فأمر بقتل الذي شتم فاطمة، وترك الآخر، فقال إسماعيل: ما حكمهما إلا أن يقتلا؛ لأن الذي شتم عائشة رد القرآن، وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقه والعلم، من أهل البيت وغيرهم.

وقال أبو السائب القاضي: كنت يوماً بحضرة الحسن بن زيد الداعي، وكان بحضرته رجل، فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة، فقال: يا غلام، اضرب عنقه، فقال له العلويون: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذ الله، هذا رجل طعن على النبي -ﷺ-، قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي -ﷺ- خبيث، فهو كافر فاضربوا عنقه، فضربوا عنقه وأنا حاضر. رواه اللالكائي.

وروى عن محمد بن زيد، أخي الحسن بن زيد، أنه قدم عليه رجل من العراق، فذكر عائشة بسوء، فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله، فقيل له: هذا من شيعتنا، ومن بني الآباء، فقال: هذا سَمّى جدي - يعني: رسول الله -ﷺ- قرنان[1]. ومن سمى جدي: قرنان، استحق القتل، فقتله.

وأما سب غير عائشة من أزواج النبي -ﷺ- ففيه قولان: **أحدهما**: أنه كَسَابّ غيرهن من الصحابة.

والثاني: وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين، فهو كقذف عائشة -رضي الله عنها-.

وذلك لأن هذا فيه غضاضة على رسول ا لله -ﷺ- وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده، وهذا ظاهر[2].

---

(١) قال الليث: القرنان: نعت سوء في الرجل، الذي لا غيرة له، قال الأزهري: «هذا من كلام حاضرة العراق، ولم أر البوادي لفظوا به، ولا عرفوه» «تهذيب اللغة» (٩/ ٩٣).

(٢) من «الصارم المسلول» (٥٦٥-٥٦٧).

«وأن الله يبرئني» أي: أنها على علم ويقين بأن الله -تعالى- سيظهر براءتها لنبيه، بأمر يطلعه عليه، إما رؤيا يريها إياه، أو غير ذلك، غير أنها ما كانت تنتظر أن ينزل في شأنها وحياً من كلامه تعالى يتلى إلى يوم القيامة، كما وقع؛ لأنها في نفسها أقل قدراً من أن تتطلع إلى هذا الأمر العظيم.

فأنزل الله -عز وجل- في براءتها بضعة عشر آية.

والمقصود قولها: «والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى»، فبينت أن التلاوة غير المتلو المنزَّل، فالتلاوة فعل العباد، والإنزال والإيحاء والتكلم فعل الله وصفته، كما قال المؤلف في «خلق أفعال العباد»: «فبينت بقولها: «ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحياً يتلى» إن الإنزال من الله، وإن الناس يتلونه»[1].

قال العيني: «مطابقته للترجمة في قوله: «بأمر يتلى» أي: بالأصوات في المحاريب والمحافل»[2]، وتقدم شرح الحديث في باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ ٱللَّهِۚ﴾.

□□□

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٨٦).

(٢) «عمدة القاري (٢٥/ ١٩٣)، وأخذه من الكرماني، انظر شرحه (٢٥/ ٢٣٤).

١٧٠- قال: «حدثنا أبو نُعَيْم، حدثنا مِسْعَرٌ، عن عَدِيِّ بن ثابتٍ، أراهُ عن البَراءِ، سمعتُ النبيَّ -ﷺ- يقرأ في العشاءِ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ فَما سمعتُ أحداً أحسنَ صوتاً -أو قراءةً- منهُ».

ذكر هذا الحديث في كتاب الصلاة، وفيه أنه كان في سفر، وذكر الحافظ في شرحه أن في رواية النسائي: أنها في الركعة الأولى، وذكر في تفسير سورة ﴿وَالتِّين﴾ أن في كتاب الصحابة لأبي علي ابن السكن في ترجمة زرعة بن خليفة، رجل من أهل اليمامة، أنه قال: سمعنا بالنبي -ﷺ- فأتيناه، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، وأسهم لنا، وقرأ في الصلاة بـ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

ثم قال: «فيمكن أن تكون هي الصلاة التي عين البراء بن عازب أنها العشاء، ويقوي ذلك أنا لا نعرف في خبر أنه قرأ بالتين، إلا في حديث البراء بن عازب، ثم حديث زرعة المذكور»[1].

وفيه أن النبي -ﷺ- كان يقرأ في الصلاة أحياناً بقصار المفصل.

وفيه استحباب تحسين الصوت بالقرآن في الصلاة وغيرها.

والمقصود قوله: «فما سمعت أحداً أحسن صوتاً -أو قراءة- منه» فجعل الصوت والقراءة له، فدل على أن الصوت والقراءة ليست هي المصوت به، المقروء، وهو واضح، والإمام البخاري -رحمه الله- يكرر ذلك، وينوع عليه الأدلة؛ لأنه قد خفي على بعض العلماء، ولأنه قد ابتلي بمن يقول: إن القراءة هي المقروء، والتلاوة هي المتلو، ونسب إليه زوراً أنه يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وهو بريء من ذلك.

١٧١- قال: «حدثنا حَجّاجُ بنُ مِنْهال، حدثنا هُشَيْمٌ، عن أبي بِشْرٍ، عن سعيدِ ابنِ جُبَيْر عن ابنِ عباسٍ -رضي اللهُ عنهما- قالَ: كانَ النبيُّ -ﷺ- متوارياً بمكةَ، وكانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، فإذا سَمِعَ المشركونَ سَبُّوا القرآنَ، ومَنْ جاءَ بِهِ، فقالَ اللهُ -عز وجل- لنبيهِ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

تقدم شرح هذا الحديث، والشاهد منه هنا: قوله: «يرفع صوته، فإذا سمع المشركون سبُّوا القرآن» وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾

(١) «الفتح» (٢/ ٢٥٠) و(٨/ ٧١٣-٧١٤).

ويعني بالصلاة: القراءة، فالصوت له -أي للقارئ- ورفعه وخفضه وصف للصوت، وهو الذي إن شاء رفعه، وإن شاء خفضه، فذلك فعله، وهو وفعله مخلوق، أما القرآن الذي يُسِرُّ به صوته، أو يخافت به، أو يبتغي به بين ذلك سبيلا، فهو كلام ربه غير مخلوق، بل هو وصف له.

□□□

١٧٢- قال: «حدثنا إسماعيلُ، حدثني مالكٌ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِاللهِ بنِ عبدِالرحمنِ بنِ أبي صَعْصَعَةَ، عن أبيهِ، أنهُ أخبرَهُ أنَّ أبا سعيدٍ الخدريَّ -رضي الله عنه- قال له: إني أراكَ تُحِبُّ الغَنَمَ والباديةَ، فإذا كُنْتَ في غَنَمِكَ، أو باديَتِكَ فَأَذَّنْتَ للصلاةِ، فارفعْ صَوْتَكَ بالنداءِ، فإنهُ لا يسمعُ مَدَى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إِنْسٌ، ولا شيءٌ، إلا شهدَ لهُ يومَ القيامةِ، قال أبو سعيدٍ: سمعتُهُ منْ رسولِ اللهِ -ﷺ-».

«تحب الغنم والبادية» محبته للبادية تابعة لمحبة الغنم؛ لطلب المراعي لها، وذلك لا يكون إلا في البادية غالباً، والبادية خلاف الحاضرة التي فيها البناء والمدن.

وهي مأخوذة من البدو والظهور؛ لأنها ليس فيها ما يسترها من المباني والحيطان، فهي صحراء، لا عمارة فيها.

«فأذنت للصلاة» الأذان هو: الإعلام بدخول وقت الصلاة، وطلب حضور المصلين لأدائها جماعة، ولا يسمى أذاناً إلا إذا كان برفع الصوت.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾[2]، ولما نزل قول الله -تعالى-: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾[3] أمر رسول الله -ﷺ- برفع الصوت بهذه البراءة في ذلك اليوم، قال أبو هريرة: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله -ﷺ- إلى أهل مكة ببراءة، فكنا ننادي: أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله -ﷺ- عهد فإن أجله -أو أمده- إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر، فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد العام مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صحل صوتي»[4]، أي: بحّ صوته؛ لشدة رفعه.

(١) الآية ٧٠ من سورة يوسف.

(٢) الآية ٢٧ من سورة الحج.

(٣) الآية ٣ من سورة براءة.

(٤) «مسند الإمام أحمد» (٢/ ٢٩٩).

«فارفع صوتك بالنداء» أي: اجتهد في رفع صوتك، ولا تألو، وإلا فأصل الأذان لا يكون إلا برفع الصوت.

قال الحافظ: «فيه إشعار بأن أذان من أراد الصلاة كان متقرراً عندهم؛ لاقتصاره على الأمر بالرفع دون أصل التأذين.

واستدل به الرافعي على استحباب الأذان للمنفرد، وهو الراجح عند الشافعية»[1].

«فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن، ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

مدى الصوت: نهايته، وأقصى ما يبلغه، والمعنى: أن كل من سمع صوته من عاقل وغيره، من البهائم والجمادات -فإن لها سماعاً يعلمه الله -تعالى- فإنها تشهد للمؤذن بالتوحيد عند الله يوم القيامة، وهذه فضيلة عظيمة للأذان، فينبغي أن يحافظ على ذلك ويحرص عليه.

وفي «سنن» أبي داود والنسائي عن أبي هريرة: «المؤذن يغفر له مدى صوته، ويشهد له كل رطب ويابس»، قال الخطابي: «المعنى أنه يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسعه في رفع الصوت، فيبلغ الغاية من المغفرة، إذا بلغ الغاية من الصوت، وقيل: المعنى: لو قدر أن المكان الذي يصل إليه صوته لو كان له ذنوب تملؤه لغفرت»[2].

«وقال النوربشتي: المراد من هذه الشهادة: اشتهار المشهود له يوم القيامة بالفضل وعلو الدرجة، كما يفضح بالشهادة قوماً، فكذلك يكرم بالشهادة آخرين»[3].

---

(١) «الفتح» (٢/ ٨٨).

(٢) «معالم السنن» (١/ ٣٥٤)، و «النسائي» (٢/ ١٣).

(٣) «الفتح» (٢/ ٨٩).

وقال الكرماني: «رفع الصوت بالقرآن، أحق بالشهادة، وأولى»[1].

يعني: أن ذلك مراد البخاري من الحديث.

والظاهر أن مراده: أن أصوات العباد من أفعالهم التي يثابون عليها، أو يعاقبون، ومن ذلك القراءة، والتلاوة، فهي فعل التالي الذي يثاب عليه.

□□□

(١) انظر شرحه للبخاري (٢٥/ ٢٣٥).

١٧٣- قال: «حدثنا قَبيصَةُ، حدثنا سفيانُ، عن منصور، عن أمهِ، عن عائشةَ - رضيَ اللهُ عنها- قالتْ: كانَ النبيُّ -ﷺ- يقرأُ القرآنَ، وَرَأْسُهُ في حَجْرِي، وأنا حائِضٌ».

ترجم لهذا الحديث في الحيض: باب قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض. وكان أبو وائل يرسل خادمه، وهي حائض، إلى أبي رزين فتأتيه بالمصحف، فتمسكه بعلاقته، ثم ذكر الحديث بلفظ: «كان يتكئ في حجري، وأنا حائض، ثم يقرأ القرآن» وفعل أبي وائل يدل على جواز حمل الحائض المصحف، ولكن من وراء حائل، وكذا أبو رزين لو كان ذلك غير جائز عنده لم يمكِّنها من حمله، إلا أن يقال: إنه لم يعلم بحالها. والحجر بفتح الحاء وسكون الجيم وكسرها، هو: حضن الإنسان ما بين يديه من ثوبه.

قال ابن دقيق العيد: «فيه إشارة إلى أن الحائض لا تقرأ القرآن؛ لأن قولها: «فيقرأ القرآن» إنما يحسن التنصيص عليه إذا كان ثمة ما يوهم منعه، ولو كانت قراءة القرآن للحائض جائزة، لكان هذا الوهم منتفياً، أعني: توهم قراءة القرآن في حجر الحائض، ومذهب الشافعي الصحيح: امتناع قراءة الحائض القرآن»[1].

والمقصود من الحديث هنا: أن القراءة غير القرآن، إذ لو كانت القراءة هي القرآن، لما جاز أن يقرأ ورأسه في حجر عائشة وهي حائض.

«قال ابن المنير: ظن الشارح[2] أن غرض البخاري: إثبات جواز قراءة القرآن بتحسين الصوت، وليس كذلك.

وإنما غرضه الإشارة إلى ما تقدم من وصف التلاوة بالحسن، والتحسين، والترجيع، والرفع، والخفض، ومقارنة الحالات البشرية، كقولها: «يقرأ القرآن في حجري وأنا حائض». فكل ذلك يحقق: أن القراءة فعل القارئ، وأنها متصفة بما تتصف الأفعال به، ومتعلقة بالظروف المكانية، والزمانية»[3].

---

(١) «شرح العمدة» (١/ ١٢٧).

(٢) هو ابن بطال.

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥١٩)، وانظر المنواري لابن المنير (ص٤٣١).

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

أمر الله -تعالى- عباده أن يقرءوا ما تيسر من القرآن، وهذا من اليسر عليهم، إذ قيد ذلك بما تيسر، ولم يكلفهم قراءته كله.

والقراءة التي أمر الله عباده بها هي فعلهم، ومعلوم أنهم يتفاوتون في القراءة، وفي الحفظ والتحصيل، وفي جودتها والمهارة في القرآن، وفي الفهم ومعرفة المراد من الخطاب، وغير ذلك. وهذا كله فعلهم وعملهم، الذي يجازون عليه ويثنى عليهم به، ويمدحون، وهذا مراد البخاري -رحمه الله تعالى- من ترجمته بالآية، وسواء أريد بالقراءة الصلاة، أو نفس القراءة، فإن القراءة ركن في الصلاة، وقد يعبر عن الشيء بركنه.

قال الخازن: «فيه قولان: **أحدهما**: أن المراد بهذه القراءة: القراءة في الصلاة؛ لأن القراءة أحد أجزاء الصلاة، فأطلق اسم الجزء على الكل.

الثاني: أن المراد بما تيسر منه دراسته، وتحصيل حفظه، فيقرأ ما سهل عليه حفظه»[1].

وقال الحافظ: «المراد بالقراءة: الصلاة؛ لأن القراءة بعض أركانها»[2].

قال ابن جرير: «يقول: فاقرأوا من الليل ما تيسر لكم من القرآن في صلاتكم، وهذا تخفيف من الله -عز وجل- عن عباده فرضه الذي كان فرض عليهم، بقوله: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾»[3].

وقال القرطبي: «فيه قولان: **أحدهما**: أن المراد نفس القراءة، أي: فاقرأوا فيما تصلُّونه بالليل ما خف عليكم.

والثاني: «فاقرأوا ما تيسر منه» أي: فصلوا ما تيسر عليكم، والصلاة تسمى قرآناً، كقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الفجر»[4].

---

(١) «تفسير الخازن» (٧/ ١٧٠).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٢٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٩/ ١٤١).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٥٣-٥٤).

١٧٤- قال: «حدثنا يحيى بنُ بُكَيْرٍ، حدثنا اللَّيْثُ، عن عُقَيْلٍ، عن ابنِ شهابٍ، حدثني عُرْوَةُ أنَّ المِسْوَرَ بنَ مَخْرَمَةَ، وعبدَالرَّحْمنِ بنَ عَبْدٍ القاريَّ حدثاهُ، أنهما سمعا عُمَرَ بنَ الخطابِ يقولُ: سمعتُ هشامَ بن حكيمٍ يقرأ سورةَ الفرقان، في حياةِ رسولِ اللهِ -ﷺ- فاستمعتُ لقراءتِهِ، فإذا هو يقرأ على حروفٍ كثيرةٍ لَمْ يُقرئنيها رسولُ اللهِ -ﷺ- فَكِدْتُ أساوِرُهُ في الصلاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حتى سَلَّمَ، فَلَبَبْتُهُ بِردائِهِ، فقلتُ: منْ أقرأكَ هذهِ السورةَ التي سمعتُكَ تقرأ؟. قال:أقرأنيها رسولُ اللهِ -ﷺ-، فقلتُ: كَذَبْتَ، أقرأنيها على غيرِ ما قرأتَ.

فانطلقتُ بِهِ أقودُهُ إلى رسولِ اللهِ -ﷺ- فقلتُ: إني سمعتُ هذا يقرأ سورةَ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقرئنيها، فقال: «أرسله، اقرأ يا هشامُ» فقرأ القراءةَ التي سمعتُهُ، فقالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-: «كذلك أُنْزِلَتْ» ثم قال رسول الله -ﷺ-: «اقرأْ يا عمر»، فقرأت، فقال: «كذلك أُنزِلَتْ. إنَّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أَحْرُفٍ، فاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ منهُ».

هشام بن حكيم بن حزام الأسدي، هو وأبوه صحابيان، ممن أسلم يوم الفتح، له فضائل جمة، وكان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فلذلك كان عمر -رضي الله عنهما- إذا بلغه الشيء المكروه يقول: أما ما عشت أنا وهشام فلا يكون ذلك.

قال الحافظ: «تأخر موته إلى خلافة علي بن أبي طالب، ووهم من زعم أنه استشهد في خلافة أبي بكر، وتوفي قبل والده رضي الله عنهما، وعن جميع صحابة رسول الله -ﷺ-[١]، قال ابن سعد: توفي أول خلافة معاوية»[٢].

قوله: «فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة» الخ، يعني: أن قراءة هشام تختلف عمّا قرأه عمر عن رسول الله -ﷺ- في ألفاظ كثيرة، فلذلك ظن عمر رضي الله عنه أن ذلك غلط من هشام.

---

(١) انظر «الفتح» (٩/ ٢٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٢) وانظر «الاستيعاب» (ص١٥٣٨)، و«الإصابة»: الترجمة رقم (٨٩٦٥)، و«أسد الغابة» (٥/ ٣٩٨).

«فكدت أساوره» بالسين المهملة، أي: أواثبه وأجره، قال النابغة:

فبت كأني ساورتني ضئيلة   من الرقش في أنيابها السم ناقع

أي: واثبتني، وفي رواية مالك: «أن أعجل عليه».

ومعنى كدت: قربت من أن أفعل فيه ذلك.

«فتصبرت» أي: حملت نفسي على الصبر، حتى ينتهي من صلاته، وفي رواية مالك: «ثم أمهلت حتى انصرف» يعني: من صلاته، كما قال هنا: «حتى سلَّم».

«فلببته بردائه» أي: أدرت رداءه على رقبته، وجمعت طرفيه عند لبته، وأمسكته خشية أن ينفلت، ولهذا قال: «فانطلقت به أقوده» يعني: بردائه، «فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟» ظن عمر -رضي الله عنه- أن هشاماً أخذ هذه السورة عن غير رسول الله -ﷺ-، فأخطأ الذي أقرأه، أو أنه لم يتقنها، فوقع في مخالفة ما تلقاه عمر من رسول الله -ﷺ، ولهذا لما قال هشام: أقرأنيها رسول الله -ﷺ-، قال له عمر: كذبت، أقرأنيها على غير ما قرأت» وكان عمر رضي الله عنه شديداً في أمر الله -تعالى-، ولهذا ذهب به يقوده بردائه حتى دخل به على رسول الله -ﷺ- فقال له: «إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان» إلى آخره، وقد علم أن من قرأ القرآن على غير ما أنزله الله -تعالى- فقد ارتكب جرماً يستحق العقاب عليه، وهذا هو الذي حمل عمر على ما فعله رضي الله عنه.

«فقال: أرسله، اقرأ يا هشام، فقرأ القراءة التي سمعته» يؤخذ من هذا مشروعية التثبت في الأمور، ووقوف الحاكم بنفسه على الحقائق، وإن كان المخبر موثوقاً به.

«فقال رسول الله -ﷺ-: «كذلك أنزلت» يعني: أنزلت من عند الله على ما قرأه هشام، ولم يكن مخطئاً كما ظنه عمر -رضي الله عنه-.

«ثم قال رسول الله -ﷺ-: اقرأ يا عمر، فقرأت، فقال: كذلك أنزلت».

يعني: أن الله أنزل هذه السورة على ما قرأه عمر، فعمر وهشام كلاهما مصيب في قراءته؛ لأن القرآن نزل على أكثر من حرف، بل على سبعة أحرف.

وأما قول الحافظ: «وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله -ﷺ- قديماً، ثم لم يسمع ما أنزل فيها، بخلاف ما حفظه وشاهده.

ولأن هشاماً من مسلمة الفتح، فكان النبي -ﷺ- أقرأه ما نزل أخيراً فنشأ اختلافهما من ذلك»[1]. ففيه نظر، إذ لو كان الأمر على ما ذكره لقال الرسول -ﷺ- لعمر: إن هذه الأحرف التي سمعتها من هشام نزلت بعد ما قرأت هذه السورة، ولكنه قال بعد ما سمع قراءة كل واحد منهما: «كذلك أنزلت»، فتبين أن كلاً من الحروف التي قرأها هشام، والحروف التي قرأها عمر، نزلت من عند الله.

وليس في قراءة هشام زيادة عما عند عمر في الآيات، وإنما هناك اختلاف في الحروف فقط، ومن أجل ذلك قال لكل واحد منهما بعد ما سمع قراءته: «كذلك أنزلت» ويوضح ذلك قوله: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه» أي: لا تتكلفوا التزام حرف واحد، فإن الله -تعالى- قد أوسع عليكم، ويسر لكم قراءة القرآن على سبعة أحرف، رحمة منه وفضلاً، فله الحمد والمنة.

قال الجزري: «نزل القرآن على سبعة أحرف؛ للتخفيف على هذه الأمة واليسر بها، والتهوين عليها؛ شرفاً لها وتوسعة ورحمة؛ لأن العرب الذين نزل القرآن بلغاتهم، لغاتهم مختلفة، ويعسر على أحدهم انتقاله من لغته إلى غيرها، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك، ولا بالتعليم والعلاج، ولا سيما الشيخ والمرأة الكبيران، ومن لا يقرأ كتاباً، كما أشار إليه النبي -ﷺ- بقوله: «بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبيرة»[2].

ومعنى الحرف كما قال أهل اللغة: حرف كل شيء طرفه وحافته، وأحد حروف التهجي، كأنه قطعة من الكلمة[3].

وقد اختلف العلماء في تعيين الحروف السبعة اختلافاً كثيراً، وأشكل ذلك على كثير من العلماء.

---

(١) «الفتح» (٩/ ٢٦).

(٢) النشر (١/ ٧١-٧٢) ملخصاً.

(٣) سيأتي معنى الحرف أيضاً في كلام ابن قتيبة.

فقيل: الحروف السبعة: سبع لغات من لغات العرب مفرقة في القرآن، ورد هذا القول ابن جرير، وابن عبدالبر، وغيرهما، ودل على عدم صحته هذا الحديث؛ لأن هشاماً وعمر كلاهما قرشي، فلغتهما واحدة، ولا يعقل أن الرسول -ﷺ- يعلم الرجل القرآن بغير لغته.

وقيل: المراد بها: تأدية المعنى الواحد باللفظ المرادف، ولو كان من لغة واحدة؛ لأن هشاماً وعمر لغتهما واحدة، وقد اختلفت قراءتهما.

اختار هذا القول ابن جرير الطبري، وابن عبدالبر، وقال: إنه قول أكثر العلماء، وهذا هو الصواب، كما يأتي بيانه.

«وقال الداني: معنى نزول القرآن على سبعة أحرف يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه نزل على سبعة أوجه من اللغات متغايرة في القرآن.

الثانـي: أنها قراءات سميت أحرفاً؛ لعادة العرب في تسمية الشيء باسم ما هو منه.

وقد أجمع العلماء على أنه لم يقصد أن كل حرف يقرأ على سبعة أوجه، إذ لا يوجد ذلك إلا في كلمات معدودة، نحو «أف» و«جبريل» و«أرجه» و«هيهات» و«هيت».

كما أجمعوا أنه ليس المراد بالأحرف السبعة: قراءات القراء السبعة الذين اشتهروا بذلك؛ لأن أول من جمع قراءاتهم ابن مجاهد في أثناء المائة الرابعة.

وأكثر العلماء على أنها لغات، كما قال أبو عبيد: إنها سبع لغات متفرقة في القرآن»[1].

وهذا خلاف ما قاله ابن عبدالبر: إن أكثر أهل العلم على أن المراد تأدية المعنى الواحد بألفاظ مترادفة، وإن كان ذلك في لغة واحدة كما سبق قريباً، وتقدم أن هذا الحديث يؤيد صحة هذا القول، ويرد ما قاله الداني: إنه قول أكثر العلماء.

---

(١) النشر (١/ ٧٤-٧٥) ملخصاً.

قال الجزرى -رحمه الله- «ما زلت أستشكل هذا الحديث، وأفكر فيه، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة، حتى فتح الله عليَّ بما يمكن أن يكون صواباً إن شاء الله -تعالى-، وذلك أني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها، وضعيفها، ومنكرها، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف، لا يخرج عنها.

(١) إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة، نحو «البخل» بأربعة، و«يحسب» بوجهين.

(٢) أو بتغير في المعنى فقط، نحو: (فَتَلَقَّى آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ)[1]، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾ و «أمه»[2].

(٣) وإما في الحروف بتغير المعنى، لا الصورة، نحو «تبلوا» و«تتلوا» (نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ)، ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾[3].

(٤) أو عكس ذلك [أي بتغير الحروف مع اتفاق المعنى] نحو «بصطة» و«بسطة» و«الصراط» و«السراط».

(٥) أو بتغيرهما نحو «أشد منكم» و«أشد منهم»، و«يأتل» و«يتأل» و(فامضوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ) و﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾.

(٦) أو بالتقديم والتأخير نحو ﴿فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾و(وَيُقْتَلُونَ فَيَقْتُلُونَ)، و﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ و(جَاءَتْ سَكْرَةُ الحَقِّ بِالْمَوْتِ).

(٧) أو في الزيادة والنقصان، نحو «وأوصى» و«وصى» و﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾و«والذكر والأنثى».

وأما اختلاف الإظهار والإدغام، والروم والإشمام، والتفخيم والترقيق، والمد والقصر، والإمالة والفتح، والتخفيف والتسهيل، والإبدال والنقل، ونحو ذلك مما يعبر عنه بالأصول، فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى»[4].

(١) يعني: بنصب آدم، ورفع كلمات، عكس القراءة المشهورة.

(٢) بالتاء المربوطة، وبالهاء.

(٣) الأولى بالحاء المهملة، والثانية بالجيم المشددة.

(٤) النشر (١/ ٧٧-٧٨).

وقال ابن قتيبة -رحمه الله- «وقد غلط في تأويل هذا الحديث قوم، فقالوا: السبعة الأحرف: وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج.

وقال آخرون: هي سبع لغات في الكلمة، وليس شيء من ذلك لهذا الحديث بتأويل.

ومن قال: فلان يقرأ بحرف «أبي عمرو»[1]، أو بحرف «عاصم»[2]، فإنه لايريد شيئاً مما ذكر، وليس يوجد في كتاب الله -تعالى- حرف قرئ على سبعة أوجه يصح، فيما أعلم.

وإنما تأويل قوله -ﷺ-: «نزل القرآن على سبعة أحرف»: على سبعة أوجه من اللغات، متفرقة في القرآن، يدلك على ذلك قول رسول الله -ﷺ-: «فاقرءوا كيف شئتم»، وقصة عمر مع هشام، وقوله ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه».

فمن قرأه، قراءة عبدالله بن مسعود، فقد قرأ بحرفه، ومن قرأ قراءة أُبيّ بن كعب، فقد قرأ بحرفه، ومن قرأ قراءة زيد بن ثابت، فقد قرأ بحرفه.

والحرف يطلق على أحد حروف المعجم، وعلى الكلمة الواحدة، وعلى الكلام المؤلف في معنى، أو معان كثيرة، كما يقال: قال الشاعر في كلمته -يعني: قصيدته-.

وقال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[5]، أراد سبحانه وتعالى: من يعبد الله على الخير يصيبه، من تثمير المال، وعافية البدن، وإعطائه السؤال، فهو مطمئن ما دام ذلك له.

---

(١) هو: أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازني، المقرئ، أحد الأئمة السبعة، توفي سنة (١٥٤هـ).

(٢) هو عاصم بن أبي النجود، المقرئ المشهور، توفي سنة (١٢٧هـ).

(٣) الآية ٧٤ من سورة التوبة.

(٤) الآية ٢٦ من سورة الفتح.

(٥) الآية ١١ من سورة الحج.

وإن امتحنه الله تعالى باللأواء في عيشه، والضراء في بدنه وماله، كفر به.

فهذا عَبَدَ اللهَ على وجه واحد، وهو معنى الحرف، ولو عَبَد الله على الشكر للنعمة، والصبر للمصيبة، والرضا بالقضاء، لم يكن عبد الله على حرف.

وقد تدبرت وجوه الخلاف في القراءات، فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف في إعراب الكلمة، أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتابة، ولا يغير معناها، نحو قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ و(أَطْهَرَ لَكُمْ)[1]، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (وَهَلْ يجازى إلاّ الْكَفُورَ)، و﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ والبَخَلِ[2] ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾«وميسُرة»[3].

الوجه الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة، وحركات بنائها بما يغير معناها، ولا يزيلها عن صورتها في الكتابة، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ و«رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»[4]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ و(تَلِقُونَه)[5]، و﴿ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وبعد أَمه[6].

الوجه الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها، بما يغير معناها، ولا يزيل صورتها، نحو قوله تعالى ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾، وننشرها، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وفرغ.

الوجه الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة، ولا يغير معناها، نحو قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وقوله: «إلاّ زقية واحدة»، وقوله: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ و«كالصوف المنقوش».

---

(١) الثانية بنصب الراء.

(٢) بفتح الخاء.

(٣) بضم السين.

(٤) الأولى بفتح الباء على صورة الدعاء، والثانية بضم الباء وفتح العين والدال، خبر.

(٥) بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف، من الولق، وهو الكذب.

(٦) أي: بعد نسيان له.

الوجه الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها، ومعناها، ونحو قوله: «وطلع منضود» في موضع، و﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ في موضع آخر.

الوجه السادس: أن يكون الاختلاف في التقديم، والتأخير، نحو ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ وفي موضع آخر «وجاءت سكرة الحق بالموت».

الوجه السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة، والنقصان، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ و«إن [الله] الغني الحميد».

وكل هذه الحروف كلام الله -تعالى- أنزل به الروح الأمين، على رسوله -ﷺ- وكان يعارضه في كل سنة، في شهر رمضان، وفي السنة التي توفي فيها رسول الله -ﷺ- عارضه مرتين، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء، وينسخ ما يشاء، وييسر على عباده ما يشاء، فكان من تيسيره أن أمره أن يقرئ كل قوم من العرب بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم.

فالهذلي يقرأ «عتى حين» يريد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ لأنه هكذا ينطق بها.

والأسدي يقرأ «تِعْملون» و«تِعلم» و«يَسْوَدُّ وجوه» و«ألم إعْهَدْ إليكم».

والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز، فلو أمر كل واحد أن يلتزم لغة غيره لصعب عليه مفارقة ما جرت عليه عادته، وما نشأ عليه، ولم يمكنه ذلك إلا بمشقة، وبعد رياضة طويلة.

فأراد الله رحمة منه، ولطفاً بعباده، أن يجعل لهم متسعاً في لغاتهم يناسب تيسيره عليهم في الدين.

فإن قيل: أليس هذا اختلافاً، وقد قال الله -تعالى-: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾.

قيل: الاختلاف نوعان: اختلاف تضاد، وهو الذي نفاه الله -تعالى- عن كتابه، مثل أن ينهى عن شيء، ويأمر به في مكان آخر، أو ينفي الشيء، ويثبته في مكان آخر، ونحو ذلك، وهذا لا وجود له في كتاب الله -تعالى-.

الثاني: اختلاف تنوع وتغاير، وهو جائز في الكلام، وكثير؛ لأن كل واحد لا ينافي الآخر، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بفتح التاء من «علمت» وضمها؛ لأن موسى -عليه السلام- خاطب فرعون بهذا، وهذا، فأنزل الله المعنيين جميعاً.

ومثلها قوله تعالى: «ننشرها» و«ننشزها» فالانتشار: الإحياء، والإنشاز: هو التحريك، والحياة حركة، فلا فرق بينهما.

وكذلك «فزع عن قلوبهم» و«فرغ»؛ لأن فزع: خفف عنها الفزع، وفرغ: أزيل، وأخليت منه، وكل ما في القرآن من تقديم وتأخير، أو زيادة أو نقصان، فعلى مثل هذه السبيل.

فإن قيل: هل يجوز أن نقرأ بجميع هذه الأوجه؟

قيل: كل ما كان منها موافقاً لرسم المصحف [وقرأ به الأئمة، ونقل نقلاً متواتراً] جاز لنا أن نقرأ به؛ لأن الصحابة قد أجمعوا على ما فعله أمير المؤمنين، وحرقوا ما خالف المصحف الإمام، فلا يجوز لأحد أن يخالف المصحف الذي أجمع عليه الصحابة، رضوان الله عليهم، كما لا يجوز أن نكتب مصحفاً مخالفاً له[1].

وقال الحافظ: «اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة، أبلغها أبو حاتم ابن حبان إلى خمسة وثلاثين قولاً.

وقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، يدل على التوسعة في القراءة، والتيسير، وهذا يقوي قول من يقول: المراد بالأحرف: تأدية المعنى باللفظ المرادف، ولو كان من لغة واحدة؛ لأن هشاماً وعمر لغتهما واحدة، ونقل ابن عبدالبر عن أكثر أهل العلم أن هذا هو المراد بالأحرف السبعة.

وذهب أبو عبيد وآخرون إلى أن المراد: اختلاف اللغات، واتفقوا على أنه ليس المقصود أن كل كلمة تقرأ بسبع لغات.

---

(١) «تأويل مشكل القرآن» (ص٣٤-٤٢) ببعض التصرف والتلخيص.

ولا يقصد أن التوسعة في القراءة تقع بالتشهي حسب مراد المتكلم، إذا أراد أن يغير الكلمة بمرادفها، بل لا بد في ذلك من السماع من الرسول -ﷺ-. ولهذا جاء أن كل واحد من المختلفين الذين على عهد النبي -ﷺ- يقول:أقرأني النبي -ﷺ-، وإن كان وجد من كان يقرأ بذلك، وإن لم يكن مسموعاً من النبي -ﷺ-، مثل قراءة ابن مسعود (عَتَّى حِين) بلغة هذيل، وقد أنكر عليه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وكتب إليه: «إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل» وهذا قبل أن يجمع أمير المؤمنين عثمان -رضي الله عنه- الناس على مصحف واحد، بقراءة واحدة.

وحاصل ذلك أن معنى قوله: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أنه أنزل موسعاً على القارئ أن يقرأه على سبعة أوجه، بأن يقرأ بأي حرف أراد منها على البدل من الآخر، وذلك لتسهيل قراءته، إذ لو أخذوا بأن يقرأوه على حرف واحد لشق عليهم»[1].

وقال ابن عبدالبر: «وفي حديث عمر مع هشام رد لقول من قال: إنها سبع لغات؛ لأن عمر قرشي عدوي، وهشام بن حكيم بن حزام قرشي أسدي، ومحال أن ينكر عليه عمر لغته، كما أنه محال أن يقرئ رسول الله -ﷺ- واحداً منهما بغير ما يعرفه من لغته.

والأحاديث الصحاح المرفوعة كلها تدل على نحو ما يدل عليه حديث عمر هذا.

وقالوا: إنما معنى السبعة الأحرف: سبعة أوجه من المعاني، المتفقة المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو أقبل، وتعال، وهلم، وعليَّ. وعلى هذا الكثير من أهل العلم»[2].

وهذا هو الصحيح، والأخبار الصحيحة والآثار عن علماء الأمصار تدل على صحة هـذا القول، وأنه الصواب، مثل ما رواه الإمام أحمد، وابن جرير، وابن

---

(١) «الفتح» (٩/ ٣٠).

(٢) «التمهيد» (٨/ ٢٨١).

عبدالبر، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «قال جبريل: اقرأوا القرآن على حرف، فقال مكائيل: استزده، فقال: على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف، ما لم يختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، كقولك: هلم، وتعال»، وفي رواية ابن عبدالبر: «فقال مكائيل: استزده، حتى بلغ إلى سبعة أحرف، فقال: اقرأه فكل شاف كاف، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، وعلى نحو: هلم، وتعال، وأقبل، واذهب، وأسرع، وعجل»[1].

وروى الإمام أحمد، والطبري، من حديث أبي هريرة ، أن النبي -ﷺ- قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، غفوراً رحيماً، عزيزاً حكيماً، عليماً حكيماً» وربما قال: «سميعاً بصيراً»[2]، قال ابن عبدالبر:

«وقوله: سميعاً عليماً، وغفوراً رحيماً، وعليماً حكيماً، أراد به ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها، وأنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى، وضده، وما أشبه ذلك، وهذا كله يعضد قول من قال: إن معنى السبعة الأحرف: سبعة أوجه من الكلام المتفق معناه، المختلف لفظه، نحو: هلم، وتعال، وعجل، وأسرع، وانظر، وأخر»[3].

وذكر عن الزهري أنه قال: «إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد، ليس تختلف في حلال، ولا حرام»[4].

وذكر عن أُبيّ بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ «مروا فيه، سعوا فيه»، كل هذه الأحرف كان يقرؤها أُبيّ بن كعب، فهذا معنى الحروف المراد بهذا الحديث[5].

---

(١) «المسند» (٥/ ٥١)، والطبري (١/ ٢٣)، والتمهيد (٨/ ٢٩٠).

(٢) «المسند» (٢/ ٣٣٢)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٢).

(٣) «التمهيد» (٨/ ٢٨٤).

(٤) «التمهيد» (٨/ ٢٩١).

(٥) المصدر نفسه.

وروى ابن جرير أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلاً) فقال بعض القوم: يا أبا حمزة، إنما هي «وَأَقْوَمُ» فقال: أقوم، وأصوب وأهيأ، واحد»[1].

وروي عن سعيد بن المسيب: أن الذي ذكر الله -تعالى ذكره- أنه قال: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ إنما افتتن أنه كان يكتب الوحي، فكان يملي عليه رسول الله -ﷺ-: سميع عليم، أو عزيز حكيم، أو غير ذلك من خواتم الآي، ثم يشتغل عنه رسول الله -ﷺ- وهو على الوحي، فيستفهم رسول الله -ﷺ- فيقول: أعزيز حكيم؟ أو سميع عليم؟ أو عزيز عليم؟ فيقول له رسول الله -ﷺ-: أي ذلك كتبت، فهو كذلك. ففتنه ذلك، فقال: إن محمداً وَكَلَ ذلك إليَّ، فاكتب ماشئت. وهو الذي ذكر لي سعيد بن المسيب من الحروف السبعة[2].

ومما يسأل عنه، هل هذه الحروف السبعة موجودة في المصحف الذي بين أيدي المسلمين؟ أو أنها كانت زمن الرسول -ﷺ-، والخليفتين بعده، وصدرا من خلافة عثمان -رضي الله عنهم- ثم لما جمع عثمان الناس على مصحف واحد، تركت الحروف الستة، أو بعضها؟

قال الحافظ: «قال أبو شامة: وقد اختلف السلف في الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، هل هي مجموعة في المصحف الذي بأيدي الناس اليوم، أو ليس فيه إلا حرف واحد منها؟

مال ابن الباقلاني إلى الأول، وصرح الطبري وجماعة بالثاني، وهو المعتمد.

وقد أخرج ابن أبي داود في المصاحف، عن أبي الطاهر بن أبي السرح، قال: سألت ابن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين، والعراقيين: هل هي الأحرف السبعة؟ قال: لا، وإنما الأحرف السبعة مثل: هلم، وتعال، وأقبل، أي ذلك قلت أجزاك» قال: وقال لي ابن وهب مثله.

(١) «تفسير ابن جرير» (١/ ٥٢).

(٢) «تفسير ابن جرير» (١/ ٥٤) تحقيق محمود شاكر.

والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله، المقطوع به، المكتوب بأمر النبي -ﷺ- وفيه بعض الأحرف التي اختلف فيها من الأحرف السبعة، لا جميعها، كما وقع في المصحف المكي ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في آخر براءة، وفي غيره بحذف «من».

وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار في عدة واوات، ونحو ذلك، وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معاً، وأمر النبي -ﷺ- بكتابته لواحد، أو اثنين، [وعلمه بعض الصحابة]، وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم، فهو مما كانت القراءة جائزة به توسعة على الناس، وتسهيلاً، فلما آل الأمر إلى ما وقع من الاختلاف في زمن عثمان -رضي الله عنه- وكفَّر بعضهم بعضاً، اختار الصحابة -رضي الله عنهم- الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته، وتركوا الباقي.

قال الطبري: وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار على حرف واحد، كمن اقتصر مما خير فيه على خصلة واحدة؛ لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة، لم يكن على سبيل الإيجاب، بل على سبيل الرخصة.

قلت: ويدل عليه قوله ﷺ في حديث الباب: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وقال أبوالعباس ابن عمار: أصح ما عليه الحذاق: أن الذي يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون في قراءتها، لا كلها، [فما وافق رسم المصحف من تلك الحروف جازت القراءة به مع التواتر]، وما خالفه مثل: «أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»، ومثل: «إذا جاء فتح الله والنصر» فهو من تلك القراءات التي تركت، إن صح سندها، ولا يكفي صحة سندها في إثبات كونها قرآناً، ولا سيما والكثير منها مما يحتمل أن يكون من التفسير الذي قرن إلى التنزيل، فصار يظن أنه منه»[1].

وقال البغوي في «شرح السنة»: «المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العرض على رسول الله -ﷺ-، فأمر عثمان -رضي الله عنه- بنسخه في المصاحف، وجمع الناس عليه، وأذهب ما سوى ذلك؛ قطعاً لمادة الخلاف، فصار ما

---

(١) «الفتح» (٩/ ٣٠).

يخالف خط المصحف في حكم المنسوخ، والمرفوع، كسائر ما نسخ، ورفع، فليس لأحد أن يعدو في اللفظ إلى ما هو خارج عن الرسم»[1].

قال ابن عبدالبر: المصحف الذي بأيدي الناس اليوم هو منها حرف واحد، وعليه أهل العلم.

ثم ذكر عن مالك أنه سئل عمن يقرأ بمثل ما قرأ عمر بن الخطاب: «فامضوا إلى ذكر الله؟» فقال: ذلك جائز، قال رسول الله -ﷺ-: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرءوا منه ما تيسر»، مثل «تعلمون، ويعلمون، لا أرى في اختلافهم في مثل هذا بأساً.

ثم قال: قال ابن وهب: أخبرني مالك بن أنس، قال: أقرأ عبدالله بن مسعود رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ فجعل الرجل يقول: طعام اليتيم، فقال له ابن مسعود: طعام الفاجر، فقلت لمالك: أترى أن يقرأ كذلك؟

قال: نعم، أرى ذلك واسعاً.

قال: معناه عندي: أن يقرأ به في غير الصلاة[2] ، وإنما ذكرنا عن مالك تفسيراً لمعنى الحديث، وإنما لم نجز القراءة به في الصلاة؛ لأن ما عدا مصحف عثمان فلا يقطع عليه، وإنما يجري مجرى السنن، التي نقلها الآحاد، لكن لا يقدم أحد على القطع في رده.

وذكر عن ابن القاسم أنه قال: أرى أن على الإمام أن يمنع من يبيع مصحف ابن مسعود، وأن يضرب من قرأ به، ويمنعه.

وقد قال مالك: من قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود، أو غيره من الصحابة مما يخالف المصحف، لم يصل وراءه.

وعلماء المسلمين مجمعون على ذلك، إلا قوماً شذوا، لا يعرج عليهم.

---

(١) «الفتح» (٩/ ٣٠)، وانظر «شرح السنة» (٤/ ٥١١)، وقد تصرف الحافظ فيه.

(٢) الظاهر أن ابن مسعود أراد أن يفسر الأثيم، ويبين معناه له.

وهذا كله يدلك على أن السبعة الأحرف التي أشير إليها في الحديث ليس بأيدي الناس منها إلا حرف زيد بن ثابت الذي جمع عليه عثمان -رضي الله عنه- المصحف.

وذكر بسنده إلى أبي الطاهر، قال: سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين، والعراقيين، هل تدخل في السبعة الأحرف؟ فقال: لا. وإنما السبعة الأحرف كقولهم: هلم، أقبل، تعال، أي ذلك قلت أجزأك.

قال أبو طاهر: وقاله ابن وهب.

قال أبو بكر محمد بن عبدالله الأصبهاني المقرئ: معنى قول سفيان هذا أن اختلاف العراقيين، والمدنيين، حرف واحد، من الأحرف السبعة، وبه قال محمد بن جرير الطبري.

وقال أبو جعفر الطحاوي: كانت هذه السبعة للناس في الحروف؛ لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها؛ لأنهم كانوا أميين، لا يكتبون إلا القليل منهم، فكان يشق على كل ذي لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له، إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ، إذا كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر من يكتب منهم، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول الله -ﷺ- فقرأوا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها.

وبان بما ذكرناه أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد»[1].

فإن قيل: هذه الأحرف أنزلها الله، وعلمها الرسول -ﷺ- الصحابة، فثبتت لديهم من كلام الله، وتركها وعدم الاعتناء بها وحفظها ونقلها يكون تفريطاً من الأمة بما كلفت بحفظه.

(١) «التمهيد» (٨/ ٢٩١-٢٩٤).

قيل: الأمر كذلك أن الله أنزلها قرآناً، والرسول -ﷺ- علمها الصحابة، وحفظهم إياها، ولكن الأمة لم تفرط بحفظها، ولم تضيع ما كلفت به، وإنما جعل الأمر إليها، فخيرت في قراءة القرآن بأي حرف من الأحرف السبعة شاءت، مثل تخييرها في كفارة اليمين بين ثلاثة الأشياء، المذكورة في الآية، إما عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، فلو أجمعوا على التكفير بواحدة من الثلاث دون حصر التكفير بأي واحدة من الثلاث شاء المكفر لكان ذلك صواباً، مؤدياً للواجب من حق الله -تعالى-. فكذلك مسألة الأحرف السبعة، فإن الله خيرهم فيها توسعة لهم وتسهيلاً عليهم، فإذا رأت الأمة الاقتصار على حرف واحد، من الأحرف السبعة؛ لأمر أوجب ذلك، من خوف الاختلاف، والكفر الذي قد يكون من بعضهم لبعض بسبب القراءة بالأحرف السبعة، كان الصواب -بل الواجب- هو الاقتصار على حرف واحد منها، مع أمن الاختلاف، والتفرق. وهذا ما أدركه الخليفة الثالث، ووافقه عليه أصحاب الرسول -ﷺ- فكان فيه الخير، والرشد، والهدى، وقد أوضح ذلك الإمام ابن جرير في مقدمة التفسير[1].

ومقصد البخاري: قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ فأسند القراءة إليهم، مما يدل على أنها فعلهم، ولما فيها من وصف التيسير، فإنهم يختلفون في ذلك، فمنهم من يسر له أكثر مما ييسر لغيره، ولما فيه من اختلاف قراءتهم، فكل واحد منهم قرأ بغير قراءة الآخر، فالاختلاف وصف لقراءتهم، لا للقرآن، وهذا كله يدل على أن ذلك فعلهم، وهو المقصود.

□□□

(١) انظر (١/ ٥٨) بتحقيق محمود شاكر.

قالَ: بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

وقال النبي -ﷺ-: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» يقال: ميسر: مهيأ.

وقال مجاهد: يَسَّرْنا القرآنَ بلسانك، هَوَّنّا قراءتَهُ عليكَ.

وقال مَطَرٌ الوَرّاقُ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قالَ: «هَلْ مِنْ طالبِ علمٍ فيُعانُ عليهِ».

قال العيني: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: سهلناه للادكار والاتعاظ.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ﴾ متعظ، وأصل «مدكر» مفتعل من الذكر، قلبت التاء دالاً، ثم أدغمت في الأخرى[1].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ولقد سهلنا القرآن، بيناه، وفصلناه للذكر، لمن أراد أن يتذكر، ويعتبر، ويتعظ، وهوناه.

ثم روى عن مجاهد أنه قال: هوناه، وعن ابن زيد، قال: بيناه.

ثم قال: وقال بعضهم: هل من طالب علم، أو خير، فيعان، وهو قريب المعنى مما قلناه»[2].

وقال ابن كثير: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[4]، وقال مجاهد: يعني: هونا قراءته.

وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن.

(١) «عمدة القاري» (٢٥/ ١٩٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٧/ ٩٦).

(٣) الآية ٢٩ من سورة ص.

(٤) الآية ٩٧ من سورة مريم.

وقال الضحاك: عن ابن عباس: «لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل»[1].

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ استفهام أريد به الحض على التذكر، ولا بد قبل التذكر من التعلم، فالله -تعالى- قد سهل طريق حفظ القرآن، وفهمه، وثمرة ذلك: العمل به، والاتعاظ بمواعظه.

قال ابن كثير ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟[2].

وقال القسطلاني: «ولقد سهلناه للحفظ، وأعنا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه، ويروى أن كتب أهل الأديان كالتوراة والإنجيل، لا يتلوها أهلها إلا نظراً، ولا يحفظونها ظاهراً كالقرآن»[3].

وقول مجاهد، تقدم أن ابن جرير رواه بسنده عنه، وقال الحافظ: رواه الفريابي في تفسيره بسنده.

وقوله: «**هوَّنَّا قراءته عليك**» لا يريد اختصاص النبي -ﷺ- بذلك، فإن ظاهر الآية يدل على العموم، ولهذا قال: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، وإنما يريد تهوين قراءته على كل من أقبل عليه صادقاً، ويدخل في ذلك فهم معانيه، فإن الله -تعالى- قد يسرها لمن تدبره.

وقول مطر الوراق، سبق أن ابن جرير رواه بسنده، وقال: إنه قريب المعنى مما قلناه، يعني: فصلناه، وبيناه، لمن أراد الفهم والتذكر، والاتعاظ، وذلك لما في لفظ التيسير مما يدل على التسهيل، والإعانة، وما يدل عليه الاستفهام من إرادة ذلك، والله أعلم. ومقصود البخاري: أن حفظ كتاب الله، وفهمه، والتذكر به والاتعاظ، وكذلك تلاوته وقراءته، كل ذلك عمل العبد الذي يطلب من ربه أن يعينه عليه، ويسهله له، وقد وعد بذلك جل وعلا.

أما المفهوم المحفوظ المتلو فهو غير فعل العبد المخلوق، بل هو كلام الله وصفته.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٥٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «إرشاد الساري» (١٠/ ٤٦٩).

١٧٥- قال: «حدثنا أبو مَعْمَر، حدثنا عبدُ الوارثِ، قالَ: حدثنا يزيدُ، حدثني مُطَرِّفُ بنُ عبدِاللهِ، عن عِمْرانَ، قَالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، فيما يَعْمَلُ العاملونَ؟ قال: كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

هذا السؤال تكرر لرسول الله -ﷺ- من عدد من أصحابه، فبين لهم أن الله - تعالى- قد علم أهل الجنة وأهل النار قبل وجودهم، وأنه تعالى قد كتب ذلك في الأزل، ونهاهم -ﷺ- أن يتكلوا على ذلك الكتاب، ويدعوا العمل.

وكأنه عرض لهم أنه إذا كان أهل الجنة قد علموا، وكتبوا، وكذلك أهل النار، فلا فائدة في العمل والاجتهاد، فإنه لا بد من حصول المكتوب، فأجابهم عن ذلك بقوله: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، يعني: أن الذي كتب من أهل الجنة سوف يهيئ الله له أسباب عمل أهل الجنة، وييسرها له فيعملها، فتكون سبباً لدخوله الجنة. وكذلك الذي كتب من أهل النار، لا بد أن يعمل عملاً يستحق به دخول النار، وقد أوضح ذلك النبي -ﷺ- إيضاحاً تاماً.

ففي سنن أبي داود، والترمذي، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؟ فقال: سمعت رسول الله -ﷺ- سئل عنها فقال: «إن الله -عز وجل- خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله -ﷺ-: «إن الله -عز وجل- إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»[1].

(١) انظر «السنن» لأبي داود (٥/ ٧٩-٨٠)، والترمذي (٥/ ٢٦٦) رقم (٣٠٧٥) وقال: حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٤، ٤٥)، وابن وهب في «كتاب القدر» (ص٧٣).

وفي «صحيح مسلم» عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء»[1].

وفيه أيضاً عن أبي الأسود الدِّئلِيِّ، قال: قال لي عمران بن الحصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟

فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم.

قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟

قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كل شيء خلق الله، وملك يده، فلا يسأل عما يفعل، وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا حزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله -ﷺ- فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟

فقال: «لا، بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم، وتصديق ذلك كتاب الله -عز وجل-: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾»[2].

وروى ابن وهب عن عبدالله بن عمرو، قال: خرج علينا رسول الله -ﷺ- وفي يده كتابان، فقال: «هل تدرون ما هذان الكتابان؟» فقلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، فقال للذي بيده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، وأجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً».

---

(١) انظر (٤/ ٢٠٤٤) رقم (٢٦٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٤١) رقم (٢٦٥٠).

ثم قال للذي في شماله: «هذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، وأجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً».

فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله؟ إن كان الأمر قد فرغ منه؟

فقال رسول الله -ﷺ-: «سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أي عمل».

ثم قال رسول الله -ﷺ- بيديه، فنبذهما، ثم قال: «فرغ ربكم من العباد، فريق في الجنة، وفريق في السعير»[1].

والأحاديث في هذا كثيرة، ففي ذلك أن الله -تعالى- علم أهل الجنة، وكتبهم، وأرادهم كوناً من أهلها، وكذلك أهل النار، قبل وجودهم بزمن طويل جداً، وقبل أن يعملوا ما يستحقون عليه دخول الجنة أو النار، وهذا من كمال علم الله -تعالى-، وهو مما يجب الإيمان به، وقد نص الأئمة على كفر من جحده.

قال اللالكائي: «روي عن مالك بن أنس، والأوزاعي، وعبيدالله بن الحسن العنبري: يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا.

وعن سعيد بن جبير: القدرية يهود، وعن الشعبي: القدرية نصارى.

وعن نافع مولى ابن عمر: القدرية يقتلون، وحكى المزني عن الشافعي: أنه كفرهم، وعن إبراهيم بن طهمان: القدرية كفار.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٤٩)، وابن وهب في كتاب القدر (٨٣-٨٧) والآجري في الشريعة (ص١٧٣)، وابن جرير في «التفسير» من طريق ابن وهب (٢٥/ ٩)، وهذان الكتابان اللذان أخذهما رسول الله -ﷺ- ليسا هما الكتابان اللذان كتب الله فيهما أسماء أهل الجنة وأهل النار، وإنما ذلك تمثيل من رسول الله -ﷺ- وتقريب إلى أفهام الناس بأن الله -تعالى- علم كل شيء مما سيكون وما يصير إليه العباد، وكتبه تأكيداً لعلمه تعالى، فلا يتغير ولا يتبدل.

وعن أحمد بن حنبل مثل قول مالك»[1].

وفي هذه الأحاديث بيان أن كل أحد لا بد له من عمل يكون سبباً لدخوله الجنة أو النار.

فالنبي -ﷺ- بين أن الله -تعالى- علم أهل الجنة، وأهل النار، وأنه كتب ذلك، ونهى الناس أن يتكلوا على ما سبق في الكتاب عليهم، ويدعوا العمل، كما يفعله الملحدون، وقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة سوف تتهيأ لهم من الأسباب ما تمكنهم من عمل أهل السعادة.

وكذلك أهل الشقاء، لا بد أن يعملوا الأعمال التي يشقون بها، ويستحقون النار عليها.

فالله -تعالى- يعلم كل شيء على ما هو عليه، وقد جعل لكل شيء سبباً، وجعل العبد قادراً على العمل الذي كتب عليه، فيفعله مختاراً، راغباً، غير مجبر عليه، ولا ملزم به.

ولهذا يجب على العبد، مع الإيمان بالقدر: الاجتهاد في العمل، والأخذ بأسباب النجاة، والالتجاء إلى الله -تعالى- بأن ييسر له أسباب السعادة، وأن يعينه عليها.

والله -تعالى- مع غناه عن الخلق كلهم، خلقهم، وأرسل إليهم الرسل تبين لهم ما يسعدهم، وما فيه شقاؤهم، وهدى عباده المؤمنين لما خلقوا له، وهداهم لما اختُلِف فيه من الحق، فمنَّ عليهم أن حبب إليهم الإيمان، والعمل الصالح، ويسر ذلك لهم، وأعانهم عليه، وزينه في قلوبهم، وكره إليهم ضده من الكفر والمعاصي، والفسوق، وجعلهم راشدين، وكل ذلك فضل منه وكرم من غير استحقاق لهم عليه، فإيجادهم من العدم فضل منه، وإرسال الرسل إليهم تدلهم على الحق فضل منه، وهدايته لهم فضل منه، وجميع ما ينالون به الخير من قواهم وغيرها بفضله، وكذلك إثابته لهم على أعمالهم الصالحة فضل منه وكرم، وإن كان أوجب ذلك على نفسه، كما حرم على نفسه الظلم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فهو واجب بإيجابه ووعده،

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/ ٧٠٦-٧٠٧).

وهو لا يخلف وعده. وكل ذلك بفضله ومنته، والخلق لا يوجبون على الله شيئاً، ولا يحرمون عليه شيئاً، بل هم أعجز من ذلك، وأقل.

فكل ما يصيب الخلق من النعم فهي من فضل الله، وكرمه، وكل ما يصيبهم من النقم فهي بعدل، وهم يستحقونها جزاءً لأعمالهم، ويعفو الله عن كثير.

ولا بد للعبد أن يجمع بين أمر الله وقدره، ووعده، ووعيده؛ لأن من أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد، معتمداً على القدر، فهو ضال، ومن حاول القيام بالأمر والنهي، وأعرض عن القدر، فهو أيضاً ضال، ولهذا أمر الله عباده أن يعبدوه مستعينين به على ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فيعبدونه اتباعاً لأمره، ويستعينونه إيماناً بالقدر، وذلك أنه لا يقع شيء إلا بعد مشيئته، وهو الخالق لكل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، وإن كانت تقع باختيارهم وقدرتهم، فهو الخالق لها، ولا تقع إلا إذا شاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، وإذا لم يعن الله العبد على الفعل لم يستطعه.

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته، كما تزعم القدرية المجوسية فهو جاحد لقدرة الله التامة، ومشيئته الشاملة لكل شيء، وخلقه لكل شيء.

ومن ظن أنه إذا أعين على ما يريد، ويسر له ذلك كان محموداً، محبوباً، سواء وافق ذلك الأمر الشرعي أو خالفه، فقد جحد دين الله وكذب كتبه ورسله، ووعده، ووعيده، واستوجب غضب الله وعقابه، وصار من الذين قال الله عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[2].

قوله: «فيم يعمل العاملون؟» أي: أعمال العباد، هل قدرها الله عليهم وسبق علم الله بها، وكتابته لها، فهم يعملون في أشياء قضاها الله وفرغ منها، فلا يمكن أن يقع منهم إلا ما قدره، وقضاه؟ وهذا هو الواقع.

---

(١) الآية آخر سورة التكوير.

(٢) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام.

أو أنهم يعملون في شيء لم يقدر، ولم يكتب عليهم، بل هو موكول إليهم؟

وذكر هذا الحديث في القدر بلفظ: «قال رجل: يا رسول الله، أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له، أو لما ييسر له»[1].

فقوله: «فيم يعمل العاملون؟» مرتب على قول النبي -ﷺ- إنه قد علم أهل الجنة، من أهل النار، فكأنه وقع في نفسه أنه ما دام قد فرغ من ما يصير إليه العباد، وعلم الله أهل السعادة، وأهل الشقاء، قبل وجودهم، فلماذا العمل، والإنسان لا بد أن يصير إلى ما كتب عليه، فهي أمور منتهية، ولا بد من حصولها؟

فأجابه النبي -ﷺ- بما أزال هذا الإشكال بقوله: «كل يعمل لما خلق له»، يعني: أن أهل الجنة لا بد أن يعملوا أعمالاً يستحقون بها دخول الجنة، وأهل النار لا بد أن يعملوا أعمالاً يستحقون بها دخول النار.

وقد علم الله أن من يكون من أهل الجنة يعمل عملهم، وييسر ذلك له، ويتفضل عليه، فيحبب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ويجعله راشداً مطيعاً مهتدياً، وهذا كله فضل الله ومنته، وهو معنى تيسيره لليسرى، وأما أهل النار فقد علم الله -تعالى- أنهم يكفرون، ويبغضون الإيمان، ويأبونه، ويفعلون ذلك اختياراً منهم، وحباً له، بعكس أهل الإيمان، وهو معنى تيسيرهم للعسرى، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وهو معنى قوله ﷺ: **«كل ميسر لما خلق له»**.

ووجه الاستدلال من الحديث: أن قوله: **«كل ميسر لما خلق له»** يدل على أن العبد له عمل ييسر له فيعمله، فيستحق عليه الجزاء، وذلك الجزاء هو الذي خلق العبد له، إما الجنة وإما النار، فالعبد فاعل على الحقيقة، فهو المؤمن، والمصلي، والعامل، حقيقة، وهو الكافر، والمنافق، والعاصي، والسارق، والزاني، حقيقة، ولذلك استحق العذاب، أو الثواب.

---

(١) «البخاري» (٨/ ١٠٤).

وكذلك هو القارئ إذا قرأ كتاب الله -تعالى-، فالقراءة فعله، وكسبه، وعمله، والمقروء: كتاب الله وصفته الذي تكلم به، وقاله، وأنزله على رسوله -ﷺ-، وقد يسر الله القرآن للذكر، فإذا تذكره العبد، وقرأه، وعمل به، فذلك عمله، يضاف إليه، ويجزى عليه.

قال الإمام البخاري -رحمه الله-: «ويقال لمن زعم أني لا أقول: القرآن مكتوب في المصحف، ولكن القرآن بعينه في المصحف، يلزمك أن تقول: إن ما ذكره الله في القرآن من الجن، والإنس، والملائكة، والمدائن، ومكة، والمدينة، وغيرها، وإبليس، وفرعون، وجنودهما، والجنة، والنار، عاينتهم بأعيانهم في المصحف؛ لأن فرعون مكتوب فيه، كما أن القرآن مكتوب فيه.

ويلزمك أكثر من ذلك، حين تقول: الله في المصحف، وهذا أمر بيِّن؛ لأنك تضع يدك على هذه الآية، وتراها بعينك: «﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ فلا يشك عاقل بأن الله هو المعبود، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾هو قرآن، فالقرآن قول الله -عز وجل- والقراءة، والكتابة، والحفظ للقرآن، هو فعل المخلوق؛ لقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ وقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾.

والقراءة فعل الخلق، وهي طاعة الله، والقرآن ليس هو بطاعة، إنما هو الأمر بالطاعة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾، فذلك كله مما أمر به، ولذلك قال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، والصلاة بجملتها طاعة لله، والأمر بالصلاة قرآن، وهو مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، مقروء على اللسان.

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٢٩ من سورة فاطر.

(٣) الآية ١٧ من سورة القمر.

والقراءة والحفظ والكتابة مخلوق، وما قرئ، وحفظ، وكتب، ليس بمخلوق، ومن الدليل عليه: أن الناس يكتبون «الله» ويحفظونه، ويدعونه، فالدعاء والحفظ والكتابة من الناس مخلوق، ولا شك فيه، والخالق الله بصفته»[1].

□□□

(١) «خلق أفعال العباد» (ص١٨٨-١٩٠).

١٧٦- قال: «حدثني محمدُ بنُ بشار، حدثنا غُنْدَرٌ، حدثنا شُعْبَةُ، عن منصور، والأَعْمَشِ، سمعا سعدَ بنَ عُبَيْدَةَ، عنْ أَبِي عبدِالرحمنِ، عن عليٍّ -رضيَ اللهُ عنهُ- عنِ النبيِّ -ﷺ- أنهُ كانَ في جنازةٍ، فأخذَ عوداً فجعلَ يَنْكُتُ في الأرضِ، فقال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجنةِ، أوْ منَ النار» قالُوا: ألا نَتَّكِلُ؟ قال: «اعْمَلُوا، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ» ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ الآية».

«أنه كان في جنازة» قال الأزهري: «قا ل أبو العباس: الجنازة بالكسر: السرير، وبالفتح: الميت، وقال الليث: الإنسان الميت، والشيء الذي قد ثقل على قوم، واغتموا به، هو جنازة، عن الأصمعي: الجنازة -بالكسر- هو: الميت نفسه»[1].

وفي «المصباح»: «جنزت الشيء أجنزه -من باب ضرب-: سترته، ومنه اشتقاق الجنازة، وهي بالفتح والكسر، والكسر أفصح، وقال الأصمعي وابن الأعرابي: بالكسر: الميت نفسه، وبالفتح: السرير، وروى أبو عمر الزاهد، عن ثعلب عكس هذا، فقال: بالكسر: السرير، وبالفتح: الميت نفسه»[2].

«فأخذ عوداً فجعل ينكت في الأرض» أي: يضرب فيها بذلك العود، ويكون ذلك عادة من فعل المفكر المهموم.

«فقال: ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار» الخطاب وإن كان موجهاً إلى الحاضرين، فالمقصود به عموم الخلق من الإنس والجن.

ومعنى كتابة مقعده: أن الله علم مصيره، ومستقره في الجنة أو في النار، وكتبه، وذلك قبل وجوده، كما سبقت الإشارة إليه.

«قالوا: ألا نتكل؟» أي: ندع العمل اعتماداً على ما كتب لنا، وقدر، فإننا لا بد صائرين إليه، فلا يكون في العمل تغيير لما كتب، وهذا الإشكال يعرض لكثير من الناس، وقد أزاله رسول الله -ﷺ- بقوله: «**اعملوا فكل ميسر**» أي: ميسر لما خلق له من الجنة أو النار، فإن كان العبد خلق للجنة والسعادة، فسوف يهيء الله

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٦٢٢).

(٢) «المصباح المنير» (١/ ١٥٣).

له من أسباب السعادة، وييسرها له ويسهلها عليه، حتى يتمكن من العمل الذي يكون سبباً لذلك، وإن كان من أهل الشقاء، فلا بد أن يقيّض له من الأسباب ما يتمكن به من العمل للشقاء.

فالله -تعالى- لا يظلم أحداً، وقد حرم الظلم على نفسه -تعالى- وجعله بين عباده محرماً، ولكن لكمال قدرته خلق العبد فاعلاً مختاراً، فإما أن يختار طريق الهدى، أو طريق الردى، وكل واحد من الفريقين يجد نفسه غير مدفوع إلى ذلك، بل يفعله عن رغبة منه، واختيار، ولو حيل بينه وبين ما يريده لربما قاتل من يحاول أن يصده عن مراده، والله -تعالى- ييسر للعبد من العمل ما يستحق به ما كتب عليه وقدر، قبل أن يخلق، ولهذا قرأ النبي -ﷺ- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وتقدم وجه الدلالة من الحديث لمراد البخاري في الحديث الذي قبله، وهو أن التيسير يدل على أن العبد الذي يسر له العمل عامل حقيقة، ويدخل في ذلك قراءة القرآن، فهي عمل القارئ، وأما المقروء فهو كتاب الله -تعالى- كما سبق.

قال ابن المنير: «ما ذكره البخاري في هذا الباب راجع إلى ما تقدم من وصف القراءة بالتيسير، وهذا يدل على أنها فعل [العبد]، ويشهد [له] قوله: كل ميسر لما خلق له، ومما خلق له التلاوة، والله أعلم»[1].

قوله: «ومما خلق له التلاوة» يعني: أنها عمل الإنسان الذي يترتب عليه مصيره الذي كتب له، كما مر في الحديث.

ذكر شيخ الإسلام أن الجهمية افترقت على ثلاث فرق، فرقة تقول: القرآن مخلوق، وفرقة تقول: كلام الله، وتسكت، وفرقة تقول: ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة.

وحقيقة قول هؤلاء: أن القرآن الذي نزل به جبريل على محمد مخلوق لم يتكلم الله به، وشبهتهم: أن أفعالنا وأصواتنا مخلوقة، ونحن إنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا.

---

(١) «المتواري» (ص٤٣٢).

ثم قابل هؤلاء قوم أرادوا رد باطلهم، فوقعوا في باطل آخر، حيث قالوا: تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة، وألفاظنا به غير مخلوقة[1]؛ لأن هذا هو القرآن، وهو غير مخلوق.

ولم يفرقوا بين الاسم المطلق، والاسم المقيد بالدلالة، فأنكر الإمام أحمد على هؤلاء وبَدّعهم، وأحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله مخلوقاً، حروفه أو معانيه، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله، كما ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو أصواتهم غير مخلوق.

وكلام أحمد في مسألة التلاوة، والقراءة، والإيمان، من نمط واحد، منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق، ولما فيه من الذريعة، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق؛ لما فيه من البدعة والضلال.

وذلك أن التلاوة، والقراءة، واللفظ، قد يراد به مصدر: تلا يتلو تلاوة، وقرأ يقرأ، قراءة، ولفظ، يلفظ، لفظاً، ومسمى المصدر هو فعل العبد، وحركاته، وذلك مخلوق، ليس هو القول المسموع المتلو.

وقد يراد بالتلاوة، والقراءة، واللفظ: المتلو، المقروء، المتلفظ به، وهو المسموع، وهذا هو كلام الله -تعالى- ليس بمخلوق.

وقد يراد مجموع الأمرين، فلا يجوز إطلاق القول بأنه مخلوق، ولا نفي الخلق عن الجميع[2].

□□□

(١) ممن يقول بذلك محمد بن داود المصيصي، وأبو حاتم الرازي، وأبو عبدالله بن حامد، وأبو نصر السجزي، وأبو عبدالله بن منده، وأبو إسماعيل الهروي، وأبو العلاء الهمداني، وأبو الفرج المقدسي. انظر «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٦١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٥٩-٣٧٤) ملخصاً.

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

أي: ليس الأمر، كما قال المكذبون لرسول الله -ﷺ- أن ما يقوله شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين اكتتبها، ليس الأمر كذلك، بل هو قرآن مجيد» قال البغوي: كريم، شريف، كثير الخير، ليس كما زعم المشركون، أنه شعر، أو كهانة.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ قرأ نافع بالرفع، على أنه نعت للقرآن، فإن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير، والتحريف؛ قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وقرأ الباقون بالجر، على أنه نعت للوح، وهو الذي يعرف باللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، ومنه تنسخ الكتب، محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة فيه، والنقصان»[1].

و«المجيد» الكريم، واسع الخير، كثير الصفات الحميدة.

قال ابن القيم: «المجد مستلزم للعظمة، والسعة والجلال، كما يدل عليه موضوعه في اللغة، فهو دال على صفات العظمة والجلال»[2].

والقرآن عظيم، واسع المعاني، كثير الخير، وفيه الهدى والنور، وهو جليل القدر؛ إذ هو كلام رب العالمين.

قولُهُ: «﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾، قال قَتادَةُ: مَكْتُوبٌ».

قال ابن كثير -رحمه الله-: «يقسم تعالى بمخلوقاته، الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور هو: الجبل، الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلَّم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر، لا يسمى طوراً، وإنما يقال له: جبل.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ قال قتادة: مكتوب، قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة، التي تقرأ على الناس، جهاراً، ولهذا قال: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾»[3].

---

(١) «تفسير البغوي على هامش الخازن» (٧/ ٢٣٢).

(٢) «جلاء الأفهام» (ص٢١٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٣).

قال البخاري -رحمه الله-: «وقال إسحاق بن إبراهيم: فأما الأوعية، فمن يشك في خلقها؟ قال الله -تعالى-: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾، وقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ ذكر أنه يحفظ، ويسطر. قال: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

ثم روى عن قتادة قال: ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ قال: المسطور: المكتوب، ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾وهو الكتاب، وروى عن مجاهد: ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾: وصحف مكتوبة، ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾: في صحف»[1].

«قال أبو عبدالله: فأما المداد، والرق، ونحوه، فإنه خلق، كما أنك تكتب «الله»، فالله في ذاته هو الخالق، وخطك واكتسابك من فعلك خلق؛ لأن كل شيء، دون الله، صفة، وهو خلق، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾»[2].

قولُهُ: «﴿يَسْطُرُونَ﴾: يَخُطُّونَ».

تفسير لقوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

قال ابن كثير: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم، الذي يكتب به، كقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه، على ما أنعم به عليهم، من تعليم الكتابة، التي بها تنال العلوم.

ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون، وقال أبو الضحى: عن ابن عباس ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يعملون، وقال السدي: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يعني: الملائكة، وما تكتب من عمل العباد»[3].

قولُهُ: «﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾: جُمْلَةُ الكتابِ وأَصْلُهُ».

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يبين شرفه، في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه، ويتبعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وإِنَّهُ﴾ أي:

---

(١) «خلق أفعال العباد» (ص٤٣).

(٢) المصدر نفسه (ص٤٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١٢-٢١٣).

القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة، وشرف، وفضل، قاله قتادة.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم، بريء من اللبس والزيغ، وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله»[1].

«﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾: **ما يتكلَّمُ منْ شيءٍ إلا كُتِبَ عليه. وقالَ ابن عباس: يُكتَبُ الخيرُ والشرُّ**».

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2]. قال ابن كثير: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: الملائكة، أقرب إلى الإنسان، من حبل وريده، ومن تأوله على العلم؛ فإنما فر لئلا يلزم حلول، أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾، يعني: ملائكته، وكما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر، وهو القرآن، بإذن الله -عز وجل- وكذلك الملائكة، أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، بإقدار الله لهم على ذلك.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين، اللذين يكتبان عمل الإنسان.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: واحد عن يمينه، والآخر عن شماله، مترصد لما يقوله أو يفعله.

---

(١) المصدر المذكور (٧/ ٢٠٥).

(٢) الآيات من ١٦-١٨ من سورة ق.

﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ إلا ولها من يراقبها، معتد لذلك فيكتبها، ولا يترك له كلمة، ولا حركة إلا كتبها»[1].

وقول ابن عباس، يفيد أنهما لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات، وظاهر الآية أنهما يكتبان، كل ما نطق به الإنسان أو عمله؛ لأنه قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾.

قال مجاهد: الذي يكتب الحسنات عن يمينه، والذي يكتب السيئات عن شماله.

وقال أيضاً: مع كل إنسان ملكان، ملك عن يمينه، وملك عن يساره.

قال: «فأما الذي عن يمينه، فيكتب الخير، وأما الذي عن يساره، فيكتب الشر».

وقال قتادة: تلا الحسن: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ فقال: يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك، فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك، فيحفظ سيئاتك، فاعمل بما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت، طويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فيقال لك: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، عدل والله فيك من جعلك، حسيب نفسك»[2].

«﴿يحرِّفُونَ﴾: يُزيلون، وليس أحدٌ يزيلُ لفظَ كتابٍ منْ كتبِ اللهِ -عز وجل- ولكنَّهم يُحرِّفونَهُ: يتأولونَهُ على غيرِ تأويلِهِ».

قال الحافظ: «لم أر هذا موصولاً من كلام ابن عباس، من وجه ثابت، مع أن الذي قبله، من كلامه، وكذا الذي بعده، وهو قوله: «دراستُهم: تلاوتهم»، وما بعده، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم، وتقدم في باب قوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ عن ابن عباس، ما يخالف ما ذكر هنا، وهو تفسير ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ بقوله: يزيلون.

وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن، في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ قال: يقلبون ويغيرون.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٧٦).

(٢) روى هذه الآثار ابن جرير في «تفسيره» (٢٦/ ١٥٩).

وقال الراغب: «التحريف: الإمالة، وتحريف الكلام: أن يجعله على حرف من الاحتمال، بحيث يمكن حمله على وجهين، فأكثر»[١].

وقال: «صرح كثير من أصحابنا، بأن اليهود، والنصارى بدلوا التوراة، والإنجيل.

وذكر بعض الشراح، أن في هذه المسألة، أربعة أقوال:

أحدها: أنها بدلت كلها، وينبغي حمل هذا الإطلاق على أكثرها؛ لأن الآيات والأخبار الكثيرة، تدل على بقاء شيء منها لم يبدل، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[٢]، ومنه قصة رجم اليهوديين، وفيها وجود آية الرجم، في التوراة، ويؤيد ذلك، قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الثاني: أن التبديل وقع في معظمها، وأدلة ذلك كثيرة، وينبغي حمل القول الأول عليه.

الثالث: وقع التبديل في اليسير منهما، ومعظمهما باق على حاله، قال: ونصره الشيخ تقي الدين ابن تيمية في الجواب الصحيح.

الرابع: «إنما وقع التبديل والتغيير، في المعاني، لا في الألفاظ، وهو ما ذكره البخاري هنا»[٣].

والصحيح: أن التبديل والتحريف، وقع في كثير من ألفاظهما ومعانيهما، كما قال الله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[٥].

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٢٣).

(٢) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف.

(٣) «الفتح» بتصرف (١٣/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٤) الآية ٧٨ من سورة آل عمران.

(٥) الآية ٤٦ من سورة النساء، والآية ١٣ من سورة المائدة.

قال شيخ الإسلام: «علماء المسلمين، وعلماء أهل الكتاب، متفقون على وقوع التحريف في معاني وتفسير الكتب السابقة، وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هي التي حرفت المعاني.

وأما ألفاظ الكتب، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظهما لم تبدل، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب.

وذهب كثير من علماء المسلمين، وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها.

وهذا هو المشهور عن كثير من علماء المسلمين وقاله أيضاً كثير من علماء أهل الكتاب، حتى في صلب المسيح، ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه لم يصلب، وإنما صلب الذي شبه بالمسيح، كما أخبر به القرآن، فإنه لما ألقي شبهه على المصلوب، ظنوا أنه هو المسيح، أو تعمدوا الكذب.

ثم هؤلاء، منهم: الذين يقولون: إن في ألفاظ الكتب ما هو مبدل.

ومنهم: من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثيراً منهما، وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما، لا سيما الإنجيل، فإن الطعن فيه أكثر، وأظهر منه في التوراة.

ومن هؤلاء، من يسرف، حتى يقول: إنه لا حرمة لشيء منهما، بل يجوز الاستنجاء بهما.

ومنهم من يقول: الذي بدلت ألفاظه، قليل منهما، وهذا أظهر، والتبديل في الإنجيل أظهر، بل كثير من الناس يقول: هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله، إلا القليل، والإنجيل الذي هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل.

والصحيح: أن هذه التوراة، والإنجيل، الذي بأيدي أهل الكتاب، فيه ما هو حكم الله، وإن كان قد بدل وغيِّر بعض ألفاظهما؛ لقول الله -تعالى-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ

ٱللَّهِ ﴾[1] فعلم: أن التوراة التي كانت موجودة، بعد خراب بيت المقدس، بعد مجيء بختنصر، وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمد -ﷺ- فيها حكم الله.

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة، على عهد رسول الله -ﷺ-، وإن قيل: إنه غيِّر بعض ألفاظها بعد مبعثه، فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غير معلوم لنا، وهو متعذر، بل يمكن تغيير كثير من النسخ، وإشاعة ذلك عند الاتباع، حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غُيِّـر، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب، وإنما تختلف في اليسير من ألفاظها.

فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ، بعد مبعث الرسول -ﷺ- ممكن، لا يمكن أحدٌ أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحد من اليهود، والنصارى، أن يشهد بأن كل نسخة في العالم من الكتابين، متفقة الألفاظ؛ إذ لا سبيل إلى علم ذلك.

وذلك أن اليهود قبل مبعث النبي -ﷺ- وعلى عهده، وبعده، منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة.

وكذلك النصارى، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها، ولو كان هذا ممكناً، وواقعاً، لكان من الوقائع العظيمة، التي تتوافر الدواعي على نقلها.

ومثل التوراة، الإنجيل، قال الله -تعالى-: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[2] فعلم، أن في الإنجيل حكماً، أنزله الله -تعالى- لكن الحكم من باب الأمر والنهي، ولا يمتنع أن يكون التغيير والتبديل في باب الإخبار، وهو الذي وقع فيه التبديل لفظاً.

وأما الأحكام التي في التوراة، فما يكاد أحد يدعي التبديل في ألفاظها[3].

وبهذا يتبين: أن ما ذكره البخاري -رحمه الله- أحد أقوال العلماء، وهو أن ألفاظ كتب الله السابقة للقرآن، لم تغير ولم تبدل، وإنما حرفت معانيها، وأولت على غير تأويلها، فيكون معنى التحريف، الذي ذكره الله -تعالى- عنهم: هو تحريف

---

(١) الآيات ٤١-٤٣ من سورة المائدة.

(٢) الآية ٤٧ من سورة المائدة.

(٣) «الجواب الصحيح» (١/ ٣٧٩-٣٨١).

المعاني، وصرفها عن مراد الله بها، إلى ما تهوى نفوسهم، وما يريدون حسب رغباتهم.

ولكن يبقى أن يقال: هل التوراة والإنجيل التي بأيدي اليهود، والنصارى، هي التي أنزل اللهَ على موسى وعيسى، لم يذهب منهما شيء، ولم يزد عليهما شيء؟ هذا الذي لا يستطيع أحد أن يجزم به، فالصحيح: أنه حصل في ألفاظهما التبديل والتغيير، وأن بعض ألفاظها أزيل، ووضع بدله غيره، لا كما يقول البخاري -رحمه الله-.

فإن كانت التوراة هذه، الموجودة اليوم بأيدي الناس، فلا شك في تغيير وتبديل بعض ألفاظها حسب الترجمة العربية.

فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر، من سفر التكوين، من التوراة، قوله: «صعد لوط من زغر، وسكن في الجبل، وابنتاه معه، إذ خاف من المقام في زغر، وسكن في مغارة هو وابنتاه معه، فقالت الكبيرة للصغيرة: أبونا شيخ، وإنسان، ليس في الأرض للدخول علينا كسبيل كل الأرض، تعالي نسقي أبانا خمراً وننضجع معه، ونبقي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة»[1] إلى آخر الكلام، وهو باطل قطعاً، وقد نزه الله نبيه لوطاً -عليه السلام- أن يقع على ابنتيه، فتحبلان منه، وإنما هذا من وضع اليهود أعداء الله -تعالى-.

فقوله: «**وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله -عز وجل-**» غير مسلم، بل بدل بعض ألفاظها، كما سبق في كلام شيخ الإسلام أنه الصحيح.

«قال الزركشي: اغتر بعض المتأخرين، بما قاله البخاري، فقال: إن في تحريف التوراة خلافاً، هل هو في اللفظ والمعنى، أو في المعنى فقط؟ ومال إلى الثاني، ورأى جواز مطالعتها، وهو قول باطل، ولا خلاف أنهم حرفوا، وبدلوا، والاشتغال بنظرها، وكتابتها، لا يجوز بالإجماع، وقد غضب النبي -ﷺ- حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال: «لو كان موسى حياً، ما وسعه إلا اتباعي» ولولا أنه معصية ما غضب.

---

(١) انظر التوراة السامرية (ص٥٩).

ونظَّر الحافظ بهذا الكلام، وقال: «الظاهر: أنه مكروه كراهة تنزيه، وقال: الأولى، التفرقة بين من لم يتمكن، ويصر من غير الراسخين في الإيمان، فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك، بخلاف الراسخين، فيجوز لهم، ولا سيما عند الاحتجاج، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديماً وحديثاً من التوراة»[(١)].

وتحريف معانيها وتفسيرها بغير المراد، فهذا ظاهر جداً، ولا ينبغي أن يكون فيه خلاف، وكثير من آيات القرآن صريحة في هذا، وهو مراد البخاري بقوله: «ولكنهم يحرفونه: ويتأولونه عن غير تأويله» أي: يحرفون معانيه، ويفسرونه بما لم يرده المتكلم، اتباعاً لأهوائهم.

قال ابن القيم: «التأويل: تفعيل من آل يؤول إلى كذا: إذا صار إليه، فالتأويل التصيير، وأولته تأويلاً: إذا صيرته إليه»[(٢)].

وتسمى عاقبة الشيء تأويلاً؛ لأن الأمر يصير إليها، وكذلك حقيقة الشيء المخبر به، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[(٣)].

وعند المتأخرين، التأويل هو: صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه، إلى ما هو أخفى منه؛ لدليل يقترن بذلك، والدليل قد يكون عقلياً، وقد يكون شرعياً، ويسمى التفسير تأويلاً.

قولُهُ: «﴿دراستهم﴾: تِلاوَتُهُم».

قال الحافظ: وصله ابن أبي حاتم، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس[(٤)].

وهذا جزء من قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[(٥)].

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٢٥).

(٢) انظر «الصواعق» (١/ ٧٧).

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف.

(٤) «الفتح» (١٣/ ٥٢٥).

(٥) الآية ١٥٦ من سورة الأنعام.

وفي «اللسان»: «درست الكتاب، أدرسه، درساً، أي: ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليَّ»[1]، والمقصود أن الدراسة هي التلاوة، وهي فعل التالي.

قوله: «﴿واعية﴾: حافِظَةٌ».

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ والجارية هي: السفينة، التي صنعها نبي الله نوح -ﷺ- وهو أبو البشر الثاني، لأن الله -تعالى- يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، فتكون السفينة، تذكرة لما وقع لقوم نوح، لما عصوا رسولهم، فيبتعد المتذكر عن معصية الله؛ لئلا يصيبه ما أصابهم، وهذه العظة والتذكرة تعيها الأذن الواعية، المتيقظة، المتنبهة.

ومراده: أن الحفظ والفهم فعل العبد الذي يقرأ، ويحفظ، ويفهم.

قولُهُ: «﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾: يعني: أهلَ مكةَ ومَنْ بلغ هذا القرآنُ، فهو له نذير».

الوحي من الله -تعالى- وهو: الإعلام بخفية، والإنذار فعل الرسول -ﷺ-، وإنذاره بالقرآن: أن يقرأه على الناس، وقراءته هي فعله، وهو وفعله مخلوق، وهذا وجه الاستدلال من الآية.

«ومن بلغ» أي: من بَلَغَهُ هذا القرآن، فهو له نذير، والذي يَبْلغه، يسمعه من المُبَلِّغ له بصوت ذلك المُبَلِّغ، والصوت من فعل المُبَلِّغ، وهو مخلوق، والقرآن المُبَلَّغ بالصوت كلام الله -تعالى- غير مخلوق.

وقد أكثر البخاري -رحمه الله- من الاستدلال لهذه المسألة؛ لأنه قد بلي بمن يقول: القراءة هي المقروء، ونسب إليه، أنه يقول: لفظي بالقرآن مخلوق.

وهو بريء من ذلك.

قال الحافظ: «هذا الذي ذكره البخاري، هو قول ابن عباس، رواه ابن أبي حاتم عنه، وقال: أخرج ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية»، عن عبدالله بن

---

(١) «لسان العرب» (١/ ٩٦٨).

داود الخرسي قال: ما في القرآن آية أشد على أصحاب جهم من هذه الآية ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، فمن بلغه القرآن، فكأنما سمعه من الله -تعالى-»[1].

□□□

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٢٦).

١٧٧- قال: «وقالَ لي خَلِيفَةُ بنُ خَيّاطٍ: حدثنا مُعْتَمِرٌ، سمعتُ أبي، عن قَتادَةَ، عن أبي رافعٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «لما قَضَى اللهُ الخلقَ كتبَ كتاباً عندَهُ: غَلَبَتْ -أو قالَ: سَبَقَتْ- رَحْمَتِي غَضَبِي. فهو عندَهُ فوقَ العرشِ».

١٧٨- «حدثني محمدُ بنُ أبي غالبٍ، حدثنا محمدُ بنُ إسماعيلَ، حدثنا مُعْتَمِرٌ، سمعتُ أبي يقولُ: حدثنا قَتادَةُ، أنَّ أبا رافعٍ حدثهُ، أنهُ سمعَ أبا هريرةَ يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ -ﷺ- يقولُ: إنَّ اللهَ كتبَ كتاباً قبلَ أنْ يَخْلُقَ الخلقَ: إنَّ رحمتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فهو مكتوبٌ عندَه فوقَ العرشِ».

الكتابة هي: إثبات الكلام المكتوب، في محل الكتابة، والله سبحانه، كتب ذلك الكتاب في شيء تثبت فيه الكتابة، ويثبت الكلام في ذلك الشيء بالكتابة، سواء كان اللوح المحفوظ أو غيره، فالمقصود إثبات الكتابة للكلام، وأن كون الكلام في الكتاب، ليس ككون الماء في الإناء، والعرض بالجوهر، والرجل في البيت، بل هو قسم غير هذا، وهو معقول يدركه الناس، ويفهمون معنى كون الكلام في الكتاب، وهذا الحديث تقدم شرحه، وغرضه من الطريق الأخرى، تصريح أبي رافع وقتادة بالتحديث، فيزول احتمال التدليس.

وقوله: «**قبل أن يخلق الخلق**» لا يعارض قوله في الرواية قبلها: «لما قضى»؛ لأنه يجوز أن يراد بالخلق: التقدير والفراغ منه، وهو غير الإيجاد، ومعلوم أن خلق الله - تعالى- لا نهاية له.

وتبين أن مقصود البخاري -رحمه الله- بهذا الباب، أن يبين معنى كون القرآن في المصحف؛ أنه مكتوب مسطور فيه، مثل ما أن اسم الله في المصحف، فإن القرآن كلام الله، والكلام يقوم بالمتكلم صفة له، قال شيخ الإسلام: ليس معنى قول السلف: القرآن كلام الله، منه بدأ، ومنه خرج، أنه فارق ذاته، وحل في غيره، فإن كلام المخلوق إذا تكلم به، لا يفارق ذاته، ويحل بغيره، فكيف يكون كلام الله؟ قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

فقد أخبر، أن الكلمة تخرج من أفواههم، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥١٧-٥١٨).

فالقرآن كلام الله، ويحفظ في القلوب، كما يحفظ الكلام، ومذكور بالألسنة كما يذكر الكلام بالألسنة، وهو مكتوب في المصاحف، والأوراق، كما أن الكلام يكتب في الكتاب والورق.

والكلام هو مجموع اللفظ والمعنى، فاللفظ يطابق المعنى ويدل عليه.

ولا يجوز أن يقال: إن القرآن محفوظ، كما أن الله معلوم، وهو متلو، كما أن الله مذكور، ومكتوب، كما أن الرسول مكتوب، فهذا خطأ، وضلال.

فليس وجود الأعيان القائمة بأنفسها، كوجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والفرق ظاهر بين قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فإن القرآن، لم ينزل على نبي قبل محمد -ﷺ- وإنما الذي في زبر الأولين ذكره، والخبر عنه، كما أن محمداً -ﷺ- مكتوب عندهم في التوراة، والإنجيل فالله ورسوله معلوم بالقلوب، مذكور بالألسنة مكتوب في المصحف، كما أن القرآن معلوم لأهل الكتاب قبلنا، مكتوب عندهم، وذلك ذكره والخبر عنه.

ولكن الذي في المصحف عندنا، هو نفس القرآن.

ولهذا يجب ان يفرق بين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ فإن كون الأعمال في الزبر، مثل كون القرآن، والرسول محمد -ﷺ- في زبر الأولين.

وأما الكتاب المسطور في الرق المنشور، فهو كما يكتب الكلام نفسه في الكتاب.

فأين هذا من هذا؟

وذلك أن كل شيء، له في الوجود أربع مراتب: وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في الكتاب.

والكلام وجوده في اللسان، وليس بينه وبين المحل المكتوب فيه، مرتبة أخرى، بل نفس الكلام يثبت في الكتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾، وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا

مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾.

وليس في المصحف من الأعيان إلا ذكرها، ووصفها، والخبر عنها.

والكلام في الكتاب، ليس هو فيه، كما تكون الصفة بالموصوف، والعرض بالجوهر، والجسم بالمكان، وما هو بمنزلة الدليل على المدلول، كالمخلوق الدال على الخالق. بل هو قسم آخر، معقول بنفسه، والناس بفطرهم يفهمون معنى كون كلام الله في المصحف، وأن كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل في غيره، ويعلمون أن الذي في المصحف ليس مجرد دليل على معنى قائم في نفس الله، بل الذي في المصحف كلام الله، مطابق للفظه، ولفظه مطابق لمعناه، ومعناه مطابق لما في الخارج، وهو كلام الله حقيقة لا مجازاً.

وهذه مسألة عظيمة، ضل فيها طوائف من الناس، والبخاري -رحمه الله- ممن ابتلي فيها بمن لم يفهم الحق فيها؛ فارتكب شططاً، ونسب البخاري فيها إلى الباطل، ولهذا أكثر من البيان لها كما سبق، ومنشأ الاختلاف فيها، يعود إلى أصلين[1].

أحدهما: مسألة تكلم الله -تعالى- بالقرآن، وغيره.

والثاني: تكلم العباد بكلام الله، وقد حاولت بيان الحق، في كلا المسألتين فيما سبق، قدر ما أوتيت من بيان، والله المستعان.

❑❑❑

(١) لخصت هذا الفصل من المجلد الثاني عشر من مجموع الفتاوى.

قالَ: بابُ قولِ اللهِ -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

يريد -رحمه الله- بهذا الباب بيان أن الله -تعالى- هو الخالق لكل شيء، وحده لا شريك له في ذلك، فيدخل فيه: أعمال العباد وأفعالهم، والآية نص فيه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سواء كانت «ما» موصولة أو مصدرية، فعلى التقديرين، فالآية دالة على أن أفعال العباد مخلوقة؛ لأن آلهتهم التي يعبدونها صارت على شكل معين، وهيئة خاصة بعملهم وصنعهم.

وقد أطالوا الكلام في إعراب «ما» في هذه الآية، وادعى بعضهم إجماع أهل السنة على أنها مصدرية، وشنعوا على المعتزلة، في دعواهم: أنها موصولة، ظانين أنها إذا كانت موصولة، صارت دليلاً على أن العباد يخلقون أفعالهم.

والصواب، أنها موصولة، وأنها لا تدل على أن العباد يخلقون أفعالهم، كما زعم القدرية من المعتزلة.

قال الإمام ابن جرير: «وفي قوله: «وما تعملون» وجهان: **أحدهما**: أن يكون «ما» بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذ: والله خلقكم وعملكم.

والآخر: أن يكون بمعنى «الذي» فيكون معنى الكلام حينئذ: والله خلقكم والذي تعملونه. وذكر عن قتادة أنه قال: والله خلقكم وما تعملون بأيديكم[1]، فهذا يدل على أنها موصولة عنده.

وقال شيخ الإسلام: قال الله -تعالى-: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ «فما» بمعنى «الذي»، ومن جعلها مصدرية، فقد غلط، ولكن إذا خلق [الله] المنحوت، كما خلق المصنوع، والملبوس، والمبني، دل على أنه خالق كل صانع وصنعته[2].

والمعنى: أن الآية فيها التصريح، بأن أصنامهم من مخلوقات الله، وإن كان شكلها، ووضعها، على صفة معينة من صنعهم، فإن الله هو الذي أقدرهم على ذلك، ويسر لهم أسبابه، ولهذا أخبر تعالى بأنه هو الذي خلق الفُلْك، وهي مصنوعة

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٨٩).

لبني آدم، قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾[1]، وقال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[2] وهذه كلها مصنوعة لبني آدم، وهذا يبين وجه دلالة الآية، المترجم بها، على أن الله هو خالق أفعال بني آدم، فهم وأفعالهم من خلق الله -تعالى-. وإن كانت «ما» في الآية موصولة، فلا داعي للتعسف والتكلف لجعلها مصدرية، حتى لا يكون فيها متعلق للقدرية المعتزلة، القائلين بأن العبد يخلق فعله بنفسه، فهذا قول ظاهر البطلان، وكل باطل لا يؤيده كتاب الله -تعالى-، بل يدل على بطلانه.

فقد ضل من أخرج أفعال العباد عن مخلوقات الله -تعالى-، كما ضل من قابلهم، وقال: إن العباد مجبورون على أعمالهم، فلا اختيار لهم ولا قدرة.

والحق وسط بين هاتين الضلالتين، وهو أن الله -تعالى- خلق العباد، وخلق لهم قدرة واختياراً بهما يفعلون ما يريدون فعله، ويتركون ما يريدون تركه.

وسبب الضلال في هذه المسألة: عدم التفريق بين خلق الله ومخلوقه.

«فخلق الله: صفته التي يخلق بها الخلق، وأما مخلوقه فهو أثر الصفة، وهو مفعوله، وخلق الله -تعالى- لمخلوقاته، ليس هو نفس مخلوقاته، بل خلقه فعله المتصف به، ومخلوقاته مفعولاته التي يفعلها ويوجدها إذا شاء، وأفعال العباد مخلوقة له تعالى كسائر المخلوقات، ومن جملة مفعولاته، وليست هي نفس فعل الرب، بل هي نفس فعل العبد، فالكذب والظلم، ونحوهما من القبائح، يتصف بها من كانت فعلاً له، قائمة به، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له؛ لأنه -تعالى- جعلها صفة لغيره، كما أنه -تعالى- لا يتصف بما خلقه في غيره، من الطعوم، والألوان، والروائح، والأشكال، وغير ذلك.

---

(١) الآية ٤٢ من سورة يس.

(٢) الآية ٨٠ من سورة النحل.

فإذا خلق الإنسان أبيض، أو أسود، لم يكن ذلك اللون وصفاً له، وكذلك إذا خلق هذا الشيء مُرّاً، أو حلواً، أو على صورة قبيحة مذمومة، لم يكن تعالى متصفاً بذلك، بل المتصف بها من قامت به وفعلها[1].

وقال أيضاً: «القرآن دل على أن مفعولات العباد، الخارجة عن أنفسهم، مصنوعة لهم، وما كان مصنوعاً لهم، فهو من فعلهم، ومقدورهم بالضرورة، والاتفاق.

قال الله -تعالى- لنوح -عليه السلام-: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾[3]، وقد أخبر -تعالى- أن الفلك مخلوقة من مخلوقاته، مع كونها مصنوعة لبني آدم، وجعلها من آياته، فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. فجعل الأصنام معمولة لهم، وأخبر أنه خالقهم، وخالق معمولهم، فإن «ما» ها هنا بمعنى الذي، والمراد: خلق ما يعملونه من الأصنام، وإذا كان خالقاً للمعمول، وفيه أثر فعلهم، دل على أنه خالق لأفعال العباد.

وأما قول من قال: إن «ما» مصدرية فضعيف جداً[7].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه لعبّاد الأصنام، على فساد ما صاروا إليه من عبادتها، مع نحتهم إياها بأيديهم، فكيف تعبدون أصناماً تعملونها بأيديكم؟ والله خالقكم وما تعملونه، فأوجدكم، بعد أن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٢٣) بتصرف.

(٢) الآية ٣٧ من سورة هود عليه السلام.

(٣) الآية ٣٨ من سورة هود عليه السلام.

(٤) الآية ٤١ من سورة يس.

(٥) الآية ٦٥ من سورة الحج.

(٦) الآية ١٢ من سورة الزخرف.

(٧) «مجموع الفتاوى» (٨/ ١٦-١٧).

لم تكونوا شيئاً، وخلق لكم ما تصلح به حياتكم، وخلق ما تنحتونه، فهو الخالق لكل شيء، فالواجب عليكم أن تعبدوه، وحده لا شريك له، فهو المتفرد بالخلق، والمالك لكل شيء، فمن السفاهة: أن تعبدوا تلك الصور، التي نحتموها بأيديكم، ثم سميتموها كذباً وبهتاناً: آلهة، وقد علمتم: أنها ما صارت صوراً، إلا بنحتكم إياها وعملكم، والله هو الذي أقدركم على عملها، ومكنكم من ذلك، فهو الخالق لكم ولما تعملونه بأيديكم.

قال ابن القيم: ما المصدرية وما الموصولة، يتعاقبان غالباً، ويصلح أحدهما في الموضع الذي يصلح فيه الآخر، وربما احتملهما كلام واحد، ولا يميز بينهما إلا بنظر وتأمل، فإذا قلت: يعجبني ما صنعت، فهي صالحة لأن تكون مصدرية، أو موصولة، وكذلك: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فتأمله تجده كذلك.

ولدخول إحداهما على الأخرى؛ ظن كثير من الناس؛ أن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أنها مصدرية، واحتجوا بها على خلق الأعمال، وليست مصدرية، وإنما هي موصولة.

والمعنى: والله خلقكم، وخلق الذي تعملونه وتنحتونه من الأصنام، فكيف تعبدونها، وهي مخلوقة من مخلوقات الله -تعالى-؟

ولو كانت مصدرية، لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم[1] أقرب من أن يكون حجة عليهم؛ إذ يكون المعنى: أتعبدون ما تنحتون، والله خلقكم وخلق عبادتكم لها، فأي معنى في هذا؟ وأي حجة عليهم؟[2].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾.

يخبر تعالى عباده، أن كل شيء خلقه، وحده لا شريك له، فلا خالق غيره، وأنه خلقه، بقدر قدره وقضاه، فلا يتعداه ولا يقصر دونه، فيدخل في هذا العموم أفعال العباد، فهي داخلة في خلقه وتقديره.

---

(١) أي: القدرية الذين ينكرون خلق الله لأفعال العباد.

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه، وفي هذا بيان، أن الله -جل ثناؤه- توعد هؤلاء المجرمين، على تكذيبهم بالقدر، مع كفرهم به. ثم روى عن ابن عباس أنه كان يقول: إني أجد في كتاب الله قوماً يسحبون في النار على وجوههم، يقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾؛ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر، وإني لا أراهم، فلا أدري: أشيء كان قبلنا، أم شيء فيما بقي؟[1]».

وذكر آثاراً بهذا المعنى.

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، وكقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله، السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها، من الأحاديث الثابتة، على الفرقة القدرية، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة»[2] ثم ذكر جملة من الأحاديث المثبتة للقدر، والتي فيها وعيد من أنكره.

قولُهُ: «**ويقالُ للمُصوِّرينَ: أَحْيُوا ما خَلَقْتُمْ**».

يقال لهم ذلك يوم القيامة، تبكيتاً وتعذيباً لهم، بتكليفهم ما لا يقدرون عليه، حيث كانوا في الدنيا، يضاهئون الله فيما يختص به، وهو الخلق والتصوير. وسيأتي ذلك -إن شاء الله تعالى-.

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

المقصود من الآية هنا: التفرقة بين الخلق والأمر، فإن الخلق هو أثر الأمر، الكائن به الخلق، فإن الله -تعالى- إذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون، فالقول وصفه -تعالى- والخلق الذي هو المخلوق مفعوله المكون المخلوق الموجد بالقول، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾فعطف الأمر على الخلق؛ لأنه غيره، وهو -تعالى-

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٧/ ١١٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٢٢).

مختص بذلك وحده، فلا أحد يشاركه فيهما، وكلاهما عام شامل، فلا يخرج عن خلقه تعالى مخلوق، ومن ذلك أفعال العباد.

وأمره -تعالى- يتناول الأمر القدري، والأمر الديني الشرعي.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- «يخبر -تعالى- بأنه خلق هذا العالم: سماواته، وأرضه، وما بين ذلك، في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن.

والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم.

قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أي: سريعاً، لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا[1].

فالليل بأثر النهار، والنهار يطرد الليل دائماً، حتى يأذن الله بانقضاء هذا العالم، وهناك يبدأ اختلال توازنه، بطلوع الشمس من مغربها.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: أنها مخلوقة لله، مقهورة مسخرة، لا تخالف أمر خالقها، الذي سخرها لكم، فاعبدوه، فإنه هو المستحق للعبادة دون سواه، وهو الذي له الخلق والأمر وحده.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن الأنباري: «تبارك» فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: تقدس، أي: تطهر، والقدس عند العرب: الطهر، والماء المقدس: هو ماء المطر، والقدوس: الذي طهر من الأولاد، والشركاء، والصاحبة.

والثاني: تفاعل من البركة، أي: البركة تكتسب، وتنال بذكر اسمه تعالى[2].

وقال الأزهري: «أخبرني المنذري، عن أبي العباس، أنه سئل عن تفسير ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فقال: ارتفع، والمتبارك المرتفع.

وقال الزجاج: تبارك: تفاعل من البركة، كذلك يقول أهل اللغة.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٢٢).

(٢) «الزاهر» (١/ ١٤٧).

وقال: تبارك: تعالى وتعاظم. وقال ابن الأنباري: تبارك الله، أي: يتبرك باسمه في كل أمر. ومعنى تبارك: تقدس، أي: تطهر، والمقدس: المطهر.

وقال الليث: تبارك: تمجيد وتعظيم»[(١)].

وهذه الأقوال متقاربة، وكلها حق، يدل عليها هذا اللفظ، فهو -تعالى- عالٍ على خلقه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وهو القدوس المتنزه عن كل عيب أو نقص يلحق خلقه، أو لا يليق بعظمته، وكبريائه، وهو الذي يبارك على ما يشاء من خلقه، فيجعله مباركاً، وبذكر اسمه يكثر الخير، وتحل البركة، وهو أهل المجد والتعظيم.

قولُهُ: «قال ابنُ عُيَيْنَةَ: بَيَّنَ اللهُ الخَلْقَ مِنَ الأمرِ، لِقَوْلِهِ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾».

قال الحافظ: «روى هذا الاثر ابن أبي حاتم، موصولاً، في الرد على الجهمية.

ولفظه: قال: كنا عند سفيان بن عيينة، فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلق: هو المخلوقات، والأمر: هو الكلام.

وفي رواية من طريق حماد بن نعيم: «سمعت سفيان بن عيينة، وسئل عن القرآن: أمخلوق هو؟ فقال: يقول الله -تعالى-: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ألا ترى كيف فرق بين الخلق، والأمر، فالأمر: كلامه، فلو كان كلامه مخلوقاً لم يفرق»[(٢)].

وقال البخاري: «والقرآن كلام الله غير مخلوق؛ لقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، فبين أن الخلائق، والطلب الحثيث، والمسخرات بأمره، ثم شرح فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال ابن عيينة: قد بيَّن الله الخلق من الأمر، بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾،

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٣٠).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٣٢-٥٣٣).

فالخلق بأمره، كقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾[1]، وكقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

وكقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾[3]، ولم يقل بخلقه»[4].

والأدلة كثيرة، في التفرقة بين الخلق والأمر، والمخلوقات وجدت بالأمر، كما أشار إلى ذلك الإمام البخاري، بما استدل به من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فبين أن تكوين الأشياء وإيجادها، بقوله: ﴿كُن﴾، وأنه يوجد عقب قوله ﴿كُن﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾، فالسماء والأرض، مخلوقات بأمره، الذي هو قوله لها: «كوني»، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[5]، وكل شيء غير الله، مخلوق، بقوله -تعالى- ومن ذلك أفعال العباد، فمن أخرج أفعال العباد من خلق الله، فقد ضل وأشرك في ربوبية الله -تعالى-.

قال عبدالعزيز الكناني: «قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[6]، وقال سبحانه: ﴿قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[7]، فدل -عز وجل- بهذه الأخبار، وأشباهٍ لها في القرآن كثيرة، على أن كلامه، ليس كالأشياء، وأنه غير الأشياء، وأنه خارج عن الأشياء، وأنه يكوِّن الأشياء، ثم أنزل -عز وجل- خبراً مفرداً، ذكر فيه خلق الأشياء كلها، فلم يدع منها شيئاً، إلا ذكره، وأدخله في خلقه، وأخرج كلامه وأمره من جملة الخلق، وفصله منها؛ ليدل على أن

---

(١) الآية ٤ من سورة الروم.

(٢) الآية ٨٢ من سورة يس.

(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم.

(٤) «خلق أفعال العباد» (ص ٣٧-٣٨).

(٥) الآية ١١ من سورة فصلت.

(٦) الآية ٤٠ من سورة النحل.

(٧) الآية ٤٧ من سورة آل عمران.

كلامه غير الأشياء المخلوقة، وخارج عنها، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية.

فجمع في قوله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ جميع ما خلق، فلم يدع شيئاً، ثم قال: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾، يعني: والأمر، الذي كان به الخلق خلقاً، فرقاً بين خلقه، وأمره، فجعل الخلق خلقاً، والأمر أمراً، وجعل هذا غـير هـذا»[1].

قولُهُ: «وسَمَّى النبيُّ ﷺ الإيمانَ عَمَلاً».

يعني: في جوابه -ﷺ- السائل: «أي الأعمال أفضل؟ فقال: «إيمان بالله» كما سيأتي، فالإيمان، هو عمل القلب وتصديقه، وقول اللسان، والعمل بالبدن التابع لذلك من الصلاة، والحج، والصوم، والجهاد في سبيل الله، وامتثال أوامر الله -تعالى-، والانتهاء عما نهى عنه، فهذا كله هو الإيمان بالله، وهو عمل الجوارح الباطنة والظاهرة.

قال في «خلق أفعال العباد»: «وقال النبي -ﷺ- لجبريل حين سأله عن الإيمان قال: «تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله». قال: «فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟» قال: «نعم». ثم قال: «ما الإسلام؟» قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»... فذكره قال: «إذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟» قال: «نعم».

فسمى الإيمان والإسلام، والشهادة، والإحسان، والصلاة بقراءتها، وما فيها، من حركات الركوع والسجود: فعلاً للعبد»[2].

وقال في «الصحيح»: «باب من قال: إن الإيمان هو العمل؛ لقول الله -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: عن قول: لا إله إلا الله. ثم ذكر حديث أبي هريرة الآتي.

وإطلاق العمل على الإيمان، وكون الإيمان يشمل التصديق، والقول، والعمل، الأدلة عليه كثيرة، وكلام السلف فيه كثير واضح، والخلاف فيه واقع من أهل البدع، كالمرجئة من الجهمية وغيرهم.

---

(١) «الحيدة» (ص ٢٦-٢٧).

(٢) (ص ٦٠).

قالَ: «قال أبو ذرٍّ، وأبو هريرةَ: «سُئِلَ النبيُّ -ﷺ-: أيُّ الأعمالِ أفْضَلُ؟» قال: «إيمانٌ باللهِ، وجهادٌ في سبيلِهِ».

ذكر حديث أبي هريرة، موصولاً في كتاب الإيمان[1]، وفي كتاب الحج بأتم مما هنا، وذكر حديث أبي ذر في العتق، ولفظه: «سألت النبي -ﷺ-: أي العمل أفضل؟» قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله»، قلت: «فأي الرقاب أفضل؟» قال: «أغلاها ثمناً». وهو صريح في أن الإيمان يسمى عملاً؛ لأنه صادر من العبد، وعمل العبد مخلوق، وهذا هو مراد البخاري، وقد تقدم مراراً، الفرق بين عمل العبد، وكلام الله -تعالى- إذا قرأه العباد.

ولا يدل عطف الجهاد على الإيمان، أن الجهاد ليس منه، بل الأعمال الصالحة، المعطوفة على الإيمان، داخلة فيه، وعطفها عليه، إما من عطف الخاص على العام أو لأن الأعمال لازمة للإيمان، فإذا لم يأت بها العبد، دل ذلك على أنه ليس عنده إيمان؛ لأن انتفاء اللازم، يقتضي انتفاء الملزوم.

ولذلك صارت الأعمال، في عرف الشرع، داخلةً في اسم الإيمان.

وأيضاً فعطف الأعمال على الإيمان، لرفع توهم أن مجرد الإيمان، بدون الأعمال اللازمة له، يوجب الثواب الموعود به في الآخرة، وهو الجنة بلا عذاب، فعطفت عليه تخصيصاً، وتنصيصاً؛ ليعلم ذلك. هذا هو قول أهل السنة، وهو الذي دلت عليه نصوص كتاب الله، وسنة رسوله -ﷺ-.

بقي أن يقال: إذا كان الإيمان من عمل العباد، وأعمال العباد مخلوقة، كما تبين لنا، فهل الإيمان مخلوق؟

فالجواب: أنه لا بد من التفصيل، والبيان في ذلك؛ لأن هذا السؤال فيه إجمال وإيهام، فإن أريد بالإيمان، أعمال العباد، وتصديقاتهم، فأعمال العباد كلها مخلوقة.

وأن أُريد بالإيمان، شيء من صفات الله وكلامه، وشرعه الذي هو أمره، ونهيه، ووعده، ووعيده، وقدره الذي هو علمه ومشيئته وكلامه، فهو غير مخلوق.

وأما الأفعال المأمور بها والمنهي عنها، والمقدرات من الآجال، والأرزاق، والأعمال، فهي مخلوقة محدثة.

---

(١) انظر كتاب الإيمان من «الصحيح» (١/ ١٨).

قال شيخ الإسلام: «إذا قال: الإيمان مخلوق، أو غير مخلوق؟ قيل له: ما تريد بالإيمان؟ أتريد به شيئاً من صفات الله وكلامه، كقوله: لا إله إلا الله، وإيمانه الذي دل عليه اسمه «المؤمن»؟ فهو غير مخلوق. أو تريد شيئاً من أفعال العباد، وصفاتهم؟ فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم، وصفاتهم مخلوقة، ولا يكون للعبد المحدث المخلوق، صفة قديمة غير مخلوقة، ولا يقول هذا من يتصور ما يقول، فإذا حصل التفصيل ظهر الهدى، وبان السبيل»[1].

وقال أيضاً: «الشرع الذي هو أمر الله ونهيه غير مخلوق، وأما الأفعال المأمور بها، والمنهي عنها، فلا ريب أنها مخلوقة، وكذلك القدر، الذي هو علمه ومشيئته وكلامه غير مخلوق، وأما المقدرات من الآجال، والأرزاق، والأعمال، فكلها مخلوقة»[2].

واتفق أئمة المسلمين، على أن جميع أفعال العباد مخلوقة، كما ذكر البخاري - رحمه الله- عن يحيى بن سعيد القطان، قال: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة[3].

قولُهُ: «وقالَ: ﴿جَزَآءُۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾».

العمل الذي جوزوا عليه الجنة، يشمل الطاعات كلها، واجتناب المناهي كلها، فدخل فيه الإيمان، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والصلاة، وأداء الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

و «ما» في قوله: «بما» يجوز أن تكون موصولة، أي: بالذي كنتم تعملونه، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: بعملكم.

والباء سببية، أي: دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة، وأما الحديث «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» فالباء فيه للعوض والمقابلة، فالجنة ليست عوضاً للعمل، وإنما هي فضل من الله، والأعمال الصالحة سبب لدخولها، كما هو قول

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٦٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٦١).

(٣) «خلق أفعال العباد» (ص ٤٢).

أهل السنة، وكما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، خلافاً للمعتزلة، أهل القياس الفاسد، فإنهم يرون الجنة عوضاً للعمـل.

والمقصود: أن الآية تدل على أن العمل، الذي أدخل المؤمنون بسببه الجنة، فعل لهم يتعلق باختيارهم، ولهذا جوزوا عليه، والعباد وأعمالهم خلق لله -تعالى-.

قولُهُ: «**وقالَ وَفْدُ عبدِ القَيْسِ للنبيِّ -ﷺ-: مُرْنا بِجُمَلٍ مِنَ الأمرِ، إنْ عَمِلْنا بها دَخَلْنا الجنةَ، فأمَرَهُمْ بالإيمانِ، والشهادةِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ. فجعلَ ذلكَ كُلَّهُ عَمَلاً**».

سيأتي الحديث بطوله، والدلالة منه ظاهرة؛ لأنهم قالوا: «**نعمل بها**» فأمرهم بالإيمان، والشهادة، إلى آخر ما ذكر، فدل، على أن المذكور كله، عمل لهم، ومعلوم أنهم مخلوقون، فكذلك عملهم مخلوق، وهو المراد.

❐❐❐

١٧٩- قال: «حدثنا عبدُاللهِ بنُ عبدِالوهَاب حدثنا عبدالوهاب، حدثنا أيوبُ، عنْ أبي قِلابَة، والقاسِمِ التَّميميِّ، عن زَهْدَمٍ، قالَ: كانَ بينَ هذا الحيِّ من جُرْمٍ وبين الاشْعَريِّينَ وُدٌّ وإخاءٌ، فكنا عندَ أبي موسى الأشْعَريِّ، فَقُرِّبَ إليه الطعامُ، فيه لحمُ دَجاجٍ، وعندَهُ رَجُلٌ من بني تَيْمِ الله، كأنَّهُ منَ الموالي، فدعاهُ إليهِ، فقالَ الرَّجُلُ: إني رأيتُهُ يأكلُ شيئاً فقَذِرتُه، فحلفتُ لا آكلُهُ، فقالَ: هَلُمَّ فلأُحَدِّثْكَ عن ذلِكَ، إني أتيتُ النبيَّ -ﷺ- في نفرٍ مِنَ الأشعريِّينَ نستَحْمِلُهُ، قالَ: واللهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ، وما عندِي ما أَحْمِلُكُمْ، فأُتِيَ النبيُّ -ﷺ- بِنَهْبِ إبلٍ، فسأل عنّا، فقالَ: أينَ النفرُ الأشعريونَ؟ فأمرَ لنا بخمسِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى.

ثم انطلقنا، قُلنا: ما صَنَعْنا؟! حَلَفَ رسولُ اللهِ -ﷺ- لا يحملُنا، وما عندَهُ ما يحملُنا، تَغَفَّلْنا رسولَ الله -ﷺ- يمينَهُ، واللهِ لا نُفْلِحُ أبداً.

فرجعنا إليه، فقلنا لهُ، فقالَ: لَسْتُ أنا أحمُلكم، ولكنَّ اللهَ حَمَلَكُمْ، إنِّي واللهِ لا أحْلِفُ على يمينٍ فأرَى غيرَها خيراً منها إلا أتيتُ الذي هو خيرٌ منهُ، وتَحَلَّلْتُها».

«زهدم» هو ابن مضرِّب -تشديد الراء- الجرمي، نسبة إلى جَرْم بن زياد بطن من قضاعة، «والأشعري» نسبة إلى الأشعر بن سبأ، أبي قبيلة من اليمن.

«ود وإخاء» الود: صافي الحب، وأما الإخاء: فمن الأخوة، والمصاحبة، المقتضية للعطف، والود، والنصرة. وهذا تعليل لقوله: «فكنا عند أبي موسى الأشعري»؛ لأن زهدم من جَرْم.

«فقُرب إليه الطعام»: يؤخذ منه ما كان عليه الصحابة، ومن سلك طريقهم، من عدم التكلف لمن يحضر مجالسهم، وأنهم إذا حضر وقت طعامهم، قدم على ما هو عليه، سواء كثر الحضور أو قلوا، وفيه تهيئة الطعام وإعداده لصاحب البيت، وفيه دخول الرجل على صديقه، وعرض الطعام على من حضره، ولو كان قليلاً.

«فيه لحم دجاج» قال الحافظ: «الدجاج: اسم جنس مثلث الدال، والواحدة دجاجة، دخلتها الهاء للوحدة، قاله الجوهري. سُمي بذلك؛ لإسراعه في الإقبال والإدبار»[1].

وفيه جواز أكل الدجاج، وأن الحيوان إذا كان في جنسه ما يأكل الجلة، لم يلتفت إلى ذلك.

«وعنده رجل من بني تيم الله، كأنه من الموالي» بيَّن الحافظ أن هذا الرجل هو زهدم، وذكر رواية الترمذي، وفيها: «عن زهدم، قال: دخلت على أبي موسى، وهو يأكل دجاجاً، فقال: ادن فكُل، فإني رأيت رسول الله -ﷺ- يأكله».

وفي رواية البيهقي، عن زهدم، قال: رأيت أبا موسى يأكل دجاجاً، فدعاني، فقلت: إني رأيته يأكل نتناً، قال: ادن فكل»[2].

ومن أجل ذلك، جزم الحافظ بأنه زهدم الراوي، لكن كيف يقول عن نفسه: «كأنه من الموالي». ويعني بذلك: العجم، أطلق عليهم «موالي»؛ لأن من أسلم على يديه أحد، دعوه مولىً له، وهم أسلموا على أيدي الصحابة -رضي الله عنهم-.

«فدعاه إليه» أي: إلى الأكل. «فقال الرجل: إني رأيته يأكل شيئاً فَقَذِرْتُه» أبهم المأكول؛ لكراهة ذكره، كما هي عادتهم في ما هو مستقذر، يكنون عنه.

ومعنى «قذرته»: استقذرته، فصار عندي قذراً.

«فحلفت لا آكله» أي: من أجل ما رأى؛ لأنه كرهه.

«هلم فلأحدِّثك عن ذلك» هلم: أقبل، وتعال، أخبرك عن حلفك، وأنه لا يمنع من أكله؛ لأن الله -تعالى- جعل له كفارة، تخرج بها من حرج اليمين.

«إني أتيت النبي -ﷺ- في نفر من الأشعريين» النفر: هم الجماعة من الناس القليلة، من الثلاثة إلى العشرة، لا واحد له من لفظه.

«نستحمله» أي: نطلب منه أن يحملنا، أي: يعطينا من الإبل ما يحملنا، ويحمل متاعنا، وذلك في غزوة العُسْرة «غزوة تبوك».

---

(١) من «الفتح» ملخصاً (٩/ ٦٤٥).

(٢) «الفتح» (٩/ ٦٤٦، ٦٤٧).

قال: «والله لا أحملكم، وما عندي ما أحملكم» جاء في رواية في «الصحيح»: قال: «فوافقته وهو غضبان» ولهذا أخبره بأنه لا يحملهم، وأكد ذلك بالقسم؛ لأنه بنى على الحال التي هو فيها، ولم يكن عنده شيء يحملهم عليه، ولهذا قال: «وما عندي ما أحملكم».

«فأتى النبي -ﷺ- بنهب إبل» النهب: الغنيمة، وهو مصدر، بمعنى المنهوب، كالخلق بمعنى المخلوق.

«فسأل عنا، فقال: «أين النفر الأشعريون»؟: فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ». الذود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشر، وهو لفظ مؤنث، لا واحد له من لفظه.

«غر الذرى» أي: بيضُ الأَسْنِمَةِ، فذروة البعير: سنامه؛ لأنه أعلى ما فيه، إما أنه أراد أنها سمان، في أسنمتها الشحم الأبيض، أو أن شعور أسنمتها بيض.

«ثم انطلقنا، فقلنا: ما صنعنا؟ حلف رسول الله -ﷺ- لا يحملنا، وما عنده ما يحملنا، ثم حملنا» يعني: أن صنعنا هذا ليس من البر، بل هو مما يخاف عقباه، حيث حَمَلْنا رسول الله -ﷺ- على مخالفة ما حلف عليه، فأوقعناه في الحنث، ولهذا قال: «والله لا نفلح أبداً» أي: لا يحصل لنا الفلاح، وهو الفوز بالخير والسعادة الدنيوية والأخروية.

«تغفلْنا رسول الله -ﷺ- يمينه»، أي: أخذنا ما أعطانا في حالة غفلته عن يمينه ونسيانه لها.

«فرجعنا إليه فقلنا له، فقال: لست أنا أحملكم، ولكن الله حملكم» هذه الجملة من الحديث هي محل الشاهد، فإن الله -تعالى- هو المتصرف في عباده، وعملهم يقع بخلقه -تعالى- ومشيئته، فكما أنه -تعالى- خالق العبد، فهو خالق أفعاله.

ولهذا أسند النبي -ﷺ- حملهم إلى الله، مع أنه الذي أعطاهم الإبل؛ لأن إعطاءهم إياها، بعد إرادة الله وخلقه.

«قال الماوردي: معناه: أن الله -تعالى- آتاني ما أحملكم عليه، ولولا ذلك لم يكن عندي ما أحملكم عليه»[1].

قال الحافظ: «المراد منه نسبة الحمل إلى الله -تعالى- وإن كان الذي باشر ذلك النبي -ﷺ- فهو كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾»[2].

«إني والله، لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير منه وتحللتها»، في هذا دلالة، على أن من حلف على فعل شيء أو تركه، فرأى أن مخالفة يمينه، خيرٌ له في دينه أو دنياه، فإن المشروع في حقه أن لا يمضي في يمينه، بل يفعل الذي هو خير، ويكفر عن يمينه.

❑❑❑

(١) «شرح مسلم» للنووي (١١/ ١١٠).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٣٤).

١٨٠- قال: «حدثنا عَمْرُو بنُ عليّ، حدثنا أبو عاصِمٍ، حدثنا قُرَّةُ بنُ خالدٍ، حدثنا أبو جَمْرَةَ الضُّبَعيُّ، قلتُ لابنِ عباسٍ: فقالَ: قَدِمَ وفدُ عبدِ القيسِ على رسولِ اللهِ -ﷺ- فقالوا: إنَّ بينَنا وبينَكَ المشركينَ مِنْ مُضَرَ، وإنَّا لا نَصِلُ إليكَ إلا في أشهرٍ حُرُمٍ، فمُرْنا بجُمَلٍ مِنَ الأمرِ، إنْ عَمِلْنا بِهِ دَخَلْنا الجنةَ، ونَدْعُو إليها مَنْ وراءَنا، قالَ: «آمُرُكُمْ بأربَعٍ، وأنهاكُم عَنْ أربعٍ: آمرُكم بالإيمان بالله، وهل تدرونَ ما الإيمانُ باللهِ؟ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وتُعْطُوا من المغنمِ الخُمُسَ، وأنهاكُم عن أربعٍ: لا تَشْرَبُوا في الدُّبَّاءِ، والنَّقِيرِ، والظُّروفِ المُزَفَّتةِ، والحَنْتَمَةِ».

قوله: «قلت لابن عباس» لم يذكر مقول القول، وقد بينه في آخر «المغازي» في باب: وفد عبد القيس[1] وفيه: «عن أبي جمرة، قلت لابن عباس -رضي الله عنهما-: إن لي جرة ينتبذ لي نبيذ فأشربه حلواً في جرة، إن أكثرت منه فجالست القوم، فأطلت الجلوس خشيت أن أفتضح، فقال: قدم» إلى آخره.

قال الحافظ: في قوله: «خشيت أن أفتضح» أي: لأني أصير في مثل حال السكارى[2].

ويجوز أن يحدث له تسهيلاً، أو رياحاً في بطنه، ويخشى أن يغلبه شيء من ذلك فيفتضح. والله أعلم.

والوفد: الجماعة المختارة للقاء العظماء، وعبد القيس قبيلة كبيرة، كانت مساكنهم في شرق الجزيرة العربية، قرب الأحساء، والقطيف، وكانت تسمى البحرين[3]، قال الحافظ: «الذي تبين لنا، أنه كان لعبد القيس وافدتان:

أحدهما: قبل الفتح، ولهذا قالوا: بيننا وبينك كفار مضر، وكان ذلك إما في سنة خمس أو قبلها، وكان عددهم ثلاثة عشر رجلاً.

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (٥/١٣٨).

(٢) «الفتح» (٨/ ٨٦).

(٣) قال ياقوت: «البحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل بحر النهر بين البصرة وعمان». «معجم البلدان» (١/ ٣٤٧).

وثانيهما: كانت سنة الوفود، وكان عددهم أربعين رجلاً[1] وذكر أدلة ذلك.

ومُضَرُ أبو القبيلة المشهورة، وهو مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

«فقالوا: إن بيننا وبينك المشركين من مضر» يعني: أن بلادهم بعيدة عن رسول الله -ﷺ-، وفي طريقهم إليه المشركون الذين هم أعداء لهم، فإذا تمكنوا منهم قتلوهم، وهم بحاجة إلى التعلم من رسول الله -ﷺ-، ولهذا قالوا: «فمرنا بجمل من الأمر» وفي الرواية الأخرى: «بأمر فَصْل» أي: بيِّن جامع، لا نحتاج معه إلى غيره، وفاصل بين الحق والباطل، ولهذا قالوا: إن عملنا به دخلنا الجنة.

«وندعو إليها مَن وراءنا» أي: الأوامر التي تأمرنا بها، نعمل بها، وندعو قومنا إلى العمل بها.

«وإنَّا لا نصل إليك إلا في أشهر حُرم» دليل على تعظيم الأشهر الحرم، حتى عند المشركين، حيث لا يتعرضون لأعدائهم في الأشهر الحرم.

وقد نوه الله -تعالى- عن حرمتها في كتابه، حين قال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾.

«قال: آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع» أي: أربع جمل، كما في سؤالهم، أو أربع خصال «آمركم بالإيمان بالله» ثم فسر ذلك بقوله: «وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله» أي: أن تشهدوا أن الله هو الإله الحق، المستحق أن يؤله، ويعبد وحده، وأن تفعلوا ذلك مخلصين له التأله، وأن تشهدوا أن كل مألوه غيره باطل وضلال، من توجه إليه بالعبادة، فهو من أصحاب النار،الذين لا يخرجون منها أبداً، إذا ماتوا على ذلك. هذه الكلمة أصل وأساس ما بعدها، بل هي أصل الإسلام، فلا يدخل الإسلام أحد إلا بها، وبمعرفتها والعمل بها، تتفاوت درجات الناس عند الله تعالى، وهي تشمل معرفة القلب وعمله، وعمل الجوارح، ولهذا جعلها النبي -ﷺ- الإيمان، وأما الإشكالات التي ذكرها الحافظ عن شراح هذا الحديث، والتقديرات المبنية عليها[2]، فهي غير واردة على الحديث أصلاً.

---

(١) «الفتح» (٨/ ٨٥).

(٢) انظر «الفتح» (١/ ١٣٢) وما بعدها.

ومن تلك الإيرادات: أن ذكر الشهادة للتبرك، وليست مرادة لنفسها، وعليه فأول الخصال: الأمر بالصلاة، وذلك أن القوم كانوا مؤمنين، مقرين بالشهادتين، فلا وجه لذكرها. وهذا من الكلام الباطل لمخالفته لنص الحديث، والذي حملهم عليه: مذهبهم بأن الإيمان مجرد التصديق والمعرفة، وهو مخالف لنصوص الكتاب والسنة، فإذا لم يقترن بالتصديق عمل صالح، فلا اعتبار له في الشرع، كما أن الإيمان يتجدد، ويزداد، والأعمال من الإيمان، بها يزيد، وبتركها أو نقصها ينقص.

«وإقام الصلاة» أي: تصلون الصلوات الخمس مقيمين لها، بأن تأتوا بها قائمة غير ناقصة، بشرائطها، وواجباتها، وما يلزم لها.

«وإيتاء الزكاة» أي: أن تؤتوها مَن فرضها الله لهم، ممتثلين أمر الله، خائفين من عقابه لو منعتموها، راجين ثوابه في أدائها، طيبة بها نفوسكم، محبين لذلك مغتبطين به.

«وتعطوا من المغنم الخمس» أي: خمس ما غنمتم فإنه لله ورسوله، وهو بمنزلة الزكاة في الوجوب، فتعطوه من هو له، ممتثلين أمر الله في ذلك، كما في الزكاة.

وهذه الأوامر الأربع: وهي الإيمان، وفسره بشهادة أن لا إله إلا الله.

والثانية: إقام الصلاة، والثالثة: إيتاء الزكاة، والرابعة: إعطاء خمس المغنم.

وأما النواهي: فهي أن لا يشربوا في الدُّبَّاء، وهي: ثمر اليقطين إذا يبس، فإنه يكون كالجرار، وإذا وضع فيه نبيذ التمر، أو غيره أسرع إليه الغليان، فيكون خمراً، وكذلك بقية الأوعية المذكورة.

والنَّقِير: وعاء يتخذ من جذوع النخل، ينقر وسطه حتى يصير شبه الجرة.

والمُزَفَّت: هو المطلي بالزفت، وهو المُقَيَّر.

وأما الحَنْتَم فقال في «النهاية»: هي جرار مدهونة خضر، كانت تُحمل الخمر فيها إلى المدينة، ثم توضع فيها، فقيل للخزف كله: حنتم، واحدتها حنتمة.

وإنما نهى عن الانتباذ فيها؛ لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها.

وقيل: لأنها كانت تُعمل من طين يعجن بالدم والشعر، فنهى عنها ليمتنع من عملها، والأول أوجه»[1] بل هو المتعين.

والمراد من الحديث قوله: «فمرنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو إليها مَنْ وراءنا، قال: آمركم بأربع» فعملهم الذي بسببه يدخلون الجنة، هو فعل لهم، يضاف إليهم حقيقة، وهم يباشرونه، ويعملونه حقيقة باختيارهم وإرادتهم، ومع ذلك هو من خلق الله -تعالى-، فهو داخل في عموم خلقه، وعموم إرادته ومشيئته؛ لأنه تعالى هو خالقهم وخالق أعمالهم، كما في الحديث الذي رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» حيث قال: «فأما أفعال العباد: فحدثنا علي بن عبدالله، حدثنا مروان ابن معاوية، حدثنا أبو مالك، عن ربعي بن خراش، عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -ﷺ-: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته» فأخبر أن الصناعات، وأهلها مخلوقة.

حدثنا محمد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة -رضي الله عنه-: «إن الله خلق كل صانع وصنعته، إن الله خالق صانع الخُزُمِ، وصنعته»[2].

حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «العجز والكيس من القدر»، وذكر أحاديث بهذا المعنى ثم قال: سمعت عبيدالله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة.

قال أبو عبدالله: حركاتهم، وأصواتهم، واكتسابهم، وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو، المبين، المثبت في المصحف، فهو كلام الله ليس بخلق»[3].

□□□

---

(١) «النهاية» (١/ ٤٤٨).

(٢) قال الأزهري: قال ابن الأعرابي: الخُزُمُ: الخرازون. ثم ذكر هذا الحديث (٧/ ٢١٧) «تهذيب اللغة».

(٣) «خلق أفعال العباد» (ص٤١-٤٢).

١٨١- قال: «حدثنا قتيبةُ بنُ سعيدٍ، حدثنا اللَّيْثُ، عن نافعٍ، عن القاسمِ بن محمدٍ، عنْ عائشةَ -رضي اللهُ عنها- أنَّ رسولَ اللهِ -ﷺ- قالَ: «إنَّ أصحابَ هذهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يومَ القيامةِ، يقالُ لهمْ: أحْيُوا ما خَلَقْتُمْ».

١٨٢- «حدثنا أبو النُّعْمان، حدثنا حَمّادُ بنُ زيدٍ، عن أيوبَ، عن نافعٍ، عن ابن عُمَرَ -رضيَ الله عنهما- قالَ: قالَ النبيُّ -ﷺ-: «إنَّ أصحابَ هذهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يومَ القيامةِ، يقالُ لهمْ: أحْيُوا ما خَلَقْتُمْ».

قال في «اللسان»: «في أسماء الله الحسنى: «المصور»، وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة بها، على اختلافها وكثرتها -قال: «والصورة في الشكل»[١].

وفي «متن اللغة»: «الصورة: الشكل، والهيئة، والحقيقة»[٢].

وتقدم أن «المصوِّر» من أسماء الله الحسنى، وأن التصوير، بمعنى إعطاء كل شيء شكله، الذي هو عليه، من خصائص الله -تعالى-، ولهذا من تشبه به تعالى في ذلك، وصوَّر صور الأحياء، فإن الله يعذبه أشد العذاب.

وقد تكاثرت النصوص الدالة على شدة عذاب المصورين، كما في هذين الحديثين.

قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ نزلت في المصورين[٣].

وفي «الصحيحين» من حديث عبدالله بن مسعود، قال: سمعت النبي -ﷺ- يقول: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»[٤]، وفي رواية لمسلم: «إن من أشد أهل النار يوم القيامة عذاباً المصورين».

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ٤٧٣).

(٢) «متن اللغة» (٤/ ٥١٤).

(٣) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٢/ ٤٤).

(٤) انظر: «الفتح» (١٠/ ٣٨٢)، و «مسلم» (٣/ ١٦٧٠) رقم (٢١٠٩).

وروى مسلم إلى ابن عباس، قال: جاءه رجل، فقال: إني رجل أصور هذه الصور، فأفتني فيها، فقال له: ادن مني، فدنا منه، ثم قال: ادن مني، فدنا حتى وضع يده على رأسه.

قال: أنبئك بما سمعت من رسول الله -ﷺ-، سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «المصور في النار يجعل له بكل صورة صوّرها نفساً فتعذبه في جهنم»[1].

وفي رواية له: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ» والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة.

قوله: «ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم» يقال لهم ذلك تعجيزاً لهم وتعذيباً، يعني: أوجدوا فيه الروح، التي بها الحياة، وليس ذلك بطاقة أحد غير الله -جل وعلا- وهذا لأنهم ذهبوا يتشبهون بالله -تعالى- في التصوير والخلق، فطغوا بذلك وجاوزوا حدَّهم؛ لأن الله -تعالى- وحده، هو المصور الذي يصور كل حي، ويوجد فيه الروح، فصار جزاء هؤلاء: أن يعذبوا بما لا يطاق، ولا يستطاع، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

والمقصود من الحديث، نسبة الخلق إليهم في قوله: «أحيوا ما خلقتم» فالتصوير فعلهم وعملهم، الذي استحقوا عليه العقاب؛ لأنهم فعلوه بطوعهم، واختيارهم، فهو فعلهم حقيقة، والله خالقهم، وخالق أفعالهم، كما تقدم، ومن أجل أن ذلك فعلهم حقيقة جوزوا عليه.

□□□

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٣/ ١٦٧١) الحديث رقم (٢١١٠).

١٨٣- قال: «حدثنا محمدُ بنُ العلاءِ، حدثنا ابن فُضَيلٍ، عنْ عُمارةَ، عن أبي زُرْعةَ، سمعَ أبا هريرة -رضيَ اللهُ عنه- قالَ: سمعتُ النبيَّ -ﷺ- يقولُ: «قالَ اللهُ -عز وجل- ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذهبَ يخلقُ كَخَلْقِي، لِيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أو شَعِيرَةً».

هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي -ﷺ- عن ربه -جل وعلا- عن طريق الإلهام، أو المنام، أو بواسطة الملك، وهي مضافة إلى الله -تعالى- قولاً له، ويختلف عنها القرآن، بأنه كلام الله المنزل على محمد -ﷺ- نزل به الروح الأمين، المتحدى به، أو بسورة منه، المتعبد بتلاوته.

قوله: «ومن أظلم» يعني: أن فاعل ذلك، ظالم ظلماً لم يبلغه أحد، فهو استفهام يفيد كثرة الظلم، وعظمه، وإنكاره.

ومعنى «ذهب»: قصد وفعل ذلك.

وقوله: «كخلقي» يعني: في الصورة فقط، وإلا فلا أحد من الخلق، يقدر أن يوجد حياة فيما يصوره، مهما أوتي من الفكر، والإمكانيات المادية، وغيرها، فلن يستطيع ذلك، ولهذا قال: «فليخلقوا ذرة» أي: ليوجدوا فيها الحياة أو ليوجدوها من العدم، وليجعلوا فيها روحاً تحيا بها، وليس هذا بمقدور الخلق ولو اجتمعوا له.

ثم انتقل بهم إلى ما هو أسهل من ذلك، وهو الحبة التي تكون بها حياة النبات، فإذا وضعت في الأرض، وسقيت بالماء نبتت بإذن الله، ولن يستطيع المصورون أن يخلقوا تلك الحبة، بل ذلك ليس في مقدور الخلق كلهم.

ثم قال: «وليخلقوا شعيرة»، والشعيرة أقل قيمة من الحبة، ولكن فيها من الحياة ما في الحبة، فإذا كان المصورون، وغيرهم الذين يضاهئون الله في خلقه، عاجزين عن خلق الحبة والشعيرة، فضلاً عما فيه روح، فكيف يذهبون يصورون الصور التي فيها مضاهاة لخلق الله -تعالى-؟ ولعظيم جرمهم، استحقوا من العذاب، ما لا يكون لسائر أهل الكبائر.

والمقصود بالأمر في قوله: «فليخلقوا ذرة» إلى آخره، التعجيز وإذلالهم بذلك، وتعذيبهم.

ومراد البخاري -رحمه الله- نسبة الخلق إليهم فعلاً لهم حقيقة، مع أنهم مخلوقون لله -تعالى- فالله خالقهم، وخالق أفعالهم، ولكنه جعلهم فاعلين قادرين

علي فعلهم، باختيارهم وقدرتهم التي خلقها الله فيهم، ولهذا عذبهم على ذلك، ولو لم يكن فعلاً لهم حقيقة ما عذبوا عليه.

قال الحافظ: «الذي يظهر: أن مناسبة ذكر حديث المصورين، لترجمة هذا الباب، من جهة أن من زعم أنه يخلق فعل نفسه، لو صحت دعواه لما وقع الإنكار على هؤلاء، فلما كان أمرهم بنفخ الروح فيما صوروه، أمر تعجيز، ونسبة الخلق إليهم، إنما هي على سبيل التهكم والاستهزاء، دل على فساد قول من نسب خلق فعله إليه استقلالاً»[1].

والصواب ما تقدمت الإشارة إليه من مراد البخاري -رحمه الله- أن الأفعال المسندة إليهم، أفعال لهم حقيقة، وهي مخلوق لله -تعالى-، فإن الله خالق كل فاعل وفعله، وهو خالق كل شيء، فلا يكون العباد خالقين لأفعالهم استقلالاً وإيجاداً، وإنما هم فاعلون لها، بجعل الله لهم فاعلين،
وإقداره لهم على ذلك، فجعل القدرة لهم على فعلها، وأوجد فيهم الإرادة لها والاختيار، فصاروا فاعلين لها بذلك، حيث باشروا الفعل بأنفسهم، فهو فعلهم حقيقة، ولذلك استحقوا عليها الثواب أو العقاب.

وقال الكرماني: «لعل غرض البخاري، في تكثير هذا النوع، في هذا الباب وغيره، بيان جواز ما نقل عنه أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق -إن صح عنه-»[2].

قال الحافظ: «قلت: قد صح عنه أنه تبرأ من هذا الإطلاق، فقال: «كل من نقل عني أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فقد كذب عليّ، وإنما قلت: أفعال العباد مخلوقة. أخرج ذلك غنجار، في ترجمة البخاري، من تاريخ بخارى، بسند صحيح إلى محمد بن نصر المروزي، الإمام، المشهور، أنه سمع البخاري يقول ذلك»[3] ومن طرق أخرى.

قال ابن القيم -بعدما ذكر ما ذكره البخاري-: «وقال جابر بن عبدالله: كان رسول الله -ﷺ- يعلمنا الاستخارة في الأمور، كما يعلمنا السورة من القرآن.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٣٥).

(٢) «شرح الكرماني» (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥٣٥).

يقول: «إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر، ولا أقدر، وتعلم، ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب.

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، فيسرّه لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفه عني، واصرفني عنه، وأقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، قال: ويسمي حاجته» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(١).

فقوله: «إذا همَّ أحدكم بالأمر» صريح في أنه في الفعل الاختياري، المتعلق بإرادة العبد، وإذا علم ذلك، فقوله: «أستقدرك بقدرتك» أي: أسألك أن تقدرني على فعله، بقدرتك، ومعلوم أنه لم يسأله القدرة المصححة [للفعل]، التي هي سلامة الأعضاء، وصحة البنية. وإنما سأل القدرة التي توجب الفعل، فعلم أنها مقدورة لله، ومخلوقة له.

وأكد ذلك بقوله: «فإنك تقدر ولا أقدر» أي: تقدر أن تجعلني قادراً، فاعلاً، ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك، وكذلك قوله: «تعلم ولا أعلم» أي: حقيقة العلم بعواقب الأمور، ومآلها، والنافع منها والضار عندك، وليس عندي.

وقوله: «يسره لي» أو «اصرفه عني»، فإنه طلب من الله تيسيره إن كان له فيه مصلحة، وصرفه عنه إن كان فيه مفسدة، وهذا التيسير والصرف متضمن إلغاء داعية الفعل في القلب، أو إلقاء داعية الترك فيه، ومتى حصلت داعية الفعل، حصل الفعل، [وإذا حصل] داعية الترك امتنع الفعل.

وعند القدرية: ترجيح فاعلية العبد على الترك، ليس للرب فيه صنع، ولا تأثير، فطلب هذا التيسير منه لا معنى له عندهم، فإن تيسير الأسباب التي لا قدرة للعبد عليها موجودة، ولو لم يسألها العبد.

وقوله: «ثم رضني به» يدل على أن حصول الرضا، وهو فعل اختياري من أفعال القلوب، -أمر مقدور للرب تعالى- وهو الذي يجعل نفسه راضية.

---

(١) هو مخرج في «الصحيحين»، وتقدم في هذا الكتاب.

وقوله: «فاصرفه عني، واصرفني عنه» صريح في أنه سبحانه هو الذي يصرف عبده عن فعله الاختياري، إذا شاء صرفه عنه، كما قال تعالى في حق يوسف: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ وصرف السوء والفحشاء: هو صرف دواعي القلب، وميله، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما.

وقوله: «**واقدر لي الخير حيث كان**» يعم الخير المقدور للعبد من طاعته، وغير المقدور له.

فعلم أن فعل العبد للطاعة والخير، أمر مقدور لله -تعالى-، إن لم يقدره الله لعبده، لم يقع من العبد.

ففي هذا الحديث الشفاء في مسالة القدر، وأمر النبي -ﷺ- الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين، عبودية منه بين يدي نجواه، وأن يكونا من غير الفريضة؛ ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب.

ولما كان الفعل الاختياري متوقفاً على العلم، والقدرة، والإرادة، لا يحصل إلا بها، توسل الداعي إلى الله -تعالى- بعلمه، وقدرته، وإرادته التي يفعل بها من فضله.

وأكد هذا المعنى بتجرده، وبراءته من ذلك، فقال: «إنك تعلم، ولا أعلم، وتقدر، ولا أقدر»، وأمر الداعي أن يعلق التيسير بالخير، والصرف بالشر، وهو علم الله -سبحانه- تحقيقاً للتفويض إليه، واعترافاً بجهل العبد بعواقب الأمور كما اعترف بعجزه.

«ففي هذا الدعاء إعطاء العبودية حقها، وإعطاء الربوبية حقها، والله المستعان»[1].

□□□

---

(١) «شفاء العليل» (ص ١١٠-١١١).

قالَ: «بابُ قراءةِ الفاجِرِ، والمنافِقِ، وأصواتُهُمْ وتِلاوتُهُم لا تجاوزُ حَناجِرَهُمْ».

الفاجر هو: الخارج عن الطاعة، فيشمل الكافر والفاسق.

وأما المنافق، فهو: الذي يظهر خلاف ما يبطن، وأعظم ذلك الكفر والتكذيب، فمن أبطن الكفر والتكذيب، فهو المنافق النفاق الأكبر، وإن تنوع ذلك.

وقوله: «وتلاوتهم» مبتدأ، وخبره جملة: «لا تجاوز حناجرهم» والجملة من المبتدأ والخبر حال.

وهذا الباب كسابقه مما مر ذكره، يريد به التفرقة بين التلاوة والمتلو، وأن التلاوة من عمل التالي، وعمل العباد متفاوت، فمنه المقبول المرفوع إلى الله -تعالى-، ومنه المردود الذي لا يجاوز فم قائله، وعمل البر المتقي ليس كعمل الفاجر، والمنافق، وعمل الشيطان الذي يسترق السمع من الملائكة، وأخيه الكاهن ليس كعمل الملك.

فهذا التفاوت يدل على أنه عملهم، وعملهم كله مخلوق، ولهذا قال -رحمه الله- في «خلق أفعال العباد»: «وذكر النبي -ﷺ- قراءة المنافقين والفجار، فبين ما يتآكلون بقراءتهم، فلا يرتابن أحد في خلق المنافقين وأصحاب الجحيم وأعمالهم.

حدثنا عبيدالله -هو أبو قدامة- ابن سعيد، حدثنا حماد بن زيد، قال: من قال: كلام العباد ليس بمخلوق فهو كافر.

حدثنا عبدالله بن يزيد، حدثنا حيوة، حدثني بشير بن أبي عمرو الخولاني أن الوليد بن قيس التجيبي حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدري -رضي الله عنه- يقول: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «يخلف قوم من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً.

ثم يكون خلف يقرءون القرآن، لا يعدو تراقيهم. ويقرأ ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». فقال بشير: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافر به، والفاجر يتآكل به، والمؤمن يؤمن به».

ثم قال: «ومما يدل على أصوات العباد[1]: قول النبي -ﷺ- وأكثر منافقي أمتي قرآؤها». فعد قراءة المعطلة، والجهمية، وأهل الأهواء، وغيرهم.

وقال النبي -ﷺ-: «يقرأ القرآن رجال، يمرقون من الدين، لا يجاوز حلوقهم، هم شر الخلق والخليقة».

وقال: «يتعجلونه، ولا يتأجلونه»[2]. وهذا يبين مراده من هذا الباب هنا.

قال الحافظ: «التلاوة متفاوتة بتفاوت التالي، فيدل على أنها من عمله»[3].

❐❐❐

(١) يعني: أنها مخلوقة لله -تعالى- مثل سائر المخلوقات.

(٢) «خلق أفعال العباد» (ص ١٩٣-١٩٤).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥٣٦).

١٨٤- قال: حدثنا هُدْبَةُ بنُ خالدٍ، حدثنا هَمَّامٌ، حدثنا قَتادَةُ، حدثنا أنسٌ، عن أبي موسى -رضي اللهُ عنه- عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «مَثَلُ المؤمنِ الذي يقرأُ القرآنَ كالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُها طَيِّبٌ وريحُها طَيِّبٌ، والذي لا يقرأُ كالتمرةِ، طَعْمُها طَيِّبٌ ولا ريحَ لها، ومَثَلُ الفاجرِ الذي يقرأُ القرآنَ كَمَثَلِ الريحانَةِ، ريحُها طَيِّبٌ وطَعْمُها مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الذي لا يقرأُ القرآنَ، كَمَثَلِ الحنظلَةِ طَعْمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها».

ضرب الأمثال يراد به تقريب المعنى إلى الفهم.

والمقصود بالمثل هنا: الوصف والحال، فالمؤمن طيب في نفسه، وما يصدر منه من عمل يكون طيباً، فلهذا جعل -ﷺ- مذاقه طيباً، ورائحته التي تتعدى إلى من حوله طيبة، وإن كان المقصود بهذا الحديث من يحمل القرآن ويقرؤه، فغير القراءة من الأعمال يلتحق بها.

فإذا كان حامل القرآن مؤمناً، عاملاً به، صادف محلاً قابلاً، فأثمر.

والأترجة، تجمع طيب المذاق، وطيب الرائحة، وحسن المنظر، وطيب نكهتها وجودة الهضم، وفيها منافع أخرى، فناسب تمثيل المؤمن القارىء للقرآن بها.

قال الحافظ: «وقع في رواية شعبة، عن قتادة: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به» وهي زيادة مفسرة للمراد، وأن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر، ونهي، لا مطلق التلاوة»[١].

قوله: «والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها» يعني بالمؤمن الذي لا يقرأ القرآن: هو الذي لا يحفظه، ولا يتلوه، فالإيمان بالله ورسله وما جاءت به طيب، ومذاقه حلو، ولكن إذا آمن بالقرآن، وعمل به، وهو لا يقرؤه، فاتته الرائحة الطيبة، والله -تعالى يجمع الطيبين فيسكنهم دار الطيبات، كما يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه فيجعله في جهنم.

قال الحافظ: «قيل: خص صفة الإيمان بالطعم، وصفة التلاوة بالريح؛ لأن الإيمان ألزم للمؤمن من القرآن، إذ يمكن حصول الإيمان بدون القراءة»[٢].

(١) «الفتح» (٩/ ٦٧).

(٢) «الفتح» (٩/ ٦٦).

قوله: «ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر».

الفاجر أصله ومذاقه مر خبيث، وإذا قرأ القرآن كان ما يصدر منه من القراءة طيب، ولكن مصدر القراءة خبيث، ومثل القراءة بالرائحة التي يدركها من حوله، فلما كان هذا العمل طيباً، صار مثل الرائحة الطيبة، الصادرة من محل خبيث، مؤذ، ضار، وإن كان ينتفع برائحته.

قوله: «ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مر، ولا ريح لها» يعني: اجتمع فيه خبث الأصل، وخبث العمل، فلا نفع فيه لنفسه ولا لغيره، بل هو رديء مؤذ في نفسه، ولا علم له ينتفع به.

قال النووي: «فيه فضيلة حافظ القرآن، واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح المقاصد»[1].

والمقصود بقارىء القرآن، مَن حفظه، وتعاهده بكثرة التلاوة؛ للوقوف على أسرار معانيه، والعمل بأوامره، والانتهاء عن مناهيه، والاتعاظ بمواعظه، والتأدب بآدابه، لا مجرد الحفظ والتلاوة.

وكلام الله -تعالى- له تأثير في باطن العبد، وظاهره، إذا كان مؤمناً به، والعباد متفاوتون في ذلك، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك، وهو المؤمن المتقي التالي له، ومنهم من لا نصيب له البتة، وهو المنافق، ومن تأثر ظاهره دون باطنه فذلك المرائي»[2].

والمراد منه للباب: أن هذا التفاوت، في وصف المؤمن القارىء، وغير القارىء، والفاجر والمنافق، يدل على أن ذلك عملهم، تفاوت بالإيمان مع القراءة وعدمها، وبالفجور والنفاق مع القراءة وعدمها، فإذا كان ذلك بعملهم، فأعمالهم كلها مخلوقة، كما تقدم إيضاح ذلك.

□□□

(١) «شرح مسلم» (٦/ ٨٣).

(٢) «مكمل إكمال الإكمال» ملخصاً (٢/ ٤١٥).

١٨٥- قال: «حدثنا عَليٌّ، حدثنا هِشامٌ، أخبرنا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْريِّ. ح.

وحدثني أحمدُ بنُ صالحٍ، حدثنا عَنْبَسَةُ، حدثنا يُونُسُ، عن ابن شِهابٍ أخبرني يحيى بنُ عُرْوَةَ بنِ الزبير، أنه سمعَ عروةَ بنَ الزبيرِ يقولُ: قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: سألَ أُناسٌ النبيَّ -ﷺ- عنِ الكُهَّانِ؟ فقالَ: «إنهم ليسُوا بشيءٍ» فقالوا: يا رسولَ اللهِ، فإنهم يحدِّثونَ بالشيءِ يكونُ حقّاً، قالَ: فقالَ النبيُّ -ﷺ-: «تلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحقِّ يخْطَفُها الجِنِّيُّ، فيُقَرْقِرُها في أُذُنِ وَلِيِّهِ، كَقَرْقَرَةِ الدجاجةِ، فيَخْلِطُونَ فيهِ أكثرَ منْ مائةِ كَذْبَةٍ».

قوله: «سأل أناس النبي -ﷺ- عن الكهان» جاء في «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، إن الكهان كانوا يحدثوننا بالشيء فنجده حقاً، قال: «تلك الكلمة الحق، يخطفها الجني، فيقذفها في أذن وليه، ويزيد فيها مائة كذبة»[(١)].

فالسؤال وقع عما يخبرون به، فلهذا قال: «ليسوا بشيء» أي: أخبارهم باطلة وكذب، ليست شيئاً واقعاً، فلما قالوا: إنهم يصدقون أحياناً، أخبر أن ذلك الصدق، هو القليل الذي يخطفه الشيطان، المسترق للسمع، من الملك الذي يتكلم بالوحي، فيلقيه في أذن وليه من الإنس، الذي هو الكاهن، ويكذب معها مائة كذبة.

ويجوز أنهم سألوا عن حكمهم، وعن إتيانهم، كما في «صحيح مسلم» أن معاوية بن الحكم قال: يا رسول الله، كنا نأتي الكهان، قال: «فلا تأتوا الكهان»[(٢)].

والكهان هم: الذين يخبرون عن المستقبل غالباً، استناداً إلى أسباب خفية، من اتصالهم بالجن، الذين يسترقون السمع من الملائكة، وهو الأصل عندهم، وقد تكون أخبارهم وهمية.

ويطلق اسم الكاهن على كل من يتعاطى علم الغيب، أو يحكم بغير ما أنزل الله[(٣)].

---

(١) انظر «صحيح مسلم» (٤/ ١٧٥٠) رقم (٢٢٢٨).

(٢) المصدر المذكور (٤/ ١٧٤٩) رقم (٢٢٢٧).

(٣) انظر «الفتح» (١٠/ ٢١٦).

وفي كليات أبي البقاء: «الكاهن هو: من يخبر بالأحوال الماضية، والعرّاف: من يخبر بالأحوال المستقبلة»[1].

وقال الخطابي: «الكهنة: قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية؛ فألفتهم الشياطين؛ لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل إليه قدرتهم. وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية، خصوصاً في العرب؛ لانقطاع النبوة فيهم، وهي على أصناف.

منها: ما يتلقونه من الجن، فإن الجن يركب بعضهم بعضاً، إلى أن يسمع أعلاهم شيئاً من كلام الملائكة، كما وصف ذلك في الحديث، وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً، كما في أخبار شق، وسطيح، وغيرهما من كبار الكهان، وأما في الإسلام، فقد ندر ذلك جداً حتى يكاد يضمحل.

ومنها: ما يخبر الجني به من يواليه، مما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه.

ومنها: ما يستند إلى التجربة، والعادة، فيستدل على الحادث، بما وقع قبل ذلك، وقد يكون ذلك بنوع من السحر، أو بنوع يضاهي السحر، مثل: الزجر، والطرق، والنظر في النجوم.

ومنها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وقد يبتلي الله -تعالى- بهذا النوع بعض الناس، فيقع له ما ظنه، فيكون ذلك فتنة له، ولغيره مع كثرة الكذب فيه»[2].

قوله: **فقالوا: يا رسول الله. فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً»** أي: إن الكهان يخبرون بالأمر، فيقع مثل ما أخبروا به. فالحق: هو الخبر المطابق للواقع، يعني: الصدق.

فقال النبي -ﷺ- جواباً على هذا الإيراد: «تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني» أي: أن الحق الذي يقع في خبر الكاهن، يكون مما خطفه الجني، الذي هو

---

(١) «كليات أبي البقاء» (٤/ ١٢٩).

(٢) «الفتح» مع بعض التصرف (١٠/ ٢١٧).

الشيطان مسترق السمع، من الملائكة الذين يكونون في السحاب، فيتحدثون بينهم فيما أوحاه الله إليهم، فيخطف الجني الكلمة منهم.

«فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة» أي: يرددها مثل ترديد الدجاجة صوتها، بترجيع، وزمزمة، ولهذا صارت أخبار الكهان كذلك.

وهو يرددها لتستقر في ذهنه ويحفظها، هذا إذا لم يصبه الشهاب، الذي يرسله الله عليه، فأحياناً يقتله الشهاب، وقد يذهب بعقله، وقد يسلم.

وسمى الكاهن ولياً للشيطان؛ لأنه يطيعه ويتولاه، أو أراد العموم في الكاهن والمنجم، والعراف، ونحوهم ممن يتولى الشياطين.

قال الخطابي: «بيَّن -ﷺ- أن إصابة الكاهن أحياناً، إنما هي لأن الجني يلقى إليه الكلمة، التي يسمعها استراقاً من الملائكة، فيزيد عليها أكاذيب، يقيسها على ما سمع، فربما أصاب نادراً، وخطؤه الغالب»[(١)].

«فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة» أي: الشياطين يخلطون مع الكلمة الواحدة من الحق، التي سمعوها من الملائكة، أكثر من مائة كذبة، ومع ذلك يصدقهم الناس، من أجل أنهم يصيبون في واحد من أخبارهم، البالغة أكثر من مائة، والباقي كله كذب، وهذا من العجائب، ومما يدل على حب النفوس للباطل، وإلا كيف يصدق، وهو إذا صدق مرة واحدة، كذب أكثر من مائة مرة؟!

قال الحافظ: «والذي يظهر لي من مراد البخاري: أن تلفظ المنافق بالقرآن كما يتلفظ به المؤمن، فتختلف تلاوتهما، والمتلو واحد، فلو كان المتلوُّ عَيْنَ التلاوة، لم يقع فيه تخالف، وكذلك الكاهن، في تلفظه بالكلمة من الوحي، التي يخبره بها الجني، مما يختطفه من الملك تلفظه بها، وتلفظ الجني مغاير لتلفظ الملك؛ فتفاوتا»[(٢)].

قلت: هذا بعض ما أراده البخاري -رحمه الله-، وتمامه: أن هذا التفاوت المذكور بينهم، يدل على أن التلفظ عمل لهم، وهم وأعمالهم مخلوقون، كما تقدم إيضاح ذلك، والله أعلم.

❑❑❑

---

(١) «الفتح» (١٠/ ٢٢٠).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٣٦).

١٨٦- قال: «حدثنا أبو النُّعمان، حدثنا مَهْديُّ بنُ مَيْمُون، سمعتُ محمدَ بنَ سِيرينَ يحدثُ، عن مَعْبَدِ بنِ سيرينَ، عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ -رَضيَ الله عنه- عن النبيِّ -ﷺ- قالَ: «يَخرُجُ ناسٌ من قِبَلِ المَشْرق، ويقرءُونَ القرآنَ، لا يجاوزُ تَراقِيَهُم، يَمْرُقُونَ منَ الدينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثم لا يعودونَ فيهِ حتى يعودَ السهمُ إلى فُوقِهِ».

قيلَ: ما سِيماهُمْ؟ قال: «سِيماهُمُ التَّحْلِيقُ -أو قال: التَّسْبِيدُ-».

هذا الحديث تقدم في باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وتقدم شرحه هناك، إلا أن هذه الرواية فيها ما ليس في تلك، فنبين ما لم يتقدم، فمن ذلك قوله: «يخرج ناس من قبل المشرق». المراد: مشرق المدينة، وهو العراق أو قربه، وقد خرجوا فيه كما هو معلوم، وقاتلهم علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه- وقتل معظمهم، ولكنهم لم يزل يخرج منهم طوائف، حتى صار لهم أسوأ الأثر على الأمة الإسلامية.

ومن ذلك قوله: «ثم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه» أي: المكان الذي خرج منها لَمَّا رمي به، ومعنى ذلك: أنهم لا يعودون إلى الإسلام أبداً، وهذا شأن أهل الأهواء، والبدع؛ لأنهم يرون أن ما هم عليه هو الحق، ومن عداهم فهو على الباطل، فهم الذين زين لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة.

وقوله: «سيماهم التحليق» أي: علامتهم أنهم يحلقون رؤوسهم. «والتسبيد»: هو التحليق، أو المبالغة فيه، وقيل: هو ترك غسل الشعر ودهنه، وقال الكرماني: هو: استئصال الشعر»[١].

وقد ذكروا، أن السلف لم يكونوا يحلقون رؤوسهم إلا في النسك، أو لحاجة.

ولا يلزم أن يكون الحلق علامة على الخوارج في جميع الأزمنة، فإن عادات الناس تتغير، وتختلف.

والمراد من الحديث: أن قراءة هؤلاء لا تجاوز تراقيهم، والتَّرْقوة: هي العظم الناتيء في أعلى الصدر، وأسفل الرقبة، ولكل واحد ترقوتان.

(١) انظر شرحه (٢٥/٢٤٨).

والمعنى: أن القرآن لا يصل إلى قلوبهم، فلا يفقهونه، ولا يؤثر فيهم، مع أنهم يحفظونه، ويتلونه، فتلاوتهم لا تنفعهم، بخلاف المؤمنين المتقين، فإنهم إذا تلوا آيات الله زادتهم إيماناً، فهم يزدادون إيماناً بعملهم، ثم يجزيهم الله على ذلك أفضل الجزاء؛ لأن ذلك عملهم، أما المذكورون في هذا الحديث، فلم ينتفعوا بفهم كتاب الله، فيدخل الإيمان في قلوبهم، وإنما يتلونه بألسنتهم ولا يصل إلى القلوب، فلم يتأثروا بآيات الله تقى، ولا علماً، ولا إيماناً، فعملهم مردود؛ لأنه لا أثر له في نفوسهم، فلم يمتثلوا أمر الله وما أريد منهم، ولم ينتفعوا بعملهم، وهذا يدل على أن التلاوة التي انتفع بها المتقون، ولم تنفع هؤلاء، أنها عملهم الذي يجزون عليه، وأعمالهم مخلوقة لله من سائر المخلوقات، وهذا المطلوب.

□□□

قالَ: «بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾وأن أعمالَ بني آدمَ وقَوْلَهُمْ يُوزَنُ».

معنى وضع الموازين: إحضارها، والقسط: العدل.

قال الكرماني: «القسط: مصدر يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع، أي: الموازين العادلات. وجمع باعتبار العباد، وأنواع الموزونات.

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: في يومها. وقال الزجاج: أي: نضع الموازين ذوات القسط، وفائدة ذلك إظهار العدل، والمبالغة في الإنصاف، والإلزام، قطعاً لأعذار العباد»[1].

وقال الخازن: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: «ذوات العدل، وصفها بذلك؛ لأن الميزان قد يكون مستقيماً، وقد يكون بخلافه، فبيَّن أن تلك الموازين تجري على حد العدل»[2].

«وقال الزجاج: المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، والقسط العدل، وهو مصدر يوصف به، يقال: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط»[3].

قال ابن كثير: «الأكثر على أنه ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة»[4].

قال الحافظ: «اختلف في ذكر الميزان بلفظ الجمع، هل المراد: أن لكل شخص ميزاناً، أو لكل عمل ميزان؟ فيكون الجمع على ظاهره، أو ليس هناك إلا ميزان واحد، والجمع باعتبار تعدد الأعمال، والأشخاص؟

والـذي يترجح، أنه ميزان واحد، ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله؛ لأن أحوال يوم القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا»[5].

---

(١) «شرح الكرماني» (٢٥/٢٤٨).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٩٦).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥٣٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٩).

(٥) «الفتح» (١٣/ ٥٣٧-٥٣٨).

«قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان، وكفتان، ويميل بالأعمال.

وأنكرت المعتزلة الميزان. وقالوا: هو عبارة عن العدل.

فخالفوا الكتاب، والسنة؛ لأن الله -تعالى- أخبر أنه يضع الموازين، لوزن الأعمال؛ ليرى العباد أعمالهم ممثلة، ليكونوا على أنفسهم شاهدين»[1].

قلت: وإنكار المعتزلة ونحوهم للميزان، وأن الأعمال توزن يوم القيامة، هو سبب النص، على وجوب الإيمان به، في عقائد أهل السنة، وإلا فهو من جملة ما اشتمل عليه اليوم الآخر، والإيمان به ركن من أركان الإيمان، لا يتم لأحد إيمان إلا به.

قوله: **«وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن»** يعني: أن كل ما يصدر من بني آدم، ويترتب عليه الجزاء، فهو يوزن؟ لأنهم متعبدون لله مكلفون بما أراده منهم، فراقبهم الله على ذلك، فإذا حضروا لديه يوم القيامة، جازاهم أتم الجزاء، وأظهر عدله في حكمه عليهم، حتى يعذروا من أنفسهم.

ومراد البخاري -رحمه الله- أن أعمال بني آدم وأقوالهم، مخلوقة لله -تعالى-؛ فلهذا توزن، فيجازون عليها، ومن ذلك قراءتهم القرآن، وذكرهم لله -تعالى- بالتسبيح والتحميد والتهليل، كما يأتي في الحديث.

قال ابن المنير: «جمع البخاري في هذه الترجمة بين فوائد:

منها: وصف الأعمال بالوزن.

ومنها: إدراج الكلام في الأعمال، لأنه لما وصف الكلمتين بالخفة على اللسان والثقل في الميزان، دل أن الكلام عمل يوزن.

ومنها: أنه ختم كتابه بهذا التسبيح، وقد ورد في الحديث ما يدل على استحباب ختم المجالس بالتسبيح، وأنه كفارة لما لعله يتفق في أثناء الكلام، مما ينبغي هجره، وهذا نظير كونه بدأ كتابه بحديث «الأعمال بالنيات»، فكأنه تأدب في فاتحته وخاتمته، بآداب السنة والحق.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٣٨).

فالأدب في الابتداء: إخلاص القصد والنية، وفي الانتهاء: مراقبة الخواطر ومناقشة النفس على الماضي، والاعتماد في تكفير ما لعله يحتاج إلى تكفير، بما جعله الشرع مكفراً للهفوات[1].

قال الحافظ: «الظاهر أن أعمال بني آدم وأقوالهم كلها توزن، لكن خص من ذلك طائفتان:

الأولى: الكفار الذين ليس لهم حسنات، فهم يقعون في النار من غير حساب ولا ميزان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾[2].

الثانية: المؤمنون الذين لا سيئات لهم، ولهم حسنات كثيرة، فهم يدخلون الجنة بغير حساب، كما في حديث السبعين ألفاً، وهم الذين يمرون على الصراط كالبرق الخاطف، أو كلمح البصر، أو كالريح[3].

قولُهُ: «وقالَ مُجاهِدٌ: القُسْطَاسُ: العَدْلُ، بالرُّومِيَّةِ».

يعني: أن هذه عرِّبت فصارت عربية، وأنكر بعض العلماء أن يكون في القرآن شيء من غير العربية، وهذا حق؛ لأن ما عُرِّب، وأدخل في اللغة، يكون منها.

قال الإمام الطبري: «كل ما ذكر عن أهل التفسير من الكلمات، أنها بلسان الحبشة، أو الروم، أو الفرس، أو غيرهم، معناه: اتفاق اللسانين فيها»[4].

«ويقالُ: القِسْطُ: مَصْدَرُ المُقْسِطِ، وهو العادلُ».

قال الأزهري: «قال الليث: **القِسْط** بكسر القاف: العدل، والفعل منه: أقسط، بالألف.

والقَسْط: بفتح القاف: الجور. يقال: قَسَطَ يَقْسِطُ قَسَطاً، وقُسُوطاً.

والقِسْط بكسر القاف: النصيب، وقال الله -تعالى-: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾، قال الفراء: هم الجائرون، الكفار.

---

(١) «المتواري» (ص ٤٣٢-٤٣٣).

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الكهف.

(٣) «الفتح» (١٣/ ٥٣٨).

(٤) انظر مقدمة تفسيره.

وأما المقسطون: [فهم] العادلون، المسلمون»[1].

قال الحافظ: «وقد اعترض على البخاري في قوله: «**القسط مصدر المقسط**»؛ لأن مصدر المقسط: الإقساط، قال ابن بطال، والكرماني: إنه أراد بالمصدر ما حذفت زوائده كقول الشاعر: وإن أهلك فذلك قدري.

يقصد: تقديري، فرد إلى أصله»[2].

وقيل: إن قسط من الأضداد، أي: يأتي للعدل، وللجور.

«وأمَّا القاسِطُ فهو الجائِرُ».

تقدم كلام الفراء فيه.

□□□

---

(١) «تهذيب اللغة» (٨/ ٣٨٨)، وانظر «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٩٣).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٤٠).

١٨٧- قال: «حدثنا أحمدُ بنُ إشْكابٍ، حدثنا محمَّدُ بنُ فُضَيْلٍ عن عُمَارةَ بنِ القَعْقَاعِ، عن أبي زُرْعَةَ، عن أبي هريرةَ -رضيَ الله عنه- قالَ: قالَ النبيُّ -ﷺ-: «كلمتانِ حبيبتانِ إلى الرحمنِ، خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، سبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ، سُبحانَ اللهِ العظيمِ».

والمراد بالكلمتين: الجملتان، «فسبحان الله وبحمده» جملة تامة، و «**سبحان الله العظيم**» كذلك، ففيه إطلاق الكلمة على الكلام، وهو كثير.

وقوله: «**حبيبتان إلى الرحمن**» فيه: أن الله تعالى يحب بعض الكلام، وبعض العمل أكثر من غيره، ومحبة الله من صفاته، التي يجب أن تثبت له، على ما يليق بعظمته، ولا يجوز تأويل محبته، وتحريف الكلم فيها عن مواضعه، كفعل أهل البدع.

وقد مضى القول في ذلك.

«خفيفتان على اللسان» أي: عند النطق بهما لا تثقلان اللسان ولا تكلفه؛ لسهولة حروفهما، وخفتهما على اللسان، مع ما فيهما من الثواب العظيم، ومحبة الرحمن -جل وعز- لهما، فخليق بالعبد أن يكثر منهما، وهذا يوضح مراد المؤلف -رحمه الله- وهو: أن تكلم العبد، وتلفظه، ونطقه بالكلام، من عمله الذي يجزى عليه، وعمله كله مخلوق، مع أنه لا يجوز أن يقال: إن هاتين الكلمتين: «**سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**» أنهما مخلوقتان، وإنما المخلوق فعل العبد وعمله، وكذا تلاوة التالي، هي فعله وعمله، يجازى عليها، وتوضع في الميزان، أما المتلو، فهو كتاب الله وكلامه، وهو غير مخلوق.

فهاتان الكلمتان توزنان، ويثقل بهما الميزان، وهذا دليل واضح، على أن تكلم العبد بالذكر وبالقرآن، عمل له يثاب عليه، ويوضع في ميزانه، ليعطيه الله أجره عليه وافراً غير منقوص، ونحن نردد هذا المعنى ونكرره؛ لأن المؤلف -رحمه الله- صنع ذلك، كما سبق أن ذكرناه.

وقد أجمع السلف على أن أعمال العباد مخلوقة، كما سبق، وهذا هو المقصود من الحديث الذي أراده المؤلف؛ لأن ما يوضع في الميزان فهو مخلوق؛ لأنه من عمل العبد، وما يتلمس من مقاصد غير هذا، هي تابعة لهذا، وليست مقصودة لذاتها.

قوله: «ثقيلتان في الميزان» قال الحافظ: «هو موضع الترجمة؛ لأنه مطابق لقوله: «وأن أعمال بني آدم توزن»[1]، وما يوزن، فهو عمل للعبد وهو مخلوق.

«سبحان الله وبحمده» قال الأزهري: «قال الليث: سبحان الله، تنزيه لله، عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به [ونصب على المصدر]، تقول: سبحت الله تسبيحاً، أي: نزهته تنزيهاً، وكذلك روي عن النبي -ﷺ-.

قال الزجاج: «سبحان» في اللغة: تنزيه لله -عز وجل- عن السوء.

قلت: وهذا قول سيبويه. يقال: سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً، بمعنى واحد، فالمصدر «تسبيح»، والاسم «سبحان» يقوم مقام المصدر.

قلت: ومعنى تنزيه الله من السوء: تبعيده منه، وكذلك تسبيحه: تبعيده، من قولك: سبحت في الأرض: إذا أبعدت فيها. ومنه قوله -جل وعز-: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ هي: النجوم تسبح في الفلك، أي تذهب فيه بسطاً، كما يسبح السابح في الماء.

وكذلك السابح من الخيل، يمد يديه في الجري سبحاً، كما يسبح السابح في الماء. وجماع معناه: بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد، أو ند»[2].

وقال الحافظ: «معنى التسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص.

فيلزم نفي الشريك، والصاحبة، والولد، وجميع الرذائل، ويطلق التسبيح، ويراد به جميع ألفاظ الذكر.

ويطلق، ويراد به صلاة النافلة. و «سبحان»: اسم مصدر منصوب على أنه واقع موقع المصدر، لفعل محذوف، تقديره: سبحت الله سبحاناً، كسبحت الله تسبيحاً، ولا يستعمل غالباً إلا مضافاً»[3].

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٤٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) «الفتح» (١١/ ٢٠٦).

قوله: «وبحمده». قيل: الواو للحال، والتقدير: أسبح الله متلبساً بحمدي له، من أجل توفيقه. وقيل: عاطفة، والتقدير: أسبح الله، وأتلبس بحمده، ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم، والتقدير: وأثني عليه بحمده، فتكون «سبحان الله» جملة مستقلة، «وبحمده» جملة أخرى.

قال الخطابي في حديث: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي: بقوتك التي هي نعمة، توجب عليّ حمدك، سبحتك، لا بحولي، وقوتي»[1].

قوله: «سبحان الله العظيم» أعاد التسبيح للتكرير والمبالغة في تنزيهه تعالى، والإكثار من ذكره تعالى، وهو من أفضل الأعمال.

ووصفه بالعظمة؛ ليستحضر أنه أهل التسبيح ومستحقه دائماً، وأن العبد لن يؤدي حقه، مهما أكثر من تسبيحه، وعبادته.

«قال ابن بطال: هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر، إنما هي لأهل الشرف في الدين، والكمال، كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام، فلا تظن أن من أدمن الذكر، وأصر على ما شاءه من شهواته، وانتهك دين الله -تعالى- وحرماته، أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين، ويبلغ منازلهم، بكلام أجراه على لسانه، ليس معه تقوى، ولا عمل صالح»[2].

قال الكرماني: «هذا الكلام من جوامع الكلم، وفيه امتثال لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وتفسير له، ولما كان ذلك مندوباً إليه، عند أواخر المجالس، جعل البخاري -رحمه الله تعالى كتابه كمجلس علم؛ فختم به.

وذكر هذا الباب هنا ليس مقصوداً بالذات، بل هو لإرادة أن يكون آخر كلامه تسبيحاً وتحميداً»[3].

قلت: بل الظاهر: أنه مقصود بالذات، مع ما أشار إليه الكرماني، وتقدم بيان ذلك.

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٤١).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٤١).

(٣) «شرح الكرماني» (٢٥/ ٢٥١).

قال الحافظ نقلاً عن شيخه البلقيني: «لما كان أصل العصمة أولاً وآخراً، هو توحيد الله -تعالى- ختم بكتاب التوحيد، وكان آخر الأمور التي يظهر بها المفلح من الخاسر: ثقل الموازين وخفتها، جعله آخر تراجم الكتاب، فبدأ بحديث: «إنما الأعمال بالنيات» وذلك في الدنيا، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها، ما كان بالنية الخالصة لله -تعالى-.

وفي الحديث الذي ذكره، ترغيب وتخفيف، وحث على الذكر المذكور، لمحبة الرحمن له.

والخفة بالنسبة لما يتعلق بالفعل، والثقل بالنسبة لإظهار الثواب.

وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم، وهو أن حب الرب سابق، وذكر العبد، وخفة الذكر على لسانه تالٍ، ثم بيّن ما فيها من الثواب العظيم، النافع يوم القيامة» انتهى[1].

قال الحافظ: «والذي يظهر: أنه قصد ختم كتابه بما دل على وزن الأعمال؛ لأنه آخر آثار التكليف، فإنه ليس بعد الوزن، إلا الاستقرار في إحدى الدارين، إلى أن يريد الله -تعالى- إخراج من قضى بتعذيبه من الموحدين، فيخرجون من النار بالشفاعة، كما تقدم.

قال الكرماني: وأشار أيضاً، إلى أنه وضع كتابه قسطاساً، وميزاناً يرجع إليه، وأنه سهل على من يسره الله -تعالى- عليه.

وفيه إشعار، بما كان عليه المؤلف في حالتيه، أولاً وآخراً، تقبل الله -تعالى- منه، وجزاه أفضل الجزاء»[2].

قلت: كل هذه الأمور، إن كانت مقصودة للبخاري -رحمه الله تعالى- فإنها جاءت تبعاً لما ذكر، من أن مراده: بيان خلق أفعال العباد، وأصواتهم وكلامهم، فإنها توزن، فيجازون عليها، وأن تلفظهم بالقرآن، والذكر والتسبيح، من أعمالهم، والعباد وأعمالهم من مخلوقات الله -تعالى- فإنه خالق كل شيء. والله أعلم،

(١) «الفتح» (١٣/ ٥٤٢).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٥٤٢).

وصلَّى الله وسلَّمَ على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين.

انتهيت من تسويده بعد العصر، من يوم الأحد، الموافق التاسع، من الحادي عشر، من سنة سبع وأربعمائة وألف ٩/ ١١/ ١٤٠٧هـ.

وانتهيت من تبييضه، صبح يوم السبت، الموافق السابع، من الشهر الرابع، من سنة ثمان وأربعمائة وألف ٧/ ٤/ ١٤٠٨هـ،
وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١ - فهرس الآيات، التي استدل بها البخاري

عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ الآية ٤٧ من سورة الأنبياء. ٦٣٨

٢- الأحاديث المشروحة، التي استدل بها البخاري على ترتيب الكتاب

٣- فهرس الأبواب، حسب ترتيب البخاري -رحمه الله-

٤- فهرس بأهم المراجع للشرح

١- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، للإمام ابن قيم الجوزية، المطبعة المنيرية، بتصحيح الشيخ عبدالله بن حسن وإبراهيم الشورى، عام ١٣٥١هـ.

٢- إرشاد الساري، المجلد العاشر منه، وهو شرح القسطلاني على البخاري، صورته دار الفكر في بيروت عن الطبعة السادسة، مطبعة بولاق عام ١٣٠٦هـ.

٣- الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤هـ.

٤- إيثار الحق على الخلق، لأبي عبدالله محمد بن المرتضى اليماني، صورته دار الكتب العلمية في بيروت عن الطبعة الأولى.

٥- الاستيعاب، لأبي عمر ابن عبدالبر، تحقيق البجاوي.

٦- الإصابة، للحافظ ابن حجر، تحقيق البجاوي.

٧- بدائع الفوائد، لابن القيم، الطبعة المنيرية.

٨- بيان تلبيس الجهمية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة السعودية في مكة المكرمة عام ١٣٩١هـ.

٩- التمهيد شرح الموطأ، لابن عبد البر، المجلد السابع، طبعة المغرب.

١٠- التمهيد في علم الكلام، للباقلاني.

١١- تفسير البغوي: «معالم التنزيل» على هامش تفسير الخازن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، عام ١٣٧٥هـ.

١٢- تفسير ابن كثير، تحقيق عبدالعزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البنا، مطبعة الشعب بمصر.

١٣- تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المعارف بمصر.

١٤- تفسير الطبري، مطبعة الحلبي، الطبعة الثالثة، عام ١٣٨٨هـ.

١٥- تفسير أسماء الله الحسنى، للزجاج.

١٦- تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، تصوير دار الكتب العلمية في بيروت عن الطبعة المنيرية.

١٧- تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق عبدالسلام محمد هارون.

١٨- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبدالبر، نشرته المكتبة العلمية بالمدينة عن المطبعة المنيرية.

١٩- جلاء الأفهام، لابن القيم، المطبعة المنيرية، عام ١٣٥٧هـ.

٢٠- حادي الأرواح، لابن القيم.

٢١- الحيدة في الرد على المعتزلة، لعبد العزيز الكناني، مطابع القصيم في الرياض.

٢٢- خلق أفعال العباد، للبخاري، ضمن مجموعة عقائد السلف، نشره علي سامي النشار، وعمار جمعي الطالبي.

٢٣- درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤هـ.

٢٤- الأذكار، للنووي، تحقيق محمد رضا خورشيد.

٢٥- الروح، لابن القيم، مطبعة محمد صبيح، الطبعة الثانية عام ١٣٧٦هـ.

٢٦- رد الإمام أحمد على الزنادقة والجهمية، ضمن مجموعة عقائد السلف، نشر:

علي سامي النشار وزميله.

٢٧- زاد المسير لابن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي.

٢٨- الأسماء والصفات، للبيهقي.

٢٩- السنة، لعبدالله ابن الإمام أحمد، مطبعة الحكومة السعودية في مكة.

٣٠- السنة، لابن أبي عاصم، تحقيق وتخريج الألباني.

٣١- سنن أبي داود، إعداد عزت عبيد الدعاس.

٣٢- سنن الترمذي، نشر المكتبة السلفية في المدينة.

٣٣- سنن النسائي «المجتبى» الطبعة الأولى، المطبعة المصرية في الأزهر.

٣٤- سنن ابن ماجة، رقم أحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي.

٣٥- شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان.

٣٦- شرح الطحاوية، لابن أبي العز، الطبعة الثالثة.

٣٧- شرح الكرماني على البخاري، صورة عن الطبعة الأولى، دار إحياء التراث ببيروت.

٣٨- شرح مسلم، للنووي، المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩هـ.

٣٩- شرح العمدة [إحكام الأحكام] لابن دقيق العيد، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة أنصار السنة.

٤٠- شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري، للنووي.

٤١- الصحاح للجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، الطبعة الثانية.

٤٢- صحيح مسلم، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

٤٣- طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، مطبعة أنصار السنة.

٤٤- عدة الصابرين، لابن قيم الجوزية.

٤٥- غريب الحديث، لأبي عبيد، طبعة حيدر آباد.

٤٦- غريب الحديث للخطابي، تحقيق عبدالكريم إبراهيم الغزناوي، من منشورات مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى، سنة ١٤٠٢هـ.

٤٧- فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية.

٤٨- القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروز آبادي، مطبعة السعادة بمصر.

٤٩- كتاب التوحيد، للإمام ابن خزيمة، تحقيق الهراس.

٥٠- مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن ابن قاسم، طبعة الرياض.

٥١- مسند الإمام أحمد، صورة المكتب الإسلامي عن الطبعة الأولى في مصر.

٥٢- مسند الإمام أحمد، تحقيق وشرح أحمد شاكر (١٦ جزءاً، ولم يكمل)، مطبعة المعارف بمصر.

٥٣- مشارق الأنوار، للقاضي عياض، صورته دار الجيل عن الطبعة الأولى بمصر، سنة ١٣٣٣هـ.

٥٤- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي.

٥٥- منهاج السنة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة بولاق.

٥٦- منهاج السنة، الجزء الأول والثاني، تحقيق محمد رشاد سالم.

٥٧- المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، مصور عن ثلاث نسخ مخطوطة، ومطبوع

في بيروت.

٥٨- موطأ الإمام مالك، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي.

٥٩- نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي، ضمن مجموعة عقائد السلف سابقة الذكر.

٦٠- النبوات، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الطبعة المنيرية عام ١٣٤٦ هـ.

٤- فهرس الموضوعات والفوائد